

تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُون

المُسَمَّى

وَيُؤَلِّقُ اللَّيْلُ تَدَارُجُ الْخَبَرِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ
وَمِنْ عَاهِرِهِمْ مَنْ ذَوَى السَّائِغِ الْأَكْبَرِ

تَأَلِيفُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُون

٧٣٢-٨٠٨ هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦ م

مراجعة الدكتور

سهيل زكار

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس

الأستاذ خليل شحادة

طبعة مُسْتَكْمَلَةٌ وَمُقَارَنَةٌ مَعَ عِدَّةٍ نَسَخَ
وَمَخْطُوطَاتٍ وَمُذَيَّلَةٌ بِحَوَاشِيٍّ وَشُرُوحٍ وَتَمْتَازُ
بِفَهَارِسَ لِلْمَوْضُوعَاتِ وَالْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ الْجُغْرَافِيَّةِ

الجزء السادس

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

جميع حقوق إعادة الطبع محفوظة للناشر

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا: فكيك - صرب: ١١/٧٠٦١

تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣

فاكس: ٥٥٩٩٠٤ - ٩٦١١٠٠



الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشئ
لهذا العهد من بقية أهل الدولة الإسلامية من العرب

لما استقلت مُضَر وفرسانها وأنصارها من اليمن بالدولة الإسلامية ، فيمن تبع دينهم من
إخوانهم ربيعة ومن وافقهم من الأحياء اليمنية ، وغلبوا الملل والأُمم على أمورهم ،
وانتزعوا الأمصار من أيديهم ، وانقلبت أحوالهم من خشونة البداوة وسذاجة الخلافة
إلى عز الملك وترف الحضارة ، ففارقوا الحِلل وافترقوا على الثغور البعيدة والأقطار
البائنة عن ممالك الإسلام ، فترلوا بها حامية ومرابطين عُصَباً وفُرادى . وتناقل الملُك
من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت ، واستفحل ملكهم في دولة بني أمية وبني
العبّاس من بعدهم بالعراق ، ثم دولة بني أمية الأخرى بالأندلس ، وبلغوا من الترف
والبدخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم ، فانقسموا في الدنيا ونبتت
أجياهم في ماء النعيم ، واستأثروا مهاد الدِّعة واستطابوا خفض العيش ، وطال نومهم
في ظلّ الغرف والسلم ، حتى ألفوا الحضارة ونسوا عهد البادية وانفلتت من أيديهم
الملَكَةُ التي نالوا بها الملك ، وغلبوا الأُمم من خشونة الدين وبداوة الأخلاق ،
ومضاء المضرب .

فاستوت الحامية والرعية لولا الثقافة ، وتشابه الجند والحضر إلا في الشارة . وأنف السلطان من المساهمة في المجد والمشاركة في النسب ، فجدعوا أنوف المتطاولين إليه من أعياصهم وعشائريهم ووجوه قبائلهم ، وغضّوا من عنان طموحهم ، واتخذوا البطانة مقرّهم من موالي الأعمام وصنائع الدولة ، حتى كثروا بهم قبيلتهم من العرب الذين أقاموا الدولة ، ونصروا الملة ودعموا الخلافة ، وأذاقوهم وبال الخِلافة من القهر ، وساموهم خطّة الخسف والذلّ ، فأنسوهم ذكر المجد وحلاوة العزّ ، وسلبوهم نصرة العصيّة حتى صاروا أجراء على الحامية ، وخوّلوا لمن استعبدتهم من الخاصّة وأوزاعا متفرّقين بين الأمّة ، وصيّروا لغيرهم الحلّ والعقد والإبرام ، والنقض من الموالي والصنائع ، فداخلتهم أريحية العزّ وحدثوا أنفسهم بالملك ، فجحدوا الخلفاء وقعدوا بدست الأمر والنهي . واندرج العرب أهل الحامية في القهر واختلطوا بالهمّج ، ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها ، ولا تذكّروا عهد الأنساب لدروسها . فدرثوا وتلاشوا شأن من قبلهم وبعدهم ، سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(وكان المولدون) لتمهيد قواعد الأمر ، وبناء أساسه من أوّل الإسلام والدين والخلافة من بعده ، والملك ، قبائل من العرب موفورة العدد عزيزة الأحياء . فنصروا الإيمان والملة ، ووطّدوا أكناف الخلافة ، وفتحوا الأمصار والأقاليم ، وغلبوا عليها الأمم والدول . أمّا من مُضّر : ففريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتميم وغطفان وسليم وهوزان ، وبطونها من ثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ومن إليهم من الشعوب والبطون والأفخاذ والعشائر والخلفاء والموالي . وأمّا من ربيعة : فبنو ثعلب بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بني شكر وبني حنيفة وبني عجل وبني ذهل وبني شيبان وتيم الله . ثم بنو النمر من قاسط ، ثم عبد القيس ومن إليهم . وأمّا من اليمنية ثم من كهلان بن سبأ منهم : فأنصار الله الخرج والأوس إينا قيلة من شعوب غسّان وسائر قبال الأزد ، ثم همدان وخثعم وبجيلة ، ثم مذحج وكافة بطونها من عبس ومراد وزبيد والنّخع والأشعريّين وبني الحرث بن كعب ، ثم لحي وبطونها ولخم وبطونها ، ثم كندة وملوكها .

والشام والحجاز والعراق وكرمان ، كما كان سلفهم من ربيعة ومضر وكهلان في الجاهلية . وعتوا وكثروا وانقرض المُلْك العربي الإسلامي . وطرق الدول الهرم الذي هو شأنها واعتز بعض أهل هذا الجليل غرباً وشرقاً فاستعملتهم الدول وولّوهم الإمارة على أحيائهم وأقطعوهم في الضاحية والأمصار والتلول وأصبحوا جيلاً في العالم ناشئاً ، كثروا سائر أهله من العجم . ولهم في تلك الإمارة دول ، فاستحقوا أن تذكر أخبارهم ، وتلحق بالأحياء من العرب سلفهم . ثم إن اللسان المُضْري الذي وقع به الإعجاز ونزل به القرآن فتوى فيهم وتبدّل إعرابه فمالوا إلى العجمة . وإن كانت الأوضاع في أصلها صحيحة ، واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أجل الإعراب ، فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة .

(فلنذكر الآن) بقية هؤلاء الشعوب من هذه الطبقة في المغرب والمشرق ونخصّ منهم الأحياء الناجعة والأقدار النابهة ، ونلغي المندرجين في غيرهم . ثم نرجع إلى ذكر المنتقلين من هذه الطبقة إلى أفريقية والمغرب فستوعب أخبارهم لأن العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن ، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هنالك ، فكانت أخبارهم من أخبارها ، فلذلك استوعبناها . وأمّا آخر مواطن العرب فكانت برقة ، وكان فيها بنو قرة بن هلال بن عامر . وكان لهم في دول العبيديّين أخبار ، وحكايتهم في الثورة أيام الحاكم والبيعة لأبي ركة من بني أميّة في الأندلس معروفة ، وقد أشرنا إليها في دولة العبيديّين .

ولما أجاز بنو هلال وسليم إلى المغرب خالطوهم في تلك المواطن ، ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب كما نذكره في دخول العرب إلى أفريقية والمغرب . وبقي في مواطنهم ببرقة لهذا العهد أحياء بني جعفر ، وكان شيخهم أواسط هذه المائة الثامنة أبو ذئب وأخوه حامد ابن حميد^(١) . وهم ينسبون في المغرب^(٢) تارة في الغزّة ويزعمون أنهم من بني كعب ابن سليم ، وتارة في الهيب كذلك ، وتارة في فزارة ، والصحيح في نسبهم أنهم من مسراته إحدى بطون هواره سمعته من كثير من نسايتهم ، وبعدهم فيما بين برقة والعقبة الكبيرة أولاد سلام ، وما بين العقبة الكبيرة والإسكندرية أولاد مقدّم وهم بطنان :

(١) قوله حميد وفي نسخة أخرى حميد وفي نسخة ثانية كليل بضم الكاف وفتح الميم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ينسبون في العرب .

أولاد التركية وأولاد قائد . ومقدّم وسلام معاً ينسبون إلى لبيد ، فبعضهم يقول لبيد بن لعتة^(١) بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر وبعضهم يقول في مقدّم : مقدّم بن عزاز بن كعب بن سليم .

(وذكر لي سلام) شيخ أولاد التركية : أن أولاد مقدّم من ربيعة بن نزار ، ومع هؤلاء الأحياء حتى محارب يتمون بآل جعفر . ويقال إنهم من جعفر بن كلاب ، وهي راحة يتمون بآل زبيد ، ويقال من جعفر أيضاً . والناجعة من هؤلاء الأحياء كلّهم يتمون في شأنهم إلى الواحات من بلاد القبلة . (وقال ابن سعيد) ومن غطفان في بركة مهيب ورواحة وفزارة ، فجعل هؤلاء من غطفان والله أعلم بصحة ذلك .

(وفيا بين الإسكندرية ومصر) قبائل رحالة يتقلون في نواحي البحيرة هنالك ، ويعمّرون أرضها بالسكنى والفلح ، ويخرجون في المشاتي إلى نواحي العقبة وبرقة من مراية وحوارة^(٢) وزنارة^(٣) إحدى بطون لواته ، وعليهم مغارم الفلح . ويندرج فيهم أخلاط من العرب والبربر لا يحصون كثرة . وبنواحي الصغير قبائل من العرب من بني هلال وبني كلاب من ربيعة . وهؤلاء أحياء كثيرة ويركبون الخيل ، ويحملون السلاح ، ويعمّرون الأرض بالفلاحة ويقومون بالخراج للسلطان . وبينهم مع ذلك من الحروب والفتن ما ليس يكون بين أحياء القفر .

(وبالصعيد) الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعدّدة وأحياء متفرّقة ، كلّهم من جهيّة إحدى بطون قضاة ، ملؤا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم ، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها . والذين يلون أسوان هم يعرفون بأولاد الكتر ، كان جدّهم كتر الدولة ، وله مقامات مع الدول المذكورة ، ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة ، وأخرجوهم منها ، فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة ، ويحترفون في غالب أحوالهم بالتجارة .

(١) وفي نسخة ثانية : هينة .

(٢) وفي نسخة ثانية : مزانت وهوارة . ولعلها مزانة كما في كتاب قبائل المغرب ص ٣٠٤ .

(٣) لم نجد لها في ذكر قبائل الغرب وبتون لواته : زاير وكطوط وماصل وفاصل ونبطط (قبائل المغرب ص ٣٠٤) .

(وينواحي مصر) من جهة القبلة إلى عقبة أيلة أحياء جذام جمهورهم من العائد^(١) وعليهم درك السابلة بتلك الناحية . ولهم على ذلك الأقطاع والعوائد من السلطان . ويليه من جهة الشرق بالكرك ونواحيها أحياء بني عقبة من جذام أيضاً ، ورحالة ناجعة تنتهي رحلتهم إلى المدينة النبوية . وعليهم درك السابلة فيما يليهم . وفيما وراء عقبة أيلة إلى القلزم قبائل من قضاة ومن القلزم إلى الينبع ، مع قبائل من جهينة . ومن الينبع إلى بدر ونواحيه من زبيد إحدى بطون مذحج ، ولهم الأمراء بمكة من بني حسن حلف ومواخاة . وفيما بين مكة والمهجم مما يلي اليمن قبائل بني شعبة من كنانة ، وفيما بين الكرك وغزة شرقاً قبائل جذام من قضاة في جموع وافرة ، ولهم أمراء أعزة يقطعهم السلطان على العسكر وحفظ السابلة ، وينجعون في المشاتي إلى معان وما يليها من أسافل نجد ، مما يلي تباء ، وبعدهم في أرض الشام بنو حارثة بن سنيس وآل مرء من ربيعة إخوة آل فضل الملوك على العرب في برية الشام والعراق ونجد . وأخبرني نضض أمراء حارثة بن سنيس عن بطون . فلنذكر الآن خبر أولاد فضل أمراء الشام والعراق من طيء فنبين^(٢) أعراب الشام جميعاً .

* (خبر آل فضل وبني مهنا منهم ودولتهم بالشام والعراق) *

هذا الحي من العرب يعرفون بآل فضل ، وهم رحالة ما بين الشام والجزيرة وبرية نجد من أرض الحجاز ، يتقلون هكذا بينها في الرحلتين^(٣) وينتهون في طيء ومعهم أحياء من زبيد وكتب وهزيم ومذحج أحلاف لهم باين بعضهم^(٤) في الغلب والعدد آل مرء . ويزعمون أن فضلاً ومراء آل ربيعة ، ويزعمون أيضاً أن فضلاً ينقسم ولده بين آل مهنا وآل علي ، وأن آل فضل كلهم كانوا بأرض حوران فعليهم عليها آل مرء وأخرجوهم منها ، فترلوا حمص ونواحيها ، وأقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم

(١) وفي نسخة ثانية من العابد .

(٢) وفي نسخة ثانية : فيهم يتبين حال أعراب الشام جميعاً .

(٣) أي رحلة الشتاء والصيف .

(٤) وفي النسخة التونسية ويناھضهم في الغلب .

بها حتى الآن لا يفارقونها . قالوا : ثم اتصل آل فضل باللد^(١) من السلطنة وولّوهم على أحياء العرب وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق ، فاستظهروا برياستهم على آل مرء ، وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى ، لا ينجعون إلى البرية إلا في الأقل .

وكانت معهم أحياء من أقاريق الأعراب يندرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد كما كان لآل فضل . إلا أن أكثر من كان من آل مرء أولئك الأحياء وأوفرهم عدداً بنو حارثة من إحدى سنى بطون طيء^(٢) هكذا ذكر الثقة عنهم من رجالاتهم . وحارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى القفار . ومواطن طيء بنجد قد اتسعت ، وكانوا أول خروجهم من اليمن نزلوا جبلي أجا وسلمى ، وغلبوا عليهما بني أسد وجاوروهم . وكان لهم من المواطن سمراء وميد^(٣) من منازل الحاج . ثم انقرض بنو أسد وورث طيء بلادهم فيما وراء الكرخ من أرض غفرو^(٤) وكذلك ورثوا منازل تميم بأرض نجد فيما بين البصرة والكوفة واليمامة . وكذلك ورثوا غطفان ببطن مما يلي وادي القرى .

هكذا قال ابن سعيد . وقال : أشهر الحجازيين منهم الآن بنو لام وبنو نهران والصولة بالحجاز لبني لام بين المدينة والعراق ، ولهم حلف مع بني الحسين أمراء المدينة . قال : وبنو صخر منهم في جهة تيماء بين الشام وخيبر . قال : وغربة من طيء بنو غربة^(٥) بن أفلت بن معبد بن عمر بن عنبس بن سلامان ، ومن بعد بلادهم حي الأنمر والأساور^(٦) ورثوها من عترة . ومنازلهم لهذا العهد في مصايفهم بالكليات^(٧) وفي مشاتهم مع بني لام من طيء . وهم أهل غارة وصولة بين الشام والعراق . ومن بطونهم الأجود والبطنين وإخوانهم زبيد نازلون بالموصل ، فقد جعل ابن سعيد : زبيد هؤلاء من بطون طيء ، ولم يجعلهم من مذحج . رئاسة آل فضل في هذا العهد في

(١) بياض بالأصل وفي النسخة التونسية : « ثم اتصل آل فضل بالدول السلطانية » .

(٢) وفي النسخة التونسية : بنو حارثة بن عنبس إحدى شعوب طيء .

(٣) وفي نسخة ثانية قيد ، والميد من الشعوب الشرقية الفارسية (قبائل الغرب ص ٢٥٨) .

(٤) وفي النسخة التونسية : من أرض نجد .

(٥) وفي النسخة التونسية : وعزية من طيء بنو عزية .

(٦) وفي النسخة التونسية : سلامات بن بعل ، بلادهم عين التمر والأنبار .

(٧) وفي النسخة التونسية : بالكليات .

بني مهنا ، وينسبونه هكذا : كنا بن مايح بن مدسة بن عصىة^(١) بن فضل بن بدر بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن قصية بن بدر بن سميع . ويقفون عند سميع . ويقول زعمائهم أن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي . وحاشالله من هذه المقالة في الرشيد وأخته ، وفي بنات كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأمثالهم . ثم إن الموجود تميل رياسته مثل هؤلاء على هذا الحي إذا لم يكونوا من نسبهم . وقد تقدم مثل ذلك في مقدّمات الكتاب .

(وكان مبدأ رياستهم) من أول دولة بني يعقوب . قال العماد الأصهباني : نزل العادل بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة . وكانت الرياسة فيهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء . وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح . وكان من أقطاعه التي معه وهو الذي قبض على اسكى^(٢) مولى بني بويه لما انهزم مع مولاه بختيار بالعراق . وجاء إلى الشام سنة أربع وستين وثلثمائة وملك دمشق وزحف مع القرامطة لقتال العزيز بن المعز لدين الله صاحب مصر ، فهزمهم العزيز وهرب أفكين فلقية مفرج بن دغفل ، وجاء به إلى العزيز فأكرمه ورقاه في دولته . ولم يزل شأن مفرج هذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة . وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجرار . وولي حسان بعده وعظم صيته ، وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين معزة واستقامة ، وهو الذي هزم الرملة وهزم قائدهم باروق التركي وقتله وسبى نساءه ، وهو الذي مدحه التهامي . ويذكر المسمى وغيره أن موطنه دولة العبيديين^(٣) في قرابة حسان بن مفرج هذا فضل بن ربيعة بن حازم وأخوه بدر بن ربيعة وابننا بدر . ولعل فضلاً هذا هو جد آل فضل .

(قال ابن الأثير) إن فضل بن ربيعة بن حازم كان آبائهم أصحاب السقاء والبيت المقدس . وكان الفضل تارة مع الفرنج وتارة مع خلفاء مصر . ونكره لذلك طغركين أتاك دمشق وكافل بني تتش فطرده من الشام فترل على صدقة بن مزيد بالحلة وحالفه . ووصله صدقة بتسعة آلاف دينار . فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان

(١) وفي النسخة التونسية : مهنا بن مانع بن حديثه بن غصية .

(٢) وفي النسخة التونسية : وكان من أقطاعه الرحلة . وهو الذي قبض على أفكين مولى بني بويه .

(٣) وفي النسخة التونسية : ويذكر المسيحي وغيره من مؤرخي دولة العبيديين .

محمد بن ملكشاه سنة خمس مائة وما بعدها ، ووقعت بينهما الفتنة اجتمع له فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة ومسلم بن قريش صاحب الموصل وبعض أمراء التركمان ، كانوا كلهم أولياء صدقة ، فصار في الطلائع بين يدي الحرب ، وهربوا إلى السلطان فأكرمهم وخلع عليهم ، وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة بن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة ، واستأذنه فضل في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجرة صدقة فأذن له وعبر إلى الأنبار ، فلم يراجع السلطان بعدها اهـ كلام ابن الاثير .
ويظهر من كلامه وكلام المسيحي أن فضلاً هذا وبدراً من آل جراح بلا شك .
ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلاً هذا هو جدّهم لأنهم ينسبونه : فضل بن ربيعة بن الجراح . فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لبعد العهد وقلة المحافظة على مثل هذا من البادية القفر^(١) .

وأما نسبة هذا الحي من آل فضل بن ربيعة بن فلاح من مفرج في طيء ، فبعضهم يقول : إن الرياسة في طيء كانت لأياس بن قبيصة من بني سبأ بن عمرو بن الغوث من طيء ، وأياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر لما قتل النعمان بن المنذر ، وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن الحيرة على الجزية . ولم تزل الرياسة على طيء إلى بني قبيصة هؤلاء صدرأ من دولة الإسلام . فلعل بني الجراح وآل فضل هؤلاء من أعقابهم ، وإن كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليهم ، لأن الرياسة على الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العصبة والنسب كما مر أول الكتاب .

(وقال ابن حزم) عندما ذكر أنساب طيء وأنهم لما خرجوا من اليمن مع بني أسد نزلوا جبلي أجا وسلمى ، وأوطنوها وما بينهما ، ونزل بنو أسد ما بينهم وبين العراق . وفضل كثير منهم وهم : بنو حارثة نسبة إلى أمهم^(٢) ، وتيم الله ، وحبيش ، والأسعد إخوتهم رحلوا على الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب ، وحاضر طيء وأوطنوا تلك البلاد إلا بني رومان بن جندب بن خارجة بن سعد ، فإنهم أقاموا بالجبلين فكانوا جبليين^(٣) ولأهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة السهيليون اهـ .

(١) وفي النسخة التونسية : من البادية الغفل .

(٢) وفي النسخة التونسية : وهم بنو خارجة بن سعد بن قطرة . ويقال لهم جديلة نسبة إلى أمهم .

(٣) يبدو من سياق النص أن عبارة سقطت أثناء النسخ ، وفي النسخة التونسية : فإنهم أقاموا بالجبلين ، فكان يقال لأهل الجبلين : الجبليون ولأهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة : السهيليون .

فلعل هذه الأحياء الذين بالشام من بني الجراح وآل فضل من بني خارجة هؤلاء الذين ذكر ابن حزم أنهم انتقلوا إلى حلب وحاضر طيء ، لأن هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبلي أجنا وسلمى الذي هو موضع الآخرين ، قاله أعلم أي ذلك يصح من أنسابهم . وتحت خفارتهم بنواحي الفرات ابن كلاب^(١) بن ربيعة بن عامر دخلوا مع قبائل عامر بن صعصعة من نجد إلى الجزيرة .

ولما افترق بنو عامر على الممالك الإسلامية اختص هؤلاء بنواحي حلب وملكها منهم بنو صالح بن مرداس من بني عمر وبن كلاب . ثم تلاشى ملكهم ورجعوا عنها إلى الأحياء وأقاموا بالفرات تحت خفارة هؤلاء الأمراء من طيء .

(وأما ترتيب رياستهم) على العرب بالشام والعراق منذ دولة بني أيوب العادل وإلى هذا العهد ، وهو آخر ست وتسعين وسبعمائة ، فقد ذكرنا ذلك في دولة الترك ملوك مصر والشام ، وذكرناهم واحداً بعد واحد على ترتيبهم . وسند كرههم ههنا على ذلك الترتيب فنقول : كان الأمير لعهد بني أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما كان بعده حسام الدين مانع بن حارثة بمصر والشام .

* وفي سنة ثلاثين وستائة ولي عليهم بعده ابنه مهنا . ولما ارتجع قطز بن عضية بن فضل أحد ملوك الترك بمصر والشام من أيدي التتر ، وهزمهم بعين جالوت ، أقطع سلمية لمهنا بن مانع وانترعها من عمل المنصور بن مظفر بن شاهنشاه صاحب حماة ، ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا . ثم ولي الظاهر على أحياء العرب بالشام عند ما استفحل ملك الترك . وسار إلى دمشق لتشجيع الخليفة الحاكم عم المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن مانع ، وجزّله الاقطاعات على حفظ السابلة ، وحبس ابن عمّه زامل بن عليّ بن ربيعة من آل فضل على سعايته وإغرامه . ولم يزل يغير على أحياء العرب ، وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم ، وهرب إليه سنقر الاشقر سنة تسع وسبعين وستائة وكتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام .

وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين وستائة فولى المنصور قلاوون من بعده ابنه مهنا . ثم سار الأشرف بن قلاوون إلى الشام ونزل حمص ، ووفد عليه مهنا بن عيسى في

(١) وفي النسخة التونسية : من كلاب بن ربيعة .

جماعة من قومه ، فقبض عليه وعلى ابنه موسى وإخوته محمد وفضل إبنه مهنا . وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين وستائة ، ورجع إلى إمارته . وكان له في أيام الناصر نصره واستقامة وميلة إلى ملوك التتر بالعراق ، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان . ولما قرأسفر وأقوش الأفرم^(١) وأصحابها سنة عشر وسبعائة لحقوا به ، وساروا من عنده إلى خرشد^(٢) واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه منقبضاً عن الوفاة .

ووفد أخوه فضل سنة إثنتي عشرة وسبعائة فرعا له حق وفادته ، وولاه على العرب مكان أخيه مهنا ، وبقي مهنا مشردا . ثم لحق سنة ست عشرة وسبعائة بخرشد ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق . وهلك خرشد في تلك السنة فرجع مهنا إلى أحيائه ، ووفد ابنه أحمد وموسى وأخوه محمد بن عيسى مستعتين على الناصر ومتطارحين عليه ، فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر الأبلق ، وشملهم بالإحسان وأعتب مهنا وردّه إلى إمارته وأقطعه ، وذلك سنة سبع عشرة وسبعائة وحج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل في إثني عشر ألف راحلة . ثم رجع مهنا إلى دينه في مملأة التتر والاجلاب على الشام . واتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه ، وسخط عليه قومه أجمع . وتقدم إلى أبواب الشام سنة عشرين وسبعائة بعد مرجعه من الحج ، فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم مالكاً على عدالته بينهم^(٣) وولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر ، وصرف أقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة .

ثم وفد سنة إحدى وثلاثين وسبعائة مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلا به ومتطارحاً على السلطان ، فأقبل عليه وردّه عليه أقطعه وإمارته .

(وذكر لي) بعض أمراء الكبراء^(٤) بمصر فيمن أدرك وفادته أوحدث بها : أنه تجافى في هذه الوفاة من قبول شيء من السلطان ، حتى أنه ساق عنده النياق الحلوبة

(١) وفي نسخة ثانية : ولما انتقض قراسنقر وأقوش الأفرم .

(٢) وفي نسخة ثانية : خريندا ولم نجد لها ذكر ، ولعلها خرشيد وهي بليدة على سواحل فارس يدخل إليها في خليج من البحر نحو فرسخ في المراكب (معجم البلدان) .

(٣) وفي النسخة التونسية : وأدال منهم بال علي عديلة نسبهم .

(٤) وفي النسخة التونسية : بعض كبار الأمراء .

والعراب ، وأنه لم يغش باب احد من أرباب الدولة ولا سأل منهم شيئاً من حاجاته ، ثم رجع إلى أحيائه وتوفي سنة أربع وثلاثين وسبعائة فولي ابنه مظفر الدين موسى ، وتوفي سنة إثنين وأربعين وسبعائة عقب مهلك الناصر ، وولي مكانه أخوه سليمان .

ثم هلك سليمان سنة ثلاث وأربعين وسبعائة فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى . ثم توفي سنة أربع وأربعين وسبعائة بالقريتين ودفن عند قبر خالد بن الوليد . وولي مكانه أخوه سيف بن فضل ، ثم عزله السلطان بمصر ، الكامل ابن الناصر سنة ست وأربعين وسبعائة وولي مكانه أحمد بن مهنا بن عيسى . ثم جمع أسيف بن فضل ولقيه فياض بن مهنا بن عيسى وانهمز سيف . ثم ولي السلطان حسن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيبغاوس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم . ثم توفي سنة سبع وأربعين فولي مكانه أخوه فياض ، وهلك سنة تسع وأربعين وسبعائة وولي مكانه أخوه خيار بن مهنا ، وولاه حسن الناصر في دولته الثانية . ثم انتقض سنة خمس وستين وسبعائة وأقام سنتين بالقصر عاصياً إلى أن تشفع فيه نائب حماة ، فأعيد إلى إمارته . ثم انتقض سنة سبعين وسبعائة فولي السلطان الأشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى ، وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم ، وعاثوا في البلاد وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري ، فبرز إليهم وانتهى إلى خيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستجاشوا بها ^(١) وهزموا عساكره وقتل قشتمر ابنه في المعركة . تولى هو قتله بيده ، وذهب إلى القفر منتقضاً فولي الأشرف مكانه ابن عمه معقل بن فضل بن عيسى ^(٢) . ثم بعث ابن معقل صاحبه سنة إحدى وسبعين وسبعائة يستأمن لخيار فامنه . ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين وسبعائة فرضي عنه السلطان وأعادته إلى إمارته . ثم توفي سنة سبع وسبعين وسبعائة فولي أخوه مالك إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعائة ، فولي مكانه معقل بن موسى بن عيسى ، وابن مهنا شريكين في إمارتهما . ثم عزلا لسنة وولي بعير بن جابر ^(٣) بن مهنا واسمه محمد ، وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيء بالشام . والسلطان

(١) وفي النسخة التونسية : فاستأثوا دونها .

(٢) وفي النسخة التونسية : فولي بعده معقل بن فضل بن عيسى وزامل بن موسى بن عيسى بن مهنا .

(٣) وفي نسخة ثانية : بعير بن خيار بن مهنا .

الظاهر لعهدده يزاحمه بحجر بن محمد بن قاري حتى سخطه^(١) . ثم وصل انتقاضه على السلطان وخلافه ، وظاهر السلطان على موالاة محمد بن قاري فسخطه ، وولى مكانهما ابن عمهما محمد بن كوكتين ابن عمه موسى بن عساف بن مهنا فقام بأمر العرب وبقي بغير متبذراً بالقفر ، وعجز عن الميرة لقلة ما بيده^(٢) واختلت أحواله ، وهو على ذلك لهذا العهد ، والله ولي الأمور لا رب سواه .

(ولنرجع) إلى ما بقي من شعوب هذه الطبقة فنقول : كان بنو عامر بن صعصعة كلهم بنجد ، وبنو كلاب في خنصرة^(٣) والربذة من جهات المدينة وكعب بن ربيعة فيما بين تهامة والمدينة وأرض الشام . وبنو هلال بن عامر في بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان ونمير بن حامد^(٤) معهم . وجشم محسوبون منهم بنجد ، وانتقلوا كلهم في الإسلام إلى الجزيرة الفراتية فملك نمير حران ونواحيها . وأقام بنو هلال بالشام إلى أن ظعنوا إلى المغرب كما نذكر في أخبارهم . وبقي منهم بقية يجبل بني هلال المشهور بهم الذي فيه قلعة صرخد . وأكثرهم اليوم يتعاطون الفلح . وبنو كلاب بن ربيعة

(٢) وفي النسخة التونسية : فقلّ تايّعه .

(٤) وفي النسخة التونسية : فخير بن عامر .

ملكوا أرض حلب ومدينتها كما ذكرناه . وبنو كعب بن ربيعة دخلت إلى الشام ، منهم قبائل عقيل وقشير وجريش وجعدة ، فانقرض الثلاثة في دولة الإسلام ولم يبق إلا بنو عقيل .

(وذكر) ابن حزم : أنّ عددهم بني عدد جميع مضر . فلك منهم الموصل بنو مالك^(١) بعد بني حمدان وتغلب . واستولوا عليها وعلى نواحيها وعلى حلب معها . ثم انقرض ملكهم ورجعوا للبادية ، وورثوا مواطن العرب في كل جهة ، فمنهم بنو المتفق بن عامر بن عقيل ، وكان بنو مالك بن عقيل في أرض تيماء من نجد ، وهم الآن بجهات البصرة في الآجام التي بينها وبين الكوفة المعروفة بالبطائح ، والإمارة منهم في بني معروف ، وبالمغرب من بني المتفق أحياء دخلوا مع هلال بن عامر يعرفون بالخلط ، ومواطنهم بالمغرب الأقصى ما بين فاس ومراكش .

(وقال الجرجاني) : إن بني المتفق كلهم يعرفون بالخلط ، ويليه في جنوب البصرة إخوتهم بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر ، وعوف أخو المتفق قد غلبوا على البحرين وغمارة^(٢) وملكوها من يدي أبي الحسن الأصغر بن تغلب^(٣) . وكانت هذه المواطن للأزد وبني تميم وعبد القيس ، فورث هؤلاء أرضهم فيها وديارهم .

(قال ابن سعيد) : وملكوا أيضاً أرض اليمامة من بني كلاب وكان ملوكهم فيها لعهد الخمسين والستمائة بني عصفور . وكان من بني عقيل خفاجة بن عمرو بن عقيل ، كان انتقلهم إلى العراق فأقاموا به وملكوا ضواحيه ، وكانت لهم مقامات وذكر ، وهم أصحاب صولة وكثرة ، وهم الآن ما بين دجلة والفرات . ومن عقيل هؤلاء بنو عبادة بن عقيل ، ومنهم الأجافل^(٤) لأن عبادة كان يعرف بالأجفل . وهم لهذا العهد بالعراق مع بني المتفق . وفي البطائح التي بين البصرة والكوفة وواسط والإمارة فيهم على ما يبلغنا لرجل اسمه ميان بن صالح^(٥) وهو في عدد ومنعة . وما أدري أهو في بني معروف أمراء البطائح بني المتفق ، أو من عبادة الأجافل ؟ هذه أحوال بني

(١) وفي النسخة التونسية : بنو المقلد .

(٢) وفي النسخة التونسية : البحرين وعمّان .

(٣) بن تغلب . وهذا ما أشرنا إليه في جزء سابق من هذا الكتاب أن ابن خلدون يذكر الثعالب بدل التغالبة . وتغلب بدل تغلب .

(٤) وفي النسخة التونسية : الاخائل وهو الأصح . لأن عبادة كان يعرف بالأخيل .

(٥) وفي نسخة ثانية : قبان بن صالح .

عامر بن صعصعة واستيلاؤهم على مواطن العرب من كهلان وربيعة ومضر .
(فأما بنو كهلان) فلم يبق لهم أحياء فيما يسمع . (وأما ربيعة) فأجازوا بلاد فارس
وكرمان فهم يتجعون هنالك ما بين كerman وخراسان . وبقيت بالعراق منهم طائفة
يتزلون البطائح وانتسب إلى الكوفة منهم بنو صباح^(١) ومعهم لفائف من الأوس
والخزرج . فأمر ربيعة إسمه الشيخ ولي ، وعلى الأوس والخزرج طاهر بن خضر منهم
هذه شعوب الطبقة الثالثة من العرب لهذا العهد في ديار المشرق بما أدى إليه
الإمكان .

(ونحن الآن نذكر شعوبهم الذين انتقلوا إلى المغرب) : فإن أمة العرب لم يكن لهم
إمام قط بالمغرب ، لا في الجاهلية ولا في الاسلام ، لأن أمة البربر الذين كانوا به
كانوا يمانعون عليه الأمم . وقد غزاه إفريقش بن ضبيع^(٢) الذي سميت به أفريقية ،
من ملوك التبابعة وملكها . ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير ،
فاستحالت طبيعتهم^(٣) إلى البربر واندرجوا في عدادهم ، وذهب ملك العرب منهم .
ثم جاءت الملة الإسلامية وظهر العرب على سائر الأمم بظهور الدين ، فسارت في
المغرب ، وافتتحوا سائر أمصاره ومدنه وعانوا من حروب البربر شدة . وقد تقدّم لنا ما
ذكره ابن أبي زيد^(٤) من أنهم ارتدّوا إثنتي عشرة مرة . ثم رسخ فيهم الإسلام ولم
يسكنوا بأجبالهم في الخيام ولا نزلوا أحياء لأنّ الملك الذي حصل لهم يمنهم من
سكنى الضاحية ، ويعدل بهم إلى المدن والأمصار . فلهذا قلنا إنّ العرب لم يوطنوا
بلاد المغرب . ثم أنهم دخلوا إليه في منتصف المائة الخامسة ، وأوطنوه وافترقوا
بأحيائهم في جهاته كما نذكر الآن ونستوعب أسبابه .

* (الخبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم المغرب من الطبقة الرابعة وأخبارهم هنالك) *

(١) وفي النسخة التونسية : بنو صباح .

(٢) وفي النسخة التونسية : إفريقش بن صبيغ وأفريقش بن صبيغ (الموسوعة المغربية الملحق الاول)

(٣) وفي النسخة التونسية : فاستحالت صيغتهم .

(٤) وفي النسخة التونسية : ابن أبي زيد .

كانت بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا بادين منذ الدولة العباسية وكانوا أحياء ناجعة محلاتهم من بعد الحجاز بنجد^(١). فبنو سليم مما يلي المدينة ، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف وربما كانوا يطوفون في رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام ، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ، ويقطعون على الرفاق ، وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة . وما زالت البعوث تجهز والكتائب تكتب من باب الخلافة ببغداد للإيقاع بهم وصون الحاج عن مضرات هجومهم . ثم تحيز بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم ، وصاروا جنداً بالبحرين وعمان . ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام ، وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردّهم على أعقابهم إلى قراهم بالبحرين ، ونقل أشياعهم من العرب من بني هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد وفي العدو الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك ، وكان لهم اضرار بالبلاد . ولما انساق ملك صنهاجة بالقيروان إلى المعز بن باديس بن المنصور سنة ثمان وأربعمائة قلّده الظاهر لدين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز لدين الله أمر أفريقية على عادة آبائه كما ذكره لك بعد . وكان لعهد ولايته غلاماً يفعه ابن ثمان سنين ، فلم يكن مجرباً للأمر ولا بصيراً بالسياسة ، ولا كانت فيه عزة وأنفة . ثم هلك الظاهر سنة سبع وعشرين وأربعمائة وولي المنتصر بالله^(٢) معز الطويل أمر الخلافة بما لم ينله أحد من خلفاء الإسلام . يقال ولي خمساً وسبعين وقيل خمساً وتسعين ، والصحيح ثلاث وسبعون لأن مهلكه كان على رأس المائة الخامسة ، وكانت أذن المعز بن باديس صاغية إلى مذاهب أهل السنة ، وربما كانت شواهدا تظهر عليه ، وكتاباه فرسه في أوّل ولايته لبعض مذاهبه فنادى مستغيثاً بالشيخين أبي بكر وعمر ، وسمعتهم العامة فثاروا بالرافضة وقتلوهم وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان وقطعوا من الأذان حيّاً على خير العمل . وأغضى عنه الظاهر من ذلك وابنه معدّ المنتصر من بعده . واعتذر بالعامّة فقبل واستمرّ على إقامة الدعوة والمهاداة ، وهو في أثناء ذلك يكاثر وزيرهما وحاجب دولتهما المضطلع بأمورهما أبا القاسم أحمد بن

(١) وفي نسخة ثانية : وكانوا أحياء ناجعة بمجالاتهم من قفر الحجاز بنجد .

(٢) الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن عليّ بن أبي عليّ المنصور الحاكم ، وعندما توفي ولي بعده ابنه أبو نعيم معدّ ، ولقب المنتصر بالله . (ابن الأثير ج ٩ ص ٤٤٧) .

علي الحرجاني^(١) ويستميله يعرض ببني عبيد وشيعتهم . وكان الحرجاني يلقب بالأقطع بما كان أقطعه الحاكم بجناية ظهرت عليه في الأعمال ، وانتهضته السيدة بنت الملك^(٢) عمة المنتصر .

فلما مات استبدّ بالدولة سنة أربع عشرة وأربعمائة إلى أن هلك سنة ست وثلاثين وأربعمائة وولي الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن علي الياروزي^(٣) أصله من قرى فلسطين ، وكان أبوه ملاحاً بها . فلما ولي الوزارة خاطبه أهل الجهات ، ولم يولوه فأنف من ذلك ، فعظم عليه وحق عليه ثمال بن صالح صاحب حلب والمعز بن باديس صاحب أفريقية ، وانحرفوا عنه وحلف المعز لينقض طاعتهم وليحوّلن الدعوة إلى بني عباس ، ويمحون اسم بني عبيد من منابرهم ، ولج في ذلك وقطع أسماءهم من الطراز والرايات ، وباع القائم أبا جعفر بن القادر من خلفاء بني العباس ، وخاطبه ودعا له على منابرهم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة وبعث بالبيعة إلى بغداد .

ووصله أبو الفضل البغدادي وحظي من الخليفة بالتقليد والخلع ، وقرئ كتابه بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدمت دار الإسماعيلية . وبلغ الخبر إلى المستنصر معز الخليفة بالقاهرة ، وإلى الشيعة الرافضة من كتامة وصنائع الدولة فوجموا ، وطلع عليهم المقيم المقعد من ذلك ، وارتبكوا في أمرهم . وكان أحياء هلال هؤلاء الأحياء من جشم والاثير^(٤) وزغبة ورياح وربيعة وعدي في محلاتهم بالصعيد كما قدمناه . وقد عمّ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم ، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي الياروزي باصطناعهم والتقدم لمشايخهم^(٥) وتوليتهم أعمال أفريقية وتقليدهم أمرها ودفعهم إلى حرب صنهاجة ليكونوا عند نصر الشيعة . والسبب في الدفاع عن الدولة فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة ، كانوا أولياء للدعوة وعمالاً بتلك القاصية . وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها . وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك ، فتغلبوا على هدية

(١) وفي النسخة التونسية : الحرجاني وكذلك عند ابن الاثير ج ٩ ص ٤٤٧ .

(٢) وفي النسخة التونسية : وانتهضته السيدة ست الملك .

(٣) وفي نسخة ثانية : البازوري وهو الأصح كذا في قبائل المغرب ١٦٧ .

(٤) وفي نسخة ثانية الأثنج وهو الصحيح .

(٥) وفي النسخة التونسية : واستقدم مشايخهم .

وثورانه^(١) . وقيل إن الذي أشار بذلك وفعله وأدخل العرب إلى أفريقية إنما هو أبو القاسم الجرجاني ، وليس ذلك بصحيح ، فبعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم بغيراً وديناراً لكل واحد منهم ، وأباح لهم إجازة النيل . وقال لهم : قد أعطيتكم المغرب ، وملك المعز بن بلكين^(٢) الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون وكتب الباروزي إلى المغرب : أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً ، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً^(٣) ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . فطمعت العرب إذ ذاك ، وأجازوا النيل إلى برقة ، ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها ، وكتبوا لأخوانهم شرقي النيل يرغبونهم . في البلاد ، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين^(٤) فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه ، وتقارعوا على البلاد فحصل لسليم الشرق ، ولهلal الغرب ، وخرّبوا المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرأ وسرت .

وأقامت لهب^(٥) من سليم وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة بأرض برقة . وسارت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى أفريقية كالجراد المنتشر ، لا يمرّون بشيء إلا أتوا عليه ، حتى وصلوا إلى أفريقية سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة وكان أول من وصل إليهم أمير رياح موسى^(٦) بن يحيى الصنبري فاستماله المعز واستدعاه واستخلصه لنفسه وأصهر إليه . وفاوضه في استدعاء العرب من قاصية وطنه للاستغلاظ على نواحي بني عمه . فاستنفر القرى وأتى عليهم فاستدعاهم فعاثوا في البلاد وأظهروا الفساد في الأرض ، ونادوا بشعار الخليفة المستنصر . وسرح إليهم من صنهاجة الأولياء فاقفّعوا بها فتمخّط^(٧) ، المعز لكبره وأشاط بغضبه ، وتقبض على أخي موسى وعسكر بظاهر القيروان . وبعث بالصرىخ إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حامد^(٨) بن بلكين ، فكتب إليه كتيبة من ألف فارس سرحهم إليه ،

(١) وفي النسخة التونسية : فتقبلوا رأيه وشكوا هدايته .

(٢) وفي النسخة التونسية : بن باديس .

(٣) بمعنى كهولاً بالحرب لهم خبرة في القتال .

(٤) وفي النسخة التونسية : بعد أن أعطوا ديناراً عن كل رأس .

(٥) وفي نسخة ثانية : هيب .

(٦) وفي نسخة ثانية : مؤنس بن يحيى الصنبري وكذلك في قبائل المغرب ص ٤٢١ .

(٧) وفي النسخة التونسية : فتخمّط .

(٨) وفي النسخة التونسية : حماد .

واستفروا عن^(١) زناته فوصل إليه المستنصر بن حزور المغراوي في ألف فارس من قومه .

وكان بالبدو من أفريقية مع الناجعة من زناته ، وهو من أعظم ساداتهم . وارتحل المعز في أولئك النفر ومن لفّ لفّهم من الأتباع والحشم والأولياء ومن في إيالهم من بقايا عرب الفتح ، وحشد زناته والبربر وصمد نحوهم في أم لا تحصى يناهز عددهم فيما يذكر ثلاثون ألفاً . وكانت رياح وزغبة وعدي حيدران من جهة فاس^(٢) . ولما تراحف الفريقان انخذل بقية عرب الفتح وتحيزوا إلى الهلالين للعصبية القديمة ؛ وخانته زناته وصنهاجة ، وكانت الهزيمة على المعز ، وفرّ بنفسه وخاصته إلى القيروان وانتهب العرب جميع مخلفه من المال والمتاع والذخيرة والفساطيط والرايات ، وقتلوا فيها من البشر ما لا يحصى . يقال إن القتلى من صنهاجة بلغوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة . وفي ذلك يقول علي بن رزق الرياحي كلمته . ويقال إنها لابن شداد وأولها :

لقد زار وهناً من أميم خيال وأيدي المطايا بالزميل عجال
وأن ابن باديس لأفضل مالك لعمرى ، ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهم قد هزمتهم ثلاثسة آلاف وذاك ضلال

ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار ، وهلكت الضواحي والقرى بإفساد العرب وعيهم ، وانتقام السلطان منهم بانتائهم في ولاية العرب . ولجأ الناس إلى القيروان وأكثروا النهب واشتدّ الحصار ، وفرّ أهل القيروان إلى تونس وسوسة ، وعمّ النهب في البلاد والعيث في البلاد^(٣) ودخلت تلك الأرض^(٤) سنة خمس وأربعين ، وأحاطت زغبة ورياح بالقيروان . ونزل موسى قريباً من ساحة البلد . وفرّ القرابة والأعياص من آل زير فولاهم موسى قابس وغيرها . ثم ملكوا بلاد قسطينة^(٥) كلها وغزا عامل بن أبي الغيث منهم زناته ومغراوة فاستباحهم ورجع .

واقسمت العرب بلاد أفريقية سنة ست وأربعين ، وكان لزغبة طرابلس وما يليها ،

(١) وفي نسخة ثانية واستفروا زناته .

(٢) وفي النسخة التونسية : وعدي بقبلي حيدران من جهة قابس .

(٣) وعمّ النهب والعيث بلاد أفريقية . كذا في النسخة التونسية .

(٤) وفي النسخة التونسية : ودخلت بلد الاريفس وأبة .

(٥) وفي النسخة التونسية : قسطينية ، وغزا عابد بن أبي الغيث .

ولمرداس بن رياح باجة وما يليها . ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان لهلal من تونس^(١) إلى الغرب وهم : رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرّة والاثيج والخلط وسفيان وتصرم الملك من يد المعز ، وتغلب عائذ بن أبي الغيث^(٢) على مدينة تونس وسباها وملك أبو مسعود من شيوخهم مومه^(٣) صلحاً . وعامل المعز على خلاص نفسه ، وصاهره بيناته ثلاثة من أمراء العرب فارس بن أبي الغيث وأخاه عائذاً ، والفضل بن أبي علي المرادي^(٤) وقدم ابنه تميم إلى المهديّة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ولسنة تسع بعدها بعث إلى أصهاره من العرب وترحم بهم^(٥) ولحق بهم بالقيروان ، واتبعوه فركب البحر والساحل ، وأصلح أهل القيروان فأخبرهم ابنه المنصور بخبر أبيه ، فساروا بالسودان والمنصور . وجاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسنها ، وطمسوا من الحسن والروث معالمها . واستصفوا ما كان لآل بلكين في قصورها وشملوا بالعيث والنهب سائر حريمها ، وتفرّق أهلها في الأقطار فعظمت الرزية ، وانتشر^(٦) الداء وأعضل الخطب . ثم ارتحلوا إلى المهديّة فترلوها ، وضيقوا عليها بمنع المرافق وإفساد السابلة . ثم حاربوا زناتة من بعد صنهاجة وغلبوهم على الضواحي ، واتصلت الفتنة بينهم ، وأغزاهم صاحب تلمسان من أعقاب محمد بن خزر وجيوشه مع وزيره أبي سعدى خليفة اليفريّ فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة ، واضطرب أمر أفريقية ، وخرب عمرانها ، وفسدت سابلتها . وكانت رئاسة الضواحي من زناتة والبربر لبني يفرن ومغراوة وبني ماند وبني تلومان^(٧) ولم يزل هذا دأب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على ضواحي أفريقية والزاب ، وغلبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر وأصاروهم عبيداً وخدماءً بباجة^(٨) . وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم أفريقية رجالات مذكورون .

وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض ، وينسبون هؤلاء في

(١) وفي النسخة التونسية : من قابس .

(٢) وفي النسخة التونسية : عابد بن أبي الغيث ، وفي قبائل المغرب ص ٣٩٤ عائذ بن أبي العيث

(٣) وفي نسخة ثانية : بونه .

(٤) وفي النسخة التونسية : المرواسي .

(٥) وفي النسخة التونسية : وتدمم بهم .

(٦) وفي النسخة التونسية : واستشرى .

(٧) وفي نسخة ثانية : بني يمانوا وبني يلومان .

(٨) وفي النسخة التونسية : عبيداً وغولاً للجباية .

دريد بن الأثبج وماضي بن مقرب ونيونة بن قرّة^(١) وسلامة بن رزق في بني كثير من بطون كرفة بن الأثبج ، وشاقة^(٢) بن الأحيمر وأخوه صليصل ونسبهم في بني عطية من كرفة ، ودياب بن عانم وينسبونه في بني ثور ، وموسى بن يحيى وينسبونه في مرداس رياح لامرداس سليم ، فاحذر من الغلط في هذا . وهو من بني صفيّر^(٣) بطن من بطون مرداس رياح ، وزيد بن زيدان وينسبونه في الضحاك ، ومليحان بن عباس وينسبونه في حمير ، وزيد العجاج بن فاضل ويزعمون أنه مات بالحجاز قبيل دخولهم إلى أفريقية ، وفارس بن أبي الغيث وعامر أخوه ، والفضل بن أبي علي ونسبهم أهل الأخبار منهم في مرداس المقهى ، كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم . وكان زياد بن عامر رائدهم في دخول أفريقية^(٤) ويسمونه بذلك أبا مخير ، وشعوبهم لذلك العهد كما نقلناهم زغبة ورياح والأثبج وقرّة وكلهم من هلال بن عامر . وربما ذكر فيهم بنو عدي ، ولم نقف على أخبارهم وليس لهم لهذا العهد حي معروف ، فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل . وكذلك ذكر فيهم ربيعة ، ولم نعرفهم لهذا العهد إلا أن يكونوا هم المعقل كما تراه في نسبهم . وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة ابن صعصعة بن معاوية ، والمعقل من بطون اليمن ، وعمرة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وبني ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة ، وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان . وطرود بطن من فهم بن قيس ، إلا أنهم كلهم مندرجون في هلال وفي الأثبج منهم خصوصاً ، لأن الرئاسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال فأدخلوا فيهم وصاروا مندرجين في جملتهم . وفرقة من هؤلاء الهلاليين لم يكونوا من الذين أجازوا القيل لعهد البازوري أو الجرجاني . وإنما كانوا من قبل ذلك بركة أيام الحاكم العبيدي ، ولهم فيها أخبار مع الصنهاجيين ببرقة والشيعية بمصر خطوط ، ونسبهم إلى عبد مناف بن هلال كما ذكر شاعرهم في قوله :

طلبنا القرب منهم وجزيل منهم بلا عيب من عرب سحاح جمودها

(١) وفي نسخة ثانية : وينسبونه في قرّة .

(٢) وفي نسخة ثانية : وشبان .

(٣) وفي نسخة ثانية : من بني صفيّر .

(٤) وفي النسخة التونسية : وكان ذياب بن غانم رائدهم في دخول أفريقية .

وبيت غرت أمره منا وبينها طرود أنكاد اللي يكودها
مأت ثلاث آلاف مرة وأربعة بحرمة منا تدادي كبودها
وقال الآخر منهم

أي رب جبر الخلق من نائج البلا إلا القليل انجار مالا يجيرها
وخص بها قرّة مناف وعينها ديباً لأرياد البوادي تشيرها^(١)

فذكر نسبهم في مناف وليس في هلال مناف هكذا منفرداً ، إنها هو عبد مناف والله تعالى أعلم . وكان شيخهم أيام الحاكم مختار بن القاسم . ولما بعث الحاكم يحيى ابن عليّ الأندلسي لصريخ فلفول بن سعيد بن خزروق بطرابلس على صنهاجة كما ذكره في أخبار بني خزروق ، أوعز لهم في السير معه ، فوصلوا إلى طرابلس وجروا الهزيمة على يحيى بن عليّ ورجعوا إلى برقة . وبعث عنهم فامتنعوا ، ثم بعث لهم بالأمان ، ووصل فدهم إلى الإسكندرية فقتلوا عن آخرهم سنة أربع وتسعين وثلاثمائة . وكان عندهم معلم للقرآن اسمه الوليد بن هشام ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أمية . وكان يزعم أن لديه إثارة من علم في اختيار^(٢) ملك آبائه ، وقبل ذلك منه البرابرة من مرامة^(٣) وزناة ولواتة وتحذثوا بشأنه فنصبه بنو قرّة وما بعده بالخلافة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة وتغلبوا على مدينة برقة . وزحف إليهم جيوش الحاكم فهزموهم ، وقتل الوليد بن هشام وقائدها من الترك .

ثم رجعوا به إلى مصر فانهزموا ، ولحق الوليد بأرض النجاء من بلاد السودان . ثم أخفرت ذمته وسبق إلى مصر وقتل ، وهدرت لبني قرّة جنائتهم هذه وعفا عنهم . ولما كانت سنة إثنين وأربعمائة اعترضوا هدية باديس بن المنصور ملك صنهاجة من أفريقية إلى مصر فأخذوها ، وزحفوا إلى برقة فغلبوا العامل عليها ، وفرّ في البحر

(١) وفي النسخة التونسية :

فلا عيب من عرب سجاح جهودها
طراد كداننا نحن لا يكودها
بمحنة منا تدادي كبودها .

طلبنا الغفر منهم وجدناه عندهم
وبت عن ذا قرّة مناف وشبهها
مأت ثلاثة آلاف مرة ومن بقي
وقال آخر :

إلا القليل الخارسة لا تجيرها
ديماً لأبناء البوادي تشيرها .

أي رب جبر الخلق من نابح البلا
وخص بها قرّة مناف ونسبها

(٢) وفي نسخة ثانية : احتياز .

(٣) وفي نسخة ثانية : مزانة وهو الأصح .

واستولوا على برقة . ولم يزل هذا شأنهم ببرقة . فلما زحف إخوانهم الهلاليون من زغبة ورياح والأنبج واتباعهم إلى أفريقية ، كانوا ممن زحف معهم . وكان من شيوخهم ماضي بن مقرب المذكور في أخبار هلال .

ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى أفريقية طرق في الخبر غريبة : يزعمون أنَّ الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح ، وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته الجازية فأنكحه إياها ، وولدت منه ولداً اسمه محمد . وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة ، وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى أفريقية . وتحيلوا عليه في استرجاع هذه الجازية فطلبته في زيارة أبويها فأزارها إياهم ، وخرج بها إلى حلهم فارتحلوا به وبها . وكنمو رحلتها عنه وموها عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه ، وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه ، فرجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبا داء دخيل ، وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه إلى أن ماتت من حبه .

ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفى عن خبر هيس وكثير^(١) ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المباني متفقة الأطراف ، وفيها المطبوع والمتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء وإنما أدخلوا فيها بالإعراب فقط ، ولا مدخل له في البلاغة كما قررناه لك في الكتاب الأول من كتابنا هذا . إلا أنَّ الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب ، ويحسبون أنَّ الإعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك . وفي هذه الأشعار كثير أدخلته الصنعة وفقدت فيه صحَّة الرواية فلذلك لا يوثق به ، ولو صحَّت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناته وحروبهم ، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم . لكننا لا نثق بروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمة ، وهذا قصارى الأمر فيه . وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف ، وجيلاً عن جيل ، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمي عندهم

(١) بهامش نسخه ما نصه : قصة أبي زيد التي تحكى في قهاوي مصر أصلها هذه الواقعة ، كما اشار لذلك المؤلف . وكثيراً ما كنت أتطلب لها أصلاً في التواريخ فلم أجده إلا في هذا المحل ، فرحم الله المؤلف فلقد بين أصولاً كثيرة يحتاج إليها كل ناظر في فن التاريخ . كتبه حسن العطار أهـ .

بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم . وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم ، وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن أبي جعفر بن هاشم محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله بن إدريس ، وأبوه الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيديّ وباع له بنوا الجراح أمراء طيء بالشام ، وبعثوا عنه فوصل إلى أحيائهم وباع له كافة العرب . ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيديّ وزجع إلى مكة ، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة فولي بعده ابنه شكر هذا ، وهلك سنة ثلاث وخمسين وولي ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من الجازية هذه . وتقدّم ذلك في أخبار العلوية هكذا نسبة ابن حزم .

(وقال ابن سعيد) : هو من السلمايين من ولد محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسين السبط الذي بايع له أبو الزاب^(١) الشيباني بعد ابن طباطبا ، ويسمى الناهض . ولحق بالمدينة فاستولى على الحجاز واستقرت إمارة ملكه في بنيه إلى أن غلبهم عليها هؤلاء الهواشم . جداً قريباً من الحسن والحسين^(٢) . وأمّا هاشم الأعلى فمشارك بين سائر الشرفاء ، فلا يكون مميزاً لبعضهم عن بعض . وأخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات ، وأنّ ولده بها لهذا العهد والله أعلم .

ومن مزاعمهم أنّ الجازية لما صارت إلى أفريقية وفارقت الشريف ، خلفه عليها منهم ماض بن مقرب^(٣) من رجالات دُرَيْد ، وكان المستنصر لما بعثهم إلى أفريقية عقد لرجالاتهم على أمصارها وثغورها ، ولقد هم أعمالها ، فعقد لموسى بن يحيى المرדاسي على القيروان وباجة ، وعقد لزغبة على طرابلس وقابس ، وعقد لحسن بن سرحان على قسنطينة^(٤) ، فلما غلبوا صنهاجة على الأمصار ، وملك كل ما عقد له سميت الرعايا بالأمصار عسفهم وعيشتهم باختلاف الأيدي ، إذ الوازع مفقود من أهل هذا

(١) وفي النسخة التونسية : أبو السرايا .

(٢) الظاهر من السياق سقوط عبارة أثناء النسخ ، وفي النسخة التونسية : وما ذكره ابن حزم أصح . لأنهم جميعاً يقولون في الشريف ابن هاشم يميزونه بذلك عن سائر الشرفاء . ولا يصح ذلك إلا أن يكون هاشم أو أبو هاشم جداً قريباً من الحسن والحسين .

(٣) وفي نسخة أخرى : مغرب .

(٤) وفي نسخة أخرى قسنطينة وهذا تحريف وقسنطينة المقصودة هنا : وهي مدينة وقلعة يقال لها قلعة الهواء وهي قلعة كبيرة جداً حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد ، وهي من حدود أفريقية مما يلي المغرب (معجم البلدان) .

الجبل العربي مذ كانوا فثاروا بهم وأخرجوهم من الأمصار ، وصاروا إلى ملك الضواحي والتغلب عليها ، وسيّم الرعايا بالخسف في النهب والعيث وإفساد السابلة هكذا إلى هلم .

ولمّا غلبوا صنهاجة اجتهد زنّانة في مدافعتهم بما كانوا أملك للباس والنجدة بالبدواة ، فحاربوهم ورجعوا إليهم من أفريقية والمغرب الأوسط ، وجّهز صاحب تلمسان من بني خزر قائده أبا سعدى اليفرنى فكّانت بينهم وبينه حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب ، وتغلبوا على الضواحي في كل وجه . وعجزت زنّانة عن مدافعتهم بأفريقية والزاب . وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ، ومصاب من بلاد المغرب الأوسط . فلمّا استقر لهم الغلب وضعت الحرب أوزارها وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم ، وصاروا إلى التفريق بينهم ، وظاهروا الأتبيج على رياح وزغبة ، وحشد الناصر بن علناس صاحب القلعة لمظاهرتهم وجمع زنّانة .

وكان فيهم المعز بن زيري صاحب فاس من مغراوة ونزلوا الأربس جميعاً . ولقيهم رياح وزغبة بسببه . ومكر المعز بن زيري المغراوي بالناصر وصنهاجة بدسياسة زعموا من تميم بن المعز بن باديس صاحب القيروان ، فجرّ عليهم الهزيمة واستباحّت العرب وزنّانة خزائن الناصر ومضاريه . وقتل أخوه القاسم ونجا إلى قسنطينة ورياح في اتباعه . ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخرّبوا جنباتها واحبطوا عروشها ، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار ، ثم طبنة والمسيلة فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها ، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعاً صفصفاً أقفر من بلاد الجنّ وأوحش من جوف العير ، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد ، وهجروا ملوك أفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالها في الأمصار ، وملكوا عليهم الضواحي يتحيّفون جوانبهم ويقعدون لهم بالمرصاد ، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرف في أوطانهم .

ولم يزل هذا دأبهم حتى لقد هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة ، واختطّ بالساحل مدينة بجاية ، ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لنزله . ونزلها المنصور ابنه من بعده فراراً من ضيم هذا الجبل وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال وتوغّر مسالكها على رواحلهم . واستقروا بها بعد ، وتركوا القلعة . وكانوا يختصّون الأتبيج من هؤلاء الأحياء بالرياسة

سائر أيامهم . ثم افترق جمع الأئبيج وذهبت بذهاب صنهاجة دولتهم . ولما غلب الموحدون سائر الدول بالمغرب في سني إحدى وأربعين وخمسمائة ، وزحف شيخ الموحدين عبد المؤمن إلى أفريقية ، وفد عليه بالجزائر أميران منهم لذلك العهد أبو الجليل بن شاكر أمير الأئبيج وحبّاس بن مُشَيَّر من رجالات جيش ، فتلقاها بالمبرة وعقد لهما على قومها ومضى لوجهه . وفتح بجاية سنة تسع وخمسين وخمسمائة . ثم انتقض العرب الهلاليون على دعوة صنهاجة ، وكان أمير رياح فيهم محرز بن زناد ابن بادخ^(١) إحدى بطون بني علي بن رياح ، فلقيتهم جيوش الموحدين بسطيف وعليهم عبدالله بن عبد المؤمن فتوافقوا ثلاثا علقوا فيها رواحهم ، وأثبتوا في مستنقع الموت أقدامهم ، ثم انتقض في الرابعة جمعهم واستلحمهم الموحدون وغلبوا عليهم ، وغنموا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم واتبعوا أديبارهم إلى محصن سبتة . ثم راجعوا من بعد ذلك بصائرهم واستكانوا لعز الموحدين وغلبهم ، فدخلوا في دعوتهم وتمسكوا بطاعتهم ، وأطلق عبد المؤمن أسراهم ولم يزلوا على استقامتهم ، ولم يزل الموحدون يستنفرونهم في جهادهم بالأندلس ، وربما بعثوا إليهم في ذلك المخاطبات الشعرية ، فأجازوا مع عبد المؤمن ويوسف ابنه كما هو في أخبار دولتهم . ولم يزلوا في استقامتهم إلى أن خرج عن الدولة بنو غانية المسوفيون أمراء ميورقة ، أجازوا البحر في أساطيلهم إلى بجاية فكسبوها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة لأول دولة المنصور ، وكشفوا القناع في نقض طاعة الموحدين ، ودعوا العرب بها ، فعادت هيف إلى أديانها .

وكانت قبائل جيش ورياح وجمهور الأئبيج من هؤلاء الهلاليين أسرع إجابة إليها . ولما تحركت جيوش الموحدين إلى أفريقية لكفّ عدوانهم ، تحيَّزت قبائل زغبة إليهم ، وكانوا في جملتهم ، ولحق بنو غانية بفاس ومعهم كافة جيش ورياح ، ولحق بهم جلّ قومهم من مسوفة وإخوانهم لمتونة من أطراف البقاع ، واستمسكوا بالدعوة العباسية التي كان أمراؤهم بنو تاشفين بالمغرب يتمسكون بها ، فأقاموها فيمن إليهم من القبائل والمسالك ونزلوا بفاس ، وطلبوا من الخليفة ببغداد المستنصر تجديد العهد لهم بذلك ، وأوفدوا عليه كاتبهم عبد البر بن فرسان ، فعقد لابن غانية وأذن له في حرب الموحدين . واجتمعت إليه قبائل بني سليم بن منصور ، وكانوا جاؤا على أثر الهلاليين

(١) وفي النسخة التونسية : محرز بن زناد بن فارغ وكذلك قبائل المغرب ص ٣٩٧ .

عند إجازتهم إلى أفريقية . وظهره على أمره ذلك قراقوش الأرمني . ونذكر أخباره في أخبار الميروي^(١) فاجتمع لعلي بن غانية من المثلثين والعرب والعجم عساكر جمّة ، وغلب الضواحي وافتتح بلاد الجريد ، وملك قفصة وتوزر ونفطة . ونهض إليه المنصور من مراکش يجرّ أمّ المغرب من زناتة والمصامدة وزغبة من الهلاليين وجمهور الأتبيج ، فأوقعوا بمقدّمته بفحص غمرة من جهات قفصة . ثم زحف إليهم من تونس فكانت الكرّة عليهم ، وفلّ جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردّهم إلى صحاري برقة ، وانتزع بلاد قسنطينة وقابس وقفصة من أيديهم ، وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليين طاعته ولاذوا بدعوته فنفاهم إلى المغرب الأقصى . وأنزل جشم ببلاد تامسنا^(٢) ، ورياحاً ببلاد الهبط ، وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا .

وكانت تخوم بلاد زناتة منذ غلبهم الهلاليون على أفريقية وضواحيها أرض مصاب ما بين صحراء أفريقية وصحراء المغرب الأوسط ، وبها قصور جدّدها فسميت بإسم من وليّ خطّتها من شعوبهم . وكان بنو بادين وزناتة وهم بنو عبد الواد وتوجين ومصاب وبقوز ودال وبنوراش^(٣) شيعة الموحدّين منذ أول دولتهم ، فكانوا أقرب إليهم من أمثالهم بنو مرين وأنظارهم كما يأتي . وكانوا يتولّون من ريف المغرب الأوسط وتلوله ما ليس يليه أحد من زناتة ، ويجوسون خلاله في رحلة الصيف بما لم يؤذن لأحد ممن سواهم في مثله حتى كأنهم من جملة عساكر الموحدّين وحاميتهم . وأمرهم إذذاك راجع إلى صاحب تلمسان من سادة القرابة ، ونزل هذا الحي من زغبة مع بني بادين هؤلاء لما اعتزلوا إخوانهم الهلاليين وتحيزوا إلى فتنهم ، وصاروا جميعاً قبلّة المغرب الأوسط من مصاب إلى جبل راشد ، بعد أن كان قسمتهم الأولى بقابس وطرابلس . وكانت لهم حروب مع أولاد خزرون أصحاب طرابلس . وقتلوا سعيد بن خزرون فصاروا إلى هذا الوطن الآخر لفتنة ابن غانية ، وانحرفهم عنه إلى الموحدّين وانهقد ما بينهم وبين بني بادين حلف على الجوار والذبّ عن الأوطان وحمايتها من معرة العدو في

(١) وفي نسخة ثانية : الميروي .

(٢) إقليم مغربي قديم كان يمتد من نهر ابي رقراق إلى وادي أم الربيع ، وقد اندثر اليوم هذا الاسم وبقي ما يذكر به كباب تامسنا بالرباط . والنسبة إليه مسناوي (قبائل المغرب ص ١١٧) .

(٣) هكذا بالأصل وفي نسخة أخرى : وبنو زرد دال وبنو راشد .

احتيال غرّتها وانتهاز الفرصة فيها . فتعاقدوا على ذلك واجتوروا وأقامت زغبة في القفار وبنو بادين بالتلول والضواحي . ثم قرّ مسعود بن سلطان بن زمام أمير الرياحيين من بلاد الهبط ، ولحق ببلاد طرابلس ونزل على زغبة وذياب من قبائل بني سليم . ووصل إلى قراقش بن رياح وحصر معه طرابلس حين افتتحها ، وهلك هنالك ، وقام إلى الميروني ولحق ولقيه بالحملة فهزمه ^(١) وقتل الكثير من قومه .

وانهزمت طائفة من قوم محمد بن مسعود منهم : ابنه عبدالله وابن عمه حركات بن أبي الشيخ بن عساكر بن سلطان ، وشيخ من شيوخ قرّة ، فضرب أعناقهم . وفرّ يحيى بن غانية إلى مسقطه من الصحراء . واستمرّت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم واتباعها . ونحن الآن نذكر أخبارهم ومصائر أمورهم ونعدّدهم فرقة فرقة ، ونخصّ منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحيه وناجعته ، ونطوي ذكر من انقرض منهم ، ونبدأ بذكر الأثبيج لتقدّم رياستهم أيام صنهاجة كما ذكرناه . ثم نقفي بذكر جشم لأنهم معدودون فيهم . ثم نذكر رياحاً وزغبة ، ثم المعقل لأنهم من أعداء هلال . ثم تأتي بعدهم بذكر سليم لأنهم جاؤا من بعدهم ولله الخلاق القديم .

* (الخبر عن الأثبيج وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة) *

كان هؤلاء الأثبيج من الهلالين أوفر عدداً وأكثر بطوناً وكان التقدّم لهم في جملتهم . وكان منهم الضحّاك وعياض ومقدم والعاصم والطيف ودريد وكرفة وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم . وفي دريد بطنان توبة وعتر ، ويقولون بزعمهم إن أثبيج هو ابن ربيعة ابن نهيك بن هلال . فكرفة هو ابن الأثبيج . وكان لهم جمع وقوة ، وكانوا أحياء غزيرة ^(٢) من جملة الهلالين الداخلين لأفريقية ، وكانت مواطنهم حيال جبل أوراس

(١) يستعجب القارىء من التحريف في الاسماء والتشويش في المعنى وفي النسخة التونسية : وهلك هنالك . وقام بأمره في قومه ابنه محمد ، ولما استبد أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص بولاية افريقية ، زحف الى الميروني ولقيه بالحملة فهزمه . * انظر المجلد الرابع : قسم النسب من كتاب دلائل الملوك و التواريخ . (٢) وفي النسخة التونسية : غزيرة .

قد قُتِلَ محمد بن عامر في سنة ١٦٦٣ ، ١٦٦٤ هـ .

من شرقية . ولما استقر أمر الأثنج بأفريقية على غلب صنهاجة على الضواحي ووقعت الفتنة بينهم ، وذلك أن حسن بن سرحان وهو من دريد قتل شبانة بن الأحيمر من كرفة غيلة ، فطوت كرفة له على الهائم (١) .

ثم إن أخته الجازية غاضبت زوجها ماضي بن مقرب بن قرّة ، ولحقت بأخيها فمنعها منه ، فاجتمعت قرّة وكرفة على فتنة حسن وقومه ، وظاهرتهم عياض ، ولم تزل الفتنة إلى أن قتل حسن بن سرحان ، قتله أولاد شبانة بن الأحيمر ، وثأروا منه بأبيهم . ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وعياض وقرّة ، واستمرت الفتنة بين هؤلاء الأمال (٢) وافترق أمرهم . وجاءت دولة الموحدين وهم على ذلك الشتات والفتنة ، وكانت لبطونهم ولاية لصنهاجة . فلما ملك الموحدون أفريقية نقلوا منهم إلى المغرب العاصم ومقدما وقرّة وتوابع لهم من جشم ، وأنزلوا جميعهم بالمغرب كما نذكر .

واعترت رياح بعدهم بأفريقية وملكوا ضواحي قسنطينة ، ورجع إليهم شيخهم مسعود بن زمام من المغرب فاعتز الزاودة (٣) على الأمراء والدول . وساء أثرهم فيها وغلبوا بقايا الأثنج ، فترلوا قرى الزاب ، وقعدوا عن الطعن وأوطنوا بالقرى والآطام . ولما نبذ بنو أبي حفص العهد للزاودة كما يأتي في أخبارهم واستجاش عليهم بنو سليم وأنزلوهم القيروان ، اصطنعوا كرفة من بطون الأثنج ، فكانوا حرباً لرياح وشيعة للسلطان . وأقطعهم الدولة لذلك جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيراً من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلاتهم الشتوية ، حتى إذا اختل ريح الدولة ، وأخلقت جدتها واعترت رياح عليها وملكوا المجالات على من يظعن فيها نزل كرفة هؤلاء بجبل أوراس حيث إقطاعاتهم وسكنوه حلاً متفرقة واتخذوه وطناً . وربما يظعن بعضهم إلى تخوم الزاب كما نذكر عن بطونهم وهم بطون كثيرة ، فأولهم : بنو محمد بن كرفة ويعرفون بالكلبية وأولاد سهيب بن محمد بن كليب ويعرفون بالشبه ، وأولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالصبحة وأولاد سرحان بن فاضل أيضاً ويعرفون بالسرحانية . وهؤلاء هم المودعات وهم موطنون

(١) وفي النسخة التونسية : على النث .

(٢) وفي نسخة ثانية : الأثنج .

(٣) وفي نسخة ثانية الرواودة وفي قبائل المغرب ص ٤١٨ : الزاودة .

يجبل أوراس مما يلي زاب تهودا^(١) . ثم أولاد نافث^(٢) بن فاضل ، وهم أهل الرياسة في كرفة ولهم أقطاعات السلطان التي ذكرناها ، وهم ثلاثة أفخاذ : أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيقة . والرياسة أخص بأولاد مساعد في أولاد علي بن جابر بن فتاح بن مساعد بن نابت . وأما بنو محمد والمرانة فهم ظواعن جائلة في القفار تلقاء مواطن أولاد نابت . ويكتالون الحبوب لأقواتهم من زروع أهل الجبل ، وأولاد نابت . وربما يستعملهم صاحب الزاب في تصارييف أمره من عسكر وإخفار وغير ذلك من أغراضه . وأما دريد فكانوا أعز الأئبيج واعلاهم كعباً بما كانت الرياسة على الأئبيج كلهم عند دخولهم إلى أفريقية لحسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم ، وكانت مواطنهم ما بين ولد العناب إلى قسنطينة إلى طارف مصقلة ، وما يحاذيها من القفر . وكانت بينهم وبين كرفة الفتنة التي هلك فيها حسن بن سرحان كما ذكرناه ، وقبره هنالك . وكانوا بطوناً كثيرة منهم أولاد عطية بن دريد وأولاد سرور بن دريد وأولاد جار الله من ولد عبدالله بن دريد . وتوبة من ولد عبدالله أيضاً وهو توبة بن جبر ابن عطف بن عبدالله . وكانت لهم بين هلال رياسة كثيرة ومدحهم شعراؤهم بشعر كثير ، فمن ذلك قول بعض شعرائهم :

دريد ذات سراة البد وللجود منقع	كما كل أرض منقع الماء خيارها
تحن إلى أوطان مرة ناقتي لكن معها	جملة دريد كان موارها
وهم عربوا الأعراب حتى تعربت	بنوف المعالي ما ينفي قصارها
وتركوا طريق النار برهة وقد	كان ما تقوى المطايا حجارها ^(٣)

فأما أولاد عطية فكانت رياستهم في أولاد بني مبارك بن حباس ، وكانت لهم تلة ابن

(١) الاسماء محرّفة والعبارة ناقصة . وفي النسخة التونسية : وأولاد شبيب بن محمد بن كليب ويعرفون بالشبية . وأولاد صبح بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالصبة . وأولاد سرحان بن فاضل أيضاً ويعرفون بالسراجنة هؤلاء هم الحديجة وهم موطنون بجبل أوراس مما يلي زاب تهودا .

(٢) وفي نسخة ثانية نابت .

(٣) وقد وردت هذه الايات في النسخة التونسية :

تحن إلى أوطان صبرة ناقتي	لكن بها جملة دريد حوارها
دريد سراة البدو للجود منقع	كما كل أرض منقع الماء خيارها
وهم عربوا الأعراب حتى تعرفت	بطرق المعالي ما ينوفي قصارها
وتركوا طريق البازمين ثيبة	وقد كان ما يقوى المطايا حجارها

حلوف من أرض قسنطينة . ثم دثروا وتلاشوا . وغلبتهم توبة على تلة ابن حلوف زحفوا إليها من مواطنهم بطارق مصقلة فلكوها وما إليها . ثم عجزوا عن رحلة القفر وتركوا الإبل واتخذوا الشاء والبقر وصاروا في عداد القبائل الغارمة . وربما طالهم السلطان بالeskرة معه فيعينون له جنداً منهم . ورياستهم في أولاد وشاح بن عطوة بن عطية ابن كمون بن فرج بن ثوبة . وفي أولاد مبارك بن عابر بن عطية بن عطوة وهم على ذلك لهذا العهد . ويجاورهم أولاد سرور وأولاد جار الله على سنهم في ذلك .

فأما أولاد وشاح فرياستهم لهذا العهد منقسمة بين سجم بن كثير بن جماعة بن وشاح وبين أحمد بن خليفة بن رشاش بن وشاح . وأما أولاد مبارك بن عابد فرياستهم أيضاً منقسمة بين نجاح بن محمد بن منصور بن عبيد بن مبارك . وعبدالله بن أحمد بن عنان بن منصور ورثها عن عمه راجح بن عثمان بن منصور وأما أولاد جار الله فرياستهم في ولد عنان بن سلام منهم . وأما العاصم ومقدم والضحاك وعياض فهم أولاد مشرف بن أثبج . ولطيف وهو ابن سرح بن مشرف . وكان لهم عدد وقوة بين الأتابج . وكان العاصم ومقدم انخرقوا عن طاعة الموحد بن إلى ابن غانية . فأشخصهم يعقوب المنصور إلى المغرب . وأنزلهم تامستا مع جشم . وبأتي خبرهم . وبقيت عياض والضحاك بمواطنهم بأفريقية . فعياض نزلوا بجبل القلعة . قلعة بني حماد وملكوا قبائله وغلبوهم على أمرهم . وصاروا يتولون جبايتهم . ولما غلبت عليهم الدولة بمظاهرة رياح صاروا إلى المدافعة عن تلك الرعايا وجبايتهم للسلطان . وسكنوا ذلك الجبل . فطوله من المشرق إلى المغرب ما بين ثنية غنية والقصاب إلى وطن بني يزيد بن زغبة . فأولهم مما يلي غنية للمهاية ، ورياستهم في أولاد ديفل . ومعهم بطن منهم يقال لهم الزير ، وبعدهم المرتفع والخراج من بطونهم .

فأما المرتفع فتلاثة بطون : أولاد تبار ورياستهم في أولاد محمد بن موسى . وأولاد حناش ، ورياستهم في بني عبد السلام . وأولاد عبدوس ورياستهم في بني صالح . ويدعى أولاد حناش . وأولاد تبار جميعاً أولاد حناش . وأما الخراج فرياستهم لأولاد زائدة بني عباس بن خفير ويجاور الخراج من جانب الغرب أولاد صخر . وأولاد رحمة من بطون عياض ، وهم مجاورون لبني يزيد بن زغبة في آخر وطن الأتابج من الهلالين . وأما الضحاك فكانوا بطوناً كثيرة ، وكانت رياستهم مفترقة بين أميرين منهم . وهما أبو عطية وكتب بن منيع ، وغلب كتب أبا عطية على رئاسة قبيلتهما الأول دولة

الموحدين ، فارتحل فيما زعموا إلى المغرب ، وسكن صخر سجلماسة ، وكانت له فيها آثار حتى قتله الموحدون أو غربوه إلى الأندلس ، هكذا ينقل أصحاب أخبارهم ، وبقي تجمعهم بالزاب حتى غلب مسعود بن زمام والزواودة^(١) عليهم وأصاروهم في جملتهم ثم عجزوا عن الطعن ، ونزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها المدن ، فهم على ذلك لهذا العهد . وأما لطيف فهم بطون كثيرة منهم اليتامى وهم أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف بني ذوي مطرف وذوي أبي الخليل وذوي حلال بن معافى . ومنهم اللقامنة أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف ومنهم : أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان . ونزار بن معن بن محيا وإليه يرجع نسب بني مزنى الولاة بالزاب لهذا العهد . وكانت لهؤلاء كثرة ونجعة . ثم عجزوا عن الطعن وغلبهم على الضواحي الزواودة من بعدهم لما قل جمعهم وافترق ملوكهم ، وصار إلى المغرب من صار منهم من جمهور الأثنج فاهتضموا ، وعليهم رياح والزواودة فترلوا بلاد الزاب ، واتخذوا بها الآطام والمدن مثل الدوسن وغريبوا وتهدوه ونقموه وبادس . وهم لهذا العهد من جملة الرعايا الغارمة لأمير الزاب . ولهم عجمة^(٢) منذ رياستهم القديمة لم يفارقوها . وهم على ذلك لهذا العهد . وبينهم في قصورهم بالزاب فتن متصلة بين المتجاورين منهم ، وحروب وقتل . وعامل الزاب يدرأ بعضاً ببعض ، ويستوفي جبايته منهم جميعاً والله خير الوارثين .

ويلحق بهؤلاء الأثنج العمور ، وغلب على الظن أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال اخوة قره بن عبد مناف وليسوا من ولد عمر بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ، لأن رياحاً وزغبة والأثنج من أبي ربيعة ، ولا نجد بينهم انتاء بالجملة . ونجد بينهم وبين قره وغيرهم من بطون هلال الانتاء ، فدل على أنهم لعمر بن عبد مناف ، أو يكونون من عمر بن ربيعة^(٣) بن عبد الله بن هلال ، وكلهم معروف . ذكره ابن الكلبي والله أعلم بذلك . وهم بطنان : قره وعبد الله ، وليس لهم رئاسة على أحد من هلال ولا ناجعة تظعن لقلتهم وافتراق ملتهم إنما هم ساكنون بالضواحي والجبال ، وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة وموطنهم ما بين جبل أوراس شرقاً إلى جبل

(١) وفي نسخة ثانية : الدواودة .

(٢) وفي نسخة ثانية عنجوبة .

(٣) وفي نسخة ثانية ربيعة .

راشد . وكان كل ذلك من ناحية المصنة^(١) والصحراء . وأما التلول فهم مرفوعون عنها بقلتهم وخوفهم من حامية الدول ، فتجدهم أقرب إلى موطن القفر والجذب . (فأما بنو قرة) منهم فبطن متسع إلا أنهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا . وبنو عبدالله منهم على رياسة فيهم وهم : عبدالله بن علي وبنوه محمد وماضي بطنان ، وولد محمد عنان وعزيز بطنان ، وولد عنان شكر وفارس بطنان . من ولد شكر أولاد يحيى ابن سعيد بن بسيط بن شكر بطن أيضاً . فأما أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضي فوطنهم بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب ، متصلين كذلك غرباً إلى مواطن غمرة ، وهم في جوار رياح وتحت أيديهم . وخول لأولاده وخصوصاً من الزاودة المتولين موطنهم بالمجال . لصاحب الزاب عليهم طاعة لقرب جواره وحاجتهم إلى سلطانه ، فيصرفهم لذلك في حاجته متى عنت من إخفار العير ومقارفة مدن الزاب مع رجله وغير ذلك .

(وأما أولاد شكر) وهم أكبر رياسة فيهم فترلوا جبل راشد ، وكانوا فريقين ، فترلوا واحتربوا وغلب اولاد محيا بن سعيد منهم اولاد زكرير ودفعوهم عن جبل راشد ، فصاروا إلى جبل كسال محاذيه من ناحية الغرب وأوطنه ، واتصلت فتنهم معهم على طول الأيام وافتتحهم رجال زغبة باقتسام المواطن ، فصار أولاد يحيى أهل جبل راشد في إيالة سويد بن زغبة وأحلافاً لهم ، وأولاد ذكرى أهل جبل كسال في إيالة بني عامر وأحلافاً لهم . وربما يقتحمون بادية زغبة مع أهل المصر^(٢) أحلافاً لهم في فتنهم كما نذكر في أخبار زغبة . وكان شيخهم من أولاد يحيى فيما قرب من عهدنا عامر بن أبي يحيى بن محيا . وكان له فيهم ذكر وشهرة . وكان ينتحل العبادة وحج ولقي بمصر شيخ الصوفية لعصره يوسف الكوراني ، وأخذ عنه لحن طرق هدايته ورجع إلى قومه وعاهداهم على طريقته ونحلته فاتبعه الكثير منهم ، وغزا المفسدون من بادية النصر في جواره ، وجاهداهم إلى أن اغتالوه بعض الايام في الصيد فقتلوه ، وكان شيخ أولاد زكرير يغمور بن موسى بن بوزير بن زكرير ، وكان يسامي عامراً ويناھضه في شرفه إلا أن عامراً كان أسود منه بنحلة العبادة والله مصرف الأمور والخلق اهـ .

(١) وفي نسخة ثانية الحصنة ولم نجد لها ذكر في تصنيف الحموي . وفي قبائل المغرب الحصنة ص ٥٨ .

(٢) وفي نسخة ثانية مع النصر .

يحيى بن علي بن جابر بن مفتاح بن مساعد بن ثابت بن قاضل بن محمد بن كلب بن عطية بن قطن

الحقفة
سرخان
ثيب

محمد بن يحيى بن محمد
كثير بن عطية بن مردان
جلال بن محمد
جلال بن محمد
جلال بن محمد
جلال بن محمد

جاد بن أبي علوان بن ديب
صرمة
نزار
ماجد بن مضر

بكار
زبد الجليل
الضحاك
العاص
مقدم

مناع بن أبي رستم
جوير
عقبة
عقبة
عقبة
عقبة

عبد بن اكرمة بن مشرف بذاتيج بن أبي ربيعة بن نهيك
عبد بن اكرمة بن مشرف بذاتيج بن أبي ربيعة بن نهيك
عبد بن اكرمة بن مشرف بذاتيج بن أبي ربيعة بن نهيك
عبد بن اكرمة بن مشرف بذاتيج بن أبي ربيعة بن نهيك
عبد بن اكرمة بن مشرف بذاتيج بن أبي ربيعة بن نهيك
عبد بن اكرمة بن مشرف بذاتيج بن أبي ربيعة بن نهيك

أبو ربيعة المجوز على ما مر تحقيقه

* (الخبر عن جشم الموحدين بسائط المغرب وبطونهم من هذه الطبقة) *

هؤلاء الأحياء بالمغرب لهذا العهد فيهم بطون من قرة والعاصم . ومقدم والأنبج وجشم والخلط . وغلب عليهم جميعاً إسم جشم فعرفوا به . وهم : جشم بن معاوية ابن بكر بن هوازن . وكان أصل دخولهم إلى المغرب أن الموحدين لما غلبوا على أفريقية أذعنت لهم هؤلاء القبائل من العرب طوعاً وكراهية . ثم كانت فتنة ابن غانية فأجلبوا فيها وانحرفوا عن الموحدين . وراجعوا الطاعة لعهد المنصور فنقل جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب ممن كثرة وشوكة وظواعن ناجعة . فنقل العاصم ومقدم من بطون الأنبج . ومعهم بطون ونقل جشم هؤلاء الذين غلب إسمهم على من معهم من الأحياء وأنزلهم تامستا . ونقل رياح وأنزلهم الهبط فترل جشم بتامستا البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى . وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل درن بها وشموخه بأنفه حذاءها ، ووشوح أعراقه حجراً عليها فلم يتجعوا بعدها قفراً ولا ابعدوا رحلة . وأقاموا بها أحياء حلولا ، وافترقت جيوشهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبني جابر .

وكانت الرياسة لسفيان من بينهم في أولاد جرمون سائر أيام الموحدين ، ولما وهن أمر بني عبد المؤمن وفشلوا وذهبت ريحهم استكثروا يجمعوهم ، فكانت لهم سورة غلب واعتزاز على الدولة بكثرتهم وقرب عهدهم بالبدواة ، وخربوا ما بين الأعياص ، وظاهروا الخلافة وأكثروا الفساد وسائر آثارهم باقية (١) .

ولما اقتحم بنو مرين بلاد المغرب على الموحدين وملكوا فاس وقريتها لم تكن فيه حامية أشد منهم بأساً ومن رياح لقرب العهد بالبدواة ، فكانت لهم معهم وقائع وحروب استلجهم فيها بنو مرين إلى أن حق الغلب واستكانوا لعز بني مرين وصولتهم ، وأعطوهم صفقة الطاعة وأصهر بنو مرين منهم إلى الخلط في بنت بني مهلهل فكان في جملة مرين ، وكانت لهم الجولة للملك . واستقرت رياسة جشم وكثرهم في الخلط منهم ، في بنت مهلهل بعد أن كانت على عهد الموحدين في سفيان .

(١) وفي نسخة ثانية : وساعت آثارهم في البني .

ثم ضربت الأيام ضرباتها وأخلقت جدّتهم وفشلوا وذهبت ریحهم ، ونسوا عهد
البداءة والناجعة ، وصاروا في عداد القبائل الغارمة للجباية والعسكرة مع السلطان .
(ولنذكر الآن) فرقههم الأربع وأحياء كل واحدة منها ونحق الكلام في أنسابهم ،
فليست راجعة إلى جشم على ما يتبين . ولكن الشهرة بهذا النسب متصلة والله أعلم
بحقائق الأمور .

هذه قبائل معدودة في جشم ، وجشم المعهود هو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن
أولعله جشم آخر من غيرها . وكان شيخهم المشهور لعهد المأمون وبنيه جرمون بن
عيسى . ونسبه فيما يزعم بعض المؤرخين أيام الموحدين في بني قرة ، وكانت بينهم وبين
الخلط شيعة للمأمون وبنيه ، فصار سفيان لذلك شيعة يحبى بن الناصر منازعه في
الخلافة بمراكش . ثم قتل الرشيد مسعود بن حميدان شيخ الخلط كما نذكر بعد ،
فصاروا إلى يحيى بن الناصر . وصار سفيان إلى الرشيد . ثم ظهر بنو مرين بالمغرب
واتصلت حروبهم مع الموحدين ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستائة عن الرشيد
ولحق بمحمد بن عبد الحق أمير بني مرين حياء مما وقع له معه ، وذلك سنة ثمان
وثلاثين وستائة . وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر وحمل عليه وهو سكران يرقص
طرباً . ثم أفاق فندم وفرّ إلى محمد بن عبد الحق ، وذلك سنة ثمان وثلاثين وستائة ،
وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها . وعلا كعب كانون ابنه من بعده عند السعيد ،
وخالف عليه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين وستائة ورجع إلى أزمور
فلكها .

وفت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته ، وقصد كانون بن جرمون ففر أمامه ،
وحضر حركته إلى تامز ردكت ، وقتل قبل مهلكه بيوم قتله الخلط في فتنة وقعت بينهم
في محلة السعيد ، وهي التي جرت عليها تلك الواقعة . وأقام بأمر سفيان من بعده أخوه
يعقوب بن جرمون ، وقتل محمد ابن أخيه كانون . وقام بأمر سفيان ، وحضر مع
المرتضى حركة أمان ايملولين سنة تسع وأربعين وستائة فرحل عن السلطان واختل
عسكره فرجع فاتبعه بنو مرين وكانت الهزيمة . ثم رجع المرتضى وعفا له عنها ، ثم قتله
سنة تسع وخمسين وستائة مسعود وعلي إبناء أخيه كانون بثأر أبيهما ، ولحقا بيعقوب بن
عبد الحق سلطان بني مرين ، وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام
بأمره ، فقدم عمه عبيد الله بن جرمون فعجز ، فقدم مسعود بن كانون ولحق عبد

الرحمن ببني مرين . ثم تقبّض المرتضى على يعقوب بن قيطون شيخ جابر وقدم عوضاً منه يعقوب بن كانون السفيفاني . ثم راجع عبد الرحمن بن يعقوب سنة أربع وخمسين وستائة فتقبض عليه واعتقل . وأقام مسعود بن كانون شيخاً على سفيان . وكان لابني عمه معه ظهور وهما : حطوش وعيسى أبناء يعقوب بن جرمون . ونزع مسعود عن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة ست وستين^(١) وستائة ابن عبد الحق ولحق بمسكورة وشب نار الفتنة والحرب ، وأقيم حطوش بن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة تسع وستين وستائة فولي مكانه أخوه عيسى وهلك مسعود بمسكورة^(٢) سنة ثمانين وستائة ولحق ابنه منصور بن مسعود بالسكسيوي إلى أن راجع الخدمة أيام يوسف بن يعقوب . ووفد عليه بعسكره من حصار تلمسان سنة ست وسبعائة فتقبله . واتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدنا . وأدركت شيخاً لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى . وكان سفيان هؤلاء حياً حلولاً بأطراف تامستا مما يلي أسفى ، وملك بسائطها الفسيحة عليهم الخلط . وبقي من أحيائهم الحرث والكلاية يتتبعون أرض السوس وقفاره ، ويطلبون ضواحي بلاد جاجة^(٣) من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس ، ورياستهم في أولاد مطاوع من الحرث . وطال عيشهم في ضواحي مراکش وإفسادهم . فلما استبدّ سلطان مراکش الأمير عبد الرحمن بن أبي فلفوس^(٤) علي ابن السلطان أبي علي سنة ست وسبعين وسبعائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم . واستقدمهم بعض أيامه للعرض بفرسانهم ورجلهم على العادة ، وشيخهم منصور بن يعيش من أولاد مطاع ، وتقبض عليهم أجمعين ، وقتل من قتل منهم وأودع الآخرين سجنونه فذهبوا مثلاً في الأيام ، وحصدت شوكتهم والله قادر على ما يشاء .

(١) وفي نسخة أخرى سبع وستين .

(٢) وفي نسخة أخرى مسكورة ولم نجد لها ذكر في معجم البلدان .

(٣) وفي النسخة التونسية خاصة . وفي معجم البلدان حاجة موضع في قول ليبد : فذكرها مناهل آحات بحاجة . لا تنزع بالدوالي وفي كتاب قبائل المغرب حاجة قبائل ص ١٣٤ وأرض خاصة بلاد من المصامدة ، ص ٤٢٠ .

(٤) وفي نسخة أخرى : يفلوسن .

* (الخلط من جشم) *

هذا القبيل يعرف بالخلط وهم في عداد جشم هؤلاء ، لكن المعروف أن الخلط بنو المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب ، كلهم شيعة للقرامطة بالبحرين . ولما ضعف أمر القرامطة استولى بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة . ثم غلبهم عليها بنو أبي الحسين من بطون تغلب بالدعوة العباسية ، فارتحل بنو سليم وبنو المنتفق من هؤلاء المسمون بالخلط إلى أفريقية ، وبقي سائر بني عقيل بنواحي البحرين إلى أن غلب منهم على التغلبيين بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن عوف بن عامر بن عقيل إخوة الخلط هؤلاء ، لأنهم في المغرب منسوبون إلى جشم تخليطاً في النسب ممن يحققه من العوام .

ولما أدخلهم المنصور إلى المغرب كما قلنا استقرّوا ببسائط تامستا ، فكانوا أولي عدد وقوة ، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم بن محمد بن هبيرة بن عواج لا نعرف من نسبه أكثر من هذا . فلما ولي العادل بن منصور خالفوا عليه ، وهزموا عساكره وبعث هلال ببيعته إلى المأمون سنة خمس وعشرين وستمائة واتبعه الموحدون في ذلك وجاء المأمون وظاهره على أمره ، ونحيز أعداؤهم سفيان إلى يحيى بن القاص^(١) منازعة . ولم يزل هلال مع المأمون إلى أن هلك في حركة سبتة وباع بعده لابنه الرشيد وجاء به إلى مراکش وهزم سفيان واستباحهم .

ثم هلك هلال وولي أخوه مسعود ، وخالف على الرشيد عمر بن أوقاريط شيخ المهاجرة من الموحدين ، وكان صديقاً لمسعود بن حميدان ، فأغراه بالخلاف على اكسر السلطان فخالف ، وحاول عليه الرشيد حتى قدم عليه بمراكش وقتله في جماعة من قومه سنة إثنين وثلاثين وستمائة . وولي أمر الخلط بعده يحيى ابن أخيه هلال ، ومرّ بقومه إلى يحيى بن القاص وحصروا مراکش ومعهم ابن أوقاريط . وخرج الرشيد إلى سجلماسة واستولوا على مراکش وعاثوا فيها . ثم جاء الرشيد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وغلبهم عليها ولحق ابن أوقاريط بالأندلس .

وأبدى علي بن هود بيعة الخلط ، وعلموا أنها حيلة من ابن أوقاريط وأنه تخلّص من

(١) وفي نسخة ثانية : يحيى بن الناصر .

الورطة ، فطردوا عنهم يحيى بن القاص إلى معقل . وراجعوا الرشيد فقبض على علي ووشاح إبني هلال وسجنهم بأزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة . ثم أطلقهم ثم غدر بعد ذلك بمشيختهم بعد الاستدعاء والثأنيس وقتلهم جميعاً مع عمر بن أوقاريط ، كان أهل اشبيلية بعثوا به إليه ، ثم حضروا مع السعيد في حركته إلى بني عبد الواد وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بفتنتهم مع سفيان يومئذ ، فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم إلى أن قبض على أشياخهم سنة اثنتين وخمسين وستمائة وقتلهم . ولحق عواج بن هلال ببني مرين ، وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرياسة فيهم . ثم رجع عواج سنة أربع وخمسين وستمائة وأغراه علي بن أبي علي فقتل في غزاته .

ثم كانت واقعة أم الرجلين على المرتضى سنة ستين وستمائة ، فرجع علي بن أبي علي إلى بني مرين . ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين وكانت الرياسة فيهم بأول السلطان لبني مرين لمهلل بن يحيى من مقدم . وأصهر إليه يعقوب بن عبد الحق فأنكحه ابنته التي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد . ولم يزل مهلهل عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين وستمائة ، ثم ابنه عطية . وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبو الحسن ، وبعثه سفيراً إلى سلطان مصر الملك الناصر .

ولما هلك قام بأمره أخوه عيسى بن عطية ، ثم ابن أخيها زمام بن إبراهيم بن عطية . وبلغ إلى المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان والقرب من مجلسه إلى أن هلك ، فولي أمره ابنه أحمد بن إبراهيم ، ثم أخوه سليمان بن إبراهيم ، ثم أخوهما مبارك على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان . ومن بعده إلى أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم ، واستولى على المغرب أخوه عبد العزيز وأقطع ابنه أبا الفضل ناحية مراکش ، فكان مبارك هذا معه .

ولما قبض على أبي الفضل قبض على مبارك وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد وقتله ، فقتل معه مبارك هذا لما كان يعرف به من صحابته ومدخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بني مرين ، وولي ابنه محمد على قبيل الخلط . إلا أن الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيح زيادة للغز والدعة . فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف والله غالب على أمره .

* (بنو جابر بن جشم) *

بنو جابر هؤلاء من عداد جشم بالمغرب ، وربما يقال إنهم من سدراتة إحدى فرق زناتة أولواتة والله أعلم بذلك . وكان لهم أثر في فتنة يحيى بن الناصر بما كانوا معه من أحزابه ، ولما هلك يحيى بن الناصر سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة بعث الرشيد بقتل شيخهم قائد بن عامر وأخيه قائد ، وولي بعده يعقوب بن محمد بن قيطون . ثم اعتقله يغلق قائد الموحدين ، بعثه المرتضى لذلك . وقدم يعقوب بن جرموق ، وولي مشيخة بني جابر إسماعيل بن يعقوب بن قيطون . ثم تحيز بنو جابر هؤلاء من أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها يحاورون هناك صناكة الساكنين بقشته وهضابه من البربر ، فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة .

والرياسة فيهم لهذه العصور في ورديقة^(١) من بطونهم ، أدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الوردقي . ثم هلك وأقيم مقامه الناصر ابنه ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان إلى سالم سنة ستين وسبعمائة ، ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه . ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره عن مراکش سنة ثمان وستين . ونازله السلطان عبد العزيز وأحيط به فلحق برابرة صناكة من قومه . ثم أمكنوا منه على مال حمل إليهم ، ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمن يغلوسن^(٢) على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب .

وطلبه عمر فأخرجوه عنهم وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة ، فنكرته الدولة ، وتقبض عليه وأودع السجن ، فكث فيه سنين وتجاقت الدول عنه من بعد ذلك ، وأطلق عقابهم . ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ابن السلطان عبد العزيز وأودعه السجن ، ونقلوا الرياسة عن بني علي هؤلاء والله يقلب الليل والنهار . وقد يزعم كثير من الناس أن ورديقة من بني جابر

(١) وفي النسخة التونسية : ورديقة وكذلك في قبائل المغرب ص ٤٢٠ .

(٢) وفي النسخة التونسية : أبو يغلوسن وقد مر معنا من قبل ولكن ورد اسمه محرفاً .

ليسوا من جشم ، وأنهم بطن من بطون سدراته إحدى شعوب لواتة من البربر ،
ويستدلون على ذلك بمواطنهم وجوارهم للبربر ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

* (العاصم ومقدم من الأثبج) *

هؤلاء الأحياء من الأثبج كما ذكرنا في أنسابهم . ونزلوا تامستا معهم ، وكانت لهم
عزة وعلواء ، إلا أن جشم أعز منهم لمكان الكثرة . وكان موطنهم بسيط تامستا ،
وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية كان إخوانهم من جشم . وكان شيخ العاصم
لعهد الموحدين ، ثم عهد المأمون منهم حسن بن زيد . وكان له أثر في فتنة يحيى بن
الناصر . ولما هلك سنة ثلاث وثلاثين وستائة أمر الرشيد بقتل حسن بن زيد مع قائد
وفائد إبني عامر شيوخ بني جابر فقتلوا جميعاً . ثم صارت الرياسة لأبي عياد وبنيه .
وكان بينهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد . وكان له تغلب في النفرة والاستقامة .
فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستائة . وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع
وسبعائة . ولم يزل دأبه هذا . وكانت له ولاية مع يعقوب بن عبد الحق من قبل
ذلك ، ومقاماته في الجهاد المذكورة . وبقيت رياسته في بنيه إلى أن انقرض أمرهم
وأمر مقدم ودرثوا وتلاشوا . والله خير الوارثين .

* (الخبر عن رياح وبطونهم من هلال بن عامر من هذه

* (الطبقة الرابعة) *

كان هذا القبيل من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعاً عند دخولهم أفريقية وهم فيما
ذكره ابن الكلبي : رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر ، وكانت
رياستهم حينئذ لموسى بن يحيى الصنبري من بطون مرداس بن رياح . وكان من
رجالهم لذلك العهد الفضل بن علي المذكور في حروبهم مع صنهاجة . وكانت
بطونهم عمر ومرداس ، وعلى كلهم بنو رياح وسعيد بن رياح وخضر بن عامر بن
رياح وهم الأخضر . ولمرداس بطون كثيرة : داود بن مرداس وصنبر بن حواز بن عقيل

بن مرداس ، وإخوتهم مسلم بن عقيل . ومن أولاده عامر بن يزيد بن مرداس بطون أخرى منهم : بنو موسى بن عامر وجابر بن عامر . وقد يقال : إنهم من لطيف كما قدمناه ، وسودان ومشهور ومعاوية بنو محمد بن عامر بطون ثلاثة واسم سودان علي بن محمد . وقد يقال أيضاً إن المشاهرة وهم بنو مشهور بن هلال بن عامر من نمير رياح والله أعلم .

والرياسة على رياح في هذه البطون كلها لمرداس ، وكانت عند دخولهم أفريقية في صنبهم . ثم صارت للزواودة^(١) أبناء داود بن مرداس بن رياح . ويزعم بنو عمر بن رياح أن أباهم كفله ورباه . وكان رئيسهم لعهد الموحدين مسعود بن سلطان بن زمام بن ورديق بن داود ، وكان يلقب البلط لشدته وصلابته . ولما نقل المنصور رياحاً إلى المغرب تخلف عساكر أخو مسعود في جماعات منهم لما بلاه السلطان من طاعته وانحياشه ، وأنزل مسعوداً وقومه لبلاد الهبط ما بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى إزغار البسيط الفيج هناك إلى ساحل البحر الأخضر ، واستقروا هنالك .

وقر مسعود بن زمام من بينهم في لمة من قومه سني تسعين وخمسمائة ، ولحق بأفريقية واجتمع إليه بنو عساكر أخيه ولحقوا بطرابلس ، ونزلوا على زغب وذياب يتقلبون بينهم . ثم نزع إلى خدمة قراقش ، وحضر معه بقومه فتح طرابلس كما نذكره في أخبار قراقش . ثم رجع إلى ابن غانية الميروي^(٢) ولم يزل في خلافة ذلك إلى أن هلك ، وقام بأمره من بعده ابنه محمد . وكانت له رياسة وغناء في فتنة الميروي مع الموحدين . ولما غلب أبو محمد بن أبي حفص يحيى الميروي مع الموحدين سنة ثمان عشرة وستائة على الحمة من بلاد الجريد ، وقتل من العرب من قتل ، كان فيمن قتله ذلك اليوم عبدالله بن محمد هذا وابن عمه أبو الشيخ بن حركات بن عساكر .

ولما هلك الشيخ أبو محمد رجع محمد بن مسعود إلى أفريقية وغلب عليها ، واجتمع إليه حلف الأتيج ظواعن من الضحاك ولطيف فكاثروه واعتروا به على قتالهم من دريد وكرفة ، إلى أن عجزت ظواعن الضحاك ولطيف عن الرحلة ، وافترقوا في قرى الزاب وصدره . وبقي محمد بن مسعود يتغلب في رحلته وصارت رياسة البدو في

(١) وفي النسخة التونسية : دؤاد .

(١) وفي نسخة ثانية : الدواودة .

(٢) وفي نسخة ثانية : الميوري .

ضواحي أفريقية ما بين قسطلية والزاب والقيروان والمسيلة له ولقومه . ولما هلك يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح سنة إحدى وثلاثين وستمائة كما ذكره انقطع ملكهم ، واستغلظ سلطان أبي حفص .

واستقل منهم الأمير يحيى بن عبد الواحد بخطبة الخلافة عندما فسد كرسيا بمراكش . وافترق أتباع يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح ، فنكره آل أبي حفص هؤلاء الزواودة . ومكانهم من الوطن مما سلف من عنادهم ومشايعتهم لابن غانية عدوهم فجاء الأمير أبو زكريا في بني سليم من مواطنهم لذلك العهد بقابس وطرابلس وما إليها . والتقدم فيهم يومئذ لمرداش والكعوب كما ذكره في أخبارهم . واصطنعواهم لمشايعة الدولة . وضربوا بينهم وبين قبائل رياح وأنزلوهم بالقيروان وبلاد قسطلية . وكانت آية محمد بن مسعود ووفد عليه في بعض السنين وفد مرداس يطلبون المكيل ويتزلون عليهم فشرها إلى نعمتهم وقتلوهم عليها ، وقتلوا رزق ابن سلطان عم محمد بن مسعود . فكانت بينهم وبين رياح أيام وحروب حتى رحلوهم جانب المشرق من أفريقية وأصاروهم إلى جانبها الغربي .

وملك الكعوب ومرداس من بني سليم ضواحي الجانب الشرقي كلها . من قابس إلى بونة نفطة وامتاز الزواودة بملك ضواحي قسنطينة ونجاية من التلول ومحلات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة . وهلك محمد بن مسعود فولي رياسته موسى بن محمد ، وكان له صيت وغناء في قومه واعتزاز على الدولة .

(ولما هلك يحيى) بن عبد الواحد بويغ ابنه محمد المستنصر الطائر الذكر المشهود له في الشهرة . وخرج عليه أخوه إبراهيم فلحق بالزواودة هؤلاء فبايعوه بجهات قسنطينة واتفقوا على تقديمه ، ونهض إليه المستنصر سنة ست وستين وستمائة ففرّوا أمامه وافترق جمعهم وتحيز إليه بنو عساكر بن سلطان منهم ، ورياستهم يومئذ لولد مهدي بن عساكر . ونبذوا العهد إلى إبراهيم بن يحيى ولحقوا بتلمسان . وأجاز البحر إلى الأندلس ، وأقام بها في جوار الشيخ ابن الأحمر .

ثم هلك موسى بن محمد وولي رياسته ابنه شبل بن موسى ، واستطال على الدولة وكثر عيثم ، فنبذ المستنصر عهدهم ، ونهض إليه بعساكره وجموعه من الموحدین والعرب من بني سليم وأولاد عساكر إخوانهم ، وعلى مقدمته الشيخ أبو هلال عياد بن محمد الهتاني وكان يومئذ أميراً ببجاية . وحاول عليهم فاستقدم رؤسائهم شبل بن موسى بن

محمد بن مسعود وأخاه يحيى ، وسباع بن يحيى بن دريد بن مسعود . وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وفضل بن ميمون بن دريد بن مسعود ومعهم دريد بن تازير شيخ أولاد نابت من كرفة ، فقبض عليهم لحين قدومهم وضرب اعناقهم في سريح ، وأخذ ابن راية^(١) حيث بايعوا أبا اسحق أخاه والقاسم بن ابي زيد بن أبي حفص الفازع إليهم لطلب الخروج على الدولة .

وافترقت ظلوا عنهم وقرؤا أمامه ، واتبعهم إلى آخر الزاب . وترك شبيل بن موسى سباعاً ابنه طفلاً صغيراً ، فكفله عمه مولاهم بن موسى ، ولم تزل الرياسة بهم ، وترك سباع ابنه يحيى أيضاً طفلاً فكفله عمه طلحة بن يحيى ، ولحق جلهم بملوك زنانة المغرب ، وأولاد محمد لحقوا بيعقوب بن عبد الحق بفاس ، وأولاد سباع بن يحيى لحقوا ببيغمر سن بن زيان بتلمسان فكسوهم وحملوهم ، فارتاشوا وقاتلوا واحتالوا وزحفوا إلى مواطنهم فغلبوا على أطراف الزاب من واركلان وقصور ريغ وصيروها سهاما بينهم ، وانترعوها للموحدين فكان آخر عهدهم بملكها .

ثم تقدموا إلى بلاد الزاب وجمع لهم عاملها أبو سعيد عثمان بن محمد بن عثمان ويعرف بابن عتوا من رؤساء الموحدين . وكان منزله بمقرة فرحف إليهم بمكانهم من الزاب ، وأوقعوا به وقتلوه به بقطاوة ، وغلبوا على الزاب وضواحيه لهذا العهد . ثم تقدموا إلى جبل أوراس فغلبوا على من به من القبائل . ثم تقدموا إلى التل وجمع لهم من كان به من أولاد عساكر ، وغلبهم موسى بن ماضي بن مهدي بن عساكر ، فجمع قومه ومن في حلفهم من عياض وغيرهم .

وتزاحفوا فغلبهم أولاد مسعود وقتلوا شيخهم موسى بن ماضي ، وتولوا الوطن بما فيه . ثم تلافت الدولة أمرهم بالاصطناع والاستئالة وأقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب ، ثم الأمصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحصنة وهي نقاوس ومقرة والمسيلة . واختص أقطاع المسيلة بسباع بن شبيل بن يحيى حتى صارت لعلبي بن سباع بن يحيى من بعد ذلك ، فهي في قسم بنيهم وسهامهم . واختص أقطاع مقرة بأحمد بن عمر بن محمد ، وهو ابن عم شبيل بن موسى بن سباع ، ونقاوس بأولاد عساكر . ثم هلك سباع بن شبيل وقام بأمرهم ابنه عثمان ،

(١) وفي نسخة ثانية : وضرب اعناقهم في مصرع احد ابن راية .

ويعرف بالعاكر ، فنازعه الرياسة بنو عمه علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى . ولم يزلوا كذلك لهذا العهد ، ولهم تغلب على ضواحي بجاية وقسنطينة ومن بها من سرديكش^(١) وعياض وأمثالهم . ورياسة أولاد محمد الآن ليعقوب بن علي بن أحمد ، وهو كبير الزاودة بمكانه وسنه وله شهرة وذكر ومحل من السلطان متوارث .

ورياسة أولاد سباع في أولاد علي بن سباع ، وأولاد علي أشرف منهم وأعز بالكثرة . والعدد ورياستهم في ولد يوسف بن سليمان بن علي بن سباع ويرادفهم أولاد يحيى بن علي بن سباع . واختص أولاد محمد بنواحي قسنطينة وأقطعتهم الدول كثيراً من أريافها . واختص أولاد سباع بنواحي بجاية وأقطاعهم فيها قليل لمنعة بجاية وضواحيها عن ضيم العرب ، ولعلمهم بالجبال المطيفة بها وتوعر مسالكها على رواحل الناجعة . وأما ريغ وواركلا فقسمة بينهم منذ عهد سلفهم كما قلناه .

وأما الزاب فالجانب الغربي منه وقاعدته طوافة^(٢) لأولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى ، وكانت لأبي بكر بن مسعود ، فلما ضعف بنوه ودرثوا اشتراها منهم علي بن أحمد شيخ أولاد عمر وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع . واتصلت بينهم بسببها الفتنة وصارت في مجالات أولاد سباع بن يحيى فسار غلب سليمان وبنيه عليها أكثر . والجانب الوسط وقاعدته بسكرة لأولاد محمد ، وفي مجالاتهم وليعقوب بن علي على عامله بسبب ذلك سلطان وعزة ، وله به تمسك وإليه انخياش في منعته من الدولة واستبداده بوطنه ، وحماية ضواحيه من عيث الأعراب وفسادهم غالب الأوقات .

وأما الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة فهو لأولاد نابت رؤساء كرفة بما هو من مجالاتهم ، وليس هو من مجالات رياح . إلا أن عمال الزاب تأخذ منه في الأكثر جباية غير مستوفاة بعسكر لها إلا في بعض الأحيان ببادية رياح باذن من كبيرهم ويعقوب وإشراكه في الأمر . وبطون رياح كلها تبع لهؤلاء الزاودة ومقتسمون عليهم وملتمسون مما في أيديهم ، وليس لهم في البلاد ملك يستولون عليه . وأشدّهم قوّة وأكثرهم جمعاً بطون سعيد ومسلم والأخضر ، يبعدون النجعة في القفار والرمال ، ويسخرون الزاودة في فتنة بعضهم مع بعض ويختصون بالحلف فريقاً دون آخر .

(١) وفي نسخة ثانية : سدويكش وكذلك في قبائل الغرب ص ٣٢١ .

(٢) وفي نسخة ثانية : طوافة .

فسعيد أحلاف لأولاد محمد سائر أيامهم إلا قليلا من الأحيان ينابذونهم ، ثم يراجعونهم ومسلم والأخضر أحلاف لأولاد سباع كذلك إلا في بعض الأحيان .
 (فأما سعيد) فرياستهم لأولاد يوسف بن زيد منهم في ولد ميمون بن يعقوب بن عريف بن يعقوب بن يوسف ، وأردافهم أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف ، وهم ينتسبون بزعمهم إلى بني سليم في أولاد القوس من سليم . والصحيح من نسبهم أنهم من رياح بالحلف والموطن ومع أولاد يوسف هؤلاء لفائف من العرب يعرفون بالمخادمة والغيوث والفجور ، فأما المخادمة والغيوث من أبناء مخدّم فمن ولد مشرف بن أثيج ، وأما الفجور فمنهم من البرابر لواتة وزناة إحدى بطونهم ، وفيهم من نفث فأما نفث فمن بطون -بندام وسيأتي ذكرهم . (وأما زناة) فهم من بطون لواتة كما ذكرناه في بني جابر ويتادلا كثير منهم وأجاز منهم إلى العدو لعهد بني الأحمر سلطان الزنادي^(١) ، وكانت له في الجهاد آثار . وذكروا أن منهم بأرض مصر والصعيد كثيراً . وأما أحلاف أولاد محمد من الزواودة فبطن من رقاب^(٢) بن سودات بن عامر بن صعصعة ، اندرجوا في أعداد رياح ، ولهم معهم ظعن ونجعة ، ولهم مكان من حلفهم ومظاهرتهم . وأما أحلاف أولاد سباع من مسلم والأخضر فقد قدّمنا أن مسلماً من أولاد عقيل بن مرداس بن رياح أخو جواز بن رياح بعضهم ينتسب إلى الزبير بن العوام وهو خلط ويقول بعض من ينكر عليهم إنما هو نسب إلى الزبير بن المهابة الذين هم من بطون عياض كما ذكرناه . ورياسته في أولاد جماعة بن مسلم بن حماد بن مسلم بين أولاد تساك^(٣) بن حامد بن كسلان بن غيث بن رحال بن جماعة . وبين أولاد^(٤) بن موسى بن قطران بن جماعة .

وأما الأخضر فيقولون إنهم من ولد خضر بن عامر وليس عامر بن صعصعة فإن أبناء عامر بن صعصعة معروفون كلهم عند النسابين . وإنما هو والله أعلم عامر آخر من أولاد رياح . ولعله عامر بن زيد بن مرداس المذكور في بطونهم ، أولهم من الخضر الذين هم ولد مالك بن طريف بن مالك بن حفصة بن قيس عيلان . ذكرهم صاحب

(١) وفي نسخة ثانية : الزناري .

(٢) وفي نسخة ثانية : رباب .

(٣) وفي النسخة التونسية : جماعة من سالم بن حماد بن سالم بين أولاد شكر .

(٤) وفي نسخة ثانية : زرارة ، هذا أصح راجع قبائل المغرب ص ٤٢٢

الأغاني وقال : إنما سمو الخضر لسوادهم ، والعرب تسمي الأسود أخضر . قال :
وكان مالك شديد السمرة فأشبهه ولده . ورياستهم في أولاد تامر بن علي بن تمام بن
عمار بن خضر بن عامر بن رياح ، واختصت مرين بأولاد تامر ولد عامر بن صالح بن
عامر بن عطية بن تامر . وفيهم بطن آخر لزيادة بن تمام بن عمار . وفي رياح أيضاً بطن
من عترة بن أسد بن ربيعة من نزار ، ويظعنون مع باديتهم .

(وأما من نزل من رياح) ببلاد الهبط حيث أنزلهم المنصور ، فأقاموا هنالك بعد رحلة
رئيسهم مسعود بن زمام^(١) بتلك المواطن إلى أن انقرضت دولة الموحدين . وكان
عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون وقتله سنة ثلاثين وستائة . ولما تغلب بنو مرين على
ضواحي المغرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم ، فقاموا بحماية
ضواحيهم وتحيز لهم بنو عسكر بن محمد بن محمد من بني مرين حين كانوا حرباً
لإخوانهم بني حماسة بن محمد ، سلف الملوك منهم لهذا العهد ، فكانت بين الفريقين
جولة قتل فيها عبد الحق بن مجيد^(٢) بن أبي بكر بن جماعة أبو الملك وابنه إدريس ،
فأوجدوا السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الترة والدماء ، فأثنوا فيهم
واستلحموهم قتلاً وسياً مرة بعد أخرى .

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت عامر بن يوسف بن يعقوب سنة سبع
وسبعائة تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا برؤس الهضاب وأسنة الرُبى المتوسطة في المرج
المستبحر باز غار فصاروا إلى عدد قليل ، ولحقوا بالقبائل الغارمة . ثم دثروا وتلاشوا
شأن كل أمة والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين لا رب غيره ولا معبود
سواه ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، عليه توكلنا واليه أنبنا واليه المصير ، نسأله سبحانه
وتعالى من فيض فضله العميم ، ونتوسل إليه بجاه نبيه الكريم ، أن يرزقنا إيماناً
دائماً ، وقلبا خاشعاً ، وعلماً نافعا ، وبقينا صادقا ، وديناً قيماً والعافية من كل بلية ،
وتمام العافية ، ودوام العافية ، والشكر على العافية ، والغنى عن الناس ، وأن يحسن
عاقبتنا في الأمور كلها ، وأن يمجينا من خزي الدنيا ، وعذاب الآخرة ، وأن يرزقنا
من فضله وكرمه ، إيماناً لا يرتد ، ونعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ومرافقة
نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنان الخلد بمنه وكرمه ، إنه على ما

(١) وفي نسخة ثانية : زنان .

(٢) وفي نسخة ثانية : محيو .

أبو يحيى بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد بن مسعود بن سلطان بن زمام بن رديني بن داود بن مرداس بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر

يعقوب بن علي بن أحمد بن عمر
عمر بن علي بن أحمد بن عمر
عقوب بن علي بن أحمد بن عمر

أبو بكر

غزاة

علي بن محمد بن عامر بن يزيد

خضر بن عامر
فادع بن علي
دهمان
محمد

عبد الله بن سنان

عبد الله بن سنان
عبد الله بن سنان
عبد الله بن سنان

عبد الله بن سنان
عبد الله بن سنان
عبد الله بن سنان

يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،
والحمد لله رب العالمين^(١) .

* (الخبر عن سعادة العالم بالسنة في رياح ومآل أمره
وتصاريف أحواله) *

كان هذا الرجل من مسلم إحدى شعوب رياح ، ثم من رحمان منهم . وكانت أمه
تدعى خضية وكانت في أعلى مقامات العبادة والورع . ونشأ هو متحلاً للعبادة
والزهد ، وارتحل إلى المغرب ولقي شيخ الصالحين والفقهاء لذلك العهد بنواحي تازة أبا
إسحق التسولي ، وأخذ عنه ولزمه ، وتفقه عليه ، ورجع إلى وطن رياح بفقهِ صحيحٍ
وورعٍ وافر ، ونزل طولقة من بلاد الزاب ، وأخذ بنفسه في تغيير المنكر على أقاربه
وعشيرته ومن عرفه أو صحبه ، فاشتهر بذلك وكثرت غاشيته لذلك من قومه
وغيرهم .

ولزم صحابته منهم أعلام عاهدوه على الترام طريقته كان من أشهرهم : أبو يحيى بن
أحمد بن عمر شيخ بني محمد بن مسعود من الزواودة ، وعطية بن سليمان بن سباع
شيخ أولاد سباع بن يحيى منهم ، وعيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد
إدريس ، وأولاد عساكر منهم ، وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة بن يحيى بن
دريد بن مسعود منهم ، وهجرس بن علي من أولاد يزيد بن زغبة ، ورجالات من
العطاف من زغبة في كثير من أتباعهم والمستضعفين من قومهم .

فكثر بذلك تابعه واستظهر بهم على شأنه في إقامة السنة وتغيير المنكر على من جاء به .
واشتد على قاطع الطريق من شرار البوادي . ثم تخطى ذلك إلى العمار فطلب عامل
الزاب يومئذ منصور بن فضل بن مزني بإعفاء الرعايا من المكوس والظلمات فامتنع
من ذلك ، واعترم على الإيقاع به ، فحال دونه عشائر أصحابه ، وباعوه على إقامة
السنة والموت دونه في ذلك .

وآذنتهم ابن مزني في الحرب ودعا لذلك أمثالهم ونظراءهم من قومهم . وكان لذلك

(١) لم يرد هذا الدعاء في النسخة التونسية . والظاهر أنه حذف إما من قبل النساخ وإما من قبل الناشرين ،
إما عمداً وإما سهواً . وقد تعمدنا إثبات محتويات هذا الكتاب عملاً بالأمانة العلمية في النقل .

العهد علي بن أحمد بن عمر بن محمد قد قام برياسة أولاد محمد ، وسليمان بن علي بن سباع قد قام برياسة أولاد يحيى ، واقتسموا رياسة الزواودة فظاهروا ابن مزني على مدافعة سعادة وأصحابه المرابطين من إخوانهم ، وكان أمر ابن مزني والزاب يومئذ راجعاً إلى صاحب بجاية من بني أبي حفص ، وهو الأمير خالد ابن الأمير أبي زكريا ، والقائم بدولته أبو عبد الرحمن بن عمر ، وبعث إليه ابن مزني في المدد فأمدّه بالعساكر والجيوش ، وأوعز إلى أهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها ، وابتنى بأنحاء زاوية ، ونزل بها هو وأصحابه . ثم جمع أصحابه المرابطين وكان يسميهم السنية وزحفوا إلى بسكرة وحاصروا ابن مزني سنة ثلاث وسبعائة وقطعوا نخيلها ، وامتنعت عليهم فرحلوا عنها . ثم أعادوا حصارها سنة أربع وسبعائة ، وامتنعت . ثم انجدر أصحاب سعادة من الزواودة إلى مشاتهم سنة خمس وسبعائة ، وأقام المرباط سعادة بزايوته من زاب طولقة ، وجمع من كان إليه من المرابطين المتخلفين عن الناجعة ، وغزا مليلي وحاصرها أياماً ، وبعثوا بالصريخ إلى ابن مزني والعسكر السلطاني مقيم عندهم ببسكرة ، فأركبهم ليلاً مع أولاد حرب من الزواودة . واصبحوا سعادة وأصحابه على مليلي فكانت بينهم جولة قتل فيها سعادة واستلحم الكثير من أصحابه وحمل رأسه إلى ابن مزني .

وبلغ الخبر إلى أصحابه بمشاتهم فظهروا إلى الزاب ، ورؤسأوهم أبو يحيى بن أحمد ابن عمر شيخ أولاد محرز ، وعطية بن سليمان شيخ أولاد سباع وعيسى بن يحيى شيخ أولاد عساكر ، ومحمد بن حسن شيخ أولاد عطية ، ورياستهم جميعاً راجعة لأبي يحيى بن أحمد . ونازلوا بسكرة وقطعوا نخيلها وتقبضوا على عمال ابن مزني فأحرقوهم في النار ، واتسع الخرق بينهم وبينه . ونادى ابن مزني في أوليائه من الزواودة ، واجتمع إليه علي بن أحمد شيخ أولاد محمد ، وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع وهما يومئذ أجلاء الزواودة . وخرج ابنه علي بينهم بعساكر السلطان ، وتراحفوا بالصحراء سنة ثلاث عشرة وسبعائة فغلبهم المرابطون ، وقتل علي بن مزني . وتقبض على علي بن أحمد فقادوه أسيراً ، ثم أطلقه عيسى بن أحمد رعيّاً لأخيه أبي يحيى بن أحمد .

واستفحل أمر هؤلاء السنية ما شاء الله أن يستفحل . ثم هلك أبو يحيى بن أحمد وعيسى بن يحيى ، وخلت أحياء أولاد محرز من هؤلاء السنية ، وتفاوض السنية فيمن

يقيمونه بينهم في الفتيا في الأحكام والعبادات ، فوقع نظرهم على الفقيه أبي عبد الله محمد بن الأزرق من فقهاء مقرة . وكان أخذ العلم بجاية على أبي محمد الزواوي من كبار مشيختها ، فقصده بذلك وأجابهم وارتحل معهم . ونزل على حسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة ، واجتمع إليه السنية واستفحل بهم جانب أولاد سباع ، واجتمعوا على الزاب وحاربوا علي بن أحمد طويلاً .

وكان السلطان أبو تاشفين حين كان يجلب على أوطان الموحددين ويخيب عليهم أولياءهم من العرب ، يبعث إلى هؤلاء السنية بالجواهر يستدعي بذلك ولايتهم . ويبعث معهم للفقيه أبي الأزرق بجائزة معلومة في كل سنة . ولم يزل ابن الأزرق مقيماً لرسمهم إلى أن غلبهم على أمرهم ذلك علي بن أحمد شيخ أولاد محمد . وهلك حسن بن سلامة وانقرض أمر السنية من رياح . ونزل ابن الأزرق بسكرة فاستدعاه يوسف بن مزني لقضائها تفريقاً لأمر السنية ، فأجابه ونزل عنده ، فولاه القضاء ببسكرة إلى أن هلك سنة (١) .

ثم قام علي بن أحمد بهذه السنية بعد حين ودعا إليها ، وجمع لابن مزني سنة أربعين وسبعائة ، ونزل بسكرة وجاءه مدد أهل ريغ ، وأقام محاصراً لها أشهراً . وامتنعت عليه فأقلع عنها وراجع يوسف بن مزني وصاروا إلى الولاية إلى أن هلك علي بن أحمد وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزني الرعاية ، وتعرف لهم أعراب الفلاة من رياح حقاً في إجازة من يحيزونه من أهل السابلة . وبقي هؤلاء الزواودة ينزع بعضهم أحياناً إلى إقامة هذه الدعوة ، فيأخذون بها أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضي حقها ، بل يجعلونها ذريعة لأخذ الزكوات من الرعايا ، ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك حسداً في ارتقاء ، فينحل أمرهم بذلك ، وتحقق مساعيمهم ، ويتنازعون على ما تحصل بأيديهم ويعترفون على غير شيء . والله متولي الأمور لا إله إلا هو سبحانه يحيى ويميت .

(١) يباض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نهد إلى سنة وفاته في المراجع التي بين أيدينا .

* (الخبر عن زغبة وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة) *

هذه القبيلة إخوة رياح ، ذكر ابن الكلبي أن زغبة ورياحاً أبناء أبي ربيعة بن نهيك ابن هلال بن عامر هكذا نسبهم ، وهم لهذا العهد مما يزعمون أن عبدالله يجمعهم ، بكسر دال عبد ، ولم يذكر ابن الكلبي ذلك ، وذكر عبدالله في ولد هلال ، فلعل انتسابهم إليه بما كلفهم واشتهر دونهم ، وكثيراً ما يقع مثل هذا في أنساب العرب أعني انتساب الأبناء لعمهم أو كافلهم والله أعلم .

وكانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم أفريقية وتغلبوا على نواحي طرابلس وقابس ، وقتلوا سعيد بن خزرون من ملوك مغراوة بطرابلس . ولم يزالوا بتلك الحال إلى أن غلب الموحدون على أفريقية ، وثار بها ابن غانية ، وتحيزت إليه أفريق هلال بن رياح وجشم ، فترعت زغبة إلى الموحدين ، وانحرفوا عن غانية فرعوا له حق نزوعهم ، وصاروا يداً واحدة مع بني يادين من زناتة في حماية المغرب الأوسط من ابن غانية واتباعه ، واتصلت بمحالاتهم ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار ، وملك بنو يادين وزناتة عليهم التلول .

(ولما ملكت زناتة بلاد المغرب الأوسط ونزلوا بأمصاره ، دخل زغبة هؤلاء التلول وتغلبوا فيها ، ووضعوا الأتاوة على الكثير من أهلها بما جمعهم وزناتة من البداوة وعصبية الحلف ، وخلا قفرهم من ظعونهم وحمايتهم فطرقته عرب المعقل المجاورون لهم من جانب المغرب ، وغلبوا على من وجدوا من مخلف زغبة هؤلاء بتلك القفار ، وجعلوا عليهم خفارة يأخذونها من إبلهم ، ويختارون عليهم البكرات منها . وأنفوا بذلك وتآمروا وتعاقدوا على دفع هذه الهضمة ، وتولى كبرها من بطونهم ثوبة بن جوثة من سديد كما نذكره بعد ، فدفعوهم عن أوطانهم من ذلك القفر . ثم استفحلت دولة زناتة وكفحوا العرب عن وطن تلولهم لما انتشأ عنهم من العيث والفساد فرجعوا إلى صحرائهم ، وملك الدولة عليهم التلول والحيوب ، واستصعب الميرة وهزل الكراع ، وتلاشت أحوالهم وضربت عليهم البعوث ، وأعطوا الأتاوة والصدقة حتى إذا فشل ريع زناتة ودخل الهرم دولتهم ، وانترى الخوارج من قرابة الملك بالقاصبة

وجدوا السبيل بالفتن إلى طروق التلول ، ثم إلى الغلب فيها ، ثم غالبوا زناتة عليها فغلبوهم في أكثر الأحيان ، وأقطعهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الأوسط وأمصاره في سبيل الاستظهار بهم ، فتمشت ظعونهم فيه وملكوه من كل جانب كما نذكره وبطون زغبة هؤلاء يتعدّدون من يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة ، وقد اقتسموا بلاد المغرب الأوسط كما نذكر في أخبارهم .

* (بنو يزيد بن زغبة) *

كان لبني يزيد هؤلاء محل من زغبة بالكثرة والشرف ، وكان للدول به عناية ، فكانوا لذلك أول من أقطعتهم الدول من العرب التلول والضواحي . أقطعهم الموحدون في أرض حمزة من أوطان بجاية مما يلي بلاد رياح والأثابج فترلوا هنالك ، ولحوا الشنايا المفضية إلى تلول حمزة والدهوس وأرض بني حسن ونزلوها ريفاً وصحراء ، وصار للدولة استظهارهم على جباية تلك الرعايا من صنهاجة وزواوة . فلما عجزت عساكر بجاية من جبايتهم دفعوهم لها فأحسنوا في اقتضاءها وزادت الدول بهم تكرمة وعناية بذلك . وأقطعهم الكثير من تلك الأوطان . ثم غلب زناتة الموحدون على تلك الأوطان فاقتطعوها عن أوطان بجاية وأصاروها عن ممالكهم .

فلما فشل ربح زناتة وجاش بحر فنتهم مع العرب استبد بنو يزيد هؤلاء بملكة تلك الأوطان ، وغلبوا عليها من جميع جوانبها ، فرغوا لجبايتها واقتضاء مغارمها ، وهم على ذلك لهذا العهد . وهم بطون كثيرة فمنهم حميان بن عقبة بن يزيد ، وجواب وبنو كرز وبنو موسى والمرابعة والخشنة . وهم جميعاً بنو يزيد بن عيسى بن زغبة وإخوانهم عكرمة بن عيسى من ظعونهم ، وكانت الرياسة في بني يزيد لأولاد لاحق ، ثم لأولاد معافى . ثم صارت في بيت سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبدالله بن سعيد بن محمد بن عبدالله بن مهدي بن يزيد بن عيسى بن زغبة ، وهم يزعمون أنه مهدي بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، نسب تأباه رياستهم على غير عصبتهم ، وقد مر ذلك قبل .

وربما نسبهم آخرون إلى سلول ، وهم بنو مرة بن صعصعة أخي عامر بن صعصعة وليس بصحيح لما قلناه . وقد يقال : إن سلولاً وبني يزيد إخوة . ويقال لهم جميعاً

أولاد فاطمة . وبنو سعد هؤلاء ثلاثة بطون : بنو ماضي بن رزق بن سعد ، وبنو منصور بن سعد ، وبنو زغلي بن رزق بن سعد . واختصت الرياسة على الظعون والحلول ببني زغلي . وكانت لريان بن زغلي فيما علمناه . ثم من بعده لأخيه ديفل ، ثم لأخيهما أبي بكر ، ثم لابنه ساسي بن أبي بكر ، ثم لابنه معتوق بن أبي بكر ، ثم لموسى ابن عمهم أبي الفضل بن زغلي ثم لأخيه أحمد بن أبي الفضل ، ثم لأخيهما علي بن أبي الفضل . ثم لأبي الليل بن أبي موسى بن أبي الفضل ، وهو رئيسهم لهذا العهد . وتوفي سنة إحدى وتسعين وخلفه في قومه ابنه .

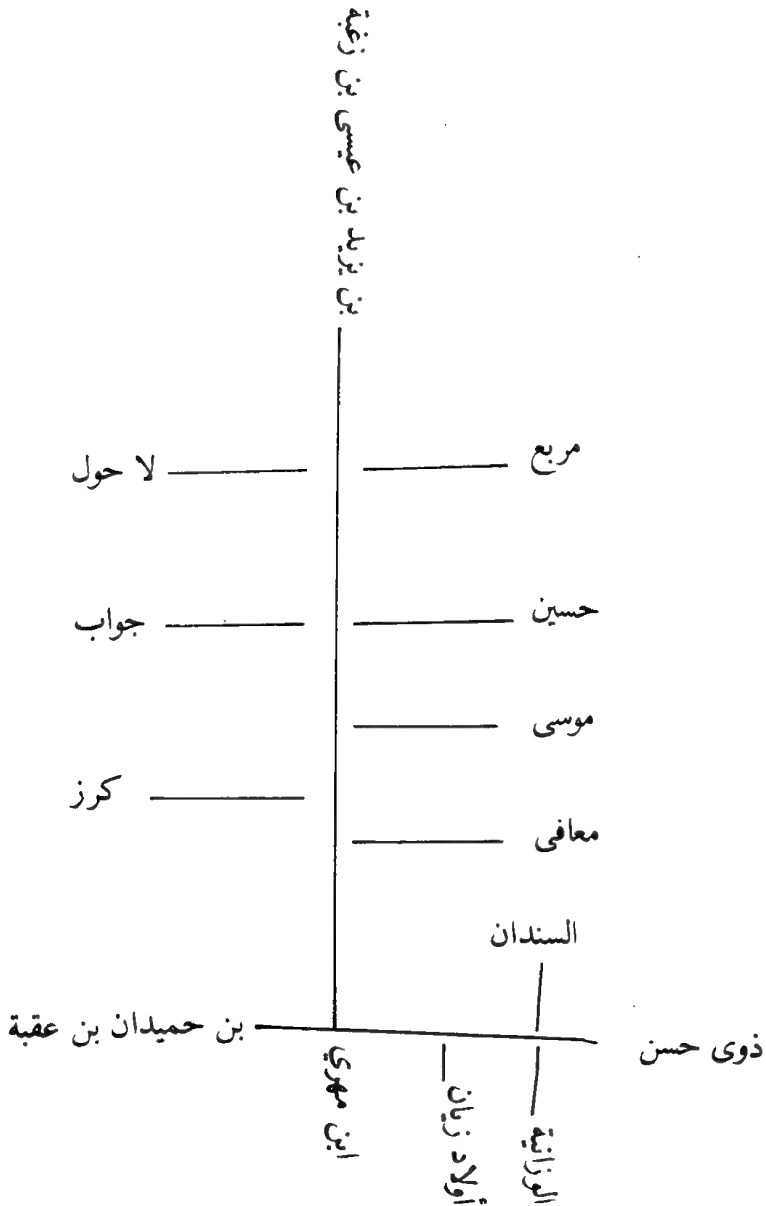
وكان من أحلافهم فيما تقدم بنو عامر بن زغبة يظعنون معهم في محالاتهم ويظاهرونهم في حروبهم . وكانت بين رياح وزغبة فتنة طويلة لعهد موسى بن محمد بن مسعود ، وابنه شبل أيام المستنصر بن أبي حفص . فكان بنو يزيد هؤلاء يتولون كبرها لمكان الجوار . وكان بنو عامر أحلافهم فيها وظهراءهم ، وكان لهم على مظاهرتهم وضبيعة من الزرع تسمى الغرارة وهي ألف غرارة من الزرع ، وكان سببها فيما يزعمون : أن أبا بكر بن زغلي غلبته رياح على الدهوس من وطن حمزة أزمان فنتته معهم ، فاستنصر بني عامر ، فجاءه أولاد شافع وعليهم صالح بن بالغ ، وبنو يعقوب ، وعليهم داود بن عطف وحميد وعليهم يعقوب بن معروف . واسترجع وطنه وفرض لهم على وطنه ألف غرارة من الزرع ، واستمرت لبني عامر .

فلما ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيها ، ودخلت زناتة إلى التلول والأرياف . كثر عيث المعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن ببني عامر هؤلاء من محلاتهم بصحراء بني يزيد ، وأثرهم في جواره بصحراء تلمسان كياداً للمعقل ، ومزاحمة لهم بأقيالهم فترلوا هنالك . وتبعتهم حميان من بطون بني يزيد بما كانوا بطوناً وناجعة ، ولم يكونوا حلولاً ، فصاروا في عداد بني عامر لهذا العهد . وتولت بنو يزيد بلاد الريف وخصبه ، فأوطن فيه أكثرهم وقال أهل الناجعة منهم الأفاريق من عكرمة وبعض بطون عيسى يظعنون مع أولاد زغلي في قفرهم .

وأقصروا عن الظعن في القفر إلا في القليل ومع أحلافهم من ظعون رياح أو زغبة ، وهم على ذلك لهذا العهد . ومن بطون بني يزيد بن عيسى زغبة هؤلاء بنو خشين وبنو موسى وبنو معافي وبنو لاحق . وكانت الرياسة لهم ولبني معافي قبل بني سعد بن مالك ، وبنو جواب وبنو كرز وبنو مربع وهم المربعة ، وهؤلاء كلهم بطن حمزة لهذا

العهد . ومن المراجعة حي ينجعون بضواحي تونس لهذا العهد ، وغلب عليهم بسبب
 زغبة والله الخلاق العليم .

أبو الفضل بن موسى بن زغلي بن رزق بن سعد بن مالك بن عبد القوي بن
 عبدالله بن سعيد بن محمد بن عبدالله .



* (حصين بن زغبة) *

وأما أولاد حصين بن زغبة فكانت مواطنهم بجوار بني يزيد إلى المغرب عنهم . كانوا حيا حلوا هنالك ، وكان الريف للحاذي من تيطري ونواحي المدينة مواطن للشعالة من بطون البعوث ، ويأخذون منهم الأتاوات والصدقات . حتى اذا ذهب سلطان بني توجين من أرض المدينة^(١) وغلبهم عليهم بنو عبد الواد ساموا حصيناً هؤلاء خطة الخسف والذل ، وألزموهم الوضائع والمغارم ، واستلحموهم بالقتل وهضموهم بالتكاليف ، وصيروهم في عداد القبائل الغارمة ومآثر ذلك ، كان تغلب بني مرين على جميع زناتة كما نذكره ، فكانوا لهم أطوع ، ولدولتهم أذل . فلما عاد بنو عبد الواد إلى ملكهم لعهد أبي حمو موسى بن يوسف بعد مهلك السلطان أبي عنان هبت ريح الغز للعرب ، وفشل ريح زناتة ، ولحق دولتهم ما يلحق الدول من الهرم ، ونزل حصين هؤلاء بتيطري وهو جبل أشيرو ملكوه وتحصنوا به .

وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حمو لما ملك من قبله لحق بتونس مقتطعا^(٢) حباله بني مرين ، وخرج طالباً أبيه ، ومنازلاً لابن عمه هذا ، ونزل في خبر طويل نذكره بقبائل حصين هؤلاء أحوج ما كانوا لمثلها لما راموه من خلع ما كان بأعناقهم من الدول وطرق الاهتضام والعسف فتلقوه بما يجب له . ونزل منهم بأكرم نزل وأحسن مثوى . وبايعوه وراسلوا إخوانهم وكبراءهم من رؤساء زغبة بني سويد وبني عامر فأصفقوا عليه . وترددت عساكر السلطان أبي حمو وبني عبد الواد إليهم فتحصنوا بجبل تيطري وأوقعوا بهم .

ونهب إليهم السلطان أبو حمود بعساكره فقتلوه ونالوا منه ، ونالت زغبة بذلك ما أرادوه من الاعتزاز على الدولة آخر الأيام ، وتملكوا البلاد أقطاعات وسهائلاً ، ورجع أبو زيان إلى رياح فترل بهم على سلم عقده مع ابن عمه وبقي لحصين أثر الاعتزاز من جرّائه . واقطعتهم الدولة ما ولوه من نواحي المدينة وبلاد صنهاجة . لحصين ول هؤلاء

(١) وفي نسخة : المرية . ولعلها المدية في أواخر إفريقية من أعمال بني حمّاد . وليس المرية من أعمال الاندلس

لأنها بعيدة عن بجنا هنا . راجع قبائل المغرب ص ١٤٥ .

(٢) وفي نسخة أخرى : مفلتاً من

بطنان عظيمان جندل وخراش ، فمن جندل أولاد سعد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل ، ورياستهم في بني خليفة بن سعد لعل^(١) ، وسيدهم أولاد خشعة بن جندل .

وكانت رياستهم على جندل قبل أولاد خليفة ، ورئيسهم الآن علي بن صالح بن دياب بن مبارك بن يحيى بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة . ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل بن خراش ورياستهم لهذا العهد في ولد رحاب بن عيسى بن أبي بكر بن زمام بن مسعود وأولاد فرج بن مظفر ، ورياستهم في بني خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج . وأولاد طريف بن معبد بن خراش ، ويعرفون بالمعابدة ، ورياستهم في أولاد عريف وربما انتسب أولاد مظفر من خراش إلى بني سليم ويزعمون أن مظفر بن محمد الكامل جاء من بني سليم ونزل بهم والله أعلم بحقيقة ذلك .

* (بنو مالك بن زغبة) *

وأما بنو مالك بن زغبة فهم بطون ثلاثة : سويد بن عامر بن مالك وهم بطنان ، العطاف بن ولد عطاف بن رومي بن حارث . والديالم من ولد ديلم بن حسن بن إبراهيم بن رومي فأما سويد فكانوا أحلافاً لبني يادين قبل الدولة . وكان لهم اختصاص ببني عبد الواد ، وكانت لهم لهذا العهد أتاوات على بلد سيرة والبطحاء وهوارة . ولما ملك بنويادين تلول المغرب الأوسط وأمصاره كان قسم بني توجين منه شياخ^(٢) التلول القبلية ما بين قلعة سعيدة في الغرب إلى المريّة في الشرق . فكان لهم قلعة ابن سلامة ومنداس وأنشريس وورنية^(٣) وما بينهما ، فاتصل جوارهم لبني مالك هؤلاء في القفر والتل .

ولما ملك بنو عبد الواد تلمسان ونزلوا بساحتها وضواحيها ، كان سويد هؤلاء أخص

(١) وفي نسخة أخرى : ليلي .

(٢) وفي نسخة ثانية : سياج .

(٣) وفي النسخة التونسية : ووزينة . وفي النسخة البارسية وورثته . وفي بعض النسخ الأخرى : ووزلنة .

علي بن صالح بن دياب بن مبارك بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشمه

علي — بن خليفة بن سعد بن خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي — بن خدل — بن حصين بن زغبة
سبدم

بن معبد

رحاب بن عيسى بن ابي بكر بن زمام بن مسعود < بن مظفر بن محمد الكامل — بن خراش

ابن يزيد بن مسعود بن معروف — بن عريف بن حريش
سباد بن عبدالله بن كمبر

بحلفهم وولايتهم من سائر زغبة . وكانت لسويد هؤلاء بطون مذكورون من فلمة (١) وشبانة ومجاهر وجوثة ، كلهم من بني سويد . والحساسة بطن من شبانة إلى حسان بن شبانة وغفير وشافع ومالف . كلهم بنو سليمة (٢) بن مجاهر وبو رحمة وبو كامل ، وحمدان بنو مقدر بن مجاهر . ويزعم بعض نسبهم أن مقدراً ليس بجدهم ، وإنما وضع ذلك أولاً بو كامل .

وكانت رياستهم لعهدهم في يغمراسن وما قبله في أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان ، وكانوا ثلاثة : مهدي وعطية وطراد . واختص مهدي بالرياسة عليهم ، ثم ابنه يوسف بن مهدي ، ثم أخوه عمر بن مهدي واقطع يغمراس يوسف بن مهدي ببلاد البطحاء وسيرات وأقطع عنتر بن طراد بن عيسى مراري (٣) البطحاء وكان يقتضون أتاوتهم على الرعايا ولا يناكرهم فيها . وربما خرج في بعض خروجه واستخلف عمر بن مهدي على تلمسان وما إليها من ناحية المشرق .

وفي خلال ذلك خلت بمحالاتهم بالقفر من ظعونهم وناجعتهم ، إلا أحياء من بطونهم قليلي العدد من الجوثة وفليته ومالف وغفير وشافع وأمثالهم فغلب عليهم هنالك المعقل ، وفرضوا عليهم أتاوة من الإبل يعطونها ويختارونها عليهم من البكرات . وكان المتولي لأخذها منهم من شيوخ المعقل ابن الريش بن نهار بن عثمان بن عبيد الله ، وقيل علي بن عثمان أخو نهار . وقيل إن البكرات إنما فرضها للمعقل على قومه عامر بن جميل لأجل مظاهرة له على عدوه ، وبقيت للمعقل عادة إلى أن تمشت رجالات من زغبة في نقض ذلك ، وغدروا برجال المعقل ومنعوا تلك البكرات .

(أخبرني يوسف) بن علي ، ثم غانم عن شيوخ قومه من المعقل أن سبب البكرات وفرضها على زعمه كما ذكرناه . وأما سبب رفعها فهو أن المعقل كانوا يقولون غرامتها ادالة بينهم ، فلما دالت لعبيد الله الدولة في غرامتها جمع ثوابه في جوثة قومه وحرّضهم على منعها ، فاختلفوا واختبروا مع عبيد الله ودفعوهم إلى جانب الشرق ، وحالوا بينهم وبين أحيائهم وبلادهم . وطالت الحرب ومات فيها بنو جوثة وابن مريح (٤) من

(١) وفي نسخة أخرى فليته ، وكذلك في قبائل المغرب ص ٤٣٣ .

(٢) وفي نسخة أخرى : بنو سليمان .

(٣) وفي نسخة أخرى : طراد بن عيسى قرارة .

(٤) وفي نسخة أخرى : مريح .

رجالاً لهم ، وكتب بنو عبدالله إلى قومهم من قصيدة بني معقل
 بني معقل إن لم تصرخونا على العدو فلا يذلكم تذكر ما طرأ لنا^(١)
 قتلنا ابن جوته والهام بن مريح على الوجه مكبوب وذا من فعالنا .
 فاجتمعوا وجاءوا إلى قومهم ، وفرت أحياء زغبة ، واجتمع بنو عبيدالله وإخوانهم من
 ذوي منصور وذوي حسان ، وارتفع أمر البكرات من زغبة لهذا العهد . ثم حدث بين
 يغمراسن وبينهم فتنة هلك فيها عمر بن مهدي وابن حلوا وانزلوهم عن التلول^(٢)
 والأرياف من بلاد عبد الواد إلى القفر المحاذي لأوطان بني توجين على المهادنة
 والمصاهرة ، فصاروا لهم حلفاء على بني عبد الواد ومن عجز منهم عن الظعن نزل
 ببساتط البطحاء . وسارت بطونهم كلها من شبابة وبجواهر وغفير وشافع ومالف وبو
 رحمة وبو كامل . ونزل محيسن بن عمارة وأخوه سويد بضواحي وهران ، فوضعت
 عليهم الأتاوات والمغارم وصاروا من عداد الرعايا أهل الجباية ، وولي عثمان بن عمر
 أمر الظعن من سويد ثم هلك وقام بأمره ابنه ميمون وغلب عليه أخوه سعيد واستبد .
 وكان بين سويد وبين بني عامر بن زغبة فتنة اتصلت على الأيام وثقلت وطأة الدولة
 الزيانية عليهم . وزحف يوسف بن يعقوب إلى منازل تلمسان ، وطال مقامه عليها ،
 فوفد عليه سعيد بن عثمان بن عمر بن مهدي شيخهم لعده ، فأتى مجلسه وأكرم
 وفادته . ثم أجمع قتله ففرّ ولحق بقومه ، وأجلب على أطراف التلول وملك السرسو
 قبلة بلاد توجين ، ونزعت إليه طائفة من عكرمة بني يزيد وعجزوا عن الظعن ،
 وأنزلهم بجبل كريكرة قبلة السرسو ووضع عليهم الأتاوة . ولم يزل كذلك إلى أن هلك
 يوسف بن يعقوب واتصل سلطان آل يغمراسن .

ولما ولي أبو تاشفين بن موسى بن عثمان بن يغمراسن استخلص عريف بن يحيى
 لديه صحابة كانت له معه قبل الملك . ثم آسفه ببعض الترعات الملوكية . وكان هلال
 مولاه المستولي عليه يغص بما كان عريف منه ، فترع عريف بن يحيى إلى بني مرين
 ملوك المغرب الأقصى ، ونزل على السلطان أبي سعيد منهم سنة عشرين وسبعائة ،
 واعتقل أبو تاشفين عمه سعيد بن عثمان إلى أن هلك في محبسه قبيل فتح تلمسان ،

(١) وقد ورد هذا البيت في نسخ أخرى :

بني معقل إن لم تصرخونا على العدو فلا يذلكم تذكر ما طرأ لنا

(٢) وفي نسخة أخرى : وارتحلوا عن التلول .

ولحق أخوه ميمون بن عثمان وولده بملك المغرب وأنزل عريف بن يحيى من سلطان بني مرين أكرم نزل وأدنى مجلسه وأكرم مثواه . ثم اتخذ ابنه السلطان أبو الحسن من بعده بطانة لشوراه ونجياً لخلواته . ولم يزل يحرضهم على آل زيان بتلمسان . ونفس ميمون بن عثمان وولده عريف رتبته عند السلطان أبي الحسن ، فترعوا إلى أخيه أبي علي بتافيلات ^(١) فلم يزالوا بها إلى أن هلك ميمون تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه أبي علي وصار أولاد ميمون في جملته . وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان يحرق أمم المغرب ، وأحجر على زيان بتلمسان ، ثم اقتحمها عليهم عنوة وأبترهم ملكهم . وقتل السلطان أبا تاشفين عند شدونة ، وبعث كلمته في أقطار المغرب الأقصى والأدنى إلى تخوم الموحدنين من أندلس . وجمع كلمة زنانة واستبعتهم تحت لواته . وفر بنو عامر من زغبة أولياء بني عبد الواد إلى القفر كما نذكره . ورفع السلطان أبو الحسن قوم عريف بن يحيى بمحلته على كل عربي في إيالته من زغبة والمعلل . وكان عقد سمعون بن سعيد على الناجعة من سويد ، وهلك أيام نزول السلطان بتاسالة سنة اثنتين وثلاثين [وسبعائة] قبل فتح تلمسان .

وولي من بعده أخوه عطية وهلك لأشهر من ولايته بعد فتح تلمسان فعقد السلطان لوزمار ^(٢) بن عريف على سويد وسائر بني مالك ، وجعل رئاسة البدو حيث كان من أعماله ، وأخذ الصدقات منهم والأتاوات ، فعكفت على هيئة أمم البدو واقتدى بشوراه رؤسائهم . وفر ابن عمه المسعود بن سعيد ولحق ببني عامر ، وأجلبوا على السلطان بدعاء جزار شبة ابنه أبي عبد الرحمن . فجمع لهم وزمار وهزمهم كما نذكره . وسفر عريف بين السلطان أبي الحسن وبين الملوك لعهد من الموحدنين بأفريقية وبني الأحمر بالأندلس والترك بالقاهرة . ولم يزل على ذلك إلى أن هلك السلطان أبو الحسن .

(ولما تغلب) السلطان أبو عنان على تلمسان كما سنذكره ، رعى لسويد ذمة الانقطاع إليه ، فرفع وزمار بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة وأقطعه السرسو وقلعة ابن

(١) وفي نسخة أخرى : تافيلات . كانت منطقة الواحات (حيث توجد سجلماسة المؤسسة عام ١٤٠ هـ - ٧٥٨ م تسمى بالبربرية تافيلات وقد سماها المؤرخون العرب تافلا له أو فلا له وهي التي استقر بها ج العلويين أو الشرفاء العلويين الشريف الماجد حسن بن قاسم (الموسوعة الغربية ومعلمة الصحراء الملح الاول ص ٦٢ .) كتاب المغرب (ص ١٤٢) .

(٢) وفي نسخة ثانية لوزمار .

سلامة وكثيراً من بلاد توجين . وهلك أبو عريف بن يحيى ، فاستقدمه من البدو ، وأجلسه بمكان أبيه من مجلسه جوار أريكته ، ولم يزل على ذلك . وعقد لأخيه عيسى على البدو من قومه ، ثم بني عبد الواد بعد ملك السلطان أبي عنان عادت لهم الدولة بأبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي يغمراسن من أعياص ملوكهم .

وتولى كبر ذلك صغير بن عامر وقومه لما لهم مع آل زيان من الولاية ، وما كان لبني مرين فيهم من النعمات فلكوا تلمسان ونواحيها ، وعقدوا على سويد لميمون بن سعيد ابن عثمان . وتاب وزمار بن عريف ورأى الترهيب والخروج عن الرياسة ، فبنى حصناً بوادي ملوية من تخوم بني مرين ونزل به ، وأقام هنالك لهذا العهد . وملوك بني مرين يرفعون له ذمة اختصاصه سلفهم فيؤثرونه بالشورى والمداخلة في الأحوال الخاصة مع الملوك والرؤساء من سائر النواحي ، فتوجهت إليه بسبب ذلك وجوه أهل الجهات من الملوك وشيوخ العرب ورؤساء الأقطار .

ولحق أخواه أبو بكر ومحمد بقومهم فكروا بالميمون ودسوا عليه من قتله غيلة من ذويهم وحاشيتهم ، واستبدوا برياسة البدو . ثم لما نصب بنو حصين بن زيان ابن عم السلطان أبي حمو للملك كما نذكره ورشحوه للمنازعة سنة سبع وستين وسبعائة هبت من يومئذ ربيع العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط فأعجزوا عن حمايته ، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سده . ودبوا فيها ديبب الظلال في الفيء ، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان طوعاً وكرهاً رعيّاً لخدمته ، وترغيباً فيها وعدة وتمكيناً لقوته حتى أفرجت لهم زناتة عن كثيرها ، ولجؤا إلى سيف البحر .

وحصل كل منهم في الفلول على ما يلي موطنه من بلاد القفر . فاستولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبني حسن كما كانوا من قبل ، ومنعوا المغارم ، واستولى بنو حسين على ضواحي المدينة أقطاعاً والعطاف على نواحي مليانة ، والديالم على وزينة ، وسويد على بلاد بني توجين كلها ما عدا جبل ونشريس لتوعره بقيت فيه لمة من توجين رياستهم لأولاد عمر بن عثمان من الجشم بني تيغرين كما نذكره ، وبني عامر على تاسالة وميلانة إلى صيرور^(١) إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران .

(١) وفي نسخة أخرى هيدور . وفي ثانية ميورور .

وتماسك السلطان بالأمصار وأقطع منها كلميتو لأبي بكر بن عريف ، ومازونة لمحمد بن عريف ، ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة . وأوشك بهم أن يستولوا على الأمصار . وكل أول فإلى آخر ، ولكل أجل كتاب ، وهم على ذلك لهذا العهد .

ومن بطون سويد هؤلاء بطن بنواحي البطحاء يعرفون بهبرة ، ينسبهم الناس إلى مجاهد ابن سويد ، وهم يزعمون أنهم من قوم المقداد بن الأسود ، وهم بهذا من قضاة ، ومنهم من يزعم أنهم من تجيب إحدى بطون كندة والله أعلم . ومن طواغن سويد هؤلاء ناجعة يعرفون بصبيح ، ونسبهم إلى صبيح بن علاج بن مالك ولهم عدد وقوة وهم يظعنون بظعن سويد ويقيمون بمقامهم .

(وأما الحرث بن مالك) وهم العطايف والديالم فوطن العطايف قبلة مليانة ، ورياسة ظعونهم لولد يعقوب بن نصر بن عروة من منصور بن أبي الذئب بن حسن بن عياض بن عطايف بن زيان بن يعقوب ، وابن أخيه علي بن أحمد وبنهم ، ومعهم طائفة من براز إحدى بطون الأثبج . وأقطعهم السلطان مغارم جبل دراك وما إليه من وادي شلب . وحال بينهم وبين موطن سويد ونشريس ولهم بلاد وزينة في قبلة الجبل رياستهم في ولد إبراهيم بن زروق بن رعاية من مزروع بن صالح بن ديلم ، والسعد بن العباس بن إبراهيم منهم لهذا العهد . وكانت من قبل لعمه أبي يحيى بن إبراهيم وتقبض عليه السلطان أبو عثمان بإشارة عريف بن يحيى وأغرى به وهلك به وهلك في محبسه .

(وفيه بطون كثيرة) منهم بنو زيادة بن إبراهيم بن رومي والدهاقنة أولاد هلال بن حسن وبنونوال بن حسن أيضاً ، وكلهم إخوة ديلم بن حسن وابن عكرمة من مزروع بن صالح ، ويعرفون بالعكارمة . وهؤلاء العطايف والديالم أقل عدداً من سويد وأولياؤهم في فتنهم مع بني عامر لمكان العصبية من نسب مالك ، ولسويد عليهم اعتزاز بالكثرة . والديالم أبعد مجالاً منهم في القفر ويحاذيهم في مواطنهم من جانب التلول بطن من بطون الحرث يعرفون بغريب نسبهم إلى غريب بن حارث ، حي حلول بتلك المواطن يطلبهم السلطان في العسكرية ، ويأخذ منهم المغارم وهم أهل شاء وبقر ، ورياستهم في أبناء مزروع بن خليفة بن خلوف بن يوسف بن بكرة بن منهاب بن مكتوب بن منيع بن مغيث بن محمد الغريب ، وهو جدّهم ابن حارث . وترادفهم في

رياستهم على غريب أولاد يوسف ، وهم جميعاً أولاد بني منيع وسائر غريب من
الأحلاف شيوخهم أولاد كامل ، والله مالك الخلق والأمر .

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

سعد بن العباس < بن ابراهيم بن زروق بن زغبة | بن حسن | بن ابراهيم

دمهان

بنو عامر

بنو احمد بن يعقوب بن موسى بن يعقوب بن نصر بن عروة بن منصور بن أبي الذئب بن حسن بن عياض بن عطف < بن ادي < بن الحارث

اولان

بنو مزاع بن مخلوف بن يوسف بن بركة بن مناهب بن مكفوت < بن منيع بن مغيث بن محمد بن الغريب

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

ونمار بن عريف بن يحيى < بن عثمان بن عمر < بن مهدي بن عيسى < بن عبد القوي بن حمدان - بن معزز < بن مجاهد - بن سويد بن عامر بن مبارك بن زغبة

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

بنو عامر

* (بنو عامر بن زغبة) *

وأما بنو عامر بن زغبة فموطنهم في آخر مواطن زغبة من المغرب الأوسط قبلة تلمسان مما يلي المعقل ، وكانت مواطنهم من قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق ، وكانوا مع بني يزيد حياً جميعاً ، وكانوا يغلبون غيرهم في مواطن حمزة والدهوس ، وبني حسن لميرة أقواتهم في المصيف . ولهم على وطن بني يزيد ضريبة من الزرع متعارفة بين أهله لهذا العهد . يقال : إنها كانت لهم أزمان تغلبهم في ذلك الوطن ، وقيل إن أبا بكر بن زغبني في فتنته مع رياح غلبوه على الدهوس من وطنه ، فاستصرخ بني عامر فجاءوا لصريخه ، وعلى بني يعقوب داود بن عطاف ، وعلى بني حميد يعقوب بن معروف ، وعلى شافع بن صالح بن بالغ وغلبوا رياحاً بعزلان وفرض لهم على وطن بني يزيد ألف غرارة ، واستمرت لهم عادة عليهم .

ولما نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه لمحاذاة تلمسان ليكونوا حجزاً بين المعقل وبين وطنها ، استقرّوا هنالك يتقلبون في قفارها في المشاتي ، ويظهرون إلى التلول في المراع والمصايف . وكان فيهم ثلاثة بطون : بنو يعقوب بن عامر وبنو حميد بن عامر وبنو شافع بن عامر ، وهم بنو شقارة وبنو مطرف ، ولكل واحد من البطنين الآخرين أفخاذ وعماثر ، ولبنو حميد فصائل أخرى فمنهم : بنو حميد ، ومن عبيد الحجز وهم بنو حجاز بن عبيد ، وكان له من الولد حجوش وهجيش إبن حجاز . وحجوش حامد ومحمد ورباب .

ومن محمد الوالدة بنو ولاد بن محمد . ومن رباب بنو رباب وهم معروفون لهذا العهد . ومن عبيد أيضاً العقلة بنو عقيل بن عبيد والمحارزة بنو محرز بن حمزة بن عبيد . وكانت الرياسة على حميد لعلاق من هؤلاء المحارزة ، وهم الذين قبل حجوش جد بني رباب ، وكانت الرياسة على بني عامر كافة لبني يعقوب على عهد يغمراسن وابنه لداود بن هلال بن عطاف بن رداد بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب منهم وكان بنو حميد أيضاً برئيسهم وشيخهم إلا أنه رديف لشيخ بني يعقوب منهم . وكانت رياسة حميد لأولاد رباب بن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد ابن حميد ويسمون الحجز . وعلى عهد يغمراسن لمعرف بن سعيد بن رباب منهم ،

وهو رديف لداود كما قلناه . ووقعت بين عثمان وبين داود بن عطف مغاضبة ، وسخطه عثمان لما أجاز الأمير أبا زكريا ابن السلطان أبي إسحق من آل أبي حفص حين فر من تلمسان طالب الخروج على الخليفة بتونس ، وكان عثمان بن يغمراسن في بيعته ، فاعتزم على رجعه فأبى داود من إخفار ذمته في ذلك . ورحل معه حتى لحق بعطية بن سليمان من شيوخ الزواودة ، وتغلب على بجاية وقسنطينة كما يذكر في أخباره .

وأقطع داود بن هلال رعيًا لفعلته وطناً من بلاد حمزة يسمى كدارة ، وأقام داود هنالك في مجالاتهم الأولى إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان ، وطال حصاره لها ، فوفد عليه داود مؤملاً صلاح حاله لديه ، وحمله صاحب بجاية رسالة إلى يوسف بن يعقوب فاستراب به من أجلها ، فلما قفل من وفادته بعث في أثره خيالة من زناتة بيتوه ببني يقي^(١) في سدّ وقتلوه . وقام بأمره في قومه ابنه سعيد ، ونفس مخنق الحصار عن تلمسان . وكان قبل بني مرين وسيلة رعاها لهم بنو عثمان بن يغمراسن فرجعوهم إلى مواطنهم ومع قومهم . وقد اغتر أولاد معرف بن سعيد في غيبتهم تلك يساجلونهم في رياسة بني عامر ، وغص كل واحد بمكان صاحبه ، واختص بنو معرف بإقبال الدولة عليهم لسلامتهم من الحزازة والخلاف . ونزع سعيد بن داود لأجل هذه الغيرة إلى بني مرين .

ووفد على السلطان أبي ثابت من ملوكهم يؤمل به الكرة ، فلم يصادف لها محلاً ورجع إلى قومه . وكانوا مع ذلك حياً جميعاً ولم تزل السعاية بينهم تدب حتى عدا إبراهيم بن يعقوب بن معرف على سعيد بن داود فقتله ، وتناول قتله ماضي بن ردان من أولاد معرف بن عامر بمجالاته ، وتعصب عليه أولاد رباب كافة ، فافترق أمر بني عامر وصاروا حين . بنو يعقوب وبنو حميد ، وذلك لعهد أبي حمو موسى بن عثمان من آل زيان ، وقام بأمر بني يعقوب بعد سعيد ابنه عثمان . ثم هلك بعد حين إبراهيم بن يعقوب شيخ بني حميد وقام مقامه من قومه ابنه عامر بن إبراهيم ، وكان شهماً حازماً وله ذكر ، ونزل المغرب قبل عريف بن يحيى ونزل على السلطان أبي سعيد ، وأصهر إليه ابنته فأنكحه عامر إياها وزفها إليه ووصله بمال له خطر ، فلم يزل عثمان يحاول أن يثأر منه بأبيه بالفتنة تارة والصلح والاجتماع أخرى حتى غدره في بيته

(١) وفي نسخة أخرى : لقي .

وقتلته ، وارتكب فيه الشنعاء التي تنكرها العرب ، فتقاطع الفريقان لذلك آخر الدهر . وصارت بنو يعقوب أحلافاً لسويد في فتنهم مع بني حميد هؤلاء . ثم تلاحت طواعن سويد بعريف بن يحيى في مكانه عند بني مرين واستطال ولد عامر ابن إبراهيم بقومهم على بني يعقوب فلاحقوا بالمغرب ، ولم يزلوا به إلى أن جاؤا في عساكر السلطان أبي الحسن ، وهلك شيخهم عثمان ، قتله أولاد عريف بن سعيد بثار عامر بن إبراهيم . وولي بعده ابن عمه هجرس بن غانم بن هلال ، فكان رديفاً له في حياته . ثم هلك وقام بأمرهم بعده عمه سليمان بن داود .

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على تلمسان قرب بنو عامر بن إبراهيم إلى الصحراء ، وكان شيخهم لذلك العهد صغير ابنه ، واستأنف السلطان على يد عريف بن يحيى سائر بطون حميد وأولاد رباب فخالف صغيراً إخوانه إلى السلطان . وولى عليهم شيخاً من بني عمهم عريف بن سعيد ، وهو يعقوب بن العباس بن ميمون بن عريف . ووفد بعد ذلك عمر بن إبراهيم عم صغير ، فولاه عليهم ، واستخدمهم ولحق بنو عامر بن إبراهيم بالزواودة ونزلوا على يعقوب بن علي ، ولم يزلوا هناك حتى شبوا نار الفتنة بالدعي بن هيدور الملبس بشبه^(١) أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن . وأعانه على ذلك أهل الحقود على الدولة والأضغان من الديالم ، وأولاد ميمون بن غنم ابن سويد نعموا على الدولة مكان عريف وابنه ونزمار منها ، فاجتمعوا وبايعوا لهذا الداعي .

وأوعز السلطان إلى ونزمار بحربهم فنهض إليهم بالعرب كافة ، وأوقع بهم وفضهم ومزق جموعهم . وطال مفر مقير^(٢) بن عامر وإخوته في القفار ، وأبعدوا في الهرب ، قطعوا لعرق الرمل الذي هو سياج على مجالات العرب ، ونزل قلعة والد^(٣) وأوطنها . ووفد من بعد ذلك على السلطان أبي الحسن منذ نمي به^(٤) فقبل وفادته واسترهن أخاه أبا بكر ، وصحب السلطان إلى أفريقية وحضر معه واقعة القيروان . ثم رجع إلى قومه وعادوا جميعاً إلى لواتة بني يغمراسن ، واستخدموا قبائلهم لأبي سعيد عثمان

(١) وفي نسخة أخرى : المهيمن بشعبه .

(٢) وفي نسخة ثانية : صغير .

(٣) وفي النسخة الباريية : والن . وفي النسخة التونسية والر .

(٤) وفي نسخة أخرى : متدماً .

ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن الدائل بتلمسان بعد واقعة القيروان أعوام خمسين وسبعائة ، فكان له ولقومه فيها مكان . ولحق سويد وبنو يعقوب بالمغرب حتى جاؤا في مقدمة السلطان أبي عنان .

ولما هلك بنو عبد الواد وافترق جمعهم فرّ صغير إلى الصحراء على عادته ، وأقام بالقفر يترقب الخوارج ، ولحق به أكثر قومه من بني معرف بن سعيد فأجلب بهم على كل ناحية . وخالف أولاد حسين بالمعقل على السلطان أبي عنان أعوام خمسة وخمسين وسبعائة وما بعدها ونازلوا سجالمة فكاثرهم وكان معهم ، وأوقعت بهم عساكر بني مرين في بعض سني خلائهم وهم بنكور يمتارون فاكثسحوا عامة أموالهم وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً . ولم يزالوا كذلك شريداً في الصحراء ، وسويد وبنو يعقوب بمكانهم من المجالات ، وفي خطهم عند السلطان حتى هلك السلطان أبو عنان وجاء أبو حمو موسى بن يوسف أخو السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن لطلب ملك قومه بتلمسان ، وكان مستقراً بتونس منذ غلبهم أبو علي على أمرهم ، فرحل مقير إلى وطن الزواودة ، ونزل على يعقوب بن علي أزمان خلافة على السلطان أبي عنان ، وداخله في استخلاص أبي حمو هذا من إيالة الموحدين للإجلاب على وطن تلمسان وبني مرين الذين به ، فأرسلوا معه الآلة . ومضى به مقير وصوله بن يعقوب بن علي وزيان ابن عثمان بن سباع وشبل ابن أخيه ملوك بني عثمان . ومن بادية رياح دعار بن عيسى ابن رحاب بقومه من سعيد ، وبلغوا معهم إلى تخوم بلادهم فرجع عنهم رياح إلا دعار بن عيسى وشبل بن ملوك ، ومضوا لوجههم . ولقيتهم جموع سويد ، وكان الغلب لبني عامر . وقتل يومئذ شيخ سويد بن عيسى بن عريف وأسر أخوه أبو بكر . ثم من عليه علي بن عمر بن إبراهيم وأطلقه . ولم يتصل الخبر بفاس إلا والناس منصرفون من جنازة السلطان أبي عنان . ثم أجلب أبو حمو بالمغرب على تلمسان فأخذها وغلب عساكر بني مرين عليها ، واستوسق ملكه بها . ثم هلك مقير لستين أو نحوها حمل نفسه في جولة فتنة في الحلي يروم تسكينها على بعض الفرسان ، فاعترضه سنان رمح على غير قصد فأنفذه وهلك لوقته . وولي رياستهم من بعده أخوه خالد بن عامر يرادفه عبدالله ابن أخيه مقير . وخلصت زغبة كلها للسلطان أبي حمو فأساء بني مرين لما كان بينهم من الفتنة واستخدمهم جميعاً على مضاربهم وعوائدهم من سويد وبني يعقوب والد يالم والعطاف ، حتى إذا كانت فتنة أبي زيان ابن السلطان أبي

سعيد عم أبي حمو كما نذكره في خبرهم جاش رجل الفتنة من زغبة ، واختلفوا على أبي حمو وتقبض على محمد بن عريف أمير سويد لاثامه إياه بالادهان في أمره ، فترع أخوه أبو بكر وقومه إلى صاحب المغرب عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن سنة سبعين وسبعائة وجاؤا في قومه واستولى على مواطنهم .

ولحق بنو عامر وأبو حمو بالصحراء ، وطال ترددهم فيها وسعى عند أبي حمو في خالد من عمومته وأقاربه عبدالله بن عسكر بن معرف بن يعقوب ، ومعرف هو أخو إبراهيم بن يعقوب ، وكان عبدالله هذا بطانة للسلطان وعيناً ، فاستفسد بذلك قلب خالد وتغير ونبذ إليه عهده ، ونزع عنه إلى السلطان عبد العزيز . وجاءت به عساكر بني مرين فأوقع بالسلطان أبي حمو ومن معه من العرب .

وهلك عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعائة فارتحل إلى المغرب هو وعبدالله ابن أخيه مقير ، ولحقهم ساسي بن سليم بن داود شيخ بني يعقوب . كان قومه بني يعقوب قتلوا أبناء محمد بن عريف فحدثت بينهم فتنة ، ولحق ساسي هذا وقومه بالمغرب ، وصحب خالداً يؤمل به الكرة ، ويشوا من صريخ بني مرين لما بينهم من الفتنة ، فرجعوا إلى أوطانهم سنة سبع وسبعين وسبعائة وأضرمو نار الفتنة ، وخرجت إليهم عساكر السلطان أبي حمو مع ابنه أبي تاشفين ، وزحف معه سويد والديالم والعطاف فأوقعوا بهم على وادي مينا قبله القلعة .

وقتل عبدالله بن مقير وأخوه ملوك في قرابة لهم آخرين ، وسار فلهم شريداً إلى الصحراء ولحقوا بالديالم والعطاف ، واجتمعوا جميعاً إلى سالم بن ابراهيم كبير الثعالب ، وصاحب وطن تيج^(١) . وكان يتوجس لأبي حمو الخيفة فانفقوا على الخلاف وبعثوا إلى الأمير أبي زيان بمكانه من وطن رياح فجاءهم وتابعوه ، وأمكنه سالم من الجزائر . ثم هلك خالد في بعض تلك الأيام فافترق أمرهم ، وولي علي بني عامر المسعود بن مقير ، وزحف إليهم أبو حمو في سويد وأوليائه من بني عامر . واستخدم سالم بن ابراهيم ، وخرج أبو زيان إلى مكانه من وطن رياح ، ولحق المسعود

(١) هي متيجة : بفتح أوله ، وكسر ثانية وتشديده ثم ياء مثناة من تحت ثم جيم : بلد في أواخر أفريقية من أعمال بني حماد ، قال البكري : الطريق من أشير إلى الجزائر بني مزغناي ومن أشير إلى المدية ، وهي بلد جليل قديم ، ومنها إلى اقرنة ، وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ويقال إنها متيجة . (معجم البلدان) قبائل المغرب ص ٩ .

ابن عامر وقومه بالقفر . ولحق ساسي بن سليم يعقوب بن علي وقومه من الزواودة .
ثم راجعوا جميعاً خدمة السلطان وأوفدوا عليه قأمهم ، وقدموا عليه وأظهروا البر
والرحب بالمسعود وساسي ، وطوى لهم على السوء . ثم داخل بطانة من بني عامر
وسويد في نكبتهم ، فأجابوه ومكر بهم ، وبعث ابنه أباتاشفين لقبض الصدقات من
قومهم حتى اجتمع له ما أراد من الجموع ، فتقبض على المسعود وعشرة من إخوانه
بني عامر بن ابراهيم . ونهض أبوتاشفين والعرب جميعاً إلى أحياء بني يعقوب وكانوا
بسيرات ، وقد أرصد لهم سويد بوادي مينا فصبحهم بنو عامر بمكانهم
واكتسحوهم . وصار فلهم إلى الصحراء ، فاعترضهم أبوتاشفين ببني راشد فلم يبق
لهم باقية ، ونجا ساسي بن سليم إلى الصحراء في فل قليل من قومه ، ونزل على النضر
ابن عروة ، واستبد برياسة بني عامر سليمان بن ابراهيم بن يعقوب عم مقير ورديفه
عبدالله بن عسكر بن معرف بن يعقوب ، وهو أقرب مكاناً من السلطان وخله .
ثم بعث صاحب المغرب السلطان أبو العباس أحمد بن الولي أبا سالم بالشفاعة في
المسعود وإخوانه بوسيلة من ونزمار بن عريف بعد أن كان مداخلاً لأبي حمو وإخوانه
في نكبتهم ، فأطلقهم أبو حمو بتلك الشفاعة ، فعادوا إلى الخلاف ، وخرجوا إلى
الصحراء ، واجتمع إليهم الكثير من أولاد ابراهيم بن يعقوب . واجتمع أيضاً فل بني
يعقوب من مطارحهم إلى شيخهم ساسي بن سليم ونزلوا جميعاً مع عروة . وأوفد
إخوانه على السلطان أبي العباس صاحب أفريقية لهذا العهد منتدباً به وصريحاً على
عدوه فتلقاه من البر والإحسان ما يناسبه ، وأفاض في وفده العطاء وصرفه بالوعد
الجميل .

وشعر بذلك أبو حمو فبعث من عيونه من اغتاله ووفد بعدها على السلطان أبي
العباس صاحب أفريقية علي بن عمر بن ابراهيم ، وهو ابن عم خالد بن محمد وكبير
النفر المخالفين من بني عامر على أبي حمو . ووفد معه سليمان بن شعيب بن عامر
فوفدوا عليه بتونس يطلبون صريخه ، فأجابهم ووعدهم واحسب الإحسان والمبرة
أمامهم ، ورجعوا إلى قومهم . ثم راجع علي بن عمر خدمة أبي حمو وقدمه على بني
عامر ، وأدال به من سليمان بن ابراهيم بن عامر ، فخرج سليمان إلى أهل بيته من ولد
عامر بن ابراهيم الذين بالصحراء ونزلوا مع بني يعقوب بأحياء أبي بكر بن عريف ،
وهو على ذلك لهذا العهد . والله مقدر الليل والنهار اهـ .

سلي بن سليم

بن داود بن هلال بن عطف بن رداد بن كرش بن عباد بن منيع بن يعقوب

عنان بن سعيد

بن يعقوب بن معروف

بن العباس

بن سعيد

بن رباب بن حامد

مقبر - بن عامر - بن ابراهيم - بن يعقوب بن معروف - بن سعيد - بن رباب بن حامد - بن حجرش - بن حجاز - بن عبيد - بن حميد - بن عامر

خالد

سليمان

عريف بن زيان

بن وانود بن عبدالله

بن مسعود بن شداد بن محمد
أحمد

هجيش

علاق بن المحاوزه بن حمزة
الفقلة
الدوقه

ذوى عيسى

شقارة - بن شافع

علي بن عثمان بن سلطان

عمر بن زيان

* (عروة بن زغبة) *

وأما عروة بن زغبة فهم بطنان : النضر بن عروة وخميس بن عروة . وبطون خميس ثلاثة : عبيد الله وفرغ ويقظان . من بطون فرغ بنو قائل أحلاف أولاد يحيى من المعمور القاطنين بجبل راشد . وبنو يقظان وعبيد الله أحلاف لسويد يطعنون لظعنهم ويقيمون لإقامتهم ، ورياستهم لأولاد عابد من بطن راشد . وأما النضر بن عروة فمتبذون بالقفر ينتجعون في رماله ويصعدون إلى أطراف التلول في إيالة الديالم والعطاف وحصين وتخوم أوطانهم ، وليس لهم ملك ولا أقطاع لعجزهم عن دخول التلول بلغتهم وممانعة بطون زغبة الآخرين عنها إلا ما تغلبوا عليه في أذنان الوطن بجبل المستند مما يلي وطن رياح ، يسكنه قوم من غمرة وزناة استمر عليهم غلب العرب منذ سنين . فوضع النضر هؤلاء عليهم الأتاوة وأصاروهم خولاً ورعية .

وربما نزل منهم مع هؤلاء البرابر من عجز عن الظعن في بيوتهم ولهم بطون مذكرة أولاد خليفة والخائنة وشريعة السحاري^(١) وذوي زيان وأولاد سليمان ، ورياستهم جميعاً في أولاد خليفة بن النضر بن عروة ، وهي لهذا العهد لمحمد بن زيان بن عسكر ابن خليفة ، ورديفه سمعون بن أبي يحيى بن خليفة بن عسكر ، وأكثر السحاري موطنون بجبل المستند الذي ذكرناه ، ورياستهم في أولاد^(٢) وناجعة هؤلاء

النضر أحلاف لرغبة دائماً ، فتارة للحرب وحصين جيرانهم في المواطن ، وتارة لبني عامر في فتنهم مع سويد ، وتذبذبهم مع بني عامر فيما يزعمون بأبي قحافة وسمعت من مشايخهم أنه ليس بأب لهم ، وإنما هو إسم وادٍ كان به حلفهم قديماً ، وربما يظاهرون سويداً على بني عامر ، إلا أنه في الأقل والندرة . وهم إلى حلف بني عامر أقرب وأسرع لما ذكرناه ، وربما ظاهروا رياحاً بعض المرات في فتنهم لجوار الوطن ، إلا أنه قليل أيضاً وفي النادر . ويتناولون في الأكثر مع البادية من رياح مثل مسلم

(١) وفي النسخة التونسية : أولاد خليفة والحاقة وشريعة والسحاري .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع املاء الفراغ من المراجع التي بين ايدينا ، ولكن في العبارة السابقة يذكر ابن خلدون ان رئاسة اولاد خليفة والخائنة وشريعة والسحاري في اولاد خليفة بن النضر بن عروة . (راجع قبائل المغرب ص ٤٢٣) .

* (الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وانسابهم وتصاريف أحوالهم) *

هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى مجاورون لبني عامر من زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان ، وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب ، وهم ثلاثة بطون : ذوي عبيدالله وذوي منصور وذوي حسان . فذوي عبيدالله منهم هم المجاورون لبني عامر ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة . ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة^(١) وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تازي وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر . ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط ، وينزل شيوخهم بلاد نول^(٢) قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه ، ويتجمعون كلهم في الرمال إلى مواطن المثلثين من كدالة^(٣) مستوفة ولمتونة . وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلالين في عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين . واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلالين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت ، وجاوروا زناتة في القفار والغربية فغفوا وكثروا وأثبتوا في صحارى المغرب الأقصى ، فعمرروا رماله وتغلبوا في فيافيه . وكانوا هناك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم . وبقي منهم بأفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان ، واستتلاف العرب .

فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن . قام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا في البيداء فتموا نمواً لا كفاء له ، وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة

(١) سجلماسة : مدينة تاريخية اندثرت الآن أسسها بنو مدرار في القرن الهجري الثاني وأصبحت عاصمة للخوارج إلى أن فتحها قائد الفاطميين جوهر الصيقل وتأسست بها الدولة الفاطمية في أواسط القرن الرابع الهجري واستمرت عارة المدينة إلى القرن العاشر (كتاب المغرب/١٢٦) — المعجم التاريخي/٣٢ معجم البلدان ، راجع القلقشندي «صبح الاعشى ج ٢ ص ١٨٠» .

(٢) نوال : مدينة في جنوبي بلاد المغرب . هي حاضرة لمطة فيما قبائل من البربر وهي في غربي تيزرمت .
(٣) كدالة : ناحية في جبال أفريقية .

بالقفر مثل قصور السوس غرباً ، ثم توات ثم جودة^(١) ثم تامنطيت . ثم واركلان ثم تاسببت ثم تيكورارين شرقاً ، وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة ، وبينهم فتن وحروب على رياستها ، فجازر العرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب ، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً . وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات للملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونهم حمل الرحيل . وكان لهم الخيار في تعيينها .

ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب وحلوله^(٢) حمى ، ولا يعرضون لسابلة سجالسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم . وكان لهم بإزاء ذلك اقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى ، وفيهم من مسلم سعيد بن رياح والعمور من الأثيج ، وعددهم كما قلنا قليل . وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم فإن فيهم من فزارة من أشجع أحياء كبيرة ، وفيهم الشظة من كرفة والمهاية من عياض ، والشعراء من حصين والصباح من الأخضر ومن بني سليم وغيرهم .

(وأم أنسابهم عند الجمهور) فخفية ومجهولة ، وسلافة العرب من هلال يعدونهم من بطون هلال وهو غير صحيح ، وهم يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب وليس ذلك أيضاً بصحيح ، لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة . والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن ، فإن فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بالمعقل ، ذكرهما ابن الكلبي وغيره ، فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير وهو معقل بن كعب بن غليم بن خباب بن هبل بن عبدالله بن كنانة ابن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد بن اللات بن رفيدة بن ثور بن كعب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . والآخر من بني الحرث بن كعب ابن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج ، واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن

(١) جودة : وادي في اليمن وليس هو المقصود وفي نسخة أخرى بودة ولم نجد لها ذكر في معجم البلدان ولعلها بورة مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط .

(٢) وفي نسخة أخرى : تولوة .

ريب بن زير بن كهلان . وهو معقل واسمه ربيعة بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحرث .

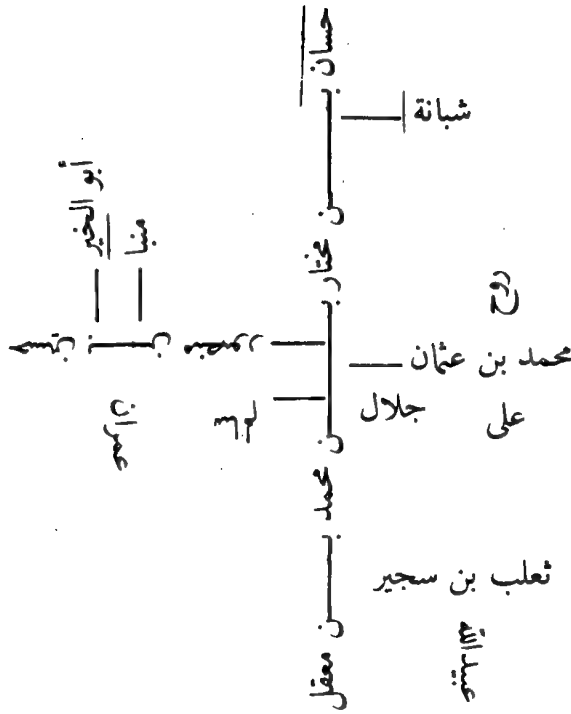
والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر الذي من مذحج ، كان اسمه ربيعة ، وقد عده الأخباريون في بطون هلال الداخلين إلى أفريقية ، لأن مواطن بني الحرث بن كعب قريب من البحرين حيث كان هؤلاء العرب مع القرامطة قبل دخولهم إلى أفريقية . ويؤيده أن ابن سعيد لما ذكر مذحج وأنهم يجهاث الجبال من اليمن ، وذكر من بطونهم زبيد ومراد . ثم قال : وبأفريقية منهم فرقة وبرية ترتحل وتترل ، وهؤلاء الذين ذكر إنما هم المعقل الذين هم بأفريقية ، وهم فرقة من هؤلاء الذين بالمغرب الأقصى .

(ومن إملاء نسابتهم) أن معقل جدّهم له من الولد سحير ومحمد ، فولد سحير^(١) عبيد الله وثعلب ، فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم . ومن ثعلب الثعالب الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر ، وولد محمد : مختار ومنصور وجلال وسالم وعثمان . فولد مختار بن محمد : حسان وشبانه ، فمن حسان ذوي حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى . ومن شبانه الشبانات جيرانهم هنالك . ومنهم بطنان : بنو ثابت وموطنهم تحت جبل السكسيوي من جبال أدرن وشيخهم لهذا العهد أو ما قبله يعيش بن طلحة .

والبطن الآخر آل علي ، وموطنهم في برية هنكيسة تحت جبل كزولة ، وشيخهم لهذا العهد أو ما قرب منه حريز بن علي . ومن جلال سالم وعثمان الرقيطات بادية لذوي حسان ينتجعون معهم . وولد منصور بن محمد حسن وأبو الحسين وعمران وشب^(٢) يقال لهم جميعاً ذوي منصور ، وهو أحد بطونهم الثلاثة المذكورة . والله سبحانه وتعالى أعلم بغيه وأحكم .

(١) وفي النسخة التونسية صقيل .

(٢) وفي نسخة أخرى ونسباً .



* (ذوى عبيد الله) *

فأما ذوى عبيد الله فهم المجاورون لبني عامر بن زغبة من سلطان بني عبد الواد من زناتة ، فواطنهم من بين تلمسان إلى وحدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صامن القبلة . وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت ، وربما عاجوا إلى ذات الشمال إلى تاسايت وتوكرارين ، وهذه كلها رقاب القفر إلى بلد السودان . وبينهم وبين بني عامر فتن وحروب موصولة . وكان لهم مع بني عبد الواد مثلها قبل السلطان والدولة ، فما كانوا أحلفاً لبني مرين . وكان المنبات من ذوى منصور أحلفاً لبني عبد الواد فكان يغمراسن يوقع بهم أكثر أوقاته وينال منهم إلى أن

صحبوا بسبب الجوار ، واعتزت عليهم الدولة فأعطوا الصدقة والطوائل وعسكروا مع السلطان في حروبه .

ولم يزل ذلك إلى أن لحق الدولة الهرم الذي يلحق مثلها فوطنوا التلول ، وتملكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس إقطاعا من السلطان إلى ما كان لهم عليها قبل من الأتاوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم ، وضربوا على بلد هنين بالساحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان ، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم ، وعلى ضريبة يؤديها إليهم . وهم بطنان الهراج والخراج ، فالخراج من ولد فراج بن مطرف بن عبيد الله ، ورياستهم في أولاد عهد الملك وفرج بن علي بن أبي الريش بن نهار بن عثمان بن خراج ، لأولاد عيسى بن عبد الملك ويعقوب بن عبد الملك ويغمر بن عبد الملك .

وكان يعقوب بن يغمر شيخهم لعهد السلطان أبي الحسن ، ولما تغلب على تلمسان استخدم له عبيد الله هؤلاء وكان يحيى بن العزم من رجالة بني يزناسن أهل الجبل المطل على وجدة . وكان له قدم في خدمة الدول فاتصل بالسلطان أبي الحسن ورغبه في ملك قصور هذه الصحراء ، فبعثه مع هؤلاء العرب في عسكر ، ودخل معهم إلى الصحراء وملك تلك القصور واستولى عليها . وأسف عبيد الله بانتزاع أملاكهم وسوء المعاملة لهم ، فوثبوا به وقتلوه في خبائه وانتهبوا عسكر السلطان الذين معه ونقضوا الطاعة . وفر يعقوب بن يغمر فلم يزل شريداً بالصحراء سائر أيامه ، ورجع بعد ذلك .

ثم عادت دولة بني عبد الواد فصعدوا في ولايتها ، فلم يزل على ذلك ، وخلفه ابنه طلحة ، وكان أيام خلاف يعقوب وانتفاضه رأس على الخراج من أهل بيته منصور ابن يعقوب بن عبد الملك وابنه رحو من بعده . وجاء أبو حمو فكان له في خدمته ومخالطته قدم ، فقدمه شيخاً عليهم . فرياستهم لهذا العهد منقسمة بين رحوبن منصور ابن يعقوب بن عبد الملك وبين طلحة بن يعقوب المذكور آنفاً ، وربما نازعه . ولهم بطون كثيرة فمنهم الجعاونة من جعوان بن خراج ، والغسل من غاسل بن خراج ، والمطارفة من مطرف بن خراج ، والمهايا من عثمان بن خراج ، وفيهم رياستهم كما قلناه ، ومعه الناجعة يسمون بالمهايا ينسبون تارة إلى المهايا بن عياض ، وقدمنا ذكرهم . وتارة إلى مهايا بن مطرف ، وأما الهراج فن ولد الهراج بن مهدي بن محمد

ابن عبيد الله ، ومواطنهم في ناحية المغرب عن الخراج فيجاورون بني منصور ولهم
تاويرت وما إليها . وخدمتهم في الغالب لبني مرين وأقطاعاتهم من أيديهم ،
ومواطنهم تحتهم ، ورجوعهم إلى عبد الواد في الأقل ، وفي بعض الأحيان ورياستهم
في ولد يعقوب بن هبا بن هراج لأولاد مرين بن يعقوب ، وأولاد مناد بن رزق الله
ابن يعقوب ، وأولاد فكرون بن محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب من ولد حريز بن
يحيى الصغير بن موسى بن يوسف بن حريز ، كان شيخاً عليهم أيام السلطان عبد
العزيز ، وهلك عقبه ، ورأس عليهم ابنه . ومن ولد متاد أبو يحيى الكبير بن مناد
كان شيخاً قبل أبي يحيى الصغير ، وبالإضافة إليه وصف بالصغير . ومنهم أبو
حميدة محمد بن عيسى بن مناد وهو لهذا العصر رديف لشيخهم من ولد أبي يحيى
الصغير ، وهو كثير القلب في القفار والغزو للقاصية ولأهل الرمال والملثمين . والله
مالك الملوك لا رب غيره ولا معبود سواه وهو نعم المولى ونعم النصير .

* (الثعالبية) *

وأما الثعالبية إخوانهم من ولد ثعلب بن عليّ بن بكر بن صغير^(١) أخي عبيد الله بن صغير ، فوطنهم لهذا العهد بمتيجة من بيسط الجزائر ، وكانوا قبلها بقطيري موطن حصين لهذا العهد ، نزلوها منذ عصور قديمة ، وأقاموا بها حياً حلولاً . ويظهر أن نزولهم لها حين كان ذوي عبيد الله في موطن بني عامر لهذا العهد ، وكان بنو عامر في موطن بني سويد فكانت موطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية فدخلوا من ناحية كزول وتدرّجوا في الموطن إلى ضواحي المدينة ، ونزلوا جبل تيطري وهو جبل أشير الذي كانت فيه المدينة الكبيرة . فلما تغلب بنو توجين على التلول وملكوا وانشرش زحف محمد بن عبد القوى إلى المدينة فلحقها ، وكانت بينهم وبينه حروب وسلم إلى أن وفدت عليه مشيختهم ، فتقبض عليهم وأغزى من وراءهم من بقية الثعالبية واستلحمهم واكتسح أموالهم .

وغلبيهم بعدها على تيطري وأزاحهم عنها إلى متيجة ، وأنزل قبائل حصين بتيطري وكانوا معه في عداد الرعايا يؤدون إليه المغارم والوظائف ، ويأخذهم بالعسكرة معه ودخل الثعالبية هؤلاء في إيالة ملكيش^(٢) من صنهاجة ببسيط متيجة ، وأوطنوا تحت ملكتهم . وكان لهم عليهم سلطان كما نذكره . حتى إذا غلب بنو مرين على المغرب الأوسط وأذهبوا ملك ملكيش منها ، استبد الثعالبية هؤلاء بذلك البسيط وملكوه . وكانت رياستهم في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغير . ويزعمون أن سباعا هذا كان إذا وفد على الموحدین يجعلون من فوق عامته ديناراً يزن عدداً من الدنانير سابقة في تكرمته وترفيهه .

(وسمعت) من بعض مشيختنا أن ذلك لما كان من كرامته للإمام المهدي حين أجاز بهم فإنه مرّ بهم ساعياً فحملوه واستقرت الرياسة في ولد سباع هذا في بني يعقوب بن سباع أولاً ، فكانت لهم مدداً . ثم في عقب حنيش منهم . ثم غلب السلطان أبو

(١) وفي النسخة التونسية : ثعلب بن علي بن مكن صقيل أخي عبيد الله بن صقيل .

(٢) وفي النسخة التونسية : مليكش .

الحسن على ممالك بني عبد الواد ونقلهم إلى المغرب ، وصارت الولاية لهم لأبي الحملات بن عائد بن ثابت ، وهو ابن عم حنيش وهلك في الطاعون الجارف أواسط هذه المائة الثامنة لعهد نزول السلطان أبي الحسن بالجزائر من تونس ، فولى عليهم أواسط هذه المائة الثامنة لعهد نزول السلطان أبي الحسن بالجزائر من تونس ، فولى عليهم إبراهيم بن نصر .

ولم تزل رياستهم إليه إلى أن هلك بعد استيلاء السلطان أبي عنان عن المغربين كما نذكره في أخباره وقام برياستهم ابنه سالم ، وكانوا أهل مغارم ووضعوه للكيش ومن بعدهم من ولاية الجزائر ، حتى إذا هبت ريح العرب أيام خروج أبي زيان وحصين على أبي حمو أعوام ستين وسبعائة كما ذكرناه . وكان شيخهم لذلك العهد سالم بن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن ثابت بن محمد بن سباع ، فأخب في تلك الفتنة وأوضع ، وعاقده أبو حمو وانتقض عليه مراراً ، وغلب بنو مرين على تلمسان فتحيز إليهم . وكانت رسله ووفده تقدموا إليهم بالمغرب .

ثم هلك السلطان عبد العزيز ورجع أبو حمو إلى ملكه ، ونزلت الغوائل فخشيته سالم . واستدعى أبا زيان ونصبه بالجزائر ، وزحف إليه أبو حمو سنة تسع وسبعين [وسبعائة] ففرض جمعه وراجع سالم خدمته . وفارق أبا زيان كما نذكره في أخباره . ثم زحف إليه أبو حمو وحاصره بيجال متيجة أياماً قلائل ، واستتره على عهده . ثم أخفزه وتقبض عليه وقاده إلى تلمسان أسيراً وقتله قعصاً بالرماح وذهب أثره وما كان له من الرياسة التي لم تكن الثعالب لها بأهل . ثم تتبع إخوانه وعشيرته وقبيله بالقتل والسبي والنهب إلى أن دثروا ، والله يخلق ما يشاء .

سليم — ثابت

الزعيم بن أبي القاسم

عبد الرحمن بن الحملات بن عامر

المرسوم

عبد الله

محمد

* (ذوي منصور) *

وأما أولاد منصور بن محمد فهم معظم هؤلاء المعقل ، وجمهورهم ومواطنهم نخوم المغرب الأقصى من قبلته ما بين ملوية ودرعة . وبطنهم أربعة : أولاد حسين وأولاد أبي الحسين وهما شقيقان ، والعمارة أولاد عمران ، والمنبات أولاد منبا وهما شقيقان أيضاً . ويقال لهذين البطينين جميعاً الأحلاف . فأما أولاد أبي الحسن فعمجروا عن الظعن ونزلوا قصوراً اتخذوها بالقفر ما بين تافيللات وتيكورارين . وأما أولاد حسين فهم جمهور ذوي منصور ، ولهم العزة عليهم ورياستهم أيام بني مرين في أولاد خالد ابن جرمون بن جرار بن عرفة بن فارس بن علي بن فارس بن حسين بن منصور ، كانت أيام السلطان أبي الحسن لعلي بن غانم . وهلك إثر كائنة طريف . وصارت لأخيه يحيى ، ثم لابنه عبد الواحد بن يحيى ، ثم لأخيه زكريا ، ثم لابن عمه أحمد ابن رحو بن غانم ، ثم لأخيه يعيش ، ثم لابن عمه يوسف بن علي بن غانم لهذا العهد .

وكانت لبني مرين فيهم وقائع أيام يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف ، وسيأتي في أخبار بني مرين غزوة يوسف بن يعقوب من مراکش إليهم ، وكيف أوقع بهم بصحراء درعة . ولما أقام بالشرق على تلمسان محاصراً لها أحلف هؤلاء العرب من المعقل على أطراف المغرب ما بين درعة وملوية إلى تاوريرت . وكان العامل يومئذ بدرعة عبد الوهاب بن صاعد من صنائع الدولة وكبار ولايتها ، فكانت بينه وبينهم حروب قتل في بعضها . ثم هلك يوسف بن يعقوب ورجع بنو مرين إلى المغرب ، فأخذوا منهم بالثار حتى استقاموا على الطاعة . وكانوا يعطون الصدقة أطوع ما يكون إلى أن فشل ربح الدولة ، واعتزت العرب فصاروا يمنعون الصدقة إلا في الأقل يغلبهم السلطان على إعطائها .

ولما استولى السلطان أبو عنان على تلمسان أعوام خمسين وسبعائة وفرّ صغير بن عامر إلى الصحراء ونزل عليهم واستجار بهم فأجاروه . ونزل السلطان عليهم ذلك فأجمعوا نقض طاعته وأقاموا معه بالصحراء وصغير متولي كبر ذلك الخلاف ، حتى إذا هلك أبو عنان وكان من سلطان أبي حمو بتلمسان ما نحن ذاكره ، وزحف بنو مرين إلى

تلمسان فقرّ منها أبو حمو وصغير ، ونزلوا عليهم فأوقعوا بعسكر بني مرين بنواحي تلمسان ، واتسع الخرق بينهم وبين بني مرين فأنحازوا إلى أبي حمو وسلطانه ، وأقطعهم بضواحيه . ثم رجعوا إلى أوطانهم بعد مهلك السلطان أبي سالم أعوام ثلاث وستين [وسبعائة] على حين اضطراب المغرب بفتنة أولاد السلطان أبي عليّ وتزولهم بسجلماسة ، فكان لهم في ذلك الفتنة آثار إلى أن انقشعت .

ثم كان لأحمر بن رحو مع أبي حمو جولة وأجلب عليه بأبي زيان حافد أبي تاشفين فقتل في تلك الفتنة كما نذكره . ثم اعتدوا على الدولة من بعد ذلك وأكثر مغارم درة لهذا العهد . وأقطع لهم ببلاد تادلا والمعر^(١) من تلك الثنايا التي منها دخولهم إلى المغرب للمربع والمصيف ولميرات الأقوات . وسجلماسة من مواطن إخوانهم الأحلاف كما نذكره ، وليست من مواطنهم ، فأما درة فهي من بلاد القبلة موضوعة حقاً في الوادي الأعظم المنحدر من جبل درن من فوهة يخرج منها وادي أم ربيع ، ويتساهل إلى البساط والتلول ووادي درعة ينحدر إلى القبلة مغرباً إلى أن يصب في الرمل ببلاد السوس ، وعليه قصور درة ، وواد آخر كبير أيضاً ينحدر إلى القبلة مشرقاً بعض الشيء إلى أن يصب في الرمل دون تيكورارين وفي قبلتها .

وعليه من جهة المغرب قصور توات ، ثم بعدها تمنطيت ، ثم بعدها وركلان . وعندها يصب في الرمل ، وفي الشمال عن ركان قصور تسايت . وفي الشمال عنها إلى الشرق قصور تيكورارين ، والكل وراء عرب الرمل . وجبال درن هي الجبال العظيمة الجاثمة سياجاً على المغرب الأقصى من آسني إلى تازي ، وفي قبلتها جبل نكيسة لصنهاجة ، وآخره جبل ابن حميدي من طرف هسكورة . ثم ينعطف من هنالك جبال أخرى متوازية حتى تنتهي إلى ساحل بادس من البحر الرومي . وصار المغرب لذلك كالجزيرة أحاطت الجبال به من القبلة والشرق والبحر ومن المغرب والجوف . واعتمر هذه الجبال والبساط التي بينها أم من البربر لا يحصيهم إلا خالقهم ، والمسالك بين هذه الجبال إلى المغرب منحصرة ، ثم معدودة ، وبأزاء القبائل المعتمرين لها كاظة . ومصب وادي درة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس ، ويمتدّ إلى أن يصب في البحر ما بين نون ووادان ، وحفافيه

(١) وفي نسخة أخرى المعدن .

قصور لا تحصى ، شجرتها النخل وقاعدتها بلد تادنست^(١) بلد كبير يقصده التجار للسلم في النيلج ، وانتظار خروجه بالصناعة . ولأولاد حسين هؤلاء استيلاء على هذا الوطن ومن يازاته في فسيح جيلة من قبائل البربر صناكة وغيرهم . ولهم عليهم ضرائب وخفرات ووضائع . ولهم في مجابي السلطان أقطاعات ويجاورهم الشبانات من أولاد حسان من ناحية الغرب ، فلهم بسبب ذلك على درعة بعض الأتاوات . (وأما الأحلاف) من ذوي منصوروهم العارنة والمنبات فمواطنهم مجاورة لأولاد حسين من ناحية الشرق . وفي مجالاتهم بالقفر تافيلات ، وصحراؤها . وبالثل ملوثة وقصور وطاط وتازي وبطوية وغساسة ، لهم على ذلك كله الأتاوات والوضائع ، وفيها الأقطاعات السلطانية . وبينهم وبين أولاد حسين فتنة ، ويجمعهم العصبية في فتنة من سواهم . ورياسة العارنة في أولاد مظفر بن ثابت بن مخلف بن عمران ، وكان شيخهم لعهد السلطان أبي عنان طلحة بن مظفر وابنه الزبير . ولهذا العهد محمد بن الزبير وأخوه موسى ، ويرادفهم في رياستهم أولاد عمارة بن قلان بن مخلف ، فكان منهم محمد العائد . ومنهم لهذا العهد سليمان بن ناجي بن عمارة يتتبع في القفر ويكثر الغزوا إلى اعتراض العير وقصور الصحراء .

ورياسة المنبات لهذا العهد لمحمد بن عبد بن حسين بن يوسف بن فرج بن منبا ، وكانت أيام السلطان أبي عنان لأخيه عليّ من قبله وترادفهم في رياستهم ابن عمهم عبد الله بن الحاج عامر بن أبي البركات بن منبا . والمنبات والعارنة اليوم إذا اجتمعوا جميعاً يكثر أولاد حسين . وكان للمنبات كثرة لأول دولة بني مرين . وكان خلفهم مع بني عبد الواد . وكان مقدمه يغمراسن بن زيان في افتتاح سجلماسة ، وتملكها من أيدي الموحدين . ثم تغلب بنو مرين عليها وقتلوا من حاربها من مشيختهم مع بني عبد الواد ، ثم أوقعوا بالمنبات من بعد ذلك في مجالاتهم بالقفر واستلحموهم ، فنقص عددهم لذلك آخر الأيام ، والله مالك الأمور لا رب سواه^(٢) .

(١) وفي النسخة الباريسية : تيديسي .

(٢) وفي بعض نسخ هذا الكتاب ورد هذا المقطع فرأينا اضافتها الى نسختنا هذه متوخين من ذلك كله افادة القاريء الكريم .

مواطن العثماني تلي مواطن بني منصور من جانب الغرب . ويليهم أولاد سالم . وفي حيز مواطنهم درعة ، ولهم عليها القفر . ويليهم أولاد جلال عند منتهى عمارة درعة مما يلي المغرب والقبلة . ويليهم غربا الى البحر الشبانات وهم أولاد عليّ وأولاد بو ثابت وأولاد حسان وراهم من ناحية القبلة والغرب . ويتزلون مواطنهم بالغلب الذي لهم عليهم .

محمد بن عبد بن حسين > بن أبي البركات بن منبا بن منصور

بين علي
بين فارس

يوسف < بن علي < بن خالد بن جرمون بن حرار بن عروة بن فارس < بن حسن < بن محمد بن عبد بن حسين بن يوسف بن فرج بن منيا

احمد ۸ بن روح
ع

الزبير بن طلحة بن مظفر بن ثابت < بن مخلف بن عمران

سلمان بن ناجی بن عثمان

* (ذوي حسان عرب السوس) *

وأما بنو مختار بن محمد فهم كما قدّمناه : ذوي حسان والشبانات والرقيطات . ومنهم أيضاً الجياهنة وأولاد أبورية^(١) ، وكانت مواطنهم بنواحي ملوية إلى مصبه في البحر مع إخوانهم ذوي منصور وعبيد الله إلى أن استصرخهم علي بن يدر الزكندري صاحب السوس من بعد الموحدين . ونسبه ابن عمه في عرب الفتح . وكانت بينه وبين كرولة الطواغن ببسائط السوس . وجباله فتنة طويلة استصرخ لها بني مختار هؤلاء فصارخوه وارتحلوا إليه بظعنهم ، وحمدوا مواطن السوس لعدم المزاحم من الطواغن فيها فأوطنوها . وصارت بحالاتهم بقرها وغلبوا كرولة وأصاروهم في جملتهم ومن ظعنهم وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن في سوس ونول . ووضعوا عليها الأتاوات مثل تارودانت من سوس ، وهي ضفة وادي سوس حيث يهبط من الجبل ، وبين مصبه ومصب وادي ماسة حيث الرباط المشهور مرحلة إلى القبله .

ومن هناك إلى زوايا أولاد بني نعمان مرحلة أخرى في القبله على سائر البحر ، وتواصت على وادي نول حيث يدفع من جبل نكيسة غرباً ، وبينها وبين إيفري مرحلة ، والعرب لا يغلبونها وإنما يغلبون على البسائط في نواحيها . وكانت هذه المواطن لعهد الموحدين من جملة ممالكهم وأوسع عمالاتهم . فلما انقرض أمر الموحدين حجبت عن ظل الدولة وخرجت عن إيالة السلطان إلا ما كان بها لبني يدر هؤلاء الذين قدّمنا ذكرهم . وكان علي بن يدر مالكاً لقصورها ، وكان له من الجند نحو ألف فارس ، وولي من بعده عبد الرحمن بن الحسن بن يدر ، وبعده أخوه علي بن الحسن .

وكان لعبد الرحمن معهم حروب وفتن بعد استظهاره بهم ، وهزموه مرّات متتابعة أعوام خمس وسبعمئة وما بعده ، وغدر هو بمشيختهم وقتلهم بتارودانت سنة ثمان وسبعمئة من بعد ذلك . وكان لبني مَرين على هؤلاء المعقل السوس وقائع وأيام ، وظهر يعقوب بن عبد الحق ببني مَرين في بعضها الشبانات على بني حسان واستلحم منهم عدداً ، وحاصرهم يوسف بن يعقوب بعدها فأمسكوها وأغرمهم ثمانية عشر

(١) وفي نسخة أخرى : اولاد بورية

ألفاً ، وأنخن فيهم يوسف بن يعقوب ثانية سنة ست وثمانين وسبعمائة وحاربهم جيوشه أيضاً أياماً لحق بهم بنوكمي من بني عبد الواد ، وخالفوا على السلطان ، فتردّدت إليهم العساكر واتصلت الحروب كما نذكر في أخباره .

(ولما استفحل) أمر زناتة بالمغرب وملك أبو علي ابن السلطان أبي سعيد سجلماسة واقتطعها عن ملك أبيه بصلح وقع على ذلك ، انضوى إليه هؤلاء الأعراب أهل السوس من الشبانات وبني حسان ، ورغبوه في ملك هذه القصور فأغزاها من تخوم وطنه بدرعة ودخل القرى عنوة . وقرّ عليّ بن الحسن وأمه إلى جبال نكيسة عند صنهاجة ثم رجع . ثم غلب السلطان أبو الحسن واستولى على المغرب كلّ . ورغبه العرب في مثلها من قصور السوس ، فبعث معهم عساكره ، وقائده حسون بن ابراهيم بن عيسى من بني يرنيان فللكها ، وجبى بلاد السوس وأقطع فيه للحرب ، وساسهم في الجباية فاستقامت حاله مدّة .

ثم انقرض أمر السلطان أبي الحسن فانقرض ذلك ، ورجع السوس إلى حاله وهو اليوم ضاح من ظل الدولة ، والعرب يقتسمون جبايته ، ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجباية . والظواغن منهم يقتسمونهم خولاً للعسكرة مثل كزولة مع بني حسان وركززولخس من لمطة مع الشبانات ، هذه حالهم لهذا العهد . ورياسة ذوي حسان في أولاد أبي الخليل بن عمر بن عفير بن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد ابن حسان بن مختار لمخلوف بن أبي بكر بن سليمان بن الحسن بن زيان بن الخليل ولاإخوانه . ولا أدري رياسة الشبانات لمن هي منهم ، إلا أنهم حرب لبني حسان آخر الأيام والرقيطات في غالب أحوالهم أحلاف للشبانات ، وهم أقرب إلى بلاد المصامدة وجبال درن وذوي حسان أبعد في القفر ، والله تعالى يخلق ما يشاء لا إله إلا هو .

عبد المؤمن بن مخلوف بن أبي بكر < بن سليمان بن حسن < بن زيان بن أبي الخليل بن عمر بن عفير بن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد - ٤

مسعود

عبد المؤمن بن يخلف بن حمادة

عبد المؤمن بن مخلوف بن أبي بكر
بن سليمان بن حسن بن زيان بن أبي الخليل بن عمر بن عفير بن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد - ٤

* (الخبر عن بني سليم بن منصور من هذه الطبقة الرابعة
وتعديد بطونهم وذكر أنسابهم وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

ونبدأ أولاً بذكر بني كعب وأخبارهم . وأما بني سليم ^(١) هؤلاء فبطن متسع من أوسع
بطون مضر وأكثرهم جموعاً ، وكانت منازلهم بنجد . وهم بنو سليم بن منصور بن
عكرمة بن خصفة بن قيس ، وفيهم شعوب كثيرة ورياستهم في الجاهلية لبني الشريد
ابن رياح بن ثعلبة بن عطية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهنة بن سليم ، وعمر بن
الشريد عظيم مضر ، وأبنائوه : صخر ومعاوية ، فصخر أبو الخنساء وزوجها العباس
ابن مرداس صحابي حضرت معه القادسية . (ومن بطون سليم) عطية ^(٢) ورعل
وذكوان اللذين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتكوا بأصحابه فَحَمَدَ
ذكرهم . وكان بنو سليم لعهد الخلافة العباسية شوكة بغية وفتنة ، حتى لقد أوصى
بعض خلفائهم ابنه أن لا يتزوج فيهم . وكانوا يغيرون على المدينة وتخرج الكتائب من
بغداد إليهم وتوقع بهم وهم متبذون بالقفر ، ولما كانت فتنة القرامطة صاروا حلفاء
لأبي الطاهر وبنيه أمراء البحرين من القرامطة مع بني عقيل بن كعب .

ثم لما انقرض أمر القرامطة غلب بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة لما أن القرامطة
كانوا على دعوتهم . ثم غلب بنو الأصغر بن تغلب على البحرين بدعوة العباسية أيام
بني بويه ، وطردها عنها بني سليم فلحقوا بصعيد مصر . وأجازهم المستنصر على يد
اليازوري وزيره إلى أفريقية لحرب المعز بن باديس عند خلافته عليهم كما ذكرنا ذلك
أولاً ، فأجازوا مع المهلبين وأقاموا ببرقة وجهات طرابلس زماناً ثم صاروا إلى أفريقية
كما يذكر في الخبر عنهم .

وبأفريقية وما إليها من هذا العهد من بطونهم أربعة بطون . زغب وذياب وهيب

(١) كان بنو عقيل وبنو تغلب وبنو سليم يسكنون بالبحرين وكان أظهرهم في الكثرة والعز بنو تغلب ، ثم
اجتمع بنو تغلب وبنو عقيل على سليم حتى أخرجوهم من البحرين ودخلوا إلى مصر فأقام بها بعض وسار
البعض الآخر إلى أفريقيا من بلاد المغرب . (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) .

(٢) وفي نسخة ثانية عصية .

وعوف^(١) * فاما زغب فقال ابن الكلبي في نسبه : زغب بن نصر بن خفاف بن امرئ القيس بن بهته بن سليم . وقال أبو محمد التجاني من مشيخة التونسيين في رحامة : أنه زغب بن ناصر بن خفاف بن جرير بن ملاك بن خفاف . وزعم أنه أبو ذياب ، وزغب الأصغر الذين هم الآن من أحياء بني سليم بأفريقية . وقال أبو الحسن بن سعيد : هو زغب بن مالك بن بهته بن سليم ، كانوا بين الحرمين وهم الآن بأفريقية مع إخوانهم ، ونسب ذياب بن مالك بن بهته فالله أعلم بالصحيح من ذلك .

ونسب ابن سعيد والتجاني لهؤلاء قريب بعضه من بعض ولعله واحد ، وسقط لابن سعيد جد * وأما هيب فهو ابن بهته بن سليم ومواطنهم من أول أرض برقة مما يلي أفريقية إلى العقبة الصغيرة من جهة الإسكندرية ، أقاموا هنالك بعد دخول إخوانهم إلى أفريقية . وأول ما يلي الغرب منهم بنو حميد لهم أجزابية وجهاتها ، وهم عديد يرهبهم الحاج ويرجعون إلى شامخ لها عدد ولهم العزفي هيت لكونها صارت خصب برقة الذي منه المرج . وفي شرقيهم إلى العقبة الكبيرة من قبائل هيب بنو لبيد ، وهم بطون عديدة . وبين شامخ وليد فتن وحروب . وفي شرقيهم إلى العقبة الصغيرة . شمال محارب والرياسة في هاتين القبيلتين لبني عزاز وهم المعروفون بالعزة ، وجميع بطون هيب هذه استولت على إقليم طويل خربوا مدنه ، ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخهم ، وفي خدمتهم بربر ويهود يحترفون بالفلاحة والتجر ، ومعهم من رواحة وفزارة أمم ، واشتهر لهذا العهد ببرقة من شيوخ أعربها أبو ذؤيب . ولا أدري نسبة فيمن هو وهم يقولون من العزة وقوم يقولون من بني أحمد ، وقوم يجعلونه من فزارة هنالك قليل عددهم والغلب هيب ، فكيف تكون الرياسة لغيرهم ؟ وأما عوف فهو ابن بهته بن سليم ومواطنهم من وادي قابس إلى أرض بونة ، ولهم

(١) وفي سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب : زغب : بطن من بهته من سليم وكانت ديارهم بين الحرمين ثم انتقلوا إلى المغرب ، فسكنوا بأفريقية ، جوار قومهم من بني ذياب . وذباب بطن من بهته من سليم أرضهم بين طرابلس وقابس من بلاد المغرب واما هيب من بهته من سليم ومساكنهم من السدرة من برقة إلى العقبة الكبيرة . ثم الصغيرة من حدود الإسكندرية . وبنو عوف من بهته من سليم . قال الحمداي : ومنهم في الصعيد والفيوم والبحيرة أناس كثيرة وفي برقة إلى المغرب منهم ما لا يحصى ، قال في العبر وديارهم في المغرب فيما بين قابس وبلد العناب من أفريقية وينقسمون إلى مرداس وعلاف . واما بالنسبة لزغب فهو زغب بن مالك بن عوف بن امرئ القيس .

حرمان عظيمان بمرداس ولعلاق^(١) بطنان بنو يحيى وحصن ، وفي أشعار هؤلاء المتأخرين منهم مثل حمزة بن عمر شيخ الكعوب وغيره ، أن يحيى وعلاقاً أخوان ولبنى يحيى ثلاثة بطون : حمير ودلاج ، وحمير بطنان : ترجم وكردم ، ومن ترجم الكعوب^(٢) بنو كعب بن أحمد بن ترجم ، ولحصن بطنان بنو علي وحكيم . ونحن نأتي على الحكاية عن جميعهم بطناً بطناً . وكانوا عند إجازتهم على أثر الهلالين مقيمين ببرقة كما ذكرناه . وهنالك نزل عليهم القاضي أبو بكر بن العربي وأبوه حين غرقت سفينتهم ونجوا إلى الساحل ، فوجدوا هنالك بني كعب فقتل عليهم فأكرمهم شيخهم كما ذكر في رحلته .

ولما كانت فتنة ابن غانية وقراقش الغزي يجهات طرابلس وقابس وضواحيها كما نذكر في أخبارهم . كان بنو سليم هؤلاء فيمن تجمع إليهم من ذؤبان العرب أو شاب القبائل فاعصو صبوا عليهم ، وكان لهم معهم حروب ، وقتل قراقش ثمانين من الكعوب وهربوا إلى برقة ، واستصرخوا بريح من بطون سليم ، ودبكل من حمير فصارخوهم إلى أن تجلّت غامة تلك الفتنة بمهلك قراقش وابن غانية من بعده . وكان رسوخ الدولة الحفصية بأفريقية . ولما هلك قراقش واتصلت فتنة ابن غانية مع أبي محمد بن أبي حفص ، ورجع بنو سليم إلى أبي محمد صاحب أفريقية . وكان ابن غانية الزواودة من رباح ، وشيخهم مسعود البلط ، فرمن المغرب ولحق به ، فكان معه هو وبنوه ، وبنو عوف هؤلاء من سليم مع الشيخ أبي محمد . فلما استبد ابنه الأمير أبو زكريا بملك أفريقية رجعوا جميعاً إليه والشعوب للزواودة . فلما انقطع دابر ابن غانية صرف عزمه إلى إخراج رباح من أفريقية لما كانوا عليه من العيث بها والفساد ، فجاء بمرداس وعلاق وهما بنو عوف بن سليم هؤلاء من بطونهم بنواحي السواحل وقابس واصطنعهم .

(١) ذكرنا سابقاً أن مرداس وعلاف من بني عوف . وعلاف بطن من سليم في الأصل ومساكنهم أفريقية من بلاد المغرب منهم أولاد أبي الليل أمراء العرب بأفريقية ، قال في مسالك الأبصار ولهم اعداء يعرفون بأولاد أبي طالب (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) .

(٢) الكعوب : بطن من عوف بن بهثة من سليم ذكرهم في العبر ولم يرفع نسبهم وقال : مساكنهم ما بين قابس وبلد العناب من أفريقية مع قومهم بني عوف ، قال : ورثسهم عند دخولهم أفريقية رافع بن حماد ومن أعقابهم بنو كعب أمراء العرب الآن بأفريقية (المرجع السابق) .

ورياسة مرداس يومئذ في أولاد جامع ، وبعده لإينه يوسف ، وبعده هنان^(١) بن جابر بن جامع ، ورياسة علاق في الكعوب لأولاد شيخه ابن يعقوب بن كعب . وكانت رياسة علاق عند دخولهم أفريقية لعهد هذا المعز وبنيه لرافع بن حماد ، وعنده راية جدّه التي حضر بها مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو جدّ بني كعب فيما يزعمون . فاستظهر بهم السلطان على شأنه ، وأنزلهم بساح القيروان ، وأجزل لهم الصلات والعوائد وزاحموا الزواودة من رياح بمنكب بعد أن كانت لهم استطالة على جميع بلاد أفريقية . وكانت أبة أقطاعاً لمحمد بن مسعود بن سلطان أيام الشيخ أبي محمد بن أبي حفص ، فأقبل إليه مرداس في بعض السنين غيرهم للكيل ونزلوا به ، فرأوا نعمة الزواودة في تلّوهم تلك ، فشرها إليها وأجمعوا طلبها فحاربوهم فغلبوهم ، وقتلوا رزق بن سلطان . واتصلت الفتنة . فلما حضرهم الأمير أبو زكريا صادف عندهم القبول لتحريضه فاعصو صوبوا جميعاً على فتنة الزواودة وتأهبوا لها .

وتكررت بينهم وبين رياح الحروب والوقائع حتى أزاحوهم عن أفريقية إلى مواطنهم لهذا العهد بتلول قسنطينة وبجاية إلى الزاب وما إليه . ثم وضعوا أوزار الحرب وأوطن كل حيث قسمت له قومه . وملك بنو عوف سائر ضواحي أفريقية وتغلبوا عليه ، واصطنعهم السلطان وأثبتهم في ديوان العطاء . ولم يقطع شيئاً من البلاد . واختص بالولاية منهم أولاد جامع وقومه فكانوا له خالصة ، وتم تدبيره في غلب الزواودة ورياح في ضواحي أفريقية وإزعاجهم عنها إلى ضواحي الزاب وبجاية وقسنطينة ، وطال بالدولة واختلف حالهم في الاستقامة معها والنفرة ، وضرب السلطان بينهم ابن علاق فنشأت الفتنة وسخط عنان بن جابر شيخ مرداس من أولاد جامع مكانه من الدولة ، فذهب مغاضباً عنها . وأقام بتاجعته من مرداس ومن إليهم بنواحي المغرب في بلاد رياح من زاغر إلى ما يقاربها ، وخاطبه أبو عبدالله بن أبي الحسن خالصة السلطان أبي زكريا صاحب أفريقية يومئذ يؤنبه على فعلته في مراجعة السلطان بقصيدة منها قوله وهي طويلة :

قدّوا المهامه بالمهرية القود * واطووا فلاة بتصويب وتصعيد
ومنها قوله :

(١) وفي نسخة أخرى : عنان وهو الصحيح . وهذا ربما تحريف من الناسخ

سلوا دمنة بين الغضا والسواجر * هل استن فيها واكفات المواطر
فأجاب عن هذه عنان بقوله :

خليلي عوجا بين سلع وحاجر * بهوج عننا جيج نواج ضوامر
يقيم عروة في التزوع عنهم ويستعطف السلطان بعض الشيء كما نذكره في أخبار الدولة
الحفصية . ثم لحق بمراكش بالخليفة السعيد من بني عبد المؤمن محرصاً له على أفريقية
وآل أبي حفص ، وهلك في سبيله وقبر بسلاً . ولم يزل حال مرداس بين النفرة
والأصحاب إلى أن هلك الأمير أبو زكريا واستفحل ملك ابنه المستنصر من بعده ،
وعلا الكعوب بذمة قوية من السلطان . وكان شيخهم لعهد عبد الله بن شيخة ،
فسعى عند السلطان في مرداس ، وكان أبو جامع مبلغاً سعيته واعصوبت عليه سائر
علاق ، فحاربوا المرداسيين هؤلاء وغلبوهم على الأوطان والحظ من السلطان ،
وأخرجوهم عن أفريقية وصاروا إلى القفر ، وهم اليوم به من جهة بادية الأعراب
أهل الفلاة يتزعمون إلى الرمل ويمتارون من أطراف التلول تحت أحكام سليم أو
رياح . ويختصون بالتغلب على ضواحي قسنطينة أيام مرايع الكعوب وصائفهم
بالتلول . فإذا انحدروا إلى مشاتهم بالقفر أجفلت أحياء مرداس إلى القفر البعيد ،
ويخالطونهم على حلف ، ولهم على توزر ونقطة وبلاد قسطنطية أتاوة يؤدونها إليهم بما
هي مواطنهم ومحالاتهم وتصرفهم ، ولأنها في الكثير من أعراضهم .

وصاروا لهذا العهد إلى تملك القفار بها ، فاصطفوا منه كثيراً وأصبح منه عمران
قسنطينة لهم مرتاباً^(١) واستقام أمر بني كعب من علاق في رئاسة عوف وسائر بطونهم
من مرداس وحصين ورياح ودلاج ، ومن بطون رياح حبيب وعلا شأنهم عند
الدولة . واعتروا على سائر بني سليم بن منصور ، واستقرت رياستهم في ولد يعقوب
ابن كعب ، وهم بنو شيخة وبنو طاهر^(٢) وبنو علي . وكان التقدم لبني شيخة بن
يعقوب ، لعبد الله أولاً ثم لإبراهيم أخيه ، ثم لعبد الرحمن ثالثها على ما يأتي . وكان
بنو علي يرادفونهم في الرئاسة ، وكان منهم بنو كثير بن يزيد بن علي . وكان كعب هذا
يعرف بينهم بالحاج لما كان قضى فرضه ، وكانت له صحابة مع أبي سعيد العود
الرطب شيخ الموحدين لعهد السلطان المستنصر أفادته جاهاً وثروة ، وأقطع له السلطان

(١) وفي النسخة التونسية : وأصبح عمران قسطنطية لهم مرتاباً .

(٢) وفي نسخة ثانية : بنو شيخة وبنو طاعن . وفي سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ورياح وليس رياح .

أربعاً من القرى أصارها لولده . كان منها بناحية صفاقس وبأفريقية وبناحية الجريد . وكان له من الولد سبعة ، أربعة لأم وهم أحمد وماضي وعلي ومحمد ، وثلاثة لأم وهم : بريد وبركات وعبد الغني . فنازع أحمد أولاد شيخة في رياستهم على الكعوب ، واتصل بالسلطان أبي إسحق وأحفظهم ذلك فلحقوا بالدعي عند ظهوره ، وكان من شأنه ما قدّمنا .

وهلك أحمد واستقرت الرياسة في ولده ، وكان له من الولد جماعة ، فن غزية إحدى نساء بني يزيد من صنهاجة : قاسم ومرا أبو الليل وأبو الفضل ، ومن الحكيمة قائد وعبيد ومنديل وعبد الكريم ، ومن السرية كليب وعساكر وجهد الملك ^(١) وعبد العزيز ، ولما هلك أحمد قام بأمرهم بعده ابنه أبو الفضل . ثم من بعده أخوه أبو الليل بن أحمد ، وغلب رياسة بني أحمد هؤلاء على قومهم ، وتآلفوا ولد إخوتهم جميعاً . وعرفوا ما بين أحيائهم بالأعشاش إلى هذا العهد . ولما كان شأن الدعي بن أبي عمارة ، ويشس الفضل بن يحيى المخلوع وأوقع بالسلطان أبي إسحق وقتله وأكثر بنييه كما نذكره في موضعه . لحق أبو حفص أخوه الأصغر بقلعة سنان من حصون أفريقية . وكان لأبي الليل بن أحمد في نجاته ثم في القيام بأمره أثر وقع منه أحسن المواقع فاصطنعه به وشيد من رياسته على قومه عندما أدال الله به من الدعي ، فاصطنع أبو الليل هذا بأمرهم .

وزاحم أولاد شيخة بمنكب قوي ولحق آخرهم عبد الرحمن بن شيخة بجباية عندما اقتطعها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحق على ملك عمه السلطان أبي حفص ، فوفد عليه مستجيشاً به ومرغباً له في ملك تونس ، يرجو بذلك كثرة رياسته فهلك دون مرامه ، وقبر بجباية وانقرضت رياسة أولاد شيخة بمهلكه واستبد أبو الليل بالرياسة في الكعوب ، ووقع بينه وبين السلطان أبي حفص وحشة ، فقدّم على الكعوب مكانه محمد بن عبد الرحمن بن شيخة ، فقدّم على الكعوب مكانه محمد ابن عبد الرحمن بن شيخة ، وزاحمه به أياماً حتى استقام على الطاعة .

ولما هلك قام بأمرهم ابنه أحمد ، واتصل أمر رياسته ونكبه السلطان أبو عصيدة فهلك في سجنه ، وولي بعده أخوه عمر بن أبي الليل وزاحمه هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب إلى أن هلك هراج كما نذكره . ولما هلك عمر قام بأمره في قومه أخوه

(١) وفي نسخة ثانية عبد الملك .

محمد بن أبي الليل ، وكفل مولاهم وحمزة ابن أخيه عمر . وكان عمر مضعفا عاجزاً
فنازعه أولاد مهلهل ابن عمه قاسم وهم : محمد ومسكيانه ومرغم وطالب وعون في
آخرين لم يحضرنني أساؤهم ، فترشحوا للاستبداد على قومهم ومحاذبة محمد ابن
عمهم أبي الليل حبل الرياسة فيهم . ولم يزالوا على ذلك سائر أيامهم .

ولما ظهر هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب وعظم ضغائنه وعتوه وإفساد الأعراب من
أحيائه السابلة ، وساء أثره في ذلك ، وأسف السلطان بالاعتزاز عليه والاشتراط في
ماله . وتوغلت له صدور الغوغاء والعامّة ، فوفد على تونس عام خمسة وسبعائة
ودخل المسجد يوم الجمعة لباساً خفيه ، ونكر الناس عليه وطأه بين الله بخف لم
يتزعه . وربما قال له في ذلك بعض المصلين إلى جنبه ، فقال : إني أدخل بها بساط
السلطان فكيف الجامع ؟ فاستعظم الناس كلمته وثاروا به لحينه فقتلوه في المسجد
وأرضوا الدولة بفعلهم . وكان أمره مذكوراً .

وقتل السلطان بعد ذلك أخاه كيسان وابن عمه شبل بن منديل بن أحمد . وقام بأمر
الكعوب من بعد محمد بن أبي الليل وهراج بن عبيد مولاهم وحمزة أبناء عمر ،
واستبد برياسة البدو من سليم بأفريقية على مزاحمة من بني عمهم مهلهل بن قاسم
وأمثالهم وفحول سواهم . وانتقض أحمد بن أبي الليل وابن أخيه مولاهم بن عمر
على السلطان سنة سبع وسبعائة ، واستدعى عثمان بن أبي دبوس من مكانه بوطن
ذباب ، فجاءه وأجلب له على تونس . ونزل كدية الصعتر بظاهرها . وبرز إليهم
الوزير أبو عبد الله بن برزيكن^(١) فهزمهم ، واستخدم أحمد بن أبي الليل .

ثم تقبض عليه واعتقل بتونس إلى أن هلك . ووفد بعد ذلك مولاهم ابن عمر سنة
ثمان وسبعائة فاعتقل معه ، ولحق أخوه حمزة بالأمير أبي البقاء خالد ابن الأمير
زكريا صاحب الثغر الغربي من أفريقية بين يدي مهلك السلطان أبي عبيدة ،
ومعه أبو علي بن كثير ويعقوب بن الفرس وشيوخ بني سليم هؤلاء . ورغبوا الأمير أبا
البقاء في ملك الحضرة . وجاؤا في صحبته ، وأطلق أخاه مولاهم من الاعتقال منذ
دخول السلطان تونس سنة عشر وسبعائة كما نذكره في خبره .

ثم لحق حمزة بالسلطان أبي يحيى زكريا ابن اللحياي واتصلت به يده فرفعه على
سائر العرب حتى لقد نفّس ذلك عليه أخوه مولاهم . ونزع إلى السلطان أبي يحيى

(١) وفي النسخة التونسية : يرزيكن .

الطويل أمر الخلافة . ولي سبعاً بيجاية وثلاثين بعد استيلائه على الحضرة وسائر بلاد أفريقية ، فاستخلصه السلطان لدولته وناذره حمزة فأجلب عليه بالقرابة واحداً بعد واحد كما نذكره ، وداهن أخوه مولا هم في مناصحة السلطان ومالاً حمزة على شأنه ، وربما نمي عنه الغدر فتقبض عليه السلطان وعلى ابنه منصور وعلى ربيبه زغدان ومغران بن محمد بن أبي الليل . وكان الساعي بهم إلى السلطان ابن عمهم عون بن عبدالله بن أحمد ، وأحمد بن عبد الواحد أبو عبيد ، وأبو هلال بن محمود بن قائد ، وناجي بن أبي علي بن كثير ومحمد بن مسكين وأبو زيد بن عمر بن يعقوب ، ومن هواره فيصل بن زعزاع فقتلوا حينهم سنة اثنتين وعشرين وسبعائة وبعث أشلاؤهم إلى حمزة فاشتد حنقه ، ولحق صريخاً بأبي تاشفين صاحب تلمسان لعده من آل يغمراسن ، ومعه محمد ابن السلطان اللحياني المعروف بأبي ضربة قد نصبه للملك . وأمدهم أبو تاشفين بعساكر زناتة ، وزحفوا إلى أفريقية فخرج إليهم السلطان وهزمهم برغيش . ولم يزل حمزة من بعدها مجلباً على السلطان أبي يحيى بالمرشحين من أعياص البيت الحفصي ، وأبو تاشفين صاحب تلمسان يمدّهم بعساكره . وتكررت بينهم الوقائع والأيام سجالات كما نذكره في مواضعه ، حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن وقومه من بني مرين على تلمسان والغرب الأوسط سنة سبع وثلاثين وسبعائة ، واستتبوا بني عبد الواد وسائر زناتة أقصى حمزة عن فتنه وانقطع حبلها في يده ، ولحق بالسلطان أبي الحسن مستشفعاً به ، فتقبل السلطان أبو يحيى شفاعته وعفاله عن جرائمه وأحله محل الأصفاء والخلوص . فشر عن نصحه واجتهاده وظاهر قائده محمد بن الحكيم على تدويخ أفريقية ، وظهر البدو من الأعراب فاستقام أمر الدولة وتوثر مهاده . وهلك حمزة سنة أربعين وسبعائة بيد أبي عون نصر ابن أبيج علي عبد السلام من ولد كثير بن زيد المتقدم الذكر في بني علي من بطون بني كعب ، طعنه في بعض الحروب فأشواه ، وكان فيها مهلكه . وقام بأمرهم من بعده ابنه عمر بمظاهرة شقيقه قتيبة . ولكن أبا الليل تغلب على سائر الإخوة والقرابة ، واستبد برياسة بني كعب وسائر بني يحيى ، وأقاتله بنو مهلهل ينافسونه ويرتقبون الإدالة منه . وكان مساهمه في أمره معن بن مطاعن من فزارة وزير أبيه . وخرجوا على السلطان بعد مهلك حمزة أبيهم واتهموا أن قتل أبي عون إياهم إنما كان بمألة الدولة فنازلوا تونس ، وجمعوا لمحاصرتها أولاد مهلهل أمثالهم . ثم اختلفوا ورحلوا عن البلد

وانغزل طالب بن مهلهل وقومه إلى السلطان . ونهض في أثرهم فأوقع بهم في القيروان ، ووفدت مشيختهم على ابنه الأمير أبي العباس بقصره يداخلونه في الخروج على ابنه . وكان فيهم معن بن مطاعن وزيرهم فتقبض عليه وقتله وأفلت الباقيون . وراجعوا الطاعة وأعطوا الرهن .

(ولما هلك) السلطان أبو يحيى وقام بالأمر ابنه عمر ، انحرفوا عنه وظاهروا أخاه أبا العباس صاحب الجريد وولي العهد ، وزحفوا معه بطواعينهم إلى تونس فدخلها ، وقتله أخوه عمر كما نذكره في موضعه ، وقتل معه أخاهم أبا الهول بن حمزة فأسعفهم بذلك .

ووفد خالد على صاحب المغرب السلطان أبي الحسن فيمن وفد عليه من وجوه الدولة وكافة المشيخة من أفريقية ، وجاء في جملة حتى إذا استولى على البلاد قبض أيديهم عما كانت تمتد إليه من إفساد السابلة وأخذ الأتاوة ، وانترع الأمصار التي كانت مقتطعة بأيديهم وألحقهم بأثماتهم من أعراب بلاد المغرب الأقصى من المعقل وزغبة ، فثقلت وطأته عليهم وتنكروا له وساء ظنه بهم ، وفشت غارات المفسدين من بداويهم بالأطراف فنسب ذلك إليهم ، ووفد عليه بتونس من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن أبي زيد من شيوخ حلیم ، فسعى بهم عنده أنهم داخلوا بعض الأعياص من أولاد اللحياني من بني أبي حفص كما في رحلته ، كما نذكره في موضعه ، فتقبض عليهم وبلغ خبرهم إلى الحلي فناشبوها بقسطيلة والجريد فظفروا بزنايبي من بقية آل عبد المؤمن من عقب أبي العباس إدريس الملقب بأبي إدريس آخر خلفائهم بمراكش واستيلاؤه على المغرب ، وهو أحمد بن عثمان بن إدريس ، فنصبوه وباعوه واجتمعوا عليه .

وناشبت معهم بنو عمهم مهلهل أقتلهم وكان طالب هلك ، وقام مكانه فيهم ابنه محمد فصرخهم بقومه واتفقوا جميعاً على حرب زناته . ونهض إليهم السلطان أبو الحسن من تونس فاتح تسع وأربعين وسبعائة فأجفلوا أمامه حتى رل القيروان . ثم ناجزوه ففضوا جموعه وملؤا حقائبهم بأسلابه وأسلابهم ، وخضدوا من شوكة السلطان ، وألأنوا من حدّ الملك ، وخفضوا من أمر زناته ، وغلبهم الأثم وكان يوم له ما بعده في اعتزاز العرب على الدول آخر الأيام . وهلك أبو الليل بن حمزة فعجز عمر عن مقاومة إخوته ، واستبد بالرياسة عليه أخوه خالد ، ثم من بعده أخوه منصور ،

واعتر على السلطان أبي إسحق ابن السلطان أبي يحيى صاحب تونس لعهدده اعتزازاً
لا كفاء له .

وانبسط أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار والقاب الجباية
ومختص الملك ، وانتفضت الأرض من أطرافها ووسطها ، وما زالوا يغالبون الدولة
حتى غلبوا على الضاحية ، وقاسمهم في جبايات الأمصار بالأقطاع ريفاً وصحراء
وتلواً وجريداً . ويحرضون بين أعياص الدولة ويحلبون بهم على الحضرة لما يعطونه
طعمة من الدولة . ويرميهم السلطان باقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد يدبيل به
منهم حتى أحفظوها . ويحرض بينهم بقضاء أوطارها حتى اذا أراد الله انقاذاً الأمة من
هوة الخسف وتخليصهم من مكاره الجوع والخوف ، وإداتهم من ظلمات الموت بنور
الاستقامة ، بعث همة السلطان أمير المؤمنين أبي العباس أحمد أيده الله لطلب إرثه
من الخلافة . فبعث من بالحضرة فانبعث لها من مكان إمارته بالشعر العربي ، ونزل
إليه أمير البدو ومنصور بن حمزة هذا ، وذلك سنة إحدى وسبعين وسبعمئة على حين
مهلك السلطان أبي إسحق مقتعد كرسي الحضرة وصاحب عصا الخلافة والجماعة .
وقام ابنه خالد بالأمر من بعده فنهض إلى أفريقية ودخل تونس عنوة ، واستولى على
الحضرة سنة إثنين وسبعين وسبعمئة بعدها ، وأرهف حدّه للعرب في الاعتزاز عليهم
وقبض أيديهم عن المفاصد وذوهم ، فحدثت لمنصور نفرة عن الدولة ، ونصب
الأمير أبو يحيى زكريا ابن السلطان ابن أبي يحيى جدّهم الأكبر ، كان في أحياء
العرب منذ سنين كما نذكر ذلك كله في اخبار الدولة ، وأجلب به على تونس سنة
ثلاث وسبعين ، فامتنعت عليهم ولم يظفروا بشيء وراجع منصور حاله عند
السلطان ، وكشف عن وجه المناصحة . وكان عشيرته قد ملوا منه حسداً ومنافسة
بسوء ملكته عليهم ، فغدا عليه محمد ابن أخيه أبي الليل وطعنه فأشواه ، وهلك
ليومه سنة خمس وسبعين ، وافترق جمعهم .

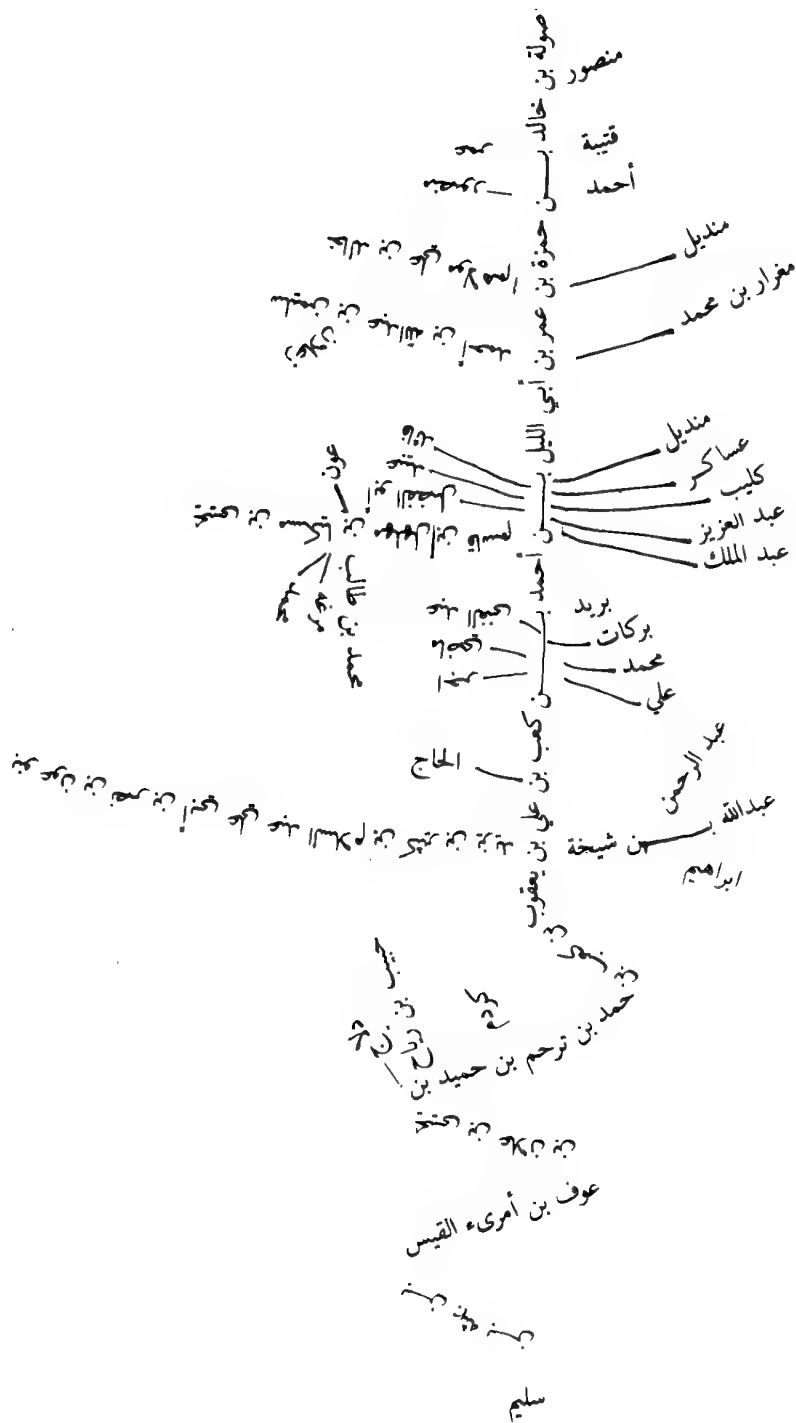
وقام بأمرهم من بعده صولة ابن أخيه خالد بن حمزة ، ويرادفه أولاد مولاهم بن
عمر ، فجهد بعض الشيء في خدمة السلطان ومناصحته . ثم رجع إلى العصيان
وكشف القناع في الخلاف ، واتصل حاله على ذلك ثلاثاً ، وأدال السلطان منه ومن
قومه باقتالهم أولاد مهلهل ، ورياستهم لمحمد بن طالب ، فرجع إليهم رياسة البدو ،
وجعل لهم المنع والاعطاء فيهم ورفع رتبهم على العرب ، وتخير إليه معهم أولاد

مولاهم بن عمر بن أبي الليل ، ونقلت أولاد حمزة سائر هذه الأيام في الخلاف ، ونهض السلطان سنة ثمانين وسبعائة إلى بلاد الجريد لتقديم رؤسائها عن المراوغة ، وحملهم على جادة الطاعة ، فتعرضوا لمدافعته عنها بإملاء هؤلاء الرؤساء ومشارطتهم لهم على ذلك ، وبعد أن جمعوا له الجموع من دومان^(١) العرب الأعراب وذباب البدو ، فغلبهم عليها جميعاً ، وأزاحهم عن ضواحيها ، وظفر بفرائسة من أولئك الرؤساء ، وأصبحوا بين معتقل ومشرد . واستولى على قصورهم وذخائرهم ، وأبعد أولاد حمزة وأحلافهم من حكم المفر ، وجاوزوا تخوم بلادهم من جهة المغرب ، واعتزت عليهم الدولة اعتزازاً لا كفاء له ، فنامت الرعايا في ظل الأمن وانطلقت منهم أيدي الاعتار والمعاشر وصلحت السابلة بعد الفساد ، وانفتحت أبواب الرحمة على العباد .

وقد كان اعتزاز هؤلاء العرب على السلطان والدولة لا ينتهي إليه اعتزاز ، ولهم عنجهية وإبابة وخلق في التكبر الذي هو غريزة لما أنهم لم يعرفوا عهداً للذل ، ولا يسامون بإعطاء الصدقات لهذا العهد الأول . أما في دولة بني أمية فللعصية التي كانت للعرب بعضها مع بعض ، يشهد بذلك أخبار الردة والخلفاء معهم مع أمثالهم ، مع أن الصدقة كانت لذلك العهد تتحرى الحق بجانب الاعتزاز والغلبة ، فليس في إعطائها كثير غمط ولا مذلة . وأما أيام بني العباس حين استفحال الملك وحدثت الغلظة على أهل العصاة فلإبعادهم بالقفر من بلاد نجد وتهامة وما وراءهما . وأما أيام العبيدين فكانت الحاجة تدعو الدولة إلى استمالتهم للفتنة التي كانت بينهم وبين بني العباس . وأما حين خرجوا بعد ذلك إلى قضاء برقة وأفريقية فكانوا ضاحين من ظل الملك . ولما اصطنعهم بنو أبي حفص كانوا معهم بمكان^(٢) من الذل وسوم الخسف حتى كانت واقعتهم بالسلطان أبي الحسن وقومه من زناتة بالقيروان ، فنهجوا سبيل الاعتزاز لغيرهم من العرب على الدول بالمغرب ، فتحامل المعقل وزغبة على ملوك زناتة ، واستطالوا في طلبهم بعد أن كانوا مكبوحين بحكمة الغلب عن التناول إلى مثلها . والله مالك الأمور .

(١) وفي نسخة ثانية ذؤبان العرب .

(٢) وفي نسخة التونسية : بمنجاة .



* (الخبر عن قاسم بن مرا من الكعوب القائم
بالسنة في سليم ومآل أمره وتصاريه أحواله) *

كان هذا الرجل من الكعوب من أولاد أحمد بن كعب منهم ، وهو قاسم بن مرا بن أحمد . نشأ بينهم ناسكاً متحلاً للعبادة . ولقي بالقيروان شيخ الصلحاء بعصره أبا يوسف الدهماني وأخذ عنه ولزمه . ثم خرج إلى قومه مقتفياً طريقة شيخه في التزام الورع والأخذ بالسنة ما استطاع . ورأى ما العرب عليه من إفساد السابلة والخروج عن الجادة ، فأخذ نفسه بتغيير المنكر فيهم وإقامة السنة لهم ، ودعا إلى ذلك عشيره من أولاد أحمد ، وأن يقاتلوا معه على ذلك . فأشار عليه أولاد أبي الليل منهم وكانوا عيبة له تنصح له أن ينكف عن طلب ذلك من قومه ، مخافة أن يلحوا في عداوته فيفسد أمره . ودفعوه إلى مطالبة غيرهم من سليم وسائر الناس بذلك ، وأنهم منعة له ممن يرومه خاصة ، فجمع إليه أو باشاً من البادية تبعوه على شأنه والتزموا طريقته والمراطة معه ، وكانه يسمون بالجنادة .

وبدا بالدعاء إلى إصلاح السابلة بالقيروان وما إليها من بلاد الساحل ، وتبع المحاربين بقتل من يعثر عليه منهم بالطرق ، وغزو المشاهير منهم في بيوتهم ، واستباحة أموالهم ودمائهم حتى شردهم كل مشرد . وعلت بذلك كلمته على آل حصن وصلحت السابلة بأفريقية ما بين تونس والقيروان وبلاد الجريد وطار له ذكر نفسه عليه قومه ، وأجمع عداوته واغتياله بنو مهلهل قاسم بن أحمد ، وتنصحوا ببعض ذلك للسلطان بتونس الأمير أبي حفص وأن دعوة هذا الرجل قاذحة في أمر الجماعة والدولة ، فأغضى لهم عن ذلك ، وتركهم وشأنهم ، فخرجوا من عنده مجتمعين قتله ، ودعوه في بعض أيامهم إلى المشاورة في شؤونهم معه على عادة العرب ، ووقفوا معه بساحة حيم ، ثم خلصوا معه نجياً ، وطعنه من خلفه محمد بن مهلهل الملقب بأبي عذبتين فخر صريعاً للدين والقم . وامتنع له أولاد أبي الليل وطلبوا بدمه فافترقت أحياء بني كعب من يومئذ بعد أن كانت جميعاً . وقام بأمره من بعده ابنه رافع على مثل طريقته إلى أن هلك في طلب الأمر على يد بعض رجالات آل حصن سنة ست وسبعائة .

ولم يزل بنو أبي الليل على الطلب بثأر قاسم بن مرا إلى أن ظهر فيهم حمزة ومولاهم
 إبننا عمر بن أبي الليل ، وصارت إليهم الرياسة على أحيائهم . واتفق في بعض الأيام
 اجتماع أولاد مهلهل بن قاسم في سيدي حمزة ، ومولاهم في مشاتهم بالقفر ،
 فأجمع اغتيالهم وقتلهم عن آخرهم بثأر ابن عمهم قاسم بن مرا ، ولم يفلت منهم إلا
 طالب بن مهلهل لم يحضر معهم . وعظمت الفتنة من يومئذ بين هذين الحيين
 وانقسمت عليهم أحياء بني سليم وصاروا يتعاقبون في الخلاف والطاعة على الدولة ،
 وهم على ذلك لهذا العهد ، والرياسة في بني مهلهل اليوم لمحمد بن طالب بن مهلهل
 وأخيه يحيى ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

* (بنو حصن بن علاق)

بنو حصن هؤلاء من بطون علاق^(١) وحصن أخو يحيى بن علاق كما مر ، فهم بطنان
 أيضاً : بنو عليّ وحكيم . وقد يقال إن حكيماً ليس لحصن ، وإنما ربي في حجره
 فانتفى إليه . وأما حكيم فلهم بطون منهم بنو ظريف بن حكيم وهم أولاد عائر^(٢) ،
 والشرابة ونعير وجور . أقدام بن ظريف وزباد بن ظريف . ومنهم بنو وائل بن
 حكيم ومنهم بنو طرود بن حكيم . وقد يقال إن طروداً ليس لسليم . وأنهم من منبس
 إحدى بطون هلال بن عامر ، ويقال إن منهم زيد العجاج بن فاضل المذكور في
 رجالات هلال ، والصحيح في طرودانهم من بني فهم بن عمر بن قيس بن عيلان
 ابن عمدوان وفي تعدادهم ، وكانت طرود أحلاف الدلاج ، ثم قاطعوهم وحالفوا آل
 ملاعب .

ومن بطون حكيم آل حسين ونوال ومقعد والجمعيات ، ولا أدري كيف يتصل
 نسبهم . ومنهم بنو نمير بن حكيم ، ونمير بطنان : ملاعب وأحمد ، فمن أحمد بنو
 محمد والبطين ومن ملاعب بنو هيكل بن ملاعب . وهم أولاد زمام والفزيات^(٣)
 وأولاد مياس وأولاد فائد . ومن أولاد فائد الصرح والمدافعة . وأولاد يعقوب بن

(١) علاق : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب وقد مرّ معنا من قبل في مكان سابق .

(٢) وفي نسخة ثانية : اولاد جابر .

(٣) وفي النسخة الباريسية الغرنات .

عبدالله بن كثير بن حرقوص بن فائد ، وإليهم رياسة حكيم وسائر بطونهم ومواطن حكيم هؤلاء لهذا العهد ما بين سوسة والأجم . والناجعة منهم أحلاف لبني كعب ، تارة لأولاد أبي الليل وتارة لاقتلهم أولاد مهلهل ، ورياستهم في بني يعقوب بن عبد السلام بن يعقوب شيخاً عليهم ، وانتقض أيام اللحياني .

ووفد على السلطان أبي يحيى بالثغر الغربي من أفريقية في بجاية وقسنطينة وجاء في حملته ، فلما ملك ملك تونس ، عقد له على قومه ورفع على أنظاره . وغص به بنو كعب فحرّض عليه حمزة من الأعشاش محمد بن حامد بن يزيد فقتله في موقف شوارهم ، وولي الرياسة فيهم من بعده ابن عمه محمد بن مسكين بن عامر بن يعقوب ابن القوس وانتهت إليه رياستهم . وكان يرادفه أو ينازعه جماعة من بني عمه ، فمنهم سحيم بن سليمان بن يعقوب ، وحضر واقعة طريف مع السلطان أبي الحسن ، وكان له فيها ذكر ، ومنهم أبو الهول وأبو القاسم إبن يعقوب بن عبد السلام ، وكان لأبي الهول مناصحة للسلطان أبي الحسن حين أحلف عليه بنو سليم بالقيروان وأدخله مع أولاد مهلهل في الخروج على القيروان ، فخرج معهم جميعاً إلى سوسة .

ومنهم بنو يزيد بن عمر بن يعقوب وإبنه خليفة . ولم يزل محمد بن مسكين على رياسته أيام السلطان أبي يحيى كلها وكان مخالطاً له ، ومتهاكياً في نصيحته والانجياش إليه . ولما هلك خلفه في رياسته ابن أخيه خليفة بن عبدالله بن مسكين وهو أحد الأشياخ الذين تقبض عليهم السلطان أبو الحسن بتونس بدعاء^(١) واقعة القيروان . ثم أطلقه وهو محصور بالقيروان فكان له به اختصاص من بعد ذلك . ولما تغلب العرب على النواحي بعد واقعة القيروان تغلب بنو مسكين هؤلاء على سوسة ، فأقطعها السلطان خليفة هذا وبقيت في ملكه . وهلك خليفة فقام برياستهم في حكيم ابن عمه عامر ابن محمد بن مسكين . ثم قتله محمد بن بشينة بن حامد من بني كعب قتله يعقوب بن عبد السلام ، ثم قتله محمد هذا غدرًا بجهاد الجريد سنة خمس وخمسين وسبعمائة . ثم افترق أمرهم واستقرت رياستهم لهذا العهد بين أحمد بن محمد بن عبدالله بن مسكين ، وتلقب أبا معنونة وهو ابن أخي خليفة المذكور . وعبدالله بن محمد بن يعقوب وهو ابن أخي أبي الهول المذكور ، ولما تغلب السلطان أبو العباس على تونس

(١) وفي نسخة ثانية بين يدي .

وملكها ، انتزع سوس من أيديهم ، فامتعض أحمد لذلك ، وصار إلى ولاية صولة
ابن خالد بن حمزة من أولاد أبي الليل وسلخوا سبيل الخلاف والفتنة ، وأبعدوا في
شأوها . وهم لهذا العهد مشردون عن الضواحي والارياف متزاحون إلى القفر .
وأما عبدالله بن محمد ويلقب الرواي فتحيزا إلى السلطان ، وأكد حلفه مع أولاد
مهلهل على ولايته ومظاهرتة ، فعظمت رياسته في قومه وهو على ذلك لهذا العهد . ثم
راجع أبو معنونة خدمة السلطان وانقسمت رئاسة حكيم بينهما ، وهم على ذلك لهذا
العهد . وأما بنو علي إخوة حكيم فلهم بطون أولاد صورة ويجمعها معا عوف بن محمد
ابن علي بن حصن . ثم أولاد نمي والبدرانة ، وأولاد أم أحمد والحضرة أو
الرجلان ، وهو مقعد والجمعيات والحمر والمسابة آل حسين وحجري ، وقد يقال أن
حجري ليسوا لسليم وأنهم من بطون كندة صاروا معهم بالحلف ، فانتسبوا بنسبهم
ورئاسة بني علي في أولاد صورة . وشيخهم لهذا العهد أبو الليل بن أحمد بن سالم بن
عقبة بن شبل بن صورة بن مرعي بن حسن بن عوف . ويرادفهم المراعية من أهل
نسبهم أولاد مرعي بن حسن بن عوف ، ومواطنهم ما بين الأجم والمباركة من نواحي
قابس ، وناجعتهم أحلاف الكعوب . أما لأولاد أبي الليل أولاً ولاد مهلهل ،
وغالب أحوالهم أولاد مهلهل ، والله مقدر الأمور لا رب سواه .

[illegible]

* (ذباب بن سليم) *

قد ذكرنا الخلاف في نسبهم من أنهم من ذباب بن ربيعة بن زعب الأكبر وأن ربيعة أخو زعب الأصغر . وضبط هذه اللفظة لهذا العهد بضم الزاي وقد ضبطها الأجل أبيي والرشاطي بكسر الزاي . كذا نقل أبو محمد التجاني في رحلته ، ومواطنهم ما بين قابس وطرابلس إلى برقة وهم بطون فمنهم أولاد أحمد بن ذباب ومواطنهم غربي قابس وطرابلس إلى برقة . عيون رجال مجاورون لحصن ، ومن عيون رجال بلاد زغب من بطون ذباب بنو يزيد مشاركون لأولاد أحمد في هذه المواطن ، وليس هذا أباً لهم ، ولا إسم رجل ، وإنما هو إسم حلفهم انتسبوا به إلى مدلول الزيادة . كذا قال التجاني وهم بطون أربعة : الصهب بسكون الهاء بنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع ابن ذباب ، وإخوتهم الحمادية بنو حمدان بن جابر ، والخرجة بسكون الراء بطن من آل سليمان منهم . أخرجهم آل سليمان من مواطنهم بمسالة فحالفوا هؤلاء ونزلوا معهم . والأصابعة نسبة إلى رجل ذي إصبع زائدة . ولم يذكر التجاني في أي بطن من ذباب يتسبون . ومنهم النوائل بنو نائل بن عامر بن جابر وإخوتهم أولاد سنان بن عامر ، وإخوتهم أولاد وشاح بن عامر ، وفيهم رياسة هذا القبيل من ذباب كلهم ، وهم بطنان عظيمان : الحمديد^(١) بنو محمود بن طوب بن بقية بن وشاح ومواطنهم ما بين قابس ونفوسة وما إلى ذلك من الضواحي والجبال . ورياستهم لهذا العهد في بني رحاب بن محمود لأولاد سباع بن يعقوب بن عطية بن رحاب . والبطن الآخر الجوارى^(٢) بنو حميد بن جارية بن وشاح ، ومواطنهم طرابلس وما إليها مثل تاجورا وهزاعة وززور وما إليها من ذلك لهذا العهد . ورياستهم لهذا العهد في بني مرغم بن صابر بن عسكر بن علي بن مرغم . ومن أولاد وشاح بطنان آخران صغيران مندرجان مع الجوارى والحمديد وهما الجوارية بنو جراب بن وشاح ، والعمور بنو عمر بن وشاح

(١) الحمديد : بطن من ذباب من بهته من سليم منازلهم بين طرابلس وقابس من بلاد المغرب سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب .

(٢) الجوارى : بطن من ذباب من بهته من سليم قال في العبر وهم رؤساء ذباب الآن ومنازلهم فيما بين طرابلس الغرب وقابس (المرجع السابق) .

هكذا زعم التجاني في العمور هؤلاء . وفي هلال بن عامر بطن العمور كما ذكرناه .
وهم يزعمون أن عمور ذباب هؤلاء منهم ، وأنهم إنما جمعهم مع ذباب الموطن
خاصة وليسوا من سليم والله أعلم بحقيقة ذلك .

وكان من أولاد وشاح بنو حريز بن تميم بن عمر بن وشاح كان منهم فائد بن حريز من
فرسان العرب المشاهير وله شعر متداول بينهم لهذا العهد سمر الحي وفكاهة المجالس ،
ويقال إنه من الحمديد ، فائد بن حريز بن حربي بن محمود بن طوب . وكان بنو
ذباب هؤلاء شيعة لقراقش الغزي وابن غانية ، ولها فيه أثر . وقتل قراقش مشيخة
الحواري في بعض أيامه . ثم صاروا بعد مهلك ابن غانية إلى خدمة الأمير أبي زكريا
وأهل بيته من بعده ، وهم الذين أقاموا أمر الداعي بن أبي عمارة وعليهم كان تلبسه
لأن يصير أميراً بدل المخلوع ، وكان فر إليهم بعد مهلك مولاه وبنيه ، ونزل عليهم
حتى إذا مر بهم ابن أبي عمارة فعرفه الخبر ، فاتفقوا على التلبس وزينوا ذلك هؤلاء
العرب فقبلوه . وتولى كبر ذلك مرغم بن صابر وتبعه قومه ، وداخلهم في الأمر أبو
مروان عبد الملك بن مكى رئيس قابس ، فكان من قدر الله ما كان من تمام أمره
وتلوث كرسي الخلافة بدمه حسبما يذكر في أخبار الدولة الحفصية .

وكان السلطان أبو حفص يعتمد عليهم فغلبهم في دعوة عمارة ، فخالفوا عليه ، وسرح
لحربهم قائده أبا عبد الله الفزاري ، واستصرخوا بالأمير أبي زكريا ابن أخيه ، وهو
يومئذ صاحب بحاية والثغر الغربي من أفريقية . ووفد عليه منهم عبد الملك بن رحاب
ابن محمود فنض لصريخه سنة سبع وثمانين وستائة ، وحاربوا أهل قابس وهزمهم
وأثخنوا فيهم . ثم غلبهم الفزاري ومانعهم عن وطن أفريقية . ورجع الأمير أبو زكريا
إلى ثغره . وكان مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الحواري قد أسره أهل صقلية من
سواحل طرابلس سنة إثنين وثمانين وستائة وباعوه لأهل برشلونة ، فاشتراه ملكهم
وبقي أسيراً عندهم إلى أن زعم إليه عثمان بن إدريس الملقب بأبي دبوس بقية الخلفاء
من بني عبد المؤمن ، وأراد الإجازة إلى أفريقية لطلب حقه في الدعوة الموحدية ،
فعقد ملك برشلونة بينه وبين مرغم حلفاً وبعثها ، ونزل بساحل طرابلس .

وأقام مرغم الدعوة لأبي دبوس وحمل عليها قومه ، وحاصر طرابلس سنة ثمان وثمانين
وستائة أياماً ثم تركوا عسكراً لحصارها ، وارتحلوا لبحاية الوطن فاستفرغوه ، وكان
ذلك غاية أمرهم ، وبقي أبو دبوس يتقلب في أوطانهم مدة ، واستدعاه الكعوب

لأول المائة الثامنة وأجلبوا به على تونس أيام السلطان أبي عصيدة من الحفصيين وحاصروها أياماً فلم يظفروا . ورجع إلى نواحي طرابلس وقام بها مدة . ثم ارتحل إلى مصر وأقام بها إلى أن هلك كما يأتي ذكره في خبر ابنه مع السلطان أبي الحسن بالقيروان . ولم يزل هذا شأن الجواري والمحاميد إلى أن تقلص ظل الدولة عن أوطان قابس وطرابلس فاستبد برياسة ضواحيها . واستعبدوا سائر الرعايا المعتمدة في جبالها وبساتينها ، واستبد أهل الأمصار برياسة أمصارهم بنو مكّي بقابس وبنو ثابت بطرابلس على ما يذكر في أخبارهم .

وانقسمت رياسة أولاد وشاح بانقسام المصريين ، فتولى الجواري طرابلس وضواحيها ، وزنزور وغريان ومغر ، وتولى المحاميد بلد قابس وبلاد نفوسة وحرب .

وفي ذباب هؤلاء بطون أخرى ناجعة في القفر ، ومواطنهم متراحة إلى جانب الشرق عن مواطن هؤلاء الشواحين . فمنهم آل سليمان بن هبيب بن رابع بن ذباب ، ومواطنهم قبلة مغر ، وغريان ورياستهم في ولد نصر بن زائد بن سليمان ، وهي لهذا العهد لهائل بن حماد بن نصر ، وبينه وبين البطن الآخر إلى سالم بن وهب أخي سليمان . ومواطنهم بلد مسراتة إلى لبدة ومسلاتة . وشعوب آل سالم هؤلاء الأحامد والعائم والعلاونة وأولاد مرزوق ، ورياستهم في أولاد ولد مرزوق ، وهو ابن معلّى بن معراق بن قلينة بن قاص بن سالم^(١) وكانت في أول هذه المائة الثامنة لغلبن بن مرزوق ، واستقرت في بنيّه ، وهي اليوم لحמיד بن سنان بن عثمان بن غلبون . والعلاونة منهم مجاورون للجنة من عرب برقة والمشابنة من هوارة المقيمين .

وتجاذب ذباب هؤلاء في مواطنهم من جهة القبلة ناصرة ، وهم من بطون ناصرة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهتة بن سليم ، فإن كان زعب أبو ذباب للملك بن خفاف كما زعم التجاني فهم إخوة ناصرة ، ويبعد أن يسمى قوم باسم إخوانهم ، وإن كانوا الناصرة كما زعم ابن الكلبي وهو أقرب ، فيكون هؤلاء اختصاصاً باسم ناصرة دون ذباب وغيرهم من بنيّه . وهذا كثير من بطون القبائل والله أعلم . ومواطنهم بلاد قران وودان . هذه أخبار ذباب هؤلاء .

وأما العزة جيرانهم في الشرق الذين قدّمنا ذكرهم فيهم موطنون من أرض برقة خلاء

(١) وفي نسخة ثانية : ابن معلّى بن معراني بن قلينة بن قاص بن سالم .

لاستيلاء الخراب على أمصارها وقرارها من دولة صنهاجة ، تمرنت بمرانها^(١) بادية العرب وناجعتهم ، فتحيقوها غارةً ونهباً إلى أن فسدت فيها مذاهب المعاش ، وانتقض العمران ، فخربت وصار معاش الأكثر من هؤلاء العرب المواطنين بها لهذا العهد من الفلح يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير ، وبالنساء إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش .

وينجعون إلى بلاد النخل في جهة القبلة منهم من أوجله وشنترية والواحات وما وراء ذلك من الرمال والفقر إلى بلد السودان المجاورين لهم ، وتسمى بلادهم برنق ، وشيخ هؤلاء العرب ببرقة يعرف لهذا العهد بأبي ذئب من بني جعفر . وركاب الحج من المغرب يحمدون مساطتهم في مرهم وحسن نيتهم في التجافي عن جامع بيت الله ، وارفادهم يجلب الأقوات لسربهم وحسن الظن بهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، وأما نسبهم فما أدري فيمن هو من العرب ؟ وحدثني الثقة من ذباب عن خريص ابن شيخهم أبي ذباب أنهم من بقايا الكعوب ببرقة . وترعم نسابة الهلالين أنهم لربيعة ابن عامر إخوة هلال بن عامر . وقد مرّ الكلام في ذلك في أول ذكر بني سليم ، ويزعم بعض النسابة أنهم والكعوب من العزة ، وأن العزة من هيث ، وأن رياسة العزة لأولاد أحمد وشيخهم أبو ذئب وإن المسانية^(٢) جيرانهم من هواره . وذكر لي سلام بن التركية شيخ أولاد مقدم جيرتهم بالعقبة أنهم من بطون مسرارة من بقية هواره ، وهو الذي رأيت النسابة المحققين عليه بعد أن دخلت مصر ولقيت كثيراً من المترددين إليها من أهل برقة . وهذه آخر الطبقة الرابعة من العرب ، وبانقضائه انقضى الكتاب الثاني في العرب وأجياهم منذ بدء الخليقة ، فلنرجع إلى أحوال البربر في الكتاب الثالث والله ولي العون اهـ .

(١) وفي نسخة ثانية : تمرنت بمرانها .

(٢) وفي نسخة ثانية : المسانية . وفي النسخة التونسية المسانية .

[illegible]

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* (الكتاب الثالث في أخبار البربر والامة الثانية من
أهل المغرب وذكر أوليتهم وأجياهم ودولتهم منذ بدء الخليقة
لهذا العهد ونقل الخلاف الواقع بين الناس في أنسابهم) *

هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملؤا البساتط والجبال من تلولة
وأريافه وضواحيه وأمصاره ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص
والشجر ومن الشعر والوبر ، ويظعن أهل الغز منهم والغلبة لانتجاع المراعي ، فيما قرب
من الرحلة ، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس . ومكاسيهم الشاء
والبقر والخيول في الغالب للركوب والتتاج . وربما كانت الإبل من مكاسب أهل
النجعة منهم شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح ودواجن السائمة .
ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع
السابلة . ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ،
ويفرغون عليها البرانس الكحل ورؤسهم في الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها
بالحلق . ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها ، وهي التي اختصوا من أجلها
بهذا الاسم .

يقال : إن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وأفريقية ، وقتل الملك جرجيس ، وبنى المدن والأمصار ، وباسمه زعموا سميت أفريقية لما رأى هذا الجليل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك ، وقال : ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر . والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة .

* وأما شعوب هذا الجليل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس وماذغيس . ويلقب ماذغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ، ويقال لشعوب برنس البرانس ، وهما معاً ابناً برنس وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد ؟ فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنها لأب واحد على ما حدثه عنه يوسف الوراق . وقال سالم بن سليم المطاطي وصابي^(١) بن مسرور الكومي وكهلان بن أبي لوا ، وهم نسابة البربر : إن البرانس بتر ، وهم من نسل مازيغ بن كنعان . والبتر بنو بر بن قيس بن عيلان ، وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبي يزيد ، إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق .

(وأما) شعوب البرانس فعند النسابين أنهم يجمعهم سبعة أجدام وهي ازداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة . وزاد سابق بن سليم وأصحابه : لمطة وهسكورة وكرولة . وقال أبو محمد بن حزم : يقال إن صنهاج ولمط إنما هما ابنا امرأة يقال لها بصكي^(٢) ولا يعرف لها أب ، تزوجها أوريغ فولدت له هوار فلا يعرف لها أكثر من أنها آخوان لهوار من أمه . قال : وزعم قوم من أوريغ أنه ابن خبوز^(٣) بن المشي بن السكاسك من كندة وذلك باطل .

وقال الكلبي : إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر ، وإنما هما من شعوب اليمانية تركها أفريقش بن صيفي بأفريقية مع من نزل بها من الحامية . هذه جماع مذاهب أهل التحقيق في شأنهم ، فمن ازداجة مسطاطه ، ومن مصمودة غمارة بنو غمار بن

(١) وفي نسخة ثانية : هاني بن مسرور ، وفي النسخة الباريسية : يصدر وفي النسخة التونسية هاني بن مسرور .

(٢) وفي نسخة ثانية : تصكي .

(٣) وفي النسخة الباريسية خبوز وكذلك في قبائل المغرب ص ٣١٤ .

مصطاف بن مليل بن مصمود ، ومن أوريفة هواة وملك ومغد^(١) وقلدن . فن هوار
بن أوريف مليلة وبنوكهلان ، ومن ملك بن أوريف صطط وورفل واسيل ومسرارة ،
ويقال لجميعهم لهانة بنو لهان بن ملك ، ويقال إن مليلة منهم . ومن مغد بن أوريف
ماواس وزموركبا ومصراي ، ومن قلدن بن أوريف ممصاة^(٢) وورسطيف وبيانة وفل
مليلة .

یوکملان ۛ

صنہاجہ —

وہ

عجیبة —

زواوة من كتامة

53

32

۱۰۰

* (وأما شعوب البتر^(٣)) * وهم بنو مادغيس الأبتّر فيجمعهم أربعة أجدام أداسة ونفوسة وضربة وبنولوا الأكبر ، وكلهم بنو زحيك بن مادغيس . فأما أداسة

(٢) وفي نسخة ثانية : قصصاته وقد وردت ايضاً قصصاته راجع قبائل المغرب ص ٣١٧ .

(٣) قوله وأما شعوب الخ من هنا الى الشجرة اساء بعضها مخالف لما في الشجرة وهو في جميع النسخ التي بين أيدينا أهـ .

بنو أداس بن زحيك فبطونهم كلها في هواره لأن أم أداس تزوجها بعد زحيك أوريغ ابن عمه برنس والد هواره ، فكان أداس أخاً لهواره ، ودخل نسب بنيه كلهم في هواره . وهم سفارة واندارة وهزولة وضرية^(١) وهداغة وأوطيطة وترهته . هؤلاء كلهم بنو أداس بن زحيك بن باذغيس^(٢) وهم اليوم في هواره .

وأمالو الأكبر فنه بطنان عظيمان وهما نفزاوة بنو نفزا وابن الأكبر ، ولواتة بنولو الأصغر ابن لوا الأكبر ، فخلفه أبوه حملاً فسمي به . فن لواتة أكوزة وعتروزة وبنو فاصلة ابن لوا الأصغر ، ومنهم مزاته بنو زاير بن لوا الأصغر . ومغانة وجدانة بنو كطوف بن لوا الأصغر . ومن لواتة سرداتة بنو نيظط بن لوا الأصغر . ودخل نسب سرداتة في مغراوة . قال أبو محمد بن حزم : كان مغراوة تزوج أم سرداتة ، فسار سرداتة أخا بني مغراوة لأهمهم واختلط نسبه بهم . ومن نفزاوة أيضاً بطون كثيرة وهم ولهاصة وغساسة وزهلة وسوماتة وورسيف ومرنيزة وزاتيمة ووركول ومرسينة^(٣) ووردغروس ووردن كلهم بنو تطوفت^(٤) من نفزاوة . وزاد ابن سابق وأصحابه بحر ومكلاتة ، وقال : ويقال إن مكلاتة ليس من البربر وأنه من حمير وقع إلى تطوفت صغيراً فتنباه وهو مكلا بن ريمان بن كلاع حاتم بن سعد بن حمير . ولولهاصة من نفزاوة بطون كثيرة من بيزغاش^(٥) ودحية إبنني ولهاص . فن بيزغاش بطون وريحوسة^(٦) وهم : رجال وطو وبورغيش ووانجذ وكرطيظ وما أنجول وسيتت بنو رفجوم بن بيزغاش بن ولهاص ابن تطوفت بن نفزاوة .

قال ابن سابق وأصحابه : وبنو بيزغاش من لواتة كلهم يجبال أوراس ، ومن دحية ورترين وتريرو ورتبونت^(٧) ومكرا ولقوس^(٨) بنو دحية بن ولهاص بن تطوفت بن

(١) وفي النسخة التونسية : صبرة .

(٢) وفي نسخة أخرى : مادغيس كما مرّت معنا سابقاً وفي النسخة التونسية مادغس وكذلك في قبائل الغرب ص ٣٠٦ .

(٣) وفي نسخة أخرى : مرنسية ، وفي قبائل المغرب مرنيسة ص ٣٠٦ .

(٤) وفي نسخة أخرى يطوفت وفي قبائل المغرب ص ٣٠٧ : ذكر ورجوس كما ورد في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ووردغوس في كتاب المسالك والممالك ، ووسيف بدل ورسيف .

(٥) وفي النسخة الباريسية : بندغاش وفي النسخة التونسية تبدغاش .

(٦) وفي نسخة أخرى : رفجومة .

(٧) وفي نسخة أخرى : رتيونت ، وفي النسخة الباريسية ورسوتي . وفي النسخة التونسية : ورتونت .

(٨) وفي النسخة الباريسية يفريق وفي النسخة التونسية يغرين .

نفزاو . وأما ضرية وهم بنو ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتري فيجمعهم جذمان عظيمان : بنو تمصيت بن ضري وبنو يحيى بن ضري .
وقال سابق وأصحابه أن بطون تمصيت كلها من فاتن بن تمصيت وأنهم اختصوا بنسب ضرية دون بطون يحيى . فمن بطون تمصيت مطاطة وصطفورة ، وهم لحومية^(١) ولماية ومطغرة ومرينة ومغيلة ومعزوزة^(٢) وكشاة ودونة ومدبونة ، كلهم بنو فاتن بن تمصيت بن ضري . ومن بطون يحيى : زناتة كلهم وسمكان وورصطف .
فمن ورصطف : مكناسة وأوكتة وورتناج بنو ورصطف بن يحيى . فمن مكناسة ورثيفة ووربر ومن معليت قنصارة وموالات وحرث ورفلابس ومن ملزلولايين ولرتر ويصلتن وجريز وفرغان^(٣) . ومن ورتناج مكنسة ومطاسة وكرسطة وسردجة^(٤) وهنطرة وفولال بنو ورتناج بن ورصطف . ومن سمكان زواغة وزواة بنو سمكان بن يحيى وعن ابن حزم بعد زواة التي بالواو في كتامة وهو أظهر ، ويشهد له الوطن . فالغالب أن زواة بنو سمكان بن يحيى . وعن ابن حزم : بعد زواة التي بالواو في بطون كتامة والتي تعد في سمكان هي التي بالزاي وهي قبيلة معروفة . ومن زواة بنو ماجر وبنو واطيل وسمكين . وسيأتي الكلام فيهم مستوفي عند ذكرهم إن شاء الله تعالى . هذا آخر الكلام في شعوب هذا الجيل مجملًا ولا بد من تفصيل فيه عند تفصيل أخبارهم اهـ .

* (وأما) * إلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية فقد اختلف النسابون في ذلك اختلافًا كثيرًا ، وبحثوا فيه طويلا . فقال بعضهم : أنهم من ولد إبراهيم عليه السلام من نقشان^(٥) ابنه ، وقد تقدّم ذكره عند ذكر إبراهيم عليه السلام . وقال آخرون : البربر يمنيون وقالوا أوزاع من اليمن . وقال المسعودي : من غسان وغيرهم ، تفرقوا عندما كان من سيل العرم . وقيل : تخلفهم أبرهة ذو المنار بالمغرب وقيل من لخم

(١) وفي نسخة أخرى : كومية وهم من ولد فاتن بن تمصيت من ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتري .

(٢) وفي نسخة ثانية : مكزوزة .

(٣) وفي نسخة ثانية : ضمن مكناسة ورثيفة وورندوسن وتقليت ومنصارة وموالات وحرث ورفلابس . ومن مكن بولالين وتدين ويصلتن وجريز وفوغال .

(٤) وفي نسخة أخرى : ومن ورتناج : مكنسة وبطالة وكريطة وسدرجة .

(٥) وفي التوراة ٢/٢٥ يقشان .



وجذام كانت منازلهم بفلسطين ، وأخرجهم منها بعض ملوك فارس . فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوك مصر التزول ، فعبروا النيل ، وانتشروا في البلاد . وقال أبو عمر بن عبد البر : ادعت طوائف من البربر أنهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ . قال : ورأيت في كتاب الاسفنداد الحكيم : ان النعمان بن حمير بن سبأ كان ملك زمانه في الفترة ، وأنه استدعى ابناؤه وقال لهم : أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره ، فراجعوه في ذلك ، وزعم عليهم ، وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة ومسفو ابا مسوفة ومرطا أبا هسكورة وأصناك أبا صنهاجة ولط أبا لمطة وإيلان أبا هيلانه ، فقتل بعضهم بجبل درن ، وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعه .

ونزل لمط عند كرول وتزوج إبنته ، ونزل جانا وهو أبو زناتة بوادي شلف ، ونزل بنو رتجين ومغراو بأطراف أفريقية من جهة المغرب ، ونزل مقرونك^(١) بمقربة من طنجة . والحكاية أنكرها أبو عمرو بن عبد البر وأبو محمد بن حزم . وقال آخرون إنهم كلهم من قوم جالوت . وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني النسابة في كتاب الأنساب له : لا أعلم قولاً يؤدي إلى الصحة إلا قول من قال إنهم من ولد جالوت . ولم ينسب جالوت ممن هو ، وعند ابن قتيبة أنه ونور بن سرييل^(٢) بن حديلان^(٣) بن جالود بن رديلان^(٤) بن حظي بن زياد بن زحيك بن مادغيس الأبر . ونقل عنه أيضاً أنه جالوت بن هريال بن جالود بن دنيال^(٥) بن قحطان بن فارس . قال : وفارس مشهور وسفك أبو البربر كلهم . قالوا : والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة ، وهي هواره وزناتة وضرية ومغيلة وزيموحة^(٦) ونفزة وكتامة ولوالة وغمارة ومصمودة وصدينه ويزدراو ودنجين^(٧) وصنهاجة ومحكسة وواركلان وغيرهم . وذكر آخرون منهم الطبري وغيره أن البربر أخلاط من كنعان والعماليق . فلما قتل جالوت تفرّقوا في البلاد وأغزى أفريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم أفريقية وسماهم بربر . وقيل إن

(١) وفي نسخة أخرى : مصمود .

(٢) وفي النسخة الباريسية ثور بن هرييل ، وفي النسخة التونسية ونور ابن هرمل .

(٣) وفي النسخة الباريسية بلاد وفي النسخة التونسية جدلان .

(٤) وفي النسخة الباريسية : روينال .

(٥) وفي النسخة الباريسية : دبال وفي النسخة التونسية ديال وفي نسخة أخرى ذبال .

(٦) وفي نسخة أخرى : رفجومة وفي قبائل المغرب (ورفجومة) ص ٣٣٩ .

(٧) وفي نسخة أخرى : ورنجين .

البربر من ولد حام بن نوح بن بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام . وقال الصولي : هم من ولد بربر بن كسلاجيم^(١) بن مسرايم بن حام . وقيل من العماقة من بربر بن تملا بن مارب بن قاران بن عمر بن عملاق بن لاود بن إرم بن سام ، وعلى هذا القول فهم عماقة . وقال مالك بن المرحل^(٢) : البربر قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعماقة وكنعان وقريش تلاقوا^(٣) بالشام ولغطوا فسامهم أفريقش البربر لكثرة كلامهم . وسبب خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلي : أن أفريقش استجاشهم لفتح أفريقية وسامهم البربر وينشدون من شعره :

بربرت كنعان لما سقتها ————— من أراضي الضنك للعيش الخصب

وقال ابن الكلبي : اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام ، ف قيل داود بالوحي قيل : يا داود أخرج البربر من الشام فانهم جذام الأرض . وقيل يوشع بن نون وقيل أفريقش وقيل بعض الملوك التابعة . وعند البكري أن بني إسرائيل أخرجوهم عند قتل جالوت . وللمسعودي والبكري أنهم فرّوا بعد موت جالوت إلى المغرب ، وأرادوا مصر فأجلتهم القبط ، فسكنوا برقة وأفريقية والمغرب على حرب الإفرنج والأفارقة وأجازوهم على صقلية وسردانية وميorque والأندلس . ثم اصطلحوها على أن المدن للإفرنجية . وسكنوا القفار عصوراً في الخيام وانتجاع الأمصار من الإسكندرية إلى البحر ، وإلى طنجة والسوس حتى جاء الاسلام . وكان منهم من تهوّد ومن تنصر وآخرون مجوساً يعبدون الشمس والقمر والأصنام ، ولهم ملوك ورؤساء . وكان بينهم وبين المسلمين حروب مذكورة . وقال الصولي البكري أن الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام ، فانجلى بنو حام إلى المغرب ونسلوا به . وقال أيضاً إن حام لما اسودّ بدعوة أبيه فرّ إلى المغرب حياً واتبعه بنوه وهلك عن أربعمائة سنة . وكان من ولده بربر بن كسلاجيم فنسل بنوه بالمغرب . قال : وانضاف إلى البربر حيان من المغرب يمينان عند خروجهم من مارب كتامة وصنهاجة . قال : وهوارة وملطة ولوالة بنو حمير بن سبأ

(١) وفي نسخة أخرى : كسلوجيم .

(٢) وفي النسخة البارسية الموصل .

وفي النسخة التونسية الموصل .

(٣) وفي النسخة التونسية : تألفوا .

وقال هانيء بن بكور الضريسى وسابق بن سليمان المطاطي وكهلان بن أبي لؤي وأيوب بن أبي يزيد وغيرهم من نسابة البربر أن البربر فرقتان كما قدمناه وهما : البرانس والبتر . فالبتر من ولد بر بن قيس بن عيلان . والبرانس بنو بربر سحو بن أبزج بن جمواح بن ويل بن شراط بن ناح بن دويم بن داح بن ماريغ بن كنعان بن حام^(١) وهذا هو الذي يعتمد نسابة البربر . قال الطبري : خرج بربر بن قيس ينشد ضالة بأحياء البربر وهي جارية وتزوجها فولدت . وعند غيره من نسابة البربر أنه خرج فاراً من أخيه عمر بن قيس ، وفي ذلك تقول تماضر وهي أخته :

لتبكي كل باكية أخاها * كما أبكي على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى * ودون لقائه أنضاء عيس
ومما ينسب إلى تماضر أيضاً

وشطت بر داره عن بلادنا * وطوح بر نفسه حيث يما
وازت بر لكنة أعجمية * وما كان بر في الحجاز بأعجا
كأننا وبر لم نقف يجادنا * بنجد ولم نقسم نهبا ومغنا
وأشد علماء البربر لعبدة بن قيس العقيلي :

ألا أيها الساعي لفرقة بيتنا * توقف هداك الله سبل الأطايب
فاقسم أنا والبرابر إخوة * نمنا وهم جدّ كريم المناصب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الورى * وفي حومة يشفى غليل المحارب^(٢)
فنحن وهم ركن منيع وإخوة * على رغم أعداء لثام المغارب
فإن لير ما بقي الناس ناصراً * وبر لنا ركن منيع المناكب
تعد لمن عادى شواذق حمرا * وببضا تقص الهام يوم التضارب^(٣)
وبر بن قيس عصبه مضرية * وفي الفرع من أحسابها والذوائب
وقيس قوام الدين في كل بلدة * وخير معد عند حفظ المناسب

(١) وفي نسخة أخرى : بنو برنس بن سفج بن أبزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن ماريغ بن كنعان بن حام . هكذا ورد أيضاً في كتاب قبائل المغرب ٢٩٥ .

(٢) وفي نسخة أخرى :

أبونا أبوهم قيس عيلان في الذري وفي حرمة يسقي غليل المحارب

(٣) وفي نسخة أخرى :

نعد لمن عادى شواذه ضمرا وببضا تقطّ الهام يوم التضارب

وقيس لها المجد الذي يقتدي به وقيس لها سيفٌ حديد المضارب
وينشد أيضاً أبيات ليزيد بن خالد يمدح البربر :

أيها السائل عنا اصلنا * قيس عيلان بنو العز الأول
نحن ما نحن بنو بر القوى * عرف المجد وفي المجد دخل
وابتنى المجد فاورى زنده * وكفانا كل خطب ذي جمل
إن قيساً يعتري برّ لها * ولبريعتزي قيس الأجمل
ولنا الفخر بقيس أنه * جدنا الأكبر فكاك الكبل
إن قيساً قيس عيلان هم * معدن الحق على الخير دمل
حسبك البربر قومي أنهم * ملكوا الأرض بأطراف الأسفل
وببيض نضرب الهام بها * هام من كان عن الحق نكل
أبلغوا البربر عني مدحاً حيك من جوهر شعر متحل

وعند نسابة البربر ، وحكاة البكري وغيره أنه كان لمضر ولدان إلياس وعيلان^(١) ،
أمهما الرباب بنت جده^(٢) بن عمر بن معد بن عدنان ، فولد عيلان بن مضر قيساً
ودهمان ، أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة . وكانت
لهم بنت تسمى البهاء بنت دهمان ، وأما قيس بن عيلان فولد له أربعة بنين وهم سعد
وعمر ، وأمهما مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار^(٣) وبرّ وتماضر وأمهما تمرغ بنت مجدل
ومجدل بن عمار بن مسمود وكانت قبائل البربر يومئذ يسكنون الشام ويحاورون العرب
في المساكن ويشاركونهم في المياه والمراعي والمسارح ويصهرون إليهم ، فتزوج بر بن
قيس بنت عمه وهي البهاء بنت دهمان ، وحسده إخوته في ذلك . وكانت أمه تمرغ
من دهاة النساء فخشيت منهم عليه ، وبعثت بذلك إلى أخوالها سرّاً ، ورحلت معهم
بولدها وزوجته إلى أرض البربر وهم إذ ذاك ساكنون بفلسطين وأكناف الشام ،
فولدت البهاء لبر بن قيس ولدين : علوان وما دغيس ، فمات علوان صغيراً وبقي
مادغيس ، فكان يلقب الأبر ، وهو أبو البتر من البربر ، ومن ولده جميع زناته .

(١) وفي النسخة التونسية : عيلان .

(٢) وفي نسخة أخرى : حيدة .

(٣) وفي سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب : مزنة بنت اسد بن أكلب بن ربيعة ابن نزار بن معد بن
عدنان .

قالوا وتزوج مادغيس بن بر وهو الأبر باحال^(١) بنت واطاس بن محمد بن مجدل بن عمار^(٢) فولدت له زحيك بن مادغيس . وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد في الأنساب : اختلف الناس في أنساب البربر اختلافاً كثيراً . وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام ، لما نزل مصر خرج ابنه يريد المغرب ، فسكنوا عند آخر عمالة مصر ، وذلك ما وراء برقة إلى البحر الأخضر . مع بحر الأندلس إلى منقطع الرمل متصلين بالسودان . فبنهم لواتة بأرض طرابلس ، ونزل قوم بقربها وهم نفزة .

ثم امتدت بهم الطرق إلى القيروان وما وراءها إلى تاهرت إلى طنجة وسجلماسة إلى السوس الأقصى وهم طوائف صنهاجة وكتامة وزكالة وركلاوة وفطواكة من هسكورة ومزطاوة ، وذكر بعض أهل الآثار أن الشيطان ترغ بين بني حام وبني سام ، فوقعت بينهم مناوشات كانت الدبرة فيها لسام وبنيه ، وخرج سام إلى المغرب . وقدم مصر وتفرق بنوه . ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى بلغ السوس الأقصى . وخرج بنوه في إثره يطلبونه ، فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً وانقطع عنهم خبره ، فأقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه . ووصلت إليهم طائفة فأقاموا معهم وتناسلوا هنالك .

وكان عمر حام أربعائة وثلاثاً وأربعين سنة فيما ذكره البكري . وقال آخرون : كان عمره خمسمائة وإحدى وثلاثين سنة . وقال السهيلي فيمن هو يعرب بن قحطان . قال : وهو الذي أجلى سام إلى المغرب بعد أن كان الجرمي^(٣) من ولد قوط بن يافث هذا آخر الخلاف في أنساب البربر .

* وأعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة وبعيدة من الصواب ، فأما القول بأنهم من ولد إبراهيم فبعيد . لأن داود الذي قتل جالوت وكان البربر معاصرين له ليس بينه وبين إسحق بن إبراهيم أخى نعيان الذي زعموا أنه أبو البربر إلا نحو عشرة آباء ذكرناهم أول الكتاب . ويبعد أن تشعب النسل فيهم مثل هذا الشعب . وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق ، وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا . فقول ساقط يكاد يكون من أحاديث خرافة ، إذ مثل هذه الأمة المشتمة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض . لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور . والبربر معروفون في

(١) وفي نسخة أخرى : أملل .

(٢) وفي النسخة التونسية : غمار .

(٣) الجرمي هكذا أوردت في نسخة أخرى .

بلادهم وأقاليهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام . فما الذي يوجبنا إلى التعليق بهذه الترهات في شأن أوليتهم . ويحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب . وأفريقش الذي يزعمون أنه نقلهم قد ذكروا أنه وجدهم بها ، وأنه تعجب من كثرتهم وعجمتهم ، وقال : ما أكثر بربريتكم . فكيف يكون هو الذي نقلهم ؟ وليس بينه وبين ذي المغار من يتشعبون فيه إلى مثل ذلك إن قالوا أنه الذي نقلهم ؟ وأما القول أيضاً بأنهم من حمير من ولد النعمان أو من مضر من ولد قيس بن عيلان فنكر من القول ، وقد أبطله إمام النسابين والعلماء أبو محمد بن حزم . وقال في كتاب الجهمية ادعت طوائف من البربر أنهم من اليمن ومن حمير ، وبعضهم ينسب إلى بربر بن قيس ، وهذا كله باطل لا شك فيه . وما علم النسابون لقيس بن عيلان إبناً اسمه بر أصلاً ، وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن . وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت ، وأن جالوت من ولد قيس بن عيلان فأبعد عن الصواب . فان قيس عيلان من ولد معد . وقد قدمنا أن معداً كان معاصراً لبختنصر وأن أرمياء النبي خلص به إلى الشام حذراً عليه من بختنصر حين سلط على العرب . وبختنصر هو الذي خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان إياه بأربعائة وخمسين سنة ونحوها ، فيكون معد بعد داود بمثل هذا الأمد ، فكيف يكون إبنه قيس أباً لجالوت المعاصر لداود ؟ هذا في غاية البعد وأظنها غفلة من ابن قتيبة وهما .

والحق الذي لا ينبغي التعديل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليفة ، وإن اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين^(١) إخوانهم بنوكسلوحي بن مصرام بن حام ، وملكهم جالوت سمه معروفة له . وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة . وكان بنو كنعان وواكريش شيعاً لفلسطين ، فلا يقعن في وهمك غير هذا ، فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه . ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذي قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة . فإن بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية ، وأن أفريقش لما غزا أفريقية أنزلهم بها . وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم

(١) ما ذكره مخالف لما تقدم له في أنساب الخليفة اهـ وصححه .

أنهم من العرب مثل لواتة ، يزعمون أنهم من حمير ومثل هواره يزعمون أنهم من كندة من السكاسك ، ومثل زناتة تزعم نسابتهم أنهم من العمالقة فروا أمام بني اسرائيل . وربما يزعمون فيهم أنهم من بقايا التبابعة ومثل عمارة أيضاً وزواوة ومكلاتة يزعم في هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير حسبما نذكره عند تفصيل شعوبهم في كل فرقة منهم ، وهذه كلها مزاعم . والحق الذي شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكثامة . وعندي أنهم من إخوانهم والله أعلم . وقد انتهى بنا الكلام إلى أنسابهم وأوليتهم ، فلنرجع إلى تفصيل شعوبهم وذكرهم أمة بعد أمة . ونقتصر على ذكره من كانت له منهم دولة ملك أو سالف شهرة أو تشعب نسل في العالم وعدد لهذا العهد وما قبله من صني البرانس . والبر منهم وترتيبهم شعباً شعباً حسبما تأدى إلينا من ذلك واشتمل عليه محفوظنا ، والله المستعان .

* (الفصل الثاني في ذكر مواطن هؤلاء البربر بافريقية والمغرب) *

اعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه إسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة المشرق ، ومشرق بالأضافة إلى جهة المغرب لأن العرف قد يخصص هذه الأسماء بجهات معينة وأقطار مخصوصة . وعرف أهل الجغرافيا المعتنين بمعرفة هيئة الأرض وقسمتها بأقاليمها ومعمورها وخرابها وجبالها وبحارها ومساكن أهلها ، مثل بطليموس ورجاوز^(١) وصاحب صقلية المنسوب له الكتاب المشهور بين الناس لهذا العهد في هيئة الأرض والبلدان ، وأمثالهم : أن المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار . فحدّه من جهة المغرب بحر المحيط وهو عنصر الماء ، وسمي محيطاً لإحاطته بما انكشف من الأرض كما قدمنا أول الكتاب .

ويسمى أيضاً البحر الأخضر لتلونه غالباً بالخضرة ، ويسمى بحر الظلمات لما أنه تقل فيه الأضواء من الأشعة المنعكسة على سطح الأرض من الشمس لبعده عن الأرض

(١) وفي نسخة أخرى : رجار وهو الصحيح وكان ملك صقلية .

فيكون مظلماً . وللفقدان الأضواء تقل الحرارة المحللة للأبخرة فلا تزال السحب والغيوم متكاثفة على سطحه . منعقدة هنالك متراكمة ، وتسميه الأعاجم : بجرأ وقيانوس يعنون به والله أعلم ما نعني نحن بالعنصر . ويسمونه أيضاً بحر البلاية بتفخيم اللام الثانية . وهو بحر كبير غير منحصر ، لا تبعد فيه السفن عن مرأى العين من السواحل للجهل بسموت الرياح هنالك ولنهايتها إذ لا غاية من العمران وراءه . والبحار المنحصرة إنما جرت فيها السفن بالرياح المعروفة الهوائية بكثرة تجاربهم ، فتبعث الريح من الأماكن وغاية مهيبا في سمتها فكل ربح عندهم معروفة الغاية . فإذا علم أن جريته بالرياح المنبعثة من مكان كذا ، وبما خرج من ربح إلى ربح بحسب مقصوده وجهته . وهذا مفقود في البحر الكبير لأنه منحصر ، ومنبعث الريح ، وإن كان معروفاً فغايتة غير معروفة لفقدان العمران وراءه فتضل السفن إذا جرت به وتذهب فتهلك . وأيضاً فإذا أوغل فيه فربما وقع في المتكاثف من الغيوم والأبخرة كما قلناه فيهلك ، فلهذا كان راكبه على غرر وخطر . فحد الغرب من جهة المغرب البحر المحيط كما قلناه ، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وأزمور وانفى واسفى ، وهي من مدن الغرب وحواضره . وعليه أيضاً مسجد ماسة وبلدات كاوصت ونول من بلاد السوس وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم . وتنتهي المراكب إلى وراء ساحل نول ولا تجاوزه إلا على خطر كما قلناه . وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومي والمتفرع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج متضايق بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس ويسمى هذا الخليج الزقاق ، وعرضه ثمانية أميال فما فوقها . وكانت عليه قنطرة ركبها ماء البحر .

ثم يذهب هذا البحر الرومي في سمت الشرق إلى أن ينتهي إلى سواحل الشام وثغوره وما إليها مثل : أنطاكية والعلايا وطرسوس والمصيصة وطرابلس وصور والإسكندرية . ولذلك سمي البحر الشامي . وهو إذا خرج من الخليج يفسح في ذهابه عرضاً . وأكثر انفساحه إلى جهة الشمال ، ولا يزال أنفساحه ذلك متصاعداً إلى الشمال إلى أن ينتهي إلى غايته . وطوله فيما يقال خمسة آلاف ميل أوسطه . وفيه جزائر ميورقة ومزقة وباسة وصقلية وأقريطش وسردانية وقبرص . وأما عرضه من جهة الجنوب فإنه يخرج عن سمت واحد . ثم يختلف في ذهابه فتارة يبعد في الجنوب وتارة يرجع إلى الشمال . واعترض ذلك بعروض البلدان التي بساحله ، وذلك أن عرض البلد هو ارتفاع قطبه

الشمال على أفقه . وهو أيضاً بعدما بين سمت رؤس أهله ودائرة معدل النهار . والسبب في ذلك أن الأرض كرية الشكل ، والسماء من فوقها مثلها . وأفق البلد هو فرق بين ما يرى وبين ما لا يرى من السماء ومن الأرض . والفلك ذو قطبين ، إذا ارتفع أحدهما على رؤس معمور انخفض الآخر بقدره عنهم ، والعمارة في الأرض كلها هي إلى الجانب الشمال أكثر ، وليس في الجنوب عمران لما تقرر في موضعه . فلهذا ارتفع القطب الشمالي على أهل العمران دون الجنوبي . والمآر على سطح الكرة كلما أبعد في جهة ظهر له من سطح الكرة ، ومن السماء المقابل لها ما لم يكن يظهر ، فيزيد بعد القطب على الأفق كما أبعد في الشمال ، وينقص كلما رجع إلى الجنوب . فعرض سبتة وطنجة التي هي على زقاق هذا البحر وخليجه (له ^(١)) ودقائق . ثم يتصاعد البحر إلى الجنوب فيكون عرض تلمسان (لد) ونصف ، فتزيد في الجنوب فيكون عرض وهران (لب) أبعد من فاس بيسير لأن عرض فاس (لج) ودقائق . ولهذا كان العمران في المغرب الأقصى أعرض في الشمال من عمران المغرب الأوسط بقدر ما بين فاس وسبتة . وصار ذلك القطر كالجذيرة بين البحار لانعطاف البحر الرومي إلى الجنوب . ثم يرجع البحر بعد وهران عن سمتة ذلك فيكون عرض تونس والجزائر (له) على مثل سمتة الأول عند منبعثة من الزقاق . ثم يزيد في الشمال فيكون عرض بجاية وتونس يوم على مثل سمت غرناطة ومريه ومالقة . ثم يرجع إلى الجنوب فيكون عرض طرابلس وقابس (له) على مثل سمت الأول بطنجة وسبتة ثم يزيد في الجنوب فيكون عرض برقة (لج) على مثل سمت فاس وتوزر فيكون عرض الإسكندرية (لا) على مثل مراکش وأغاث . ثم يذهب في الشمال إلى القطافة إلى منتهى سمتة بسواحل الشام .

وهكذا اختلافه في هذه العدو الجنوبية ، ولسنا على علم من حاله في العدو الشمالية . وينتهي بسواحل عرض هذا البحر في أنفساحه إلى سبعمائة ميل أو نحوها ما بين سواحل أفريقية وجنوة من العدو الشمالية والبلاد الساحلية من المغرب الأقصى والأوسط وأفريقية من لدن الخليج حيث منبعثه كلها عليه مثل طنجة وسبتة وبادس

(١) به : في حساب الحمل (٣٦) أي ان سبتة وطنجة تقع على خط العرض ٣٦ درجة ودقائق ، وكذلك تونس وطرابلس الغرب وقابس . وعرض تلمسان ٣٥ درجة ونصف ، وعرض فاس ٣٤ درجة ودقائق وكذلك برقة . وأما الاسكندرية فتقع على خط العرض ٣١ درجة .

وغساسنة وهنن ووهران والجزائر وبجاية وبونة وتونس وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس وطرابلس وسواحل برقة والإسكندرية .

هذا وصف هذا البحر الرومي الذي هو حدّ المغرب من جهة الشمال . وأما حدّه من جهة القبلة والجنوب فالجبال المتهيلة المائلة حجراً بين بلاد السودان وبلاد البربر . وتعرف عند العرب الرحالة البادية بالعرق ، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئ من البحر المحيط وذهب في جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر ، فهناك ينقطع وعرضه ثلاثة مراحل وأزيد . ويعترضه في جهة المغرب الأوسط أرض محجرة تسمى عند العرب الحمادة من دوين مصاب إلى بلاد دريغ ، ووراءه من جهة الجنوب وبعض بلاد الجزيرة ذات نخيل ، وأنها معدودة في جملة بلاد المغرب ، مثل بلاد بودة وتمنطيت في قبلة المغرب الأقصى وتساييت وتيكورارين في قبلة المغرب الأوسط وغدامس وفزان وودان في قبلة طرابلس . كل واحد من هذه إقليم يشتمل على بلدان عامرة ذات قرى ونخيل وأنهار ، ينتهي عدد كل واحد منها إلى المائة فاكثر .

وإلى هذه العدو الجنوبية من هذا العرق ينتهي في بعض السنين مجالات أهل الشام من صنهاجة ومتقلبهم الجائلون هناك إلى بلاد السودان . وفي العدو الشمالية منه مجالات البادية من الأعراب الطواغن بالمغرب . وكانت قبلهم مجالات للبربر كما نذكره بعد هذا حدّ المغرب من جهة الجنوب ، ومن دون هذا العرق سياج آخر على المغرب مما يلي التلول منه . وهي الجبال التي هي تحوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط في القرب إلى برنيق من بلاد برقة . وهنالك تنقطع هذه الجبال ويسمى مبدؤها من المغرب جبال درن . وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول وبين العرق الذي وصفناه آنفاً بسائط وقفاراً أكثر نباتها الشجر ، وفيها يلي التلول منها ، ويقاربها بلاد الجريد ذات نخل وأنهار .

ففي أرض السوس قبلة مراکش ترودانت والقرى قوبان^(١) وغيرها ، بلاد ذات نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة . وفي قبلة فاس سجلماسة وقراها بلد معروف ، ودرعة أيضاً وهي معروفة وفي قبلة تلمسان قصور متعددة ذات نخل وأنهار . وفي قبلة تاهرت

(١) وفي النسخة الباريسية : مويان وفي نسخة أخرى قوبان .

القصور أيضاً بلاد متتالية على سطر من المشرق إلى المغرب أقرب ما إليها جبل راشد ، وهي ذات نخل ومزارع وأنهار . ثم قصور معينات تناهز المائة وأكثر قبلة الجزائر ذات نخل وأنهار . ثم بلد واركلي قبلة بجاية بلد واحد مستجر العمران كثير النخل . وفي سمته إلى جهة التلول بلاد ريغ تناهز الثلاثمائة منتظمة على حفاقي وادٍ ينحدر من المغرب إلى المشرق يناهز مائة من البلاد فأكثر ، قاعدتها بسكرة من كبار الأمصار بالمغرب . وتشتمل كلها على النخل والأنهار والقدن والقرى والمزارع .

ثم بلاد الجريد قبلة تونس وهي : نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة وتسمى كلها بلاد قسيلية مستجرة العمران مستحكمة الحضارة مشتملة على النخل والأنهار . ثم قابس قبلة سوسة وهي حاضرة البحر من أعظم أمصار أفريقية . وكانت دار ملك لابن غانية كما نذكره بعد . وتشتمل على النخل والأنهار والمزارع . ثم فزان وودان قبلة طرابلس قصور متعددة ذات نخل وأنهار ، وهي أول ما افتتح المسلمون من أرض أفريقية لما أغزاها عمر بن الخطاب وعمر بن العاص . ثم الواحات قبلة برقة ، ذكرها المسعودي في كتابه وما وراء هذه كلها في جهة الجنوب فقفار ورمال لا تثبت زرعاً ولا مرعى ، إلى أن تنتهي إلى العرق الذي ذكرناه .

ومن ورائه مجالات المتلثمين كما قلناه ، مفاوز معطشة إلى بلاد السودان . وما بين بلاد هذه والجبال التي هي سياج التلول بسائط متلّون مزاجها تارة بمزاج التلول ، وتارة بمزاج الصحراء ، بهوائها ومياهها ومنابتها . وفيها القيروان وجبل أوراس معترض وسطها ، وبلاد الحصنة حيث كانت طينة ما بين الزاب والتل ، وفيها مغرة والمسيلة ، وفيها السرسو قبلة تلمسان حيث تاهّرت فيها جبل ديرو^(١) وقبلة فاس معترض في تلك البسائط . هذا حدّ المغرب من جهة القبلة والجنوب .

وأما من جهة الشرق فيختلف باختلاف الاصطلاحات فعرف أهل الجغرافيا أنه بحر أهل القلزم المنفجر من بحر اليمن ، هابط على سمت الشمال بانحراف يسير إلى المغرب حتى ينتهي إلى القلزم والسويس ، ويبقى بينهم من هنالك ، وبين سمته من البحر الرومي مسيرة يومين . وينقطع عند السويس والقلزم . ويعدّه عن مصرفي جهة الشرق

(١) وفي نسخة أخرى ديدو ولم نجد لها ذكر في المراجع التي بين أيدينا ولعلها ديرو وهي قرية وسط سهول تافرا في إقليم وجدة (كتاب المغرب/ ٨٨) (قبائل المغرب/ ٣٢١) .

ثلاثة أيام . هذا آخر المغرب عندهم ويدخل فيه إقليم مصر وبرقة .
وكان المغرب عندهم جزيرة أحاطت بها البحار من ثلاث جهاتها كما تراه . وأما
العرف الحاربي لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة ،
 وإنما يختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب في هذا العرف لهذا العهد . وهذا
الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم . فأما المغرب الأقصى منه وهو ما بين وادي
ملوية من جهة الشرق إلى أسني حاضرة البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب
فهو في الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة وغارة . وآخر غارة بطوية مما
يلي غساسة ، ومعهم عوالم من صنهاجة ومضغره^(١) وأوربة وغيرهم ، يحيط به البحر
الكبير من غربية ، والرومي من شمالية ، والجبال الصاعدة المتكاثفة مثل درن وجانب
القبلة وجبال تازا من جهة الشرق ، لأن الجبال أكثر : ما هي وأكنف قرب البحار
بما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها . فكانت جبال المغرب لذلك ، أكثر ساكنها
من المصامدة في الأغلب وقيل من صنهاجة . وبقيت البسائط من الغرب مثل أزغاو
وتامستا وتادلاود كالة . واعتمرها الطوائع من البربر الطارئين عليه من جشم ورياح
مفص المغرب بساكنه من الأمم لا يحصيهم إلا خالقهم ، وصار كله جزيرة وبلد
واحد أحاطت به الجبال والبحار ، وقاعدته لهذا العهد فاس ، وهي دار ملكه ، ويمر
فيه النهر العظيم المعروف بوادي أم ربيع ، وهو نهر عظيم يمتنع عبوره أيام الأمطار
لاتساعه ، ويعظم مداه إلى البحر فينتهي إلى سبعين ميلاً أو ما يقاربها ، ومصبه في
البحر الكبير عند أزبور . ومنبعه من جبال درن من فوهة كبيرة ينبع منها هذا النهر
ويتساهل إلى بسط المغرب . وينبع منها أيضاً نهر آخر ، وينحدر إلى القبلة . ويمر
ببلاد درعة ذات النخل المخصوصة بنبات النيلج . وصناعة استخراجها ، من شجره
وهي قصور ذات نخل موضوعة في سفح جبل درن من آخره ، وبها يسمى هذا النهر
ويجاورها ، إلى أن يغوص في الرمل قبله بلاد السوس .
وأما نهر ملوية آخر المغرب الأقصى فهو نهر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبله تازي ،
ويصب في البحر الرومي عند غساسة . وعليه كانت ديار مكناسة المعروفة بهم في

(١) وفي نسخة أخرى مطهرة : بطن من خريس ينتشر بتلمسان وفاس والصحراء بين تافيلالت وتوات ،
وتكتب أيضاً مضغرة ومدغرة . ومنها ميسرة المضغري الذي أثار معركة طنجة عام ١٢٢ هـ/٧٣٨ م .
(الموسوعة الغربية معلنة الصحراء والملحق الأول/١٩٧ — المعجم التاريخي/٦٧) .

القديم ، ويسكنها لهذا العهد أمم أخرى من زناتة في قصور منتظمة إلى أعلى النهر يعرفون بوطاط^(١) ويجاورهم هنالك ، وفي سائر نواحيه أمم من البربر أشهر من فيهم بطالسة أخوة مكناسة . وينبع مع هذا النهر من فوهته نهر كبير ينحدر ذاهباً إلى القبلة مشرقاً بعض الشيء ، ويقطع العرق على ستمته إلى أن ينتهي إلى البردة^(٢) ، ثم بعدها إلى تمطيت ، ويسمى لهذا العهد كثير وعليه قصورها : ثم يمر إلى أن يصب في القفار ويروغ في قفارها ويغور في رمالها ، وهو موضع مقامه قصور ذات نخل تسمى وركلان^(٣) وفي شرق بودة مما وراء العرق قصور تساييت من قصور الصحراء . وفي شرقي تساييت إلى ما يلي الجنوب قصور تيكورارين تنتهي إلى ثلثائة أو أكثر في وادٍ واحد ، فينحدر من المغرب إلى المشرق ، وفيها أمم من قبائل زناتة .

وأما المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة كان لمغراوة وبني يفرن . وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومططرة ومطاطة . ثم صار من بعدهم لبني وماتوا وبني يلومي . ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين وقاعدته لهذا العهد تلمسان ، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمرية وما يليها إلى بجاية ، وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة . ويمر في وادي شلف بني واطيل النهر الأعظم منبعه من بلد راشد في بلاد الصحراء . ويدخل إلى التل من بلاد حصين لهذا العهد . ثم يمر مغرباً ويجمع فيه سائر أودية المغرب الأوسط مثل مينا وغيره إلى أن يصب في البحر الرومي ما بين كلمتين^(٤) ومستغانم . وينبع من فوهته نهر آخر يذهب مشرقاً من جبل راشد ، ويمر بالزاب إلى أن يصب في سبخة ما بين توزر ونفزاوة معروفة هنالك ، ويسمى هذا النهر وادي شدي .

وأما بلاد بجاية وقسنطينة فهي دار زواوة وكتامة ومحيسة^(٥) وهوارة ، وهي اليوم ديار للعرب إلا ممتنع الجبال . وفيها بقاياهم . وأما أفريقية كلها إلى طرابلس فبسائط فتح^(٦)

(١) وفي النسخة الباريسية : وطاطا .

(٢) وفي نسخة أخرى بودة . ولعلها بورة : مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط . تنسب إليها العمام البورية والسلك البوري (معجم البلدان) .

(٣) وفي النسخة التونسية : ركان .

(٤) وفي نسخة أخرى كلميتوا .

(٥) وفي نسخة أخرى عجيسة وكذلك في قبائل المغرب/٣٠٢ ٣٣٦ .

(٦) وفي نسخة أخرى : فيج .

كانت دياراً لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة ومن لا يخصى من قبائل البربر . وكانت قاعدتها القيروان وهي لهذا العهد بمحالات للعرب من سليم وبني يفرن وهوارة ، ومغلوبون تحت أيديهم . وقد تبدوا معهم ونسوا رطانة الأعاجم ، وتكلموا بلغات العرب ، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم . وقاعدتها لهذا العهد تونس وهي دار ملكها ، ويمرّ فيها النهر الأعظم المعروف بوادي مجردة يجتمع فيه سائر الأودية بها ، ويصب في البحر الرومي على مرحلة من غربي تونس بموضع يعرف ببنزرت . وأما برقة فدرست معالمها وخربت أمصارها ، وانقرض أمرها . وعادت بمحالات للعرب بعد أن كانت داراً للواتة وهوارة وغيرهم من البربر . وكانت بها الأمصار المستجرة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان وأمثالها ، فعادت يباباً ومفاوز كان لم تكن والله أعلم .

* (الفصل الثالث في ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً من الفضائل الانسانية والخصائص الشريفة الراقية بهم الى مراقي العزومعارج السلطان والملك) *

قد ذكرنا ما كان من أمر هذا الجيل من البربر ووفور عدده وكثرة قبائلهم وأجبالهم ، وما سواه من مغالبة الملوك ومزاحمة الدول عدة آلاف من السنين ، من لدن حروبهم مع بني إسرائيل بالشام وخروجهم عنه إلى أفريقية والمغرب ، وما كان منهم لأول الفتح في محاربة الطوابع من المسلمين أولاً ، ثم في مشايعتهم ومظاهرتهم على عدوهم ثانياً من المقامات الحميدة والآثار الجميلة . وما كان لوها الكاهنة وقومها يجبل أوراس من الملك والعز والكثرة قبل الإسلام وبعده حتى تغلب عليهم العرب ، وما كان لمكناسة من مشايعة المسلمين أولاً ، ثم ردتهم ثانياً ، وتحيزهم إلى المغرب الأقصى وفرارهم أمام عقبة بن نافع ثم غلبهم بعد ذلك طوابع هشام بأرض المغرب .

(قال ابن أبي زيد ^(١)) : إن البربر ارتدوا بأفريقية المغرب إثنى عشرة مرة ، وزحفوا في كلها للمسلمين ، ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير ، وقيل بعدها . وتقدم ذكر ما كان لهم في الصحراء والقفر من البلاد ، وما شيدوا من

(١) وفي النسخة الباريسية : ابن أبي يزيد .

الحصون والآطام والأمصار من سجلماصة وقصور توات ، وتجورارين وفيجيج ومصاب وواركل وبلاد ريفة والزاب ونفزاوة والحمة وغدامس ، ثم ما كان لهم من الأيام والوقائع والدول والممالك . ثم ما كان بينهم وبين طوابع العرب من بني هلال في المائة الخامسة بأفريقية . وما كان لهم مع دولة آل حماد بالقلعة ومع لمتونة بتلمسان وتاهرت من الموالة والانحراف . وما استولى عليه بنو يادين آخرأً بأسهام الموحددين وأقطاعهم من بلاد المغرب ، وما كان لبني مرين في الاجلاب على غير عبد المؤمن من الآثار ، وما تشهد أخباره كلها بأنه جيل عزيز على الأيام وأنهم قوم مرهوب جانبيهم شديد بأسهم كثير جمعهم ، مظاهرون^(١) لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس ويونان والروم .

ولكنهم لما أصابهم الفناء وتلاشت عصابتهم بما حصل لهم من ترف الملك والدول التي تكررت فيهم ، قلت جموعهم وفنيت عصابتهم وعشائرهم وأصبحوا خولاً للدول وعبيداً للجباية . واستنكف كثير من الناس عن النسب فيهم لأجل ذلك ، والا فقد كانت أوربة أميرهم كسيلة عند الفتح كما سمعت ، وزناة أيضاً حتى أسر أميرهم وزمار بن مولات ، وحمل إلى المدينة إلى عثمان بن عفان . ومن بعد ذلك هواره وصنهاجة وبعدهم كتامة وما أقاموا من الدولة التي ملكوا بها المغرب والمشرق ، وزاحموا بني العباس في ديارهم وغير ذلك منهم كثير . وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مراقبة الشرف والرفعة بين الأمم ومراعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية التزليل ، ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات في الشدائد وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم . وقرى الضيف والإعانة على النوايب وعلو الهمة وإيابة الضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه ، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون إسوة لمتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها ، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز ، وأوفت بهم على ثنايا

(١) وفي النسخة التونسية : مظاهرون .

الملك حتى علت على الأيدي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم . وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الأولى بلكين بن زيري الصنهاجي عامل أفريقية للعبيدين ومحمد بن خزر والخير إبنه ، وعروبة بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبدالله الشيعي ، ويوسف بن تاشفين ملك لمتونة بالمغرب ، وعبد المؤمن بن علي شيخ الموحدين وصاحب الإمام المهدي . وكان عظماءهم من أهل الطبقة الثانية السابقون إلى الراية بين دولهم والمعاهدون لملكهم بالمغرب الأقصى والأوسط ، كبيرهم يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ويغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد ، ومحمد بن عبد القوي ووزمار كبير بني توجين وثابت بن منديل أمير مغراوة أهل شلف ووزمار بن ابراهيم زعيم بني راشد المتعارضين في أزمانهم المتناغين في تأثيل عزهم والتمهيد لقومهم على شاكلته بقوة جمعه . فكانوا من أرسخهم في تلك الخلال قدماً وأطولهم فيها يداً ، وأكثرهم لها جمعاً ، طارت عنهم في ذلك قبل الملك وبعده أخبار عني بنقلها الأنبات من البربر وغيرهم ، وبلغت في الصحة والشهرة منتهى التواتر . وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله^(١) لصبيانهم ، والاستفتاء في فروض أعيانهم ، واقتفاء الأئمة للصلوات في بواديههم ، وتدارس القرآن بين أحيائهم وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم ، وصاغيتههم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم للبركة في آثارهم وسؤال الاعداد عن صالحهم ، وإغشائهم البحر أفضل المربطة والجهاد ، وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم ، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكاً لعزهم ومقادراً إلى سلطانهم وملكهم . وكان المبرز منهم في هذا المتحل يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وبنوهم . ثم يعقوب بن عبد الحق من بعدهم وبنوه ، فقد كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد وتشديد المدارس واختطاط الزوايا والربط ، وسد الثغور وبذل النفس في ذات الله ، وانفاق الأموال في سبيل الخيرات ، ثم مخالطة أهل العلم وترفيه مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشرعية والانقياد لإشاراتهم في الوقائع والأحكام ومطالعة سير الأنبياء وأخبار الأولياء وقراءتها بين أيديهم من دواوين ملكهم ومحالس أحكامهم

(١) وفي نسخة ثانية : اتخاذ المعلمين الأحكام دين الله .

وقصور عزهم . والتعرض بالمعاقل لسماع شكوى المتظلمين وإنصاف الرعايا من العمال والضرب على يد أهل الجور واتخاذ المساجد بصحن دورهم وشدة خلافهم وملكهم ، يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتبين لتلاوة كتاب الله أحزابا بالعشي والإشراق على الأيام ، وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان المشيد والكتائب المجهزة ، وإنفاق الأموال العريضة . شهدت لهم بذلك آثار تحلفوها بعدهم .

وأما وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم ، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة والكهان المفطورين على المطلاع للأسرار المغيبة . ومن الغرائب التي خرقت العادة وأوضحت أدلة القدرة ما يدل على عظيم عناية الله بذلك الجليل وكرامته لهم . بما آتاهم من جماع الخير وآثرهم به من مذاهب الكمال ، وجمع لهم من متفرق خواص الإنسان . ينقل ذلك في أخبار توهم عجائب . فكان من مشاهير حملة العلم فيهم سعيد بن واسول جذيني مدرار ملوك سجالمة . أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى العباس . ذكره عريب بن حميد في تاريخه . ومنهم أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني صاحب الحمار . الخارج على الشيعة سنة اثنتين وثلثائة الدائن بدين الخارجية . أخذ العلم بتوزر عن مشيختها . ورأس في الفتيا وقرأ مذاهب الإضافية من الخوارج ، وصدق فيه . ثم لقي عامراً الأعمى الصفري النكار . فتلقن عنه من مذاهبهم ما انسلخ من آية السعادة بانتحاله . وهو مع ذلك من الشهرة في هذا الجليل بحيث لا يغفل .

ومنهم منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة من طواعن ولهاصة ، ثم من سوماتة منهم . مولده عام عشرة وثلثائة ووفاته عام ثلاثة وثمانين وثلثائة . كان من البتر من ولد مادغيس هلك على عهد عبد الرحمن الناصر . ومنهم أيضاً أبو محمد بن أبي زيد علم الملة وهو من نفزة أيضاً . ومنهم علماء بالنسب والتاريخ وغير ذلك من فنون العلوم .

ومن مشاهير زناته أيضاً موسى بن صالح الغمري . معروف عند كافتهم معرفة وضوح وشهرة ، وقد ذكرناه عند ذكر غمرة من شعوب زناته . وهو وإن لم توقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره في دينه . فهو من محاسن هذا الجليل الشاهدة بوجود الخواص الإنسانية فيهم من ولاية وكهانة وعلم وسحر . كل نوع من آثار الخليفة .

ولقد تحدث أهل هذا الجليل فيما يتحدثون به أن أخت يعلى بن محمد اليفرنى جاءت بولد من غير أب سموه كلام . ويذكر له أخبار في الشجاعة خرقت العوائد ودلت على أنه موهبة من الله استأثره بها ، لم يشاركه فيها غيره من أهل جلدته . وربما ضاقت حوامل الخواص منهم عن ملتقط هذه الكائنة ، ويجهلون ما يتسع لها ولأمثالها من نطاق القدرة ، وينقلون أن حملها كان أثر استحمامها في عين حامية هنالك غب ما صدر عنها بعض السباع ، كانت ترد فيها على الناس ، ويردون عليها ويرون أنها علقت من فضل ولوغه ، ويسمون ذلك المولود ابن الأسد لظهور خلعة الشجاعة فيه . وكثير من أمثال هذه الأخبار التي لو انصرفت إليها عناية الناقلين لملاأت الدواوين . ولم يزل هذا دأبهم وحالهم إلى أن مهدوا من الدول وأثلوا من الملك ما نحن في سبيل ذكره .

* (الفصل الرابع في ذكر أخبارهم على الحملة من قبل الفتح الاسلامي ومن بعده الى ولاية بني الاغلب) *

هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى حسبما هو معروف في تاريخ الفتح بأفريقية والمغرب . وفي أخبار ردتهم وحروبهم فيها . نقل ابن أبي الرقيق أن موسى ابن نصير لما فتح سقوما^(١) كتب إلى الوليد بن عبد الملك أنه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس . فكتب إليه الوليد بن عبد الملك ويحك إني أظنها من بعض كذباتك ، فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة ، ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجليل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها . وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب إلا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم . فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم ، فقد غزتهم ملوك اليمن من قرارهم مراراً على ما ذكر مؤرخوهم ، فاستكانوا لغلبيهم ودانوا بدينهم .

ذكر ابن الكلبي أن حمير أباً لقبائل اليمنية ، ملك المغرب مائة سنة وأنه الذي ابتني

(١) وفي النسخة التونسية : سقيوما .

مدائنه مثل أفريقية وصقلية واتفق المؤرخون على غزو أفريقش بن صيفي من التبابعة إلى المغرب كما ذكرنا في أخبار الروم ، واختطوا بسبب البحر وما يليه من الأرياف مدناً عظيمة الخطة وثيقة المباني شهيرة الذكر باقية المعالم والآثار لهذا العهد مثل : سيطلة وجلولاء ومزناق وطاقة وزانة وغيرها من المدن التي خربها المسلمون من العرب لأول الفتح عند استيلائهم عليها . وقد كانوا دانوا العهد هم بما تعبدوهم به من دين النصرانية ، وأعطوهم المهادنة وأدوا إليهم الجباية طوعية .

وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال . وأمراؤها لا يرامون بذل ، ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة ، وقد صبحهم الإسلام وهم في مملكة قد استولوا على رومة . وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب الإسكندرية وبرقة ومصر يؤدون الجباية له ، وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من الغوط لما كان الروم غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع . وعنهم كلهم أخذوا دين النصرانية ، فكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر أفريقية ولم يكن للروم فيها شيء من ولاية . وإنما كان كل من كان منهم بها جنداً للإفرنج ومن حشودهم . وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح أفريقية فمن باب التغليب ، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج ، وما قاتلوا في الشام إلا الروم ، فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية . فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا إسم الروم على جميع أمم النصرانية .

ونقلت الأخبار عن العرب كما هي فخرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم ، وكذا الأمة الذين كانوا بأفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها ، إنما كانوا من الفرنجة . وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم ، لقرب الشام وسلطانهم منهم كما كان جراءة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح ، وكما كانت نفوسة من برابر أفريقية قندلاوة ومدينونة وبهلولة وغيانة وبنو بازاز^(١) من برابرة المغرب الأقصى حتى محادريس الأكبر الناجم بالمغرب من بني حسن بن الحسن جميع ما كان في

(١) وفي نسخة أخرى : بنو فازان .

نواحيه من بقايا الأديان والملل ، فكان البربر بأفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج ، وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم كما ذكرناه حتى إذا كان الفتح وزحف المسلمون إلى أفريقية زمان عمر رضي الله عنه سنة تسع وعشرين ، وغلبهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي ، فجمع لهم جرير^(١) ملك الفرنجة يومئذ بأفريقية من كان بأمصارها من الفرنج والروم ، ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم .

وكان ملك ما بين طرابلس وطنجة ، وكانت دار ملكه سيطرة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفاً ، والمسلمون يومئذ في عشرين ألفاً ، فكان من هزيمة العرب لهم وفتحهم لسيطرة وتخريبهم إياها وقتلهم جرجير ملكهم . وما نفلهم الله من أموالهم وبناتهم التي أختصت منهن إيته بقاتله عبدالله بن الزبير لعهد المسلمين له بذلك بعد الهزيمة ، وخلوصه بخبر الفتح إلى الخليفة والملا من المسلمين بالمدينة ما هو كله مذكور مشهور . ثم أرسى الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة ، وخلوصه بخبر الفتح إلى حصون أفريقية ، وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ، ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبي ، حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب^(٢) جد بني خزر ، وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة ، ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده ، ومن عليه وأطلقه ، وعقد له على قومه .

ويقال إنما وصله وافداً ، وحصن المسلمين عليهم ولاذ الفرنج بالسلم وشرطوا لابن أبي سرح ثلثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ، ويخرج بهم من بلادهم ففعل . ورجع المسلمون إلى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الإسلامية . ثم كان الاجتماع والاتفاق على معاوية بن أبي سفيان ، وبعث معاوية بن خديج السكوني من مصر لافتتاح أفريقية سنة خمس وأربعين . وبعث ملك الروم من القسطنطينية عساكره لمداغمتهم في البحر فلم تغن شيئاً وهزمهم العرب ساحل أجم . وحاصروا جلولا وفتحوها ، وقفل معاوية بن خديج إلى مصر فولى معاوية بن أبي سفيان على أفريقية بعده عقبة بن نافع ، فاخبط القيروان وافترق أمر الفرنجة وصاروا

(١) لعله جرجير كما سيرد بعد قليل .

(٢) وفي النسخة الباريسية : صولات بن وزمار (كتاب قبائل المغرب/ ٣٦٩) .

إلى الحصون وبقي البربر بضواحيهم إلى أن ولي يزيد بن معاوية وولى على أفريقية أبا المهاجر مولى^(١) وكانت رئاسة البربر يومئذ في أوربة لكسيلة بن لمزم ، وهو رأس البرانس ، ومرادفه سكرديد بن رومي بن مازرت من أوربة ، وكان على دين النصرانية فأسلما الأول الفتح . ثم ارتدا عند ولاية أبي المهاجر واجتمع إليهما البرانس ، وزحف إليهم أبو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه . ثم جاء عقبة بعد أبي المهاجر فنكبه غيظاً على صحابته لأبي المهاجر . ثم استفتح حصون الفرنجة مثل ماغانة^(٢) ولميس ، ولقيه ملوك البربر بالزاب وتاهرت فغضهم جمعاً بعد جمع ، ودخل المغرب الأقصى ، وأطاعته غمارة ، وأميرهم يومئذ بليان . ثم أجاز إلى ويلي ثم إلى جبال درن ، وقتل المصامدة ، وكانت بينهم وبينه حروب ، وحاصروه بجبال درن . ونهضت إليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة ، وأثنى فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام ، ودوخ بلادهم . ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ، ولم يدينوا بالنصرانية ، فأثنى فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر ، وقاتل مسوفة من وراء السوس ، وساسهم وقفل راجعاً . وكسيلة أثناء هذا كله في اعتقاله يجمعه معه في عسكره سائر غزاوته . فلما قفل من السوس سرح العساكر إلى القيروان حتى بقي في خف من الجنود . وتراسل كسيلة وقومه ، فأرسلوا له شهوداً وانتهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه وملك كسيلة أفريقية خمس سنين ونزل القيروان وأعطى الأمان لمن بقي بها ممن تخلف من العرب أهل الذرازي والأثقال ، وعظم سلطانه على البربر .

وزحف قيس بن زهير البلوي في ولاية عبد الملك للثأر بدم عقبة سنة سبع وستين ، وجمع له كسيلة سائر البربر ، ولقيه بجيش من نواحي القيروان فاشتد القتال بين الفريقين ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم . وأتبعهم العرب إلى محنة^(٣) ثم إلى ملوية وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد ، وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفاً شديداً فلجؤا

(١) هكذا بالأصل وفي النسخة التونسية : مولى (فلان) .

(٢) وفي نسخة أخرى : باغاية .

(٣) وفي نسخة أخرى : مر محنة . وفي النسخة التونسية مر محنة .

إلى القلاع والحصون . ثم ترهب زهير بعدها وقفل إلى المشرق فاستشهد ببرقة كما ذكرناه . واضطربت أفريقية ناراً وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم . وكان من أعظمهم شأناً يومئذ الكاهنة دهايا بنت ماتية^(١) بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر . وزعمائهم فبعث عبد الملك إلى حسان بن النعمان الغساني عامله على مصران يخرج إلى جهاد أفريقية ، وبعث إليه بالمدد ، فزحف إليها سنة تسع وسبعين ودخل القيروان وغزا قرطاجنة وافتتحها عنوة ، وذهب من كان بقي بها من الإفرنجة إلى صقلية وإلى الأندلس .

ثم سأل عن أعظم ملوك البربر فدلوه على الكاهنة وقومها جراوة فضى إليها حتى نزل وادي مسكيانة . وزحفت إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً . ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القيسي . ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس ، ولحق حسان بعمل طرابلس . ولقيه كتاب عبد الملك بالمقام فأقام وبنى قصوره وتعرف لهذا العهد به . ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها واتخذت عهداً عند أسيرها خالد بالرضاع مع ابنتها^(٢) . وأقامت في سلطان أفريقية والبربر خمس سنين . ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد ، فرجع إلى أفريقية سنة أربع وسبعين ، وخربت الكاهنة جميع المدن والضياع ، وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً في قرى متصلة .

وشق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فأمنهم ووجد السبيل إلى تفريق أمرها . وزحف إليها وهي في جموعها من البربر فانهزموا ، وقتلت الكاهنة بمكان السر المعروف بها لهذا العهد بجبل أوراس . واستأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم إثنا عشر ألفاً مجاهدين معه ، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم ، وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة^(٣) وعلى جبل أوراس فقالوا : لزمنا الطاعة له سبقناها إليها وبايعناه عليها^(٤) . وأشارت عليهم بذلك لإثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها وانصرف حسان إلى القيروان فدون الدواوين وصالح من

(١) وفي النسخة التونسية : ثابتة .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابنها .

(٣) وفي النسخة التونسية : هواره وبعض الاحيان جراوة .

(٤) وفي النسخة التونسية : لطاعة سبقنا بها إليه بإيعاز أمها وانشارتها عليها .

التقى بيده إلى البربر على الخراج . وكتب الخراج على عجم أفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر والبرانس . واختلفت أيدي البربر فيما بينهم على أفريقية والمغرب فخلت أكثر البلاد ، وقدم موسى بن نصير إلى القيروان والياً على أفريقية . ورأى ما فيها من الخلاف ، وكان ينقل العجم من الأقاليم إلى الأدنى وأثنى في البربر . ودوخ المغرب وأدى إليه البربر الطاعة . وولي على طنجة طارق بن زياد ، وأنزل معه سبعة وعشرين ألفاً من العرب واثنى عشر ألفاً من البربر ، وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه . ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة .

* وذكر أبو محمد بن أبي زيد : إن البربر ارتدوا إثنى عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ، ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر أمرائهم برسم الجهاد . فاستقروا هنالك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة . ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق . وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها ، من الإباضية والصفيرية كما ذكرنا في أخبار الخوارج .

وفشت هذه البدعة وعقدها رؤس النفاق من العرب وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتراء على الأمر فاختلفوا^(١) في كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمراء العرب ، فقتلوا يزيد بن أبي مسلم سنة إثنين ومائة لما نقموا عليه في بعض الفعلات . ثم انتقض البربر بعد ذلك سنة إثنين وعشرين ومائة في ولاية عبدالله بن الحجاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس ، وأثنى في البربر وسبى وغنم . وانتهى إلى مسوفة فقتل وسبى وداخل البربر منه رعب وبلغه أن البربر أحسوا بأنهم فيء للمسلمين فانتقضوا عليه . وثار ميسرة المطغني^(٢) بطنجة على عمرو بن عبدالله فقتله وباع لعبد الأعلى بن جريج

(١) وفي النسخة التونسية : فأجلبوا .

(٢) وفي نسخة أخرى : ميسرة المطغري وفي كتاب قبائل الغرب ص ٣٨٢ : ميسرة المدغري .

الأفريقي رومي الأصل ومولى العرب ، كان مقدم الصفرية من الخوارج في انتحال مذهبهم ، فقام بأمرهم مدة وبائع ميسرة لنفسه بالخلافة داعياً إلى نخلته من الخارجية على مذهب الصفرية . ثم ساءت سيرته فتم على البربر ما جاء به فقتلوه وقدموا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتي .

(قال ابن عبد الحكم) هو من هتورة إحدى بطون زناتة فقام بأمرهم ، وزحف إلى العرب وسرح إليهم عبدالله بن الحجاب العساكر في مقدمته ومعهم خالد بن أبي حبيب فالتقوا بوادي شلف ، وانهمز العرب وقتل خالد بن أبي حبيب ومن معه وسميت وقعة الأسراب وانتقضت البلاد ومرج أمر الناس ، وبلغ الخبر هشام بن عبد الملك فعزل ابن حجاب وولى كلثوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرين وسرحه في إثني عشر ألفاً من أهل الشام . وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه ، فخرج إلى أفريقية والمغرب حتى بلغ وادي طنجة وهو وادي سبس فزحف إليه خالد ابن حميد الزناتي فيمن معه من البربر ، وكانوا خلقاً لا يحصى . ولقوا كلثوم بن عياض من بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم ، وقتل كلثوم وأضرمت العساكر فضى أهل الشام إلى الأندلس مع فلح بن بشر القشيري ومضى أهل مصر وأفريقية إلى القيروان .

وبلغ الخبر إلى هشام بن عبد الملك فبعث حنظلة بن سفيان الكلبي فقدم القيروان سنة أربع وعشرين وأربعمائة^(١) وهواة يومئذ خوارج على الدولة ، منهم عكاشة بن أيوب وعبد الواحد بن يزيد في قومها ، فثارت هواة ومن تبعهم من البربر فهزمهم حنظلة بن المعز بظاهر القيروان بعد قتال شديد . وقتل عبد الواحد الهواري وأخذ عكاشة أسيراً ، وأحصيت القتلى في هذه الواقعة فكانوا مائة وثمانين ألفاً . وكتب بذلك حنظلة إلى هشام وسمعا الليث بن سعد فقال : ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام .

ثم خفت صوت الخلافة بالمشرق والثالث أمرها لما كان من بني أمية من الفتنة ، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان . وأقصى الأمر إلى الإدالة ببني العباس من بني أمية وأجاز البحر عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس إلى أفريقية فملكها وغلب

(١) الصحيح سنة أربع وعشرين ومائة وهذا الخطأ راجع في الاغلب الى الناسخ .

حنظلة عليها سنة ست وعشرين ومائة فعادت هيف إلى أديانها ، واستشرى داء البربر وأعزل أمر الخارجية ورؤسها ، فانتقضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان داعين إلى بدعتهم . وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة ، وتغلب أميرهم ثابت بن زبيدون وقومه على باجة ، وثار معه عبدالله بن سكرديد من أمرائهم فيمن تبعه .

وثار بطرابلس عبد الجبار والحريث من هوار ، وكانا يدينان برأي الإباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسي لما خرج إليهم يدعوهم إلى الصلح ، وبقي الأمر على ذلك مدة ، وثار إسماعيل بن زياد في قتل البربر . وأثنى فيهم وزحف إلى تلمسان سنة خمس وثلاثين ومائة فظفر بها ودوخ المغرب وأذل من كان فيه من البربر . ثم كانت بعد ذلك فتنة وريجومة^(١) وسائر قبائل نفزاوة سنة أربعين ومائة ، وذلك لما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر وقتله أخواه إلياس وعبد الوارث ، فولي مكانه ابنه حبيب ، وطالبهما بثار أبيه فقتل إلياس ولحق عبد الوارث بوريجومة فأجاره أميرهم عاصم بن جميل ، وتبعه على شأنه يزيد بن سكوم أمير ولطاصه واجتمعت لهم كلمة نفزاوة ودعوا لأبي جعفر المنصور ، وزحفوا إلى القيروان ودخلوها عنوة ، وفر حبيب بن قابس فأتبعه عاصم في نفزاوة وقبائلهم .

وولي على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النغزي ، ثم انهزم حبيب إلى أوراس ، واتبعه عاصم ، فاعترضه عبد الملك بن أبي الجعد وجموع نفزاوة الذين كانوا بالقيروان وقتلوه واستولت وريجومة على القيروان وسائر أفريقية ، وقتلوا من كان بها من قريش وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع ، واشتد البلاء على أهل القيروان وأنكرت ذلك من فعل وريجومة ومن إليهم من نفزاوة برابرة طرابلس الإباضية من هوار وزناتة فخرجوا واجتمعوا إلى أبي الخطاب عليها واجتمع إليه سائر البربر الذين كانوا هنالك من زناتة وهوار وزحف بهم إلى القيروان فقتل عبد الملك بن أبي الجعد وسائر وريجومة ونفزاوة ، واستولى على القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة ثم ولي على القيروان عبد الرحمن بن رستم وهو من أبناء رستم أمير فارس بالقادسية ، كان من موالي العرب ومن رؤس هذه البدعة . ورجع أبو الخطاب إلى طرابلس واضطرم المغرب نارا ،

(١) وفي النسخة التونسية : ورفجومة وقد مرت معنا من قبل .

وانتري خوارج البربر على الجهات فلكوها ، واجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب منه أربعين ومائة ، وقدموا عليهم عيسى بن يزيد الأسود ، وأسسوا مدينة سجلماسة ونزلوها ، وقدم محمد بن الأشعث والياً على أفريقية من أبي جعفر المنصور فزحف إليه أبو الخطاب ولقيه بسرت ، فهزموا ابن الأشعث وقتل البربر ببلاد ريفاً^(١) وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط ، واجتمعت إليه طوائف البربر الإباضية من لماية ولواتة ورجالة ونفزاوة فترل بها ، واختط مدينتها سنة أربع وأربعين ومائة وضبط ابن الأشعث أفريقية وخافه البربر . ثم انتقل بنو يفرن من زناتة ومغيلة من البربر بناحي تلمسان ، وقدموا على أنفسهم أبا قررة من بني يفرن ، ويقال إنه من مغيلة وهو الأصح في شأنه ، وبويع له بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة . وزحف إليه الأغلب بن سود التيمي عامل طبنة ، فلما قرب منه هرب أبو قررة ، فترل الأغلب الزاب . ثم اعترم على تلمسان ثم طنجة ، ورجع إليه الجند فرجع . ثم انتقض البربر من بعد ذلك أيام عمرو بن حفص من ولد قبيصة ابن أبي صفرة أخي المهلب . وكان تغلب هواره منذ سنة إحدى وخمسين ومائة^(٢) واجتمعوا بطرابلس ، وقدموا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن مرين^(٣) بن تطوفت من أمراء مغيلة ، ويسمى أبا قادم . وزحفت إليهم جنود عمر بن حفص فهزموها وملكوا طرابلس ، وزحفوا إلى القيروان فحاصروها . ثم زحف البرابرة من الجانب الآخر يجنود عمر بطبنة في إثني عشر معسكراً . وكان منهم أبو قررة في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في ستة آلاف من الإباضية ، والمسورين هانيئاً في عشرة آلاف كذلك ، وجريز بن مسعود فيمن تبعه من مديونة ، وعبد الملك ابن سكرديد الصنهاجي في ألفين منهم من الصفرية . واشتد الحصار على عمر بن حفص فأعمل الحيلة في الخلاف بين جماعتهم . وكان بنو يفرن من زناتة أكثر البرابرة يومئذ جمعاً ، وأشدّهم قوة ، فصالح أبو قررة زعيمهم على أربعين ألفاً وأعطى ابنه في اتمام ذلك أربعة آلاف ، وافترقوا وارتحلوا عن طبنة . ثم بعث بعضاً إلى ابن رستم فهزمه ، ودخل تاهرت مفلولاً ، وزحف عمر بن حفص إلى أبي حاتم والبربر

(١) وفي نسخة أخرى : وقتل البربر قتلاً ذريعاً .

(٢) وفي نسخة أخرى : وكان يلقب هزار مرد سنة إحدى وخمسين .

(٣) وفي نسخة أخرى : مدين .

الإباضية الذين معه . ونهضوا إليه فخالفهم إلى القيروان ، وشحنها بالآقوات والرجال .

ثم لقي أبا حاتم والبربر وهزموه ، ورجع إلى القيروان وحاصروه . وكانوا في ثلثمائة وخمسين ألفاً ، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً ، وكانوا كلهم إباضية . وطال الحصار وقتل عمر بن حفص في بعض أيامه سنة أربع وخمسين ومائة . وصالح أهل القيروان أبا حاتم على ما أحب وارتحل . وقدم يزيد بن قبيصة بن المهلب سنة أربع وخمسين ومائة والياً على أفريقية ، فزحف إليه أبو حاتم بعد أن خالف عليه عمر بن عثمان الفهري ، وافترق أمرهم فلقبه يزيد بن حاتم بطرابلس فقتل أبو حاتم ، وانهزم البربر ولحق عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن من أصحاب أبي حاتم بكتامة وبعث المخارق بن غفار الطائي فحاصره ثمانية أشهر . ثم غلب عليه فقتله ومن كان معه من البربر ، وهربوا إلى كل ناحية . وكانت حروبهم مع الجند من لدن قتل عمر بن حفص بطبنة إلى انقضاء ثلثمائة وخمسة وسبعين حرباً .

وقدم يزيد أفريقية فزال فسادها ورتب القيروان ، ولم تزل البلاد هادئة ، وانتفض ورفجومة سنة سبع وخمسين ومائة وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه أبو زرجونة ، فسرح إليهم يزيد من عشيرة ابن محرارة المهلبية فهزموه . واستأذنه ابنه المهلب وكان على الزاب وطبنة وكتامة في الزحف إلى ورفجومة فأذن له ، وأمدّه بالعلاء بن سعيد ابن مروان المهلبية من عشيرتهم أيضاً ، فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل . وانتفض نفزاوة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود من بعد مهلكه سنة إحدى وستين ومائة ، وولوا عليهم صالح بن نصير النفزي ودعوا إلى رأيهم رأي الإباضية ، فسرح إليهم ابن عمه سليمان بن الصمة في عشرة آلاف فهزمهم وقتل البربر أبرح قتل . ثم تحيز إلى صالح بن نصير ، ولم يشهد الأولى من البربر الإباضية واجتمعوا بشقبنارية فهزمهم إليها سليمان ثانية وانصرف إلى القيروان .

وركبت ربيع الخوارج من البربر من أفريقية ، وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال ، ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين ومائة في موادة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ، فوادعه وانحصدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا للدين ، فغضب الإسلام بجراحه ، وألقت الدولة الضريبة على البربر بكلكلها ، وتقلد إبراهيم بن الأغلب التميمي أمر أفريقية والمغرب من قبل

الرشيد هرون سنة خمس وثمانين ومائة فاضطلع بأمر هذه الولاية ، وأحسن السيرة وقوم القتاد ورأب الصدع وجمع الكلمة . ورضيت الكافة واستقل بولايتها غير منازع ولا متشوه ، وتوارثها بنوه خالفاً عن سالف .

وكانت لهم بأفريقية والمغرب الدولة التي ذكرناها من قبل إلى أن انقرض أمر العرب بأفريقية على زيادة الله عاقبتهم الفار إلى المشرق أمام كتامة سنة ست وتسعين ومائتين كما نذكره . وخرج كتامة على بني الأغلب بدعوة الرافضية . قام فيهم أبو عبدالله المحتسب الشيعي داعية عبيدالله المهدي ، فكان ذلك آخر عهد بالملك والدولة بأفريقية . واستقل كتامة بالأمر من يومئذ ، ثم من بعدهم من برابرة المغرب . وذهبت ريع العرب ودولتهم من المغرب وأفريقية ، فلم يكن لهم بعد دولة إلى هذا العهد . وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلاً بعد آخر ، تارة يدعون إلى الأمويين الخلفاء بالأندلس ، وتارة إلى الهاشمين من بني العباس وبني الحسن . ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم آخرأ حسبما نذكر ذلك كله مفصلاً عندما يعرض لنا من ذكر دول زناتة والبربر الذين نحن في سياقة أخبارهم .

* (البرابرة البتر) *

* (الخبر عن البرابرة البتر وشعوبهم ونبدأ منهم أولاً بذكر نفوسة وتصارييف أحوالهم) *

كان مادغيس الأبتري جد البرابرة البتر ، وكان ابنه زحيك ومنه تشعبت بطونهم . فكان له من الولد فيما يذكر نسابة البربر أربعة . نفوس وأداس وضراولوا ، فأما أداس فصار في هواره لما يقال إن هواره خلف أباه زحيك على أمه قبل فصاله فانتسب إليه واختلط بولده ، واندرجت بطون أداس في هواره كما ذكرناه . وأما ضراولوا فسنأتي بذكر بطونهم واحداً واحداً . وأما نفوس فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها . وكانوا من أوسع قبائل البربر فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور وبني مكسور^(١) وماطوسة . وكانت مواطن جمهورهم بجهاث طرابلس وما إليها ، وهناك الجبل المعروف بهم .

(١) وفي النسخة التونسية : مكسور وكذلك في قبائل المغرب/ ٣٠٨ .

وهم على ثلاثة مراحل من قبل طرابلس يسكنه اليوم بقاياهم . وكانت مدينة صبرة قبل الفتح في مواطنهم ، وتعزى إليهم ، وهي كانت باكورة الفتح لأول الإسلام ، وخرب المغرب بعد استيلائهم عليها فلم يبق منهم إلا الأطلال ورسوم خافية . وكان من رجالاتهم إسماعيل بن زياد المتغلب على قابس سنة اثنتين وثلاثين ومائة لأول الدولة العباسية . ومنهم لهذا العهد أوزاع متفرون في الأقطار بمعالات مصر والمغرب ، والله وارث الأرض ومن عليها ، وأمالوا فن ولده نفزاة ولواتة كما نذكر .

* (الخبر عن نفزاة وبطونهم وتصارييف أحوالهم) *

وهم بنو تطوف بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك ، وبطونهم كثيرة مثل غساسة ومرنيسة وزهيلة وسوماتة وزاتيمة وولاصة وبحره وورسيف ، ومن بطونهم مكلاتة . ويقال إن مكلاتة من عرب اليمن وقع إلى تطوف صغيراً فتبناه ، وليس من البربر . ولمكلاتة بطون متعددة مثل بني ورياغل وكرناية وبني يصلتن وبني ديمان ورمحوق وبني يزناسن^(١) ويقال إن غساسة منهم ، هكذا عند نسابة البربر مثل سابق المطاطي وغيره ومن بطون ولهاصة وتردين بن داحية بن ولهاصة وورفجومة بن نيرغاس بن ولهاص . ومن بطون وورفجومة زكوله رجالة لذكاء بن وورفجوم إلى بطون أخرى كثيرة . وكان وورفجومة هؤلاء أوسم بطون نفزاة وأشدهم بأساً وقوة . ولما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر المنصور وقتله أخواه عبد الوارث والياس وطالهما إبنه حبيب بالثار فلحق عبد الوارث بورفجومة ، ونزل على أميرهم عاصم بن جميل بأوراس ، وكان كاهناً فأجاره وقام بدعوة أبي جعفر المنصور ، واجتمعت إليه نفزاة ، وكان من رجالاتهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا يدينون بدين الإباضية من الخوارج ، وزحفوا إلى القيروان سنة أربعين ومائة . وفر عنها حبيب بن عبد الرحمن ، ودخلها عبد الملك بن أبي الجعد وقتل حبيباً . واستولت نفزاة على القيروان وقتلوا من كان بها من قريش وسائر العرب ، وربطوا دوابهم بالمسجد ، وعظمت حوادثهم .

(١) وفي نسخة ثانية : بني يصلتن وبني ديماروريجون وبني سراين .

ونكر ذلك عليهم الاباضية من برايرة طرابلس وتولى كبيرها زنانة وهوارة فاجتمعوا إلى الخطاب بن السمع ورجالات العرب ، واستولوا على طرابلس ثم على القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة وقتلوا عبد الملك بن أبي الجعد وأنخنوا في قومه من نفزاوة وورفجومة ، ورجعوا إلى طرابلس بعد أن استعمل أبو الخطاب على القيروان عبد الرحمن بن رستم . واضطرم المغرب ناراً وعظمت فتنة وورفجومة هؤلاء إلى أن قدم محمد بن الأشعث سنة ست وأربعين ومائة من قبل المنصور فأنخن في البربر وأطفأ نار هذه الفتنة كما قدمناه . ولما اختط عمر بن حفص مدينة طبنة سنة إحدى وخمسين ومائة أنزل وورفجومة هؤلاء بها بما كانوا شيعاً له ، وعظم غناؤهم فيها عندما حاصره بها ابن رستم وبنو يفرن .

ثم انتقضوا بعد مهلك عمر على يزيد بن حاتم عند قدومه على أفريقية سنة سبع وخمسين ومائة وولوا عليهم أبا زرجونة منهم ، وسرح إليهم يزيد العساكر مع ابنه وقومه فأنخنوا فيهم . ثم انتقضت نفزاوة على أبيه داود ، ودعوا إلى دين الاباضية ، وولوا عليهم صالح بن نصر منهم فرجعت العساكر إليهم متراسلة وقتلهم أبرح قتل . وعليها كان ركود ريح الخوارج بأفريقية وأذعار البربر . وافترق بنو وورفجوم بعد ذلك وانقرض أمرهم وصاروا أوزاعاً في القبائل . وكان رجالة منهم بطناً متسعيناً . وكان منهم رجالات مذكورون في أول العبيديين وبني أمية بالأندلس منهم الرجالي أحد الكتاب بقرطبة ، وبقي منهم لهذا العهد فرق بمراجته . وهناك قرية ببسيتها تنسب إليهم .

وأما سائر ولهاصة من وورفجومة وغيرهم فهم لهذا العهد أوزاع لذلك ، أشهرهم قبيلة بساحل تلمسان اندرجوا في كومية وعدوا منهم بالنسب والخلط . وكان منهم في أواسط هذه المائة الثامنة ابن عبد المكلف^(١) استقل برياستهم وتملك بدعوى السلطان بعد استيلاء بني عبد الواد على تلمسان ونواحيها ، وتغلب على سلطانهم لذلك العهد كما نذكره عثمان بن عبد الرحمن وسجنه بالمطبق بتلمسان ثم قتله . ومن أشهر قبائل ولهاصة أيضاً قبيلة أخرى ببسيط بونة يركبون الخيل ويأخذون بمذاهب العرب في زيهم ولقبتهم وسائر شعارهم كما هو شأن هوارة . وهم في عداد القبائل الغارمة ورياستهم في بني عريف منهم ، وهي لهذا العهد في ولد حازم بن شداد بن حزام بن

(١) وفي نسخة ثانية : عبد الملك .

نصر بن مالك بن عريف . وكانت قبلهم لعسكر بن بطنان منهم ، هذه أخبار ولهاصة فيما علمناه .

(وأما نهاية بطون نفزاوة) فمنهم زاتيمة ، وبقية منهم لهذا العهد بساحل برشك ، ومنهم غساسة ، وبقية منهم لهذا العهد بساحل بوطه^(١) حيث القرية التي هناك حاضرة البحر ، ومرسى لأساطيل المغرب ، وهي مشهورة باسمهم . وأما زهيلة فبقيتهم لهذا العهد بنواحي بادس مندرجون في غمارة وكان منهم لعهد مشيختنا أبو يعقوب البادسي أكبر الأولياء ، وآخرهم بالمغرب . وأما مرنيسة فلا يعلم لهم موطن ، ومن أعقابهم أوزاع بين أحياء العرب بأفريقية ، وأما سوماتة فمنهم بقية فن نواحي القيروان ، كان منهم منذر بن سعيد القاضي بقرطبة لعهد الناصر والله أعلم .

وأما بقايا بطون نفزاوة فلا يعرف لهم لهذا العهد حي ولا موطن إلا القرى الظاهرة المقدرة السير المنسوبة إليهم ببلاد قسطنطية ، وبها معاهدون من الفرنجة أوطنهم على الجزية واعتقاد الدمة عند عهد الفتح ، وأعقابهم بها لهذا العهد ، وقد نزل معهم كثير من بني سليم من الشريد وزغبة ، وأوطنوها وتملكوها القفار والضياح . وكان أمر هذه القرى راجعا إلى عامل توزر أيام استبداد الخلافة . فلما تقلص ظل الدولة عنهم ، وحدثت العصبة في الأمصار استبدت كل قرية بأمرها وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في إيالته فمنهم من يعطيه ذلك ومنهم من يأباه حتى أظلمت دولة مولانا السلطان أبي العباس ، وأدرجوا كلهم في طاعته واندرجوا في حبله ، والله ولي الأمور لا رب غيره اهـ .

* (الخبر عن لواتة من البرابرة البتر وتصارييف أحوالهم) *

وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البتر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك ، ولوا الأصغر هو نفزا وكما قلناه . ولوا اسم أبيهم ، والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصار لوات ، فلما عربته العرب حملوه على الأفراد والحقوا به هاء الجمع . وذكر ابن حزم أن نسابة البربر يزعمون أن سدراتة ولواتة ومزاتة من

(١) وفي نسخة أخرى : بطوية — قبائل المغرب/٣٠٧

القبط وليس ذلك بصحيح . وابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر في ذلك . وفي لواتة بطون كثيرة وفيهم قبائل كثيرة مثل سدرانة بن نيطط بن لوا ، ومثل عزوزة بن ماصلت بن لوا . وعد سابق وأصحابه في بني ماصلت بطوناً أخرى غير عزوزة وهم : أكورة وجرمانة ونقاعة^(١) مثل بني زائد بن لوا ، وأكثر بطونهم مزانة . ونسابة البربر يعدون في مزانة بطوناً كثيرة مثل : ملايان ومرنه ومحيجه^(٢) ودكمه وحمره ومدونه . وكان لواتة هؤلاء طواعن في مواطنهم بنواحي برقة كما ذكر المسعودي ، وكان لهم في فتنه أبي يزيد آثار .

وكان منهم بجبل أوراس أمة عظيمة ظاهروا أبا يزيد مع بني كملان على أمره . ولم يزالوا بأوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هواره وكتامة ، ويدهم العالية عليهم تناهز خيالهم ألفاً وتجاوز رجالاتهم العدة . وتستكني بهم الدولة في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة فيحسنون الغناء والكفاية . وكانت البعوث مضروبة عليهم ينفرون بها في معسكر السلطان . فلما تقلص ظل الدولة عنهم صار بنو سعادة منهم في أقطاع أولاد محمد من الزواودة^(٣) فاستعملوهم في مثل ما كانت الدولة تستعملهم فيه ، فأصاروهم خولاً للجباية وعسكراً للاستنفار وأصبحوا من جملة رعاياهم . وقد كان بقي جانب منهم لم تستوفه الإقطاعات ، وهم بنوزنجان وبنو باديس فاستضافهم منصور بن مزني إلى عمله . فلما استبد مزني عن الدولة واستقلوا بالزباب صاروا يبعدونهم بالجبلية بعض السنين ويعسكرون عليهم لذلك بأفاريق الأعراب ، وهم لهذا العهد معتصمون بجبلهم لا يجاوزونه إلى البسيط خوفاً من عادية الأعراب .

ولبني باديس منهم أتاوات على بلد نقاوس المحيطة في فسيح^(٤) الجبل بما تغلبوا على ضواحيها . فإذا انحدر الأعراب إلى مشاتهم اقتضوا منها أتاواتهم وخفارتهم . وإذا أقبلوا إلى مصايفهم رجع لواتة إلى معاقلمهم الممتنعة على الأعراب . وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة ، وكانوا طواعن هنالك على

(١) وفي نسخة أخرى : مغانة .

(٢) وفي نسخة أخرى : بلايان وقرنة ومحيجة .

(٣) وفي نسخة أخرى : الدواودة .

(٤) وفي نسخة أخرى : المختطة في سفح أجبل .

وادي ميناى ما بين جبل يعود من جهة الشرق وإلى وارصلف من جهة الغرب . يقال إن بعض أمراء القيروان نقلهم معه في غزوة وأنزلهم هنالك . وكان كبيرهم أورغ بن علي بن هشام قائداً لعبدالله الشيعي .

ولما انتقض حميد بن مصل^(١) صاحب تاهرت على المنصور ثالث خلفاء الشيعة ظاهروه على خلافه ، وجاوروه في مذاهب ضلاله إلى أن غلبه المنصور . وأجاز حميد إلى الأندلس سنة ست وثلاثين ومائة وزحف المنصور يريد لواتة فهربوا أمامه إلى الرمال وهرب عنهم ونزل إلى وادي ميناى ثم انصرف إلى القيروان .

(وذكر) ابن الرقيق أن المنصور وقف هنالك على أثر من آثار الأقدمين بالقصور التي على الجبال الثلاثة مبنية بالحجر المنحوت ، يبدو للناظر على البعد كأنها أسنمة قبور ، ورأى كتاباً في حجر فسر له أبو سليمان السردغوس : خالف أهل هذا البلد على الملك فأخرجني إليهم ، ففتح لي عليهم ، وبنيت هذا البناء لأذكر به ، وهكذا ذكر ابن الرقيق ، وكان بنو وجديجي^(٢) من قبائل زناتة بمواطنهم من منداس جيراناً للواتة هؤلاء ، والتخيم بينهما وادي ميناى وتاهرت . وحدثت بينهما فتنة بسبب امرأة أنكحها بنو وجديجي في لواتة فعيروا بالفقر ، فكسبت بذلك إلى قومها ورئيسهم يومئذ غسان^(٣) فتذا مروا واستمدوا من وراءهم من زناتة فأمدوهم بعلي بن محمد اليفري . وزحفت مطاطة من الجانب الآخر في مظاهرتهم وعليهم غزاة أميرهم ، وزحفوا جميعاً إلى لواتة ، فكانت بينهم وقائع وحروب هلك في بعضها علاق ، وأزاحوا عن الجانب الغربي السرسو ، وألجؤهم إلى الجبل الذي في قبة تاهرت ، المسمى لهذا العهد كركيرة ، وكان به قوم من مغراوة فغدروا بهم ، وتظاهروا جميعاً عليهم إلى أن أخرجوهم عن آخر مواطنهم في جهة الشرق بجبل يعود فترلوا من وراء الجبل المسمى لهذا العهد دارك . وانتشرت عاثرها بتلوله وما وراءه إلى الجبال المطلة على متيجة ، وهم لهذا العهد في عداد القبائل الغارمة . وجبل دارك في أقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطاف من ورغة ولواتة أيضاً بطون بالجبل المعروفة بهم قبة قابس وصفاقس ومنهم بنو مكى رؤساء قابس لهذا العهد . ومنهم أيضاً بواحات مصر فيما

(١) وفي نسخة أخرى : حميد بن يصل وفي قبائل المغرب ص ١٢٠ : حميد بن يصلتين .

(٢) وفي نسخة أخرى : بنو وجديجين .

(٣) وفي نسخة أخرى : عنان .

ذكره المسعودي أمة عظيمة بالجزيرة التي بينها وبين مصر . وكان لما قرب من هذا القصور شيخهم هنالك بدر بن سالم ، وانتفض على الترك وسرحوا إليه العساكر فاستلحموا كثيراً من قومه ، وفر إلى ناحية برقة وهو الآن في جوار العرب بها . ومن زناتة هؤلاء أحياء بنواحي تادلا قرب مراکش من الغرب الأقصى ، ولهم هنالك كثرة . ويزعم كثير من الناس أنهم بنواحي جابر من عرب جشم ، واختلطوا بهم وصاروا في عدادهم ، ومنهم أوزاع مفترقون بمصر وقرى الصعيد شاوية وفلاحين ، ومنهم أيضاً بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلوالة ، يتزلون بسيط تآكرات من أعمالها ويعتمرونها ، فداناً لمزارعهم ومسارح لأنعامهم ومشيختهم لهذا العهد في ولد راجح بن صواب منهم ، وعليهم للسلطان جباية مفروضة وبعث مضروب . هؤلاء المعروفون من بطون لوالة ولهم شعوب أخرى كثيرة اندرجوا في البطون وتوزعوا بين القبائل ، والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن بني فاتن من ضريسة إحدى بطون البرابرة البتر وتصاريق أحوالهم) *

وهم بطون مضغرة^(١) ولماية وصدينة وكومية ومدبونة ومغيلة ومطاطة وملزوزة ومكناسة ودونة ، وكلهم من ولد فاتن بن ممصيب بن حريس^(٢) بن زحيك بن مادغيس الأبتري ، ولهم ظهور من البرابر وأخبار ، نسردها بطناً بطناً إلى آخرها . مضغرة : وهم من أوفر هذه الشعوب . وكانوا خصاصين آهلين . وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الإسلام نشبوا في نشر الردة وضروها^(٣) . وكان لهم فيها مقامات . ولما استوسق الإسلام في البربر أجازوا إلى فتح الأندلس وأجازت منهم أمم واستقروا هنالك . ولما سري دين الخارجية أجازوا إلى فتح الأندلس وأجازت منهم أمم واستقروا هنالك . ولما سري دين الخارجية في البربر أخذ مضغرة هؤلاء برأي الصفرية ، وكان شيخهم ميسرة ، ويعرف بالجففر مقدماً فيه .

(١) وفي نسخة أخرى : مطغرة . وقد مرت معنا من قبل وتكتب على الوجهين .

(٢) وفي نسخة أخرى : تمصيت بن ضريس .

(٣) وفي نسخة أخرى : ونوبة الفتح وشؤون الردة وحروبها .

ولما ولى عبيد الله بن الحبحاب على أفريقية من قبل هشام بن عبد الملك ، وأمره أن يمضي إليها من مصر ، فقدمها سنة أربع عشرة ومائة واستعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى وابنه اسمعيل على السوس وما وراءه . واتصل أمر ولائهم وساءت سيرتهم في البربر ونقموا عليهم أحوالهم ، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأردية ^(١) العسلية الألوان ، وأنواع طرف المغرب ، فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحالة . حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه . فكثر عيشتهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم ، وامتنع ذلك ميسرة الحسن ^(٢) زعيم مضغرة الحسن وحمل البرابرة على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجة فقتلوه سنة خمس وعشرين ^(٣) ومائة وولى ميسرة مكانه عبد الأعلى بن خديم ^(٤) الأفريقي الرومي الأصل ، كان من موالي العرب وأهل خارجيتهم ، وكان يرى رأي الصفرية ، فولاه ميسرة على طنجة ، وتقدم إلى السوس فقتله عامله اسمعيل بن عبد الله ، واضطرم المغرب ناراً وانتفض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد .

وزحف بعض الحجاب إليه من القيروان في العساكر على مقدمة خالد بن ابي حبيب الفهري ، فلقيهم ميسرة في جموع البرابرة فهزم المقدمة واستلحمهم ، وقتل خالد . وتسامع البربر بالأندلس بهذا الخبر فثاروا يعاملهم عقبة بن الحجاج السلولي وعزلوه ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهري ، وبلغ الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فسرح كلثوم بن عياض المري في إثني عشر الفا من جنود الشام ، وولاه على أفريقية وأدال به من عبيد الله بن الحبحاب (القسم الثاني المجلد السادس) وزحف كلثوم إلى البرابرة سنة ثلاث وعشرين ومائة حتى انتهت مقدمته الى اسبو من أعمال طنجة فلقيه البرابرة هنالك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤسهم ونادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه .

(١) وفي نسخة أخرى : الأفرية .

(٢) وفي نسخة أخرى : ميسرة الحفيد وقد ذكر من قبل الحفير .

(٣) وفي النسخة التونسية : سنة اثنتين وعشرين .

(٤) وفي نسخة أخرى : عبد الأعلى بن خدع .

وكان كيدهم في لقائهم إياه ، وملؤا الشنان بالحجارة وربطوها بأذنان الخيل تنادي بها فتقعع الحجارة في شنانها ، وسرّبت^(١) بمصاف العساكر من العرب فنفرت خيولهم واختل مصافهم وانجرب عليهم الهزيمة فافترقوا ، وذهب بلج^(٢) مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة كما ذكرناه في أخبارهم . ورجع إلى القيروان أهل مصر وأفريقية ، وظهرت الخوارج في كل جهة ، واقتطع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة ، وقام برياسة مضغرة من بعده يحيى بن حارث منهم ، وكان خلفاً لمحمد بن خزر ومغراوة . ثم كان من بعد ذلك ظهور إدريس بالمغرب ، فقدم بها البرابرة وتولى كبرها أوربة منهم كما ذكرناه . وكان على مضغرة يومئذ شيخهم بهلول بن عبد الواحد ، فانحرف مالك عن إدريس إلى طاعة هرون الرشيد بمدخله إبراهيم بن الأغلب عامل القيروان ، فصالحه إدريس وأنبأه بالسلم .

ثم ركد ربيع مضغرة من بعد ذلك وافترق جمعهم ، وجرت الدول عليهم أذيالها واندرجوا في عمال البربر الغارمين لهذا العهد بتلول المغرب وصحرائه . ففهم ما بين فاس وتلمسان أُم يتصلون بكومية ويدخلون حلفهم ، واندرجوا من لدن الدعوة الموحدية منهم ورياستهم لولد خليفة . كان شيخهم على عهد الموحدين ، وبنى لهم حصناً بمواطنهم على ساحل البحر سمي تاونت . ولما انصرفت دولة بني عبد المؤمن واستولى بنو مرين على المغرب قام هرون بن موسى بن خليفة بدعوة يعقوب بن عبد الحق سلطانهم ، وتغلب على ندرومة ، وزحف إليه يغمراسن بن زيان فاسترجع ندرومة من يده ، وغلبه على تاونت . ثم زحف يعقوب بن عبد الحق إليهم وأخذها من أيديهم وشحنها بالأقوات ، واستعمل هرون ورجع إلى المغرب فحدث هرون نفسه بالاستبداد ، فدعا لنفسه معتصماً بذلك الحصن خمس سنين .

ثم صاهره يغمراسن واستترله على صلح سنة اثنتين وسبعين وستمائة . ولحق هرون بيعقوب بن عبد الحق . ثم أجاز إلى الجهاد بإذنه واستشهد هنالك . وقام بأمر مضغرة من بعده أخوه تاشفين إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعمائة . واتصلت رياستهم على عقبه لهذا العهد . ومن قبائل مضغرة أمة يجبل قبلة فاس معروف بهم . ومنهم أيضاً قبائل كثيرون بنواحي سجلماسة وأكثر أهلها منهم . وربما حدثت بها عصبية من جراهم .

(١) وفي نسخة أخرى : ومّرت .

(٢) هو بلج بن بشر العبسي .

ومن قبائل مضغرة أيضاً بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب ، فمنهم بتوات قبله سجلماسة إلى تمنظيت آخر عملها ، قوم كثيرون موطنون مع غيرهم من أصناف البربر .

ومنهم في قبلة تلمسان وعلى ستة مراحل منها ، وهي قصور متقاربة بعضها من بعض اختلف منها مصر كبير مستبحر بال عمران البدوي ، معدود في آحاد الأمصار بالصحراء ، ضاح من ظلّ الملك والدول لبعده في القفر . ورياسته في بني سيد الملك منهم . وفي شرقها وعلى مراحل منها قرى أخرى متتابعة على سمتها متصاعدة قليلاً إلى الجوف ، آخرها على مرحلة من قبلة جبل راشد . وهي في مجالات بني عامر من زغبة وأوطانهم من القفر ، وقد تملكوها لحظ أبنائهم^(١) وقضاء حاجاتهم حتى نسبت إليهم في الشهرة . وفي جهة الشرق على هذه القصور وعلى خمس مراحل منها دامعة متوغلة في القفر تعرف بقلية . الآن يعتمرها رهط من مضغرة هؤلاء . وينتهي إليها طواعن عن المثلثين من أهل الصحراء بعض السنين اذا لفحهم الهجير ، يستبدون في تلوها لتوغلها في ناحيتهم . ومن مضغرة هؤلاء أوزاع في أعمال المغرب الأوسط وأفريقية ولله الخلق جميعاً .

* (لماية) * وهم بطون^(٢) كما ذكرناه أخوه مضغرة ، ولهم بطون كثير عدّ منها سابق وأصحابه بنو زكر مار^(٣) ومزينة ومليزة بنو مدنيين^(٤) كلهم من لماية . وكانوا طواعن بأفريقية والمغرب ، وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط موطنين بسحومة مما يلي الصحراء . ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذوا برأي الاباضية ودانوا به وانتحلوه وانتحله جيرانهم من مواطنهم تلك من لواتة وهوارة . وكانوا بأرض السرسو قبله منداس وزواغة وكانوا في ناحية الغرب عنهم . وكانت مطاطة ومكناسة وزناتة جميعاً في ناحية الجوف والشرق ، فكانوا جميعاً على دين الخارجية ، وعلى رأي الاباضية منهم . وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح ، وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية ، وقدم إلى أفريقية مع طوابع الفتح فكان بها . وأخذ بدين الخارجية

(١) وفي نسخة أخرى : لحظ أنقاهم .

(٢) بياض بالأصل وفي النسخة التونسية : بطون فاتن بن تمزيت . وفي نسخة أخرى : تمصيت .

(٣) وفي نسخة أخرى : بنو زكوفات .

(٤) وفي النسخة الباريسية : بنو مديين .

والاباضية منهم . وكان صنيعة للمنة وحليفاً لهم ^(١) .

ولما تحزب الاباضية بناحية طرابلس منكرين على ورفجومة فعلهم في القيروان كما مر ، واجتمعوا إلى ابن الخطاب عبد الأعلى بن السمح المغافري إمام الاباضية فلكوا طرابلس ، ثم ملكوا القيروان ، وقتل واليها من ورفجومة عبد الملك بن أبي الجعد ، وأنحنوا في ورفجومة وسائر مغراوة ^(٢) سنة إحدى وأربعين ومائة ورجع أبو الخطاب والاباضية الذين معه من زناته وهوارة وغيرهم بعد ان استخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم . وبلغ الخبر بفتنة ورفجومة هذه واضطراب الخوارج من البربر بأفريقية والمغرب وتسلفهم على الكرسي للإمارة بالقيروان إلى المنصور أبي جعفر فسر محمد بن الأشعث الخزاعي في العساكر إلى أفريقية ، وقلده حرب الخوارج بها ، فقدمها سنة أربع وأربعين ومائة ولقيهم أبو الخطاب في جموعه قريباً من طرابلس فأوقع به ابن الأشعث وبقومه . وقتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان إمارته في القيروان ، فاحتمل أهله وولده ولحق باباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم ، ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم ، فاجتمعوا إليه وبايعوا له بالخلافة . واثتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي لإمارتهم ، فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلول مننداس ، واختطوها على وادي میناس النابعة منه عيون بالقبلة ، وقر بها وبالبطحاء إلى أن تصب في وادي شلف . فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن ، وولي ابنه عبد الوهاب من بعده ، وكان رأس الاباضية .

وزحف سنة ست وسبعين ومائة مع هوارة إلى طرابلس وبها عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من قبل أبيه فحاصره في جموع الاباضية من البربر إلى أن هلك إبراهيم بن الأغلب واستقدم عبد الله بن الأغلب لإمارته بالقيروان ، فصالح عبد الوهاب على أن تكون الصباحية لهم وانصرف إلى مقوسة ولحق عبد الله بالقيروان ، وولى عبد الوهاب ابنه ميموناً ، وكان رأس الاباضية والصفريّة والواصلية . وانصرف إلى مقوسة والصفريّة والواصلية . وكان يسلم عليه بالخلافة ، وكان أتباعه من الواصلية وحدهم

(١) وفي نسخة أخرى : وكان شيعة لليمنية وحليفاً لهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : نفزاوة .

ثلاثين ألفاً طواعن ساكنين بالخيام . ولم يزل الملك في بني رستم هؤلاء بتاهرت وحازتهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان . وأخذت بها زناة من لدن ثلاث وسبعين ومائة فامتنعوا عليهم سائر أيامهم ، إلى أن كان استيلاء ابي عبد الله الشيعي على أفريقية والمغرب سنة ست وسبعين ومائة فغلبهم على مدينة تاهرت وأبترهم ملكهم بها .

وبث دعوة عبدالله في أقطار المغربين ، فانقرض أمرهم بظهور هذه الدولة وعهد عروبة بن يوسف الكتامي فاتح المغرب للشيعة على تاهرت لأبي حميد دؤاس بن صولان الهيصي فغدا إلى المغرب سنة ثمان وتسعين ومائة فأعفى في مؤامرتها الاباضية من لماية وازداجة ولوالة ومكناسة ومطاطة ، وحملهم على دين الرافضة وشيخ^(١) بها دين الخارجية حتى استحكم في عقائدهم . ثم وليها أيام اسمعيل المنصور ابن صلاص بن حبوس^(٢) . ثم نزع إلى دعوة الأموية وراء البحر ، ولحق بالخير بن محمد بن خزر صاحب دعوتهم في زناة . واستعمل المنصور بعده على تاهرت ميسوراً الحصني^(٣) مولاه وأحمد بن الزجالي من صنائعه ، فزحف إليها حميد والخير وانهمز ميسور . واقتحموا تاهرت عنده وتعصبوا على أحمد الزجالي وميسور إلى أن أطلقوها بعد حين .

ولم تزل تاهرت هذه بعد لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم ، وتغلب عليها زناة مراراً ونازلها عسكر بني أمية راجعة في أثر زيري بن عطية أمير المغرب من مغراوة أيام أجاز المظفر بن أبي عامر من العدو إلى حربه . ولم يزل الشأن هذا إلى أن انقرض أمر تلك الدول ، وصار أمر المغرب إلى المتونة . ثم صار إلى دولة الموحدين من بعدهم ، وملكوا المغربين . وخرج عليهم بنو غانية بناحية قابس ، ولم يزل يحيى منهم جلب على ثغور الموحدين وشن الغارات على بسائط أفريقية والمغرب الأوسط . وتكرر دخوله إليها عنوة مرة بعد أخرى إلى أن احتمل سكانها وخلا جوها وعفا رسمها لما يناهز عشرون من المائة السابعة ، والأرض لله .

(وأما قبائل لماية) فانقرضوا وهلكوا بهلاك مصرهم الذي اختطوه وحازوه وملكوه سنة

(١) وفي نسخة أخرى : فسح .

(٢) وفي نسخة أخرى : اسمعيل المنصور بصلاص بن حبوس .

(٣) وفي نسخة أخرى : الخصمي .

الله في عباده . وبقيت فرق منهم أوزاعا في القبائل ، ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس ، وهم بها لهذا العهد . وقد كان النصرانية من أهل صقلية ملكوها على من بها من المسلمين ، وهي قبائل لماية وكتامة مثل : جربة وسدويكس ووضعوا عليهم الجزيرة وشيدوا على ساحل البحر بها معقلاً كافياً لإمارتهم سموه القشتيل . وطال تمرس العساكر به من حضرة الدولة الحفصية بتونس حتى كان افتتاحها أعوام ثمان وثلاثين من المائة الثامنة في دولة مولانا السلطان أبي بكر ، وعلى يد مخلوف بن الكماد من صنائعه . واستقرت بها الدعوة الإسلامية إلى هذا العهد . إلا أن القبائل الذين بها من البربر لم يزالوا يدينون لدين الخارجية ويتدارسون مذاهبهم مجلدات تشتمل على تأليف لأئمتهم في قواعد ديانتهم وأصول عقائدهم وفروع مذاهبهم يتناقلونها ويعكفون على دراستها وقراءتها والله خلقكم وما تعملون .

(مطاطة) وهم إخوة مضغرة ولماية من ولد فاتن بن تمصيت الذين مر ذكرهم ، وهم شعوب كثيرة . وعن سابق المطاطي وأصحابه من النسابة أن اسم مطاط مصكاب ، ومطاط لقب له وأن شعوبهم من لوا بن مطاط وأنه كان له ولد آخر اسمه ورنشيط ، ولم يذكروا له عقباً قالوا : وكان للوا أربعة من الولد : ورماس ومبلاغر ووريكول ويليص^(١) . ولم يعقب يليص وأعقب الثلاثة الباقيون ، ومنهم افترقت شعوب مطاطة كلها ، فأما ورماس فنه مصمود ويونس ويفرين ، وأما وريكول فكان له من الولد كلدام وسيده وقيدر^(٢) ولم يعقب سيده ولا قيدر وكان لكلدام عصفرافس وسليايان فن سليايان وريغني ووصدى وقسطايان وعمر و يقال لهؤلاء الخمسة بنو و صطلودة سموهم . وكان لعصفرافس زهاص ونهراص^(٣) فن عصفرافس ورهل وحامد وسكوم^(٤) ، ويقال لهم بنو تليكشان^(٥) سموهم بأهمهم وكان من زهاص بليست وبصلاتين فن بليست ورسقلاسن وسكر ومحمد ومكريل ودكوال^(٦) . ومن يوصلانسان بان يولى وسمساسن ومسامر وملوسن ويحمد ونافع وعبدالله

(١) وفي نسخة أخرى : ورماسن ويلاغف ووريكول ويليصن .

(٢) وفي نسخة أخرى : كلثام ومسيده وفيدن .

(٣) وفي نسخة أخرى : وكان لعصفرافس يرهاص ويصراصن .

(٤) وفي نسخة أخرى : فن يصاصن ورنجين ووريكول وجليدا وسكوم .

(٥) وفي نسخة أخرى : تليفكتان .

(٦) وفي نسخة أخرى : وكان ليرواص بليث ويصلانسان ، فن بليث ورسقلاسن وسكن ومحمد ومكديل

ودكوال .

وعردابين^(١) وأما يلاغف بن لوا بن مطاط فكان له من الولد دحيا وثانية فن ثابنة
ما حرسكن وريغ وعجلان ومقام وقره^(٢) . وكان لدحيا ورتجي ومحدیل . فن ورتجي
مغرين وبور ورسكهم ومجيس . ومن محدیل ما كور وأشكول وكفلان ومذكور
وفطارة وأبورة^(٣) . هذه شعوب مطاطة كما ذكر نسابة البربر سابق وأصحابه ، وهم
مفروقون في المواطن ، فمنهم من نواحي فاس من قبلتها في جبل هنالك معروف بهم ما
بين فاس وصفروى ، ومنهم بجهات قابس والبلد المختط على العين الحامية من جهة
غربها ، منسوب إليهم . ولهذا العهد يقال حمة مطاطة ، ويأتي ذكرها في الدولة
الحفصية وممالك أفريقية وبقاياهم أوزاع من القبائل ، وكانت مواطن جمهورهم
بتلول منداس عند جبل وانشرس وجبل كزول من نواحي تاهرت . وكان لهم بتلك
المواطن عزم بدولة صنهاجة واستفحال وصوله . وفي فتنة حماد بن بلكين مع باديس
المنصور مقامات وآثار . وكان كبيرهم يومئذ عزانة ، وكانت له مع البرابرة المجاورين له
من لواتة وغيرهم حروب وأيام .

(ولما هلك) عزانة قام بأمره في مطاطة ابنه زيري فكث فيهم أياماً . ثم غلبت
صنهاجة على أمره فأجاز البحر إلى العدو ، ونزل على المنصور بن أبي عامر فاصطنعه
ونظمه في طبقة الأمراء من البربر الذين كانوا في جملته ، واستظهره على أمره فكان
من أوجه رجالهم عنده ، وأعظمهم قدراً لديه ، إلى أن هلك ، وأجراه ابنه المظفر
من بعده وأخوه عبد الرحمن الناصر على سنن أبيهما في ترفيع مكانه وإخلاص
ولايته ، وكان عند ثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار غائباً مع أبي عامر في أعراب
النعمان مع من كان معه من أمراء البربر وعرفائهم . فلما رأوا انتقاض أمره وسوء تدبيره
لحقوا بمحمد بن هشام المهدي فكانوا معه إلى أن كانت الفتنة البربرية بالأندلس إلى
أن هلك هنالك . ولا أدري أي السنين كان مهلكه . وأجاز إلى الأندلس أيضاً من
فصالحهم بهلا بهلا من أبي لواي يصلاص^(٤) ونزل على الناصر ، وهو من أهل العلم

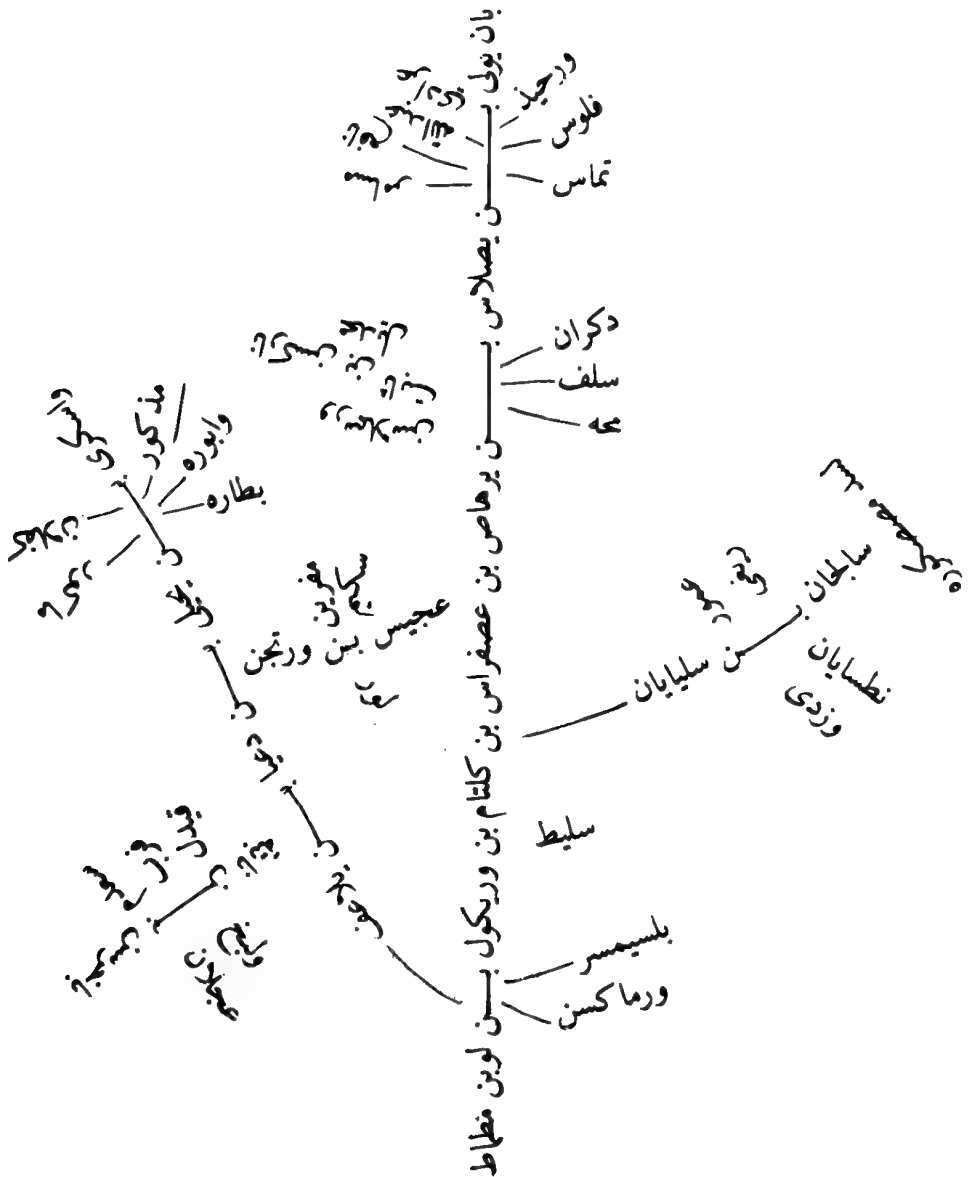
(١) وفي نسخة أخرى : ومن يصلاسن : فان يولين وبناسن وماركسن ومسافر وفلوسن وريجيد ونافع وعبدالله
وغرزي .

(٢) وفي نسخة أخرى : وكان له من الولد دحيا وثابنة فن ثابنة ماجرسن وريغ وعجلان ويغام وقره .

(٣) وفي نسخة أخرى : وكان لدحيا ورتجي ومجلين . فن ورتجي ومقرين وثور وسكهم وعمجيس . ومن مجلين
ماكور وأشكول وكيلان ومذكور وفطارة وأبورة .

(٤) وفي نسخة أخرى : وأجاز إلى الأندلس أيضاً من رجالاتهم كهلان بن أبي لوا بن يصلاصن .

بانساب البربر . (وكان من مشاهيرهم) أيضاً النسابة سابق بن سليمان بن حراث بن
مولات بن دوياسر^(١) وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه . (وكان منهم) أيضاً عبدالله
بن إدريس كاتب الخراج لعبيدالله المهدي في آخرين يطول ذكرهم اهـ .



(١) وفي نسخة أخرى : دوفاس .

وهذا ما تلقيناه من أخبار مطاطة (وأما موطن منداس) فزعم بعض الأخباريين من البربر ووقفت على كتابه في ذلك أنه سَمِيَ بِمِنداس بن مغربن أوريج بن لهر بن المساو وهو هواره^(١) وكأنه والله أعلم يشير إلى أداس بن زحيك الذي يقال إنه ربيب هوار كما يأتي في ذكرهم ، إلا أنه اختلط عليه الأمر . وكان لمنداس من الولد شراوة وكتوم وتبكم^(٢) . قال : ولما استفحل أمر مطاطة وكان شيخهم لهذا العهد إهاص ابن عصفر اص فأخرج منداس من الوطن وغلبه على أمره ، واعتمر بنوه موطن منداس ولم يزلوا به اهـ . كلامه ولقيه هؤلاء القوم لهذا العهد يجبل أوتبتيش^(٣) ، لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد قبائل الغارمة . والله وارث الأرض ومن عليها .

* (مغيلة) * وهم إخوة مطاطة ولماية كما قلناه ، وإخوتهم ملزوزة معدودون منهم . وكذلك دونة وكشاة ولهم افتراق في الوطن . وكان منهم جمهوران : أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب شلف في البحر من صوادر ما دونه^(٤) ، المصر لهذا العهد . ومن ساحلهم أجاز عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ونزل بالمتكب فكان منهم أبو قرّة المغيلي الدائن بدين الصُفْرىة من الخوارج ملك أربعين سنة . وكانت بينه وبين أمراء العرب بالقيروان لأول دولة بني العباس حروب ونازل طبنة . وقد قيل إن أبا قرّة هذا من بني مطاطة وهذا عندي صحيح . فلذلك أخرت ذكر أخباره إلى أخبار بني يفرن من زناتة .

(وكان) منهم أيضاً أبو حسان ثار بأفريقية لأوّل الإسلام ، وأبو حاتم يعقوب بن لبيب بن مَرين بن يطوفت من مازور الثائر مع أبي قرّة سنة خمسين ومائة . وتغلّب على القَيْرَوَان فيما ذكر خالد بن خراش وخليفة بن خياط من علمائهم . وذكروا من رؤسائهم أيضاً موسى بن خُلَيْد ومُليح بن عِلْوَان وحسّان بن زروال الداخل مع عبد الرحمن . وكان منهم أيضاً دلول بن حمّاد أميراً في سلطان يعلى بن محمد اليفرني ، وهو الذي اختطّ بلد ايكري على إثني عشر ميلاً من البحر ، وهي لهذا العهد خراب لم

(١) وفي نسخة أخرى : منداس بن مغربن أوريج بن كبوري بن المثنى وهو هوار .

(٢) وفي نسخة أخرى : تَكَم .

(٣) وفي نسخة أخرى : جبل وادشنيش .

(٤) وفي نسخة أخرى : من ضواحي مازونة .

يبقى منها إلا الأطلال ماثلة . ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حي . وكان جمهورهم الآخر بالمغرب الأقصى وهم الذين تولوا مع أوربة وصهينة القيام بدعوة إدريس بن عبد الله لما لحق بالمغرب وأجازته ، وحملوا قبائل البربر على طاعته والدخول في أمره . ولم يزلوا على ذلك إلى أن اضمحلت دولة الأدارسة وبقاياهم لهذا العهد بمواطنهم ما بين فاس وصفرون ومكناسة والله وارث الأرض ومن عليها .

* (مديونة) * وهم من إخوة مغيلة ومطاطة من ولد فاس كما قلناه ، وكانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بني راشد لهذا العهد إلى الجبل المعروف بهم قبلة وجدة ، يتقلبون بطواعينهم في ضواحيه وجهاته . وكان بنو يلومي وبنو يفرن من قبلهم يحاورونهم من ناحية المشرق ، ومكناسة من ناحية المغرب وكومية وولهاصة من جهة الساحل .

(وكان) من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود كان أميراً عليهم ، وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنهم ، وأجاز إلى الأندلس في طوابع الفتح كثير منهم ، فكان لهم هنالك استفحال . وخرج هلال بن أبزياء منهم يشتد به ^(١) على عبد الرحمن الداخل متبعاً شقيماً المكناسي في خروجه . ثم راجع الطاعة فقتله وكتب له على قومه ، فكان بشرق الأندلس ، وشتيمرية . ثم خلفه بها من قومه نابتة بن عامر . ولما تغلب بنو توجين وبنو راشد من زناتة على ضواحي المغرب الأوسط وكان مديونة هؤلاء قد قلّ عددهم وفلّ حدهم فداخلتهم زناتة على الضواحي من مواطنهم وتملكوها ، وصارت مديونة إلى الحصون من بلاده يجبل ما سأل ^(٢) وجبل وجده المعروف بهم . وضربت عليهم المغارم وتمرس بهم بهم الأيام ، فلم يبق منهم هنالك إلا صباية محترقون بالفلح . ومنهم أيضاً أوزاع في القبائل مندرجون فيهم . وبنواحي فاس ما بينها وبين صفرون قبيلة منهم مجاورة لمغيلة ، والله يرث الأرض ومن عليها .

كومية وهم المعروفون قديماً بصطفورة أخوة مطاية ومضغرة ، وهم من ولد فاتن كما قدمنا ، ولهم ثلاث بطون منها تفرّعت شعوبهم وقبائلهم وهي ندرومة ومغارة ^(٣)

(١) وفي نسخة أخرى : بشتيمرية وتسمى اليوم فارو وتقع في البرتغال وهي عاصمة المقاطعة التي تسمى اليوم الغرب (مجلة البنية / ٣٥) .

(٢) وفي نسخة أخرى : تاسالة ، وهي بلاد جبلية قريبة من الشاطئ قبائل المغرب / ٥٢ .

(٣) وفي نسخة أخرى : صفاره .

وبنو يلول ، فن ندرومة مفوطة وحرسة ومردة ومصانة ومرانة ومن بني يلول مسيقة ورتيوة وهشبة وهيورة ووالغة . ومن مغارة ملتيلة وبنو حباسة^(١) وكان منهم النسابة المشهورماني بن مصدور بن مريس بن نقوط هذا هو المعروف في كتبهم . وكانت مواطن كومية بالمغرب الأوسط لسيف البحر من ناحية أرشكول وتلمسان . وكان لهم كثرة موفورة وشوكة مرهوبة . وصاروا من أعظم قبائل الموحدين لما ظاهروا المصامدة على أمر المهدي وكلمة توحيدده . وربما كانوا رهط عبد المؤمن صاحبه وخليفته ، فإنه كان من بني عابد أحد بيوتاتهم ، وهم عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلي بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمير بن موسى بن عبدالله بن يحيى بن وريغ بن صطفور هكذا نسبه مؤرخو دولة الموحدين إلى صطفور . ثم يقولون صطفور بن نفور بن مطاط بن هودج بن قيس عيلان بن مضر . ويذكر بعضهم أن في خط أبي عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن فأما انتسابهم في قيس عيلان فقد ذكرنا أنه غير صحيح . وفي أسماء هذا العمود من نسب عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع ، إذ هذه الأسماء ليست من أسماء البربر وإنما هي كما تراه كلها عربية والقوم كانوا من البرابرة معروفون بينهم ، وانتساب صطفور إلى مطاط تخليط أيضاً فإنهما أخوان عند نسابة البربر أجمع ، وعبد المؤمن بلا شك منهم ، والله أعلم بما سوى ذلك .

وكان عبد المؤمن هذا من بيوتاتهم وأشرافهم وموطنهم بتاكرارت ، وهو حصن في الجبل المطل على هتين من ناحية الشرق . ولما نجح عبد المؤمن منهم وثب وارتحل في طلب العلم فترل بتلمسان ، وأخذ عن مشيختها مثل ابن صاحب الصلاة وعبد السلام البرنسي^(٢) وكان فقيهاً صالحاً ، وهو ضجيع الشيخ أبي مدين في تربيته . ولما هلك عبد السلام هذا ، ولم يحذق تلميذه بعد في فنونه وكان شيخ عصره في الفقه والكلام . تعطش التلميذ بعده إلى القراءة ، وبلغهم خبر الفقيه محمد بن تومرت المهدي ، ووصل إلى بجاية ، وكان يعرف إذ ذاك بالفقيه السوسي ونسبته إلى السوس .

(١) وفي نسخة أخرى : فن ندرومه نفوطة وحرسة وفردة وهفافة وفراثة ، ومن بني يلول : مسيفة ووثيوة وهيشة وهيورة ووالغة . ومن صغارة ماتيلة وبنو حباسة .

(٢) وفي نسخة أخرى : التونسي .

ولم يكن لقب المهدي وضع عليه بعده .

وكان في ارتحاله من المشرق إلى المغرب قد أخذ نفسه مع تغيير المنكر الذي شأنه وطريقته نشر العلم وتبين الفتاوى وتدريس الفقه والكلام . وكان له في طريقته الأشعرية إمامة وقدم راسخة . وهو الذي أدخلها إلى المغرب كما ذكرناه ، وتشوق طلبة العلم بتلمسان إلى الأخذ عنه وتفاوضوا في ذلك ، وندب بعضهم بعضاً إلى الرحلة إليه لاستجلابه ، وأن يكون له السبق باتحاف القطر بعلومه ، فانتدب لها عبد المؤمن بن عليّ مكانه من صغر السن بنشاطه للسفر لبدأته ، فارتحل إلى بجاية للقاءه وترغيبه في نزوله تلمسان فلقبه بملالة ، وقد استحكمت بينه وبين العزيز النفرة وبنو ورياء كل متعصبون على إجارته منهم ، ومنعه من إذايته والوصول إليه . فألقى إليه عبد المؤمن ما عنده من الترغيب ، وأدّى إليه رسالة طلبة العلم بتلمسان فوعاها ، وشأنه غير شأنهم .

وعكف عبد المؤمن على التعليم والأخذ عنه في ظعنه ومقامه . وارتحل إلى المغرب في صحابته ، وصدق في العلم وأثره الإمام بمزيد الخصوصية والقرب ، بما خصّه الله به من الفهم والوعي للتعليم ، حتى كانه خالصة لإمام وكتر صحابته . وكان يؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك . ولما اجتازوا في طريقهم إلى المغرب بالثعالبية من موطن العرب الذين ذكرناهم قبل في نواحي المدينة ، قُربوا إليه حماراً فارهاً يتخذ له عطية لمركوبه ، فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه : إركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة . ولما بويج له بُهرغة سنة خمس عشرة وخمسمائة ، واتفقت على دعوته كلمة المصامدة وحاربوا لمتونة نازلوا مراکش .

وكانت بينهم في بعض أيام منازلتها حرب شديدة هلك فيها من الموحدين الألف ، فقبل للإمام إن الموحدين قد هلكوا . فقال لهم : ما فعل عبد المؤمن ؟ قالوا هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء . فقال ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد . ولما احتضر الإمام سنة إثنين وعشرين [وخمسمائة] عهد بخلافته في أمره لعبد المؤمن ، واستراب من العصية بين المصامدة فكم موت المهدي وأرجأ أمره حتى صرح الشيخ أبو حفص أمير هنتانة وكبير المصامدة لمصاهرته . وأمضى عهد الإمام فيه فقام بالأمر واستبد بشياخة الموحدين وخلافة المسلمين . ونهض سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى فتح المغرب فدانت له غمارة . ثم ارتحل منها إلى الريف ثم إلى بطوية ، ثم إلى

مطالة^(١) ثم إلى بني يزناسين . ثم إلى مديونة ثم إلى كومية وجيرانهم ولهاصة ، وكانوا يلونهم في الكثرة فاشتدَّ عضده بقومه ، ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحدّين وخلافته . ولما رجع إلى المغرب وافتتح أمصاره واستولى على مراکش استدعى قومه للرحلة إليها والعسكرة عليه بحب جمهورهم إلى المغرب واستوطن مراکش لحمل سرير الخلافة والقيام بأمر الدعوة والذبّ عن ثغورهم والمدافعة ، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر الدولة ، وكانوا بمكانتهم فاتحة الكتاب وتداركه^(٢) الجماعة . وتقدّموا في الفتوح والعساكر وأكلتهم الأقطار في تجهيز الكتائب تدويخ الممالك ، فانقضوا ، وبقي بمواطنهم الأولى بقايا منهم : بنو عابدهم في عداد القبائل الغارقة قد انقلب زمانهم فأهلهم^(٣) فحملوا المغرم ، وألفوا نهوضهم بالتكاليف . ونظموا مع جيرانهم ولهاصة في سوم الخسف والذلّ واقتضاء الخراج بالنكال والعذاب ، والله مبدّل الأمر ومالك الملك سبحانه .

* (الخبر عن زواوة وزواغة من بطون ضرسة

من البرابر البتر والالمام ببعض أحوالهم) *

هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر ، من ولد سمكان بن يحيى بن ضري بن زحيك ابن مادغيس الأبتّر . وأقرب ما يليهم من البرابر زناة لأن أباهم أجانا هو أخو سمكان ابن أبيه فلذلك كانوا ذوي قرى لهم .

* (زواوة) * فأما زواوة فهم من بطونهم ، وقد يقال إن زواوة من قبائل كتامة ، ذكر ذلك ابن حزم ، ونسابة البربر إنما يعدونهم من ولد سمكان كما قلناه ، والصحيح عندي ما ذكره ابن حزم . ويشهد له الموطن ونحلة الشيع مع كتامة لعبدالله . وعدّ نسابة البربر ولهم بطون كثيرة : بنو مجسطة وبنو مليكش وبنو كوفي ومشداله وبنو زريقف وبنو كوزيت وكرسفينية ووزلجة وخوجة وزكلاوه وبنو مرانه ، ويقال إن بني مليكش من صنهاجة والله أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : بطالسة .

(٢) وفي نسخة أخرى : فذلّة .

(٣) وفي نسخة أخرى : قد أثقلت زناة كاهلهم فحملوا المغرم .

ومن قبائلهم المشهور لهذا العهد بنو بحرو وبنو ما بكالات وبنو مترون وبنو ماني وبنو بوگردان وبنو تورغ^(١) ، وبنو بو يوسف ، وبنو عبيسي ، وبنو بو شعيب ، وبنو صدقة ، وبنو غبرين ، وبنو كسطولة . ومواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة أوطنوا عنها جبلاً شاهقة متوغرة تندعر منها الأبصار ويضلّ في غمرها السالك مثل بني غبرين بجبل زيري ، وفيه شعراء من شجر الزان يشهد بها لهذا العهد . ومثل بني فرلوسن وبنو سرا^(٢) ، وجبلهم ما بين بجاية وتدلّس وهو أعظم معاقلهم وأمنع حصونهم ، فلهم به الاعتزاز على الدول والخيار عليها في إعطاء المغرم ، مع أنّ كلهم لهذا العهد قد امتنع لساهمه واعتز على السلطان في أبناء طاعته وقانون مزاجه .

وكانت لهم في دولة صنهاجة مقامات مذكورة في السلم والحرب بما كانوا أولياء لكتامة ، وظهر أولهم على أمرهم من أول الدولة ، وقتل باديس بن المنصور في إحدى وقائعه بهم ، وشيخهم زيري بن أجانا لاتهامه أباه في أمر حمّاد . ثم واختط بنو حمّاد بعد ذلك بجاية وتمرسوا بهم ، فانقادوا وادعنوا لهم إلى آخر الدولة ، واتصل أذعانهم إلى هذا العهد إلا تمرّضاً يحملهم عليه الموثقون بمنعة جباهم . وكانت رئاسة بني يرائن منهم في بني عبد الصمد من بيوتاتهم وكاتب عبد ثعلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط شيخه عليهم من بني عبد الصمد هؤلاء إسمها شمسي ، وكان لها عشرة من الولد فاستفحل شأنها بهم وملكت عليهم أمرهم .

ولما تقبّض السلطان أبو الحسن على ابنه يعقوب المكنى بأبي عبد الرحمن عندما قرّ من معسكره بمتيجة سنة ثمان أو سبع وثلاثين وسرّح في أثره الخيالة فرجّعوه واعتقله . ثم قتله من بعد ذلك حسبا يذكر في أخبارهم . لحق حينئذ بني يرائن هؤلاء خازن من مطبخه فوّه عليهم بإسمه وشبهه بتمثاله ودعا إلى الخروج على ابنه بزعمه فشمرت شمسي هذه عزائمها في إجازته وحملت قومها على طاعته . وسرّب السلطان أبو الحسن أمواله في قومها وهما على السلامة فأبته : ثم نمي إليها الخبر بمكره وتمويهه فنبتت إليه عهده ، وخرج عنها إلى بلاد العرب كما نذكر بعض ذلك في أخبارهم .

(١) وفي نسخة أخرى : بنو بحرو وبنو مانكالات وبنو يترون وبنو ماني وبنو بوغروان وبنو يتورغ .

(٢) وفي نسخة أخرى : فراسن وبني يرائن .

وقدمت على السلطان أبي الحسن في وفد من قومها وبعض بنينا فاستبلغ السلطان من تكرمها ، وأحسن صلتها وأجاز الوفد ورجعت بهم إلى موطنها ، ولم تزل الرياسة في هذا البيت .

* (زواغة) *

وأما زواغة فلم يتأد إلينا من أخبارهم وتصاريق أحوالهم ما نعمل فيه الأقلام . ولهم ثلاثة بطون وهي : دمر بن زواغ وبنو واطيل بن زحيك بن زواغ وبنو ماخر بن تيعون من زواغة . ومن دمر بنو سميكان وهم أوزاع في القبائل . ومنهم بنو احي طرابلس مفترقون في براريها ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر . وفي جهات قسنطينة أيضاً رهط من زواغة ، وكذلك بجبال شلف بنو واطيل منهم وبنو احي فاس آخرون . والله الخلق والأمر .

الخبر عن مكناسة وسائر بطون بني ورمصطف وما كان لمكناسة من الدول بالمغرب وأولية ذلك وتصاريقه

كان لورمصطف بن يحيى ، وهو أخو أجانا بن يحيى وسميكان بن يحيى ثلاثة من البطون ، وهم : مكناسة وورتناجة وأوكتة . ويقال مكنة وبنو ورتناجة أربعة بطون سدرجة ومكنسة وبطالسة وكرنيطة . وزاد سابق وأصحابه في بطونهم هُناطة وفولالة ، وكذلك عدوا في بطون مكنة : بني درطين وبني فولالين وبني يزين وبني جرين وبني بوعال^(١) . ولمكناسة عندهم أيضاً بطون كثيرة منها : صولات وبوخاب وبنو ورفلاس وبنو وردنوس وقيصارة ونبعة وورقطة^(٢) . ويطون ورمصطف كلهم مندرجون في بطون مكناسة ، وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه سجلماسة إلى مصبه في البحر ، وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول . وكانت

(١) وفي نسخة أخرى : بني يصلتن وبني تولالين وبني ترين وبني جرتن وبني فوغال .

(٢) وفي نسخة أخرى : صولات وبنو حوات وبنو ورفلاس وبنو وريدوس وقيصارة وورنيقة ووريفلنة .

رياستهم جميعاً في بني ابايرون^(١) واسمه مجدول بن تاقريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس . وأجاز منهم إلى العدو عضد الفتح أمم . وكانت لهم بالأندلس رياسة وكثرة ، وخرج منهم على عبد الرحمن الداخل شعيا بن عبد الواحد سنة إحدى وخمسين واعتصم بشتيرية ودعا لنفسه منتسباً إلى الحسن بن علي . وتسمّى عبدالله ابن محمد وتلقّب بالفاطمي ، وكانت بينه وبين عبد الرحمن حروب إلى أن غلبه ومما أثر ضلالته . وكان من رجالهم لعهد دولة الشيعة مصاله بن حبّوس بن منازل إتصل بعبيدالله الشيعي ، وكان من أعظم قوّاده وأوليائه ، وولّاه تاهرت وافتتح له المغرب وفاس وسجلماسة .

ولما هلك أقام أخاه يصلتين بن حبّوس مقامه في ولاية تاهرت والمغرب . ثم هلك وأقام ابنه حميداً مقامه فانحرف عن الشيعة ، ودعا لعبد الرحمن الناصر . واجتمع مع بني خزر أمراء جراوة على ولاية المروانية . ثم أجاز إلى الأندلس وولي الولايات أيام الناصر وابنه الحكم ، وولي في بعضها تلمسان بدعوتهم . ثم هلك وأقام ابنه لرصل^(٢) بن حميد وأخوه يباطن بن يصلتين وعلى ابن عمّه من ماله في ظل الدولة الأموية إلى أن أجاز المظفر بن أبي عامر إلى المغرب فولّي يصل بن حميد سجلماسة كما نذكره . ثم أن رياسة مكناسة بالعدوة انقسمت في بني أبي نزول ، وانقسمت مسايل^(٣) مكناسة بانقسامها . وصارت رياسة مكناسة في مواطن سجلماسة وما إليها من بني واسول بن مضلان بن أبي نزول ، ورياسة مكناسة بجهاث تازا وتوسول وملوية ومليلة لبني أبي العافية بن أبي نائل بن أبي الضحّاك بن أبي نزول . ولكل واحد من هذين الفريقين في الإسلام دولة وسلطان صاروا به في عداد الملوك كما نذكره .

* (الخبر عن دولة بني واسول ملوك سجلماسة وأعمالها من مكناسة) *

كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأوّل الإسلام بدين الصُّفْريّة من

(١) وفي نسخة أخرى : ابي يزول .

(٢) وفي نسخة أخرى : نصل وفي النسخة التونسية يصل وفي النسخة الباريسية فضل .

(٣) وفي نسخة أخرى : قبائل .

الخوارج لقنوه عن أمتهم ورؤوسهم من العرب لما لحقوا من المغرب وأسروا على الامتناع وماجت أقطار المغرب لفتنة ميسرة . فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم نقضوا طاعة الخلفاء وولّوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج . واختطفوا مدينة سجلماسة لأربعين ومائة من الهجرة . ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم . ثم سخطوا أميرهم عيسى ونقموا عليه كثيراً من أحواله فشدّوه كتافاً ووضعوه على قنّة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين ومائة واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم سمكوبن واسول بن مضلان^(١) بن أبي نزول . كان أبوه سمقو^(٢) من حملة العلم ، ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس ، ذكره عريب بن حميد في تاريخه ، وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته فبايعوه من بعده .

وقاموا بأمره إلى أن هلك سنة سبع وستين ومائة لمنتهى عشر سنين^(٣) من ولايته . وكان أباضياً صُفْريّاً . وخطب في عمله للمنصور والمهدي من بني العباس . ولما هلك ولّوا عليهم ابنه إلياس ، وكان يدعى بالوزير . ثم انتقضوا عليه سنة أربع وتسعين ومائة فخلعوه وولّوا مكانه أخاه إليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو منصور ، فلم يزل أميراً عليهم ، وبني سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته . وكان أباضياً صُفْريّاً . وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة . وهو الذي أتمّ بناءها وتشبيدها ، واختطّ بها المصانع والقصور ، وانتقل إليها آخر المائة الثانية ، ودوّخ بلاد الصحراء وأخذ الخمس من معادن درعة ، وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مِدْرَار في إبنته أروى فأنكحه إياها .

ولما هلك سنة ثمان ومائتين وَلِيَ بعده ابنه مِدْرَار ولقبه المنتصر ، وطال أمر ولايته . وكان له ولدان إسم كلّ واحد منهما ميمون ، أحدهما لأروى بنت عبد الرحمن بن رستم ، وقيل إن إسمه أيضاً عبد الرحمن . والآخر لبغي^(٤) وتنازع في الاستبداد على

(١) وفي النسخة الباريسية : مصلات بن أبي نزول .

(٢) وفي النسخة الباريسية : ابوسمقو وفي نسخة أخرى أبو سمكوب .

(٣) وفي النسخة التونسية : لاثني عشرة سنة من ولايته .

(٤) وفي نسخة ثانية : لتقي .

أبيه ، ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين . وكانت لأبيهما مدرار صاغية إلى ابن أروى
فال معه حتى غلب أخاه فأخذه وأخرجه عن سجلماسة . ولم يلبث أن خلع أباه
واستبد بأمره ، ثم ساءت سيرته في قومه ومدينته ، فخلعوه وضار إلى درعة وأعادوا
مدراراً إلى أمره . ثم حدث نفسه بإعادة ابنه ميمون ابن الرستمية إلى إمارته بصاغية
إليه فخلعوه ورجعوا ابنه ميموناً بن التقي ، وكان يعرف بالأخير .

ومات مدرار إثر ذلك سنة ثلاث وخمسين ومائتين وخمسة وأربعين من ملكه ، وأقام
إبنه ميمون في استبداده إلى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولي ابنه محمد ،
وكان أباضياً وتوفي سنة سبعين ومائتين فولى إليسع بن المنتصر ، وقام بأمره ولحق
عبيدالله الشيعي وإبنه وأبو القاسم بسجلماسة لعهدده . وأوعد المعتضد إليه في شأنهما ،
وكان على طاعته ، فاستراب بهما وحبسهما إلى أن غلب الشيعي بني الأغلب ، وملك
رقادة ، فرحف إليه لاستخراج عبيدالله وإبنه من محبسه ، وخرج إليه إليسع في قومه
مكناسة فهزمه أبو عبدالله الشيعي ، واقتحم عليه سجلماسة وقتله سنة ست وتسعين
ومائتين واستخرج عبيدالله وإبنه من محبسهما وباع لهما . وولى عبيدالله المهدي على
سجلماسة إبراهيم بن غالب المراسي^(١) من رجالات كتامة ، وانصرف إلى أفريقية .

ثم انتقض أمراء سجلماسة على واليهم إبراهيم فقتلوه ومن كان معه من كتامة سنة ثمان
وتسعين ومائتين وبايعوا الفتح بن ميمون الأمير ابن مدرار ولقبه واسول ، وميمون ليس
هو ابن المتقي^(٢) الذي تقدّم ذكره وكان أباضياً . وهلك قريباً من ولايته لرأس المائة
الثالثة ، فولى أخوه أحمد واستقام أمره إلى أن زحف مُصَالَة بن حبّوس في جموع
كُتّامة ومِكنَاسة إلى المغرب سنة تسع وثلثمائة ، فدوّخ المغرب وأخذهم بدعوة صاحبه
عبيدالله المهدي . وافتتح سجلماسة وتقبّض على صاحبها أحمد بن ميمون بن مدرار
وولى عليها ابن عمّه المعتر بن محمد بن ساور^(٣) بن مدرار ، فلم يلبث أن استبد
وبلغها المعتر ، وهلك سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبيل ملك المهدي ، وولي من بعده
إبنه أبو المنتصر محمد بن المعتر فكث عسراً .

ثم هلك وولي من بعده إبنه المنتصر سمكو شهرين ، وكانت جدّته تدبّر أمره لصغره .

(١) وفي نسخة ثانية : المزاني .

(٢) وفي النسخة التونسية : وميمون أبوه . هو ابن التقي .

(٣) وفي نسخة أخرى : بساور .

ثم ثار عليه ابن عمّه محمد بن الفتح بن ميمون الأمير وتغلّب عليه ، وشغب عليه^(١) بنو عبيد الله لفتنة ابن أبي العافية وتاهرت ، ثم نقلته إلى أبي يزيد بعدهما فدعا محمد ابن الفتح لنفسه ممّوهاً بالدعوة لبني العباس . وأخذ بمذاهب أهل السنة ورفض الخارجية ، ولقّب الشاكر بالله ، واتخذ السكة باسمه ولقبه . وكانت تسمّى الدراهم الشاكرية . كذا ذكره ابن حزم وقال فيه : وكان في غاية العدل حتى إذا فرغ له بنو عبيد وحمى الفتنة^(٢) زحف جوهر الكاتب أيام المعز لدين الله في جموع كتامة وصنهاجة وأولياهم إلى المغرب سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فغلب على سجلماسة وملكها . وقرّ محمد بن الفتح إلى حصن تاسكرات على أميال من سجلماسة وأقام به . ثم دخل سجلماسة متنكراً فعرفه رجل من مضغرة وأنذره ، فتقبّض عليه جوهر ، وقاده أسيراً إلى القيروان مع أحمد بن بكر صاحب فاس كما ذكره ، وقفل إلى القيروان ، فلما انتفض المغرب على الشيعة ، وفشت بدعة الأمية^(٣) وأخذ زناة بطاعة الحكم المتصر ، ثار بسلمجاسة قائم من ولد الشاكر وباهي^(٤) المتصر بالله . ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة فقتله ، وقام بالأمر مكانه . وتلقّب المعتز بالله .

وأقام على ذلك مدّة وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال ، وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم إلى أن زحف حرزون^(٥) بن فلفول من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة وأبرز إليه أبو محمد المعتز فهزمه حرزون وقتله ، واستولى على بلده وذخيرته ، وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح . وكان ذلك لأوّل حجابة المنصور بن أبي عامر ، فنسب إليه واحتسب له لحداً بقبة^(٦) ، وعقد لحرزون على سجلماسة ، فأقام دعوة هشام بأنحائها فكانت أوّل دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى ، وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع

(١) وفي النسخة التونسية : وشغل عنه بنو عبيد الله بفتنة ابن أبي العافية .

(٢) وفي النسخة التونسية : حتى إذا فرغ له بنو عبيد من الفتنة .

(٣) وفي النسخة التونسية : وفشت دعوة الأموية — وهذا أصح — .

(٤) وفي النسخة التونسية : باهي وتلقّب بالمعتز بالله .

(٥) وفي نسخة ثانية : حرزون .

(٦) وفي نسخة ثانية : واحتسب له جدّاً ويمن نقيبة .

وأدال منهم بمغراوة وبني يفرن حسبا يأتي ذكرهم في دولتهم ، والأمر لله وحده وله
البقاء سبحانه وتعالى .

المتنصر < أبو عمر المعتز أخوه جوهر
المتنصر < بن الشاكر
محمد بن الفتح < أخوه مصاله أحمد
الامير ابن البغي
ابن أبي المتنصر محمد بن المعتز محمد بن ساور
قتله عبد الله المهدي
بن أبي القاسم بن سمكو بن واسول بن مصلان بن اماره
الباس
بن تافريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس

* (الخبر عن دولة بني أبي العافية ملوك تسول من مكناسة وأولية أمرهم وتصاريق أحوالهم) *

كان مكناسة الطواغن من أهل موطن ملوثة وكرسيف ومليلة وما إليها من التلول بنواحي تازا وتسول والكل يرجعون في رياستهم إلى بني أبي باسل بن أبي الضحّاك ابن أبي نزول وهم الذين اختطوا بلد كرسيف ورباط تازا ، ولم يزالوا على ذلك من أول الفتح . وكانت رياستهم في المائة الثالثة لمصالة بن حبّوس وموسى بن أبي العافية ابن أبي باسل ، واستفحل أمرهم في أيامه وعظم سلطانهم وتغلّبوا على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكائي ، وكانت بينهم وبين الأدارسة ملوك المغرب لذلك العهد فتن وحروب . وكانوا يقتلونهم على كثير من ضواحيها لما كان نزل بدولتهم من الهرم . ولما استولى عبيد الله على المغرب واستفحل أمره كانوا من أعظم أوليائه وشيعه ، وكان مصالة بن حبّوس من أكبر قوّاده لانحياشه إليه ، وولاه على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط .

ولما زحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة ، واستولى على فاس وعلى سجلماسة وفرغ من شأن المغرب واستقرّ يحيى بن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد الله وأبقاه أميراً على فاس ، عقد حينئذ لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمصاره مضافة إلى عمله من قبل تسول وتازا وكرسيف وقفل مصالة إلى القيروان . وقام موسى بن أبي العافية بأمر المغرب ، وناقضه يحيى بن إدريس صاحب فاس لما يظنّ له من المظاهرة عليه .

فلما عاود مصالة غرق المغرب سنة تسع وثلاثمائة أنزل ابن أبي العافية يحيى بن إدريس ، فقبض عليه واستصفاه وطرده عن عمله فلحق ببني عمّه بالبصرة والريف . وولّى مصالة على فاس ربحان الكُسامي وقفل إلى القيروان فهلك ، وعظم ملك ابن أبي العافية بالمغرب . ثم ثار بفاس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وكان مقداماً شجاعاً ويلقب بالحجام لطعنه في المهاجم دخل فاس على حين غفلة من أهلها ، وقتل ربحان واليها ، واجتمع الناس على بيعته . ثم

خرج لقتاله ابن أبي العافية فتراحفوا بفحص أذاز ماديين تازا وفاس ، ويعرف لهذا العهد بوادي المطاحن ، واشتدت الحرب بينهم ، وهلك منها بن موسى بن أبي العافية في الفتن بمكناسة .

ثم كانت العاقبة لهم وانفضّ عسكر الحسن ورجع مفلولاً إلى فاس ، فغدر به عامله على عدوة القرويين حامد بن حمدان الهمداني واستمكن من عاقله ، واستحثّ ابن أبي العافية للقدوم وأمكنه من البلد ، وزحف إلى عدوة الأندلس فملكها وقتل عاملها عبدالله بن ثعلبة^(١) بن محارب بن محمود ، وولى مكانه أخاه محمداً وطالب حامداً بصاحبه الحسن فدرس إليه حامد بالفرار تجافياً عن دعاء أهل البيت ، وتدلّى الحسن من السور فسقط وانكسر ساقه ومات مستخفياً بعدوة الأندلس لثلاث ليال منها . وحذر حامد من سطوة أبي العافية فلحق بالمهدية واستولى ابن أبي العافية على فاس والمغرب أجمع ، وأجلى الأدارسة عنهم وألجأهم إلى حصنهم بقلعة حجر النسر مما يلي البصرة ، وحاصروهم بها مراراً . ثم جمر عليهم العساكر ، وخلف فيهم قائده أبا الفتح فحاصروهم ونهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلثمائة بعد أن استخلف على المغرب الأقصى ابنه مدين . وأنزله بعدوة القرويين ، واستعمل على عدوة الأندلس طوال بن أبي يزيد ، وعزل به محمد بن ثعلبة . وزحف إلى تلمسان فملكها وغلب عليها صاحب الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان من عقب سليمان بن عبدالله أخي إدريس الأكبر الداخل إلى المغرب بعده ، فغلب موسى ابن أبي العافية الحسن على تلمسان وأزعجه عنها إلى مليلة من جزائر ملوية ورجع إلى فاس . وقد كان الخليفة الناصر لما فشّت دعوته بالمغرب خاطبه بالمقاربة والوعد ، فسارع إلى إجابته ونفض طاعة الشيعة ، وخطب للناصر على منابر عمله ، فشرح إليه عبدالله المهدي قائده ابن أخي مصالة ، وهو حميد بن يصلت^(٢) المكناسي قائد تاهرت ، فزحف في العساكر إلى حرمة سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ولقيه موسى بن أبي العافية بفحص مسون فتراحفوا أياماً ، ثم لقيه حميد فهزمه ولحق ابن أبي العافية بتسول فامتنع بها ، وأفرج قائده أبو الفتح عن حصن الأدارسة فاتبعوه وهزموه ونهبوا معسكره .

(١) وفي النسخة التونسية : ثعبة ولعلها ثعلبة وهـ محرّفة في النسختين .

(٢) وفي نسخة أخرى : يصلتن .

ثم نهض حميد إلى فاس ففرّ عنها أعزل بن موسى إلى ابنه ، واستعمل عليها حامد بن حمدان كان في جملته وقفل حميد إلى أفريقية وقد دوّخ المغرب . ثم انتقض أهل المغرب على الشيعة بعد مهلك عبيد الله ، وثار أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي على حامد بن حمدان فقتله ، وبعث برأسه إلى ابن أبي العافية فأرسله إلى الناصر بقرطبة واستولى على المغرب . وزحف ميسور الخصي قائد أبي القاسم الشيعي إلى المغرب سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وخام ابن أبي العافية عن لقائه ، واعتصم بحصن الكأي ، ونهض ميسور إلى فاس فحاصرها واستترل أحمد بن بكر عاملها . ثم تقبّض عليه وأشخصه إلى المهديّة ، وبدر أهل فاس بغدره فامتنعوا وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي ، وحاصره ميسور مدّة حتى رغبوا إلى السلم ، واشترطوا على أنفسهم الطاعة والأتاوة فتقبّل ميسور ورضي ، وأقرّ حسن بن قاسم على ولايته بفاس وانحل إلى حرب ابن أبي العافية فكانت بينهما حروب إلى أن غلبه ميسور فتقبّض على ابنه الغوري وغرّبه إلى المهديّة . وأجلى موسى بن أبي العافية عن أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء ، وقفل إلى القيروان . ولما مرّ بارشكول خرج إليه صاحبها ملاطفاً له بالتحف ، وهو إدريس بن ابراهيم من ولد سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر ، فتقبّض عليه واصطلم نعمته ، وولى مكانه أبا العيش بن عيسى منهم . وأغذّ السير إلى القيروان سنة أربع وعشرين وثلثمائة ورجع موسى بن أبي العافية من الصحراء إلى أعماله بالمغرب ، فلكها وولّى على الأندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي ، وهو الذي مدّن عدوة الأندلس ، وكانت حصوناً . واحتلّ موسى بن أبي العافية قلعة كوماط ، وخاطب الناصر فبعث إليه مدداً من أسطوله ، وزحف إلى تلمسان ففرّ عنها أبو العيش واعتصم بارشكول فنازله وغلبه عليها سنة خمس وعشرين وثلثمائة ولحق أبو العيش بنكور ، واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه .

ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور فحاصرها مدّة ، ثم تغلب عليها وقتل صاحب عبد البديع بن صالح ، وخرّب مدينتهم . ثم سرح ابنه مدين في العساكر ، فحاصر أبا العبّاس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها . واستفحل أمر ابن أبي العافية في المغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مَغْرَاوَة وصاحب المغرب الأوسط ، وبنوا دعوة الأموية في أعمالها ، وبعث ابنه مدين بأمره في قومه . وعقد له

الناصر على أعمال ابنه بالمغرب واتصلت يده بيده الخير بن محمد كما كان بين آبائهما . ثم فسد بينهما وتزاحفا للحرب ، وبعث الناصر قاضيه مقدر^(١) بن سعد لمشاركة أحوالهما وإصلاح ما بينهما فتمّ ذلك كما أَراده ولحق به سنة خمس وثلاثين وثلثمائة أخوه البوري قاراً من عسكر المنصور مع أحمد بن بكر الجذاميّ عامل فاس بعد أن لحقا بأبي يزيد فسار أحمد بن أبي بكر إلى فاس وأقام بها متنكراً إلى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتي وتخلّى له عن العمل ، وصار البوري إلى أخيه مدين واقتسم أعمال ابنه معه ومع ابنه الآخر منقذ ، فكانوا ثلاث الأثافي . وأثار الثوري إلى الناصر سنة خمس وأربعين وثلثمائة فعقد الناصر لابنه منصور على عمله وكانت وفاته وهو محاصر لأخيه مدين بفاس ، وأجاز أبناه أبو العيش ومنصور إلى الناصر فأجزل لها الكرامة على سنن أبيهما .

ثم هلك مدين فعقد الناصر لأخيه أبي منقذ على عمله سنة^(٢) ثم غلب مغراوة على فاس^(٣) وأعمالها ، واستفحل أمرهم بالمغرب وأزاحوا مكناسة عن ضواحيه وأعماله ، وساروا إلى مواطنهم وأجاز اسمعيل بن الثوري^(٤) ومحمد بن عبدالله بن مرين إلى الأندلس فترلوا بها إلى أن جازوا مع واضح أيام المنصور كما مرّ عندما نقض زيري ابن عطية طاغيته سنة ست وثمانين وثلثمائة ، فلك واضح المغرب ورجعهم إلى أعمالهم . وتغلب بلكين بن زيري على المغرب الأوسط وغلب عليه ملوكه بني خزر من مغراوة فاتصلت يد مكناسة . ولم يزلوا في طاعة بني زيري ومظاهرتهم . وهلك اسمعيل بن الثوري في حروب حمّاد مع باديس بشلف سنة خمس وأربعمائة ، وتوراث ملكهم في أعقاب موسى إلى أن ظهرت دولة المرابطين ، وغلب يوسف بن تاشفين على أعمال المغرب ، فزحف إليهم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن موسى بن أبي العافية ، فاستدعى أهل فاس وصريخ زنّاة بعد مهلك معصرة المغراوي فلقى عساكر المرابطين بوادي صفر^(٥) فهزّمهم وزحف إليه يوسف

(١) وفي نسخة ثانية : منذر .

(٢) بياض بالأصل في جميع النسخ ولم نهد إلى السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) وفي النسخة الباريسية قابس .

(٤) وفي نسخة أخرى : اسمعيل بن البوري .

(٥) وفي النسخة التونسية : صغير .

ابن تاشفين من مكانه فحاصر قلعة فازاز فهزم القاسم بن محمد وجموع مكناسة وزناتة ودخل فاس عنوة كما ذكرناه في أخباره .

ثم زحف إلى أعمال مكناسة فاقتحم الحصن وقتل القاسم . وفي بعض تواريخ المغرب أن مهلك إبراهيم بن موسى كان سنة خمس وأربعمائة . وَوَلِيَ ابنه عبدالله أبو عبد الرحمن ، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة وَوَلِيَ ابنه محمد وهلك سنة ست وأربعين وأربعمائة وَوَلِيَ ابنه القاسم وهلك سول عند اقتحام لتونة عليه سنة ثلاث وستين وأربعمائة وانفضَّ ملك مكناسة من المغرب بانقراض ملك مغراوة ، والأمر لله وحده . وهي من قبائل مكناسة لهذا العهد بهذه المواطن أفاريق في جبال تازا بعدما شرست ^(١) بهم الدول وأناخت بساحتهم الأمم . وهم موصوفون بوفور الجباية وقوة الشكيمة . ولهم عناء في مظاهرة الدولة وحقوق عند الحشد والعسكرة . وفيهم ميدان من الحمالية ^(٢) ، ومن مكناسة غير هؤلاء أو زاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي أفريقية والمغرب الأوسط . « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » وهذا آخر الكلام في بني ورصطيف ، فلنرجع إلى من بقي علينا من البربر وهم زَنَاتَة والله ولي العون وبه المستعان .

(١) وفي نسخة أخرى : تمرست .

(٢) وفي نسخة أخرى : وفيهم مؤن من الخيالة .

بن موسى بن أبي العافية بن أبي بادل بن أبي الضحاك بن أبي يزول بن تافسين بن فراديس بن يثف بن مكناس



القاسم بن محمد بن عبدالله بن ابراهيم

* (أخبار البرانس من البربر ولنبدأ أولاً بالخبر عن هواره من شعوبهم وذكر بطونهم وتصاريق أحوالهم وافتراق شعوبهم في عمالات أفريقية والمغرب) *

وهواره هؤلاء من بطون البرانس باتفاق من نسبته العرب والبربر ولد هوار بن أوريج بن برنس إلا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن . تارة يقولون من عاملة إحدى بطون قضاة وتارة يقولون من ولد المسور بن السكاسك بن وابل^(١) بن حمير . وإذا تحروا الصواب ، المسور بن السكاسك بن أشريس بن كندة وينسبونه هكذا : هوار بن أوريج بن جنون بن المثنى بن المسور . وعند هؤلاء أن هواره وصنهاجة ولطة وكرولة وهسكورة يعرف جميعهم بني ينهل^(٢) وأن المسور جدّهم جميعاً وأنه وقع إلى البتر^(٣) ونزل على بني زحيك بن مادغيس الأبتري . وكانوا أربعة إخوة : لوا وضرا^(٤) وأداس ونفوس . وأنهم زوّجوه أختهم بصكي^(٥) العرجاء بنت زحيك فولدت منه المثنى أبا هواره ، وتزوّجها بعد المسور بن عافيل^(٦) بن زعزاع أبو صنهاجة ولطة وكرولة وهسكورة كما يأتي فيما بعد أنهم إخوة المثنى لأمه ، وبها عرف جميعهم .

قالوا : وولد المثنى بن المسور خبوز وولد خبوز بن المثنى ريغ الذي يقال فيه أوريج بن برنس ، ومنه عرفت قبائل هواره . قالوا : إنما سميت هواره لأن المسور لما جال البلاد ووقع في المغرب قال : لقد تهوّرنا هكذا عند بعض نسبته البربر . وعندني والله أعلم أن هذا الخبر مصنوع وأن أثر الصنعة بادٍ عليه . ويعضد ذلك أن المحققين ونسابتهم مثل سابق وأصحابه قالوا : إن بطون أداس بن زحيك دخلت كلّها في هواره من

(١) وفي نسخة أخرى : وائل .

(٢) وفي النسخة التونسية : تبصكي .

(٣) وفي النسخة التونسية : البربر .

(٤) وفي النسخة التونسية : ضريس وهو تيسكي الصحيح .

(٥) وفي نسخة أخرى : تيسكي .

(٦) وفي نسخة أخرى : عاصيل .

أجل أن هَوار خلف زَحيك على أم أداس ، فربي أداس في حجره وزحيك على ما في الخبر الأول هو جد هَوار ، لأن المثنى جدّه الأعلى هو ابن بصكي وهي بنت زَحيك ، فهو الخامس من زحيك فكيف يخلفه على إمرأته . هذا بعيد . والخبر الثاني أصح عند نسابتهم من الأول .

وأما بطون هَوار فكثر وأكثرهم بنو نبه وأوريغ اشتروا نسبة لشهرته وكبر سنه من بينهم فانتسبوا جميعاً إليه . وكان لأوريغ أربعة من الولد : هَوار وهو أكبرهم ، ومغر وقلدن ومندر^(١) ، ولكل واحد منهم بطون كثيرة وكلّهم ينسبون إلى هَوار . فن بطون مغر مآوس وزَمَور وكياد وسواي^(٢) ذكر هذه البطون الأربعة ابن حزم ، وزاد سابق المطاطي وأصحابه ورجين ومنداسة وكركوده ومن بطون قلدن : خماسة وورصطيف وبيانة^(٣) . وبل ذكر هذه الأربعة ابن حزم وسابق . ومن بطون ملد مليلة وسطط وروفل^(٤) واسيل ومسرارة ذكرها ابن حزم ، وقال : جميعهم بنو لخال بن ملك^(٥) ، وكذا عند سابق . ويقال : إن ورنيفن أيضاً من نهانه^(٦) .

ومن بطون هَوار بنوكهلان . ويقال : إن مليلة من بطونهم . وعند نسابة البربر من بطونهم غريان وورغة وزكاوة ومسلاتة ومحريس . ويقال إن ونيفن منهم . ومحريس لهذا العهد ينتسبون إلى ونيفن وعند سابق وأصحابه أن بني كهلان ورجين إحدى بطون مغر ، وأن من بطون بني كهلان بني كسي ورتاكت ولشوه^(٧) وهيوارة . وأما بطون أداس بن زَحيك بن مادغيس الأمراء الذين دخلوا في هَوار فكثر . فمنهم هراغة وترهوتة وشتانة وأنداوة وهيزونة وأوطيعة وضبرة^(٨) هؤلاء باتفاق من ابن حزم وسابق وأصحابه .

(١) وفي نسخة أخرى : ملد .

(٢) وفي نسخة أخرى : سراي .

(٣) وفي نسخة أخرى : قصانه وورصطيف وبيانة وكذلك في النسخة التونسية .

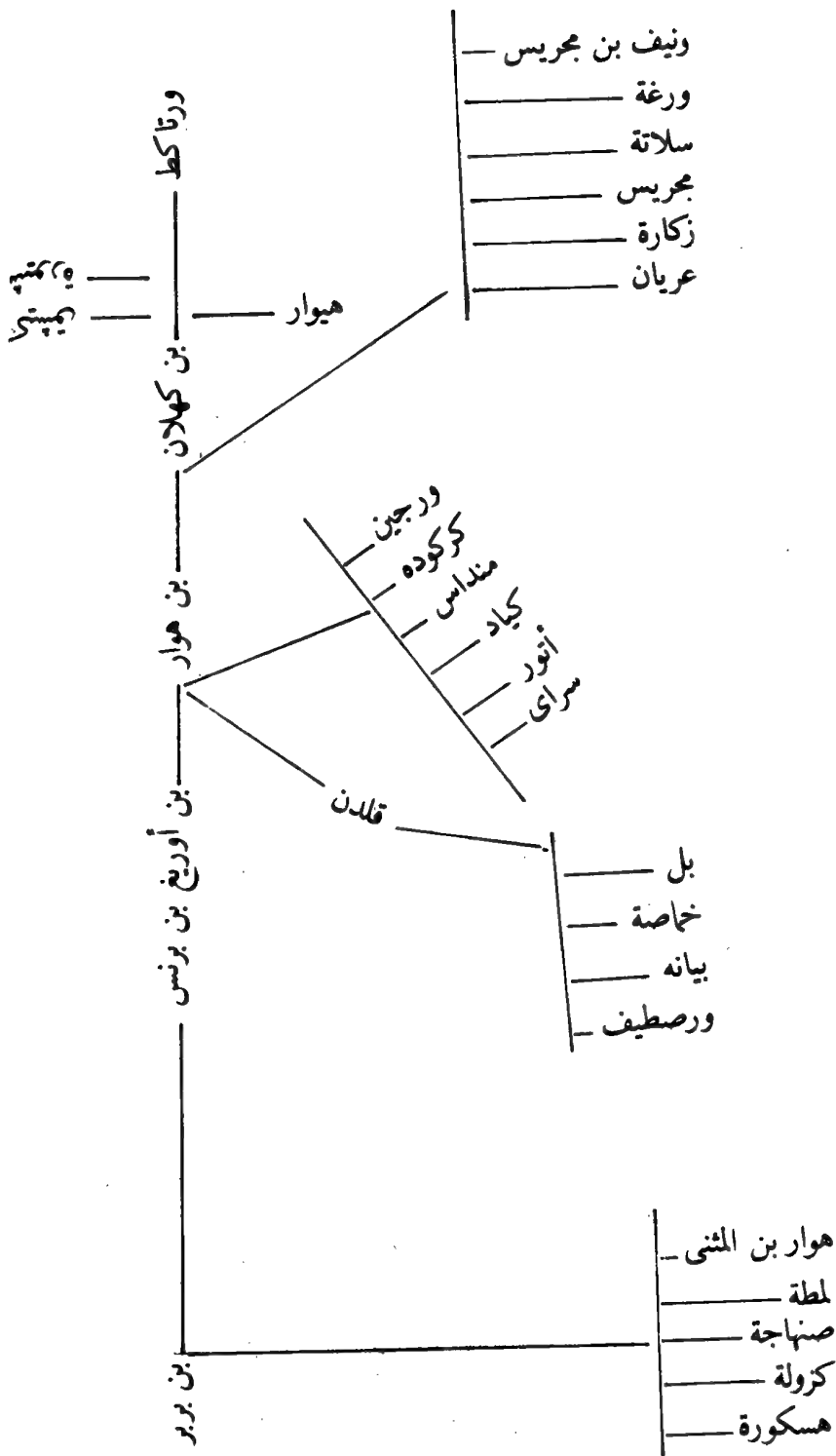
(٤) وفي نسخة أخرى : وورفل .

(٥) وفي نسخة أخرى : لخال بن ملد .

(٦) وفي نسخة أخرى : ويقال : إن ونيفن أيضاً من لخال .

(٧) وفي النسخة البازيسية : مشوه وفي التونسية تيسوة وفي نسخة أخرى شوه .

(٨) وفي نسخة أخرى : فمنهم هراغة وترهوتة وشتانة وأنداوة وهيزونة وأوطيعة وضبرة .



وكانت مواطن الجمهور من هَوّارة هؤلاء ، ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس والصمغري^(١) لأوّل الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة كما ذكره المسعودي والبكري . وكانوا طواعن وآهلين ، ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل المثلثين فيما يلي بلاد كوكو من السودان تجاه أفريقيا ، ويعرفون بنسبهم هكّارة ، قلبت العجمة واوه كافاً أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف . وكان لهم في الرّدّة وحروبها آثار ومقامات . ثم كان لهم في الخارجيّة والقيام بها ذكر ، وخصوصاً بالاباضية منها . وخرج على حظلة منهم عبد الواحد بن يزيد مع عكاشة الفزاريّ فكانت بينهما وبين حظلة حروب شديدة . ثم هزمها وقتلها وذلك سنة أربع وعشرين ومائة أيام هشام بن عبد الملك . وخرج على يزيد بن حاتم سنة ست وخمسين ومائة يحيى بن فوناس منهم ، واجتمع إليه كثير من قومه وغيرهم .

وزحف إليه قائد طرابلس عبدالله بن السمط الكندي على شاطئ البحر بسواريه من سواحلهم ، فانهزم وقتل عامة هَوّارة . وكان منهم مع عبد الرحمن بن حبيب مجاهد ابن مسلم من قوّاده . ثم أجاز منهم إلى الأندلس مع طارق رجالات مذكورون واستقروا هنالك ، وكان من خلفهم بنو عامر بن وهب أمير رندة أيام لمتونة ، وبنو ذي النون الذين ملكوها من أيديهم ، واستضافوا معها طليطلة وبنو رزين أصحاب السهلة . ثم ثارت هَوّارة من بعد ذلك على ابراهيم بن الأغلب سنة ست وتسعين ومائة ، وحاصروا طرابلس وافتتحوها فخرّبوها . وتولى كبر ذلك منهم عياض بن وهب ، وسرح ابراهيم إليهم ابنه أبا العباس فهزمهم وقتلهم وبنى طرابلس .

وجاء هَوّارة بعد الوهاب بن رستم من مكان إمارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة وحاصروا أبا العباس بن الأغلب بطرابلس إلى أن هلك أبوه ابراهيم بالقَيْرَوَان ، وقد عهد إليه فصالحهم على أن يكون الصحراء لهم . وانصرف عبد الوهاب إلى نفوسه . ثم أصبحوا بعد ذلك وغزوا مع الجيوش صقلية ، وشهد فتحها منهم زواوة بن نعم الحلفاء . ثم كان لهم مع أبي يزيد النكاري وفي حروبه مقامات مذكورة ، اجتمعوا إليه من مواطنهم بجبل أوراس ومرماجنه لما غلب عليه ، وأخذ أهلها بدعوته فاغاشوا إلى ولايته وفعلوا الأفاعيل . وكان من أظهرهم في تلك

(١) وفي النسخة التونسية : البئر .

الفتنه بنوكهالان .

ولما هلك أبو يزيد كما ذكره سطا اسمعيل المنصور بهم وأنخن فيهم ، وانقطع ذكر بني كهالان . ثم جرّت الدول عليهم أذيالها وأناخت بكلا كلها ، وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة من كل ناحية ، فمنهم لهذا العهد بمصر أوزاع متفرون أوطنوها أكرة وعبارة وشاوية ، وآخرون موطنون ما بين برقة والاسكندرية يعرفون بالمثانية ^(١) ، ويظعنون مع الحرّة ^(٢) من بطون هيث من سُلَيْم بأرض التلول من أفريقية ما بين تبسة إلى مرماجة إلى باجة ، ظواعن صاروا في عداد الناجعة عرب بني سُلَيْم في اللغة والزّيّ وسكنى الخيام وركوب الخيل ، وكسب الإبل وممارسة الحروب ، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلّوهم . قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب ، فلا يكاد يفرق بينهم . فأولهم مما يلي تبسة قبيلة وينفن ^(٣) ورياستهم لهذا العهد في ولد يفرن بن حناش لأولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد بن يفرن ، ثم لأولاد زيتون بن محمد بن يفرن ، ولأولاد دحمان بن فلان بعده . وكانت الرياسة قبلهم لسارية من بطون وينفن ومواطنهم ببساط مزماحة ^(٤) وتبسة وما إليهما . وبينهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم يعرفون بقيصرون ورياستهم في بيت بني مرم ^(٥) ما بين ولد زعازع وولد حرّكات ومواطنهم بفحص آبه وما إليها من نواحي الأربس . وتليهم إلى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون بنصورة ، ورياستهم في بيت الرّمانة لولد سليمان بن جامع منهم . ويراد بهم في رياسة نصرة ^(٦) قبيلة وربّامة ^(٧) ومواطنهم ما بين تبسة إلى حامة إلى جبل الزنجار إلى أطار على ساحل تونس وبسائطها . ويجاورهم متساحلين إلى ضواحي باجة قبيلة أخرى من هوّارة يعرفون ببني سُلَيْم ، ومعهم بطن من عرب نصر ^(٨) من هذيل بن مدركة بن

(١) وفي نسخة أخرى : المثالية .

(٢) وفي النسخة التونسية : العزه .

(٣) وفي نسخة أخرى : وينقش وفي قبائل المغرب : وينفن ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٤) وفي نسخة أخرى : مرماجة وفي مكان آخر مرماجة .

(٥) وفي نسخة أخرى : مؤمن .

(٦) وفي النسخة التونسية : نصوة .

(٧) وفي النسخة التونسية : وزمانة .

(٨) وفي نسخة أخرى : مُصّر .

إلياس . جاؤا من مواطنهم بالحجاز مع العرب الهلاليين عند دخولهم إلى المغرب ، وأوطنوا بهذه الناحية من أفريقية ، واختلطوا بهوارة وحملوا في عدادهم . ومعهم أيضاً بطن آخر من بطون رِيَّاح^(١) من هلال يتسمون إلى عتبة بن مالك بن رياح صاروا في عدادهم وجروا على مجراهم والظعن والمغرم . ومعهم أيضاً بطن من مرداس بني سليم يعرفون ببني حبيب . ويقولون هو حبيب بن مالك . وهم غارمة مثل سائر هَوَّارة وضواحي أفريقية من هذا العهد معهودة لهؤلاء الطوائع^(٢) ، ومعظمهم من هَوَّارة . وهم أهل بقروشاء وركوب للخيل وللسلطان بأفريقية ، عليهم وظائف من الجباية ، وضعها عليهم دهاقين العمال بديوان الخراج ، قوانين مقررة وتضرب عليهم مع ذلك البعث في غزوات السلطان بعسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك .

ولرؤسائهم آراء ذلك قاطعات ومكان في الدول بين رجالات البدو ، ويربطون هَوَّارة بمواطنهم الأولى من نواحي طرابلس ، طوائع وآهلين ، توزعتهم العرب من دبان^(٣) فيما توزعوه من الرعايا وغلبوهم على أمرهم منذ ضحا عملهم من ظل الدولة ، فتملكوهم تملك العبيد للجباية منهم والاستكثار منهم في الانتجاع والحرب مثل : ترهونه وورقلة ، الطوائع ومحريس الموطَّنين بزر نزور من ونيض وهي قرية من قرى طرابلس ، ومن هَوَّارة هؤلاء بآخر عمل طرابلس مما يلي بلد سرت وبرقة قبيلة يعرفون بمسراته لهم كثرة واعتزار ، ووضائع العرب عليهم قليلة ويعطونها من عزة . وكثيراً ما ينقلون في سبيل التجارة ببلاد مصر والإسكندرية ، وفي بلاد الجريد من أفريقية وبأرض السودان إلى هذا العهد .

(وأعلم) أن في قبلة قابس وطرابلس جبلاً متصلاً بعضها ببعض من المغرب إلى المشرق ، فأولها من جانب الغرب جبل دمر يسكنه أمم من لَوَّاتَة ويتصلون في بسيطة إلى فاس^(٤) وصفاقس من جانب الغرب ، وأمم أخرى من نفوسة من جانب الشرق . وفي طوله سبع مراحل ، ويتصل به شرقاً جبل نفوسة تسكنه أمة كبيرة^(٥)

(١) رباح : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب .

(٢) وفي نسخة أخرى : معمورة بهؤلاء الطوائع .

(٣) وفي نسخة أخرى : دباب .

(٤) وفي النسخة التونسية : قابس .

(٥) وفي النسخة التونسية : أمم كثيرة .

من نفوسة ومغراوة وسدراته ، وهو قبلة طرابلس على ثلاث مراحل عنها . وفي طوله سبع مراحل ، ويتصل به من جانب الشرق جبل مسلاتة ، ويعتمره قبائل هواره إلى بلد مسراتة وبرقة ، وهو آخر جبال طرابلس . وكانت هذه الجبال من مواطن هواره ونفوسة ولواتة . وكانت هنالك مدينة صغيرة بلد نفوسة قبل الفتح . وكانت برقة من مواطن هواره هؤلاء ، ومنهم مكان بني خطّاب ملوك زويلة إحدى أمصار برقة ، كانت قاعدة ملكهم حتى عرفت بهم ، فكان يقال زويلة بن خطّاب . ولما خربت انتقلوا منها إلى فزان من بلاد الصحراء وأوطنوها ، وكان لهم بها ملك ودولة حتى إذا جاء قراقوش الغزي الناصري مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين كما نذكر في مكانه عند ذكر الغوري^(١) بن مسوفة وأخباره ، وافتتح زلة وأوجلة وأفتتح فزان بعدها ، وتقبّض على عاملها محمد بن خطّاب بن يصلتن بن عبدالله بن صنفل بن خطّاب آخر ملوكهم ، وامتنحنه وطالبه بالأموال وبسط عليه العذاب إلى أن هلك ، وانقرض أمر بني خطّاب هؤلاء الهواريين .

(١) وفي نسخة أخرى : الميورقي .

ساری بن سلیم بن عبد الواحد بن عسکر — بن بكرة بن حناسة بن ونيق بن لهاعة بن هوار

بن بكرة بن حناسة بن ونيق بن لهاعة بن هوار

بكرة بن وامون

(ومن قبائل) هَوَّارة هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة في مواطن من أعمال تعرف بهم ، وظواعن شاوية تتجمع لمسرحها في نواحيها ، وقد صاروا عبيداً للمغارم في كل ناحية . وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة ، وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلّة والله مالك الأمور . ومن أشهرهم بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل على البطحاء ، وهو مشهور باسم هَوَّارة وفيه من مسراته وغيرهم من بطونهم ، ويعرف رؤساؤهم من بني إسحق . وكان الجبل من قبلهم فيما زعموا لبني يلومين ، فلما انقرضوا صار إليه هَوَّارة وأوطنوه ، وكانت رياستهم في بني عبد العزيز منهم . ثم ظهر من بني عمّهم رجل اسمه إسحق واستعمله ملوك القلعة ، وصارت رياستهم في عقبه بني إسحق واختطّ كبيرهم محمد بن إسحق القلعة المنسوبة إليهم .

وورث رياسته فيهم أخوه حيّون وصارت في عقبه . واتصلوا بالسلطان أيام ملك بني عبد الواد على المغرب الأوسط ، وانتظموا في شرائعهم ، واستعمل أبو تاشفين من ملوكهم يعقوب بن يوسف بن حيّون قائداً على بني توجين عندما غلبهم على أمرهم ، وفرض المغارم عليهم ، فقام بها أحسن قيام ودوّخ بلادهم ، وأذلّ من عزّهم . وبعد أن غلب بنو مَرّين بني عبد الواد على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن عبد الرحمن بن يعقوب على قبيلة هؤلاء . ثم استعمل بعده عمّه عبد الرحمن ، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن بن يوسف . ثم تلاشى حال هذا القبيل وخفّ ساكن الجبل بما اضطرم بهم ^(١) دولة بني عبد الواد ، وأجحفت بهم في الظلمات . وانقرض بيت بني إسحق ، والأمر على ذلك لهذا العهد ، والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن ازداجة ومسطاسه وعجيسة من بطون البرانس ووصف أحوالهم) *

أما ازداجة ويعرفون أيضاً وزداجة فمن بطون البرانس ، وكثير من نسابة البربر يعدّونهم في بطون زَنّاتة . وقد يقال إن ازداجة من زنّاتة ووزداجة من هَوَّارة ، وأنها بطنان

(١) وفي نسخة أخرى : اضطهدتهم .

مفترقان وكان لهم وفور وكثرة . وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط بناحية وَهْرَان ، وكان لهم اعتزاز وآثار في الفتن والحروب . ومسطاسة مندرجون معهم فيقال إنهم من عداد بطونهم ، ويقال إنهم إخوة مسطاس أخي وزداج والله أعلم .

وكان من رجالتهم المذكورين شجرة بن عبد الكريم المسطاسي وأبو دليم بن خطّاب . وأجاز أبو دليم إلى الأندلس من ساحل تلمسان ، وكان لبنيه بها ذكر وفي فقهاء قرطبة . وكان من بطون ازداجة بنو مشقّق^(١) وكانوا يحاورون وهران ونزل مرس وَهْرَان من رجال الدولة الأموية محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون ، فدخلوا بني مسكن وملكوا وهران سبع سنين مقيمين فيها للدعوة الأموية ، فلما ظهرت دعوة الشيعة وملك عبدالله المهدي تاهرت وولّى عليها دواس بن صولات اللهيصي من كتامة ، وأخذت البرابرة بدعوتهم أوعز دواس بحصار وهران فرجعوا إليها سنة سبع وتسعين وأدخلوا بني مسكن في ذلك فأجابوهم ، وفرّ محمد بن أبي عون فلحق بدواس بن صولات واستبيحت وهران وأضرمت ناراً .

ثم جدّد بناءها دواس وأعاد محمد بن أبي عون إلى ولايتها ، فعادت أحسن ما كانت ، وأمراء تلمسان لذلك العهد من الأدارسة بنو أحمد بن محمد بن سليمان ، وسليمان أخو إدريس الأكبر كما ذكرناه . وكانوا يقيمون دعوة الأموية لذلك العهد . ثم ولي على تاهرت أيام أبي القاسم بن عبدالله أيا ملك يُغمّراس بن أبي سمحة ، وانتفض عليه البربر فحاصروه عند زحف ابن أبي العافية إلى المغرب الأوسط بدعوة المروانية ، وكان ممن أخذ بها محمد بن أبي عون صاحب وهران وسرح أبو القاسم ميسوراً فولاه إلى المغرب وأتاه محمد بن عون بطاعته فقبلها وأقرّه على عمله ، ثم نكث محمد بن عون عند منصرف ميسور من المغرب وراجع طاعته المروانية .

ثم كان شأن أبي يزيد وانتفاض سائر البرابرة على العبيديّين ، واستفحل أمر زنّانة وأخذ بدعوة المروانيّين . وكان الناصر عقد ليعلى بن أبي محمد اليفرنى على المغرب ، فخطبه بمراوغة محمد بن أبي عون وقبائل ازداجة في الطاعة للعداوة وبين القبيلتين بالمجاورة ، وزحف إلى ازداجة فحصرهم بجبل كيدرة ، ثم تغلب عليهم واستأصلهم وفرّق جماعتهم وذلك لسنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، ثم زحف إلى وهران ونازلها ، ثم

(١) وفي نسخة أخرى : مسقن .

افتتحها عنوة وأضرّمها ناراً واستلحم ازداجة ولحق رياستهم بالأندلس فكانوا بها ، وكان منهم خزرون بن محمد من كبار أصحاب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر وأجاز إلى المغرب وبقي ازداجة بعد ذلك على حال من الهزيمة والمذلة وانتظموا في عداد المغارم من القبائل .

(وأما العُجَيْسَة) وهم من بطون البرانس من ولد عُجَيْسَة من بُرْنَس ومدلول هذا الاسم البطن ، فإن البربر يسمّون البطن بلغتهم عدس بالبدال المشددة ، فلما عربتها العرب قلبت دالها جيماً مخففة ، وكان لهم بين البربر كثرة وظهور ، وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة ، وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تونس والجلال المطلّة على المسيلة ، وكانت منهم يسكنون جبل القلعة . وكان لهم في فتنة أبي يزيد أثر . ولما هزمهم المنصور لجأ إليهم واعتصم بقلعة كتامة من حصونهم حتى اقتحم عليه . ثم بادر حمّاد بن بُلْكَيْن من بعد ذلك مكاناً لبناء مدينة فاخّطها بينهم . ونزلها ووسّع خطتها واستبحر عمرانها . وكانت حاضرة ملك آل حمّاد فأخلفت هذه المدينة من جدّة عجيسة لما تمرّست بهم ، وخضدت من شوكتهم وراموا كيد القلعة مراراً ، وأجلبوا على ملوكها بالأعياص منهم فاستلحمهم السيف ، ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورث موطنهم بذلك الجبل عياض من أفاريق العرب الهلاليين وسُجِيّ الجبل بهم ، وفي القبائل بالمغرب كثير من عجيسة هؤلاء مفترقون فيهم والله أعلم .

* (الخبر عن أوربة من بطون البرانس وما كان لهم من

الردّة والثورة وما صار لهم من الدعاء لإدريس الأكبر) *

كانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتركلهم لعهد الفتح أوربة وهوارة وصنهاجة من البرانس ، ونفوسة وزنّانة ومطّرفة ونفّازة من البتر ، وكان التقدّم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عدداً وأشدّ بأساً وقوة ، وهم من ولد أورب بن بُرْنَس ، وهم بطون كثيرة ، فمنهم بجاية ونفاسة ونعجة وزهكوجة ومزّيانة ورغيوثة وديقوسة . وكان أميرهم بين يدي الفتح ستردير بن رومي بن بارزت بن بزريات^(١)

(١) وفي نسخة ثانية : الفتح سكرديد بن زوجي بن بارزت بن بزريات .

ولي عليهم مدّة ثلاث وسبعين سنة ، وأدرك الفتح الإسلامي ومات سنة إحدى وسبعين ، ووليّ عليهم من بعده كسيلة بن لزم^(١) الأوربي فكان أميراً على البرانس كلهم ، ولما نزل ابن المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى في جموعه من أوربة وغيرهم ، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم ، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه .

وقدم عقبة في الولاية الثانية أيام يزيد سنة إثنين وستين فاضطغن عليه صحابته لأبي المهاجر وتقدّم أبو المهاجر في اصطناعه فلم يقبل وزحف إلى المغرب وعلى مقدّمته زهير ابن قيس البلوي فدوّخه . ولقيه ملوك البربر ومن انضم إليه من الفرنجة بالزاب وتاهرت فهزمهم واستباحهم ، وأذعن له بليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه ، ودلّه على عورات البرابرة وردأه بوليلة والسوس وما والاها من مجالات المثلثين فغنم وسبى ، وانتهى إلى ساحل البحر وقفل ظافراً .

وكان في غزاة تلك يستهن كسيلة ويستخفّ به وهو في اعتقاله . وأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه فدفعها إلى غلمانها ، وأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه ، وانتهره فقام إليها كسيلة مغضباً وجعل كلما دسّ يده في الشاة مسح بلمحيته والعرب يقولون ما هذا يا بربري ؟ فيقول : هو أجير^(٢) فيقول لهم شيخ منهم : إن البربري يتوعّدكم . وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهى عقبة عنه ، وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعمد إلى رجل جبّار في قومه بدار عزّه قريب عهد بالشرك فتفسد قلبه وأشار عليه بأن يوثق منه . وخوّفه فتكه فتهاون عقبة بقوله .

فلما قفل عن غزاة وانتهى إلى طبنّة صرف العساكر إلى القيروان أفواجاً ثقة بما دوّخ من البلاد ، وأذلّ من البربر حتى بقي في القليل^(٣) ، وسار إلى تهودة أو بادس ليتزل بها الحامية . فلما نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة بن لزم ودلّوه على الفرصة فيه فأنتهزها ، وراسل بني عمّه ومن تبعهم من البربر ، واتبعوا عقبة وأصحابه رضي الله عنه حتى إذا غشوه بتهودة ترجّل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ، ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه رضي الله عنهم ولم يفلت منهم أحد . وكانوا زهاء ثلثمائة من

(١) وفي النسخة الباريسية : لمزم وفي النسخة التونسية لمزم .

(٢) وفي نسخة ثانية : فيقول : هذا جيد للشعر .

(٣) وفي نسخة ثانية : قليل من الناس .

كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد ، وفهم أبو المهاجر كان أصحابه في اعتقاله ، فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن ، وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عُقْبَةُ وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد . وقد جعل على قبر عُقْبَةَ أسنمة ثم جصّص ، واتخذ عليه مسجد عرف بإسمه وهو في عداد المزارات ومظان البركة ، بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مدّ أحدّهم ولا نصيفه ، وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس^(١) الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي^(٢) ونفر معهم ففداهم ابن مصاد صاحب قَفْصَةٍ . وكان زهير بن قيس البلويّ بالقيروان وبلغه الخبر فخرج هارباً وارتحل بالمسلمين ونزل بَرْقَة وأقام بها ينتظر المدد من الخلفاء . واجتمع إلى كُسَيْلَةَ جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة ، وزحف الى القيروان فخرج العرب منها ولحق زهير بن قيس ولحق بها أصحاب الذراري والأثقال فأمنهم ودخل القيروان وأقام أميراً على أفريقية ومن بقي بها من العرب خمس سنين وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وفتنة الضحّاك بن قيس مع الروانية بمرج راهط وحروب آل الزبير فاضطرب أمر الخلافة بعض الشيء ، واضطرم المغرب ناراً وفشت الرِّدَّة في زناته والبرانس . ثم استقل عبد الملك بن مروان من بعد ذلك وأذهب بالمشرق آثار الفتنة . وكان زهير بن قيس مقيماً ببرقة منذ مهلك عقبة ، فبعث إليه بالمدد وولاه حرب البرابرة والثأربدم عقبة . فزحف إليها في آلاف من العرب سنة سبع وستين . وجمع كُسَيْلَةَ البرانس وسائل البربر ، ولقيه بجيش^(٣) من نواحي القيروان واشتدّ القتال بين الفريقين ، ثم انهزم البربر وقتل كُسَيْلَةَ ومن لا يحصى منهم وأتبعهم العرب إلى مرماجنة ثم إلى ملوية وذلل البربر ولحأوا إلى القلاع والحصون وحدّت شوكة أوربة من بينهم واستقرّ جمهورهم بديار المغرب الأقصى فلم يكن بعدها لهم ذكر . واستولوا على مدينة ويلي بالمغرب كانت ما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زَرَهون وأقاموا على ذلك ، والجيش من القيروان تدوّخ المغرب مرّة بعد أخرى إلى أن خرج محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي أيام المنصور وقتل بالمدينة سنة

(١) وفي نسخة أخرى : أويس ، وعند ابن الأثير أوس (ج ٤ ص ١٠٨) .

(٢) وفي نسخة أخرى : القيسي .

(٣) وفي النسخة التونسية ممس (وممس اسم بلد) وفي الكامل ج ٤ ص ١٠٨ ممس .

خمس وأربعين ومائة . ثم خرج بعده ابن عمّه حسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثني بن حسن السبط أيام الهادي وقتل بفتح على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة ، واستلحم كثير من أهل بيته وقر إدريس بن عبد الله إلى المغرب ونزل على أوربة سنة إثنين وسبعين ومائة وأميرهم يومئذ بولليل إسحق بن محمد بن عبد الحميد منهم فأجاره وجمع البرابر على دعوته . واجتمعت عليه زواغة ولوثة وِسْرَاته وغمات^(١) ونَفْرَة ومكناسة وغمارة وكافة برابرة المغرب ، فبايعوه واثمروا بأمره ، وتم له الملك والسلطان بالمغرب . وكانت له الدولة التي ورثها أعقابه إلى حين انقراضها ، كما ذكرنا في دولة الفاطميين والله تعالى أعلم .

الخبر عن كتامة من بطون البرانس وما كان لهم من العز والظهور على القبائل وكيف تناولوا الملك من أيدي الاغالبة بدعوة الشيعة

هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب وأشدّهم بأساً وقوةً ، وأطولهم باعاً في الملك عند نسابة البربر من ولد كِتَام بن بُرنس ، ويقال : كتم ونسابة العرب يقولون إنهم من حَمِير ذكر ذلك ابن الكلبي والطبري . وأول ملوكهم أفريقش بن قيس بن صيني من ملوك التباغة ، وهو الذي افتتح أفريقية وبه سميت ، وقتل ملكها جرجير ، وسمّى البربر بهذا الإسم كما ذكرناه . يقال أقام في البربر من حَمِير صنهاجة وكتامة فهم إلى اليوم فيهم ، وتشعبوا في المغرب وانثوا في نواحيه إلا أن جمهورهم كانوا لأول الملة بعد تهيج الردّة وطفئت تلك الفتن ، موطنين بأرياف قُسْطَيْنَة إلى تخوم بجاية غرباً إلى جبل أوراس من ناحية القبلة . وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكثرها لهم ، وبين ديارهم ومحالات تقلبهم مثل أبكجان وسُطيف وباغاية ، وبفاس وتلزمه^(٢) ويتكست وميلة وقسطنطينة والسيكرة والقلّ وجنجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة . وكانت بطونهم كثيرة يجمعها كلّها غُرْسُن ويسودة إبننا كتم بن يوسف^(٣) فن يسودة

(١) وفي نسخة أخرى : سدراته وغماته .

(٢) وفي نسخة أخرى : وثقاوس ويلزمة

(٣) وفي نسخة أخرى : برنس .

فالسبد ودنهاجة ومتوسة ورسين^(١) كلهم بنو يسودة بن كتم وإلى دنهاجة ينسب قصور كتامة بالمغرب لهذا العهد . ومن غُرسُنْ مُصَالَة وقلان وما وطن ومعاذ بنو غرسن ابن كتم ، وهيفة^(٢) وجيملة ومسالتة وبنو بناوة بن غرسن ، وملوسة من إيان ولطاية وإجانة وغسمان وأوباست بنو تيطاسن^(٣) بن غرسن وملوسة من إيان غرسن بن غرسن . ومن ملوسة هؤلاء بنو زيدوي^(٤) أهل الجبل المطل على قسنطينة لهذا العهد . وبعد البرابرة من كتامة بنو يستين وهشتية ومصالة وبني قنسية . وعد ابن حزم منهم زواوة بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدّم .

وكان من هذه البطون بالمغرب الأقصى كثير متبذون عن مواطنهم ، وهم بها إلى اليوم . ولم يزالوا بهذه المواطن وعلى هذه الحالة من لدن ظهور الملة وملك المغرب إلى دولة الأغلبة . ولم تكن الدولة تسومهم بهزيمة ولا ينالهم تعسف لاعتزازهم بكثرة جموعهم كما ذكره ابن الرقيق في تاريخه إلى أن كان من قيامهم في دعوة الشيعة ما ذكرناه في دولتهم عند ذكر دولة الفاطميين إثر دولة بني العباس ، فانظره هنالك وتصفحه تجد تفصيله . ولما صار لهم الملك بالمغرب زحفوا إلى المشرق فملكوا الإسكندرية ومصر والشام واختطوا القاهرة أعظم الأمصار بمصر ، وارتحل المغزابع خلفائهم فترها وارتحل معه كتامة على قبائلهم واستفحلت الدولة هنالك وهلكوا في ترفها وبذخها .

وبقي في مواطنهم الأولى بجبل أوراس وجوانبه من البسائط بقايا من قبائلهم على أسمائها وألقابها والآخرين بغير لقبهم وكلهم رعايا معبدون للمغارم إلا من اعتصم بقنة الجبل مثل بني زيدوي بجبلهم وأهل جبال جيجل وزواوة أيضاً في جبالهم . وأما البسائط فأشهر من فيها منهم سدويكش ورياستهم في أولاد سواد^(٥) ولا أدري إلى من يرجعون في قبائل كتامة المسمين بهذه الإسم^(٦) إلا أنهم باتفاق من أهل

(١) وفي نسخة أخرى : فن يسودة : فلاسة ودنهاجة ومتوسة ووريسن .

(٢) وفي نسخة أخرى : لهيصة .

(٣) وفي نسخة أخرى : أوفاس بنو تيطاسن .

(٤) وفي نسخة أخرى : بنو زلدوي .

(٥) وفي نسخة أخرى : سواق .

(٦) وفي نسخة أخرى : في هذا الكتاب .

الأخبار ، ونحن الآن ذاكرون ما عرفناه من أخبارهم المتأخرة بعد دولة كتامة والله تعالى ولي العون .

* (الخبر عن سدويكش ومن اليهم من بقايا كتامة في مواطنهم) *

هذا الحي لهذا العهد وما قبله من العصور يعرفون بسدويكش وديارهم في مواطن كتامة ما بين قُسْطَينَة وبجاية في البسائط منها ، ولهم بطون كثيرة مثل سيلين وطرسون وطرغيان وموليت وبني فتنة ^(١) وبني لمائي وكايارا وبني زغلان والنورة وبني مزوان ووارمسكن وسكوال وبني عيار ^(٢) . وفيهم من لماته ^(٣) ومكالاته ورَيْغَة والرياسة على جميعهم في بطن منهم يعرفون أولاد سواق لهم جمع وقوة وعدد وعدة . وكان جميع هذه البطون وعيالهم غارمة فيمتطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الإبل والبقر ولهم مع الدول في ذلك الوطن استقامة . وهذا شأن القبائل الأعراب من العرب لهذا العهد . وهم ينتفون من نسب كتامة ويفرون منه لما وقع منذ أربعمئة سنة من النكير على كتامة بانتحال الرافضة وعداوة الدول بعدهم ، فيتفادون بالانتساب إليهم . وربما انتسبوا في سُلَيْم من قبائل مُضَر وليس ذلك بصحيح . وإنما هم من بطون كتامة وقد ذكرهم مؤرخو صنهاجة بهذا النسب ويشهد لذلك الموطن الذي استوطنوه من أفريقية .

ويذكر نسباتهم ومؤرخوهم أن موطن أولاد سواق منهم كان في قلاع بني بوخِصْرَة من نواحي قسنطينة ومنه انتقلوا وانتشروا في سائر تلك الجهات . وأولاد سواق بطنان وهم : أولاد علاوة بن سواق وأولاد يوسف بن حمّو بن سواق . فأما أولاد علاوة فكانت الرياسة على قبائل سدويكش لهم فيما سمعناه من مشيختنا ، وأن ذلك كان لعهد دولة الموحّدين وكان منهم علي بن علاوة وبعده ابنه طلحة بن عليّ وبعده أخوه يحيى بن علي وبعده أخوهما منديل بن علي عزل تازير بن أخيه طلحة .

(١) وفي النسخة الباريسية : بني فتنة وفي النسخة التونسية بني فتنة .

(٢) وفي نسخة أخرى : البورة وبني مروان وواركسن وسكرال وبني عياد .

(٣) وفي نسخة أخرى : لماية .

لما يبيع السلطان أبو يحيى بقسنطينة سنة عشر من هذه المائة وقع من تازير انحراف
بن طاعته واعتلوا بطاعة ابن الخلوف بجاية ، فقدم عوضاً منه عمّه منديل . ثم
ستبدل منهم أجمعين بأولاد يوسف ، فشمروا في طاعته وأبلوا ، وغلب السلطان على
جاية وقتل ابن الخلوف فظهر أولاد يوسف وزحموا أولاد علاوة ، وأخرجوهم من
لوطن فصاروا إلى عياض من أفاريق هلال ، وسكنوا في جوارهم بجبلهم الذي
وطنوه المثل على المسيلة . واتصلت الرياسة على سدويكش في أولاد يوسف وهم
لهذا العهد أربع قبائل : بنو محمد بن يوسف وبنو المهدي وبنو إبراهيم بن يوسف
والعزيزيون وهم بنو منديل ، وظافر وجري وسيد الملوك والعبّاس وعيسى ، والستة
أولاد يوسف وهم أشقاء . وأمّهم تاعزيت فنسبوا إليها ، وأولاد محمد والعزيريون
يوطنون بنواحي بجاية وأولاد المهدي وإبراهيم بنواحي قسنطينة .

وما زالت الرياسة في هذه القبائل الأربع تجتمع تارة في بعضهم وتفترق أخرى إلى
هذا العهد ، وكانت الأخرى دولة مولانا السلطان أبي يحيى اجتمعت رياستهم لعبد
الكريم بن منديل بن عيسى من العزيزيين ثم افترت واستقل كل بطن من هؤلاء
الأربعة برياسة ، وأولاد علاوة في خلال هذا كلّ بجبل عياض . ولما تغلب بنو
مرين على أفريقية نكر السلطان أبو عنان أولاد يوسف ورامهم بالميل إلى الموحّدين ،
وصرف الرياسة على سدويكش إلى مهنا من تازير بن طلحة من أولاد علاوة فلم يتم
له ذلك ، وقتله أولاد يوسف . ورجع أولاد علاوة إلى مكانهم من جبل عياض .

وكان رئيسهم لهذه العصور عدوان بن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة ،
وهلك ولم تجتمع رياستهم بعده لأحد . وفي بطون سدويكش هؤلاء بطن مرادف
أولاد سواق في الرياسة على بعض أحيائهم وهم بنو سكين ، ومواطنهم في جوارلواتة
بجبل تابور وما إليه من نواحي بجاية ، ورياستهم في بني موسى بن ثابر منهم .
أدركنا ابنه صخر بن موسى واختصّه السلطان أبو يحيى بالرياسة على قومه ، وكان له
مقامات في خدمته . ثم عرف بعده في الوفاء ابنه الأمير أبو حفص فلم يزل معه إلى أن
وقع به بنو مرين بناحية قابس ، وجيء به مع أسرى الواقعة فقطعه السلطان أبو
الحسن من خلاف ، وهلك بعد ذلك وقام برياسته ابنه عبدالله وكان له فيها وفي
خدمة السلطان بجاية شأن إلى أن هلك لأعوام ثمانين ، وولي ابنه محمد من بعده والله
وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن بني ثابت أهل الجبل المطل على قسنطينة من بقايا
كتامة) *

ومن بطون كتامة وقبائلهم أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسنطينة المعروف برياسة أولاد ثابت بن حسن بن أبي بكر من بني تليلان . ويقال إن أبا بكر هذا الجدل هو الذي فرض المغرم على أهل هذا الجبل لأيام الموحدين ، ولم يكن قبل ذلك عليه مغرم . فلما انقرض ملك صنهاجة وغلب الموحدون على أفريقية وفد أبو بكر هذا على الخليفة بمراكش ونجع بالطاعة والانقياد ، وتقرب إليه بفرض المغرم على قبيلة بالجبل ، وكان لثابت هذا من الولد عليّ وحسن وسلطان وإبراهيم ، كلهم راسوا بالجبل ، وأما حسن منهم فحجب السلطان أبا يحيى لأول دولته وفي عنيته . ولابن عمر لدولة طرابلس أعوام إحدى عشر وسبعمائة كما نذكره . فلما تملك السلطان بجاية وقتل ابن خلوف ورجع ابن عمر من تونس إلى حجابته ، وجد حسن بن ثابت معسكراً بفرحية^(١) لانقضاء مغارم الوطن ، فبعث إليه من قتله . وكان آخرهم رئاسة بالجبل عليّ ، أدرك دولة بني مرّين بأفريقية . وولي بعده ابن عبد الرحمن ووفد على السلطان أبي عنان بفاس . ولما استجد مولانا السلطان أبو العباس دولته بأفريقية استولى عليهم ومحا أثر مشيختهم ورياستهم وصيرهم من عداد جنده وحاشيته . واستعمل في الجبل عمّاله وهو جبل مطاوع^(٢) وجبايته مؤداة لصولته وجواره للعسكر بقسنطينة . ومن بقايا كتامة أيضاً قبائل أخرى بناحية تدلس في هضابة مكثفة بها وهم في عداد القبائل الغارمة ، وبالمغرب الأقصى منهم قبيلة من بني سنس^(٣) بجبل قبله جبل يزنانس ، وقبيلة أخرى بناحية الهبط مجاورون لنصر بن عبد الكريم وقبائل أخرى بناحية مراكش نزلوا مع صنهاجة هنالك ، ونسب كتامة لهذا العهد بين القبائل المثل السائر في الدولة^(٤) لما نكرتهم الدول من بعدهم أربعمائة سنة بانتحالهم الرافضة

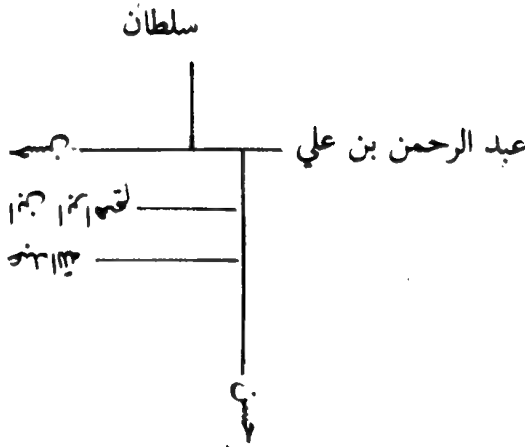
(١) وفي نسخة أخرى : فرجوة .

(٢) وفي النسخة الباريسية يطوايع وفي النسخة التونسية مطاوع .

(٣) وفي نسخة أخرى : يستين .

(٤) وفي النسخة التونسية : الدلة .

ومذاهبها الكفرية ، حتى صار كبيرهم من أهل نسبهم يفرون منه ، ويتسبون فيمن سواهم من القبائل فراراً من هجته والعزة لله وحده .



* (الامام بذكر زواوة من بطون كتامة) *

هذا البطن من أكبر بطون البربر ومواطنهم كما تراه محتفة ببجاية إلى تدلس في جبال شاهقة وأوعار متسمة ، ولهم بطون وشعوب كثيرة ، ومواطنهم متصلة بمواطن كتامة هؤلاء ، وأكثر الناس جاهلون بنسبهم . وعامة نسابة البربر على أنهم من بني سميكان يحيى بن ضريس ، وأنهم إخوة زواغة المحققون من النسابة مثل ابن حزم وأنظاره إننا يعدونهم في بطون كتامة وهو الأصوب . والمواطن أوضح دليل عليه وإلا فأين مواطن زواغة ؟ وهي طرابلس بالمغرب الأقصى من مواطن كتامة . وإنما حمل على الغلط في نسبهم إلى كتامة تصحيف اسم زوازه بالزاي بعد الواو وهم إخوة زواغة بلا شك ، فصحّف هذا القاريء الزاي بالواو فعد زواوة إخوان زواغة . ثم استمر التصحيف جمعاً في نسب سميكان والله أعلم ، وقد مرّ ذكرهم هنالك مع ذكر زواغة وتعدد بطونهم .

الخبر عن صنهاجة من بطون البرانس وما كان لهم من الظهور والدول في بلاد المغرب والاندلس

هذا القبيل من أوفر قبائل البربر ، وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده ^(١) لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أم البربر . وكان لهم في الرّدة ذكر وفي الخروج على الأمراء شأن تقدّم منه في صدر ذكر البرابر ، ونذكر منه هنا ما تيسّر . وأما ذكر نسبهم فإنهم من ولد صنهاج وهو صناك ^(٢) بالصّاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم . إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج ، وهو عند نسابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن برّ ، وذكر ابن الكلبي والطبري أنهم وكتامة جميعاً من حمير كما تقدّم في كتامة ، وفيما نقل الطبري في تاريخه أنهم صنهاج بن بر بن صوكان بن منصور ^(٣) بن الفند بن أفريقش بن قيس ، وبعض النسابة يزعم أنه صنهاج بن المثنى بن المنصور بن مصباح بن يحصب بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر بن سبأ ، كذا نقل ابن النحوي من مؤرخي دولتهم وجعله ليحصب . وقد مرّ ذكره في أنساب حمير وليس كما ذكر والله أعلم . وأما المحققون من نسابة البربر فيقولون هو صنهاج بن عاميل ^(٤) بن زعزاع بن قيمتا بن سدّور بن مولان بن مصلين بن يبرين ^(٥) بن مكسيلة بن دقيوس ^(٦) بن حلحال بن شرو بن مصرام بن حام . ويزعمون أن جزول واللمط وهسكور إخوة صنهاج ، وأن أمهم الأربعة بصكي ^(٧) وبها يعرفون وهي بنت زحيك بن مادغيس ، ويقال لها العرجاء فهذه القبائل الأربعة من القبائل أخوة لأم والله أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : وما قبله .

(٢) وفي النسخة التونسية : صرهاك .

(٣) وفي نسخة أخرى : صنهاج بن يصوكان بن مسور .

(٤) وفي النسخة التونسية : عاصيل وفي قبائل المغرب عاميل ص ٣٢٨ .

(٥) وفي النسخة التونسية : مصلتن بن سر . وفي النسخة الباريية : مصلتن بن تب . وفي نسخة أخرى

يصلين بن شر . وفي قبائل المغرب : يصلين بن يبرين .

(٦) وفي نسخة أخرى : دهْيوس . وكذا في قبائل المغرب .

(٧) وفي نسخة أخرى : نصكي وقد مرّت معنا من قبل وفي قبائل المغرب نصكي/ ٣٢٩ .

وأما بطون صنهاجة فكثيرة ففهم بلكانة^(١) وأنجفة وشرطة وملتونة ومسوقة وكدالة ومندلسة وبنو وارت وبنو يتين^(٢) . ومن بطون أنجفة بنو مزوات وبنو تليل وفشتالة وملوافة^(٣) . هكذا يكاد نقل بعض نسابة البربر في كتبهم وذكر آخرون من مؤرخي البربر أن بطونهم تنتهي إلى سبعين بطناً . وذكر ابن الكلبي والطبري أن بلادهم بالصحراء مسيرة ستة أشهر . وكان أعظم قبائل صنهاجة بلكانة وفيهم كان الملك الأول . وكانت مواطنهم ما بين المغرب الأوسط وأفريقية ، وهم أهل مدر . ومواطن مسوقة وملتونة وكدالة وشرطة بالصحراء ، وهم أهل وير .

وأما أنجفة فبطونهم مفترقة وهم أكثر بطون صنهاجة . ولصنهاجة ولاية لعلي بن أبي طالب ، كما أن لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنها ، إلا أننا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها . وكان من مشاهيرهم في الدولة الإسلامية ثابت بن زريعون ثار بأفريقية أيام السفاح عند انقراض الأموية ، وعبدالله بن سكرديرلك ، وعبداد بن صادق من قواد حماد بن بُلْكَيْن وسليمان بن مطعمان بن غيلان^(٤) أيام باديس بن بُلْكَيْن . وبنو حمدون وورا بني حماد^(٥) ، وهو حمدون بن سليمان بن محمد بن علي بن علم ، منهم ميمون بن جبل^(٦) ابن أخت طارق مولى عثمان بن عفان صاحب فتح الأندلس في آخرين يطول ذكرهم . وكان الملك في صنهاجة في طبقتين الطبقة الأولى للملكانة ملوك أفريقية والأندلس ، والثانية مسوقة وملتونة من المُلَّثَمِينَ ملوك المغرب المسمون بالمرابطين . ويأتي ذكرهم كلهم إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الطبقة الاولى من صنهاجة وما كان لهم من الملك) *

كان أهل هذه الطبقة بنو ملكان^(٧) بن كرت ، وكانت مواطنهم بالمسيلة إلى حمرة إلى

(١) وفي النسخة التونسية : تلكانة . وكذلك في قبائل المغرب ص ٣٣٠ .

(٢) وفي نسخة أخرى : مندلة وبنو وارت وبنو يتيسن .

(٣) وفي نسخة أخرى : ومن بطون أنجفة بنو مزورات وبنو سليل وفشتالة وملوافة .

(٤) وفي نسخة أخرى : سليمان بن بطعمان بن غيلان .

(٥) وفي نسخة أخرى : وبنو جدون وزاريني حماد .

(٦) وفي نسخة أخرى : جميل .

(٧) وفي النسخة التونسية : تلكات .

الجزائر ولمدية وملينانة من مواطن بني يزيد وحَصِين والعِطَاف من زغبة ، ومواطن الثعالب لهذا العهد . وكان معهم بطون كثيرة من صنهاجة أعقابهم هنالك من مِتَّان وأنوغة وبنو مُرْغَنَّة وبنو جُعد وملكانة وبطوية وبنو يَرْقُن وبنو خليل ، وبعض أعقاب ملكانة بجهات بجاية ونواحيها . وكان التقدّم منهم جميعاً لملكانة وكان أكثرهم لعهد الأغالبة مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر ، وهو صناك بن واسفاق بن جريل^(١) بن يزيد بن واسلي بن سميل بن جعفر بن إلياس بن عثمان بن سكاك بن ملكان بن كرت بن صنهاج الأكبر هكذا نسب ابن النحوي ، من مؤرخي الأندلس ، وذكر بعض مؤرخي المغرب أن مناد بن منقوش ملك جانبي^(٢) أفريقية والمغرب الأوسط مقيماً لدعوة ابن العباس ، وراجعاً إلى أمر الأغالبة .

وأقام أمره من بعده ابنه زيري بن مناد ، وكان من أعظم ملوك البربر . وكانت بينه وبين مغراوة من زناتة المجاورين له من جهة المغرب الأوسط كما نذكر حروب وفتن طويلة . ولما استوسق الملك للشيعنة بأفريقية تحيّر إليهم للولاية التي لعلّي رضي الله عنه فيهم . وكان من أعظم أوليائهم ، واستطال بهم على عدوّه من مغراوة فكانوا ظهراً له عليهم ، وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم وتحيزوا عن المروانيين ملوك العدو بالأندلس فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى . ولما كانت فتنة أبي يزيد والثالث أمر العبيديين بالقيروان والمهديّة ، كان لزيري بن مناد منافرة إلى الخوارج أصحاب أبي يزيد وأعقابهم^(٣) وشريف بالحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان كما ستره .

وأحفظ مدينة واشين^(٤) للتحصّن بها سفح الجبل المسمى تيطرا لهذا العهد حيث مواطن حَصِين ، وحصّنها بأمر المنصور ، وكانت من أعظم مدن المغرب . واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها . ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية . وحين نازل إسماعيل المنصور أبا يزيد لقلمة كتامة جاءه زيري في قومه ومن انضم إليه من

(١) وفي نسخة أخرى : جبريل .

(٢) وفي نسخة أخرى : جانبا من أفريقية .

(٣) وفي النسخة التونسية : كان لزيري بن مناد من منابذة الخوارج أصحاب أبي يزيد والأخذ بأعقابهم وتسريب الحشود إلى مناصريه العبيديين بالقيروان عتاء مشهور .

(٤) وفي نسخة أخرى : أشير .

حشود البربر وعظمت نكايته في العدو وكان الفتح . وصحبه المنصور إلى أن انصرف من المغرب ووصله صلوات سنّة . وعقد له على قومه وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير . وعقد له على تاهرت وأعمالها .

ثم اختطّ ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر ، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ، ومدينة لدونة^(١) . وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط ، ولم يزل زيري على ذلك قائماً بدعوة العبيديين منابذاً لمغراوة ، واتصلت الفتنة فيهم . ولما نهض جوهر الكاتب إلى المغرب الأقصى أيام معدّ المعز لدين الله أمره أن يستصحب زيري بن مناد فصحبه إلى المغرب وظاهره على أمره . ولما ظهر يعلى بن محمد النفزي^(٢) اتهمه زناته بالملاأة عليه . ولما نزل جوهر فاس وبها أحمد بن بكر الجذامي ، وطال حصاره إياها ، كان لزيري في حصارها أعظم العياء ، وكان فتحها على يده . سهر ذات ليلة وصعد سورها فكان الفتح .

ولما استمرت الفتنة بين زيري بن مناد ومغراوة ووصلوا أيديهم بالحاكم المتسنصر وأقاموا دعوة المروانية بالمغرب الأوسط ، وشمر محمد بن الخير بن محمد بن خزر لذلك ، رماه معدّ لقرية زيري في قومه واحتشد أهل وطنه وقد جمع له محمد بن الخير وزناته ، فسرّح إليهم ولده بلكين في مقدّمة ، وعارضهم قبل استكمالهم التعبئة ، فدارت بينهم حرب شديدة بعد العهد بمثلها يومئذ . واحتلّ مصاف مغراوة وزناته . ولما أيقن محمد بن الخير بالمهلكة وعلم أنه أحيط به مال إلى ناحية من العسكر ، وتحامل على سيفه فذبح نفسه وانفض جموع زناته ، واستمرت الهزيمة عليهم سائر يومهم فاستلحموا ، ومكثت عظامهم ماثلة بمصارعهم عصوراً .

وهلك فيما زعموا بضعة عشر أميراً منهم ، وبعث زيري برؤسهم إلى المعز بالقيروان فعظم سروره وهشّ لها الحكم المستنصر صاحب الدعوة بما أوهنوا من أمره . واستطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب ، وغلب يده على جعفر بن علي صاحب المسيلة والزاب وسما به في الرتب عند الخلافة وتاخمه في العمالة . واستدعى

(١) وفي النسخة الباريسية لمدرية ، وفي النسخة التونسية : لمدية .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولما قتل يعلى بن محمد النفزي .

معدّ جعفر بن علي من المسيلة لتولية أفريقية حين اعترم على الرحيل إلى القاهرة ، فاستراب مما كانت السعاية كبرت فيه . وبعث معدّ المعزّ بعض مواليه فخافه جعفر على نفسه ، وهرب من المسيلة ولحق بمغراوة فاشتملوا عليه ، وألقوا بيده زمام أمرهم ، وقام فيهم بدعوة الحكم المستنصري . وكانوا أقدم لها إجابة وفاوضهم زيري الحرب قبل استفحالهم فزحف إليهم واقتتلوا قتالاً شديداً .

وكانت على زيري الدبرة وكبابه فرسه ، وأجلت الهزيمة عن مصرعه ومصارع حاميته من قومه فجزوا رأسه وبعثوا به إلى الحكم المستنصر بقرطبة في وفد أوفدوه عليه من أمرائهم يؤدّون الطاعة ويؤكدون البيعة ، ويجمعون لقومهم النصرة . وكان مقدّم وفدهم يحيى بن علي أخو جعفر هذا كما ذكرناه . وهلك زيري هذا سنة ستين وثلاثمائة لست وعشرين سنة من ولايته . ولما وصل خبره إلى ابنه بلكين وهو بأشير نهض إلى زناته ودارت بينهم حرب شديدة . فانهزمت زناته وثأر بلكين بأبيه وقومه ، واتصل ذلك بالسلطان محمد أثره وعقد له على عمل أبيه بأشير وتبرت وسائر أعمال المغرب ، وضمّ إليه المسيلة والزاب وسائر عمل جعفر فاستعتب واستفحل أمره واتسعت ولايته وأثنى في البربر أهل الخصوص من أحرابه ^(١) وهوارة ونفزة وتوغّل في المغرب في طلب زناته فأثنى فيهم . ثم رجع واستقدمه السلطان لولاية أفريقية فقدم سنة إحدى وستين وثلاثمائة واستبلغ السلطان في تكريمه ونفس ذلك عليه كتامة . ثم نهض السلطان إلى القاهرة واستخلفه كما نذكره . وكان ذلك أول دولة آل زيري بأفريقية والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة آل زيري بن مناد ولاية العبيدين من هذه الطبقة بافريقية وتصاريف أحوالهم

لما أخذ المعزّ في الرحلة إلى المشرق وصرف اهتمامه إلى ما يتخلف وراء ظهره من الممالك والعمالات ، ونظر فيمن يولّيه أمر أفريقية والمغرب ممن له الغناء والاضطلاع ، وبه الوثوق من صدق التشيع ورسوخ القدم في دراية الدولة ، فعثر اختياره على بلكين بن

(١) وفي نسخة أخرى : مزانة .

زيري بن مناد وليّ الدولة منذ عهد أخذه ما بيده من أيدي زناته وأموالها في سبيل
الاباء على^(١) الدولة والمظاهرة للدولة .

* (دولة بلكين بن زيري) *

فبعث خلف بلكين بن زيري وكان متوغلاً في المغرب في حروب زناته ، وولاه أمر
أفريقية ما عدا أصهلية كانت لبني أبي الحسين الكلبي ، وطرابلس لعبدالله بن
يخلف الكتامي وسمّاه يوسف بدلا من بلكين ، وكنّاه أبا الفتوح ، ولقبه سيف
الدولة ، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة . وحمله على مقرّباته بالمراكب الثقيلة
وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الأعمال . وأوصاه بثلاث : أن لا يرفع
السيف عن البربر ، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولّي أحداً من أهل بيته .
وعهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه ، وقطع علائق الأموية منه . وارتحل
يريد القاهرة سنة إثنين وستين وثلاثمائة ورجع عنه بلكين من نواحي صفاقس فترّل
قصر معدّ بالقيروان ، واضطلع بالولاية وأجمع غزو المغرب فغزاه في جموع صنهاجة
ومخلف كتامة وارتحل إلى المغرب ، وفرّ أمامه ابن خزر صاحب المغرب الأوسط إلى
سجلماسة .

وبلغه خلاف أهل تاهرت وإخراج عامله فرحل إليها وخربها . ثم بلغه أن زناته
اجتمعوا إلى تلمسان فرحل إليهم فهربوا أمامه . ونزل على تلمسان فحاصرها حتى نزل
أهلها على حكمه ونقلهم إلى أشير . وبلغه كتاب معدّ ينهاه عن التوغّل في المغرب
فرجع . ولما كان سنة سبع وستين وثلاثمائة رغب بلكين من الخليفة نزار بن المعز أن
يضيف إليه عمل طرابلس ، وسرّت وأجدابية فأجابه إلى ذلك وعقد له عليها . ورحل
عنها عبدالله بن يخلف الكتامي وولّى بلكين عليه من قبله . ثم ارتحل بلكين إلى
المغرب ، وفرّت أمامه زناته فملك فاس وسجلماسة وأرض الهبط وطرّد منها عمال بني
أمية ، ثم غزا جموع زناته بسجلماسة وأوقع بهم وتقبّض على ابن خزر أمير مغراوة
فقتله . وجعل ملوكهم أمامه مثل بني يعلى بن محمد النّفْري^(٢) وبني عطية بن عبدالله

(١) وفي نسخة أخرى : في سبيل الذبّ عن الدولة .

(٢) وفي نسخة أخرى : اليفري .

ابن خزر وبني فلقول بن خزر ، ومحبي بن علي بن حمدون صاحب البصرة .
وبرزوا جميعاً بقياطينهم إلى سبتة ، وبعثوا الصريخ إلى المنصور بن أبي عامر ،
فخرج بعساكره إلى الجزيرة الخضراء . وأمرهم بمن كان في حضرته من ملوك زناتة
ورؤسائهم النازعين إلى خلفاء الأموية بالأندلس بقرطبة بالمقام في سبيل الطاعة ،
واغتنام فضل الرباط بثغور المسلمين في إيالة الخلفاء . واجتمعت منهم وراء البحر أمم
مع ما انضم إليهم من العساكر والحشود ، وأجازهم البحر لقصر جعفر بن علي بن
حمدون صاحب المسيلة ، وعقد له على حرب بلقين وأمدّه بمائة حمل من المال ،
فتعاقد ملوك زناتة واجتمعوا إليه ، وضربوا مصاف القتال بظاهر سبتة . وهرع إليهم
المُدّد من الجزيرة من عساكر المنصور ، وكادوا يخوضون البحر من فرائض الزقاق
إلى مظاهرة أوليائهم من زناتة . ووصل بلقين إلى تيطاوير وتسّم هضابها ، وقطع
شعوبها لنهج المسالك والطرق لعسكره ، حتى أطلّ على معسكرهم بظاهر سبتة فأرى
ما هاله واستيقن امتناعهم .

ويقال إنه لما عاين سبتة من مستشفه ، ورأى اتصال المدد من العدو إلى معسكرهم
بها قال : هذه أفعى فغرت إلينا فاها وكرّ راجعاً على عقبه . وكان موقفه ذلك أقصى
أثره ورجع إلى البصرة فهدمها وكانت دار ملك ابن الأندلسي ، وبها عمارة عظيمة .
ثم انفتح له باب في جهاد بُرغوَاطَة فارتحل إليهم وشغل بجهادهم ، وقتل ملكهم
عيسى بن أبي الأنصار كما نذكره . وأرسل بالسبي إلى القيروان وأذهب دعوة بني
أمية من نواحي المغرب وزناتة مشردون بالصحراء إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين
وثلاثمائة بواركش ما بين سجلماسة وتلمسان منصرفاً من هذه الغارة الطويلة .

* (دولة منصور بن بلقين) *

ولما توفي بلقين بعث موله أبو زُغْبَل بالخبر إلى ابنه المنصور ، وكان والياً بأشير
وصاحب عهد أبيه ، فقام بأمر صنهاجة من بعده ونزل صيره وقلّده العزيز نزار بن
معدّ أمر أفريقية والمغرب وكان على سنن أبيه ، وعقد لأخيه أبي البهار على تاهرت
ولأخيه يطوفت على أشير ، وسرّحه بالعساكر إلى المغرب الأقصى سنة أربع وسبعين

وثلاثمائة يسترجعه من أيدي زَنَاتَة . وقد بلغه أنهم ملكوا سِجِلْمَاسَة وفاس ، فلقبه زيري بن عطية المِغْرَاوي الملقَّب بالقرطاس أمير فاس فهزمه ورجع إلى أشير . وأقصى المنصور بعدها عن غزو المغرب وزناته ، واستقلَّ به ابن عطية وابن خزرون وبدر بن يعلى كما نذكر بعد .

ثم رحل بلكين إلى رقاده وفتك بعبدالله بن الكاتب عامله وعامل أبيه على القَيْرَوَان لهنات كانت منه . وسعائيات انجحت فيه فهلك سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وولي مكانه يوسف بن أبي محمد ، وكثر التواتر بكتابه فقتلهم وأُخِنَ فيهم حتى أذعنوا ، وأخرج إليهم العمال وعقد لأخيه حمَّاد على أشير . وطالت الفتنة مع زناته ونزل إليه منهم سعيد بن خزرون . ولم يزل سعيد يطيعه إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وولي ابنه فلفول بن سعيد . وخالف أبو البهار بن زيري سنة تسع وسبعين وثلاثمائة فزحف إليه المنصور وفرَّ بين يديه إلى المغرب . وأمدَّ^(١) المنصور أهل تاهرت ومضى في أتباع أبي البهار حتى نفذ عسكره^(٢) . وأشير عليه بالرجوع فرجع . وبعث أبو البهار إلى أبي عامر صاحب الأندلس في المظاهرة والمدد . واسترهن ابنه في ذلك ، فكتب زيري بن عطية صاحب دعوة الأموية من زناته بفاس أن يكون معه يداً واحدة فظاهاه زيري واتفق رأيهما مدّة . وحاربهما بدر بن يعلى فهزماه وملكا فاس وما حولها . ثم اختلفت ذات بينهما سنة إثنين وثمانين وثلاثمائة ورجع أبو البهار إلى قومه . ووفد على المنصور سنة إثنين وثمانين وثلاثمائة بالقيروان فأكرمه ووصله وأنزله أحسن نزل وعقد له على تاهرت ، ثم هلك المنصور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة .

* (دولة باديس بن المنصور) *

ولما هلك المنصور قام بأمره ابنه باديس وعقد لعمّه يطوفت على تاهرت ، وسرح عساكره لحرب زناته مع عميّه يطوفت وحمّاد . فولّوا منهزمين أمام زناته إلى أشير . ونهض بنفسه سنة تسع وثمانين وثلاثمائة لحرب زيري بن عطية راجعاً إلى المغرب ، فولّى

(١) وفي النسخة التونسية : وأمن .

(٢) وفي النسخة التونسية : حتى فقد عسكره المرافق .

باديس أخاه يطوفت على تاهرت وأشير ، وخالف عليه عمومته ماكسن وزاوي وحلال ومعتز وعزم واستباحوا عسكر يطوفت وأفلت منهم . ووصل أبو البهار متبرئاً من شأنهم . وشغل السلطان باديس بحرب فلفول بن سعيد كما ذكره في أخبار بني خزرون وسرح عمه حمّاداً لحرب بني زيري إخوته . ووصل بنو زيري أيديهم بفلفول ثم رجعو إلى حمّاد فهزمهم وتقبّض على ماكسن منهم فاطمة الكلاب وقتل أولاد الحسن وباديس^(١) كذا ذكر ابن حزم .

ونجا فلهم إلى جبل سنوه^(٢) فنازلهم حمّاد أياماً وعقد لهم السلم على الإجازة إلى الأندلس فلحقوا بابن عامر سنة إحدى وتسعين وثلثائة .

وهلك زيري بن عطية المغراوي لتسع أيام من مهلك ماكسن ، وأقفل باديس عمّه حمّاداً على حضرته ليستعين به في حروف فلفول ، فاضطرب المغرب لقفوله ، وأظهرت زنّاة الفساد وأضرّوا بالسابلة وحاصروا المسيلة وأشير ، فسرح إليهم باديس عمّه حمّاداً وخرج على أثره سنة خمس وتسعين وثلثائة فترل تيجست ودّوخ حمّاد المغرب ، وأنّحن في زنّاة واختطّ مدينة القلعة . ثم طلب منه باديس أن يتزل على عمل تيجست وقُسْطَيْنَة اختباراً للطاغية فأبى^(٣) وأظهر الخلاف . وبعث إليه أخاه إبراهيم فأقام معه ، وزحف إليهم باديس ، ثم رحل في طلبه إلى شلف ، ونزل إليه بعض العساكر . ودخل في طاعته بنو توجين وحازوا^(٤) في مدده . ووصل أميرهم عطية بن دافلين وبدر بن أغمان^(٥) بن المعتز فوصلها . وكان حمّاد قتل دافلين . ثم نزل باديس نهر واصل والسرّسو وكزول وانشى حماد راجعاً إلى القلعة واتبعه باديس . ونازله بها وهلك بمعسكره عليها سنة ست وأربعمائة فجأة ، وهو نائم بين أصحابه بمضربه ، فارتحلوا راجعين واحتملوا باديس على أعواده .

(١) وفي النسخة التونسية : وتقبض على ماكسن منهم فاطمة الكلاب ، وقتل اولاده محسن وباديس .

(٢) وفي النسخة الباريسية : سبوة .

(٣) وفي النسخة الباريسية : اختباراً لطاعته فأبى

(٤) وفي نسخة أخرى : وجاروا .

(٥) وفي النسخة التونسية : بدر بن لقان .

* (دولة المعز بن باديس) *

ولما بلغ الخبر بمهلك باديس بويج ابنه المعز ابن ثمان سنين ، ووصل العسكر فبايعوه البيعة العامة . ودخل حمّاد المسيلة وأشير ، واستعدّ للحرب وحاصر باعانة ^(١) ، وبلغ الخبر بذلك فزحف المعز إليه وأفرج عن باعانة ، ولقيه فانهزم حمّاد وأسلم معسكره ، وتقبّض على أخيه ابراهيم ونجا إلى القلعة ، ورغب في الصلح فاستجيب على أن يبعث ولده . وانتهى المعز إلى سَطِيف وقصر الطين وقفل إلى حضرته ، ووصل إليه القائد بن حمّاد بعمل المسيلة وطبنة والزراب وأشير وتاهرت ، وما يفتح من بلاد المغرب ، وعقد للقائد ابن حمّاد على طبنة والمسيلة مقره ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة وانقلب بهدية ضخمة . ورفعت الحرب أوزارها من يومئذ ، واقتسموا المظلة والتحموا بالأصهار ، وافترق ملك صنهاجة إلى دولتين : دولة إلى المنصور بن بُلْكَيْن أصحاب القيروان ، ودولة إلى حمّاد بن بلكين أصحاب القلعة .

ونَهَضَ المعز إلى حمّاد سنة إثنين وثلاثين فحاصره بالقلعة مدة سنين ، ثم أقلع عنها وانكفأ راجعاً ولم يعاود فتنة بعد . ووصل زاوي بن زيري من الأندلس سنة عشر وأربعمائة كما ذكرناه في خبره ، فتلّقاه المعز أعظم لقاء وسلّم عليه راجلاً وفرشت القصور لتزله ، ووصله بأعظم الصلات وأرفعها ، واستمرّ ملك المعز بأفريقية والقيروان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بأفريقية وأترفه وأبذخه . نقل ابن الرقيق من أحوالهم في اللوائم والهدايا والجنائز والأعطيات ما يشهد بذلك ، مثل ما ذكر أنّ هدية صندل عامل باعانة مائة حمل من المال ، وأنّ بعض توايت الكبراء منهم كان العود الهندي بحسامير الذهب وأنّ باديس أعطى فلفول بن مسعود الزناتي ثلاثين حملاً من المال وثمانين تختاً . وأنّ أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صَفَاقِس كان خمسين ^(٢) ألف قفيز وغير ذلك من أخبارهم .

وكانت بينه وبين زنّانة حروب ووقائع كان له الغلب في جميعها كما هو مذكور ، وكان

(١) وفي نسخه أخرى : باغاية .

(٢) وفي نسخة أخرى : ثمانين . وكذا في النسخة التونسية .

المعز منحرفاً عن مذاهب الرافضة ، ومتحلاً للسنّة ، فأعلن بمذهبه لأوّل ولايته ولعن الرافضة . ثم صار إلى قتل من وجد منهم ، وكبا به فرسه ذات يوم فنادى مستغيثاً باسم أبي بكر وعمر ، فسمعتة العامّة فثاروا حينهم بالشيعه وقتلوهم أبرح قتل وقتل دعاة الرافضة يومئذ وامتنع بعض لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة . وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني محذراً ، وهو يراجع بالتعريض لخلفائه والمزج فيهم حتى أظلم الجوّ بينه وبينهم إلى أن انقطع الدّعاء لهم سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر من خلفائهم . وأحرق بنوده ومحا اسمه من الطرز والسكّة ، ودعا للقائم بن القادر من خلفاء بغداد . وجاءه خطاب القائم وكتاب عهده صحبة داعيته أبي الفضل بن عبد الواحد التيمي ، فرماه المستنصر خليفة العبيديّين بالمغرب من هلال الذين كانوا مع القرامطة ، وهم رياح وزغبه والأشجج ، وذلك بمشاركة من وزيره أبي محمد الحسن بن علي البازوري كما ذكرنا في أخبار العرب ودخولهم إلى أفريقية .

وتقدّموا إلى البلاد وأفسدوا السابلة والقرى وسرح إليهم المعز جيوشه فهزمهم ، فنهض إليهم ولقيهم بجبل حيدران فهزموه ، واعتصم بالقيروان فحاصروه وتمرسوا به وطال عيهم في البلاد وإضرارهم بالرعايا إلى أن خربت أفريقية . وخرج ابن المعز من القيروان سنة تسع وأربعين وأربعمائة مع خفيه منهم ، وهو مؤنس بن يحيى الصبري أمير رياح ، فلحق في خفارته بالمهدية بعد أن أصهر إليه في ابنته فأنكحه إياها ونزل بالمهدية وقد كان قدم إليها ابنه تيمماً فترل عليه ، ودخل العرب القيروان وانتهبوا . وأقام المعز بالمهدية وانتري الثوار في البلاد فغلب حمد بن مليل البرغواطي على مدينة صفّاقس وملكها سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وخالفت سوسة وصار أهلها إلى الشورى في أمرهم وصارت تونس آخرأ إلى ولاية الناصر بن علناس بن حمّاد صاحب القلعة . وولّى عليهم عبد الحق بن خراسان فاستبدّ بها واستقرّت في ملكه وملك بنيه ، وتغلّب موسى بن يحيى على قابس وصار عاملها المعز بن محمد الصنهاجي إلى ولايته ، وأخوه إبراهيم من بعده كما يأتي ذكره . والثالث ملك آل باديس وانقسم في الثوار كما نذكر في أخبارهم بعد مهلك المعز سنة أربع وخمسين وأربعمائة والله أعلم .

* (دولة تميم بن المعز) *

ولما هلك المعز قام بأمره ابنه تميم وغلبه العرب على أفريقية ، فلم يكن له إلا ما ضمّه السور ، خلا أنه كان يخالف بينهم ويسلّط بعضهم على بعض . وزحف إليه حمّو بن مليل البرغواطي صاحب صفّاقس ، فخرج تميم للقائه ، وانقسمت العرب عليها فانهزم حمّو وأصحابه ، وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة . وسار منها إلى سوسة فافتتحها ، ثم بعث عساكره إلى تونس فحاصروا ابن خراسان حتى استقام على الطاعة لتميم . ثم بعث عساكره أيضاً إلى القيروان . وكان بها قائد بن ميمون الصنهاجي من قبل المعز فأقام ثلاثاً ، ثم غلبته عليها هوّارة ، وخرج إلى المهديّة ، ثم ردّه تميم إلى ولايته بها فعالف بعد ست من ولايته ، وكاتب الناصر بن علناس صاحب القلعة فبعث تميم إليه العساكر فلحق بالناصر وأسلم القيروان .

ثم رجع بعد ست إلى حمّو بن مليل البرغواطي بصفّاقس وابتاع له القيروان من مهنا ابن علي أمير زغبة ، فولّاه عليها وحصّنها سنة سبعين وأربعمائة ، وكانت بين تميم والناصر صاحب القلعة أثناء ذلك فتن كان ساسترتها العرب يخاصمون بالناصر من قلعتها ، ويوطئون عساكره ببلاد أفريقية ، وربما ملك بعض أمصارها . ثم يردّونه على عقبه إلى داره إلى أن اصطلحا سنة سبعين وأربعمائة ، وأصهر إليه تميم بابتته . ونهض تميم سنة أربع وسبعين وأربعمائة إلى قابس وبها ماضي بن محمد الصنهاجي . ولها بعد أخيه ابراهيم فحاصرها ، ثم أفرج عنها ، ونازلته العرب سنة ست وسبعين وأربعمائة بالمهديّة ، ثم أفرجوا عنه ، وهزمهم فقصّدوا القيروان ودخلوها فأخرجهم عنها .

وفي أيامه كان تغلب نصارى جنده على المهديّة سنة ثمانين وأربعمائة نزلوها في ثلاثمائة مركب وثلاثين ألف مقاتل ، واستولوا عليها وعلى زويلة . فبذل لهم تميم في التزول عنها مائة ألف دينار بعد أن انتهوا جميع ما كان بها . فاستخلصها من أيديهم ورجع إليها ، ثم استولى على قابس سنة تسع وثمانين وأربعمائة من يد أخيه عمر بن المعز بايع له أهلها بعد موت قاضي بن ابراهيم . ثم استولى بعدها على صفّاقس سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وخرج منها حمّو بن مليل إلى قابس ، فأجاره مكن ابن كامل

الدهماني إلى أن مات بها . وكانت رياح قد تغلبت على زغبة وعلى إفريقية من لدن سبع وستين وأربعمائة وأخرجوه منها ، وفي هذه المائة الخامسة غلب الأخضر من بطون رياح على مدينة باجة وملكوها ، وهلك تميم إثر ذلك سنة إحدى وخمسمائة .

* (دولة يحيى بن تميم) *

ولما هلك تميم بن المعز وليّ ابنه يحيى ، وافتتح أمره بافتتاح امكيسة^(١) وغلب عليها ابن محفوظ الثائر بها . وثار أهل صفاقس على ابنه أبي الفتوح فلفظ الحيلة في تفريق كلمتهم ، وراجع طاعة العبيديين ووصلته المخاطبات والهدايا . وكان قد صرف همه إلى غزو النصاري والأساطيل البحرية فاستكثر منها واستبلغ في اقتنائها . وردّد البعوث إلى دار الحرب فيها حتى اتّفته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد إفريقية^(٢) وجنوة وسردينية . وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة . وهلك فجأة في قصره سنة تسع وخمسمائة والله أعلم .

* (دولة علي بن يحيى) *

ولما هلك يحيى بن تميم وليّ عليّ ابنه ، استقدم لها من صفاقس ، فقدم في خفارة أبي بكر بن أبي جابر مع عسكر ونظرائه من أمراء العرب . وكان أعظم أمراء عساكر صنهاجة محاصرين لقصر الأجم فاجتمعوا إليه وتمت بيعته . ونهض إلى حصار تونس حتى استقام أحمد بن خرايان^(٣) على الطاعة ، وفتح جبل وسلات . وكان ممتنعاً على من سلف من قومه ، فجرد إليه عسكراً مع ميمون بن زياد الصخري المعادي من أمراء العرب ، فافتحوه وقتلوا من كان به . ووصل رسول الخليفة من مصر بالمخاطبات والهدايا على العادة ، ثم نهض إلى حصار رافع بن مكن بفاس سنة

(١) وفي نسخة أخرى : اقلبية .

(٢) وفي النسخة التونسية : من بلاد الفرنجة .

(٣) وفي نسخة أخرى : أحمد بن خراسان .

إحدى عشرة وخمسمائة . ودون لها قبائل بادغ^(١) من بني علي إحدى بطون رياح كما ذكره في أخبار رافع . ثم حدثت الفتنة بينه بين رجّار صاحب صقلية بمالأة رجّار لرافع بن كامل عليه ، وإمداده إياه بأسطوله ، يغير على ساحل علي بن يحيى ويرصد أساطيله ، فاستخدم علي بن يحيى الأساطيل وأخذ في الأهبة للحرب ، وهلك سنة خمس عشرة وخمسمائة والله أعلم .

* (دولة الحسن بن علي) *

ولما هلك علي بن يحيى بن تميم ولي بعده ابنه الحسن بن علي غلاماً يفعة ابن إثنى عشرة سنة ، وقام بأمره مولاة صندل . ثم مات صندل وقام بأمره مولاة موفّق . وكان أبوه أصدر المكاتب إلى رجّار عند الوحشة يهدّده بالمرابطين ملوك المغرب ، ولما كان بينهما وبينهم من المكاتب . واتفق أن غزا أحمد بن ميمون قائد أسطول المرابطين صقلية ، وافتتح قرية منها ، فساها وقتل أهلها سنة ست عشر وخمسمائة ، فلم يشك رجّار أن ذلك باملاء الحسن ، فترلت أساطيله إلى المهديّة وعليهم عبد الرحمن بن عبد العزيز وجرجي بن مخاضيل الأنطاكي . وكان جرجي هذا نصرانياً هاجر من المشرق ، وقد تعلّم اللسان وبرع في الحساب ، وتهذّب في الشام بأنطاكية وغيرها ، فاصطنعه تميم واستولى عليه ، وكان يحيى يشاوره .

فلما هلك تميم أعمل جرجي الحيلة في اللحاق برّجّار فلحق به ، وحظى عنده ، واستعمله على أسطوله . فلما اعتزم على حصار المهديّة بعثه لذلك ، فزحف في ثلثمائة مركب ، وبها عدد كثير من النصرانية ، فيهم ألف فارس . وكان الحسن قد استعدّ لحربهم ، فافتتح جزيرة قوصرة ، وقصدوا إلى المهديّة ونزلوا إلى الساحل ، وضربوا الأبنية وملكوا قصر الدهانين وجزيرة الأملس^(٢) وتكرّر القتال فيهم إلى أن غلبهم المسلمون ، وأقلعوا راجعين إلى صقلية بعد أن استمرّ القتل فيهم . ووصل بأكثر ذلك محمد بن ميمون قائد المرابطين بأسطوله ، فعاث في نواحي صقلية ، واعتزم رجّار على

(١) وفي نسخة أخرى : فادغ وهو الأصح .

(٢) وفي النسخة التونسية : قصر الديماس وجزيرة الاحاس . وفي النسخة البارسية : قصر الدهاس وجزيرة الحمامات .

إعادة الغزو إلى المهديّة . ثم وصل أسطول يحيى بن العزيز صاحب بجاية لحصار المهديّة ، ووصلت عساكره في البرّ مع قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه ، فضالّح الحسن صاحب صقلية ووصل يده به ، واستمدّ منه أسطوله . واستمدّ الحسن أسطول رجار فأمدّه ، وارتحل مطرف إلى بلده .

وأقام الحسن مملكاً بالمهديّة ، وانتقض عليه رجار وعاد إلى الفتنة معه ، ولم يزل يردّد إليه الغزو إلى أن استولى على المهديّة قائد أسطوله جرجي بن مُناسيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ووصلها بأسطوله في ثلثائة مركب . وخادعهم بأنهم إنما جاؤا مدداً له . وكان عسكر الحسن قد توجه صريحاً لحرز بن زياد الفادغي صاحب علي ابن خراسان صاحب تونس ، فلم يجد صريحاً فجلا عن المهديّة ، ورحل واتبعه الناس . ودخل العدو إلى المدينة وتملكوها دون دفاع . ووجد جرجي القصر كما هو لم يرفع منه الحسن إلّا ما خفّ ، وترك الذخائر الملوّكية . فأمنّ الناس وأبقاهم تحت إيلته ، وردّ الفارين منه إلى أماكهم . وبعث أسطولا إلى صفاقس فملكها ، وأجاز إلى سوسة فملكها أيضاً . وأجاز إلى طرابلس كذلك . واستولى رجار صاحب صقلية على بلاد الساحل كلّها ، ووضع على أهلها الجزية ، وولّى عليهم كما نذكره إلى أن استنقذهم من ملكة الكفر عبد المؤمن شيخ الموحّدين وخليفة إمامهم المهدي .

ولحق الحسن بن يحيى بعد استيلاء النصارى على المهديّة بالعرب من رياح ، وكبيرهم محرز بن زياد الفادغي صاحب القلعة ، فلم يجد لديهم مصرخاً ، وأراد الرحيل إلى مصر للحافظ عبد المجيد فأرصد له جرجي فارتحل إلى المغرب ، وأجاز إلى بونة وبها الحارث بن منصور وأخوه العزيز . ثم توجه إلى قُسْطَيْنَة وبها سبع بن العزيز أخو يحيى صاحب بجاية ، فبعث إليه من أجازته إلى الجزائر . ونزل على ابن العزيز فأحسن نزله وجاوره إلى أن فتح الموحّدون الجزائر سنة سبع وأربعين وخمسمائة بعد تملكهم المغرب والأندلس ، فخرج إلى عبد المؤمن فلقاه تكرمة وقبولا . ولحق به وصحبه إلى أفريقية في غزاته الأولى ، ثم الثانية سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنازل المهديّة وحاصرها أشهراً ، ثم افتتحها سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وأسكن بها الحسن وأقطعه رحيش فأقام هنالك ثمانين سنين . ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن فارتحل بأهله يريد مراکش . وهلك بتامسنا في طريقه إلى بابا رولو^(١) سنة ست وثلاثين ،

(١) وفي النسخة التونسية : بابازرولو وفي النسخة الباريسية : باربارولو .

* (الخبر عن بني خراسان من صنهاجة الثوار بتونس على آل باديس عند اضطراب افريقية بالعرب ومبدأ أمرهم ومصاير أحوالهم) *

لما تغلب العرب على القَيْرَوَان وأسلم المعزّ وتحول إلى المهديّة ، اضطربت أفريقية ناراً . واقتسمت العرب البلاد عمالات ، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة وصفاقس وقابس ، وصارت صاغية أهل أفريقية إلى بني حمّاد ملوك القلعة وملكو القيروان ، كما تقدّم . وانقطعت تونس عن ملك المعز ، ووفد مشيختها على الناصر بن علناس ، فولّى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان ، يقال إنه من أهل تونس ، والأظهر أنه من قبائل صنهاجة ، فقام بأمرهم وشاركهم في أمة وتودّد إليهم وأحسن السيرة فيهم . وصالح العرب أهل الضاحية على أتاوة معلومة لكفّ عاديّتهم . وزحف تميم بن المعزّ من المهديّة إليه سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في جموعه ، ومعه يبقى بن علي أمير زغبة ، فحاصر تونس أربعة أشهر ، إلى أن صالحه ابن خراسان واستقام على طاعته فأفرج عنه .

ولم يزل قائماً بأمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فولّي ابنه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق فقتل عمه اسمعيل بن عبد الحق لمكان ترشه ، وغرّبه أبو بكر إلى أن برزت فأقام بها خوفاً على نفسه . ونزع أحمد إلى التخلّق بسير الملك ، والخروج عن سيرة المشيخة ، واشتدّت وطأته ، وكان من مشاهير رؤساء بني خراسان هؤلاء ، فاستبدّ بتونس لأوّل المائة السادسة ، وضبطها وبني أسوارها . وعامل العرب على إصلاح سابلتها فصلحت حاله ، وبني قصور بني خراسان . وكان مجالساً للعلماء محباً فيهم ونازله علي بن يحيى بن العزيز بن تميم سنة عشر وخمسمائة وضيّق عليه ، ودافعه (١) بأسعاف غرضه فأفرج عنه . ثم نازله عساكر العزيز بن منصور صاحب بجاية فعاد إلى طاعته سنة أربعة عشر وخمسمائة ولم يزل والياً على تونس إلى أن نهض سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة مطرف بن علي بن حمدون قائد يحيى بن العزيز من

(١) وفي النسخة البارسية : ووافقه .

بجاية في العساكر إلى أفريقية ، وملك عامّة أمصارها ، فتغلّب على تونس وأخرج أحمد بن عبد العزيز صاحبها ونقله إلى بجاية بأهله وولده .

وولّى على تونس كرامة بن المنصور عمّ يحيى بن العزيز فبقي والياً عليها إلى أن مات ، وولّى عليها بعده أخوه أبو الفتوح بن المنصور إلى أن مات ، وولّى مكانه ابن ابنه محمد وساءت سيرته فعُزل ، وولّى مكانه عمّه معدّ بن المنصور إلى أن استولى النصارى على المهدية وسواحلها ما بين سوسة وصفاقس وطرابلس سنة ثلاث وأربعين وخمسائة ، وصارت لصاحب صقلية ، وأخرج الحسن بن علي كما هو مذكور ، فأخذ أهل تونس في الاستعداد والحذر . واستأسدوا لذلك على واليهم ، وانتشر بغاتهم وربما ثاروا بعض الأيام عليه فقتلوا عبيده بمرأى منه ، واعتدوا عليه في خاصّته . فبعث عنه أخوه يحيى من بجاية فركب البحر في الأسطول ، وترك نائبه العزيز بن دامال^(١) من وجوه صنهاجة ، فأقام بينهم وهم مستبدّون عليه ، وكان بالعلقة جوارهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح قد تغلب عليها .

وكانت الحرب بينه وبين أهل تونس سجلاً ، والتحم بينهما المصاف وكان محرز يستمدّ عساكر صاحب المهدية على أهل تونس فتأتيه إلى أن غلب النصارى على المهدية ، وحدثت الفتنة بينهم بالبلد فكان المصاف بين أهل باب السوق وأهل باب الجزيرة ، وكانوا يرجعون في أمورهم إلى القاضي عبد المنعم ابن الإمام أبي الحسن . ولما غلب عبد المؤمن على بجاية وقسنطينة وهم العرب بسطيف ورجع إلى مراكش . انتهت إليه شكوى الرعايا بأفريقية مما نزل بهم من العرب ، فبعث ابنه عبد الله من بجاية إلى أفريقية في عساكر الموحدّين ، فنازل تونس سنة اثنتين وخمسين وخمسائة وامتنعت عليه . ودخل معهم محرز بن زياد وقومه من العرب ، واجتمع جندهم وبرزوا للموحدّين فأوقعوا بهم ، وأفرجوا عن تونس ، وهلك أميرها عبد الله بن خراسان خلال ذلك . وولّى مكانه علي بن أحمد بن عبد العزيز خمسة أشهر ، وزحف عبد المؤمن إلى تونس وهو أميرها ، فانقادوا لطاعته كما نذكره في أخبار الموحدّين . ورحل علي بن أحمد بن خراسان إلى مراكش بأهله وولده ، وهلك في طريقه سنة أربع وخمسين وخمسائة وأفرج محرز بن زياد عن المعلقة . واجتمعت إليه

(١) وفي نسخة أخرى : دافال .

قومه وتدامرت العرب عن مدافعة الموحدين واجتمعوا بالقيروان وبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو منصرف من غزاته إلى المغرب فبعث إليهم العساكر وأدركوهم بالقيروان فأوقعوا بهم واستلحموهم قتلاً وسبياً وتقبض على محرز بن زياد أميرهم فقتل وصلب شلوه بالقيروان ، والله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه ، وهو على كل شيء قدير .

علي بن أحمد —
 — ابن عبد العزيز —
 — أبو بكر بن اسمعيل —
 — ابن عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان

* (الخبر عن بني الرند ملوك قفصة الثائرين بها عند التياث
ملك آل باديس بالقيروان واضطرابه بفتنة العرب ومبدأ
دولتهم ومصاير أمورهم) *

لما تغلب العرب على أفريقية وانحلّ نظام الدولة الصنهاجية ، وارتحل المغز من القيروان
إلى المهدية ، وكان بقفصة عاملاً لصنهاجة عبدالله بن محمد بن الرند وأصله من جرية
من بني صدغيان . وكان ابن نجيل^(١) هو من بني مري من مغراوة ، وكان مسكنهم
بالجوسين من نفزاوة فضبط قفصة وقطع عنها عادية الفساد ، وصالح العرب على
الأتاوة فصلحت السابلة واستقام الحال . ثم استبدّ بأمره وخلع الامتثال من عنقه سنة
خمس وأربعين وخمسمائة واستمرّ على ذلك . وبايعته توزر وقفصة وسوس والحامة
ونفزاوة وسائر أعمال قسنطينة فاستفحل أمره وعظم سلطانه ، ووفد عليه الشعراء
والقضاة ، وكان معظماً لأهل الدين إلى أن هلك سنة خمس وستين وخمسمائة .

وولي من بعده ابنه المعتر وكنيته أبو عمر ، وانقاد إليه الناس فضبط الأمور وجبى
الأموال واصطنع الرجال ، وتغلب على قوده وجبل هواره وسائر بلاد قسطنطية وما
إليها . وحسنت سيرته إلى أن عمي . وهلك في حياته ابنه تميم فعهد لابنه يحيى بن
تميم . وقام بالأمر واستبدّ على حدّه ولم يزالوا بخير حال إلى أن نازلهم عبد المؤمن سنة
أربع وخمسين وخمسمائة . فنعهم من الأمر ، ونقلهم إلى بجاية فمات المعتر بهاسنة
سبع وخمسين وخمسمائة لمائة وأربع عشرة من عمره وقيل لسبعين ، ومات بعده ييسر
حافده يحيى بن تميم . وولّى عبد المؤمن على قفصة نُعمان بن عبد الحق الهنتاتي .
ثم عزله بعد ثلاث بميمون بن أجانا الكنسني ، ثم عزله بعمران بن موسى
الصنهاجي ، وأساء إلى الرعية ، فبعثوا عن علي بن العزيز بن المعتر من بجاية . وكان
بها في مضیعة يحترف بالخياطة فقدم عليهم ، وثاروا بعمران بن موسى عامل
الموحدين فقتلوه وقدموا علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته . وأغراه يوسف بن
عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسمائة أخاه السيد أبا زكريا فحاصره وضيق عليه

(١) وفي النسخة الباريسية : ميميل ، وفي النسخة التونسية : نجيل .

وأخذه ، وأشخصه إلى مراکش بأهله وماله ، واستعمله على الأشغال بمدينة سلا إلى أن هلك وفنيت دولة بني الرند والبقاء لله وحده اهـ .

٢٢٠
٢٢١

يحيى بن تميم بن المعتر أبي عمر بن عبد الله بن محمد الرند

* (الخبر عن بني جامع الهلالين امرأ قابس لعهد الصنهاجيين
وما كان لتمام بها من الملك والدولة وذلك عند فتنة
العرب بأفريقية) *

ولما دخلت العرب إلى أفريقية وغلبوا المعز على الصواحي ونازلوه بالقيروان ، وكان
الوالي بفاس المعز بن محمد بن لموية الصنهاجي ، وكان أخوه إبراهيم وماضي بالقيروان
قائدين للمعز على جيوشه فغزها ، ولحقا مغاضبين بمؤنس بن يحيى ، وكان أول تملك
العرب . ثم أقام إبراهيم منهم والياً بقابس ولحق المعز بن محمد بمؤنس ، فكان معه إلى
أن هلك إبراهيم وولي مكانه أخوه ماضي ، وكان سيئ السيرة فقتله أهل قابس ،
وذلك لعهد تميم بن المعز بن باديس ، وبعثوا إلى عمر أخي السلطان إلى طاعة
العرب ، فوليا بكر بن كامل بن جامع أمير المناقشة من دهمان من بني علي إحدى
بطون رباح فقام بأمرها ، واستبد على صنهاجة . ولحق به مثنى بن تميم بن المعز نازعاً
عن أبيه فأجابه ، ونازل معه المهدية حتى امتنعت عليه ، وأطلع على قبائح شتى ،
فأفرج عنها . ولم يزل كذا على حاله في إجابة قابس وإمارة قومه دهمان إلى أن هلك .
وقام بأمره بعده رافع واستفحل بها ملكه ، وهو الذي اختط بجر العروسيين من مصانع
الملك بها ، واسمه مكتوب لهذا العهد في جدرانها .

ولمّا ولي علي بن يحيى بن تميم فسد ما بينه وبين رافع ، وأعان عليه رافع صاحب

صقلية فغلب أسطول علي بن يحيى على أسطول النصارى . ثم ذوى ^(١) قبائل العرب والأساطيل ، وزحف إلى قابس سنة إحدى عشر وأربعمائة . قال ابن أبي الصلت : دول الثلاثة الأخماس من قبائل العرب الذين هم : سعيد ومحمد ونجبه ، وأضاف إليهم من الخمس الرابع أكابر بني مقدّم موافى من كان منهم بفحص القيروان ، وفرّ رافع إلى القيروان وامتنع عليه أهلها . ثم امتنع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد ، وعينوا القيروان لرافع وأمكنوه . وبعث عليّ بن يحيى عساكره والعرب المدوّنة على منازل رافع بالقيروان ، وخرج إلى محاربتهم فهلك بالطريق في بعض حروبه مع أشياع رافع .

ثم أنّ ميمون بن زياد الصخري حمل رافع بن مكن على مسالمة السلطان وسعى في إصلاح ذات بينها ، فانصلح وارتفعت بينهما الفتنة . وقام بقابس من ذلك رشيد بن كامل . قال ابن بجيل : وهو الذي اختطّ قصر العروسيين وضرب السكّة الرشيدية . ووليّ بعده ابنه محمد بن رشيد ، وغلب عليه مولاة يوسف ، ثم خرج محمد في بعض وجوه وترك ابنه مع يوسف فطرده يوسف واستبد ، وانتهى إلى طاعة رجّار فثار به أهل قابس ودفعوه عنهم ، فخرج إلى أخيه . ولحق أخوه عيسى بن رشيد وأخبره الخبر فحاصروهم رجّار بسبب ذلك مدّة من الأيام . وكان آخر من ملكها من بني جامع أخوه مدافع بن رشيد بن كامل . ولما استولى عبد المؤمن على المهديّة وصفّاقس وطرابلس بعث ابنه عبد الله بعسكر إلى قابس ففرّ مدافع بن رشيد عن قابس وأسلمها للموحّدين ، ولحق بعرب طرابلس من عرب عوف فأجاروه ستين . ثم لحق بعبد المؤمن بقابس ^(٢) فأكرمه ورضي عنه . وانقرض من بني جامع من يوانس ، والبقاء لله وحده اهـ .

(١) وفي النسخة التونسية : ذوى . ولا معنى هنا لذوي ، ولا لذوى ومقتضى السياق دَوْخ .

(٢) وفي النسخة التونسية : بفاس .

عيسى — محمد —
 رافع بن مكن — بن رشيد —
 بن كامل — بن جامع —
 بن دهمان — بن علي

* (الخبر عن ثورة رافع بن مكن بن مطروح بطرابلس والعرامي بصفاقس على النصاري واخراجهم واستبدادهم بأمر بلدهم ^(١) في آخر دولة بني باديس) *

أما طرابلس فكان رجار صاحب صقلية لعنه الله قد استولى عليها سنة أربعين وخمسمائة على يد قائده جرجي بن ميخايل الأنطاكي ، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم ، وبقيت في مملكة النصاري أياماً . ثم إن أبا يحيى بن مطروح من أعيان البلد مشى في وجوه الناس وأعيانهم ، وداخلهم في الفتك بالنصاري فاجتمعوا لذلك وثاروا بهم وأحرقوهم بالنار . ولما وصل عبد المؤمن إلى المهديّة وافتتحها سنة خمس وخمسين وخمسمائة وفد عليه أبو يحيى بن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم برّاً وتكرمة . وقدم ابن مطروح المذكور عليهم وردّهم إلى بلدهم ، فلم يزل

(١) الأصح ان يقول : واستبدادها بأمر بلديها ، هكذا في النسخة التونسية .

عليهم إلى أن هَرَمَ وعجز بعهد يوسف بن عبد المؤمن ، وطلب الحج فسَرَّحه السيد أبو زيري^(١) بن أبي حفص محمد^(٢) بن عبد المؤمن عامل تونس فارتحل في البحر سنة ست وثمانين وخمسمائة واستقرّ بالاسكندرية .

وأما صَفَاقِس فكانت ولاتها أيام بني باديس من صنهاجة قبيلهم إلى أن ولّى المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي من صنائعه ، وكان فارساً مقداماً ، فحدث نفسه بالثورة أيام تغلب العرب على أفريقية ، وخروج المعز إلى المهدية ففتك به ابن عمّه حمّو بن مليل البرغواطي وقتله في الحمام غدرًا . وامتنع له حلفاؤه من العرب وحاصروا حمّو حتى بذل لهم من المال ما رضوا به . واستبدّ حمّو بن مليل بأمر صفاقس حتى إذا هلك المعز حدثته نفسه بالتغلب على المهدية ، فزحف إليها في جموعه من العرب ، ولقيه تميم فانهزم حمّو وأصحابه سنة خمس وخمسين وخمسمائة ثم بعث ابنه يحيى مع العرب لحصار صفاقس ، فحاصرها مدّة وأقلع عنها . وزحف إليه تميم بن المعز سنة ثلاث وتسعين فغلبه عليها . ولحق حمّو بمكن بن كامل أمير قابس فأجاره ، وصارت صفاقس إلى ملكة تميم وولياها ابنه .

ولما تغلب النصارى على المهدية وملكها جرجي بن ميخايل قائد رجار سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فغلبوا بعدها على صَفَاقِس وأبقوا أهلها ، واستعملوا عمر بن أبي الحسن القرباني لمكانه فيهم . وحملوا أباه أبا الحسن معهم إلى صِقْلِيّة رهناً . وكان ذلك مذهب رجار ودينه فيما ملك من سواحل أفريقية ، يقيمهم ويستعمل عليهم منهم ، ويذهب إلى العدل فيهم فبقي عمر بن أبي الحسن عاملاً لهم في أهل بلده وأبوه عندهم . ثم أنّ النصارى الساكنين بصفاقس امتدّت أيديهم إلى المسلمين ولحقوا بالضرر . وبلغ الخبر أبا الحسن وهو بمكانه من صقليّة ، فكتب إلى ابنه عمر ، وأمره بانتهاز الفرصة فيهم والاستسلام إلى الله في حق المسلمين ، فثار بهم عمر لوقته سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وقتلهم وقتل النصارى أباه أبا الحسن وانتقضت عليهم بسبب ذلك سائر السواحل . ولما افتتح عبد المؤمن المهدية من يد رجار ، وصل إليه عمر ، وأدّى طاعته ، فولّاه صفاقس ، ولم يزل والياً عليها وابنه عبد الرحمن من بعده إلى أن تغلب يحيى بن غانية فرغبه في الحج ، فسَرَّحه ولم بعد .

(١) وفي نسخة أخرى : أبو يزيد .

(٢) وفي النسخة التونسية : عمر .

* (الخبر عما كان بافريقية من الثوار على صنهاجة عند
اضطرابها بفتنة العرب الى ان محآ أثرهم الموحدون) *

لما كان أبورجاء الورد اللخمي عند اضطرام نار الفتنة بالعرب ، وتقويض المعز عن القيروان إلى المهديّة ، وتغلّيبهم عليها قد ضمّ إليه جماعة من الدّعار . وكان ساكناً بقلعة قرسيّنة^(١) من جبل شعيب ، فكان يضرب على النواحي بجهة بنزرت ويفرض على أهل القرى الاتاوات بسبب ذلك ، فطال عليهم أمره ويشوا من جسم دائه وكان ببلد بنزرت فريقان أحدهما من لخم وهم من قوم الورد ، وبقوا فوضى واختلف أمرهم ، فبعثوا إلى الورد في أن يقوم بأمرهم ، فوصل إلى بلدهم ، فاجتمعوا عليه وأدخلوا حصن بنزرت ، وقدموه على أنفسهم فحاطهم من العرب ، ودافع عن نواحيهم . وكان بنو مقدّم من الأنبج ودهمان من بني عليّ إحدى بطون رياح هم المتغلبون على صاحبتهم فهادنهم على الأتاوة وكفّ بها عاديّتهم ، واستفحل أمرهم وتسمّى بالأمير ، وشيّد المصانع والمباني وكثر عمران بنزرت إلى أن هلك ، فقام بأمره ابنه طراد وكان شهماً ، وكانت العرب تهابه .

وهلك فوليّ من بعده ابنه محمد بن طراد ، وقتله أخوه مقرر لشهر من ولايته في مسامرة ، وقام بأمر بنزرت وسمى بالأمير ، وحمل حوزته من العرب ، واصطنع الرجال ، وعظم سلطانه وقصده الشعراء وامتدحوه فوصلهم . وهلك فوليّ من بعده ابنه عبد العزيز عشر سنين ، وجرى فيها على سنن أبيه وجدّه ، ثم ولى من بعده أخوه موسى على سننهم أربع سنين . ثم من بعده أخوهما عيسى واقتفى أثرهم . ولما نازل عبدالله بن عبد المؤمن تونس وأفرج عنه مرّ به في طريقه فاستفرغ جهده في قراه وتجمع بطاعته . وطلب منه الحفاظ على بلده فأسعفه . وولّى عليهم أبا الحسن الهرغى ، فلما قدم عبد المؤمن على أفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة راعى له ذلك وأقطعه ، واندرج في جملة الناس . وكان بقلعة ورغة يدوكس^(٢) بن أبي علي الصنهاجي من أولياء العزيز المنصور صاحب بجاية ، والقلعة قد شادها^(٣) وحصّنها .

(١) وفي النسخة التونسية : قريشة .

(٢) وفي النسخة التونسية : وكان بقلعة زرعة بروكس .

(٣) وفي النسخة التونسية : والقلعة قد ثار بها وحصّنها .

وكان مبدأ أمره أنّ العزيز تغيّر عليه في حروب وقعت بينه وبين العرب نسب فيها إلى نفسه الإقدام ، وإلى السلطان العجز ، فخافه على نفسه ، ولحق ببجاية فأكرمه شيخها محمود بن نزال الربيعي^(١) وآواه وترافع إلى محمود أهل ورغة من عمله ، وكانوا فئتين مختلفتين من زائمه إحدى قبائل البربر ، وهما أولاد مدين وأولاد لاحق . فبعث عليهم يروكس بن أبي علي لينظر في أحوالهم ، وأقام معهم بالقلعة . ثم استجلب بعض الدّعار كانوا بناحيها ، وأنزلهم بالقلعة معهم واصطنعهم صاهر أولاد مدين وظاهرهم على أولاد لاحق ، وأخرجهم من القلعة واستبدّ بها .

وقصدته الرجال من كل جانب إلى أن اجتمعت له خمسمائة فارس ، وأنحن في نواحيه ، وحارب بني الورد ببتزرت وابن علال بطبرية ، وقتل محمد بن سباع أمير بني سعيد من رياح ، وغصبت القلعة بالسّاكن فاتخذ لها ربضاً ، وجّهز إليه العزيز عسكره من بجاية فبارز قائد العسكر وفتك به واسمه غيلاس . وهلك بعد مدة وقام بأمره ابنه مَنيع ، ونازله بنو سباع وسعيد طالين بثأر أخيهما محمد . وتماذى به الحصار وضائق أحواله فاقتحموا عليه القلعة ، واستلحم هو وأهل بيته قتلاً وسيياً والله مالك الأمور .

وكان أيضاً بطبرية مُدافع بن علال القَيْسِيّ شيخ من شيوخها . فلما اضطربت أفريقية عند دخول العرب إليها امتنع بطبرية وحصّن قلعتها ، واستبدّ بها في جملة من ولده وبني عمّه وجماعته إلى أن ثار عليه ابن بيزون اللخمي في البحرين على وادي مجردة . بازاء الرياحين . وطالت بينهما الفتنة والحرب . وكان قهرون بن مخنوس^(٢) بمترل دحمون قد بنى حصنه وشيّدته ، وجمع إليه جيشاً من أوباش القبائل ، وذلك لما أخرجه أهل تونس بعد أن ولّاه العامة عليهم . ثم صرفوه عن ولايتهم لسوء سيرته ، فخرج من البلد ونزل دحمون ، وبني حصناً بنفسه مع الحنايا وردّد الغارة على تونس ، وعاث في جهاتها فرغبوا من محرز بن زياد أن يظاهرهم عليه ففعل .

وبلغ خبره ابن علّال صاحب طبرية فوصل ابن علّال يده بصهر منه ، ونقله إلى بعض الحصون ببلده ، وهي قلعة غنوش ، وتظاهروا على الإفساد . وخلفها بنوها من بعدهما إلى أن وصل عبد المؤمن إلى أفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة فحما آثار

(١) وفي النسخة التونسية : محمود بن يزال الربيعي .

(٢) وفي نسخة ثانية : غنوش .

الفساد من جانب أفريقية ، وكان أيضاً حمّاد بن خليفة اللخمي بمثل رقطون من إقليم زغوان على مثل حال ابن علاّ وابن غنوش وابن بيزون وخلفه ولده في مثل ذلك إلى أن انقطع ذلك على يد عبد المؤمن . وكان عماد بن نصر الله الكلاعي بقلعة شقبنارية قد صار إليه جند من أهل الدعارة وأوباش القبائل ، فحملها من العرب ، واستغاث به ابن قليه شيخ الأريس من العرب ، وشكا إليه سوء ملكتهم ، فزحف إليهم وأخرجهم من الأريس ، وفرض عليهم مالا يؤدونه إليه إلى أن مات وولي ابنه من بعده ، فجرى على سنته إلى أن دخل في طاعة عبد المؤمن سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، والله مالك الملك لا ربّ غيره وسبحانه اهـ .

* (الخبر عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة الداعين
لخلافة العبيديين وما كان لهم من الملك والسلطان
بأفريقية والمغرب الاوسط الى حين انقراضه بالموحدين) *

هذه الدولة شعبة من دولة آل زيري وكان المنصور بلكين قد عقد لأخيه حمّاد على أشير والمسيلة ، وكان يتداولها مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار . ثم استقل بها سنة سبع وثمانين وثلثمائة أيام باديس من أخيه المنصور ودفعه لحرب زناتة سنة خمس وتسعين وثلثمائة بالمغرب الأوسط من مغرواة وبنى يفرن ، وشرط له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه وأن لا يستقدمه . فعظم عناؤه فيها وأثنى في زناتة وكان مظفراً عليهم . واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال . ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربها . ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها ، وتمّ بناؤها وتمصّرها على رأس المائة الرابعة . وشيّد من بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق ، فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدّن . ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لتفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها . ولم يزل حمّاد أيام باديس هذا أميراً على الزاب والمغرب الأوسط ومتولياً حروب زناتة . وكان تزوله ببلد أشير والقلعة متاخماً للملوك زناتة أحيائهم البادية بضواحي

تلمسان وتاهرت . وحاربه بنو زيري عند خروجهم على باديس سني تسعين وثلاثمائة وهم زاوي وما كسن وإخوانها فقتل ما كسن وابناه ، وألجأ زاوي وإخوته إلى جبل شنون وأجازهم البحر إلى الأندلس . ثم أن بطانة باديس ومن إليه من الأعجام والقراية نفسوا على حماد رتبته وسعوا في مكانه من باديس إلى أن فسد ذات بينهما . وطلب باديس أن يسلم عمل تيجست وقسنطينة لولد المعز لما قلده الحاكم ولاية عهد ابنه ، فأبى حماد وخالف دعوة باديس وقتل الرافضة وأظهر السنة ، ورضي عن الشيخين ونبذ طاعة العبيديين جملة ، وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة . وزحف إلى باجة فدخلها بالسيف ودس إلى أهل تونس الثورة على المشاركة والرافضة فثاروا بهم فناصره باديس الحرب ، وعصى عساكره من القيروان ، وخرج إليه فترع عن حماد أكثر أصحابه مثل : بني أبي واليل أصحاب معرة من زناته ، وبني حسن كبار صنهاجة ، وبني يطوفت من زناته ، وبني غمرة أيضاً منهم ، وفر حماد ، وملك باديس أشير . ولحق حماد بشلف بني واليل وباديس في أتباعه حتى نزل مواطن^(١) فحصر السرسو من بلاد زناته . ونزل إليه عطية بن دافلت^(٢) في قومه من بني توجين ، لما كان حماد قتل أباه . وجاء على أثره ابن عمه بدر بن لقمان بن المعتر فوصلها باديس واستظهر بهما على حماد .

ثم أجاز إليه باديس من وادي شلف وناجزه الحرب ، ونزع إليه عامة أهل معسكره فانهزم وأغذ السير إلى القلعة ، وباديس في أثره حتى نزل فحاصر المسيلة ، وانحجر حماد في القلعة وحاصره . ثم هلك بمعسكره من ذلك الحصار فجأة بمضربه وهونائم بين أصحابه ست وأربعمائة ، فباع صنهاجة لابنه المعز صبياً ابن ثمان سنين . وتلاقوا من أشير^(٣) ، وبعثوا كرامة بن منصور لسدّها فلم يقدروا ، واقتحمها عليه حماد . واحتملوا باديس على أعواده إلى مدفنهم بالقيروان وباعوا المعز بالبيعة العامة وزحف إلى حماد بناحية قفصة ، وأشفق حماد فبعث ابنه القائد لإحكام الصلح بينه وبين المعز ، فوصل إلى القيروان سنة ثمان وأربعمائة بهدية جليلة . وأمضى له المعز ما سألته من الصلح ورجع إلى أبيه .

(١) وفي النسخة الباريية : بوادي الطين ، وفي النسخة التونسية بالطين وفي نسخة أخرى : مواطن .

(٢) وفي النسخة الباريية : دافلت ، وفي النسخة التونسية : دافلين .

(٣) وفي نسخة أخرى : وتلاقوا أمر أشير .

وهلك حماد سنة تسعة عشر وأربعمائة فقام بأمره ابنه القائد وكان جباراً فاختر أخاه يوسف على المغرب وويغلان على حمزة في بلد اختطه حمزة بن إدريس . وزحف إليه حمامة بن زيري بن عطية ملك فاس من مغراوة سنة ثلاثين وأربعمائة فخرج إليه القائد ، وسرّب الأموال في زناته . وأحس بذلك حمامة فصالحه ودخل في طاعته ، ورجع إلى فاس ، وزحف إليه المعز من القيروان سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وحاصره مدة طويلة . ثم صالحه القائد وانصرف إلى أشير فحاصرها ، ثم أفلح عنها وانكفاً راجعاً . وراجع القائد طاعة العبيديين لما نقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة .

وهلك سنة ست وأربعين وأربعمائة وولي ابنه محسن وكان جباراً ، وخرج عليه عمه يوسف ولحق بالمغرب فقتل سائر أولاد حمّاد ، وبعث محسن في طلبه بلكين ابن عمه محمد بن حمّاد ، وأصبحه من العرب خليفة بن بكير وعطية الشريف وأمرهما بقتل بلكين في طريقهما ، فأخبرا بلكين بذلك وتعاهدوا جميعاً على قتل محسن ، وأنذروهم ، ففرّ إلى القلعة وأدركوه ، فقتله بلكين لتسعة أشهر من ولايته . وولي الأمر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة^(١) وكان شهماً قرماً حازماً سفاكاً للدماء . وقتل وزير محسن الذي تولى قبله . وفي أيامه قتل جعفر بن أبي رمان مقدّم بسكرة لما أحس بنكته ، فمجالف أهل بسكرة بأثر ذلك حسباً نذكره . ثم مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم به زوجته ناميرت بنت عمه علفاس بن حمّاد فقتلها ، وأحفظ ذلك أخاها الناصر وطوى على التبييت . وكان بلكين كثيراً ما يردّد الغزو إلى المغرب ، وبلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين وأربعمائة وفرّ المرابطون إلى الصحراء ، وتوغّل بلكين في ديار المغرب ، ونزل بفاس ، واحتمل من أكابر أهلها وأشرفهم رهناً على الطاعة . وانكفاً راجعاً إلى القلعة فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثأر بأخته ، ومالاه قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بابعاد الغزو والتوغّل في أرض العدو ، فقتله بتساله سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

وقام بالأمر من بعده ، واستوزر أبا بكر بن أبي الفتوح ، وعقد على المغرب لأخيه كباب وأنزله مليانة وعلى حمزة لأخيه رومان ، وعلى نقاوس لأخيه خزر . وكان المعز

(١) الواقع ان القائد بن حمّاد توفي سنة ٤٤٦ فخلقه ابنه محسن الذي قتله بلكين بن محمد بن حماد بعد تسعة أشهر حسب رواية ابن خلدون فيكون وفاته في سنة ٤٤٧ وليس ٤٣٧ . وربما يعود هذا الخطأ الى الناسخ . وفي النسخة التونسية ايضاً ٤٤٧ . كذلك في قبائل المغرب ص ١٤٤ .

قد هدم سورها فأصلحه الناصر ، وعقد على قُسْنُطِينَةَ لأخيه بلباز ، وعلى الجزائر وسوس الدجاج ^(١) لابنه عبدالله وعلى أشير لابنه يوسف ، وكتب إليه حَمُو بن ملك البرغواطِي من صَفَاقِس بالطاعة وبعث إليه بالهدية . ووفد عليه أهل قُسْنُطِينَةَ ^(٢) ومقدمهم يحيى بن واطاس فأعلنوا بطاعته ، وأجزل صلتهم وردّهم إلى أُمّاكنهم ، وعقد عليها ليوسف بن خلوف من صنهاجة ودخل أهل القيروان أيضاً في طاعته وكذلك أهل تونس .

وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين مقدمهم جعفر بن أبي رمان خلعوا طاعة آل حمّاد واستبدّوا بأمر بلدهم ، وعليهم بنو جعفر ، فسرّح الناصر إليهم خلف بن أبي حيدرة وزيره ووزير بلكين قبله ، فنازها وافتتحها عنوة ، واحتمل بني جعفر في جماعة من رؤسائها إلى القلعة فقتلهم الناصر وصلبهم ، ثم قتل خلف بن أبي حيدرة بسعاية رجالات صنهاجة فيه ، أنه لما بلغه خبر بلكين أراد تولية أخيه معمر ، وشاورهم في ذلك ، فقتله الناصر وولّى مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح .

ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب فوثب علي بن ركان على تافر بوست ^(٣) دار ملكهم وكان لما قتل بلكين هرب إلى اخوانه من عجيسة واهتبلوا الغرة في تافر بوست لغية الناصر ، فطرقوها ليلاً ، وملكها عليّ فرجع الناصر من المسيلة وعاجلهم فسقط في أيديهم ، وافتتحها عليهم عنوة وذبح علي بن ركان نفسه بيده . ثم وقعت بين العرب الهلاليين فتن وحروب ووفد عليه رجالات الأثبج صريحاً به على رياح ، فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة حتى نزل للأربس ، وتواقعوا بسببه فغدرت بهم زناتة وجروا عليه وعلى قومه الهزيمة بدسياسة ابن المعز بن زيري بن عطية ، وإغراء تميم بن المعز فانهمز الناصر ، واستباحوا خزائنه ومضاريه ، وقتل أخوه القاسم وكتبه ، ونجا إلى قسنطينة في اتباعه .

ثم لحق بالقلعة في فلّ من عسكريه ، لم يبلغوا مائتين . وبعث وزيره ابن أبي الفتوح للإصلاح ، فعقد بينهم وبينه صلحاً وتمّمه الناصر . ثم وفد عليه رسول تميم ، وسعى عنده بالوزير بن أبي الفتوح وأنه مائل إلى تميم فنكسه وقتله . وكان المستنصر بن

(١) وفي نسخة أخرى : مرسى الدجاج .

(٢) وفي النسخة التونسية : قسطنطية .

(٣) وفي النسخة التونسية تافر بوست وفي قبائل المغرب تفرسيت ص ٣٣٠ .

خزرون الزناتي خرج في أيام الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر ، ووصل إلى طرابلس فوجد بني عديّ بها قد أخرجهم الأتيج وزغبة من أفريقية كما ذكرناه ، فرغّبهم في بلاد المغرب ، وسار بهم حتى نزل المسيلة ، ودخلوا أشير . وخرج إليه الناصر فقرّ إلى الصحراء ورجع ، فرجع إلى مكانه من الإفساد ، فراسله الناصر في الصلح فأسعفه ، وأقطعه ضواحي الزاب وريغه ، وأوعز إلى عروس بن هندي^(١) رئيس بسكرة لعنده ، وولي دولته أن يمكر به ، فوصل المنتصر إلى بسكرة وخرج إليه عروس ابن هندي وأحمد نزله ، وأشار على حشمه عند انكباب المنتصر وذويه على الطعام فبادروا مكبين لظعنه ، وفرّ أتباعه وأخذوا رأسه ، وبعث به إلى الناصر فنصبه ببجاية ، وصلب شلوه بالقلعة وجعلوه عِظّة لغيره . وقتل كثير من رؤساء زناتة ، فن مِغْرَاوَة أبي الفتوح بن حبوس أمير بني سنجل ، وكانت له بلد لمديه والمرية قبيل من بطون صنهاجة سميت البلد بهم ، وقتل مُعَنْصِر بن حمّاد منهم أيضاً ، وكان بناحية شِلْف فأجلب على عامل مِلْيَانَه ، وقتل شيوخ بني ورسيقان من مِغْرَاوَة ، فكاتبهم السلطان لما كان مشغلاً عنهم بشأن العرب . فزحفوا إلى معنصر وقتلوه ، وبعثوا برأسه إلى الناصر فنصبه مع رأس المنتصر^(٢) . وبعث إليه أهل الزاب أنّ عمر^(٣) ومغراوة ظاهروا الأتيج من العرب على بلادهم ، فبعث ابنه المنصور في العساكر ونزل وعلان^(٤) بلد المنتصر بن خزرون^(٥) وهدمها . وبعث سراياه وجيوشه إلى بلد واركلا وولّى عليها ، وقفل بالغنائم والسبي ، وبلغه عن بني توجين من زناتة أنهم ظاهروا بني عدي من العرب على الفساد وقطع السبيل ، وأميرهم إذ ذاك مناد بن عبد الله ، فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر ، وتقبّض على أمير بني توجين وأخيه زيري وعمّهما الأغلب وحامه ، وأحضرهم فويّخهم وقدر عليهم فغلبه في إجارته من أولاد القاسم رؤساء بني عبد الواد ، وقتلهم جميعاً على الخلاف .

وفي سنة ستين وأربعمائة افتتح جبل بجاية ، وكان له قبيل من البربر يسمّون بهذا الاسم ، إلّا أنّ الكاف فيهم بلغتهم ليست كافاً بل هي بين الجيم والكاف ، وعلى هذا

(١) وفي النسخة التونسية : سندي .

(٢) وفي نسخة أخرى : فنصبه على رأس القصر .

(٣) وفي النسخة الباريسية : عمرت . وفي النسخة التونسية : غمرت .

(٤) وفي النسخة التونسية : وعلان .

(٥) هو المنتصر بن خزرون .

القبيل من صنهاجة يأتون لهذا العهد أوزاعاً في البربر . فلما افتتح هذا الجبل اختطّ به المدينة وسماها الناصرية ، وتسمّى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية ، وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل إليها الناس ، وأسقط الخراج عن ساكنيها وانتقل إليها سنة إحدى وستين وأربعمائة وفي أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس إخوانهم بالمهدية ، ولما أضرع منه الدهر بفتنة العرب الهلاليين حتى اضطرب عليهم أمرهم ، وكثر الثوار عليهم والمنازعون من أهل دولتهم ، فاعتز آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا ، وعظم شأن أيامهم ، فبنى المباني العجيبة المؤنقة ، وشيّد المدائن العظيمة ، وردّد الغزو إلى المغرب وتوغل فيهم .

ثم هلك سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وقام بالأمر من بعده ابنه المنصور بن الناصر . ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وأوطنها بعساكر وخاصة بعراعر منازل العرب^(١) ، وما كانوا يسومونهم بالقلعة من خطة الخسف وسوء العذاب بوطء ساحتها والعيث في نواحيها ، وتخطف الناس من حولها السهولة طرقتها على رواحلهم ، وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية لمكان الأوعار ، فاتخذ بجاية هذه معقلاً وصيرها داراً للملكه ، وجدّد قصورها وشيّد جامعها . وكان المنصور هذا جماعة مولعاً بالبناء وهو الذي حضر ملك بني حماد وتأتق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين . فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون^(٢) .

وكان أخوه يلباز على قسنطينة منذ عهد الناصر أبيهما وهم بالاستبداد لأول ولاية المنصور ، فسرح إليه أبا يكنى بن محسن بن العابد في العساكر ، وعقد له على قسنطينة وبونة فتقبّض على يلباز وأشخصه إلى القلعة ، وأقام والياً على قسنطينة وكانه ، وولّى أخاه ويغلان على بونة . ثم بدا له في الخلاف على المنصور وثار بقسنطينة سنة سبع وثمانين وأربعمائة وبعث أخاه ابن مودة إلى تميم بن المعز بالمهدية ، واستدعاه لولاية بونة فبعث معه ابنه أبا الفتوح بن تميم ، ونزل بونة مع ويغلان ، وكاتبوا المرابطين بالمغرب الأقصى وجمعوا العرب على أمرهم . وسرح المنصور عساكره فحاصروا بونة سبعة أشهر ، ثم اقتحموها غلاباً ، وتقبضوا على أبي الفتوح

(١) وفي نسخة أخرى : وخاصة بعرا من بلاد العرب .

(٢) وفي قبائل المغرب/١٤٥ : قصر دار السلام ، وبجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميون .

بن تميم وبعثوا به إلى المنصور فاعتقله بالقلعة .

ثم نازلت عساكره قسنطينة واضطرب أحوال ابن أبي يُكنى فخرج إلى قلعة يجبل أوراس ، وتحصّن بها . ونزل بقسنطينة صُلَيْبُ بن الأحمر من رجالات الأتبع . وداخل صُلَيْبُ المنصور في أن يملكه من قسنطينة على مال يبذله ففعل ، واستولى عليها المنصور . وأقام أبو يُكنى بحصنه من أوراس ، وردّد الغارة على قسنطينة فتوجّهت إليه العساكر وحاصروه بقلعته . ثم اقتحموها عليه وقتلوه . وكان بنو ومانو من زناتة حيّاً جميعاً وقوماً أعزّة . وكانت إليهم رياسة زناتة . وكان رئيسهم لعدهه ماخوخ ، وكان بينهم وبين آل حمّاد صهر ، فكانت إحدى بناتهم زوجة للناصر ، وكانت أخرى عند المنصور .

ولما تجددت الفتنة بينه وبين قومها أغزاهم المنصور بنفسه في جموع صنهاجة وحشوده ، وجمع له ماخوخ ولقيه في زناتة ، فانهزم المنصور إلى بجاية فقتل أخت ماخوخ التي كانت تحته . واستحكمت النفرة بين ماخوخ وبينه . وسار إلى ولاية أمراء تلمسان من لمتونة وحرّضهم على بلاد صنهاجة ، فكان ذلك مما دعا المنصور إلى النهوض إلى تلمسان ، وذلك أن يوسف بن تاشفين لمّا ملك المغرب ، واستفحل به أمره ، سار إلى ملك تلمسان ، فغلب عليها أولاد يُعْلَى سنة أربع وسبعين وأربعمئة على ما يأتي ذكره ، وأنزلها محمد بن يغمر المسولي^(١) وصيّرها لغز الملك^(٢) فاضطلع بأمرها ونازل بلاد صنهاجة وثغورهم ، فرحف إليه المنصور وأخرب ثغوره وحصون ماخوخ ، وضيق عليه فبعث إليه يوسف بن تاشفين وصالحه .

وقبض أيدي المرابطين عن بلاد صنهاجة ، ثم عاود المرابطون إلى شأنهم في بلاده ، فبعث ابنه الأمير عبدالله ، وسمع به المرابطون فانقبضوا عن بلاده وزحفوا إلى مراکش ، واحتل هو بالمغرب الأوسط فشنّ الغارة في بلاد بني ومانو ، وحاصر الجعبات ، وفتحها ثم عاود ذلك مرات كذلك ، وعفا عن أهلها ، ورجع إلى أبيه . ثم وقعت الفتنة بينه وبين ماخوخ . وقتل أخوه ولحق ابن ماخوخ بتلمسان ، وظاهره ابن يغمر صاحب تلمسان على أمره ، واجلبوا على الجزائر فنزلوها يومين ، فأعقبها محمد بن يغمر صاحب تلمسان .

(١) وفي نسخة أخرى : محمد بن يغمر المستوفي .

(٢) وفي نسخة أخرى : وصيّرها ثغراً للملكه .

وولي يوسف بن تاشفين مكان أخيه تاشفين بن يغمر ، فنهض إلى أشير وافتتحها ، فقام المنصور في ركائبه ومعه كافة صنهاجة^(١) . ومن العرب أحياء الأثبيج وزغبة وربيعة ، وهم العقل من زناتة أمماً كثيرة ، ونهض إلى غزو تلمسان سنة ست وسبعين وأربعمائة في نحو عشرين ألفاً . ولقي اسطقسه^(٢) وبعث العسكر في مقدّمته ، وجاء على أثرهم . وكان تاشفين قد أفرج عن تلمسان وخرج إلى تسّالة ، ولقيته عساكر المنصور فهزموه ، ولجأ إلى جبل الصخرة . وعاثت عساكر المنصور في تلمسان فخرجت إليه حوا زوجة تاشفين أميرهم متذممة راغبة في الإبقاء ، متوسلة بوشائج الصنهاجية ، فأكبر قصدها إليه وأكرم موصلها ، وأفرج عنهم صبيحة يومه . وانكفأ راجعاً إلى حضرته بالقلعة . وأثنى بعدها في زناتة وشرّدهم بنواحي الزاب والمغرب الأوسط . ورجع إلى بجاية وأثنى في نواحيها ، ودوّخت عساكره قبائلها ، فساروا في جبالها المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت^(٣) والمنصورية والصهريج والناطور^(٤) وحجر المعز ، وقد كان أسلافه يرومون كثيراً عنها ، فتمنع عليهم فاستقام أمره واستفحل ملكه .

وقدم عليه معز الدولة بن صمّاح من المرية فاراً أمام المرابطين لما ملكوا الأندلس ، فترّل على المنصور وأقطعته تدلس وأنزله بها . وهلك سنة ثمان وتسعين وأربعمائة فولي من بعده ابنه باديس ، فكان شديد البأس عظيم النظر فنكب عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه لأوّل ولايته ، وخرج من القلعة إلى بجاية فنكب سهاماً عامل بجاية . وهلك قبل أن يستكمل سنة ، وولي من بعده أخوه العزيز . وقد كان عزله عن الجزائر وغرّبه إلى جيجل فبعث عنه القائد علي بن حمدون فوصل ، وبايعوه ، وصالح زناتة وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه ابنته . وطال أمر ملكه ، وكانت أيامه هدنة وأمناً . وكان العلماء يتناظرون في مجلسه .

ونازلت أساطيله جرّبة فترّلوا على حكمه وأخذوا بطاعته ، ونازل تونس وصالحه صاحبها أحمد بن عبد العزيز وأخذ بطاعته ، وكبس العرب في أيامه القلعة وهم

(١) وفي النسخة التونسية : فقام المنصور في ركائبه وقعد واستنفر كافة صنهاجة .

(٢) وفي نسخة أخرى : اسطقسيف .

(٣) وفي النسخة الباريسية : بازروت وفي النسخة التونسية يازروت .

(٤) وفي النسخة الباريسية : والهريج والناطور وفي التونسية : والصهريج والباطور

غارون فاكسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها ، وعظم عيهم ، وقاتلتهم الحامية فغلبوهم وأخرجوهم من البلد . ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر إلى العزيز فبعث ابنه يحيى وقائده علي بن حمدون من بجاية في عسكر وتعيية ، فوصل إلى القلعة وسكن الأحوال . وقد آمن العرب واستعتبوا فأعتبوا وانكفأ يحيى راجعاً إلى بجاية في عسكره على عهد العزيز . وهكذا كان وصول مهدي الموحدين إلى بجاية قافلاً إلى المشرق سنة إثنتي عشرة وخمسمائة وغيّر بها المنكر ، فسعى به عند العزيز وائتمر به ، فخرج إلى بني وريا كل من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فأجاروه . ونزل عليهم بملالة وأقام بها يدرّس العلم . وطلبه العزيز فمنعوه وقاتلوه دونه إلى أن رحل عنهم إلى المغرب .

وهلك العزيز سنة خمس عشرة وأربعمائة^(١) فولي من بعده ابنه يحيى ، وطالت أيامه مستضعفاً مغلباً للنساء مولعاً بالصيد على حين انقراض الدولة وذهاب الأيام بقبائل صنهاجة واستحدث السكة ولم يحدثها أحد من قومه أدباً مع خلفائهم العبيديين ، ونقل ابن حماد أنّ سكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه ، فدائرة الوجه الواحد : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » والسطور « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ، يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور . ودائرة الوجه الآخر : « بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصريّة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة » . وفي سطوره الإمام أبو عبد الله المقتني لأمر الله أمير المؤمنين العباسي .

ووصل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى القلعة لافتقادها ونقل ما بقي بها ، وانتقض عليه بنو زرا بن مروان ، فجهّز إليه الفقيه مطرف بن علي بن حمدون في العساكر فافتتحها عنوة وتقبّض على ابن مروان وأوصله إليه فسجنه بالجزائر إلى أن هلك في معتقله ، وقيل قتله . وبعث مطرف بابنه إلى تونس فافتتحها ونازل في وجهته هذه المهديّة فامتنعت عليه ، ورجع إلى بجاية وتغلّب النصارى على المهديّة ، وقصده الحسن صاحبها فأجازه إلى الجزائر وأنزله بها مع أخيه القائد ، حتى إذا زحف الموحّدون إلى بجاية وفرّ القائد من الجزائر وأسلمها ، قدّموا الحسن على انفسهم ولقي

(١) الصحيح : خمس عشرة وخمسمائة .

عبد المؤمن فأمّتهم ، وأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء الموحدّين فانهزم وملك الموحدون بجاية .

وركب يحيى البحر إلى صقلية يروم الاجازة منها إلى بغداد . ثم عدل إلى بونة فترّل على أخيه الحارس ونكر عليه سوء صنيعه وإخراجه عن البلاد فارتحل عنه إلى قسنطينة ، فترّل على أخيه الحسن فتخلّى له عن الأمر . وفي خلال ذلك دخل الموحدون القلعة عنوةً . ودخل حوشن بن العزيز وابن الدحامس من الأثبج معه وخربت القلعة . ثم بايع يحيى لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وخمسمائة ونزل قسنطينة واشترط لنفسه فوقى له ، ونقله إلى مراکش فسكنها . ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فسكن قصر بني عشيرة إلى أن هلك في سته . وأمّا الحارث صاحب بونة ففرّ إلى صقلية واستصرخ صاحبها فصارخه على أمره ورجع إلى بونة وملكها . ثم غلب عليها الموحدون وقتلوه صبراً . وانقرض ملك بني حمّاد والبقاء لله وحده ، ولم يبق من قبائل ماكسن إلا أوزاع بوادي بجاية ينسبون إليهم ، وهم لهذا العهد في عداد الجند ، ولهم أقطاع بنواحي البلد على العسكرية في جملة السلطنة مع قواده ، والله وارث الأرض ومن عليها اهـ .

يحيى بن العزيز — باديس —
بن المنصور — عبد الله —
ريغلان —
بن الناصر — خزر —
يلباز —
بن علس —
محسن بن القايد —
بن حماد — يطوفت —
المنصور —
بن بلكين — أبو البهار —
بن زيري

ملوك بني حبوس

(الخبر عن ملوك بني حبوس بن ماكسن من بني زيري من
صنهاجة من غرناطة من عدوة الأندلس وأولية ذلك ومصايره

لما إستبدّ باديس بن المنصور بن بلكن بن زيري بن مناد بن هاد بولاية أفريقية سنة
خمس وثمانين وثلثمائة ولى عمومته وقرابته ثغور عمله ، فأنزل حمّاداً بأشير أخاه
يطوفت بتاهرت ، وزحف زيري بن عطية صاحب فاس من مغراوة بدعوة المؤيد
هشام خليفة قُرْبُبة إلى عمل صنهاجة في جموع زنّانة ، ونزل تاهرت وسرح باديس
عساكره لنظر محمد بن أبي العون فالتقوا على تاهرت ، وانهمز صنهاجة ، فزحف
باديس بنفسه للقائهم ، وخالف عليه فلفول بن سعيد بن خزون صاحب طُبْنَة ثم
أجفل زيري بن عطية أمامه ورجع إلى المغرب ، فرجع باديس إلى القيروان ، وترك
عمومته أولاد زيري بأشير مع حمّاد وأخيه يطوفت وهم زاوي وحلال وعرم ومعين
وأجمعوا على الخلاف والخروج على باديس سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، فأسلموا
حمّاداً برمته واستولوا على جميع ما معه ، واتصل الخبر بأبي الهار بن زيري ، وهم
مع باديس فخشيه على نفسه ، ولحق بهم واجتمعوا في الخلاف ، واشتغل باديس
عنهم بحرب فلفول بن يانس مولى الحاكم القادم على طرابلس من قبله ، وانفسح
بجاهلهم في الفساد والعيث ووصلوا أيديهم بفلفول وعاقده .

ثم رجع أبو الهار عنهم إلى باديس فتقبّله وصالح له ، ثم رجعوا إلى حمّاد سنة إحدى
وتسعين وثلثمائة ، ولقيهم فهزمهم وقتل ماكسن وابنه . ولحق زاوي بجبل شنوق من
ساحل مليانة ، وأجاز البحر إلى الأندلس في بنيه وبني أخيه وحاشيته ، ونزل على
المنصور بن أبي عامر صاحب الدولة وكافل الخلافة الأموية ، فأحسن نزلهم وأكرم
وفادتهم ، واصطنعهم لنفسه واتخذهم بطانة لدولته وأوليائه على ما يرومه من قهر
الدولة والتغلب على الخلافة ، ونظّمهم في طبقات زنّانة وسائر رجالات البربر الذين
أدال بجموعهم من جنود السلطان وعساكر الأموية وقبائل العرب ، واستغلظ أمر
صنهاجة بالأندلس واستفحلت إمارتهم ، وحملوا دولة المنصور بن أبي عامر وولديه
المظفر والناصر من بعده على كاهلهم .

ولما انقضى أمرهم واضمحلت دولتهم ونشأت الفتنة بالأندلس بين البرابرة وأهلها ، فكان زاوي كبش تلك الوقائع ومحش^(١) حروبها . وتمرس بقرطبة هو وقومه صنهاجة وكافة زناته والبربر حتى أثبتوا قدم خليفتهم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر الذي أتوه ببيعتهم ، وأعطوه على الطاعة صفقتهم كما ذكرناه في أخبارهم . ثم اقتحموا به قرطبة عنوة واطلموا عامة أهلها وأنزلوا المعرات بذوي الصون منها وبيوتات الستر من خواصها ، فحدث الناس في ذلك بأخبارها وتوصل زاوي عند استباحة قرطبة إلى رأس أبيه زيري بن مناد المتصور بجدران قصر قرطبة فأزاله وأصاره إلى قومه ليدفن في جدته . ثم كان شأن بني حمود من العلوية ، وافترق أمر البرابرة واضطربت الأندلس ناراً ، وامتألت جوانبها فتنة ، وأسرى الرؤساء من البرابرة ورجالات الدولة على النواحي والأمصار فلكوها ، وتحيزت صنهاجة إلى ناحية البيرة فكانت ضواحيها وحصل عليها استيلاؤهم ، وزاوي يومئذ عضد البرابرة فتزل غرناطة واتخذها داراً للملكة ومعتصماً لقومه .

ثم وقع في نفسه سوء أثر البربر بالأندلس أيام الفتنة ، وحذر مغبة الفعلة واستعاضت الدولة ، فاعتزم على الرحلة وآوى إلى سلطان قومه بالقيروان سنة عشر وأربعمائة بعد مغيبه عشرين سنة ، وأنزل على المعز بن باديس حافد أخيه بلكين أجل ما كانت دولتهم بأمر أفريقية ، وأترف وأوسع ملكاً وأوفر عدداً ، فلقبه المعز بأحسن أحوال البر والتجلة ، وأنزله أرفع المنازل من الدولة وقدمه على الأعمام والقرابة وأسكنه بقصره ، وأبرز الحرم للقائه ، فيقال : إنه لقيه من ذوات محارمه ألف امرأة لا تحل له واحدة منهن ، ووارى إبراهيم مع شلوه بجدته . وكان استخلف على عمله ابنه ونا فظعن لأهل غرناطة فانتقضوا عليه ، وبعثوا عن حبوس ابن عمه ما كسن بن زيري مكانه ببعض حصون عمله ، فبادر إليهم ، ونزل بغرناطة ، فانتقضوا عليه وبايعوه ، واستحدث بها ملكاً ، وكان من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة وولي من بعده ابنه باديس بن حبوس ويلقب بالمظفر ، ولم يزل مقيماً لدعوة آل حمو أمراء مالقة بعد تحلفهم عن قرطبة سائر أيامه ، وزحف إليها العامري صاحب المرية سنة تسع وعشرين وأربعمائة فلقبه باديس بظاهر غرناطة فهزمه وقتله وطالت

(١) حشّ الحرب أي هيجها (القاموس) .

أيام ومدّ ملوك الطوائف أيديهم جميعاً إلى مدده فكان ممن استمدّه محمد بن عبدالله البرزالي لما حاصره اسمعيل بن القاضي بن عبّاد بعساكر أبيه فأمدّه باديس بنفسه وقومه وصار إلى صريخه مع ابن بقية قائد إدريس بن حمّود صاحب المالقة سنة إحدى وثلاثين وأربعائة ورجعوا من طريقهم . وطمع اسمعيل بن القاضي بن عبّاد مع صريخه فيهم فاتبعهم ولحق بباديس في قومه ، فاقتتلوا ، وفرّ عسكر اسمعيل وأسلموه فقتله صنهاجة ، وحمل رأسه إلى ابن حمود .

وكان القادر بن ذي النون صاحب طليطلة أيضاً يستدفع به وبقومه استطالة ابن عبّاد واعوانه . وباديس هذا هو الذي مضّر غرناطة واختطّ قصبتها وشاد قصورها وشيّد حصونها ، وآثاره في مبانيها ومصانعها باقية لهذا العهد . واستولى على مالقة عند انقراض بني حمود سنة تسع وأربعين وأربعائة وأضافها إلى عمله ، وهلك سنة سبع وستين وأربعائة وظهر أمر المرابطين بالمغرب واستفحل ملك يوسف بن تاشفين فولي من بعده حافده عبدالله بن بلكين بن باديس ، وتغلّب المظفر وعقد لأخيه تميم على مالقة فاستقام أمرها إلى أن أجاز يوسف بن تاشفين إلى العدو اجازته المعروفة كما نذكره في أخباره . ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين فتقبّض على عبدالله بن بلكين واستبصفي أمواله وذخيرته وألحق به أخاه تميماً من مالقة واستصحبهما إلى العدو ، فأنزل عبدالله وتيمماً بالسوس الأقصى وأقطع لهما إلى أن هلكوا في إيالته ، ويزعم بنو الماكسن من بيوتات طنجة لهذا العهد أنهم من أعقابهم ، فاضمحلّ ملك بلكانة من صنهاجة ومن أفريقية والأندلس أجمع والبقاء لله وحده اهـ .

عبدالله بن بلكين بن باديس بن حيوس بن ماكسن ————— بن زيري بن مناد

ملوك غرناطة بعد الفتنه
بنو زيري

الطبقة الثانية من صنهاجة وهم المثلثون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة

هذه الطبقة من صنهاجة هم المثلثون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ، أبعادوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها . فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها ، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتبأذا عن العمران ، واستثناسا بالانفراد ، وتوحشاً بالغز عن الغلبة والقهر . فترلوا من ريف الحبشة جواراً ، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً ، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم ، وعفوا في تلك البلاد وكثروا . وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فسوقة فوتريكة فناوكا^(١) فرغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة .

وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم بنو رتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة ، وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كأكدم وكان دينهم جميعاً الجوسية شأن برابرة المغرب . ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس ، وكانت الرياسة فيهم للمتونة . واستوسق لهم ملك ضخم مذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل توارثه ملوك منهم : تلاكاكين وورتكا اوراكن بن ورتنطق جد أبي بكر بن عمر أمير لمتونة في مبتدأ دولتهم ، وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها ، ودوخوا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام ، فدان به كثيرهم . واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم وملك عليهم بعد تلاكاكين المذكور ثيولوثان .

(قال) ابن أبي زرع : أول من ملك الصحراء من لمتونة ثيولوثان ، فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان وكان يركب في مائة ألف نجيب . وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، وملك بعده يكتان^(٢) وقام بأمرهم وتوفي سنة سبع وثمانين ومائتين ، وقام بأمرهم بعده ابنه تميم إلى سنة ست وثلاثمائة ، وقتله صنهاجة وافترق

(١) وفي النسخة التونسية : فوتريكة فناوكا .

(٢) وفي النسخة الباريسية : بليان .

أمرهم اهـ. كلام ابن أبي زرع . وقال غيره : كان من أشهرهم تيزا^(١) وابن وانثيق بن بيزا وقيل برويان بن واشثق بن يزار ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في المائة الرابعة . وفي عهد عبيد الله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة ، كان يركب في مائة ألف نجيب ، وعمله مسيرة شهرين في مثلها ، ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان يعطونه الجزى ، وملك من بعده بنوه . ثم افترق أمرهم من بعد ذلك ، وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعاً . قال ابن أبي زرع : افترق أمرهم بعد تميم بن بلتان مائة وعشرون سنة إلى أن قام فيهم أبو عبيد الله بن تيفافوت المعروف بناشرت اللمتوني ، فاجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الدين والصلاح ، وحجّ وهلك لثلاثة أعوام من رياسته في بعض غزواته . وقام بأمرهم صهره يحيى بن ابراهيم الكندالي . وبعده يحيى بن عمر بن تلاكاكين اهـ كلامه . وكان لهذه الطبقة ملك ضخم بالمغرب والأندلس أولاً ، وبأفريقية بعده فنذكره الآن على نسقه .

الخبر عن دولة المرابطين^(٢) من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك وأولية ذلك ومصابيره

كان هؤلاء الملتمون في صحارهم كما قلناه ، وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه ، وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم واستوسق لهم الملك . ثم افترقوا وكانت رياسة كل بطن منهم في بيت مخصوص . فكانت رياسة لمتونة في بني ورتانطق^(٣) بن منصور بن وصالة بن المنصور بن مزالت ابن أميت بن رتمال بن ثلميت وهو لمتونة . ولما أفضت الرياسة إلى يحيى بن ابراهيم الكندالي ، وكان له صهر في بني ورتانطق هؤلاء ، وتظاهروا على أمرهم . وخرج يحيى بن ابراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سني أربعين وأربعمئة ، فلقوا في

(١) وفي نسخة أخرى : تيزوا .

(٢) علق أحمد أمين في حديثه عن المرابطين والموحدين أنهم «لم يكونوا من سعة الافق والعراقة في المدينة والحضارة بحيث يستطيعون ان يحكموا الاندلس طويلاً . (ظهور الإسلام ج ٣ ص ٧) .

(٣) ورتنطق : قبائل الغرب/٣٣٢ .

منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي أبو عمران الفاسي ، واغتنموا ما متعوا به .
من هديه وما شافهم به من فروض أعيانهم من فتاويه .

وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في نوازلهم وقضايا دينهم ، فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه . فاستوعروا مسغبة بلادهم . وكتب لهم الفقيه أبو عمران إلى الفقيه محمد وكاك ابن زلوا اللمطي سِجْلَمَاسَة من الآخذين عنه ، وعهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه ، ويروّض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه ، فبعث معهم عبدالله بن ياسين بن مكو الجزولي ، ووصل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين . ثم هلك يحيى ابن ابراهيم وافترق أمرهم ، واطرحوا عبدالله بن ياسين ، واستصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه لما تجشّموا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة ، وأخوه أبو بكر ، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط ببحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في المصيف وغمرأ في الشتاء ، فتعود جزراً منقطعة . فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة ، وتسامع بهم من في قلبه مثقال حبة من خير ، فتسايلوا إليهم ودخلوا في دينهم وغيضتهم .

ولما كمل معهم ألف من الرجالات ، قال لهم شيخهم عبدالله بن ياسين : إن ألفاً لن تغلب من قلة ، وقد تعيّن علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه ، فأخرجوا بنا لذلك ، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة^(١) ومهمومة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة ، وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين ، وسماهم بالمرباطين ، وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر ، فتخطّوا الرمال الصحراوية إلى بلاد دَرْعَة وسِجْلَمَاسَة فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا . ثم كتب إليهم وكاك اللمطي بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بني وانودين أمراء سِجْلَمَاسَة من مغراوة ، وحرّضهم على تغيير أمرهم ، فخرجوا من الصحراء سنة خمس وأربعين وأربعمائة في عدد ضخم ركباناً على المهارى أكثرهم ، وعمدوا إلى درعة . لا بل كانت هنالك بالحمى وكانت تناهز خمسين ألفاً ونحوها . ونهض إليهم مسعود بن وانودين أمير مِغْرَاوَة وصاحب سِجْلَمَاسَة ودَرْعَة لدافعته عنها

(١) هم من القبائل اللثمين / قبائل المغرب ص ٣٣٢ .

وعن بلاده ، فتواقعوا وانهزم ابن وانودين وقتل واستلحم عسكره مع أموالهم ، واستلحمهم ودوابهم وأبل الحمى التي كانت ببلد درعة . وقصدوا سجالسة فدخلوها غلاباً وقتلوا من كان بها من أهل مغراوة ، وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات ، وأسقطوا المغارم والمكوس ، واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها منهم وعادو إلى صحرائهم ، فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وقدم مكانه أخاه أبا بكر وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين وأربعمئة وافتتح ماسة وتارودانت سنة تسع وأربعين وأربعمئة وقرأ أميرها لقوط بن يوسف بن عليّ المغراوي إلى تادلاً^(١) واستضاف إلى بني يفرن ملوكها وقتل معهم لقوط بن يوسف المغراوي صاحب غمات^(٢) وتزوج امرأته زينب بنت اسحق النَفْزَاوِيَّة ، وكانت مشهورة بالجمال والرياسة ، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن عليّ بن عبد الرحمن بن واطاس ، وكان شيخاً على وريكة وهي زوجة هيلانة في دولة امغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ . وتغلب بنو يفرن على وريكة ، وملكوا غمات فترّوج لقوط زينب هذه ، ثم تزوّجها بعده أبو بكر بن عمر كما ذكرنا . ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة الذين كانوا بتامستا^(٣) وإنفا وجهات الريف الغربي ، فكانت لهم فيهم وقائع وأيام استشهد عبدالله بن ياسين في بعضها سنة خمسين وأربعمئة وقد أمّ المرابطين بعده سليمان بن حروا^(٤) ليرجعوا إليه في قضايا دينهم . واستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه على جهادهم ثم استأصل شأفتهم ومحا أثر دعوتهم من المغرب وهلك في جهادهم سليمان بن عدو سنة إحدى وخمسين وأربعمئة لسنة من وفاة عبدالله بن ياسين .

ثم نازل أبو بكر مدينة لواتة وافتتحها عنوة وقتل من كان بها من زناتة سنة اثنتين وخمسين وأربعمئة . وبلغه وهول لم يستم فتح المغرب بعد ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء ، حيث أصل أعياصهم ووشايح أعراقهم ومنيع عددهم ، فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة ، وتلافى أمره بالرحلة . وأكد ذلك زحف

(١) وفي قبائل المغرب ص ١٢٣ : وتبع أميرها لقوط الغماري إلى تادلة ففتحها سنة ٤٤٩ .

(٢) وفي قبائل المغرب ص ١٢٣ : أغات .

(٣) تامستا : قبائل المغرب ص ١٢٤ .

(٤) وفي نسخة أخرى : سليمان بن عدو .

بلكنين بن محمد بن حمّاد صاحب القلعة إلى المغرب سنة ثلاث، وخمسين وأربعائة لقتالهم ، فارتحل أبو بكر إلى الصحراء ، واستعمل على المغرب ابن عمّه يوسف بن تاشفين^(١) ونزل له عن زوجه زينب بنت اسحق ولحق بقومه . ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة ، وفتح باباً من جهاد السودان ، فاستولى على نحو تسعين رُحلة من بلادهم .

وأقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب ، ونزل بلكنين صاحب القلعة فاس وأخذ رهنها على الطاعة ، وانكفأ راجعاً . فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في عسكره من المرابطين ودوّخ أقطار المغرب . ثم رجع أبو بكر إلى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبدّ عليه . وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يُعَدّ له متاع الصحراء وماعونها ، ففطن لذلك الأمير أبو بكر وتجاوى عن المنازعة وسلّم له الأمر ، ورجع إلى أرضه فهلك لمرجه سنة ثمانين وأربعائة .

واختطّ يوسف مدينة مراکش سنة أربع وخمسين وأربعائة ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد وقصبة صغيرة لاختران أمواله وسلاحه ، وكمل تشييدها وأسوارها علي^(٢) ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة . وجعل يوسف مدينة مراکش لئزله ولعسكره وللتعرّس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن ، فلم يكن في قبائل المغرب أشدّ منهم ولا أكثر جمعاً . ثم صرف عزمه إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب ، وجذب الخيل من أيديهم ، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم فقد كانوا من ذلك على ألم (حدث المؤرخون في أخبار مدينة فاس ودولتهم فيها بكثير منه) فنازل أولاً قلعة فازاز وبها مهدي بن توالي من بني يحفش .

قال صاحب نظم الجواهر : وهم بطن من زناتة ، وكان أبو توالي صاحب تلك القلعة ووليا هو من بعده ، فنازله يوسف بن تاشفين . ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكرنامي صاحب مكناسة بما كان عدواً لمعنصر المغراوي صاحب فاس ،

(١) تحدّث صاحب الانيس المطرب ابن أبي زرع الفاسي عن حدود المملكة المرابطية فلاحظ ان يوسف بن تاشفين خطب له على ١٩٠٠ منبر وان ملكه امتدّ من أقصى شرق الأندلس الى اشبونة ، ومن جزائر بني فراغة الى طنجة الى آخر السوس الأقصى الى جبل الذهب من بلاد السودان الأنيس المطرب ج ٢ ص ٣٧ . (المعجم التاريخي/٦٤) .

(٢) ذكر لسان الدين الخطيب في كتابه الحلل المشوية في ذكر الاخبار المراكشية ص ٦٩ : ان علي بن يوسف بن تاشفين هو أول من استعمل الروم بالمغرب . (المعجم التاريخي/٦٤) .

فرحف في عساكر المرابطين إلى فاس ، وجمع إليه معنصر ففضّ جموعه ، وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع الحصون المحيطة بها ، وأقام عليها أياماً قلائل ، وظفر بعاملها بكار بن ابراهيم فقتله . ثم نهض إلى مغراوة وافتتحها وقتل من كان بها من أولاد وانودين المغراوي ورجع إلى فاس فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين وأربعمائة ثم رجع إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيراً من بلادهم . وأشرف على طنجة وبها سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة ، وبقية الأمراء من موالي الحمودية وأهل دعوتها . ثم رجع إلى منازل قلعة فازاز ، وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها .

واستدعى يوسف بن تاشفين مهدي بن يوسف صاحب مكناسة ليستجيش به على قاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل بأيديهما ، وناجزه الحرب ففضّ جموعه وقتله ، وبعث برأسه إلى وليه ومساهمه في شدته الحاجب سكوت البرغواطي . واستصرخ أهل مكناسة بالأمير يوسف بن تاشفين فسرّح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخقتها وقطعوا المرافق عنها ، وألحوا بالقتال عليها فسهم الجهد . وبرز معنصر إلى مناجزة عدوّه لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وهلك . واجتمع زناته من بعده على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبي العافية ، كانوا ملوكاً بتازا وتسول ، فرحفوا إلى عساكر المرابطين والتقوا بوادي سيمير^(١) فكان الظهور لزناته . واستلحم كثير من المرابطين ، واتصل خبرهم بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي بلاد فازاز^(٢) فارتحل سنة ست وخمسين وأربعمائة ونزل عليها عسكر من المرابطين وصار يتنقل في بلاد المغرب فافتتح بني مراسن ثم قبولادة^(٣) ، ثم بلاد ورغة سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ثم افتتح بلاد غمارة سنة ستين وأربعمائة . وفي سنة إثنين وستين وأربعمائة نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة قول بمفازتها ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناته حتى أعوزت مدافنهم فرادى ، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات منهم ، وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد تلمسان وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين القرويين والأندلسيين من عدويتها ، وصيرها

(١) وفي نسخة أخرى : صغير .

(٢) هي جبال فازاز (الاطلس المتوسط) قبائل المغرب / ١٢٤ .

(٣) وفي نسخة أخرى : فترلاوة .

مصرّاً واحداً ، وأدار عليها الأسوار وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد ، وربّب بناءها ، وارتحل سنة ثلاث وستين وأربعمائة إلى وادي ملوية ، فافتتح بلادها وحصون وطاق من نواحيها . ثم نهض سنة خمس وستين وأربعمائة إلى مدينة الدمنة فافتتحها عنوة ، ثم افتتح حصن علودان من حصون غمارة . ثم نهض سنة سبع وستين وأربعمائة إلى جبال غيثة وبني مكود من أحوازنا فافتتحها ودوّخها ، ثم اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه ، ثم استدعاه المعتمد بن عبّاد إلى الجهاد فاعتذر له بمكان الحاجب سكوت البرغواطي وقومه من أولياء الدولة الحمّوديّة بسبته ، فأعاد إليه ابن عبّاد الرسل بالمشايعة إليهم ، فجهّز إليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة ، فلقبه سكوت الحاجب بظاهر طنجة في قومه ومعه ابنه ضياء الدولة ، فانكشف وقتل الحاجب سكوت ولحق ابنه العزيز ضياء الدولة . وكتب صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف بن تاشفين ، ثم أغزى الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة قائده مزدلى بن تبلكان^(١) بن محمد بن وركوت من عشيرة في عساكر لمتونة لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان ، وبها يومئذ الأمير العبّاس بن بختي من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر ، فدوّخوا المغرب الأوسط وصاروا في بلاد زناته ، وظفروا بيعلى ابن الأمير العبّاسي فقتلوه ، وانكفأوا راجعين من غزاتهم .

ثم نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بعدها إلى الريف وافتتح كرسيف ومليلة وسائر بلاد الريف وخرّب مدينة نكور فلم تعمّر بعده ثم نهض في عساكره المرابطين إلى بلاد المغرب الأوسط فافتتح مدينة وجده وبلاد بني يزناسن ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة ، وقتل العبّاس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن تيغمر المستوفى بها في عساكر المرابطين ، فصارت ثغراً للملكه . ونزل بعساكره واختطّ بها مدينة تاكرات بمكان محلته ، وهو اسم الحلّة بلسان البربر . ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس إلى الجزائر ، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فاحتلّ مراكش سنة خمس وسبعين وأربعمائة ولم يزل محمد بن تيغمر والياً بتلمسان إلى أن هلك ، ووليّ بعده أخوه تاشفين

(١) وفي النسخة الباريّة : ملنكان وفي التونسية تيلنكان .

ثم ان الطاغية تكالب على بلاد المسلمين وراء البحر ، وانتهر الفرصة فيها بما كان من
الفرقة بين ملوك الطوائف فحاصر طليطلة ، وبها القادر بن يحيى بن ذي النون حتى
نالهم الجهد ، وتسلمها منه صلحاً سنة ثمان وسبعين وأربعمائة على أن يملكه بلنسية ،
فبعث معه عسكرياً من النصرانية فدخل بلنسية وتملكها على حين مهلك صاحبها أبي
بكر بن العزيز بين يدي حصار طليطلة . وسار الطاغية في بلاد الأندلس حتى وقف
بفرضة الحجاز من صريف ، وأعيأ أمره أهل الأندلس واقتضى منهم الجزية فأعطوها .
ثم نازل سرقسطة وضيق على ابن هود بها ، وطال مقامه وامتدّ أمله إلى تملكها ،
فخطب المعتمد بن عباد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين متجزاً وعده في صريخ
الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية .

وكتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصّة فاهتز للجهاد وبعث إليه المعز في
عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة الحجاز ، فنازلها براً ، وأحاطت بها أساطيل ابن عباد
بحراً فاقترحوها عنوة في ربيع الآخر سنة ست وسبعين وأربعمائة وتقبّض على ضياء
الدولة وقيد إلى المغرب فقتله صبراً ، وكتب إلى أبيه بالفتح . ثم أجاز ابن عباد البحر
في جماعته والمرابطين ، ولقيه بفاس مستنقراً للجهاد ، وأنزل له ابنه الراضي عن
الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده فأجاز البحر في عساكر المرابطين وقبائل المغرب
ونزل الجزيرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، ولقيه المعتمد بن عباد وابن الأفطس
صاحب بطليوس . وجمع ابن أدفونس^(١) ملك الجلالقة أُم النصرانية لقتاله ، ولقي
المرابطين بالزلافة من نواحي بطليوس فكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى
وثمانين وأربعمائة ثم رجع إلى مراکش وخلف عسكرياً بالاشبيلية لنظر محمد ومجون بن
سيمون بن محمد بن وركوت من عشيرة ، ويعرف أبوه بالحاج ، وكان محمد من
بطانته وأعظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الأندلس ، ولم يغن فيه أمراء الطوائف
شيئاً ، فزحف إليه من سبتة ابن الحاج قائد يوسف بن تاشفين في عساكر المرابطين
فهمزوا جميع النصاري هزيمة شنيعة . وخلع ابن رشيق صاحب مرسية ، وتمادى إلى
دانية ففرّ عليّ بن مجاهد أمامه إلى بجاية ونزل على الناصر بن علّناس فأكرمه ووصل
ابن جحاف قاضي بلنسية إلى محمد بن الحاج مغرباً بالقادر بن ذي النون ، فأنفذ معه

(١) ألفونس : قبائل المغرب/١٢٤ . وأدفونس عند ابن الاثير ج ١٠/١٥٢ .

عسكراً وملك بلنسية ، وقتل ابن ذي النون وذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة ،
وانتهى الخبر إلى الطاغية فنازل بلنسية واتصل حصاره إياها إلى أن ملكها سنة خمس
وثمانين وأربعمائة ، ثم استخلصتها عساكر المرابطين ، وولّى عليها يوسف بن تاشفين
الأمير مزدلي ، وأجاز يوسف بن تاشفين ثمانية سنة ست وثمانين وأربعمائة وتناقل أمراء
الطوائف عن لقائه لما أحسّوا من نكيره عليهم لما يسمون به عليهم من الظلمات
والمكوس وتلاحق المغارم ، فَوَجِدَ عليهم ، وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة ، فلما
أجاز انقبضوا عنه إلاّ ابن عبّاد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم ، فتقبّض على
ابن رشيق فأمكن ابن عبّاد منه العداوة التي بينهما . وبعث جيشاً إلى المرية ففرّ عنها
ابن صمادح ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية ، وتوافق ملوك الطوائف على قطع
المدد عن عساكره ومحلاته فساء نظره ، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب
والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم ، وصارت إليه بذلك فتاوى أهل
الشرق الأعلام مثل : الغزالي والطروشّي ، فعهد إلى غرناطة واستنزل صاحبها
عبيد الله بن بلكين بن باديس وأخاه تميمّاً من مالقة بعد أن كان منها مداخله الطاغية
في عداوة يوسف بن تاشفين ، وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عبّاد عند ذلك منه
وانقبض عن لقائه وفشت السعايات بينهما . ونهض يوسف بن تاشفين إلى سبتة
فاستقر بها ، وعقد للأمير سير بن أبي بكر بن محمد وركوت على الأندلس وأجازه
فقدم عليها ، وقعد ابن عبّاد عن تلقّيه ومبرّته فأحفظه ذلك ، وطالبه بالطاعة للأمير
يوسف والتزول عن الأمر ، ففسد ذات بينهما ، وغلبه على جميع عمله .

واستنزل أولاد المأمون من قرطبة ويزيد الرايض من رندة وقرمونة واستولى على جميعها
وقتلهم . وصمد إلى أشبيلية فحاصر المعتمد بها وضيق عليه ، واستنجد الطاغية فعمد
إلى استنقاذه من هذا الحصار ، فلم يغن عنه شيئا ، وكان دفاعا لمتونة مما فت في
عضده ، واقتحم المرابطون أشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة وتقبّض على
المعتمد وقاده أسيراً إلى مراکش ، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك
في محبسه بأغمار سنة سبعين وأربعمائة^(١) ثم عمد إلى بطليوس وتقبّض على صاحبها

(١) قبض على المعتمد بن عباد سنة ٤٨٤ وحبس في مراکش فكيف يكون توفي سنة ٤٧٠ . لعل هذا خطأ
خطأ الناسخ والصحيح أنه توفي سنة ٤٩٠ كما هو معروف في كتب التاريخ . وفي النسخة التونسية ٤٩٠ .

عمر بن الأفطس فقتله وإبنه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين بما صحّ عنده من مداخلتهم الطاغية ، وأن يملكوه مدينة بطليوس ، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث سنة تسعين وأربعمائة وزحف إليه الطاغية فبعث عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج فانهزم النصارى أمامه ، وكان الظهور للمسلمين .

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر واقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف ، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى . وغزا الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلى بلد برشلونة فأثنى بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع . وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين ، وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن ، واستولى على العدوتين ، واتصلت هزائم المرابطين مراراً وتسمى بأمر المسلمين ، وخاطب المستنصر العباسي ^(١) الخليفة لعهدده ببغداد ، وبعث إليه عبدالله بن محمد بن العرب على يد المعافري الأشبيلي وولده القاضي أبا بكر ، فتلطفوا في القول وأحسنوا في الإيلاغ ، وطلبوا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس ، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس ، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهدده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم . وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير ، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله .

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وأربعمائة وقد كان ما قدّمناه في أخبار بني حمّاد من زحف المنصور بن الناصر إلى تلمسان سنة سبع وتسعين وأربعمائة للفتنة التي وقعت بينه وبين تاشفين بن تيفغر وافتتاحه أكثر بلادهم ، فصالحه يوسف بن تاشفين واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة سبع وتسعين وأربعمائة وبعث إليهما مزدلي من بلنسية ، وولي بلنسية عوضاً منه أبا محمد بن فاطمة ، وكثرت غزواته في بلاد النصرانية . وهلك يوسف على رأس المائة الخامسة ، وقام بالأمر من بعده إبنه علي بن يوسف فكان خير ملك . وكانت أيامه صدرها منها وداعة ولدولته على الكفر وأهله ظهور وعزة ، وأجاز إلى العدو فأنثن في بلاد العدو

(١) وفي النسخة التونسية : المستظهر العباسي .

قتلاً وسبياً ، وولّى على الأندلس الأمير تميم بن ^(١) وجمع الطاغية للأمير تميم فهزمه تميم ، ثم أجاز علي بن يوسف سنة ثلاث ونازل طَلَيْطِلَة وأُخِن في بلاد النصرى ورجع ، وعلى أثر ذلك قصد ابن رَدْمِير سرقسطة وخرج ابن هود للقائه فانهزم المسلمون ومات ابن هود شهيداً وحاصر ابن ردمير البلد حتى نزلوا على حكمه .

ثم كانت سنة تسع وخمسمائة شأن بَرَقَة ^(٢) وتغلب أهل جَنَوَة عليها وأخلوها . ثم رجع العمران إليها على يد مرتانا قرطست ^(٣) من قواد المرابطين كما مرّ في ذكرها عند ذكر الطوائف . ثم استمرت حال علي بن يوسف في ملكه ، وعظم شأنه ، وعقد لولده تاشفين على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وخمسمائة وانزله قرطبة واشيلية ، وأجاز معه الزبير بن عُمَر ، وحشد قومه وعقد لأبي بكر بن ابراهيم المسوقي على شرق الأندلس وأنزله بَلَنْسِيَة ، وهو ممدوح بن خفّاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ . وعقد لابن غانية المسوقي على الجزائر الشرقية دانية وميورقة ، واستقامت أيامه ، ولأربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الإمام المهدي صاحب دعوة الموحّدين ، فقيهاً متحلاً للعلم والفتيا والتدريس ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، متعرضاً بذلك للمكروه في نفسه .

ونالته بجماعة وتلمسان ومكناسة أذيات من الفسقة ومن الظالمين ، وأحضره الأمير علي بن يوسف للمناظرة ففلج علي خصومه من الفقهاء بمجلسه ، ولحق بقومه هرغة من المصامدة ، واستدرك علي بن يوسف رأيه ففقدّه وطالب هرغة بإحضاره فأبوا عليه فسرّح إليهم البعث فأوقعوا به ، وتقاسم معهم هِتَاتَة وتَينَمَلل على إجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه حسبما يذكر ذلك كله بعد دولتهم . وهلك المهدي في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقام بأمرهم عبد المؤمن بن علي الكومي كبير أصحابه بعهدده إليه ، وانتظمت كلمة المصامدة وأغزوا مراکش مراراً . وفشل ربيع لمتونة بالعدوة الأندلسية ، وظهر أمر الموحّدين وفشت كلمتهم في برابرة المغرب . وهلك علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وقام بالأمر من بعده ولده تاشفين وولي عهده ، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين كما كانوا على حين استغلف

(١) بياض في جميع النسخ ولم نبتدئ الى اسم والد تميم هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي النسخة التونسية : ميورقة .

(٣) وفي نسخة أخرى : بن تارطست .

أمر الموحّدين واستفحل شأنهم وألحوا في طلبه .

وغزا عبد المؤمن غزوته الكبرى إلى جبال المغرب ، ونهض تاشفين بعساكره بالبساط إلى أن نزل تلمسان ونازله عبد المؤمن والموحّدون بكهف الضحّاك بين الصخرتين من جبل تيطري المطل عليها ، ووصله هنالك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب ، وشرّها إلى مدافعة الموحّدين فغلبوهم ، وهلك طاهر واستلحم الصنهاجيون وقرّ تاشفين إلى ^{وهران} في موادعة لب بن ميمون قائد البحر بأساطيله ، واتبعه الموحّدون واقتحموا عليه البلد فهلك يقال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة واستولى الموحّدون على المغرب الأوسط واستلحموا لمتونة . ثم بويع بمراكش ابنه إبراهيم وألفوه مضعفاً عاجزاً ، فخلع وبويع عمّه إسحق بن عليّ بن يوسف بن تاشفين . وعلى هيئة ذلك وصل الموحّدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب عليه ، فخرج إليهم في خاصّته فقتلهم الموحّدون وأجاز عبد المؤمن والموحّدون إلى الأندلس سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وملكوا واستلحموا أمراء لمتونة وكافتهم وفروا في كل وجه ، ولحق فلهم بالجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة وبابسة إلى أن جدّدوا من بعده للملك بناحية أفريقية ، والله غالب على أمره .

دولة ابن غانية

الخبر عن دولة ابن غانية من بقية المرابطين وما كان له من الملك والسلطان بناحية قابس وطرابلس واجلابه على الموحّدين ومظاهرة قراقش الغزي له على أمره وأولية ذلك ومصايره

كان أمر المرابطين من أوله في كدالة من قبائل الملتّمين حتى هلك يحيى بن إبراهيم فاختلفوا على عبدالله بن ياسين إمامهم ، وتحوّل عنهم إلى لمتونة وأقصر عن دعوته وتنسك وترهب كما قلناه ، حتى إذا أجاب داعية يحيى بن عمرو أبي بكر بن عمر من بني ورتانطق بيت رياسة لمتونة . واتبعهم الكثير من قومهم وجاهدوا معه سائر قبائل الملتّمين ، وكان مسوقة قد دخل في دعوة المرابطين كثير منهم ، فكان لهم بذلك في تلك الدولة حظّ من الرياسة والظهور . وكان يحيى المسوفي من رجالاتهم

وشجعانهم ، وكان مقدماً عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه . واتفق انه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهما ، فتشاور الحيان وفرّ هو إلى الصحراء ، ففدّى يوسف بن تاشفين القتل وودّاه ، واسترجع عليّاً من مفرّه لسنين من مغيبه ، وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمّى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك ، فولدت منه محمداً ويحيى ونشأ في ظلّ يوسف بن تاشفين وحجر كفالته .

ورعى لهما عليّ بن يوسف ذمام هذه الأمور وعقد ليحيى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة . وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة سنة عشرين وخمسائة ، وانقرض بعد ذلك أمر المرابطين . وتقدّم وفد الأندلس إلى عبد المؤمن وبعث معهم أبا اسحق براق بن محمد المصمودي من رجالات الموحّدين وعقد له على حرب لمتونة كما يذكر في أخبارهم ، فملك أشبيلية واقتضى طاعة يحيى بن عليّ بن غانية ، واستنزله عن قرطبة إلى حمال^(١) والقلعة ، فسار منها إلى غرناطة يستترل من بها من لمتونة ، ويحملهم على طاعة الموحّدين فهلك هنالك سنة ثلاث وأربعين وخمسائة ودفن بقصر باديس . وأمّا محمد بن عليّ فلم يزل والياً إلى أن هلك ، وقام بأمره بعده ابنه عبدالله .

ثم هلك وقام بالأمر أخواه اسحق بن محمد بن عليّ ، وقيل إن إسحق وليّ بعد ابنه محمد ، وأنه قتله غيره من أخيه عبدالله لمكان أبيه منه ، فقتلها معاً ، واستبدّ بأمره إلى أن هلك سنة ثمانين وخمسائة . وخلف ثمانية من الولد وهم : محمد وعليّ ويحيى وعبدالله والغازي وسير والمنصور وجبارة ، فقام بالأمر ابنه محمد . ولما أجاز يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ إلى ابن الزبرّيت لاختبار طاعتهم ، ولحين وصوله نكر ذلك إخوته وتقبّضوا عليه واعتقلوه . وقام بالأمر أخوه عليّ بن محمد بن عليّ ، وتلوموا في ردّ ابن الزبرّيت إلى مرسله ، وحالوا بينه وبين الأسطول حين بلغهم أن الخليفة يوسف القسري^(٢) استشهد في الجهاد باركش من العدو ، وقام بالأمر ابنه يعقوب واعتقلوا

(١) هي جيان كما في نسخة أخرى . وكانت تسمى عند الرومان أورنجس وقد كانت مركز علم وأدب أيام العرب وعاصمة لامارة إلى أن استرجعها الأسبان سنة ١٢٤٦ م بينها وبين غرناطة ٩٧ كلم ، وكانت قاعدة كورة البشارت التي كانت تشتمل على ما يقرب من ستائة قرية كما عند الاويسي . (مجملة البيّنة/٢٦) .

(٢) وفي النسخة الباريسية : العشري وفي النسخة التونسية : العسري .

ابن الزُّبَيْرِ وركبوا البحر في اثنتين وثلاثين أقطعة من أساطيلهم وأسطوله، وركب معه إخوته يحيى وعبد الله والغازي، وولّى على ميورقة عمّه أبا الزُّبَيْرِ، وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها، وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن، وكان باي ميلول من خارجها في بعض مذاهبه، فلم تمانعه أهل البلد واستولوا عليها في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن، كان قافلاً من أفريقية يؤم المغرب واكتسحوا ما كان بدار السادة والموحدين. وكان والي القلعة قاصداً مراكش وهو يستخبر خبر بجاية، فرجع وظاهر السيد أبا الربيع، وزحف إليهما علي بن غانية فهزمهما واستولى على أموالهما، وأسرهما ولحقا بتلمسان فترلا بها على السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وأخذ في تحصين تلمسان ورمّ أسوارها، وأقاما عند السيد يرومان الكرة من صاحب تلمسان. وعاث علي بن محمد بن غانية في الأموال وفرّقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم، ورحل إلى الجزائر فافتتحها، وولّى عليها يحيى بن أبي طلحة. ثم افتتح مازونة وانتهى إلى مليانة فافتتحها، وولّى عليها بدر بن عائشة. ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثاً ودخلها غنوة، وكانت في المغرب خطة مشهورة. ثم قصد قُسْطَنْطِينَ فامتنعت عليه واجتمعت إليه وفود العرب فاستنجدهم وجاؤا بأحلافهم. ولما اتصل الخبر بالمنصور وهو بسبّة مرجعه من الغزو، سرح العساكر في البرّ لنظر السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعقد له على المغرب الأوسط، وبعث الأساطيل إلى البحر وقائدها أحمد الصِّقْلِيّ وعقد عليها لأبي محمد بن إبراهيم بن جامع، وزحفت العساكر من كل جهة فنار أهل الجزائر على يحيى بن أبي طلحة ومن معه، وامكنوا منهم السيد أبا يزيد فقتلهم على شلف، وعفا عن يحيى لنجدة عمه طلحة، وكان بدر بن عائشة أسرى من مليانة واتبعه الجيش فلحقوه أمام العدو، فتقبّضوا عليه بعد قتال مع البرابرة حين أرادوا إجارتها، وقادوه إلى السيد أبي يزيد فقتله. وسبق الأسطول إلى بجاية فنار يحيى بن غانية وفرّ إلى أخيه عليّ لمكانه من حصار قسطنطينة بعد أن كان أخذ بمخنقتها. ونزل السيد أبو زيد بعساكره بتكلات من ظاهر بجاية، وأطلق السيد أبا موسى من معتقله. ثم رحل في طلب العدو فأفرج عن قسطنطينة بعد أن كان أخذ ومضى شديداً في الصحراء، والموحدون في اتباعه تى انتهوا إلى مغرة ونغارس. ثم نقلوا إلى بجاية واستنفر السيد أبا زيد بها وقصد علي

ابن غانية في قَفْصَة فلكها ، ونازل بورق وقسطيلية فامتنعت وارتحل إلى طرابلس وفيها قراقش الغزي المطغري ، وكان من خبره على ما نقل أبو محمد التيجاني في كتاب رحلته : أنَّ صلاح الدين صاحب مصر بعث تقي الدين ابن أخيه شاه إلى المغرب لافتتاح ما أمكنه من المدن تكون له معقلاً يتحصن فيه من مطالبة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام الذي كان صلاح الدين عمّه من وزرائه . واستعجلوا النصر^(١) فخشوا عاديته . ثم رجع تقي الدين من طريقه لأمر عرض له ففرّ قراقش الأرمني بطائفة من جنوده . وقرّ إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظم نسبة للملك المعظم شمس الدولة بن أيوب أخي صلاح الدين . فأما قراقش فلحق ششيرة^(٢) وافتتحها وذلك سنة ست وثمانين وخمسمائة وخطب فيها لصلاح الدين ولاستأذه تقي الدين . وكتب لها بفتح زويلة وغلبه بني خطاب الهواري على ملك فزان وكانت ملكاً لعمّه محمد بن الخطاب بن يصلتن بن عبدالله بن صنغل بن خطاب وهو آخر ملوكهم ، وكانت قاعدة ملكه زويلة . وتعرف زويلة ابن خطاب فتقبض عليه وغلبه على المال حتى هلك ، ولم يزل يفتح البلاد إلى أن وصل طرابلس واجتمع عليه عرب دياب بن سليم . ونهض بهم إلى جبل نفوسة فلكه واستخلص أموال العرب ، واتصل به مسعود بن زمام شيخ الزاودة^(٣) من رياح عند مفرّة من المغرب كما ذكرناه . واجتمعت أيديهم على طرابلس وافتتحها واجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم ، وفرض لهم العطاء واستبدّ بملك طرابلس وما وراءها . وكان قراقش من الأرمن وكان يقال له المعظمي والناصري لأنه يخطب للناصر صلاح الدين . وكان يكتب في ظهائره وليّ أمير المؤمنين بسكون الميم ، ويكتب علامة الظهيرة بخطه . وثقت بالله وحده أسفل الكتاب . وأما إبراهيم بن قراقش صاحبه ، فإنه سار مع العرب إلى قَفْصَة فلك جميع منازلها ، وراسل بني الزند رؤساء قَفْصَة فأمكنوه من البلد لانحرافهم عن بني عبد المؤمن ، فدخلها وخطب للعبّاسي ولصلاح الدين إلى أن قتله المنصور عند فتح قَفْصَة كما نذكره في أخبار الموحّدين .

(١) وفي النسخة التونسية : واستفحلوا بمصر .

(٢) وفي نسخة أخرى : سنترية ولعلها ششيرية في البرتغال وقد مرّت معنا سابقاً .

(٣) وفي نسخة أخرى : الدواودة .

* (رجع الخبر الى ابن غانية) *

ولما وصل علي بن غانية إلى طرابلس ولقي قراقش اتفقا على المظاهرة على الموحدين واستمال ابن غانية كافة بني سُلَيْم من العرب وما جاورهم من مجالاتهم ببرقة وخالطوه في ولايتهم ، واجتمع إليه من كان محرفاً عن طاعة الموحدين من قبائل هلال مثل : جَشْم ورياح والأبشج ، وخالفتهم زغبة إلى الموحدين ، فاحتفلوا^(١) بطاعتهم سائر أيامهم . ولحق بابن غانية فلّ قومه من لمتونة ومنونة من أطراف البِقَاع ، فانعقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه . وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيراً من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية . ثم بعث ولده وكتابه عبد المؤمن من فرسان الأندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد مجدداً ما سلف لقومه من المرابطين بالمغرب من البيعة والطاعة ، وطلب المدد والإعانة . فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فجاء إلى مِصْرَ فكتب له صلاح الدين إلى قراقش واتصل أمرهما في إقامة الدعوة العباسية .

وظاهره ابن غانية على حصار قابس فافتتحها قراقش من يد سعيد بن أبي الحسن ، وولّى عليها مولاه وجعل فيها ذخائره . ثم اتصل بها إلى أن وصل قَفْصَة خلعوا طاعة ابن غانية ، فظاهره قراقش عليها فافتتحها عنوة . ثم رحل إلى توزر وقراقش في مظاهرتة فافتتحها أيضاً . ولما اتصل بالمنصور ما نزل بأفريقية من أجلاب ابن غانية وقراقش على بلاد الجريد نهض من مراکش سنة ثمان وثمانين وخمسمائة لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه . ووصل إلى تونس فأراح بها وسرّح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين ، فلقاهم ابن غانية في جموعه بعده ، فانهزم الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم ، وأسر علي بن الزُّبَيْرَتِي في آخرين ، وامتألت أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم . ووصل سرعان الناس إلى تونس ، وصمد المنصور إليهم فأوقع

(١) وفي نسخة أخرى : فاعتقلوا .

بهم بظاهر الحامة في شعبان من سنته . وأفلت ابن غانية وقراش بجومة الوفر^(١) وبادر أهل قابس وكانت خالصة لقراش دون ابن غانية ، فأتوا طاعتهم وأسلموا من كان عندهم من أصحابه وذويه فاحتلموا إلى مراکش ، وقصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية . وبادر أهلها بالطاعة .

ثم رجع إلى قفصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه ، وقتل من كان بها من الحشود . وقتل إبراهيم بن قراتكين ، وامتنّ على سائر الأعوان وخلص سبيلهم ، وأمن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساواة . ثم غزا العرب واستباح حللهم وأحياءهم حتى استقاموا على طاعته . وفرّذو المراس كثير الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب قبل : جشم ورياح والعاصم كما قدّمناه . وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين وخمسمائة ورجع ابن غانية وقراش إلى حالهما من الاجلاب على بلاد الجريد إلى أن هلك عليّ في بعض حروبهما مع أهل نفاوة سنة أربع وثمانين وخمسمائة أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنالك ، وعفى على قبره ، وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها . وقام بالأمر أخوه يحيى بن إسحق بن محمد بن غانية وجرى في مظاهرة قراش وموالاته على سنن أخيه علي .

ثم نزع قراش إلى طاعة الموحّدين سنة ست وثمانين وخمسمائة فهاجر إليهم بتونس وتقبّله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأقام معه أياماً . ثم فرّ ووصل إلى قابس فدخلها مخادعه وقتل جماعة منهم ، واستبدّ على أشياخ دباب والكعوب من بني سلّيم فقتل سبعين منهم بقصر العروسيين ، كان منهم : محمود بن طرق أبو المحاميد وحמיד بن جارية أبو الجوّاري . ونهض إلى طرابلس فافتتحها ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها ، ثم فسد ما بينه وبين يحيى بن غانية . وسار إليه يحيى فانتهر قراش ولحقه بالجبال وتوغّل فيها ، ثم قرّ إلى الصحراء ونزل ودّان ولم يزل بها إلى أن حاصره ابن غانية من بعد ذلك بمدة وجمع عليه أهل الثار من دباب ، واقتحمها عليه عنوة وقتله ولحق ابنه بالموحّدين . ولم يزل بالحضرة إلى أيام المستنصر . ثم قرّ إلى ودّان وأجلب في الفتنة فبعث إليه ملك كام من قتله لسنة ست وخمسين وخمسمائة . (رجع الخبر) واستولى ابن غانية على الجريد ، واستترل ياقوت فولّى قراش من

(١) وفي النسخة التونسية : بجريرة الذفر .

طرده ، كذا ذكره التجاني في رحلته . ولحق ياقوت بطرابلس ، ونازله ابن غانية بها ، وطال أمر حصاره . وبالع ياقوت في المدافعة ، وبعث يحيى عن أسطول ميورقة فأمدّه أخوه عبدالله بقطعتين منه فاستولى على طرابلس ، وأشخص ياقوت إلى ميورقة واعتقل بها إلى أن أخذها الموحدون . وكان من خبر ميورقة أن عليّ بن غانية لما نهض إلى فتح بجاية ترك أخاه محمداً وعليّ بن الزبرتير في معتقلها . فلما خلا الجو من أولاد غانية وكثير من الحامية داخل ابن الزبرتير في معتقله نفر من أهل الجزيرة ، وثاروا بدعوة محمد وحاصرو القصيبة إلى أن صالحهم أهلها على إطلاق محمد بن إسحق فأطلق من معتقله ، وصار الأمر له فدخل في دعوة الموحدين ، ووفد مع علي بن الزبرتير على يعقوب المنصور . وخالفهم إلى ميورقة عبدالله بن إسحق ، ركب البحر من أفريقية إلى صقلية وأمدّوه بأسطول ، ووصل إلى ميورقة عند وفادة أخيه على المنصور فللكها ، ولم يزل بها والياً . وبعث إلى أخيه علي بالمدد إلى طرابلس كما ذكرناه ، وبعثوا إليه ياقوت فاعتقله عنوة إلى أن غلب عليه الموحدون سنة تسع وتسعين وخمسمائة فقتل ومضى ياقوت إلى مراکش وبها مات .

(رجع الخبر) ولما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولّى عليها تاشفين ابن عمّه الغازي ، وقصد قابس فوجد بها عامل الموحدين ابن عمر تافراكين بعثه إليهم صاحب تونس الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص ، فاستدعاه أهلها لما قرّ عنهم نائب قراقش أخذ ابن غانية لطرابلس فنازل قابس ، وضيق عليها حتى سأله الأمان على أن يخلي سبيل ابن بافراس^(١) فعقد لهم ذلك وأمكنوه من البلد فللكها سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وأغرمهم ستين ألف دينار ، وقصد المهديّة سنة سبع وتسعين وخمسمائة فاستولى عليها وقتل الثائر بها محمد بن عبد الكريم الكرابي^(٢) .

(وكان من خبره) أنه نشأ بالمهديّة وصار من جندها المرتدّين ، وهو كوفي الأصل . وكانت له شجاعة معروفة . فجمع لنفسه خيلاً ورجالاً وصار يغير على المفسدين من الأعراب بالأطراف فدخلهم هيبة ، وبعد في ذلك صيته وأمدّه الناس بالدعاء . وقدم أبو سعيد بن أبي حفص على أفريقية من قبل المنصور لأوّل ولايته ، وولّى على المهديّة أخاه يونس ، وطالب محمد بن عبد الكريم بالسهمان في المغانم ، وامتنع

(١) وفي نسخة أخرى : تافراكين .

(٢) وفي نسخة أخرى : الرّكراكي .

نزل به النكال وعاقبه بالسجن فدبر ابن عبد الكريم الثورة وداخل فيها بطانته ،
وتقبض على يونس سنة خمس وتسعين وخمسمائة واعتقله إلى أن فداه أخوه أبو سعيد
بخمسمائة دينار من الذهب العتيق ، واستبدل ابن عبد الكريم بالمهدية ودعا لنفسه ، وبلغت
المتوكل على الله . ثم وصل السيد أبو زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن والياً على
أفريقية فنزل ابن عبد الكريم بتونس سنة ست وتسعين وخمسمائة واضطرب معسكره
بخلق الوادي وبرز إليه جيوش الموحدین فهزمهم وطال حصاره لهم . ثم سألوه الإفراج
عنهم فأجاب لذلك ، وارتحل عنهم إلى حصار يحيى بن غانية بفاس فنازله مدة . ثم
ارتحل إلى قفصة وخرج ابن غانية في اتباعه فانهم ابن عبد الكريم أمامه ولحق
بالمهدية ، وحاصره ابن غانية بها سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأمدّه السيد أبو زيد
بقطعتين من الغزاة حتى سأل ابن عبد الكريم النزول على حكمه وخرج إليه فقبض
عليه ابن غانية وهلك في اعتقاله ، واستولى على المهدية واستضافها إلى ما كان بيده
من طرابلس وقابس وصفاقس والجريد . ثم نهض إلى الجانب الغربي من أفريقية
فنازل باجة ، ونصب عليها المخانيق وافتتحها عنوة وخرّبها ، وقتل عاملها عمر بن
غالب ، ولحق شريدها بالأريس وشقبنار و تركها خالية على عروشها ، وبعد مدة
تراجع إليها ساكنها بأمن السيد أبي زيد ، فرحف إليها ابن غانية ونازلها ، وزحف إليه
السيد أبو الحسن أخو السيد أبي زيد فلقية بقسنطينة ، وانهمز الموحدون واستولى على
معسكرهم .

ثم نهض إلى بسكرة واستولى عليها وقطع أيدي أهلها ، وتقبض على حافظها أبي
الحسن بن أبي يعلى ، وتملك بعدها بلنسية^(١) والقيروان وبايعه أهل بونة ، ورجع
إلى المهدية وقد استفحل ملكه ، فأزمع على حصار تونس وارتحل إليها سنة تسع
وتسعين وخمسمائة واستعمل على المهدية علي بن الغازي ويعرف بالكافي بن عبد الله بن
محمد بن علي بن غانية ، ونزل بالجبل الأحمر من ظاهر تونس ونزل أخوه بخلق
الوادي . ثم ضايقوه بمعسكرهم وردموا خندقها ونصبوا المخانيق والآلات ، وافتحموها
لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة^(٢) . وقبض على السيد أبي زيد
وابنه ومن كان معه من الموحدین ، وأخذ أهل تونس بغرم مائة ألف دينار ، وولّى

(١) وفي النسخة التونسية : تبسه .

(٢) الصحيح في ختام المائة الخامسة .

بقبضها منهم كاتبه ابن عصفور وأبا بكر بن عبد العزيز بن السكاك ، فأرهبوا الناس بالطلب حتى لاذ معظمهم بالموت واستعملوا القتل فيما نقل أن اسمعيل بن عبد الرافع من بيوتاتها ألقى بنفسه في بئر فهلك ، فرجع الطلب ببقيتها عنهم .

وارتحل إلى نفوسة والسيد أبو زيد معتقل في معسكره ففعل بهم مثل ذلك ، وأغرمهم بالناصر بمراكش ما دهم أهل أفريقية منه ومن ابن عبد الكريم قبله ، فامتعض لذلك ورحل إليها سنة إحدى وستائة . وبلغ يحيى بن غانية خبر زحفه إليه ، فخرج من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهن على المظاهرة والدفاع . ونازل طرة من حصون مِغْرَاوَة^(١) ، فاستباحها ، وانتقل إلى حامة مطاطة . ونزل الناصر تونس ، ثم قفصة ، ثم قابس ، وتحصن منه ابن غانية ، في جبل دمر ، فرجع عنه إلى المهديّة ، وعسكر عليها واتخذ الآلة لحصارها .

وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحّدين سنة اثنتين وستائة فلقبه بجبل تاجورًا من نواحي قابس ، وأوقع به وقتل أخاه جبارة بن إسحق واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله ، ثم افتتح الناصر المهديّة ودخل إليها عليّ بن الغازي في دعوة فتقبله ، ورفع مكانه ووصله بهدية وافق ووصلها برسمه إليه على يد واصل^(٢) مولاه وكان بها ثوبان منسوجان بالجواهر فوصله بذلك كله ، ولم يزل معه إلى أن استشهد مجاهدًا .

ووليّ الناصر على المهديّة محمد بن يغمور من الموحّدين ورجع إلى تونس . ثم نظر فيمن يوليّه أمر أفريقية لسدّ فرجها والذبّ عنها ومدافعة ابن غانية وجموعه دونها . فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص ، فعقد له على ذلك سنة ثلاث كما ذكرناه في أخباره . ورجع الناصر إلى المغرب وأجمع ابن غانية النهوض لقتال الموحّدين بتونس ، وجمع ذؤبان العرب من الزواودة وغيرهم ، وأوفد الزواودة يومئذ محمد بن مسعود بن سلطف^(٣) وتحيز بنو عوف بن سُلَيْم إلى الموحّدين ، والتقوا بشبور^(٤) من نواحي تبسة^(٥) فانهزمت جموع ابن غانية ، ولحق إلى جهة طرابلس .

(١) وفي النسخة التونسية : نغزاوة .

(٢) وفي النسخة التونسية : من سبته إليه على يد ناصح .

(٣) وفي نسخة أخرى : بن سلطان .

(٤) وفي نسخة أخرى : بشيرو .

(٥) تبسة : بالفتح ثم الكسر ، وتشديد السين المهملة : بلد مشهور من أرض أفريقية ، بينه وبين قفصة ست مراحل في قفّر سيّية ، وهو بلد قديم به آثار الملوك ، وقد خُرّ الآن أكثرها ... (معجم البلدان) .

ثم نهض إلى المغرب في جموعه من العرب والملثمين فانتهى إلى سجلماسة وامتلات أيدي اتباعه من النهاب ، وخرقوا الأرض بالعيث والفساد . وانتهى إلى المغرب الأوسط وداخله المفسدون من زناة ، وأغزوا به صاحب تلمسان السيد أبا عمر ابن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن فلقية بتاهرت فهزمه ابن غانية ، وقتله وأسر وافده^(١) ، وكرّ راجعاً إلى أفريقية ، فأعترضه الشيخ أبو محمد صاحب أفريقية في جموع الموحدين ، واستنقذ الغنائم من أيديهم . ولجأ^(٢) ابن غانية إلى جبال طرابلس ، وهاجر أخوه مسيرين اسحق إلى مراكش فقبله الناصر وأكرمه . ثم اجتمع إلى ابن غانية طوائف العرب من رياح وعوف وهيث^(٣) ومن معهم من قبائل البربر ، وعزم على دخول أفريقية . ونهض إليهم الشيخ أبو محمد سنة ست وستائة ولقيهم بجبل نفوسة ، فقلّ عسكرهم واستلحم أمرهم ، وغنم ما كان معهم من الظهر والكراع والأسلحة . وقتل يومئذ محمد بن الغازي وجوار بن يفرن ، وقتل معه ابن عمّه من كتاب ابن أبي الشيخ ابن عساكر بن سلطان ، وهلك يومئذ من العرب الهلاليين أمير قرّة سمّاد بن نخيل .

حكى ابن نخيل أن مغانم الموحدين يومئذ من عساكر الملثمين كانت ثمانية عشر ألفاً من الظهر ، فكان ذلك مما أوهن من شدّته ووطّى من بأسه . وثارت قبائل نفوسة بكاتبه ابن عصفور فقتلوا ولديه ، وكان ابن غانية يبعثه عليهم للمغرم . وسار أبو محمد في نواحي أفريقية ودفع سلبهم واستثار أشياخهم بأهلهم ، وأسكنهم بتونس حسماً لفسادهم . وصلحت أحوال أفريقية إلى أن هلك الشيخ أبو محمد سنة ثمان عشرة وستائة وولّي أبو محمد السيد أبو العلا إدريس بن يونس بن عبد المؤمن ، ويقال بل وليها قبيل مهلك الشيخ أبي محمد ، فاستطار بعد مهلكه سور بن عباة ، ولخم فعابه رعيته^(٤) ، ونهض إليه السيد أبو العلا ونزل قابس وأقام بقصر العروسيين ، وسرح ولده السيد أبا زيد بعسكر من الموحدين إلى درج وغدامس ، وسرح عسكراً آخر إلى ودان لحصار ابن غانية ، فأرجف بهم العرب ونهضوا وهم بهم السيد أبو

(١) وفي النسخة التونسية : ولده .

(٢) وفي النسخة التونسية : ونجا .

(٣) وفي النسخة التونسية : ونفاث .

(٤) وفي نسخة أخرى : ثور بن غانية ، ونجم نفاقه وعيته .

العلا . وفرّ ابن غانية إلى الزاب ، واتبعه السيد أبو زيد فنازل ببسكرة واقتحمها عليه . ونجا ابن غانية وجمع أوباشاً من العرب والبربر ، واتبعه السيد أبو زيد في الموحدّين وقبائل هوّارة ، وتراحفوا بظاهر تونس سنة إحدى وعشرين وستّائة فانهزم ابن غانية وجموعه ، وقتل كثير من الملتّمين وامتلاّت أيدي الموحدّين من الغنائم . وكان طراً له يومئذ حماس من بعد ما سعى^(١) في هذا الزحف أثر مذكور وبلاء حسن . وبلغ السيد أبا زيد إثر هذه الواقعة خبر مهلك أبيه بتونس ، فانكفّ راجعاً ، وأعيد بنو أبي حفص إلى مكان أبيهم الشيخ أبي محمد بن أثال بأفريقية . واستقلّ الأمير أبو زكريا منهم بأمرها ، واقتلعها عن ملكه إلى عبد المؤمن^(٢) وتناولها من يد أخيه أبي محمد عبد الله . وهذا الأمير أبو زكريا هو جدّ الخلفاء الحفصيّين وماهد أمرهم بأفريقية ، فأحسن دفاع ابن غانية عنها وشرّده في أقطارها . ورفع يده شيئاً فشيئاً عن النّيل من أهلها ورعاياها . ولم يزل شريداً مع العرب بالقفار ، فبلغ سجلّاسة من أقصى المغرب والعقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية . واستولى على ابن مذكور صاحب السوقية من تخوم برقة ، وأوقع بمغرّاة بواجر ما بين متيجة ومليانة ، وقتل أميرهم منديل بن عبد الرحمن وصلب شلوه بسور الجزائر . وكان يستخدم الجند فإذا سئموا الخدمة تركهم لسبيلهم إلى أن هلك لخمسين سنة من إمارته سنة إحدى وثلاثين وستّائة وقيل ثلاث وثلاثين ، ودفن وعفى أثر مدفنه . يقال بوادي الرجوان قتله الأريّس يقال بجهة مليانة من وادي شلف ، ويقال بصحراء باديس ومديد^(٣) من بلاد الزاب . وانقرض أمر الملتّمين من مسوقة وملتونة ومن جميع بلاد أفريقية والمغرب والأندلس بمهلكه . وذهب ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره . وقد خلف بنات بعثن^(٤) زعموا إلى الأمير أبي زكريا لعهدده بذلك إلى علجه جابر^(٥) فوضعن في يده . وبلغه وفاة أبيهن وحسن ظنه في كفّالته إياهنّ ، فأحسن الأمير أبو زكريا كفّالتهنّ ، وبنى لهنّ بحضرته داراً لصونهنّ معروفة لهذا العهد

(١) هكذا بالأصل وفي نسخة أخرى : وكان لهوارة يومئذ ، وأميرهم حناش بن برة بن ونيفن في هذا الزحف اثر مذكور وبلاء حسن .

(٢) وفي النسخة التونسية : من ملكة آل عبد المؤمن .

(٣) وفي النسخة الباريسية : وتنومة . وفي النسخة التونسية : وبنومة .

(٤) العبارة تكون أصح لو قال : وقد خلف بنات زعموا بأنّه بعثن إلى الأمير أبي زكريا .

(٥) وفي النسخة التونسية صابر .

بقصر البنات . وأقنّ تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات لوصاة أبيهنّ بذلك
منهنّ وحفظهنّ لوصاته . ولقد يقال أن ابن عمّ لهنّ خطب إحداهنّ ، فبعث إليها
الأمير أبو زكريا فقال لها : هذا ابن عمك وأحقّ بك ، فقالت لو كان ابن عمّنا ما كفلنا
الأجانب ، إلى أن هلكنّ عوانس بعد أن متّعن من العمر بحظ .

أخبرني والدي رحمه الله أنه أدرك واحدة منهنّ أيام حياته في سني العشر والسبعائة
تناهز التسعين من السنين . (قال) : ولقيتها وكانت من أشرف النساء نفساً وأسراهنّ
خلقاً وأزكاهنّ خللاً والله وارث الأرض ومن عليها .

ومضى هؤلاء المثلثون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السواد ان حجزاً بينهم
وبين الرمال التي هي تخوم بلاد البربر من المغربين وأفريقية ، وهم لهذا العهد متّصلون
من ساحل البحر المحيط في المغرب إلى ساحل النيل بالشرق . وهلك من قام بالملك
منهم بالعدوتين ، وهم قليل من مسوقة وملتونة كما ذكرناه ، أكلتهم الدولة وابتلعهم
الآفاق والاقطار ، وأفناهم الرق^(١) واستلحهم أمراء الموحدين^(٢) وبقي من أقام
بالصحراء منهم على حالهم الأوّل من افتراق الكلمة واختلاف البين ، وهم الآن
يعطون طاعة للملك السودان ، يحبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم .

واتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق مناظر السلع العرب على بلاد المغربين
وأفريقية^(٣) فكدالة منهم في مقابلة ذوي حسّان بن المعقل عربّ السوس الأقصى ،
ولتونة وتريكة في مقابلة ذوي منصور وذوي عبدالله بن المعقل أيضاً عربّ المغرب
الأقصى ، ومسوقة في مقابلة زغبة عربّ المغرب الأوسط ، ولطة في مقابلة رياح
عرب الزاب وبجاية وقُسْطَينَة ، وتاركاً في مقابلة سُلَيْم عربّ أفريقية . وأكثر ما
عندهم من المواشي الإبل لمعاشهم وحمل أثقالهم وركوبهم ، والخيّل قليلة لديهم أو
معدومة . ويركبون من الإبل الفارهة ويسمّونها النجيب ، ويقاثلون عليها اذا كانت
بينهم حرب ، وسيرها هملجة ، وتكاد تلحق بالركض^(٤) وربما يغزوهم أهل القفر من
العرب وخصوصاً بنو سعيد من بادية رياح ، فهم أكثر العرب غزواً إلى بلادهم

(١) وفي النسخة التونسية : الترف .

(٢) وفي النسخة التونسية : واستلحهم آخر الموحّدين .

(٣) وفي النسخة التونسية : واتصل سياجهم على بلاد السودان الى المشرق ، مناظراً لسياج العرب على بلاد
المغربين وأفريقية .

(٤) مقتضى السياق : وتكاد لا تلحق بالركض .

فيستبيحون من صحبوه منهم يرمونه في بطون مغاير^(١) . فاذا اتصل الصائح بأحيائهم وركبوا في اتباعهم واعترضوهم على المياه قبل فصولهم من تلك البلاد فلا يكادون يخلصون ، ويشتدّ الحرب بينهم فلا يخلص العرب من غوائلهم^(٢) إلاّ بعد جهد ، وقد يهلك بعضهم ، والله الخلق والأمر . وإذ عرض لنا ملوك السودان فلنذكر ملوكهم لهذا العهد المجاورين للملك المغرب .

* (ملوك السودان) *

* (الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف أحوالهم والامام بما اتصل بنا من دولتهم) *

هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثاني وما وراءه إلى آخر الأول بل وإلى آخر المعمورة متصلون ما بين المغرب والمشرق ، ويجاورون بلاد البربر بالمغرب وأفريقية وبلاد اليمن والحجاز في الوسط ، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق ، وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة ، وأمّا أهل المغرب منهم فنحن ذاكرهم بعدما ننسبهم ، فبنو حام بن نوح بالحبش من ولد حبش بن كوش بن حام ، والنوبة من ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام فيما قاله المسعودي ، وقال ابن عبد البر إنهم من ولد نوب بن قوط بن مصر^(٣) بن حام ، والزنج من ولد زنجي بن كوش ، وأمّا سائر السودان فنن ولد قوط بن حام فيما قاله ابن عبد البر ، ويقال : هو قبط بن حام .

وعدّ ابن سعيد من قبائلهم وأممهم سبعة عشر أمة ، فمنهم في المشرق الزنج على بحر الهند ، لهم مدينة فنقية^(٤) وهم مجوس ، وهم الذين غلب رقيقهم بالبصرة على ساداتهم مع دعي الزنج في خلافة المعتمد . قال : ويليم بربرا ، وهم الذين ذكرهم

(١) وفي النسخة التونسية : وينكفون مغزين .

(٢) وفي النسخة التونسية : فلا يخلص العرب بغنائهم .

(٣) وفي النسخة التونسية : ابن ينصر .

(٤) وفي النسخة التونسية : منبسة .

امرؤ القيس في شعره . والإسلام لهذا العهد فاش فيهم ، ولهم يومئذ مقاشن^(١) على البحر الهندي يعمرها تجار المسلمين ومن غربيهم وحولهم الدمام وهم حفاة عراة . قال : وخرجوا إلى بلاد الحبشة والنوبة عند خروج التتر إلى العراق ، فعاثوا فيها ثم رجعوا . قال : ويليم الحبشة وهم أعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطئ البحر الغربي ومنه غزو ملك اليمن ذي نواس وكانت دار مملكتهم كفرة^(٢) . وكانوا على دين النصرانية ، وأخذ بالإسلام واحد منهم زمن الهجرة على ما ثبت في الصحيح ، والذي أسلم منهم لعهد النبي صلى الله عليه وسلم . وهاجر إليه الصحابة قبل الهجرة إلى المدينة فأواهم ومنعهم ، وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم عندما نعي إليه ، كان اسمه النجاشي وهو بلسانهم : أنكاش بالكاف المشمة بالميم عربتها العرب جيما محضة وألحقها ياء النسب ، شأنها في الأسماء الأعجمية إذا تصرف فيها ، وليس هذا الإسم سمة لكل من تملك منهم كما يزعم كثير من الناس ممن لا علم له بهذا ، ولو كان كذلك لشهروا إسمه إلى اليوم لأن ملكهم لم يتحول منهم . وملكهم لهذا العهد إسمه الخطي ما أدري إسم السلطان نفسه ، أو إسم العشيرة الذين فيهم الملك . وفي غربيه مدينة دامون وكان بها ملك من أعاضهم وله ملك ضخم . وفي شماليه ملك آخر منهم إسمه حق الدين محمد بن علي بن واصم^(٣) في مدينة أسلم أولوه في تواريخ مجهولة . وكان جدّه واصم مطيعاً لملك دامون . وأدركت الخطي الغيرة من ذلك فغزاه واستولى على بلاده . ثم اتصلت الفتنة وضعف أمر الخطي فاسترجع بنو واصم بلادهم من الخطي وبنيه ، واستولوا على وفات وخرّبوها . وبلغنا أن حق الدين هلك ، وملك بعده أخوه سعد الدين وهم مسلمون ويعطون الطاعة للخطي أحياناً وينابذونه أخرى والله مالك الملك . (قال ابن سعيد) : ويليم البجاوة وهم نصارى ومسلمون ، ولهم جزيرة بسواكن في بحر السوس . ويليم النوبة إخوة الزنج والحبشة ولهم مدينة دنقلة غرب النيل ، وأكثرهم مجاورون للديار المصرية ، ومنهم رقيق . ويليم زغاوة وهم مسلمون ، ومن شعوبهم تاجرة ويليم الكانم وهم خلق عظيم ، والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حميمي^(٤) ولهم التغلب

(١) وفي نسخة أخرى : مقاشنوا .

(٢) وفي نسخة أخرى : كعبر .

(٣) وفي نسخة أخرى : ولصم .

(٤) وفي النسخة الباريسية : جنبي وفي النسخة التونسية حميمي .

على بلاد الصحراء إلى قرآن . وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية مذ أولها ،
ويليهم من غربهم كوكو ، وبعدهم نغاله والتكرور ولي وتميم وجاي^(١) وكوري
وأفكرار ، ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية في الغرب . اهـ كلام ابن سعيد .

ولما فتحت أفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك
غانية ، كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب ، وكانوا أعظم أمة ولهم
أضخم ملك ، وحاضرة ملكهم غانية مدينتان على حافتي النيل من أعظم مدائن
العالم وأكثرها معتمراً ، ذكرها مؤلف كتاب رجار وصاحب المسالك والممالك .
وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف صوصوبصادين
مضمومتين أو سينين مهملتين ، ثم بعدها أمة أخرى تعرف مالي ثم بعدها أمة أخرى
تعرف كوكو ويقال كاغو ثم بعدها أمه أخرى تعرف بالتكرور .

(وأخبرني) الشيخ عثمان فقيه أهل غانية وكبيرهم علماً وديناً وشهرةً ، قدم مصر سنة
تسع وتسعين وستائة حاجاً بأهله وولده ولقيته بها فقال : إنهم يسمون التكرور وزغاي
ومالي انكاويه اهـ .

ثم أن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر المثلثين المجاورين لهم
من جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه ، وعبروا على السودان واستباحوا حاهم
وبلادهم واقتضوا منهم الاتاوات والجزى ، وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا
به . ثم اضمحل ملك أصحاب غانية وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم
السودان واستعبدوهم وأصاروهم في جملتهم . ثم أن أهل مالي كثروا أمم السودان في
نواحيهم تلك ، واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو او ملكوا جميع
ما بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك أهل غانية إلى البحر المحيط من ناحية الغرب
وكانوا مسلمين ، يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندان^(٢) هكذا ضبطه
الشيخ عثمان . وحج هذا الملك واقتضى سننه في الحج ملكهم من بعده .

وكان ملكهم الأعظم الذي تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من
أيديهم اسمه ماري جاطة ، ومعنى ماري عندهم الأمير الذي يكون نسل السلطان
وجاطة الأسد ، واسم الخافد عندهم تكن ، ولم يتصل بنا نسب هذا الملك . وملك

(١) وفي نسخة أخرى : تميم وجالي .

(٢) وفي نسخة أخرى : برمندانة .

عليهم خمساً وعشرين سنة فيما ذكروه . ولما هلك وليّ عليهم من بعده منساولي ، ومعنى منسا السلطان ، ومعنى ولي بلسانهم علي ، وكان منساولي هذا من أعظم ملوكهم . وحج أيام الظاهر بيبرس ، وولي عليهم من بعده أخوه واتي . ثم بعده أخوهم خليفة وكان محمداً راوياً ، فكان يرسل السهام على الناس فيقتلهم بجائناً ، فوثبوا عليه فقتلوه . وولي عليهم من بعده سبط من أسباط ماري جاطة يسمّى أبا بكر ، وكان ابن بنته فلّكوه على سنن الأعاجم في تملك الأخت وابن الاخت . ولم يقع إلينا نسبه ونسب أبيه .

ثم ولي عليهم من بعده مولى من موالهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة . وقال الشيخ عثمان : ضبطه بلسانهم أهل غانية سيكرة ، وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا ، وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم . وافتتح بلاد كوكو وأصارها في ملكة أهل مالي . واتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقية .

وقال الحاج يونس ترجان التكروري إن الذي فتح كوكو هو سغمنجه من قواد منسا موسى ، ووليّ من بعده ساكورة وهذا هو ابن السلطان ماري جاطة . ثم من بعده ابنه محمد بن قو ، ثم انتقل ملكهم من ولد السلطان ماري جاطة إلى ولد أخيه أبي بكر فولى عليهم منسا موسى بن أبي بكر ، وكان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً ، له في العدل أخبار تؤثر عنه . وحج سنة أربع وعشرين وسبعائة ، لقيه في الموسم شاعر الأندلس أبو إسحق إبراهيم الساحلي المعروف بالطونيق^(١) وصحبه إلى بلاده . وكان له اختصاص وعناية ورثها من بعده ولده إلى الآن ، وأوطنوا والائر من تخوم بلادهم من ناحية المغرب ، ولقيه في منصرفه صاحبنا المعمر أبو عبدالله بن خديجة الكومي من ولد عبد المؤمن ، كان داعية بالزباب للفاطمي المنتظر ، وأجلب عليهم بعصائب من العرب فكر به واركلا واعتقله ، ثم خلّى سبيله بعد حين ، فحاض إلى السلطان منسا موسى مستجيشاً به عليهم ، وقد كان بلغه توجهه للحج ، فأقام في انتظاره ببلد غدامس يرجو نصراً على عدوّه ومعونة على أمره لما كان عليه منسا موسى من استفحال

(١) وفي نسخة أخرى : الطونين .

ملكه بالصحراء الموالية لبلد واركلا وقوة سلطانه فلقني منه مبرة وترحباً ووعدته بالمظاهرة والقيام بثأره واستصحبه إلى بلدة أخرى وهو الثقة .

(قال : كنا نواكبه أنا وأبو إسحق الطونجق دون وزراته ووجوه قومه نأخذ بأطراف الأحاديث ، نتمتع وكان متحفاً)^(١) في كل منزل بطرف المآكل والحلاوات قال : والذي تحمل آتته وحربته^(٢) من الوصائف خاصة إثنا عشر ألفاً لابسات أقبية الديباج والحريير اليماني .

(قال الحاج يونس ترجان هذه الأمة بمصر) : جاء هذا الملك منسا موسى من بلده بثمانين حملاً من التبر ، كل حمل ثلاثة قناطير ، قال : وإنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم فقط ، وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا .

(قال أبو خديجة) : ورجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتاً بمقعد^(٣) سلطانه محكم البناء مجللاً لغرابته بأرضهم ، فأطرفه أبو اسحق الطونجق ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته . وكان صناع الدين واضفى عليها من الكلس ووالي عليها بالأصباغ المشبعة^(٤) فجاءت من أتقن المباني ، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ، ووصله بإثني عشر ألفاً من مثاقيل التبر مثوبة عليها ، إلى ما كان له من الاثرة والميل إليه والصلات السنية . وكان بين هذا السلطان منسا موسى وبين ملك المغرب لعهد من بني مَرِين السلطان أبي الحسن مواصلة ومهاداة سفرت بينهما فيها الأعلام من رجال الدولتين ، واستجاد صاحب المغرب من متاع وطنه وتحت ممالكة ممّا تحدّث عنه الناس على ما نذكره عند موضعه ، بعث بها مع عليّ بن غانم المغفل وأعيان من رجال دولته . وتوارثت تلك الوصلة أعقابهما كما سيأتي واتصلت أيام منسا موسى هذا خمساً وعشرين سنة . ولمّا هلك ولي أمر مالي من بعده ابنه منسا مغا ، ومغا عندهم محمد ، وهلك لأربع سنين من ولايته ، وولّي أمرهم من بعده منسا سليمان بن أبي بكر وهو أخو موسى ، واتصلت أيامه أربعاً وعشرين سنة . ثم هلك فولّي بعده ابنه منسا بن سليمان وهلك لتسعة من ولايته ،

(١) وفي نسخة أخرى : حيث يتسع المقام ، وكان يتحفنا .

(٢) وفي النسخة التونسية : وخرّبة .

(٣) وفي نسخة أخرى : في قاعدة .

(٤) وفي النسخة التونسية : وعالى عليها بالأصباغ المنمقة .

فولي عليهم من بعده ماري جاطه بن منسا مغا بن منسا موسى واتصلت أيامه أربعة عشر عاماً وكان أشد والٍ عليهم بما ساءهم من النكال والعسف وإفساد الحرم. وأتحف ملك المغرب لعهد السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن بالهدية المذكورة سنة اثنتين وستين وسبعائة وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف بالزرافة ، تحدث الناس بما اجتمع فيه من مفترق الجلى والشبه في جمثانه ونعوته دهرأ .

(وأخبرني القاضي الثقة أبو عبدالله محمد بن وانسول من أهل سجلماسة . وكان أوطن بارض كوكو من بلادهم واستعملوه في خطّة القضاء بما لقيه منذ سنة ست وسبعين وسبعائة ، فأخبرني عن ملوكهم بالكثير مما كتبت وذكرك لي عن هذا السلطان جاطه أنه أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم ، وكاد أن ينتقض شأن سلطانهم . (قال) : ولقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عن أبيهم ، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً منقوياً من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار ، كانوا يرونه من أنفُس الذخائر والغرائب لندور مثله في المعدن ، فعرضه جاطه هذا الملك المسرف على تجّار مصر المترددين إلى بلده وابتاعوه منه بأبخس ثمن اذ استهلك من ذخائر ملوكهم سرفاً وتبذيراً في سبيل الفسوق والتخلف .

(قال) : وأصابته علة النوم ، وهو مرض كثيراً ما يطرق أهل ذلك الإقليم وخصوصاً الرؤساء منهم يعتاده غشي النوم عامة أزمانه حتى يكاد أن لا يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من أوقاته ، ويضر صاحبه ويتصل سقمه إلى أن يهلك . (قال) : ودامت هذه العلة بخلطه مدة عامين اثنين وهلك سنة خمس وسبعين [وسبعائة] وولّوا من بعده ابنه موسى فأقبل على مذاهب العدل والنظر لهم ، ونكب عن طرق أبيه جملة وهو الآن مرجو الهداية ويغلب على دولته وزيره ماري جاطه ، ومعنى ماري عندهم الوزير وجاطه تقدّم وهو الآن قد حجر السلطان واستبد بالأمر عليه ، ونظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب ، ودوّخ اقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو وجهّز إلى منازل تكرت بما وراءها من بلاد الملثمين ، كتائب نازلتها الأول الدولة ، وأخذت بمخنفها ، ثم أفرجت عنها وحاطهم الآن هدنة .

وتكرت هذه على سبعين مرحلة من بلد واركلا في الجانب القبلي الغربي وفيها من الملثمين يعرف بالسلطان ، وعليهم طريق الحاج من السودان ، وبينه وبين أمير الزاب

وواركلا مهادة ومراسلة . (قال) : وحاضرة الملك لأهل مالي هو بلد بني ^(١) بلد متسع الخطة معين على الزرع . مستبحر العمارة نافق الأسواق ، وهو الآن محط لركاب البحر من المغرب وأفريقية ومصر ، والبضائع مجلوبة إليها من كل قطر . ثم بلغنا لهذا العهد أن منسا موسى توفي سنة تسع وثمانين وسبعائة وولي بعده أخوه منسا مغا ثم قتل لسنة أو نحوها ، وولي بعده صندكي زوج أم موسى صندكي الوزير . ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جاطة . ثم خرج من بلاد الكفرة وراءهم وجاءهم رجل اسمه محمود ينسب إلى منسا قوبن منسا ولي بن ماري جاطه الأكبر ، فتغلب على الدولة وسلك أمرهم سنة اثنتين وتسعين وسبعائة ولقبه منسا مغا ، والخلق والأمر لله وحده .

* (الخبر عن لمطة وكزولة وهسكورة بني

تصكي وهم أخوة هواره وصنهاجه) *

هؤلاء القبائل الثلاث قد تقدّم لنا أنهم إخوة لصنهاجة ، وأنّ أمّ الثلاثة تصكي العرجاء بنت زحيك بن مادغيس ، فأما صنهاجة فن ولد عاميل بن زعزاع ، وأما هواره فن ولد أوريغ وهو ابن برنس ، وأما الآخرون فلا تحقيق في نسبهم . (ابن حزم) : إنّ صنهاجة ولمطة لا يعرف لهما أب ، وهذه الأمم الثلاث موطنون بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء وجبال درن ملؤوا بسائطه وجباله . (فأما لمطة) فأكثرهم مجاورون للمثمين من صنهاجة ولهم شعوب كثيرة ، وأكثرهم ظواغن أهل وير ومنهم بالسوس قبيلتا زكن ولخس ، صاروا في عداد ذوي حسن من معقل ، وبقايا لمطة بالصحراء مع المثمين ومعظمهم قبيلة بين تلمسان وأفريقية ^(٢) وكان منهم الفقيه وكاك بن زيرك صاحب أبي عمران الفاسي ^(٣) وكان نزل سجلماسة . ومن تلميذه كان عبد الله بن ياسين صاحب الدولة اللمتونية على ما مرّ .

(١) بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولعلها بلا ديني وارثن وقد ذكرها ابن خلدون من قبل ، وسترّد معنا في الطبقة الثالثة من صنهاجة .

(٢) وفي النسخة التونسية ومعظمهم في قبلة تلمسان وأفريقية .

(٣) هكذا بالأصل وفي كتاب قبائل المغرب ص ٣٣٢ : « والهم نسبة الفقيه وكاك بن زولو صاحب أبي

عمران الفاسي وشيخ عبد الله بن ياسين داعية المرابطين ، منهم اليوم فرقة مستقرّة بجبل زانغ المطل على فاس » .

(وأما كرولة^(١)) فبطونهم كثيرة ، ومعظمهم بالسوس ويجاورون لمطة ويجاربونهم .
ومنهم الآن طواعن بأرض السوس ، وكان لهم مع المعقل حروب قبل أن يدخلوا
السوس ، فلما دخلوه تغلب عليهم ، وهم الآن من خوهم وأخلافهم ورعاياهم .
(وأما هسكورة) وهم لهذا العهد في عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحدين ،
وهم أم كثيرة وبطون واسعة ومواطنهم يجبالهم متصلة من درن إلى تادلا من جانب
الشرق إلى درعة من جانب القبلة وكان دخول بعضهم في دعوة المهدي قبل فتح
مراكش ، ولم يستكملوا الدخول في الدعوة إلا من بعده ، فلذلك لا يعدّهم كثير من
الناس في الموحدين ، وإن عدّوا فليسوا من أهل السابقة منهم لمخالفتهم الإمام أول
الأمر ، وما كان من حروبهم معه ومع أوليائه وشيعته . وكانوا ينادون بخلافهم
وعداوتهم ويجهرون بلعنهم ، فتقول خطباؤهم في مجامع صلواتهم : لعن الله هتاتة
وتينملل وهرنة وهرزجة^(٢) ، فلما استقاموا من بعد ذلك لم يكن لهم مزية السابقة كما
كانت لهتاتة وتينملل وهرغة وهرزجة فاستقامتهم على الدعوة كان بعد فتح مراكش .
وبطون هسكورة هؤلاء متعدّدون فمنهم مصطاوة وعجرامة وزمراوة وانتيقت وبنونفال
وبنورسكونت إلى آخرين لم يحضرنى أسماؤهم . وكانت الرياسة عليهم آخر دولة
الموحدين لعمر بن وقاريط المنتسب ، وذكره في أخبار المأمون والرشد من بني عبد
المؤمن خلاف الموحدين بمراكش . ثم كان من بعده مسعود بن كلداسن ، وهو القائم
بأمر دبوس والمظاهر له على شأنه ، وأظنه جد بني مسعود ، الرؤساء عليهم لهذا العهد
من فطواكة المعروفين ببني خطّاب لاتصال الرياسة في هذا البيت ، ولما انقرض أمر
الموحدين استعصوا على بني مَرِين مدّة واختلف حالهم معهم في الاستقامة والنفرة ،
وكانوا ملجأ النازعين عن الطاعة من عرب جشم ، ومأوى للثائرين منهم . ثم استقاموا
وأذعنوا لأداء الضرايب والمغارم وجبايتها من قومهم ، والخفوف إلى العسكرة مع
السلطان متى دُعا إليها شأن غيرهم من سائر المصامدة .

(١) وفي قبائل المغرب/٣٣١ : « جزولة بجيم بدوي . اخوة لصنهاجة لأم ، فلذلك اضيفوا اليهم في الترتيب ،
ويدرجهم بعض النسابين والمؤرخين في مصمودة لغرب مواطن الفريقين ، فقد كانت مصمودة تسكن
جبال درن وجزولة تسكن قريهم باقليم سوس ، وبجهاته كانوا يظعنون حتى زاحمهم به عرب معقل
وغلبيهم عليه بعد حروب ، فصارت جزولة لهم خولا وأحلافا . وكانت منهم اوزاع بوسط العُطر
الجزائري أيضاً ، واليهم ينسب جبل اكرول منه » .

(٢) وفي النسخة التونسية : لعن الله متاتة وتينملل وشيخهم الضال المضل .

(وأما انتيفت فكانت رياستهم في أولاد هنوا ، وكان يوسف بن كنون^(١) منهم اتخذ لنفسه حصن تاقبوت ، وامتنع به ، ولم يزل ولده علي ومخلوف يشيد أنه من بعده ، وهلك يوسف وقام بأمره ابنه مخلوف ، وجاهر بالنفاق سنة اثنتين وسبعمئة . ثم راجع الطاعة وهو الذي تقبّض على يوسف بن أبي عياد المتعدي على مراکش أيام أبي ثابت سنة سبع وسبعمئة كما نذكر في أخباره ، لما أحيط به ، فتقبّض عليه مخلوف وأمكن منه . وكانت وسيلته من الطاعة وكان من بعده ابنه هلال بن مخلوف ، والرياسة فيهم متصلة لهذا العهد .

(وأما بنو نفال) فكانت رياستهم لأولاد تروميت ، وكان منهم لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن ، كبيرهم عليّ بن محمد ، وكان له في الخلاف والامتناع ذكر ، واستترله السلطان أبو الحسن من محله لأول ولايته بعد حصاره بمكانه ، وأصاره في جملته تحت عنايته وإمرائه إلى أن هلك بتونس بعد واقعة القيروان في الطاعون الجارف . وولي بنوه من بعده أمر قومهم إلى أن انقرضوا ، والرياسة لهذا العهد في أهل بيتهم ولأهل عمومهم .

(وأما فطواكة) وهم أوسع بطونهم وأعظمهم رياسة فيهم وأقربهم اختصاصاً بصاحب الملك واستعمالاً في خدمته . وكان بنو خطاب منذ انقراض أمر الموحدّين قد جنحوا إلى بني عبد الحق ، وأعطوهم المقادة واختصّوا شيوخهم في بني خطاب بالولاية عليهم . وكان شيخهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب محمد بن مسعود ، وابنه عمر من بعده . وهلك عمر سنة أربع وسبعمئة بمكانه من محله ، وولي بعده عمّه موسى بن مسعود وسخطه السلطان لتوقع خلافه ، فاعتقله . وكان خلاصه من الاعتقال سنة ست وسبعمئة ، وقام بأمر هسكورة من بعده محمد بن عمر بن محمد بن مسعود .

ولما استفحل ملك بني مَرين وذهب أثر الملك من المصامدة وبعد عهدهم صار بنو مَرين إلى استعمال رؤسائهم في جباية مغارمهم لكونهم من جلدتهم . ولم يكن فيهم أكبر رياسة من أولاد تونس في هنتاته . وبني خطاب هؤلاء في هسكورة فداولوا بينهم ولاية الأعمال المراكشيّة ولها محمد بن عمر هذا من بعد موسى بن علي وأخيه محمد

(١) وفي النسخة الباريسية : منكون ، وفي النسخة التونسية مكبول .

شيوخ هنتاة . فلم يزل والياً منها إلى أن هلك قبيل نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان . ولحق ابنه ابراهيم بتلمسان ذاهباً إلى السلطان أبي الحسن . فلما دعا أبو عَنان إلى نفسه رجع عنه إلى محله ، وتمسك بما كان عليه من طاعة أبيه ، ورعاه أبو عَنان لعمه عبد الحق ، وقلده الأعمال المراكشية فلم يغن في منازعه إلى أن لحق السلطان أبو الحسن بمراكش ، فكان من أعظم دعائه ، وأبلى في مظاهرتة . فلما هلك السلطان أبو الحسن اعتقله أبو عَنان وأودعه السجن ، ثم قتله بين يدي نهوضه إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وقام بأمره من بعده أخوه منصور بن محمد إلى أن ملك الأمير عبد الرحمن بن أبي يغلو سن مراكش سنة ست وسبعين وسبعائة فاستقدمه وتقبض عليه ، واعتقله بدار ابن عمه نحواً من العام ابن مسعود بن خطاب كان في جملته ، وكان هو وأبوه نازعاً إلى بني مَرين خوفاً على أنفسهم من أولاد محمد بن عمر لترشحهم للأمر ، فلما استمكن منه بداره معتقلاً وثب عليه فقتله واستلحم بنيه معه ، وسخطه السلطان لها فاعتقله قليلاً ثم أطلقه ، واستقل برياسة هسكورة لهذا العهد والله قادر على ما يشاء .

* (الطبقة الثالثة من صنهاجة) *

وهذه الطبقة ليس فيها ملك ، وهم لهذا العهد أوفر قبائل المغرب ، فمنهم الموطنون بالجانب الشرقي من جبال دَرَن ما بين تازي وتادلاً ومعدن بني فازان حيث الثنية المفضية إلى آكِرْسِلَوِين^(١) من بلاد النخل ومقصد تلك الثنية من بلادهم وبلاد المصامدة في المغرب من جبال درن . ثم اعتَمروا قنن تلك الجبال وشواهقها ، وتنعطف مواطنهم في تلك الثنية إلى ناحية القبلة إلى أن ينتهي إلى آكِرْسِلَوِين . ثم ترجع مغرباً من آكِرْسِلَوِين إلى دَرَعَه إلى ضواحي السوس الأقصى ، وأمصاره من تارودانت وأيفري إلى فوتان وغيرها . ويعرف هؤلاء كلهم بإسم صناكة حرفت إليها من إسم صنهاجة ، وأسموا صاده زايأ وأبدلوا الجيم بالكاف المتوسطة المخرج عند العرب لهذا العهد بين الكاف والقاف أو بين الكاف والجيم ، وهي معربة النطق .

(١) آكِرْسِلَوِين بناحية سجلماسة حيث تبدأ مواطن الزناكة او صنهاجة الجنوب قبائل المغرب/ ٣٢٢ .

ولصنهاجة هؤلاء بين قبائل المغرب أوفر عدد وشدة بأس ومنعة ، وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلّة على تادلاّ ورياستهم لهذا العهد في ولد عمّران الصناكي ولهم اعتزاز على الدولة ومنعة عن الهضيمة والانقياد للمغرم . وتتصل بهم قبائل خباتة^(١) منهم ظواعن يسكنون الخص ويتجمعون مواقع القطر في نواحي بلادهم بتيغانيمين من قبيلة مكناسة إلى وادي أمّ ربيع من تامسنا^(٢) في الجانب الشمالي من جانبي جبل درن ورياستهم في ولد هيدي^(٣) من مشاهيرهم ولهم اعتياد بالمغرم وروم على الدلّ . وتتصل بهم قبائل ذكالة في وسط المغرب من عدوة أمّ ربيع إلى مراکش ، ويتصل بهم من جهة المغرب على ساحل البحر قبيلة بناحية آزمو^(٤) ، وأخرى وافرة العدد مندرجة في عداد المصامدة وطناً ونحلة وجباية وعمالّة ، ورياستهم لهذا العهد في دولة عزيز بن يبروك^(٥) ، ورئيسهم لأوّل دولة زناتة ، ويأتي ذكره ويعرف عقبه الآن ببني بطال ، ومن قبائل صنهاجة بطون أخرى بجبال تازي وما والاها مثل بطوية وبخاصة وبني وارتين إلى جبل لكائي من جبال المغرب معروف ببني الكائي إحدى قبائلهم ، يعطون المغرم عن عزة . وبطوية منهم ثلاثة بطون : بطوية^(٦) على تازي ، وبني ورياغل على ولد المزمة ، وأولاد علي بتافرسيت . وكان لأولاد علي ذمة مع بني عبد الحق ملوك بني مرّين ، وكانت أمّ يعقوب بن عبد الحق منهم فاستوزرهم . وكان منهم طلحة بن علي وأخوه عمر على ما يأتي ذكره في دولتهم .

ويتصل ببسيط بالمغرب ما بين جبال درن وجبال الريف من ساحل البحر الرومي حيث مساكن حمّاد^(٧) الآتي ذكرهم قبائل أخرى من صنهاجة موطنون في عضاب وأودية وسائط يسكنون بيوت الحجارة والطين مثل قشتالة وسطه وبنو ورياكل وبنو

(١) وفي النسخة التونسية جاناته .

(٢) وردت في طبعة بولاق المصرية تامستا وتامسنا وفي النسخة التونسية تامسنا والصحيح تامستا وقد مرّت معنا من قبل .

(٣) وفي نسخة أخرى : هيرة .

(٤) ازمو : مدينة صغرى على شاطئ المحيط الاطلنطي بين الدار البيضاء والجديدة على ضفة وادي أمّ الربيع تعتبر مركزاً مهماً لقبائل الحوزية وشتوكه بدكالة ويرجع تاريخها الى العصور القديمة حيث عرفها الفينيقيون (كتاب المغرب ص ٤٢) وقد سمّاها ياقوت أزموّرة بثلاث ضمات .

(٥) وفي نسخة أخرى : عزيز بن يبروك ،

(٦) وفي نسخة أخرى : بقوية .

(٧) وفي النسخة التونسية : غمار .

حميد وبنو مزجلدة وبنو عِمْران وبنو دركول^(١) وورترز وملوأة وبنو وامرد . ومواطن هؤلاء كلهم بورغة ، وأمركو يحترفون بالحياكة والحراثة ، ويعرفون لذلك صنهاجة البر ، وهم في عداد القبائل المغارمة ولغتهم في الأكثر عربية لهذا العهد وهم مجاورون بجبال غمارة .

ويتصل بجبال غمارة من ناحيتهم جبل سريف موطن بني زروال من صنهاجة وبنو مغالة لا يحترفون بمعاش ويسمّون صنهاجة العز لما اقتضته منعة جبالهم . ويقولون لصنهاجة آزمور الذين قدمنا ذكرهم صنهاجة الذلّ ، لما هم عليه من الذلّ والمغرم . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وقد يقال في بعض مزاعم البربر أن بني وديد من صنهاجة وبنو يزناسن وباطويه هم أحوال واصل بن ياسن أجناسن ومعناه بلغة الغرب الجالس على الأرض^(٢) .

* (الخبر عن المصامدة من قبائل البربر وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه) *

وأما المصامدة وهم من ولد مصمود بن يونس بربر فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم ، من بطونهم : برغواطة وغمارة وأهل جبل درن . ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة . وكان المتقدم فيهم قبيل الإسلام وصدره برغواطة . ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد . وكان لبرغواطة في عصرهم دولة ، ولأهل درن منهم دولة أخرى ودول حسبما نذكر ، فلنذكر هذه الشعوب وما كان فيها من الدول بحسب ما بدا إلينا من ذلك .

(١) بني دركون : يجيم بدوي ونون ، وينطق أيضاً دركول بكاف ولام ، منهم فرقة مستقرة بناحية ازمورة القرية من غليزان من المغرب الاوسط ، ويطون مندرجة في بعض القبائل الصنهاجية بشمال المغرب الأقصى/قبائل المغرب/٣٣١ .

(٢) وفي النسخة التونسية : اجلس على الأرض .

* (الخبر عن برغواطة من بطون المصامدة
ودولتهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم) *

وهم الجيل الأول منهم ، كان لهم في صدر الإسلام التقدّم والكثرة وكانوا شعباً كثيرةً مفترقين ، وكانت مواطنهم خصوصاً من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنقى وأسقى . وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صبيح^(١) وكان من قواد ميسرة الخفير طريف المضفري^(٢) القائم بدعوة الصُفْريّة ومعها معروز بن طالوت . ثم انقرض أمر ميسرة والصُفْريّة ، وبقي طريف قائماً بأمرهم بتامسنا ، ويقال أيضاً إنه تنبأ وشرّع لهم الشرائع . ثم هلك وولّي مكانه ابنه صالح ، وقد كان حضر مع أبيه حروب ميسرة وكان من أهل العلم والخير فيهم . ثم انسلخ من آيات الله ، وانتحل دعوى النبوة ، وشرّع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده ، وهي معروفة في كتب المؤرّخين . وأدعى أنه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سوراً منه ، يسمي منها سورة الديك وسورة الحمل وسورة الفيل وسورة آدم وسورة نوح وكثير من الأنبياء ، وسورة هاروت وماروت وإبليس ، وسورة غرائب الدنيا ، وفيها العلم العظيم بزعمهم ، حرّم فيها وحلّل ، وشرّع قصّ ، وكانوا يقرؤنه في صلواتهم ، وكانوا يسمّونه صالح المؤمنين كما حكاه البكري عن زمور بن صالح بن هاشم بن وراد الوافد منهم على الحاكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم أبي عيسى بن أبي الأنصاري سنة إثنين وخمسين وثلاثمائة .

وكان يترجم عنه بجميع خبره داود^(٣) بن عمر المسطاسي . قال : وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك من سنة سبع وعشرين من المائة الثانية من الهجرة . وقد قيل إنّ ظهوره كان لأول الهجرة ، وأنه إنما انتحل ذلك عناداً ومحاكاة لما بلغه شأن النبيّ صلى الله عليه وسلّم والأوّل أصح . ثم زعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان ، وأنّ عيسى يكون صاحبه ويصلي خلفه ، وأنّ اسمه في

(١) وفي نسخة أخرى : طريف ابو صالح وكذلك في قبائل الغرب/٣٢٢ .

(٢) المضفري او المطفري ويعوز الوجهين .

(٣) وفي النسخة الباريسية : ذلّواد وفي النسخة التونسية داورد .

العرب صالح وفي السريان مالك وفي الأعجمي عالم وفي العبراني روبيا وفي البربري وربا^(١) ومعناه الذي ليس بعده نبي ، وخرج إلى المشرق بعد ان ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة ، ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم ، وأوصى بدينه إلى ابنه إلياس ، وعهد إليه بموالة صاحب الأندلس من بني أمية ، وبإظهار دينه إذا قوي أمرهم .

وقام بأمره بعده ابنه إلياس ولم يزل مظهراً للإسلام مسراً لما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم . وكان طاهراً عفيفاً زاهداً^(٢) . وهلك لخمسین سنة من ملكه ، وولّي أمرهم من بعده ابنه يونس ، فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها ، يقال إنه حرق^(٣) ثلثمائة وثمانين مدينة ، واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه ، وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكاف ، وهو حجر عال نابت وسط الطريق^(٤) فقتل سبعة آلاف وسبعائة وسبعين .

(قال زمور) : ورحل يونس إلى المشرق وحجّ ، ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده ، وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه ، وانتقل الأمر عن بنيه ، وولّي أمرهم أبو غفير محمد بن معاد بن إليسع بن صالح بن طريف ، فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدّت شوكته وعظم أمره ، وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إليها سعيد بن هشام المصمودي في قوله :

قفي قبل التفرّق واخبرينا * وقولي واخبري خبراً يقيننا
وهذي أمة هلكوا وضلّوا * وغاروا^(٥) لاسقوا ماء معينا
يقولون : النبي أبو غفير * فأخزى الله أم الكاذبين
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت^(٦) * على آثار خيلهم ريننا^(٧)
وهنّ الباقيات فبين ثكلي * وعادمة^(٨) ومسقطه جنينا

(١) وفي النسخة التونسية : وربا .

(٢) وفي النسخة التونسية : زاهدا في الدنيا .

(٣) وفي النسخة التونسية : ضرب .

(٤) وفي النسخة البارسية : وسط السوق .

(٥) وفي النسخة التونسية : وخابوا .

(٦) وفي النسخة البارسية : يهث بيت وفي التونسية يوم بيت .

(٧) وفي النسخة التونسية : ريننا .

(٨) وفي النسخة التونسية : وعأوة .

ستعلم أهل تامننا إذا ما * أتوا يوم القيامة مقطعين
هناك يونس وبنو آييه * يقودون البرابر حائرنا
إذا زر يساور طافت عليهم * جبهتهم بأيدي المنكرينا^(١)
فليس اليوم يومكم ولكن * ليالي كتم متيسرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين ، وكان له من الولد مثلها وأكثر . وهلك أخريات المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه ، وولي بعده ابنه أبو الأنصار عبدالله فاقتفى سننه وكان كثير الدعة مهاباً عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواسلة ، وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط ، ولا يعتم أحد في بلاده إلا الغرباء . وكان حافظاً للجار وفيماً بالعهد ، وتوفي سنة إحدى وأربعين من المائة الرابعة لأربع وأربعين سنة من ملكه ، ودفن بأمسلاخت وبها قبره . وولي بعده ابنه أبو منصور عيسى ابن إثنين وعشرين سنة ، فسار سير آبائه وادعى النبوة والكهانة ، واشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب .

(قال زمور) : وكان فيحا أوصاه به أبوه : يا بني ! أنت سابع الأمراء من أهل بيتك ، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف . قال زمور : وكان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم مثل جراوة وزواغة والبرانس ومحاصة^(٢) ومضغرة ودمر ومطاطة وبنو وارزكيت . وكان أيضاً بنو يفرن وآحدة وركامة^(٣) وايزمن ورسافة ورغصارة على دينهم ، ولم تسجد ملوكهم إلا له منذ كانوا أه . كلام زمور وكان للملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم اثناء هذا وبعدة آثار عظيمة من الإدارة والأموية والشيعة . ولما أجاز جعفر بن علي من الأندلس إلى المغرب وقلده المنصور بن أبي عامر عمله سنة ست وستين وثلثمائة فترل البصرة ، ثم اختلف ذات بينه وبين أخيه يحيى واستمال عليه أخوه الجند وأمراء زناته ، فتجافى له جعفر عن العمل وصرف وجهه إلى جهاد برغواطة معتدّه من صالح عمله ، وزحف إليهم في أهل المغرب وكافة الجند الأندلسيين فلقوه ببسيط^(٤) بلادهم ، وكانت عليه الدبرة ،

(١) وفي النسخة التونسية : إذا وريا وري رمت عليهم جهنم قائد المستكبرينا .

(٢) وفي نسخة أخرى : بحكصة .

(٣) وفي نسخة أخرى : إصادة وركانة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وسط .

ونجا بنفسه في فلّ من جنده ، ولحق بأخيه بالبصرة . ثم أجاز بعدها إلى المنصور باستدعائه ، وترك أخاه يحيى على عمل المغرب . ثم حاربهم أيضاً صِنْهاجَة لَمّا غزا بلكين بن زيري المغرب سنة ثمان وستين وثلثمائة بعدها وأجفلت زنّاة أمامه وانزروا إلى حائط سبتة ، وامتنعوا منه بأعوادها فانصرف عنهم إلى جهاد برغواطة ، وزحف إليهم فلقية أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار في قومه ، وكانت عليهم الهزيمة . وقتل أبو منصور وأثنى فيهم بلكين بالقتل ، وبعث سبيهم إلى القيروان وأقام بالمغرب يردّد الغزو فيهم إلى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة وانصرف من المغرب فهلك في طريقه إلى القيروان . ولم أقف على من ملك أمرهم بعد أبي منصور . ثم حاربهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد عبد الملك بن المنصور لمولاه واضح إمرة برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الأجناد وأمراء النواحي وأهل الولاية ، فعظم الأثر فيهم بالقتل والسبي . ثم حاربهم أيضاً بنو يفرن لما استقل أبو يعلى بن محمد اليفري من بعد ذلك بناحية سلا من بلاد المغرب . واقتطعوه من عمل زيري بن عطية المغراوي بعدما كان بينها من الحروب .

وانتساب أولاد يعلى هؤلاء إلى تميم بن زيري بن يعلى في أوّل المائة الخامسة ، وكان موطناً بمدينة سلا ومحاوراً لبرغواطة ، فكان له أثر كبير في جهادهم ، وذلك في سني عشرين وأربعمائة ، فغلبهم على تامسنا وولّى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سيياً وقتلاً . ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة لمتونة وخرجوا من مواطنهم بالصحراء إلى بلاد المغرب ، وافتتحوا الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة . ثم بدا لهم جهاد برغواطة بتامسنا وما إليها من الريف الغربي فزحف إليهم أبو بكر بن عمر أمير لمتونة في المرابطين من قومه ، وكانت له فيهم وقائع استشهد في بعضها صاحب الدعوة عبدالله ابن ياسين الكبيروي^(١) سنة خمسين وأربعمائة ، واستمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم حتى استأصلوا شأفتهم ونحو من الأرض آثارهم وكان صاحب أمرهم لعهد انقراض دولتهم أبو حفص عبدالله من أعقاب أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبدالله بن أبي غفير محمد بن معاد بن إيسع بن صالح بن طريف ، فهلك في حروبهم وعليه كان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على

(١) وفي نسخة ثانية : الكزولي أو الجزولي كما في قبائل المغرب/٣٢٣ .

يد هؤلاء المرابطين^(١) ، والحمد لله رب العالمين . وقد نقل بعض الناس في نسب برغواطة فبعضهم يعده في قبائل زناته ، وآخرون يقولون في صالح إنه يهودي من ولد شمعون بن يعقوب نشأ ببرباط ورحل إلى المشرق ، وقرأ على عبدالله المغربي واشتغل بالسحر ، وجمع فتوناً وقدم المغرب ونزل تامسنا فوجد بها قبائل جهالاً من البربر فأظهر لهم الزهد وسحرهم بلسانه ، وموّه عليهم فقصدوه واتبعوه ، فادّعى النبوة وقيل له برباطي نسبة إلى الموطن الذي نشأ به ، وهو برباط وإدّ بحصن شريش من بلاد الأندلس ، فعرّبت العرب هذا الاسم وقالوا يرغواط ، ذكر ذلك كله صاحب كتاب الجوهر وغيره من النسابين للبربر وهو من الأغاليط البيّنة . وليس القوم من زناته ويشهد لذلك موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة . وأمّا صالح بن طريف فعرف مناهم وليس من غيرهم ، ولا يتم الملك والتغلّب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمة دخيل في نسبه . سنة الله في عبادته وإنما نسب الرجل برغواطة وهم شعب من شعوب المصامدة شعب معروف كما ذكرناه والله ولي المتقين .

الخبر عن غمارة من بطون المصامدة وما كان فيهم من الدول وتصارييف أحوالهم

هذا القبيل من بطون المصامدة من ولد غمار بن مصمود ، وقيل غمار بن مسطاف^(٢) ابن مليل بن مصمود وقيل غمار بن أصاد بن مصمود . ويقول بعض العامة أنهم

(١) كانت المنطقة التي شاعت فيها ديانة برغواطة هي منطقة تامسنا بالمغرب الأقصى الممتدة من نهر سلا (أحد روافد نهر أبي رقراق الحالي) إلى نهر أم الربيع ، أي ما يعادل المنطقة التي تسكن فيها حالياً قبائل الشاوية وزعير ، وكانت في الأصل موطناً لزناته وزواغة حتى نزل بها طريف صاحب ميسرة الحقير الذي سنّ لأهلها مذهباً لم يلبث ابنه صالح أن صيره ديانة ، فانضمت إليهم قبائل أخرى عرفوا وإياهم باسم المذهب الذي يدنون به ، وقد استمر هذا المذهب قائماً إلى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولكن أتباعه بقوا منذ تأسيسه معرّضين لهجمات الإمارات والممالك الإسلامية بالمغرب والأندلس وتنكيلها ، ومن أشهر الأمراء والقواد الذين فتكوا بهم الأمير تميم البقرني بعد سنة ٤٢٠ هـ والفقيه عبدالله بن ياسين الجزولي داعية الموحدين الذي استشهد وهو يقاتلهم بكر يغلة من أرض زعير سنة ٤٥٠ هـ . وقد اندثر اسم برغواطة منذ ذلك التاريخ وحلّ محلّ أتباعه في مواطنهم وشاركهم فيها قبائل عربية طارئة وأخرى بربرية متعربة مثل مالك وسفيان وعامر وحصين ، والشاوية وزعير . (قبائل المغرب/٣٢٣) .

(٢) مسطاف : قبائل المغرب/٣٢٥ .

عرب غمروا في تلك الجبال فسمّوا غمارة ، وهو مذهب عامي ، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصر . والبطون المشهورة منهم بنو حميد ومثوة وبنو فال وأغصاوه ، وبنو وزروال ومحكسة ، وهم آخر مواطنهم يعتمرون رحاب^(١) الريف بساحل بحر الدر من عن يمين بسائط المغرب ، من لدن غساسة فتكرّر^(٢) فبادس فتبكيساس فتيطاوين فسبته فالقصر الى طنجة خمس مراحل أو أزيد ، أوطنوا منها جبالات شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجاً بعد سياج خمس مراحل أخرى في العرض إلى أن يتخطى بسائط قصر كتامة ووادي ورغة من بسائط المغرب ، ترتد عنها الأبصار وتترل في حافاتها الطيور لا بل الهوام وينفسح في رؤوسها وبين قننها الفجاج ، سبل السفر ومراتع الساعة وفدن الزراعة وادواح الرياض .

ويتبين لك أنهم من المصامدة بقاء هذا النسب المحيط سمة لبعض شعوبهم يعرفون بمصمودة ساكنين ما بين سبته وطنجة ، وإليهم ينسب قصر المجاز الذي يعبر منه الخليج البحري إلى بلد طريف ، ويعضده أيضاً اتصال مواطنهم بمواطن برغواطة من شعوب المصامدة بريف البحر الغربي وهو المحيط ، إذ كان بنو حسان منهم موطنين بذلك الساحل من لدن آزر وأصيلا إلى أنفى ، من هنالك تتصل بهم مواطن برغواطة ودوكالة إلى قبائل درن من المصامدة فما وراءها من بلاد القبلة . فالمصامدة هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى إلا قليلاً منها وغيرهم في البسائط . ولم تزل غمارة هؤلاء بمواطنهم هذه من لدن الفتح ، ولم يعلم ما قبل ذلك .

وللمسلمين فيهم أزمان الفتح وقائع الملاحم وأعظمها لموسى بن نصير وهو الذي حملهم على الإسلام واسترهن أبناءهم وأنزل منهم عسكرياً مع طارق بطنجة . وكان أميرهم لذلك العهد يليان وهو الذي وفد عليه موسى بن نصير وأعانه في غزو الأندلس ، وكان منزله سبته كما نذكره ، وذلك قبل استحواء تاتكورا^(٣) وكانت في غمارة هؤلاء بعد الإسلام دول قاموا بها لغيرهم وكان فيهم متنبثون ، ولم تزل الخوارج تقصد جبالهم للمنعة فيها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى^(٤) .

(١) وفي نسخة ثانية : جبال الريف بساحل البحر الرومي .

(٢) وفي نسخة ثانية : فتكور .

(٣) وفي نسخة أخرى نكور .

(٤) كانت مواطن غمارة تمتد على ساحل البحر المتوسط من حد بلاد الريف الى المحيط الأطلسي ، ثم تمتد على =

* (الخبر عن سبته ودولة بني عصام بها) *

نت سبته هذه من الأمصار القديمة قبل الإسلام ، وكانت يومئذ منزل يليان ملك ارة ، ولما زحف إليه موسى بن نصير صانعه بالهدايا وأدعن للجزية ، فأقره عليها سترهن ابنه وأبناء قومه ، وأنزل طارق بن زياد بطنجة للجزية ، وضرب عليهم مسكر للترول معه . ثم كانت إجازة طارق إلى الأندلس فضرب عليهم البعوث ، كان الفتح لا كفاء له كما مر في موضعه . ولما هلك يليان استولى العرب على مدينة بته صلحاً من أيدي قومه فعمروها . ثم كانت فتنة ميسرة الحقيير وما دعا إليه من سلاله الخارجية ، وأخذ بها الكثير من البرابرة من غمارة وغيرهم ، فزحف من برابرة ننجة إلى سبته وأخرجوا العرب منها وسبوها وخرّبوها فبقيت خلاء .

نزل بها ماجكس من رجالاتهم ووجوه قبائلهم ، وبه سميت بحكسة فبتاها ورجع بها الناس وأسلم . وسمع من أهل زمانه إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام وولياها هراً . ولما هلك قام بأمره ابنه مجير فلم يزل والياً عليها إلى أن هلك ، وولياها أخوه رضي ويقال إنه ابنه ، وكانوا يعطون لبني إدريس طاعة مضعفة كما نذكره . ولما سما لناصر أمل في ملك المغرب ، وتناول حبله من أيدي بني إدريس المالكيين ببلاد لهبط وغمارة حين أجهضتهم كتامة^(١) وزناة عن ملكهم بفاس ، وقاموا بدعوة لناصر وبثوها في أعمالهم نزلوا حينئذ لناصر عن سبته ، وأشاروا له إلى تناولها من بني عاصم ، فسرّح إليها عساكره وأساطيله مع قائده نجاج بن غفير ، فكان فتحها سنة

السهول الساحلية حيث كان يسكن بنو حسان منهم قبل دخول العرب الهلاليين حتى تصل إلى تامسنا ، حيث مواطن قبائل برغواطة . ثم حدثت تغيرات كثيرة في مساكن القبائل المصمودية منذ القرن السادس الهجري الذي غمرت فيه المغرب موجات من العرب الهلاليين والمنصافين اليهم ، فراحوا قبائل البربر ومنهم غمارة بالسهول والجأوها إلى الجبال ، واضطر من بقي منها في غير الجبل إلى التعرّب والاندماج فيهم ، وقد تضاءلت المنطقة التي تسكنها القبائل المسماة اليوم غمارة وهي واقعة إلى الجنوب الشرقي من تطواف على ساحل البحر ولكن قبائل غمارة المعروفة بأسمائها الفرعية ما زالت تعمر منطقة أوسع وأكبر . كما ان قبائل أخرى معروفة بالاسم الأصلي أو الاسماء الفرعية انتقلت من مواطنها الأولى إلى مواطن جديدة بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط (قبائل المغرب/ ٣٢٥ - ٣٢٦) .

(١) وفي نسخة ثانية : مكناسة .

تسع عشرة وثلاثمائة ، ونزل له الرضي بن عصام عنها وآتاه طاعته وانقرض أمر بني عصام . وصارت سببة إلى الناصر حتى استولى عليها بعد حين بنو حمّاد واستحدثوا بعدها دولة أخرى كما نذكره .

الخبر عن بني صالح بن منصور ملوك نكور ودولتهم في غمارة وتصاريف أحوالهم

لما استولى المسلمون أيام الفتح على بلاد المغرب وعمالاتها واقتسموه وأمدّهم الخلفاء بالبعوث إلى جهاد البربر ، وكان فيهم من كل القبائل من العرب . وكان صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن في البعث الأول . وكان يعرف بالعبد الصالح فاستخلص نكور لنفسه ، واقطعه إياها الوليد بن عبد الملك في أعوام إحدى وتسعين من الهجرة ، قاله صاحب المقياس ، وبلد نكور ينتهي من المشرق إلى زواغة وجراوة ابن أبي الحفيظ ^(١) مسافة خمسة أيام وتجاوره من هنالك مطاطة ، وأهل كدالة ، ومرنيسة وغساسة أهل جبل مزك ^(٢) وقلوع جاره التي لبني ورتندي ، وليد وزناتة ، وينتهي من المغرب إلى مروان من غمارة ، وبني حميد إلى مسطاسة وصنهاجة ومن ورائهم أوربة ، حزب فرحون وبني وليد وزناتة وبني يرنيان وبني وأسّن حزب قاسم صاحب صا والبحر جوفي نكور على خمسة أميال ، فأقام صالح هنالك لما اقتطع أرضها وكثر نسله واجتمع إليه قبائل غمارة وصنهاجة مفتاح وأسلموا على يده وقاموا بأمره ، وملك تكسامان ^(٣) ، وانتشر الإسلام فيهم . ثم ثقلت عليهم الشرائع والتكاليف وارتدّوا وأخرجوا صالحاً وولّوا عليهم رجلاً من نفزة يعرف بالرندي . ثم تابوا وراجعوا الإسلام وراجعوا صالحاً فأقام فيهم إلى أن هلك بتلمسان ^(٤) سنة إثنين وثلاثين ومائة ، وولي أمره من بعده ابنه المعتصم بن صالح ، وكان شهماً شريف النفس كثير العبادة . وكان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه ، ثم هلك لأيام

(١) وفي نسخة أخرى : ابن أبي السميع .

(٢) وفي نسخة أخرى : جبل هرك .

(٣) وفي نسخة أخرى : تمسامان .

(٤) وفي نسخة أخرى : بتمسامان .

يسيرة وولي من بعده أخوه إدريس ، فاخترت مدينة نكور في عدوة الوادي ولم يكملها . وهلك سني ثلاث وأربعين ومائة وولي من بعده ابنه سعيد ، واستفحل أمره ، وكان يتزل مدينة تكسامان ، ثم اختط مدينة نكور لأول ولايته ونزلها وهي التي تسمى لهذا العهد المزمة بين نهري أحدهما نكور مخرجه من بلاد كرنارية^(١) ومخرجه من مخرج وادي ورغة واحد ، والثاني غيس^(٢) ومخرجه من بلد بني ورياغيل ، يجتمع النهران في آكال^(٣) ، ثم يفترقان إلى البحر ويقال نكور من عدوة الاندلس بزيانة .

وغزا الجوس نكور هذه في أساطيلهم سنة أربع وأربعين ومائة فغلبوا عليها واستباحوها ثمانية . ثم اجتمع إلى سعيد البرانس ، وأخرجوهم عنها ، وانتقضت غمارة بعدها على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه مسكن^(٤) وتراحفوا فأظهره الله عليهم وفرق جماعتهم وقتل مقدمهم واستوسق أمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين ومائة لسبع وثلاثين من أيامه . وقام بأمره ابنه صالح بن سعيد فتقبل مذهب سلفه في الاستقامة والاعتدال وكان له مع البربر حروب ووقائع إلى أن هلك سنة خمسين ومائتين لإثنتين وسبعين سنة من ملكه .

وقام من بعده ابنه سعيد بن صالح وكان أصغر ولده فخرج إليه أخوه عبدالله وعمه الرضي وظفر بهما بعد حروب كثيرة ، فغرب أخاه إلى المشرق ومات بمكة وأبقى على عمه الرضي لذمة صهر بينهما . وقتل سائر من ظفر به من عمومته وقرباته ، وأنهض لهما^(٥) سعادة الله بن هرون منهم ، ولحق ببني يصلين أهل جبل أبي الحسن ودلهم على عورته . وبيتوا معسكره واستولوا عليه ، وأخذوا الآلة ، وقتل منهم خلقاً ، ونجا سعادة الله بتلمسان^(٦) وتقبض على أخيه ميمون فضرب عنقه . ثم سار سعادة الله إلى طلب الصلح فأسعفه وأنزله معه مدينة نكور ، ثم غزا سعيد بقومه وأهل إبالته من غمارة بلاد بطوية ومرنيسة وقلوع جاره ورتندي وأصهر بأخيه إلى أحمد بن إدريس

(١) وفي نسخة أخرى : كرناية وفي النسخة الباريسية : كرناية .

(٢) وفي النسخة الباريسية : عيش . وفي نسخة ثانية : عيس .

(٣) وفي نسخة أخرى : آكدال .

(٤) وفي نسخة أخرى : مسكن .

(٥) وفي نسخة أخرى : وامتعض لهم .

(٦) وفي نسخة أخرى : إلى تمسامان .

بن محمد بن سليمان صاحبه . وأنزله مدينة نكور معه . وتوطأ الأمر لسعيد في تلك النواحي إلى أن خاطبه عبد الله المهدي يدعوه إلى أمره وفي أسفل كتابه لهم :

وإن تستقيموا أستقم بصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلاً
وأعلو بسيفي قاهرًا لسيوفكم وأدخلها عفواً واملؤها قتلاً
فكتب إليه شاعره الأحمـس الطليطي بأمر يوسف بن صالح أخـي الأمير سعيد :
كذبتَ وبيت الله ما تُحسِنُ العَدْلَ ولا عِلِمَ الرحمنُ من قَوْلِكَ الفَضْلَ
وما أنتَ إلَّا جاهِلٌ ومُنافِقٌ تَمَثَّلُ للجُهَالِ في السُّنَّةِ المُثَلَى
وهَمَّتْنا العُلَيَّا لِدِينِ مُحَمَّدٍ وَقَدْ جَعَلَ الرحمنُ هِمَّتَكَ السُّفْلَى

فكتب عبدالله إلى مصالة بن حبّوس صاحب تاهرت ، وأغزى إليه فغزاه سنة أربع وثلثائة لأربع وخمسين من دولته ، فغلبهم سعيد وقومه أياماً . ثم غلبهم مصالة وقتلهم ، وبعث برؤسهم إلى رُقادة ، فطيف بها وركب بقيتهم البحر إلى مالقة ، فتوسّع الناصر في إنزالهم إيجارتهم واستبلغ في تكرمهم وأقام مصالة بمدينة نكور ستة أشهر . ثم قفل إلى تاهرت وولّى عليها دلول من كتامة ، فانفضّ العسكر من حوله ، وبلغ الخبر إلى بني سعيد بن صالح وقومهم بمالقة ، وهم إدريس والمُعْتَصِم وصالح ، فركبوا السفن إليها ، وسبق صالح إليها منهم ، فاجتمع البربر بمرسى تكسامان وبايعوه سنة خمس وثلثائة ، ولقبوه القِيم لصغره ، وزحفوا إلى دلول فظفروا به وبمن معه وقتلوه ، وكتب صالح بالفتح إلى الناصر ، وأقام دعوته بأعماله وبعث إليه الناصر بالهدايا والتحف والآلة ، ووصل إليه إخوته وسائر قومه وأتوا طاعة . ولم يزل على هدى أوليه من الاقتداء إلى أن هلك سنة خمس عشرة وثلثائة وولي بعده ابنه عبد البديع ، ولقب المؤيد ، وزحف إليه موسى بن أبي العافية القائم بدعوة العبيدين بالمغرب ، فحاصره وتغلّب عليه فقتله ، واستباح المدينة وخرّبها سنة سبع عشرة وثلثائة . ثم راجع إليها وقام بأمرهم أبو نور^(١) اسمعيل بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور وأعاد المدينة التي بناها صالح بن منصور وعمرّها وسكنها ثلاثاً . ثم أغزى ميسور مولى أبي القاسم بن عبدالله صندلاً مولاه عندما أناخ على فاس ، فبعث عسكرياً مع صندل هذا فحاصر جراوة ، ثم

(١) وفي نسخة أخرى : أبو أيوب .

عطف على نكور وتحصّن منه إسماعيل بن عبد الملك بقلعه الكدى . وبعث إليه صندل رسله من طريقه فقتلهم فأغذّ السير وقاتله ثمانية أيام .

ثم ظفر به فقتله واستباح القلعة وسباها ، واستخلف عليها من كتامة رجلاً اسمه مرمازو ، ووصل صندل إلى فاس فترافع أهل نكور وبايعوا موسى بن المعتصم بن محمد بن قرّة بن المعتصم بن صالح بن منصور وكان عند أبي الحسن عند يصلتين وكان يعرف بابن رومي .

وقال صاحب المقياس : هو موسى بن رومي بن عبد السميع بن رومي بن إدريس بن صالح بن إدريس بن صالح بن منصور ، وأخذ مرمازو ومن معه وضرب أعناقهم ، وبعث برؤسهم إلى الناصر . ثم ثار عليه من أعياص بيته عبد السميع بن جرثم بن إدريس بن صالح بن منصور ، فخلعه وأخرجه عن نكور سنة تسع وعشرين وثلثمائة ولحق موسى بالأندلس ومعه أهله وولده وأخوه هارون بن رومي وكثير من عمومته وأهل بيته ، فنهزم من نزل معه الممرّة ومنهم من نزل مالقة . ثم انتقض أهل نكور على عبد السميع وقتلوه . واستدعوا من مالقة جريج^(١) بن أحمد بن زيادة الله بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور ، فبادر إليهم وبايعوه سنة ست وثلاثين وثلثمائة فاستقامت له الأمور وكان على مذهب سلفه في الاقتداء والعمل بمذهب مالك إلى أن مات آخر سنة ستين وثلثمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه ، واتصلت الولاية في بنيهِ إلى أن غلب عليهم أزداجة المتغلبون على وهران ، وزحف أميرهم يعلى بن أبي الفتح الأزداجي سنة ست وأربعمائة ، وقتل سنة عشر فغلبهم على نكور وخرّبها ، وانقرض ملكهم بعد ثلثمائة سنة وأربعة عشر سنة من لدن ولاية صالح ، وبقيت في بني يعلى بن أبي الفتح وأزداجة إلى أعوام ستين وأربعمائة والله مالك الأمور لا إله إلا هو اهـ .

(١) وفي نسخة أخرى : جرم .

موسى بن رومي بن عبد السميع بن رومي بن ادريس بن صالح — بن ادريس — بن منصور الحنيدى

عبد السميع بن جرم

عبد السميع بن جرهم
مؤمن بن المعتصم بن محمد بن قوة بن المعتصم

५५७-

عبد الله

10

البر

الك

३३

ابو ایوب

عبد الله بن محمد بن حماد بن عيسى بن علي بن أبي طالب

عبد الرحمن
ابن احمد بن زياده الله بن سعيد

* (الخبر عن حاميم المتنبّي من غمارة) *

كان غمارة هؤلاء عريقين في الجاهلية بل الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداءة والانتباز عن مواطن الخير ، وتنبأ فيهم من بحكسة حاميم بن منّ الله بن جرير بن عمر بن رحفو^(١) بن آزوال^(٢) بن بحكسة يكتنّى أبا محمد وأبوه أبو خلف . تنبأ سنة ثلاث عشرة وثلثمائة بجبل حاميم المشتهر به قريباً من تطوان ، واجتمع إليه كثير منهم وأقروا بنبوته وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام ، وصنع لهم قرآناً كان يتلوه عليهم بلسانه ، فن كلامه : « يا من يخلّى البصر ، ينظر في الدنيا ، خلني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر آمنت بحاميم وبأبيه أبي خلف منّ الله ، وآمن رأسي وعقلي وما يكنّه صدري ، وما أحاط به دمي ولحمي ، وآمنت تباغت^(٣) عمّة حاميم أخت أبي خلف من الله » ، وكانت كاهنة ساحرة إلى غير هذا ، وكان يلقب المفترّي ، وكانت أخته دبّو ساحرة كاهنة ، وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط ، وقتل في حروب مصمودة بأحواز طنجة سنة خمسة عشر وثلثمائة ، وكان لابنه عيسى من بعده قدر جليل في غمارة ، ووفد على الناصر . ورهطهم بنوزحفوا موطنون وادي لاو ووادي راس قرب تطوان ، وكذلك تنبأ منهم بعد ذلك عاصم بن جميل اليزدجومي ، وله أخبار مأثورة ، وما زالوا يفعلون السحر لهذا العهد . وأخبرني المشيخة من أهل المغرب أن أكثر منتحلي السحر منهم النساء العواتق . قال : ولهم علم استجلاب روحانية ما يشاؤنه من الكواكب ، فاذا استولوا عليه وتكنّفوا بتلك الروحانية تصرفوا منها في الأكوان بما شاؤا والله أعلم .

* (الخبر عن دولة الادارسة وهي غمارة وتصاريف أحوالهم) *

كان عمر بن إدريس عندما قسّم محمد بن إدريس أعمال المغرب بين إخوته برأي

(١) وفي النسخة الباريسية : وصفوال .

(٢) وفي نسخة أخرى : آزوال .

(٣) وفي نسخة أخرى : بتابعيت وفي النسخة الباريسية : بتايغت .

جلدته كثيرة^(١) أم إدريس اختص منها بتكيباس^(٢) وترغه وبلاد صنهاجة وغمارة ، واختص القاسم بطنجة وسبته والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة . ثم غلب عمر عليها عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله كما ذكرنا في أخبارهم . ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الأول فلكوه ، واختص منهم محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم قلعة حجر النسر الدانية وسبته معقلاً لهم وثغراً لعملهم . وبقيت الإمارة بفاس وأعمال المغرب في ولد محمد بن إدريس . ثم أدالوا منهم بولد عمر بن إدريس ، وكان آخرهم يحيى بن إدريس بن عمر وهو الذي بايع لعبيد الله الشيعي على يده مصالة بن حبّوس قائده ، وعقد له على فاس ، ثم نكبه سنة تسع وثلثمائة .

وخرج عليها سنة ثلاث عشرة وثلثمائة من بني القاسم الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس وتلقّب الحجاجم لطعنه في المحاجم ، وكان مقدماً شجاعاً ، وثار أهل فاس برحان وملكوا الحسن ، وزحف إليه موسى فقلّهُ ومات . واستولى ابن أبي العافية على فاس وأعمال المغرب ، وأجلى الأدارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر ، ونَحِزُوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف ، وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات ، واستجدوا بتلك الناحية ملكاً توزّعوه قطعاً ، كان أعظمها لبني محمد هؤلاء ولبني عمر بتيكيسان^(٣) ونكور وبلاد الريف . ثم سما الناصر عبد الرحمن إلى ملك العدو ومدافعة الشيعة فتزل له بنو محمد عن سبته سنة تسع وثلثمائة وتناولها من يد الرضي بن عصام رئيس محكسة ، وكان يقيم فيها دعوة الأدارسة فأفرجوا له عنها ودانوا بطاعته وأخذها من يده

ولما أغزا أبو القاسم ميسوراً إلى المغرب لمحاربة ابن أبي العافية حين نقض طاعتهم ودعا للمروانية وجدّ بنو محمد السبيل إلى الانتصار والانتقام منه بمظاهرة ميسور عليه ، ومالاهم على ذلك بنو عمر صاحب نكور .

ولما استقل ابن أبي العافية من نكسته ورجع من الصحراء سنة خمس وعشرين

(١) وفي نسخة أخرى : كتزة .

(٢) وفي نسخة أخرى : تيكيباس .

(٣) وفي نسخة أخرى : بتيكيسان وقد مرت معنا من قبل تيكيباس وهو الإسم الصحيح ، وقد وردت في المعجم التاريخي تيجيباس : مدينة صغيرة ومرسى بحري وأنها محاطة بالحدائق الغناء .

وثلاثمائة منصرف ميسور من المغرب نازل بني محمد وبني عمرو هلك بعد ذلك . وأجاز
الناصر وزيره قاسم بن محمد بن طملس سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة لحربهم ، وكتب
إلى ملوك مغراوة محمد بن خزر وابنه الخير بمظاهرة عساكره مع ابن أبي العيش
عليهم ، ففسارح أبو العيش بن إدريس بن عمر المعروف بابن وصالة ، إلى الطاعة ،
وأوفد رسله إلى الناصر فعقد له الأمان ، وأوفد ابنه محمد بن أبي العيش مؤكداً
للتطاعة ، فاحتفل لقدمه وأكد له العقد ، وتقبل سائر الادارسة من بني محمد
مذهبهم .

وسألوا مثل سؤلهم ، فعقد لجميع بني محمد أيضاً ، وكان وفد منهم محمد بن عيسى
ابن أحمد بن محمد والحسن بن القاسم بن إبراهيم بن محمد ، وكان بنو إدريس
يرجعون في رياستهم إلى بني محمد هؤلاء منذ استبد بها آخرهم الحسن بن محمد
الملقب بالحجّام في ثورته على ابن أبي العافية ، فقدّموا على أنفسهم القاسم بن محمد
الملقب بكنّون بعد فرار موسى بن أبي العافية ، وملك بلاد المغرب ما عدا فاس مقيماً
ندعوة الشيعة إلى أن هلك بقلعة حجر النسر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وقام بأمرهم من
بعده أبو العيش أحمد بن القاسم كنّون ، وكان فقيهاً عالماً بالأيام والأخبار شجاعاً
ويعرف بأحمد الفاضل ، وكان منه ميل للمروانية فدعا للناصر ، وخطب له على
منابر عمله ونقض طاعة الشيعة . وبايعه أهل المغرب كافة إلى سبيلهم .

ولما بايعه أهل فاس استعمل عليهم محمد بن الحسن ووفد محمد بن أبي العيش بن
إدريس بن عمر بن مصالة على الناصر عن أبيه سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة فاتصل به
وفاة أبيه وهو بالحضرة فعقد له الناصر على عمله وسرّحه ، وهجم عيسى ابن عمه
أبي العيش أحمد بن القاسم كنّون على عمله بتيكيسان في غيبة محمد ، فملكها
واحتوى على مال ابن مصالة ولما أقبل محمد من الحضرة زحف برابرة غارة إلى عيسى
المذكور ابن كنّون ففطّعوا به وأثنوه جراحة ، وقتلوا أصحابه ببلاد غمارة . وأجاز
الناصر قواده إلى المغرب ، وكان أول من أجاز إلى بني محمد هؤلاء سنة ثمان وثلاثين
وثلاثمائة أحمد بن يعلى من طبقة القواد ، أجازهم إليهم في العساكر ودعاهم إلى هدم
تطوان فامتنعوا ، ثم انقادوا وتنصّلوا وأجابوا إلى هدمها .

ورجع عنهم فانتقضوا فسرّح إليهم حميد بن يصل^(١) المكناسي في العساكر سنة تسع

(١) وفي النسخة الباريسية : نصل وفي نسخة ثانية : مصل .

وثلاثين وثلثمائة وزحفوا إليه بوادي لاو فأوقع بهم فأذعنوا من بعدها ، وتغلب الناصر على طنجة من يد أبي العيش أمير بني محمد وبقي يصل على بيعة الناصر . ثم تخطت عساكر الناصر إلى بسائط المغرب فأذعن له أهله ، وأخذ بدعوته فيه أمراء زناتة من مِعْرَاوَة وبني يَفْرَن ومِكنَاسة كما ذكرناه ، فضعف أمر بني محمد واستأذنه أميرهم أبو العيش في الجهاد فأذن له وأمر ببناء القصور له في كل مرحلة من الجزيرة إلى الثغر ، فكانت ثلاثين مرحلة ، فأجاز أبو العيش واستخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون ، وتلقاه الناصر بالمبرة وأجرى له ألف دينار في كل يوم ، وهلك شهيداً في مواقف الجهاد سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ولما أغزا معده قائد جوهراً الكاتب إلى المغرب واستنزل عماله ، وتحصن الحسن بن كنون منه بقلعة النسر معقلهم . وبعث إليه بطاعته فلم يعرض له جوهري . ولما قفل من المغرب راجع الحسن الطاعة للناصر إلى أن هلك سنة خمسين وثلثمائة فأشحذ الحكم عزمه في سد ثغور المغرب وإحكام دعوتهم فيه . وشحذ لها عزائم أوليائهم من ملوك زناتة ، فكان بينهم وبين زيري وبلكين ما ذكرناه . ثم أغزى معده بلكين بن زيري المغرب سنة اثنتين وستين وثلثمائة أولى غزواته ، فأثنى في زناتة وأوغل في ديار المغرب . وقام الحسن بن كنون بدعوة الشيعة ونقض طاعة المروانية ، فلما انصرف بلكين أجاز الحكم عساكره إلى العدو مع وزيره محمد بن قاسم بن طملس سنة اثنتين وستين وثلثمائة لقتال الحسن بن كنون وبني محمد ، فكان الظهور والفلاح للحسن على عسكر الحكم . وقتل قائده محمد بن طملس وخلفاً كثيراً من عسكره وأوليائه . ودخل فلهم إلى سبتة واستصرخوا الحكم ، فبعث غالباً مولاه البعيد الصيت المعروف بالشهامة ، وأمدّه بما يعينه على ذلك من الأموال والجنود ، وأمره باستئصال الأدارسة وأجازهم إليه ، وقال سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلّا حياً منصوراً أو ميتاً معذوراً . واتصل خبره بالحسن بن كنون فأفرج عن مدينة البصرة واحتمل منها أمواله وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القريب من سبتة ، ونازله غالب بقصر مصمودة فاتصلت الحرب بينهم أياماً .

ثم بث غالب المال في رؤساء البربر من غمارة ومن معه من الجنود وفرّوا وأسلموه ، وانحجز بقلعة جبل النسر^(١) ونازله غالب وأمدّه الحكم بعرب الدولة ورجال الثغور ،

(٢) وفي نسخة أخرى : حجر النسر . وهو الأصح . كما في قبائل المغرب / ١١٦ .

وأجازهم مع وزيره صاحب الثغر الأعلى يحيى بن محمد بن ابراهيم التجيبي فيمن معه من أهل بيته وحشمه سنة ثلاث وستين وثلثمائة فاجتمع مع غالب على القلعة ، واشتدّ الحصار على الحسن ، وطلب من غالب الأمان فعقد له وتسلم الحصن من يده . ثم عطف على من بقي من الأدارسة ببلاد الريف فأزعجهم وسيرهم شرداً ، واستنزل جميع الأدارسة من معقلهم وسار إلى فاس فلكها واستعمل عليها محمد بن علي بن قشوش في عدوة القرويين ، وعبد الكريم بن ثعلبة الجذامي في عدوة الأندلس . وانصرف غالب إلى قرطبة ومعه الحسن بن كئون وسائر ملوك الأدارسة ، وقد مهدّ المغرب وفرّق عماله في جهاته ، وقطع دعوة الشيعة ، وذلك سنة أربع وستين وثلثمائة ، وتلقاهم الحكم وأركب الناس للقائهم . وكان يوم دخولهم إلى قرطبة أحفل أيام الدولة .

وعفا عن الحسن بن كئون ووقي له بالعهد ، وأجزل له ولرجاله العطاء والخلع والجلالات ، وأوسع عليه الجراية وأسنى لهم الأرزاق ورّتب من حاشيتهم في الديوان سبعمائة من أنجاد المغاربة . وتجنّى عليه بعد ثلاث سنين بسؤاله من الحسن قطعة عنبر عظيمة تأدّت إليه من بعض سواحل عمله بالمغرب أيام ملكه ، فاتخذ منها أريكة يرتفقها ويتوسّدها ، فسأله حملها إليه على أن يحكمه في رضاه ، فأبى عليه مع سعاية بني عمّه فيه عند الخليفة ، وسوء خلق الحسن ولحاجته ، فنكبه واستصفى ما لديه من قطعة العنبر وسواها .

واستقام المغرب للحكم وتظافر أمراؤه على مدافعة بلكّين ، وعقد الوزير المنصوري^(١) لجعفر بن علي على المغرب ، واسترجع يحيى بن محمد بن هاشم وغرب الحسن بن كئون الأدارسة جميعاً إلى المشرق استقلالاً لنفقاتهم ، وشرط عليهم أن لا يعودوا ، فعبروا البحر من البحر سنة خمس وستين وثلثمائة ، ونزلوا من جوار العزيز معدّ بالقاهرة خير نزل ، وبالغ في الكرامة ووعد بالنصرة والتّرة . ثم بعث الحسن بن كئون إلى المغرب وكتب له إلى آل زيري بن مناد بالقيروان بالمظاهرة ، فلحق بالمغرب ودعا لنفسه . وبعث المنصور بن أبي عامر العساكر لمدافعتة فغلبوه وتقبّضوا عليه ، وأشخصوه إلى الأندلس فقتل في طريقه كما ذكرناه في أخبارهم . وانقرض ملك

(١) وفي نسخة أخرى : المصحفي .

الأدارة من المغرب أجمع إلى أن كان رجوع الأمر لبني حمّود منهم ببلاد غمارة وسبتة
وطنجة كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن دولة حمّود ومواليهم بسبّنة وطنجة وتصاريف أحوالهم وأحوال غمارة من بعدهم

كان الأدارسة لما أجلاهم الحكم عن العدو إلى المشرق ، وبما آثروهم من سائر بلاد المغرب واستقامت غمارة على طاعة الروانية ، وأذعنوا لجند الأندلسيين ، ورجع الحسن بن كُتُون لطلب أمرهم ، فهلك على يد المنصور بن أبي عامر فانقرض أمرهم ، وافترت الأدارسة في القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب ، واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة . ولحق بالأندلس في جملة البرابرة من ولد عُمر بن إدريس رجلان منهم وهم عليّ والقاسم ابنا حمّود بن ميمون بن أحمد ابن عليّ بن عبيدالله بن عمر بن إدريس ، فطارها ذكر في الشجاعة والإقدام . ولما كانت الفتنة البربرية بالأندلس بعد انقراض الدولة العامرية ، ونصب البرابرة سليمان ابن الحَكَم ولقبوه المستعين ، واختصّ به أبناء حمّود هذان ، وأحسنوا العناء في ولايته ، حتى إذا استولى على ملكه بقرطبة وعقد للمغاربة الولايات ، عقد لعليّ بن حمود هذا على طنجة وأعمال غمارة فترها وراجع عهده معهم فيها .

ثم انتقض ودعا لنفسه وأجاز إلى الأندلس ، ووليّ الخلافة بقرطبة كما ذكرناه فعقد على عمله بطنجة لابنه يحيى . ثم أجاز يحيى إلى الأندلس بعد مهلك أبيه عليّ منازعاً لعمّه القاسم ، واستقل أخوه إدريس من بعده بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه بالعدوة من مواطن غمارة . ثم أجاز بعد مهلك أخيه يحيى بمالقة فاستدعى رجال دولتهم ، وعقد لحسن ابن أخيه يحيى على عملهم بسبّنة وطنجة ، وأنفذ نجا الخادم معه ليكون تحت نظره واستبداده . ولما هلك إدريس واعترم ابن بقيّة على الاستبداد بمالقة أجاز نجا الخادم لحسن بن يحيى من طنجة فملك مالقة ورّتب أمره في خلافته ورجع إلى سبّنة . وعقد لحسن على عملهم في مواطن غمارة حتى اذا هلك حسن أجاز نجا إلى الأندلس يروم الاستبداد . واستخلف على العمل من وثق به من الموالي الصقلية ، فلم يزل إلى نظرهم واحداً بعد آخر إلى أن استقلّ بسبّنة وطنجة من موالي بني حمّود هؤلاء الحاجب سكوت البرغواطي ، كان عبداً للشيخ حداد من مواليهم اشتراه من سبي برغواطه في بعض أيام جهادهم . ثم صار إلى عليّ بن حمّود فأخذ

النجابة بطبعه إلى أن استقلّ بأمرهم واقتعد كرسي عملهم بطنجة وسبته ، وأطاعته قبائل غمارة .

واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين ، وتغلّب ابن تاشفين على مغراوة بفاس . ونجا فلّهم إلى بلاد الدمنة من آخر بسيط المغرب مما يلي بلاد غمارة ، ونازلم يوسف بن تاشفين سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ودعا الحاجب سكوت إلى مظاهرتهم عليهم ، فهمم بالانحياش ومظاهرتهم على عدوّهم . ثم ثناه عن ذلك ابنه القائل الرأي . فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن علودان من حصون غمارة من ورائه ، وانقاد المغرب لحكمه ، صرف وجهه إلى سكوت فجهّز إليه العساكر وعقد عليها للقائد صالح بن عمران من رجال لمتونة ، فتباشرت الرعايا بمقدمهم واثالوا عليهم . وبلغ الخبر إلى الحاجب سكوت فأقسم أن لا يسمع أحداً من رعيته هدير طبولهم ، ولحق هو بمدينة طنجة ثغر عمله . وقد كان عليه من قبله ابنه ضياء الدولة المعز ، وبرز للقائهم فالتقى الجمعان بظاهر طنجة وانكشفت عساكر سكوت ، وطحنت رحي المرابطين ، وسالت نفسه على ظباهم ، ودخلوا طنجة واستولوا عليها ، ولحق ضياء الدولة بسبته .

ولما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس ، وبعث ابن عبّاد صريخه إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مستنجزاً وعده في جهاد الطاغية والذبّ عن المسلمين ، وكتبه أهل الأندلس كافة بالتحريض إلى الجهاد ، وبعث ابنه المعزّ سنة ست وسبعين وأربعمائة في عسكر المرابطين إلى سبته فرضة الحجاز ، فنازلها برّاً وأحاطت بها أساطيل ابن عبّاد بجرّاً ، واقتحموها عنوة . وتقبّض على ضياء الدولة ، واقتيد إلى المعزّ فطالبه بالمال لانحائه فأساء إيجابه فقتله لوقته ، وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن عليّ بن حمّود . وكتب إلى أبيه بالفتح ، وانقرضت دولة بني حمّود وانمحي آثارهم وسلطانهم من بني غمارة^(١) ، وأقاموا في طاعة لمتونة سائر أيامهم .

ولما نجم^(٢) المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحّدين بعد مهلكه ، تنقلّ خليفته عبد المؤمن في بلادهم في غزاته الكبرى ففتح المغرب سنة سبع وثلاثين وما بعدها قبل استيلائه على مراکش كما نذكره في أخبارهم ، واتبعوا أثره ونازلوا سبته في عساكره .

(١) وفي نسخة أخرى : وامتحي أثر سلطانهم من بلاد غمارة .

(٢) يقال : « نجم في بني فلان شاعر أو فارس » إذا نبغ (القاموس) .

وامتنعت عليهم ، وتولَّى كِبَر امتناعها قائدهم عيَّاض الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد بدينه وأبوته وعلمه ومنصبه . ثم افتتحت بعد فتح مراکش سنة إحدى وأربعين فكانت لغارة هؤلاء السابقة التي رُعيت لهم سائر أيام الدولة .

ولما فشل أمر بني عبد المؤمن وذهبت ريحهم ، وكثر الثوار بالقاصية ، ثار فيهم ابن محمد الكتامي سنة خمس وعشرين ، كان أبوه من قصر كتامة منقبضاً عن الناس وكان ينتحل الكيمياء وتلقَّنه عنه ابنه محمد هذا . وكان يلقَّب أبا الطواحن فارتحل إلى سبتة ونزل على بني سعيد وادَّعى صناعة الكيمياء فاتبعه الغوغاء . ثم ادَّعى النبوة وشرع شرائع ، وأظهر أنواعاً من الشعوذة فكثر تابعه . ثم اطلعوا على خبثه ونبذوا إليه عهده . وزحفت عساكر سبتة إليه ففرَّ عنها ، وقتله بعض البرابرة غيلة .

ثم غلب بنو مرين على بسائط المغرب وأمصاره سنة أربعين وستائة ، واستولوا على كرسي الأمر بمراكش سنة ثمان وستين وستائة فامتنع قبائل غارة من طاعتهم واستعصوا عليهم ، واقاموا بمنجاة من الطاعة ، وعلى ثبج من الخلاف ، وامتنعت سبتة من ورائهم على ملوك بني مرين بسبب امتناعهم وصار أمرها إلى الشورى ، واستبدَّ بها الفقيه أبو القاسم العزفي من مشيختهم ، كما سذك ذلك كله ، إلى أن وقع بين قبائل غارة ورؤسائهم فتن وحروب ، ونزعت إحدى الطائفتين إلى طاعة السلطان بالمغرب من بني مرين فاتوها طواعية .

وأدخل الآخرون في الطاعة تلوهم طوعاً أو كرهاً ، فلك بنو مرين أمرهم ، واستعملوا عليهم ، وتخطَّوا إلى سبتة من ورائهم فلكوا أمر الغزفيين سنة سبع وعشرين وسبعائة على ما نذكره بعد عند ذكر دولتهم . وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة يؤتون طاعتهم وجبايتهم عند استقلال الدولة ، وعرضون فيها عند الثياثا بفشل واشتغال بمحارباها^(١) فتجهَّز البعوث إليهم من الحضرة حتى يستقيموا على الطاعة ، ولهم بوعورة جبالهم عزٍّ ومنعة وجوار لمن لحق بهم من أعياص الملك ، ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد . ولبني يكمن من بينهم الحظ الوافر من ذلك لإشراف جبلهم على سائرهما وسموه بقلاعه^(٢) إلى مجاري السحب دونها وتوغَّر مسالكه بهبوب الرياح فيها . وهذا الجبل مطل على سبتة من غربيها ورئيسه منهم وصاحب

(١) وفي نسخة ثانية : اوشغل بخارج .

(٢) وفي نسخة ثانية : سمَّو بقلعه .

أمره يوسف بن عمر وبنوه ، ولهم فيه عزة وثروة ، وقد اتخذوا به المصانع والغروس
وفرض لهم السلطان بديوان سبّنة العطاء ، وأقطعهم ببسيط طنجة الضياع استئلافاً
لهم وحسماً لزيون سائر غمارة بإيناس طاعتهم ، ولله الخلق والأمر بيده ملكوت
السموات والأرض .

الخبر عن أهل جبال درن بالمغرب الأقصى من بطون المصامدة
وما كان لهم من الظهور والأحوال ومبادئ أمورهم وتصاريقها

هذه الجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور ربما أعرق في الثرى أصلها
وذهبت في السماء فروعها ، ومدّت في الجوّ هياكلها ، ومثلت سياجاً على ريف
المغرب سطورها تبتدىء من ساحل البحر المحيط عند أسفى وما إليها ، وتذهب في
المشرق إلى غير نهاية . ويقال إنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة ، وهي في
الجانب مما يلي مراكش قد ركب بعضها بعضاً متتالية على نسق من الصحراء إلى
التل . يسير الراكب فيه متعرّضاً من تامسنا وسواحل مراكش إلى بلاد السوس ودرعه
من القبلة ثمان مراحل وأزيد ، تفجّرت فيها الأنهار ، وجلجل الأرض ، حمراء
الشعراء ^(١) وتطابقت بينها ظلال الأدواح . وزكت فيها مواد الزرع والضرع ،
وانفسحت مسارج الحيوان ومراقع الصيد ، وطابت منابت الشجر ، ودرت أفاويق
الجباية يعمرها من قبائل المصامدة أم لا يحصيهم إلا خالقهم ، قد اتخذوا المعازل
والحصون وشيّدوا المباني والقصور واستغنوا بقطرهم عن سائر أقطار العالم ، فرحل
إليهم التجر من الآفاق ، واختلفت إليهم أهل النواحي والأمصار ، ولم يزلوا مذ أول
الإسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد أوطنوا منها أقاليم تعدّدت فيها الممالك
والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم ، وافترت أسماؤها بافتراق أجيالهم ^(٢) .

تنتهي ديارهم من هذه الجبال إلى ثنية المعدن المعروفة ببني فازان حيث تبتدىء مواطن
صنهاجة ^(٣) ويحفّون بهم كذلك من ناحية القبلة إلى بلاد السوس وقبائل هؤلاء

(١) وفي نسخة ثانية : حُمُر الشعراء .

(٢) وفي نسخة ثانية : أحيائهم .

(٣) وفي نسخة ثانية : صناكة .

المصامدة بهذه المواطن كثيرة فمنهم : هرغة وهتاتة وتينملل وكدموية وكنفيسة ووريكة وركراكة وهزأميرة ودكالة وحاحة وأمادين^(١) وازكيت^(٢) وبنو ماكر وإيلانة ويقال هيلانة . ويقال أيضاً أن إيلان هو ابن بر ، أصهر المصامدة فكانوا حلفاء لهم^(٣) . ومن بطون أمادين مصفاوة وماغوس ، ومن مصفاوة دغاغة وبوطنان ، ويقال إن غمارة ورهون وأمل من أمادين والله أعلم .

ويقال إن من بطون حاحة زكن وولخصن الظواعن الآن بأرض السوس أحلافاً لذوي حسّان المتغلّبين عليها من عرب المعقل . ومن بطون كنفيشة أيضاً قبيلة سكسباوة^(٤) . المواطنون بأمّنع المعاكل بهذه الجبال المطل جبلهم على بسيط السوس من القبلة وعلى ساحل البحر المحيط من المغرب ، ولهم بمنعة معقلهم ذلك اعتزاز على أهل جلدتهم نذكره بعد . وكان هؤلاء المصامدة صدر الإسلام بهذه الجبال عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم . وكان من مشاهيرهم كثير^(٥) بن وسلاس بن شملال بن أمادة وهو يحيى بن يحيى راوي الموطأ عن مالك . دخل الأندلس وشهد الفتح مع طارق في آخرين من مشاهيرهم استقرّوا بالأندلس . وكان لأعقابهم بها ذكر في الدولة الأموية . كان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء . ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين ، ومن صنهاجة بأفريقية حسبما هو مشهور ونأتي الآن بذكره إن شاء الله ، وبالله التوفيق ، لا رب سواه ، ولا معبود إلا إياه .

(١) وفي نسخة ثانية : أصادن .

(٢) وفي النسخة الباريسية : واركيت .

(٣) وفي نسخة أخرى : فكانوا خلفاءهم .

(٤) وفي نسخة أخرى : سكسبوة .

(٥) وفي نسخة ثانية : كسير وفي النسخة الباريسية : كبير .

وازكيت	—————	١٢١١
مكسيد بن كنسب	—————	١٢١٢
وريكة	—————	١٢١٣
ركراكة	—————	١٢١٤
مزيرة	—————	١٢١٥
دكالة	—————	١٢١٦
زكن	—————	١٢١٧

الخبر عن مبدأ أمر المهدي ودعوته وما كان
للموحددين القائمين بها على يد بني عبد المؤمن
من السلطان والدولة بالعدوتين وأفريقية وبداية ذلك وتصاريفه

لم يزل أمر هؤلاء المصامدة يجبال دَرَن عظيماً ، وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياً ، وفي
أخبار الفتح من حروبهم عَقْبَةُ بن نافع وموسى بن نُصَيْر حتى استقاموا على
الإسلام ما هو معروف مذكور إلى أن أظلمتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلاً ،
وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهماً ، حتى لما اختطوا مدينة مراکش لترلم جوار

مواطنهم من دَرَن لِيَتَمِيزُوا عَمَّن سِوَاهُمْ^(١) وَيَذَلُّوا مِنْ صَعَابِهِمْ . وَفِي عَنفَوَانِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ عَلَى عَهْدِ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ مِنْهَا نَجْمٌ إِمَامُهُمُ الْعَالَمُ الشَّهِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ تَوَمَرْتٍ^(٢) صَاحِبُ دَوْلَةِ الْمُوحَّدِينَ الْمَشْتَهَرِ بِالْمَهْدِيِّ ، أَصْلُهُ مِنْ هَرَّغَةَ مِنْ بَطُونِ الْمَصَامِدَةِ الَّذِينَ عَدَدْنَا هُمْ يَسْمَى أَبُوهُ عَبْدَ اللَّهِ وَتَوَمَرْتٌ ، وَكَانَ يَلْقَبُ فِي صُغُرِهِ أَيْضاً أَمْغَارَ ، وَهُوَ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَجَلِيدِ ابْنِ بَامَصَالٍ^(٣) بْنِ حَمْزَةَ بْنِ عَيْسَى فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ رَشِيقٍ وَحَقَّقَهُ ابْنُ الْقَطَّانِ . وَذَكَرَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ أَنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ تَوَمَرْتٍ بْنُ نِيطَاوُسَ بْنِ سَاوَلَا ابْنِ سَفْيُونِ بْنِ الْكَلْدَيْسِ بْنِ خَالِدٍ^(٤) . وَزَعَمَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُودَ بْنِ خَالِدِ بْنِ تَمَامَ بْنِ عَدْنَانَ ابْنِ سَفْيَانَ بْنِ صَفْوَانَ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَطَاءَ بْنِ رَبَاحَ بْنِ مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِ سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ . الْوَاقِعُ نَسَبُ الْكَثِيرِ مِنْ بَيْتِهِ فِي الْمَصَامِدَةِ وَأَهْلِ السُّوسِ . كَذَا ذَكَرَ ابْنُ نَحِيلٍ فِي سَلِيمَانَ هَذَا ، وَأَنَّهُ لَحِقَ بِالْمَغْرِبِ إِثْرَ أَخِيهِ أَدْرِيسَ ، وَنَزَلَ تَلَمْسَانَ وَافْتَرَقَ وَلَدُهُ فِي الْمَغْرِبِ قَالَ : فَمَنْ وَلَدُهُ كُلُّ طَالِبِي بِالسُّوسِ ، وَقِيلَ بَلْ هُوَ مِنْ قَرَابَةِ إِدْرِيسَ الْآخِثِينَ بِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَنَّ رَبَاحاً الَّذِي فِي عَمُودِ هَذَا النِّسَبِ إِنَّمَا هُوَ ابْنُ يَسَارِ الْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ، وَعَلَى الْأَمْرَيْنِ فَإِنَّ نَسَبَ الطَّالِبِيِّ وَقَعَ فِي هَرَّغَةَ مِنْ قِبَائِلِ الْمَصَامِدَةِ وَرَسَخَتْ عُرُوقُهُ فِيهِمْ ، وَالتَّحَمُّ بِعَصَبِيَّتِهِمْ فَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ ، وَانْتَسَبَ بِنَسَبَتِهِمْ وَصَارَ فِي عِدَادِهِمْ . وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلُ نَسَكٍ وَرِبَاطٍ . وَشَبَّ مُحَمَّدٌ هَذَا قَارِئاً مُحِبّاً لِلْعِلْمِ ، وَكَانَ يَسْمَى أَسَافُورَ ، وَمَعْنَاهُ الضَّيَاءُ لِكَثْرَةِ مَا كَانَ يَسْرِجُ الْقَنَادِيلَ بِالْمَسَاجِدِ لِلْمَازِمَتِهَا . وَارْتَحَلَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَى الْمَشْرِقِ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ ، وَمَرَّ بِالْأَنْدَلُسِ وَدَخَلَ قُرْطُبَةَ وَهِيَ إِذْ ذَاكَ دَارُ عِلْمٍ . ثُمَّ أَجَازَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَحَجَّ وَدَخَلَ الْعِرَاقَ وَلَقِيَ جَمَلَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : لِيَتَمَرَّسُوا بِهِمْ .

(٢) يُوجَدُ شَخْصٌ اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ تَوَمَرْتٍ وَهُوَ صَاحِبُ كَثَرِ الْعُلُومِ وَدَرِ الْمَنْظُومِ فِي حَقَائِقِ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ وَدَقَائِقِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ . (تُوجَدُ مِنْهُ نَسْخَةٌ فِي الْمَكْتَبَةِ الْخَدِيوِيَّةِ) وَيُرَى بِرُوكْلَمَانَ — فِي كِتَابِهِ تَارِيخُ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ — أَنَّ اسْمَهُ الْحَقِيقِيَّ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ تَوَمَرْتٍ وَأَنَّهُ أَنْدَلُسِيٌّ تَوَفَّى سَنَةَ ٣٩١ هـ ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْسَبُ كَثَرِ الْعُلُومِ وَهُوَ هَوَارَتُ إِلَى الْمَهْدِيِّ ، وَسَبَبُ الْخَلْطِ أَنَّ فِي هَذَا الْكِتَابِ نَقْدَ نَظَرِيَّةِ التَّجْسِيمِ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ مُحَمَّدُ بْنُ تَوَمَرْتٍ كَانَ مُعَاصِراً لِلْمَهْدِيِّ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقْتَرِفُ جَرَائِمَ الْقَتْلِ الْجَمَاعِيِّ فِي عَهْدِ الْمَهْدِيِّ .

(٣) وَفِي النِّسْخَةِ التُّونِسِيَّةِ تَامَصَالٍ . وَفِي نَسْخَةِ ثَانِيَةِ : يَامَصَالٍ .

(٤) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : مُحَمَّدُ بْنُ تَوَمَرْتٍ بْنُ تَيْطَاوِينَ بْنِ سَافَلَا بْنِ مَسِيغُونِ ابْنِ إِيْكَلْدَيْسِ بْنِ خَالِدٍ .

يومئذ وفحول النظار ، وأفاد علما واسعا وكان يندب نفسه بالدولة لقومه على يده لما كان الكهان والحزاء يتحيتون ظهور دولة يومئذ بالمغرب . ولقي فيها زعموا أبا حامد الغزالي ، وفاوضه بذات صدره بذلك فأراده عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار المغرب من اختلال الدولة وتقويض أركان السلطان الجامع الأمة ، المقيم للملة بعد أن ساء له عمن له من العصابة والقبائل التي يكون بها الاعتزاز والمنعة ، ونشأ بها يتم أمر الله في درك البغية وظهور الدعوة . وانطوى هذا الإمام راجعاً إلى المغرب بجراً متفجراً من العلم ، وشهاباً واريماً من الدين . وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة . وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار التشابهات كما جاءت . ففطن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القوم بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد ، وأعلن إمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد . وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة ، وألف في ذلك كتابه في الإمامية الذي افتتحه بقوله : أعز ما يطلب وصار هذا المفتوح لقباً على ذلك الكتاب ، وأحل^(١) بطرابلس أول بلاد المغرب معنياً بمذهبه ذلك مظهراً النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه ، آخذاً نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع ، حتى لقي بسبب ذلك أذيات في نفسه احتسبها من صالح عمله^(٢) . ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس ابن حماد من أمراء صنهاجة . وكان من المترفين فأغلظ له ولأتباعه بالنكير . وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق ، فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة واثتمروا به ، فخرج منها خائفاً ولحق بملالة على فرسخ منها ، وبها يومئذ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة . وكان لهم اعتزاز ومنعة ، فأووه وأجاروه وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه ، وأقام بينهم يدرس العلم أياماً . وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملاله ، وهي لهذا العهد

(١) وفي نسخة أخرى : احتلّ .

(٢) وفي نسخة أخرى : أعماله .

معروفة . وهناك لقيه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه فأعجب بعلمه ، وانتهى عزمه عن وجهه ذلك ، واختصّ به وتسمّر للأخذ عنه . وارتحل المهدي إلى المغرب وهو في جملته . ولحق بوانشرس . وصحبه منها البشير من جملة أصحابه . ثم لحق بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها ابن صاحب الصلاة ووبّخه على متحلّه ذلك ، وخلافه لأهل قطره . وظنّ أن من العدل نزعه عن ذلك ، فصمّ عن قبوله . واستمر على طريقه إلى فاس ، ثم إلى مكناسة ونهى بها عن بعض المناكير فأوقع به الشرار من الغوغاء . فأوجعوه ضرباً ، ولحق بمراكش وأقام بها آخذاً في شأنه . ولقي علي بن يوسف بالمسجد الجامع في صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له القول . ولقي ذات يوم الصورة أخت علي بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها المثلّمين في زي نسائهم فوبّخها ، ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تفرّيعه ، ففاوض الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من شهرته . وكانوا ملثوا منه حسداً وحفيظةً لما كان يتحلّ مذهب الأشعرية في تأوي التشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إقراره كما جاء . ويرى أن الجمهور لقنوه تجسّماً ، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك أحد قولي الأشعرية في التكفير فال الرأي فأغروا الأمير به فأحضره للمناظرة معهم فكان له الفتح والظهور عليهم ، وخرج من مجلسه ونذر بالشر منهم فلحق من يومه بأغاث ، وغير المناكير على عادته وأغرى به أهلها علي بن يوسف وطّروا إليه بخبره فخرج عنها هو وتلميذه الذين كانوا في صحابته ، ودعا اسمعيل بن أيكيك من أصحابه وهو من أنجاد قومه^(١) ، وخرج به إلى منجاة من جبال المصامدة . لحق أولاً بمسفيوه ، ثم بهنتاته . ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي ، وهو أبو حفص ويعرف بيته ابن هنتاته ببني فاصكات . وتقول نسابتهم إن فاصكات هو جد وانودين ، ويقال لهنتاته بلسانهم هنني فلذلك كان يعرف عمر بهنتي وسياقي الكلام في تحقيق نسبهم عند ذكر دولتهم . ثم ارتحل المهدي عنهم إلى أيكيلين من بلاد هرّغة ، فترّل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة . وبني رابطة للعبادة اجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري . وشاع أمره في صحبته واستدرك فقيه العلمية بمجلس

(١) وفي نسخة أخرى : ودعا اسماعيل بن أيكيك من اصحابه مايتين من أنجاد قومه .

الأمير علي بن يوسف وهو مالك بن وهيب أغراه به . وكان حَزاء ينظر في النجوم وكان الكهَّان يتحدثون بأن ملكا كائن بالمغرب لأمة من البربر ويتغيَّر فيه شكل السِّجَّة لقران بين الكوكبين العلويين من السَّيَّارة يقتضي ذلك في أحكامهم ، وكان الأمير يتوقَّعها ، فقال : احتفظوا بالدولة من الرجل فإنه صاحب القران .

والدرهم المربع في كلام سفساف بسجع سوقي يتناقلها الناس نصه * وهو : أجعل على رجله كبلا * لثلا يسمعك طبلا * وأظنه صاحب الدرهم المربع ، فطلبه علي بن يوسف ففقده وسرَّح الخيالة في طلبه ففاتهم ، وداخل عامل السوس ، وهو أبو بكر ابن محمد اللمتوني بعض هرَّعة في قتله ، ونذر بهم إخوانهم ففقلوا الإمام إلى معقل أشياعهم ^(١) ، وقتلوا من داخل في أمره . ثم دعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد ، وقتال المجسمين دونه سنة خمسة عشر وخمسمائة ، فتقدَّم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرها . وكان فيهم من هنتاة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن يكييت ويونس ^(٢) بن وانودين وابن يغمور ، ومن تينملل أبو حفص عمر بن علي الصناكي ومحمد بن سليمان وعمرو بن تافراتكين ^(٣) وعبدالله بن ملويات . وأهب ^(٤) قبيلة هرَّعة فدخلوا في أمره كلهم ، ثم دخل معهم كيدَموية ^(٥) وكنفيسة ، ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الإمام . وكان يسمى أصحابه الطلَّبة ، وأهل دعوته الموحدِّين ، ولما تمَّ له خمسون من أصحابه سمَّاهم ايت الخمسين . وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرَّعة ، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتاة وتينملل فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة فكانت مقدمة الفتح . وكان الإمام يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره ، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته ، وتردَّدت عساكر لمتونة إليهم مرَّة بعد أخرى ففصَّوهم ، وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه ، وبني داره ومسجده بينهم حوالي منبع وادي نفيس .

وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولا هرَّرجة وأوقع بهم مراراً ، ودانوا بالطاعة . ثم قاتل هسكورة ومعهم أبو دوقة اللمتوني فغلبهم وقفل فاتبعه

(١) وفي نسخة أخرى : امتناعهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : يوسف .

(٣) وفي نسخة أخرى : تافركين .

(٤) وفي نسخة أخرى : اوعب .

(٥) وفي نسخة أخرى : كدميوة .

بنو واسكيت فأوقع بهم الموحدون وأثنخوا فيهم قتلاً وأسراً . ثم غزا بلد غجرامه^(١) وكان قد افتتحه وترك فيه الشيخ أبا محمد عطية من أصحابه فغدروا به ، وقتلوه فغزاهم واستباحهم . ورجع إلى تينملل وأقام بها إلى أن كان شأن البشير وميز الموحد من المنافق . وكانوا يسمّون لمتونة الحشم فاعتزم على غزوهم ، وجمع كافة أهل دعوته من المصامدة ، وزحف إليهم فلقوه بكيك ، وهزمهم الموحدون واتبعوههم إلى أغات فلقبهم هنالك زحوف لمتونة مع بكر^(٢) بن علي بن يوسف وابراهيم بن تاعباش فهزمهم الموحدون . وقتل ابراهيم واتبعوههم إلى مراکش ، فترلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم راجلين إلا أربعائة فارس .

واحتفل علي بن يوسف الاحتشاد وبرز إليهم لأربعين من نزولهم خرج عليهم من باب إيلان فهزمهم وأثنخ فيهم قتلاً وسبياً ، وفقد البشير من أصحابه . واستحرّ القتل في هيلانة ، وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء . وكانت وفاة المهدي لأربعة أشهر بعدها . وكان يسمّى أصحابه بالموحدّين تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم . وكان حصورا لا يأتي النساء . وكان يلبس العباءة المرقّعة . وله قدم في التقشّف والعبادة ، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة عبد المؤمن خليفة المهدي والخلفاء الأربعة من بنيه ووصف أحوالهم ومصاير أمورهم

لما هلك المهدي سنة إثنين وعشرين وخمسمائة^(٣) كما ذكرناه وقد عهد بأمره من بعده لكبير صحابته عبد المؤمن بن علي الكومي المتقدّم ذكره ، ونسبه عند ذكر قومه ، فقبّره بمسجده لصق داره من تينملل . وخشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة ولاية عبد المؤمن بن علي لكونه من غير جلدتهم ، فأرجأوا الأمر إلى أن تحالط بشاش الدعوة قلوبهم ، وكتموا موته ، زعموا ثلاث سنين

(١) وفي النسخة الباريسية : غجرامه .

(٢) وفي النسخة الباريسية : نكو وفي نسخة ثانية مكر .

(٣) وقد قبائل المغرب ان المهدي توفي سنة ٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م/ص ١٢٧ .

يموتون بمرضه ، ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب . يدخل أصحابه إلى البيت كأنه اختصهم بعبادته ، فيجلسون حوالي قبره ويتفاوضون في شؤونهم بمحضر أخته زينب ثم يخرجون لإنفاذ ما أأمره ، ويتولاه عبد المؤمن بتلقيهم حتى إذا استحكمت أمرهم وتمكنت الدعوة من نفوس كافتهم كشفوا حينئذ القناع عن حالهم ، وتلأ من بقي من العشرة على تقديم عبد المؤمن . وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص ، وأراد هتاتة وسائر المصامدة غلبه فأظهروا للناس موت المهدي ، وعهده لصاحبه وانقياد بقية أصحابه لذلك .

وروى يحيى بن يغمور أنه كان يقول في دعائه إثر صلواته : «اللهم بارك في الصاحب الأفضل» فرضي الكافة وانقادوا وأجمعوا على بيعته بمدينة تينمل سنة أربع وعشرين وخمسمائة فقام بأمر الموحدين وأبعد في الغزوات فصبح تادلا ، وأقام بها وأصاب منهم . ثم غزا دَرَعَة واستولى عليها سنة ست وعشرين وخمسمائة ثم غزا تاسعون^(١) وافتتحها وقتل واليها أبا بكر بن مازرو^(٢) ومن كان معه من قومه غمارة بني وزار^(٣) وبني مزردع ثم تسابق الناس إلى دعوتهم أفواجا ، وانتفض البرابر في سائر أقطار المغرب على لمتونة ، فسرح علي بن يوسف ابنه تاشفين لقتالهم سنة ثلاث وستين وخمسمائة فجاءهم من ناحية أرض السوس ، وأحشد معه قبائل كزولة وجعلهم في مقدمته ، فلقبهم الموحدون بأوائل جبلهم وهزمهم . ورجع تاشفين ولم يلق حرباً ، ودخل كزولة من بعدها في دولة الموحدين ، وأجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب ، فغزا غزاته الطويلة منذ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ولم يراجع فيها تينمل حتى إذا انقضت بالفتح والاستيلاء على المغربين ، خرج إليها من تينمل ، وخرج تاشفين بعساكره يحاذيه في البسائط ، والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو يتقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والخطب للدفع إلى أن وصل إلى جبل غمارة ، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب ، وامتنعت الرعايا من المغرم وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة .

وهلك خلال ذلك علي بن يوسف أمير لمتونة ملك العدوتين سنة سبع وثلاثين

(١) وفي نسخة أخرى : تاشعبوث وفي النسخة الباريسية تاسيغموت .

(٢) وفي نسخة أخرى : مزروال .

(٣) وفي نسخة أخرى : بني ونام ، وفي النسخة الباريسية : وارتي وفي نسخة ثانية : ونار .

وخمسمائة ، وولّى أمرهم تاشفين ابنه ، وهو في غزاته هذه ، وقد أحبط به . وحزن بعد أبيه على فتنه بني لمتونة ومسوقة^(١) ، ففزع أمراء مسوقة مثل بدران^(٢) بن محمد ويحيى بن تاكصتن^(٣) ويحيى بن إسحق المعروف بأنكار ، وكان والي تلمسان ، ولحقوا بعبد المؤمن فيمن إليهم من الحملة ، ودخلوا في دعوته ، ونبذ إليهم لمتونة العهد ، والي سائر مسوقة ، واستمر عبد المؤمن على حاله فنازل سبته وامتنعت عليه ، وتولّى كبر دفاعه عنها القاضي عياض الشهرير الذكر . كان رئيسها يومئذ بدينه وأبوتّه ومنصبه . ولذلك سخطته الدولة آخر الايام حتى مات مغرباً عن سبته بتادلاً مستعملاً في خطة القضاء بالبادية ، وتمادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غياثه وبطوية فافتتحها ، ثم نزل ملوية فافتتح حصونها . ثم تخطى إلى بلاد زناته فأطاعته قبائل مديونة . وكان بعث إليهم عساكر من الموحدّين إلى نظر يوسف بن وانودين وابن يرمور^(٤) فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانو عامل تلمسان فيمن معه من عساكر لمتونة وزناته فهزمهم الموحدّون وقتل ابن فانو وانقضّ عسكر زناته ، ورجعوا إلى بلادهم .

وولّى ابن تاشفين على تلمسان أبا بكر بن مزدلي ، ووصل إلى عبد المؤمن بمكانه من الريف أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن بدر أمراء بني مانو ، فبعث معهم ابن يغمور وابن وانودين في عسكر من الموحدّين ، فأثخنوا في بلاد بني عبد الواد ، وبني باجدي^(٥) سبياً وأسرّاً ، وأمدتهم عساكر لمتونة ومعهم الزبرّيت قائد الروم وتزلوا منداماس^(٦) ، واجتمعت عليهم زناته في بني يلومي وبني عبد الواد ، وشيخهم حامة ابن مطهر ، وبني نيكاس وبني ورسفان وبني توجين ، فأوقعوا في بني مانو واستنقذوا غنائمهم ، وقتل أبو بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه ، وتحصّن الموحدّون وابن وانودين بجبال سيرات ، ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريحاً على لمتونة وزناته ، فارتحل معه إلى تلمسان . ثم أجاز إلى سيرات وقصد محلة ملتونة وزناته ،

(١) وفي نسخة أخرى : مسوقة .

(٢) وفي نسخة أخرى : برّاز وفي النسخة الباريسية : بران .

(٣) وفي نسخة أخرى : تاكفت .

(٤) وفي النسخة الباريسية : مرمور .

(٥) وفي نسخة أخرى : يلومي .

(٦) وفي نسخة أخرى : منداس .

فأوقع بهم ورجع إلى تلمسان فترل ما بين الصخرتين من جبل بني ورتيك^(١) ونزل تاشفين بأصطفصف ووصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية لنظر طاهر بن كباب من قواده ، أمدوا به تاشفين وقومه لعصية الصنهاجية . وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين ، وكان يدل باقدام وبأس فزارى بلمتونة وأميرهم لقيعدهم عن المناجزة الموحدين ، وقال : إنما جئتكم أوأمّنكم^(٢) من صاحبكم عبد المؤمن هذا ، وأرجع إلى قومي ، فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة ، فحمل على القوم فركبوا وصمّموا للقائه ، فكان آخر العهد به وبمعسكره . وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم الزبرتير في عسكر ضخّم كما قلناه ، فأغار على بني سندم^(٣) وزناة الذين كانوا في بسيطهم ورجع بالغنائم فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوه ، وقتل الزبرتير وصلب ثم بعث بعثاً آخر إلى بلاد بني مانو ، فلقبهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين وأوقعوا بهم . واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل . وتوالت هذه الوقائع على تاشفين فأجمع الرحلة إلى وهران ، وبعث ابنه إبراهيم وليّ عهده إلى مراکش في جماعة من لمتونة ، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية ، ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فأقام عليها شهراً ينتظر قائد اسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل ، فأرسل قريبا من معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وبني مانو من زناته ، فتقدّموا إلى بلاد بني يلومي وبني عبد الواد وبني ورسيّين وبني توجين وأثنوا فيهم حتى دخلوا في دعوتهم .

ووفد على عبد المؤمن برؤسائهم ، وكان منهم سيّد الناس ابن أمير الناس شيخ بني يلومي فتلقاهم بالقبول ، وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران ففجعوا لمتونة بمعسكرهم ففضّوهم ، ولحق تاشفين إلى رابية هناك فأخذ قواها وأضرموا النيران حولها حتى غشيم الليل ، فخرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل ، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

(١) وفي نسخة أخرى : بني ورنيد .

(٢) وفي نسخة أخرى : لأمكنكم .

(٣) وفي نسخة ثانية : سنوس .

وبعث برأسه إلى تينملل . ونجا فلّ العسكر إلى وَهْرَان فأنحصروا مع أهلها حتى جهدهم العطش ونزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم الفطر من تلك السنة . وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع فلّ لمتونة وفيهم أبو بكر بن ولحف^(١) وسير بن الحاج وعليّ بن فيلوفي آخرين من أعيانهم ، فقرّ معهم من كان بها من لمتونة . وقدم عبد المؤمن فقتل من وجد بتاكرات بعد أن كانوا بعثوا ستين من وجوههم ، فلقبهم بصليتين من مشيخة بني عبد الواد فقتلهم أجمعين .

ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرات لما كان أكثرهم من الحشم ، وعفا عن أهل تلمسان ، ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولّى عليها سليمان ابن محمد بن وانودين ، وقيل يوسف بن وانودين . وفيما نقل بعض المؤرخين أنه لم يزل محاصراً لتلمسان والفتوح ترد عليه ، وهنالك وصلته بيعة سِجْلَمَاسَة . ثم اعترم على الرحيل إلى المغرب ، وترك ابراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان ، فقصد فاس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقد تحصّن بها يحيى الصحراوي ولحق بها من فلّ تاشفين من تلمسان فنازلها عبد المؤمن ، وبعث عسكرياً لحصار مكناسة ، ثم رحل في اتباعه وترك عسكرياً من الموحدّين على فاس ، وعليهم الشيخ أبو حفص وأبو ابراهيم وصحابة المهدي العشرة ، فحاصروه سبعة أشهر .

ثم داخلهم ابن الجياني مشرف البلد وأدخل الموحدّين ليلاً ، وفرّ الصحراوي إلى طنجة ، وأجاز منها إلى ابن غانية بالأندلس ، وبلغ خبر فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة ، فرجع إليها وولّى عليها ابراهيم بن جامع وولّى على مكناسة يحيى بن يغمور ، ورحل إلى مراکش وكان ابراهيم بن جامع ، لما افتتح تلمسان ارتحل إلى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس فاعترضه في طريقه المخضّب بن عسكر أمير بني مَرِين ونالوا منه ومن رفقته ، فكتب عبد المؤمن إلى يوسف بن وانودين عامل تلمسان أن يجهّز إليهم العساكر ، فبعثها صحبة عبد الحق بن منقاد^(٢) شيخ بني عبد الواد ، فأوقعوا ببني مَرِين وقتل المخضّب أميرهم .

ولما ارتحل عبد المؤمن من فاس إلى مراکش وصلته في طريقه بيعة أهل سبتة ، فولّى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاة ، ومرّ على سلا فافتتحها بعد واقعة

(١) وفي النسخة الباريسية : ابن نجي وفي نسخة ثانية : بن يحيى .

(٢) وفي نسخة أخرى : منقاد .

قليلة ، ونزل منها بدار ابن عشرة ، ثم تمادى إلى مراکش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأثنى فيهم ورجع . ولقيه في طريقه ووصلوا جميعاً إلى مراکش وقد ضمّوا إليها جموع لمطة ، فأوقع بهم الموحّدون وأنحنوا فيهم قتلاً ، واكتسحوا أموالهم وظعائنهم ، وأقاموا على مراکش تسعة أشهر^(١) وأميرهم إسحق بن علي بن يوسف ، بايعوه صبيّاً صغيراً عند بلوغ خبر أبيه . ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحّدين ، فانهزموا وتبعهم الموحّدون بالقتل ، واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقتل عامّة الملتّمين ، ونجا إسحق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحّدين وأحضر إسحق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحّدون بأيديهم وتولى كبير ذلك أبو حفص بن واكاك منهم وإحى أثر الملتّمين واستولى الموحّدون على جميع البلاد .

ثم خرج عليهم بناحية السوس ثائر من سوقة سلا يعرف محمد بن عبد الله بن هود وتلقّب بالهادي ، وظهر في رباط ماسة ، فأقبل إليه الشراد^(٢) من كل جانب ، وانصرف إليه وجوه الأغمار من أهل الآفاق وأخذ بدعوته أهل سِجِلْمَاسَة ودَرْعَة وقبائل دكالة وركراكة وقبائل تامسنا وهوارة ، وفشت ضلّالته في جميع العرب ، فسرح إليه عبد المؤمن عسكرياً من الموحّدين لنظر يحيى أنكار الملتّوني النازع إليه من إيالة تاشفين بن علي . ولقي هذا الثائر المآسي ، ورجع مهزوماً إلى عبد المؤمن فسرح الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحّدين ، واحتفل في الاستعداد فنهضوا إلى رابطة ماسة ، وبرز إليهم الثائر في نحو ستين ألفاً من الرجال وسبعائة من الفرسان ، فهزمهم الموحّدون ، وقتل داعيتهم في المعركة مع كثرة أتباعه ، وذلك في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وكتب الشيخ أبو حفص بالفتح إلى عبد المؤمن من إنشاء أبي حفص بن عطية الشهير الذكر ، كان أبوه أبو أحمد كاتباً لعلي بن يوسف وابنه تاشفين ، وتحصل في قبضة الموحّدين فعفا عنه عبد المؤمن .

ولما نزل على فاس اعترم أبو حفص^(٣) هذا على الفرار فتقبّض عليه في طريقه ، واعتذر فلم يقبل عذره وقتل . وكان ابنه أحمد كاتباً لإسحق بن علي بمراكش

(١) وفي نسخة أخرى : سبعة أشهر .

(٢) وفي النسخة التونسية الشرار والمقصود الاشرار أو المشردون .

(٣) وفي نسخة أخرى : أبو أحمد .

شمّله عفو السلطان فيمن شمله من ذلك الفلّ ، وخرج في جملة الشيخ أبي حفص في وجهته هذه وطلبه للكتاب في ذلك ، فأجابه واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه فاستكتبه أولاً . ثم ارتفع عنده مكانه ^(١) فاستوزره ، وبعد في الدولة صيته ، وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها ، ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولته إلى أن دبّت السعاية إلى مهاده الوثير ، فكان فيها حتفه ، ونكبه الخليفة سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وقتله بمحبسه حسبما هو مشهور .

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزاة ماسة أراح بمراكش أياماً . ثم خرج غازياً إلى القائمين بدعوة الماسي بجبال درن ، فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأثنى فيهم بالقتل والسبي حتى اذعنوا بالطاعة ورجع . ثم خرج إلى هسكورة وأوقع بهم وافتتح معاقلمهم وحصونهم . ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش ، ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة ثم هزموه ، واضطربت نار الفتنة بالمغرب ، وانتقض أهل سبتة ، وأخرجوا يوسف بن مخلوف التينمللي وقتلوه ومن كان معه من الموحّدين ، وأجاز القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي بن غانية المسوقي الوالي بالأندلس ، فلقبه بالخضراء وطلب منه والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان بفاس منذ منازلة عبد المؤمن لها . وذكر أنه لحق بطنجة فأجاز البحر إلى الأندلس ولحق بابن غانية بقرطبة وصار في جملته .

وبعثه ابن غانية إلى سبتة مع القاضي عياض كما ذكرناه . وقام بأمرها ووصل يده بالقبائل الناكثة لطاعة الموحّدين من برغواطة ودكالة على حين هزيمتهم للموحّدين كما ذكرناه . ولحق بهم من مكانه بسبتة وخرج إليهم عبد المؤمن بن علي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فدوّخ بلادهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة وتبرأوا من يحيى الصحراوي ولتونة ، ورجع إلى مراكش لستة أشهر من خروجه ، ووصلته المرعبة ^(٢) من مشيخة القبائل في يحيى الصحراوي فعفا عنه وصلحت أحوال المغرب . وراجع أهل سبتة طاعتهم فتقبل منهم ، وكذلك أهل سلا فصفع لهم وأمر بهدم سورهم والله أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : بخلاله .

(٢) وفي نسخة أخرى : الرغبة .

* (فتح الأندلس وشؤونها) *

ثم صرف عبد المؤمن من قصره إلى الأندلس ، وكان من خبرها أنه اتصل بالملثمين مقتل تاشفين بن عليّ ، ومنازلة الموحدّين مدينة فاس . وكان علي بن عيسى بن ميمون قائد أسطولهم قد نزع طاعة لمتونة وانتزى بجزيرة قادس ، فلحق بعبد المؤمن بمكانه من حصار فاس ، ودخل في دعوته وخطب له بجامع فاس^(١) أوّل خطبة خطبت لهم بالأندلس عام أربعين وخمسمائة . وبعث أحمد بن قيسي صاحب مرّتلة ومقيم الدعوة بالأندلس أبا بكر بن حبيس^(٢) رسولا إلى عبد المؤمن فلقّيه على تلمسان وأدّى كتاب صاحبه فأنكر ما تضمّنه من التعت بالمهدي ، ولم يجاوب . وكان سدراتي^(٣) بن وزير صاحب بطليوس وباجة وغرب الأندلس قد تغلّب على أحمد ابن قيسي هذا ، وغلبه على مرّتلة فأجاز أحمد بن قيسي البحر إلى عبد المؤمن من بعد فتح مراکش لمداخلة عليّ بن عيسى بن ميمون ونزل بسبتة ، فجّهزه يوسف بن مخلوف ، ولحق بعبد المؤمن ، ورغبه في ملك الأندلس ، وأغراه بالملثمين فبعث معه عساكر الموحدّين لنظر براز بن محمد المسوقي الناظر إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين ، وعقد له على حروب من بها من لمتونة والثّوار وأمدّه بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد ، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي ، ولمّا أجازوا إلى الأندلس نازلوا بالغمر بن عزرون من الثّوار بشرّيش ، وكانت له مع ولده^(٤) . ثم قصدوا لبّلة وبها من الثّوار يوسف بن أحمد البطروجي^(٥) فأعطاهم الطاعة ، ثم قصدوا مرّتلة ، وهي تحت الطاعة لتوحيد صاحبها أحمد بن قيسي . ثم قصدوا شلّب فافتتحوها ، وأمکنوا منها ابن قيسي . ثم نهضوا إلى باجة وبطليوس فأطاعهم صاحب سدراتي بن وزير . ثم براز في عسكر الموحدّين إلى مرّتلة حتى انصرم فصل الشتاء فخرج إلى منازل

(١) وفي نسخة أخرى : قادس .

(٢) وفي نسخة أخرى : حيسن وفي نسخة ثانية قيسي وفي النسخة الباريسية حبيس .

(٣) وفي نسخة أخرى : سدراي .

(٤) وفي نسخة أخرى : ذنّدة .

(٥) وفي النسخة الباريسية : البطروجي .

أشبيلية فأطاعه أهل طليطلة^(١) وحصن القصر ، واجتمع إليه سائر الثوار وحاصروا أشبيلية برّاً وبحراً إلى أن افتتحوها في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقرّ المثلثون بها إلى قرمونة وقتل من أدرك منهم . وأتى القتل على عبدالله بن القاضي أبي بكر بن العربي في هيئة تلك الدخلة من غير قصد . وكتبوا بالفتح إلى عبد المؤمن بن عليّ . وقدم عليه وفودهم بمراكش يقدمهم القاضي أبو بكر فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والأقطاعات لجميع الوفد سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

وهلك القاضي أبو بكر في طريقه ودفن بمقبرة فاس . وكان عبد العزيز وعيسى أخو المهدي من مشيخة العسكر بأشبيلية ساء أثرهما بالبلد واستطالت أيديهما على أهله ، واستباحوا الدماء والأموال . ثم اعترما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة فلحق ببلده وأخرج الموحدّين الذين بها ، وحول الدعوة عنهم . وبعث إلى طليطلة وحصن القصر ، ووصل يده بالمثلثين الذين كانوا بالعدوة وارتدّ ابن قيسي في مدينة شلف ، وعلي بن عيسى بن ميمون بجيزة قادم ومحمد بن الحجام بمدينة بطليوس وثبت أبو الغمر بن عزرون على طاعة الموحدّين بشريش^(٢) ورندة^(٣) وجهاتهما . وتغلّب ابن غانية على الجزيرة الخضراء ، وانتقض أهل سبتة كما ذكرناه ، وضاعت أحوال الموحدّين بأشبيلية ، فخرج منها عيسى وعبد العزيز أخو المهدي وابن عمهما يصليتن بمن كان معهم . ولحقوا بجبال بستر^(٤) وجاءهم أبو الغمر بن عزرون ، واتصلت أيديهم على حصار الجزيرة حتى افتتحوها وقتلوا من كان بها من لمتونة ، ولحق أخو المهدي بمراكش ، وبعث عبد المؤمن على أشبيلية يوسف بن سليمان في

(١) وفي النسخة الباريسية : طلياطلة .

(٢) شريش . مدينة كانت تدعى عند القوط سرت Ceret . وبناحتها وقعت المعركة الحاسمة بين طارق بن زياد وآخر ملوك الغوط سنة ٧١١ م ، وبعدها تم فتح المسلمين للأندلس ، وكانت في أيام العرب مدينة مهمة ومركزاً ثقافياً مشهوراً ، وهي اليوم كذلك من أهم مدن اسبانيا . استرجعها الاسبان نهائياً سنة ١٢٦٤ م . بينها وبين أشبيلية ٩٧ كلم إلى ناحية الجنوب . وكانت في أيام العرب من أعمال كورة البحيرة . (البينة/٣٤) .

(٣) رنده : اسمها اللاتيني روندا Ronda وهي من أقدم مدن اسبانيا ، وكانت مزدهرة أيام العرب ، تقدّم فيها أدباء وعلماء مشهورون ، ولها تاريخ مجيد في الاستانة دفاعاً عن استقلالها . ولم يستطع الاسبان الاستيلاء عليها إلا بعد حصار دام عشرين يوماً سنة ١٤٨٥ قبل غرناطة بسبع سنوات . ونزح أهلها إلى المغرب العربي ، وتوجد إلى الآن عائلات الرندي بالمغرب . تبعد ١٠٨ كلم عن جبل طارق باتجاه الشمال وعن مالقة ٩٦ كلم إلى ناحية الشرق (البينة/٢٧) .

(٤) وفي نسخة ثانية : بيستر .

عسكر من الموحدين وأبقى براز بن محمد على الجباية ، فخرج يوسف ودوخ أعمال البطروجي بلبلة وطليطلة وعمل ابن قيسي بشلب ثم أغار على جبيرة وأطاعه عيسى بن ميمون صاحب شتمرية ، وغزا معهم وأرسل محمد بن علي بن الحاج صاحب بطليوس^(١) بهداياه فتقبلت ورعيت له ، ورجع يوسف إلى أشبيلية . وفي أثناء ذلك استغلظ الطاغية على يحيى بن علي بن غانية بقرطبة وألح على جهاته حتى نزل له عن بياسة^(٢) ورندة ، وتغلب على الاشبونة^(٣) وطرطوشة^(٤) ولاردة^(٥) وافراغة وشتمرية وغيرها من حصون الأندلس ، وطالب ابن غانية بالزيادة في بيته أو الإفراج له عن قرطبة ، فراسل ابن غانية براز بن محمد واجتمعا باستجة^(٦) وضمن له براز إمداد الخليفة على أن يتخلى عن قرطبة وقرمونة ويدال منها يحيان فرضي بذلك وتم العقد ووصل خطاب عبد المؤمن بامضائه فارتحل ابن غانية إلى جيان ونازله الطاغية بها فغدر بأقماطه واقتلعهم بقلعة ابن سعيد وافرغ الطاغية عن جيان ولحق هذا بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمتوني في جماعة من المرابطين ، قصده ابن غانية ليحمله على مثل حاله مع الموحدين فكان مهلكه بها في شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وقبره بها معروف لهذا العهد . وانتهر الطاغية فرصته في قرطبة فزحف إليها ودفع الموحدون بأشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمايتها ، ووصل إليه مدد يوسف

-
- (١) بطليوس : اسمها القديم بتاليوم : Batallium وهي مدينة على الحدود البرتغالية تبعد عن مجريط نحو ٤٠٠ كلم . كانت عاصمة لبني الأفطس أيام ملوك الطوائف . وبالقرب منها كانت موقعة الزلاقة . ينسب إليها علماء وأدباء معروفون . وكانت تعتبر من كورة قصر ابن أبي وانس . (البينة/٢٣) .
- (٢) بياسة : اسمها باللاتينية : فيفاتيا Vivatia وكان لها شأن أيام العرب ونبغ فيها أدباء وعلماء . خربها الاسبان بعد استرجاعها سنة ١٢٧٧ ثم أعيد تجديدها (البينة/٢٤) .
- (٣) الاشبونة هي عاصمة البرتغال اليوم وكانت تسمى قبل الإسلام أوليسيبو Ulissipo . افتتحها المسلمون سنة ٧١١ وبقي نفوذهم بها إلى سنة ١١٤٧ . وكانت من كورة البلاطة . (البينة/٢٠) .
- (٤) طرطوشة ، كانت أيام الرومان تدعى Dertosa Julia Augusta مدينة على شاطئ البحر المتوسط . كانت مركزاً بحرياً هاماً أيام العرب ومدينة علم وأدب استرجعها الاسبان سنة ١١٤٨ م وهي إلى جنوب برشلونة . كانت تعتبر من كورة البورتات . (البينة/٢٨) .
- (٥) لاردة : كانت تسمى ايلاردة Elorda . فتحها العرب في القرن الثامن وهي على نهر شيقر . كانت من أهم الثغور الشرقية . (البينة/٢٩) .
- (٦) استجة : اسمها في اللاتينية Astigi تقع جنوبي قرطبة لا تزال بها اثار عربية قيمة وهي على وادي شنيل . (البينة/٢٠) .

البطروجي من لُبْلَة^(١) وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكرياً من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور في طلب الأمان من عبد المؤمن . ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم وصفح لهم ونهض إلى مدينة سلا سنة خمس وأربعين وخمسمائة واستدعى منها أهل الأندلس فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً ، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الأمر مثل سدراتي بن وزير صاحب باجة ، وباثورة^(٢) والبطروجي صاحب لُبْلَة ، وابن عزرون صاحب شريش ورندة وابن الحجام صاحب بطليوس ، وعامل بن مهيب صاحب طلبيرة ، وتحلف ابن قيسي وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سبباً لقتله من بعد . ورجع عبد المؤمن إلى مراكش وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته والله تعالى أعلم .

* (فتح افريقية وشؤونها) *

ثم بلغ عبد المؤمن ما هي عليه أفريقية من اختلاف الأمراء واستطالة العرب عليها بالعيث والفساد ، وأنهم حاصروا مدينة القيروان ، وأن موسى بن يحيى الرياحي المرداسي دخل مدينة باجة وملكها ، فأجمع الرحلة إلى غزو أفريقية بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا ابراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه . وخرج من مراكش في أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة مورياً بالجهاد حتى انتهى إلى سبتة واستوضح أحوال أهل الأندلس ، ثم رحل عن سبتة مورياً بمراكش ، وأغذ السير إلى باجة فدخل الجزائر على حين غفلة ، وخرج إليه الحسن بن علي صاحب المهدية ، فصعبه واعترضه جيوش صنهاجة بأمر العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها . وركب يحيى بن العزيز البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك ، واحتمل فيهما ذخائره وأمواله والحق بقسنطينة إلى أن نزل بعد ذلك منها على أمان عبد المؤمن . واستقر

(١) اسمها القديم Ilipia وهي من أعمال أوبية تبعد عن أشبيلية ٦٥ كلم استرجعها الازفونش العاشر سنة ١٢٥٧ وهي موطن العائلة الفاسية ومنها نرحوا إلى مالقة ثم إلى أشبيلية ، ثم إلى فاس ، وكانوا يحملون بالأندلس اسم بني الجند (البينة/ ٢٩ — ٣٠) .
(٢) وفي نسخة أخرى : يابورة .

بمراكش تحت الجراية والعناية إلى أن هلك رحمه الله .

ثم سرح عبد المؤمن عساكر الموحّدين وعليهم ابنه عبدالله إلى القلعة ، وبها جوش بن عبد العزيز في جموع صنهاجة فاقترحها واستلجم من كان بها منهم ، وأضرّم النار في مساكنها وقتل جوش . ويقال إنّ القتلى بها كانوا ثمانية عشر ألفاً وامتلات أيدي الموحّدين من الغنائم والسبي ، وبلغ الخبر إلى العرب بأفريقية من الأثبج وزغبة ورياح وقسرة فمسكروا بظاهر باجة ، وتأمروا على الدفاع عن ملكهم يحيى بن العزيز ، وارتحلوا إلى سطيف وزحف إليه عبدالله بن عبد المؤمن في الموحّدين الذين معه وكان عبد المؤمن قد قفل إلى المغرب ونزل متيجة ، فلما بلغه الخبر بعث المدد لابنه عبدالله ، والتقى الفريقان بسطيف واقتتلوا ثلاثاً ، ثم انفضت جموع العرب واستلجموا وسييت نساؤهم واكتسحت أموالهم وأسروا أبناؤهم .

ورجع عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وأربعين وخمسمائة ووفد عليه كبراء العرب من أهل أفريقية طائعين فوصلهم ، ورجعوا إلى قومهم . وعقد على فاس لابنه السيد أبي الحسن ، واستوزر له يوسف بن سليمان ، وعقد على تلمسان لابنه السيد أبي حفص واستوزر له أبا محمد بن وانودين . وعلى سبتة لابنه السيد أبي سعيد واستوزر له محمد بن سليمان . وعلى بجاية للسيد أبي محمد عبدالله واستوزر له يخلف بن الحسين ، واختص ابنه أبا عبدالله بولاية عهده . وتغير بذلك كله ضمائر عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي فلحقا بمراكش مضمرين الغدر وأدخلوا بعض الأوغاد في شأنهم فوثبوا بعمر بن تافراكين وقتلوه بمكانه من القصبة . ووصل على أثرهما الوزير أبو حفص بن عطية وعبد المؤمن على أثره فأطفأ نار تلك الثورة وقتل أخو المهدي ومن داخلهم فيها والله أعلم .

* (فتح بقية الأندلس) *

وبلغه بمراكش سنة تسع وأربعين وخمسمائة أنّ يحيى بن يغمور صاحب أشبيلية قتل أهل لبلة بما كان من غدر الوهبي لها . وتقبّل معذرتهم في ذلك فسخط يحيى بن يغمور وعزله عن أشبيلية بأبي محمد عبدالله بن أبي حفص بن عليّ التينمللي ، وعن

قرطبة بأبي زيد بن بكيت ، وبعث عبدالله بن سليمان فجاءه بابن يغمور معتقلاً إلى الحضرة ، وألزمه منزله إلى أن بعثه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان واستقام أمر الأندلس . وخرج ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فلكوها ، وأجاز إليها السيد أبا سعيد صاحب سبتة بعهد أبيه عبد المؤمن إليه بذلك ، ولحق الملتشون بمراكش ، ونازل السيد أبو سعيد مدينة المرية^(١) حتى نزل من كان بها من النصارى على الأمان . وحضر لذلك الوزير أبو حفص بن عطية بعد أن أمدهم ابن مودهشي^(٢) الثائر بشرق الأندلس والطاغية معه ، وعجزوا جميعاً عن المدافعة . ثم وفد أشياخ أشبيلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ورغبوا من عبد المؤمن ولاية بعض أبنائه عليهم ، فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها ، وافتتح أمره بمنازلة عليّ الوسيني الثائر بطليبة^(٣) ومعه الوزير أبو حفص بن عطية حتى استقام على الطاعة . ثم استولى على عمل ابن وزير وابن قيسي ، واستنزل تاشفين اللمتوني من مرتلة سنة إثنين وخمسين وخمسمائة وكان الذي أمكن الملتشين منها ابن قيسي واستم الفتح . ورجع السيد إلى أشبيلية وانصرف أبو حفص بن عطية إلى مراكش فكانت فيها نكبته ومقتله . واستوزر عبد المؤمن من بعده عبد السلام الكومي ، كان يمت إليه بدمّة صهر فلم يزل على وزارته والله أعلم .

* (بقية فتح أفريقية) *

لما بلغ عبد المؤمن سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ما كان من إيقاع الطاغية بإبنة السيد أبي يعقوب بظاهر أشبيلية ، ومن استشهد من أشياخ الموحدين وحفاظهم ، ومن الثوار مثل ابن عزروز^(٤) وابن الحجّام ، نهض يريد الجهاد ، واحتل سلا ، فبلغه

(١) المرية : مدينة على البحر الأبيض المتوسط كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي . لكن العرب وسعوها وجعلوها مرسى تجارياً وسموها المرية بمعنى المرأة الصغيرة . كانت أيام ملوك الطوائف عاصمة بني تميم وقد ازدهرت في أيامهم وكانت مركزاً ثقافياً مهماً ، استرجعها الأسبان سنة ١٤٨٩ م وهي في شرقي مالقة تبعد عنها ٢٢٢ كلم ، وكانت تعتبر أيام العرب من أعمال كورة بخانة (البينة/٣٢) .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن مردنيش وهو الأصح .

(٣) هكذا في النسخة الباريّة وفي نسخة أخرى : بمنازلة عليّ الوهبي الثائر بطليبة .

وفي نسخة أخرى : ابن عزون .

انتفاض أفريقية ، وأهمه شأن النصارى بالمهدية ، فلما توافقت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب ، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس ، ونهض بغد السير حتى نزل المهدية وبها من نصارى أهل صقلية ^(١) ، فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين وخمسمائة واستنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدي العدو .

وبعث ابنه عبدالله من مكان حصاره للمهدية إلى قابس فاستخلصها من يد بني كامل المتغلبين عليها من دهمان ، بعض بطون رياح . واستخلص قفصة من يد بني الورد ، وورغة من يد بني بروكسن وطبرقة من يد ابن علال وجبل زغوان من يد بني حماد بن خليفة ^(٢) وشقبنارية من يد بني عباد ^(٣) ، بن نصر الله ، ومدينة الأربص من يد من ملكها من العرب حسبما ذلك مذكور في أخبار هؤلاء الثوار في دولة صنهاجة . ولما استكمل الفتح وثنى عنانه إلى المغرب سنة ست وخمسين وخمسمائة بلغه أن الأعراب بأفريقية انتقضوا عليه ، فرجع إليهم عسكرياً من الموحدين ، فنهضوا إلى القيروان وأوقعوا بالعرب ، وقتل كبيرهم محرز بن زياد الفارغي من بني عليّ إحدى بطون رياح والله تعالى أعلم .

* (أخبار ابن مردنيش الثائر بشرق الأندلس) *

كان بلغ عبد المؤمن وهو بأفريقية أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الأندلس خرج من مرسية ونازل جيان . وأطاعه واليها محمد بن عليّ الكومي ، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها وغدر بقرمونة وملكها ، ثم رجع إلى قرطبة وخرج ابن بكيث لحربه فهزمه وقتله ، فكتب إلى عماله بالأندلس بفتح أفريقية ، وأنه واصل إليهم . وعبر إلى جبل الفتح ، واجتمع إليه أهل الأندلس ومن بها من الموحدين ، ثم رجع إلى مراکش وبعث عساكره إلى الجهاد ، ولقيهم الطاغية فهزموه . وتغلب السيد أبو يعقوب على

(١) كان يحتل المهدية النورمانديون وقد استخلصها منهم عبد المؤمن سنة ١١٦٠ م — ٥٥٥ هـ (قبائل المغرب ص ١٢٧) .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بن خليفة .

(٣) وفي نسخة أخرى بني عباد .

قرمونة من يد ابن هُمُشْك صهر ابن مردنیش . وكان السيدان أبو يعقوب صاحب أشبيلية وأبو سعيد صاحب غرناطة ارتحلا لزيارة الخليفة بمراكش ، فخالف ابن هُمُشْك إلى مدينة غرناطة وعلا ليلاً بمداخلة من بعض أهلها . واستولى عليها وانحصر الموحدون بقصبتها ، وخرج عبد المؤمن من مراكش لاستنقاذها فوصل إلى سلا .

وقدّم السيد أبا سعيد فأجاز البحر ولقيه عامل أشبيلية عبدالله بن أبي حفص بن علي ، ونهضوا جميعاً إلى غرناطة ، فنهض إليهم ابن هُمُشْك وهزمهم . ورجع السيد أبو سعيد إلى مالقة ، وردفه عبد المؤمن بأخيه السيد أبي يعقوب في عساكر الموحدين ، ونهضوا إلى غرناطة وكان قد وصلها ابن مردنیش في جموع من النصارى مدداً لابن هُمُشْك ، فلقيهم الموحدون بفحص غرناطة وهزموهم . وفرّ ابن مردنیش إلى مكان في المشرق ، ولحق ابن هُمُشْك بجيان فنازله الموحدون . وأقبل السيدان إلى قرطبة فأقاما بها إلى أن استدعي السيد أبو يعقوب بمراكش سنة ثمان وخمسين وخمسمائة لولاية العهد والادالة به من أخيه محمد ، فلحق بمراكش وخرج في ركاب أخيه الخليفة عبد المؤمن لما نهض للجهاد . وأدركته المنية بسلا في جمادى الأخيرة من هذه السنة ودفن بتينملل إلى جانب المهدي والله أعلم .

* (دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن) *

لما هلك عبد المؤمن أخذ البيعة على الناس السيد أبو حفص لأخيه أبي يعقوب باتفاق من الموحدين كافة ، ورضا من الشيخ أبي حفص خاصة . واستقل في رتبة وزارته ورجعوا إلى مراكش وكان السيد أبو حفص هذا وزيراً لأخيه عبد المؤمن ، واستوزره عند نكبة عبد السلام الكومي ، فرجّعه من أفريقية سنة خمس وخمسين وخمسمائة . وكان أبو عليّ بن جامع متصرفاً بين يديه في رسم الوزارة إلى أن هلك عبد المؤمن فأخذ أبو حفص البيعة لأخيه أبي يعقوب . ثم هلك إثر وفاة عبد المؤمن ابنه السيد أبو الحسن صاحب فاس والسيد أبو محمد صاحب بجاية في طريقه إلى الحضرة . ثم استقدم أبو يعقوب السيد أبا سعيد من غرناطة سنة ستين وخمسمائة فقدم ولقيه السيد

أبو حفص بسبته .

ثم صرح الخليفة أبو يعقوب معه أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس في عسكر الموحدين لما بلغه ان إلحاح ابن مردنيش على قرطبة ، بعد أن احتشد معه قبائل العرب ، زغبة ورياح والأثبج ، فأجاز البحر وقصد ابن مردنيش ، وقد جمع جموعه وأولياؤه من النصارى ، ولقيتهم عساكر الموحدين بفحص مرسية ، فانهزم ابن مردنيش وأصحابه وفرّ إلى مرسية من سبته ، ونازله الموحدون بها ودّخوا نواحيه . وانصرف السيد أبو حفص وأخوه أبو سعيد سنة إحدى وستين وخمسمائة إلى مراکش ، وخمدت نار الفتنة من ابن مردنيش . وعقد الخليفة على بجاية لأخيه السيد أبي زكريا ، وعلى أشبيلية للشيخ أبي عبدالله بن ابراهيم . ثم أدال عنه بأخيه السيد أبي ابراهيم ، وأقر الشيخ أبا عبدالله على وزارته ، وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحق ، وأثر السيد أبا سعيد على غرناطة . ثم نظر الموحدون في وضع العلامة في الكتوبات بخط الخليفة ، فاخثاروا الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته ، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم والله تعالى أعلم .

* (فتنة غمارة) *

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة تحرّك الأمير أبو يعقوب إلى جبال غمارة ، لما كان ظهر بها من الفتنة التي تولّى كبرها سبع بن منغفاد ونازعهم في الفتنة صنهاجة جيرانهم فبعث الأمير أبو يعقوب عساكر الموحدين لنظر الشيخ أبي حفص ، ثم تعاظمت فتنة غمارة وصنهاجة فخرج إليهم بنفسه وأوقع بهم ، واستأصلهم . وقتل سبع بن منغفاد وانحسم داؤهم ، وعقد لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبته وسائر بلادهم . وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة اجتمع الموحدون على تجديد البيعة واللقب بأمر المؤمنين ، وخاطب العرب بأفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرّضهم . وكتب إليهم في ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس ، وكان من إجابتهم ووفودهم عليه ما هو معروف .

* (أخبار الأندلس) *

لما استوسق الأمر للخليفة أبي يعقوب بالعدوة وصرف نظره إلى الأندلس والجهاد ، واتصل به ما كان من غدر العدو ، دمره الله بمدينة ترجالة^(١) . ثم مدينة يابرة^(٢) ثم حصن شبرمة ثم حصن جلمانية ازاء بطليوس ، ثم مدينة بطليوس ، فسرح الشيخ أبا حفص في عساكر من الموحدين احتفل في انتقائهم ، وخرج سنة أربع وستين وخمسمائة لاستنقاذ بطليوس من هوة الحصار ، فلما وصل إلى أشبيلية بلغه أن الموحدين وبطليوس هزموا ابن الرنك^(٣) الذي كان يحاصرهم بإعانة ابن ادفونش ، وأن ابن الرنك تحصل في قبضتهم أسيراً وفرجوا ندة^(٤) الجليقي إلى حصنه ، فقصده الشيخ أبو حفص مدينة قرطبة ، وبعث إليهم ابراهيم بن هُمَشْك من جيان بطاعته وتوحيده ومفارقتة صاحبه ابن مردنيش لما حدث بينهما من الشحناء والفتنة ، فآلح عليه ابن مردنيش بالحرب ، وردّد إليه الغزو ، فبعث إلى الشيخ أبي حفص بطاعته .

وكان الشيخ أبو حفص في عساكر الموحدين ، فنهض من مراکش سنة خمس وستين وخمسمائة وفي جملة السيد أبو سعيد أخوه ، فوصل إلى أشبيلية وبعث أخاه أبا سعيد إلى بطليوس ، فعقد الصلح مع الطاغية وانصرف ، ونهضوا جميعاً إلى مرسية ومعهم ابن هُمَشْك فحاصروا ابن مردنيش . وثار أهل لورقة^(٥) بدعوة الموحدين ، فلكها السيد أبو حفص . ثم افتتح مدينة بسطة^(٦) وأطاع ابن عمه محمد بن مردنيش

(١) ترجالة : تقع في ناحية ماردة تبعد عنها حوالي ٩٠ كلم شمالاً (البنية/ ٢٥) .

(٢) يابرة : اسمها القديم : ايبورا ، فتحها العرب سنة ٧١٥ م وصارت في أيامهم إحدى المدن المهمة في ناحية الاشبونة ، استرجعها النصاري سنة ١١٦٦ وهي على بعد ١١٧ كلم من شرق الاشبونة (البنية/ ٣٥) .

(٣) وفي النسخة الباريسية الزيك وفي نسخة أخرى الرنك .

(٤) وفي نسخة أخرى : جراندة .

(٥) لورقة : مدينة ابيرية قديمة كانت تدعى عند الرومان Ilucro ، فتحها العرب سنة ٧٨٠ هـ وكانت عاصمة ناحية زراعية خصبة ، استرجعها الأسبان سنة ١٢٦٦ م وهي بين مرسية والمرية تبعد عن الأولى ٦٢ كلم وعن الثانية ٧٧ كلم وكانت أيام العرب من أعمال كورة تدمير (البنية/ ٣٠) .

(٦) بسطة : اسمها أيام الرومان بسطي Basti وكانت من اخريات المدن التي استرجعها الاسبان في ناحية وادي آش سنة ١٤٨٩ . ولا تزال بها الى الآن اثار عربية . تبعد عن وادي آش ٤٨ كلم شرقاً (البنية/ ٢٤) .

صاحب المريّة فحصى^(١) بذلك جناحه .

واتصل الحبر بالخليفة بمراكش ، وقد توافت عنده جموع العرب من أفريقية صحبة أبي زكريا صاحب بجاية والسيد أبي عمران صاحب تلمسان ، وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً ، فاعترضهم وسائر عساكره ، ونهض إلى الأندلس . واستخلف على مراكش السيد أبا عمران أخاه فاحتلّ بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها إلى أشبيلية ، ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفاً من غزاته . وكان ابن مردنیش لما طال عليه الحصار ارتاب ففتك بهم ، وباد أخوه أبو الحجاج وهلك هو في رجب من هذه السنة . ودخل ابنه هلال في الطاعة ، وبادر السيد أبو حفص إلى مرسية فدخلها وخرج هلال في جملته ، وبعثه إلى الخليفة بأشبيلية . ثم ارتحل الخليفة غازياً إلى بلاد العدو فنزل رندة أياماً وارتحل عنها إلى مرسية . ثم رجع إلى أشبيلية سنان ثمان وستين وخمسمائة واستصحب هلال بن مردنیش واصهر له في ابنته ، وولّى عمّه يوسف على بلنسية وعقد لأخيه السيد أبي سعيد على غرناطة .

ثم بلغه خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الأحذب ، فخرج للقائهم وأوقع بهم بناحية قلعة رياح ، وأثنى فيهم ورجع إلى أشبيلية وأمر ببناء حصن القلعة ليحصن جهاتها ، وقد كان خراباً منذ فتنة أبي حجاج فيه مع كريب بن خلدون بمدة^(٢) ازمان المنذر بن محمد وأخيه عبدالله من أمراء بني أمية .

ثم انتفض ابن أذفونیش وأغار على بلاد المسلمين ، فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره ، وافتتح قنطرة بالسيف ، وهزم جموعه في كل جهة . ثم ارتحل الخليفة من أشبيلية راجعاً إلى مراكش سنة إحدى وسبعين وخمسمائة لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس ، وعقد على قرطبة لأخيه الحسن ، وعلى أشبيلية لأخيه عليّ ، وأصاب مراكش الطاعون فهلك من السادات أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا ، وقدم الشيخ أبو حفص من قرطبة فهلك في طريقه ، ودفن بسلاً . واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن ، فعقد لأبي علي على سجلماسة ورجع أبو الحسن إلى قرطبة ، وعقد لابني أخيه السيد أبي حفص :

(١) بمعنى نقص قدره .

(٢) وفي نسخة أخرى : بمؤرة ،

لأبي زيد منها على غرناطة ، ولأبي محمد عبدالله على مالقة . وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة سطا بذرية^(١) بني جامع وغرّ بهم إلى ماردة^(٢) . وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لقائم بن محمد بن مردنيش على أسطوله وأغزاه مدينة الأشبونة ، فغنم ورجع . وفيه كانت وفاة أخيه السيد الوزير أبي حفص بعدما أبلى في الجهاد وبالغ في نكاية العدو . وقدم إبنه من الأندلس وأخبر الخليفة بانتقاض الطاغية ، واعتزم على الجهاد وأخذ في استدعاء العرب من أفريقية والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن انتقاض قفوصة واسترجاعها) *

كان عليّ بن المعز يعرف بالطويل ، من أعقاب بني الرّند ملوك قفصّة قد ثار سنة خمس وسبعين^(٣) وخمسمائة كما ذكرناه في أخبارهم . وبلغ الخليفة خبره فنهض إليها من مراکش ، وسار إلى بجاية وبقي عنده يعلى بن المتصر الذي كان عبد المؤمن استتره من قفصّة أنه يواصل قريبه الثائر بها ويخاطب العرب ، فتقبّض عليه ، ووجدت المخاطبات عنده شاهدة بتلك السعاية واستصفى ما كان بيده ، وارتحل إلى قفصّة ونزلها . ووفدت عليه مشيخة العرب من رياح بالطاعة فقتلهم^(٤) ولم يزل محاصراً لقفصّة إلى أن نزل على ابن المعز ، وانكفأ راجعاً إلى تونس . وأنفذ عساكر العرب إلى المغرب ، وعقد على أفريقية والزاب للسيد أبي عليّ أخيه ، وعلى بجاية للسيد أبي موسى وقفل إلى الحضرة والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : بوزرائه .

(٢) اسمها الروماني Emerita Augusta وهي من تأسيسهم سنة ٢٥ بعد المسيح وكانت من أعظم مدنها وأجملها حتى أطلق عليها اسم رومة اسبانيا . فتحها العرب في زحفهم العظيم على الأندلس سنة ٧١٣ م واسترجعها الأسبان سنة ١٢٢٨ ، يخترقها نهر وادي يانة ، تبعد عن بطليوس ٦١ كلم . وكانت تعتبر أيام العرب من كورة مصر بن أبي دانس (البيّة/٣٠) .

(٣) وفي النسخة الباريسية : سنة سبع وخمسين .

(٤) كذا في النسخة البازيسية وفي نسخة أخرى فتقبلهم .

* (معاودة الجهاد) *

لما قفل من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفد عليه أخوه السيد أبو اسحق من أشبيلية ، والسيد أبو عبد الرحمن يعقوب من مرسية ، وكافة الموحدين ورؤساء الأندلس يهنّونه بالإياب فأكرم موصلهم وانصرفوا إلى بلادهم . واتصل به أن محمد ابن يوسف بن وانودين غزا بالموحدين من أشبيلية إلى أرض العدو فنازل مدينة يابرة وغنم ما حولها ، وافتتح بعض حصونها ورجع إلى أشبيلية ، وأن عبدالله بن اسحق بن جامع قائد الاسطول بأشبيلية التقى بأسطول أهل أشبونة في البحر فهزموهم وأخذوا عشرين من قطائعهم مع السبي والغنائم .

ثم بلغ الخبر بأن أذفونش بن شانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهات مالقة ورندة وغرناطة . ثم نزل أستجة^(١) وتغلب على حصن شغيلة . وأسكن بها النصاري وانصرف ، فاستنفر السيد أبو إسحق سائر الناس للغزو ونازل الحصن نحواً من أربعين يوماً . ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعاً . وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من أشبيلية في جموع الموحدين ونازل طلبيرة^(٢) وبرز إليه أهلها ، فأوقع بهم وانصرف بالغنائم ، فاعترم الخليفة أبو يعقوب على معاودة الجهاد ، وولّى على الأندلس أبناءه وقدمهم للاختشاد ، فعقد لابنه أبي اسحق على أشبيلية كما كان ، ولابنه السيد أبي يحيى على قرطبة ، ولابنه السيد أبي زيد الحضرصاني^(٣) على غرناطة . ولابنه السيد أبي عبدالله على مرسية .

ونفض سنة تسع وسبعين وخمسمائة إلى سلا ، ووافاه بها أبو محمد بن أبي اسحق بن جامع من أفريقية بجشود العرب . وسار إلى فاس وبعث في مقدمته هتاتة وتينملل

(١) أستجة : اسمها اللاتيني Astigi وهي في جنوبي قرطبة بينها ٥٦ كلم ولا تزال بها آثار عربية قيمة وهي على وادي شنيل ، كانت تعتبر أيام العرب من كورة قنباية (البينة/٢٠) .

(٢) طلبيرة : كانت تسمى عند القدماء Talabriga وهي على نهر تاجه في جنوبي غرب بحريط . كانت أيام العرب محصنة تحيط بها قلاع لا تزال آثارها قائمة الى الآن وهي عبارة عن ثمانية عشر برجاً مربعاً في غاية الجمال تسمى Torres Albarranas وهي مشهورة بالفسيفساء الازرق والأصفر . تبعد ٨٥ كلم عن طليطلة وكانت تعتبر من كورة البشارت . (البينة/٢٨) .

(٣) وفي نسخة أخرى : الحرضاني .

وحشود العرب . وأجاز البحر من سبته في صفر من سنة ثمانين وخمسمائة فاحتلّ جبل
الفتح ، وسار إلى أشيلية فوافته بها حشود الأندلس . وسخط محمد بن وانودين
وغربه إلى حصن غافق ، ورحل غازياً إلى شنترين فحاصرها أياماً . ثم ألقع عنها
واستمرّ الناس يوم إقلاعه ، وخرج النصارى من الحصن فوجدوا الخليفة في غير أهبة
ولا استعداد ، فأبلى في الجهاد هو ومن حضره ، وانصرفوا بعد جولة شديدة . وهلك
في ذلك اليوم الخليفة ، يقال من منهم أصابه في حومة القتال ، وقيل من مرض
طرقه عفا الله عنه .

* (دولة ابنه يعقوب المنصور) *

ولما هلك الخليفة أبو يعقوب على حصن شنترين سنة ثمانين وخمسمائة ببيع ابنه
يعقوب ، ورجع بالناس إلى أشيلية فاستكمل البيعة . واستوزر الشيخ أبا محمد عبد
الواحد بن أبي حفص ، واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد أبي يحيى فأخذ بعض
الحصون وأثنى في بلاد الكفار . ثم أجاز البحر إلى الحضرة ولقيه بقصر مصمودة السيد
أبو زكريا ابن السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع مشيخة زغبة ، ومضى إلى
مراكش فغير المناكير^(١) وبسط العدل ونشر الأحكام ، وكان من أوّل الأحداث في
دولة شأن ابن غانية^(٢) .

* (الخبر عن شأن ابن غانية) *

كان علي بن يوسف بن تاشفين لما تغلب الغدوّ على جزيرة ميورقة وهلك واليا من
موالي مجاهد ، وهو مبشّر ، وبقي أهلها فوضى ، وكان مُبشّر بعث إليه بالصرىخ ،
والعدوّ محاصر له ، فلما أخذها العدوّ وغنم وأحرق وألقع ، وبعث علي بن يوسف والياً
عليها وانور بن أبي بكر من رجالات لتونة ، وبعث معه خمسمائة فارس من

(١) المناكير بمعنى المنكرات وفي نسخة أخرى : فقطع المناكير .

(٢) كذا وفي نسخة أخرى : وباشر الأحكام ، وكان أول الأحداث في دولته شأن ابن غانية .

معسكره ، فأرهب لهم حدة ، وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فامتنعوا ، وقتل مقدمهم فثاروا به وحبسوه . ومضوا إلى علي بن يوسف فأعفاهم منه ، وولّى عليهم محمد بن علي بن يحيى المسوقي المعروف بابن غانية . وكان أخوه يحيى على غرب الأندلس ، وكان نزله بأشبيلية . واستعمل أخاه على قرطبة فكتب إليه علي بن يوسف يأمره بصرف محمد أخيه إلى ولاية ميورقة فارتحل إليها من قرطبة ومعه أولاده عبدالله واسحق وعلي والزبير وإبراهيم وطلحة ، وكان عبدالله واسحق في تربية عمهما يحيى وكفالتهم فبنيناها . ولما وصل محمد بن علي بن غانية إلى ميورقة قبض على وانور وبعثه مصفداً إلى مراكش ، وأقام على ذلك عشرًا ، وهلك يحيى بن غانية وقد ولّى عبدالله ابن أخيه محمد على غرناطة ، وأخاه اسحق بن محمد على قرمونة . ثم هلك علي وضعف أمر لمتونة ، وظهر عليهم الموحدون فبعث محمد عن ابنه عبدالله واسحق فوصلوا إليه في الأسطول وانقضى ملك لمتونة .

ثم عهد محمد إلى ابنه عبدالله فنافسه أخوه إسحق ، وداخل جماعة من لمتونة في قتله فقتلوه ، وقتلوا أباه محمداً . ثم أجمعوا الفتك به فارتاب بهم وداخل لبّ بن ميمون قائد البحر في أمرهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم سنة ست وأربعين وخمسمائة . وبقي أميراً لميورقة . واشتغل أول أمره بالبناء والغراسة ، وضجر منه الناس لسوء ملكته . وقرّ عنه لبّ ميمون إلى الموحدين . ثم رجع أخيراً إلى الغزو ، وكان يبعث بالأسرى والعلوج للخليفة أبي يعقوب إلى أن هلك قبيل مهلكة سنة ثمانين وخمسمائة وخلف من الولد : محمداً وعليّاً ويحيى وعبدالله وسير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسن ، فولّى ابنه محمد وبعث إلى الخليفة أبي يعقوب بطاعته ، فبعث هو علي بن الزبرير لاختبار ذلك منه ، وأحسّ بذلك إخوته فنكروه وتقبضوا عليه . وقدّموا عليّاً منهم . وبلغهم مهلك الخليفة وولاية ابنه المنصور فاعتقلوا ابن الزبرير وركبوا البحر في أسطولهم إلى بجاية ، وولّى على ميورقة أخاه طلحة وطرق بجاية في أسطوله على حين غفلة ، وعليها السيد أبو الربيع بن عبدالله بن عبد المؤمن وكان خارجها في بعض مذاهبه ، فاستولوا عليه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وتقبضوا على السيد أبي الربيع والسيد أبي موسى عمّران بن عبد المؤمن صاحب أفريقية ، وكان بها مجتازاً واستعمل أخاه يحيى على بجاية ، ومضى إلى الجزائر فافتتحها ، وولّى عليها يحيى ابن أخيه طلحة ، ثم إلى مليانة فولّى عليها بدر بن عائشة . ونهض إلى القلعة ،

ثم إلى قَسَنْطِينَة فنازلها . واتصل الخبر بالمنصور وهو بسبته مرجعه من الغزو ، فسرح السيد أبا زيد ابن عمّه السيد أبي حفص ، وعقد له على حرب ابن غانية . وعقد لمحمد بن أبي إسحق بن جامع على الأساطيل ، وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي .

وانتهى السيد أبو زيد إلى تلمسان وأخوه يومئذ السيد أبو الحسن كان والياً وقد أمعن النظر في تحصينها ، ثم ارتحل بعساكره من تلمسان ونادى بالعفو في الرعيّة ، فثار أهل مليانة على ابن غانية فأخرجوه وسبقت الاساطيل إلى الجزائر فلكوها وقبضوا على يحيى بن طلحة وسبق بدر بن عائشة من أم العلوفقتلوا جميعاً بشلف . وتقدّم القائد أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية فلكها ولحق يحيى بن غانية بأخيه عليّ بمكانه من حصار قسنطينة فأقلع عنها . ونزل السيد أبو زيد الهكّلان^(١) وخرج السيد أبو موسى من اعتقاله فلقبه هنالك . ثم ارتحل في طلب العدو فأفرج عن قسنطينة ، وخرج إلى الصحراء واتبعه الموحدون إلى مقرّه بفاس . ثم قفلوا إلى بجاية واستقرّ السيد أبو زيد بها ، وقصد علي بن غانية قَفْصَة فلكها ، ونازل توزر فامتنعت عليه ، ولحق بطرابلس . وخرج غزي الصنهاجي من جموع ابن غانية في بعض أحياء العرب فتغلّب على أشير وسرح إليهم السيد أبو زيد إبنه أبا حفص عمر ، ومعه غانم بن مردنيش فأوقعوا بهم واستولى على حلّهم . وقتل غزي وسبق رأسه إلى بجاية ونصب بها ، وألحق به عبدالله أخوه . وغرّب بنو حمدون من بجاية إلى سلا لاتهمهم بالدخول في أمر ابن غانية . واستقدم الخليفة السيد أبا زيد من مكانه ببجاية ، وقدم مكانه أخاه السيد أبا عبدالله وانصرف إلى الحضرة . وبلغ الخبر أثناء ذلك باستيلاء علي بن الزبرتير على ميورقة . وكان من خبره أن الأمير يوسف بن عبد المؤمن بعثه إلى ميورقة لدعاء بني غانية إلى أمره . لما كان أخوهم محمد خاطبه بذلك ، فلما وصل ابن الزبرتير إليهم نكروا شأنه على أخيه محمد واجتمعوا دونه وتقبّضوا عليه وعلى ابن الزبرتير في أمره ، وداخل مواليم من العلوج في تخلية سبيله من معتقله على أن يخلي سبيلهم بأهلهم وولدهم إلى أرضهم ، فتمّ له مراده منهم وصار بالقصبة^(٢) واستنفذ

(١) وفي النسخة الباريسية : سكّلات وفي نسخة أخرى سلات وفي نسخة ثانية تكّلات .

(٢) وفي نسخة أخرى : وثار بقصبة .

محمد بن أبي إسحق من مكان اعتقاله ، ولحقوا جميعاً بالحضرة . وبلغ الخبر علي ابن غانية بمكانه من طرابلس فبعث أخاه عبدالله إلى صقلية ، وركب منها إلى ميورقة ونزل في بعض قراها . وأعمل الحيلة في تملك البلد فاستولى عليه وأضرم نار الفتنة بأفريقية .

ونازل علي بن غانية بلاد الجريد وتغلب على الكثير منها ، وبلغ الخبر باستيلائه على قفصة فخرج المنصور إليه من مراكش سنة إثنيتين وثمانين وخمسمائة ، ووصل فاس فأراح بها ، وسار إلى رباط تازي ، ثم سار على التعبية إلى تونس ، وجمع ابن غانية من إليه من المثلثين والأعراب ، وجاء معه قراقش الغزي صاحب طرابلس ، فسرح إليهم المنصور عساكره لنظر السيد أبي يوسف ابن السيد أبي حفص ، ولقيهم بغمرة فانقض جموع الموحدين وانجلت المعركة عن قتل علي بن الزبريتير وأبي علي بن يغمور ، وفقد الوزير عمر بن أبي زيد ، ولحق فلهم بقفصة فأتخنوا فيهم قتلاً ، ونجا الباقون إلى تونس . وخرج المنصور متلاًفياً خبر الواقع في هذا الحال ، ونزل القيروان ، وأغذ السير إلى الحامة فتشاور الفريقان وتراحفوا فكانت الدبرة على ابن غانية وأحزابه ، وأفلت من المعركة بدماء نفسه ومعه خلية قراقش ، وأتى القتل على كثيرهم فصبح المنصور قابس فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس . وثنى العنان إلى تونس فافتتحها وقتل من وجد بها ، ثم إلى قفصة فنازلها أياماً حتى نزلوا على حكمه . وأمن أهل البلد والأعراب أصحاب قراقش ، وقتل سائر المثلثين ومن كان معهم من الحشود ، وهدم أسوارها وانكفأ راجعاً إلى تونس ، فعقد على أفريقية للسيد أبي زيد ، وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين وخمسمائة ومراً بالمهدية ، واستجر^(١) على طريق تاهرت ، والعباس بن عطية أمير بني توجين دليله إلى تلمسان ، فنكب بها عمه السيد أبا إسحق لشيء بلغه عنه وأحفظه . ثم ارتحل إلى مراكش ، ورفع إليه أن أخاه السيد أبا حفص والي مرسية الملقب بالرشيد ، وعمه السيد أبا الربيع والي تادلا عندما بلغهم خبر الواقعة بغمرة ، حدثوا أنفسهم بالتوئب على الخلافة ، فلما قدموا عليه للتهنئة أمر باعتقالها برباط الفتح خلال ما استجلى أمرهما ، ثم قتلها وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص

(١) وفي نسخة أخرى : وأصرح .

على بجاية ، وقصد يحيى بن غانية قُسْنُطِينَةَ فزحف إليه السيد أبو الحسن من بجاية فهزمه ودخل قُسْنُطِينَةَ ودخل ابن غانية إلى بسكرة فقطع نخلها وافتتحها عنوة . ثم حاصر قُسْنُطِينَةَ فامتنعت عليه فارتحل إلى بجاية وحاصرها ، وكثر عيته بأفريقية إلى أن كان من خبره ما يذكر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (اخباره في الجهاد) *

لمّا بلغه تغلب العدو على قاعدة شَلْب ، وأنه أوقع بعسكر أشبيلية ، وتردّدت سراياهم على نواحيها ، واقتحم^(١) كثيراً من حصونها ، وخاطبه السيد أبو يوسف بن أبي حفص صاحب اشبيلية بذلك . استنفر الناس للجهاد وخرج سنة ست وثمانين وخمسمائة إلى قصر مصمودة فأراح به . ثم أجاز إلى طريف وأغذ السير منها إلى شَلْب ، ووافته بها حشود الأندلس فتركهم لحصارها . وزحف إلى حصن طَرْش فافتتحه ورجع إلى أشبيلية . ثم رجع إلى منازل شَلْب سنة سبع وثمانين فافتتحه . وقدم عليه ابن وزير بعد أن كان افتتح في طريقه إليه حصوناً أخرى . ثم قفل إلى حضرته بعد استكمال غزائه . وكتب بعهد له لابنه الناصر .

وقدم عليه سنة ثمان وثمانين وخمسمائة السيد أبو زيد صاحب أفريقية ، ومعه مشيخة العرب من هلال وسُلَيْم فتلّقاهم مبرة وتكريماً ، وانقلب وفدهم إلى بلادهم . ثم بلغه سنة تسعين وخمسمائة استفحال ابن غانية بأفريقية وكثرة العيث والفساد بها ، فاعترم على النهوض إليها ، ووصل إلى مكناسة فبلغه من أمر الأندلس ما أهمّه فصرف وجهه إليها ، ووصل قرطبة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فأراح بها ثلاثاً وإمداد الحشود تتلاحق به من كل ناحية . ثم ارتحل للقاء العدو ونزل بالأرك من نواحي بطليوس ، وزحف إليه العدو من النصارى وأمراؤهم يومئذ ثلاثة : ابن أذفونش وابن الرند والبيّوح^(٢) . وكان اللقاء يوم كذا سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وأبو محمد بن أبي حفص يومئذ على المطوعة ، وأخوه أبو يحيى على العساكر والموحدّين ، فكانت

(١) وفي نسخة أخرى : وافتتح .

(٢) وفي نسخة أخرى : الرنك والبيّوح .

الهمزية المشهورة على النصارى واستلحم منهم ثلاثون ألفاً بالسيف . واعتصم فلهم بحصن الأرك ، وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم ، فاستترهم المنصور على حكمه وفودي بهم عددهم من المسلمين . واستشهد في هذا اليوم أبو يحيى ابن الشيخ أبي حفص بعد أن أبلى بلاءً حسناً ، وعرف بنوه بعدها ببني الشهيد . وانكفا المنصور راجعاً إلى أشبيلية . ثم خرج منها سنة إثنتين وتسعين وخمسمائة غازياً إلى بلاد الجوف فافتتح حصوناً ومدناً وخرّبها . كان منها ترجالة وطليرة . وأطلّ على نواحي طُلَيْطَلَة ، فخرّب بسائطها واكتسح مسارحها ، وقفل إلى أشبيلية سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة فرفع إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه وعقله . وربما ألف بعضها بخطه فحبس . ثم أطلق وإشخص إلى الحضرة وبها كانت وفاته .

ثم خرج المنصور من أشبيلية غازياً إلى بلاد ابن أذفونش حتى احتل بساحة طليطلة ، وبلغه أن صاحب برشلونة أمدّ ابن أذفونش بعساكره ، وأنهم جميعاً يحصن مجريط ، فنهض إليهم . ولما أطلّ عليهم انفضّت جموع ابن أذفونش من قبل القتال ، ثم انكفا المنصور راجعاً إلى أشبيلية . ثم رغب إليه ملوك النصرانية في السلم فبذله لهم . وعقد على أشبيلية للسيد أبي زيد ابن الخليفة ، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع ابن السيد أبي حفص ، وعلى المغرب للسيد أبي عبدالله ابن السيد أبي حفص . وأجاز إلى حضرته سنة أربع وتسعين وخمسمائة فطرقة المرض الذي كان منه حتفه ، وأوصى وصيّته التي تناقلها الناس . وحضر لوصيته عيسى ابن الشيخ أبي حفص ، وهلك رحمه الله سنة خمس وتسعين وخمسمائة في آخر ربيعها ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية من قبل صاحب الديار

المصرية) *

كان الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العُبيديّة منذ تسعين سنة وملكوا بيت المقدس ، فلما استولى صلاح الدين بن أيوب على ديار مصر والشام اعترم على جهادهم ، وصار يفتح حصونها واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعها . وافتتح

بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهدم الكنيسة التي بنواحيها^(١) ، وانفضت أُمّ النصرانية من كل جهة واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر فبعث صريخه إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة يطلب إعانتَه بالأساطيل المنازلة عكاً وصور وطرابلس . ووفد عليه أبو الحرث عبد الرحمن بن مُنْقِذ بَقِيَّةِ أمراء شيزر من حصون الشام ، كانوا أشروا به عند اختلال الدولة العبيدية . فلما استقام الأمر على يد صلاح الدين ، وانتظم ملك مصر والشام واستتزل بني منقذ هؤلاء ورعى لهم سابقتهم ، وبعثه في هذه إلى المنصور بالمغرب بهديَّة تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلاً من العود ، وستائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوساً عربية بأوتارها ، وعشرين من النصول الهندية وسروج عدَّة ثقيلة . ووصل إلى المغرب ووجد المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى حين وصوله ، فلقبه وأدى الرسالة فاعتذرله عن الأسطول وانصرف . ويقال إنه جهَّز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً ، ومنع النصارى من سواحل الشام ، والله تعالى أعلم .

* (دولة الناصر بن المنصور) *

لما هلك المنصور وأمر ابنه محمد وليّ عهده ، وتلقب الناصر لدين الله ، واستوزر أبا زيد بن يوجان وهو ابن أخي الشيخ أبي حفص . ثم استوزر أبا محمد ابن الشيخ أبي حفص ، وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية ، وقوض إليه في شؤونها . وبلغه سنة ست وتسعين وخمسمائة إجحاف العدو بأفريقية ، وفساد الأعراب في نواحيها ، ورجوع السيد أبي الحسن من قسنطينة منهزماً أمام ابن غانية ، فأنفذ السيد أبا زيد بن أبي حفص إلى تونس في عسكر من الموحدين لسد ثغورها . وأنفذ أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فتغلب ابن غانية خلال ذلك على حصن المهديَّة . وثار بالسوس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ثائر من كزولة يعرف بأبي

(١) وفي نسخة أخرى : بنوها عليها .

قَفْصَة ، فسرّح الناصر إليه عساكر الموحّدين فقصّدوا جموعه وقتل . وفي أيامه كان فتح ميورقة على ما نقلوا من خبرها .

* (فتح افريقية) *

وكان من خبرها أن محمد بن إسحق لما فصل إخوته عليّ ويحيى إلى أفريقية ، وولّى على ميورقة أخاهم طلحة ، داخل محمد بعض الحاشية ، وخرج من الاعتقال هو وابن الزبريتير ، وقام بدعوة المنصور ، وبعث بها مع ابن الزبريتير ، فبعث المنصور أسطوله مع أبي العلا بن جامع لتملك ميورقة ، فأبى محمد عن ذلك ، راسل طاعية برشلونة في المدد يجند من النصارى يستخدمهم فأجابه ، وانتقض عليه أهل ميورقة لذلك ، وخشوا عادية المنصور فطردوا محمد بن إسحق وولّوا عليهم أخاه تاشفين . وبلغ ذلك علماً وهو على قسنطينة ، فبعث إخوته عبدالله الغازي فدخلوا بعض أهل البلد وعزلوا تاشفين وولّوا عبدالله ، وبعث المنصور أسطوله مراراً مع أبي العلا بن جامع . ثم مع يحيى ابن الشيخ ابراهيم الهزرجي فامتنعوا عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وقوي أمره وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ثم لما هلك المنصور بعث الناصر أسطوله مع عمّه السيد أبي العلا والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوه وانخذل عنه أخوه تاشفين بالناس ، ودخل البلد عنوة ، واستفتحت وقتل . وانصرف السيد إلى مراکش وولّى عليها عبدالله بن طاع الله الكومي ، ثم ولّى الناصر عليها عمّه السيد أبا زيد ، وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر . وبعد السيد أبي زيد ولها السيد أبو عبدالله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، ثم أبو يحيى علي بن أبي عمران التينمالي ، ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة ، والله تعالى أعلم .

* (خبر أفريقية وتغلب ابن غانية عليها ولاية أبي محمد بن أبي الشيخ أبي حفص) *

لما هلك المنصور قوي أمر ابن غانية بأفريقية ، وولّى الناصر السيد أبا زيد والشيخ أبا

سعيد بن أبي حفص ، ويقال إن المنصور ولأهما ، وكثر الهرج بأفريقية وثار بالمهدية محمد بن عبد الكريم الرَجْرَاجِي ، ودعا لنفسه ، ونازع ابن غانية الموحدین الأمر ، وتسمّى صاحب قبة الأديم محمد بن عبد الكريم الرکراکي . ونزل تونس وعاث في قراها سنة ست وتسعين وخمسمائة ونازل ابن غانية بفاس فامتنع عليه ، وكان محمد ابن مسعود البلطي شيخ رياح من أشياعه فانتقض عليه ، وراجع ابن غانية فأتى له الظهور على محمد بن عبد الكريم وقصده وهو على قفصة فهزمه . واتبعه إلى المهدية فنازله بها . وبعث إلى صاحب تونس في المدد بأسطوله فأمدّه ، فضاقت حال ابن عبد الكريم ، فسأل الأمان من ابن غانية فأمنه ، وخرج إليه فتقبض عليه واستولى على المهدية سنة تسع وتسعين وخمسمائة وقتله .

وبعث الناصر أسطوله في البحر مع عمه أبي العلأ وعساكر الموحدین مع السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن . ونازلوا ابن عبد الكريم قبل استيلاء ابن غانية عليها ، فادعى ابن عبد الكريم بأنه حافظ للحصن من العدو ، ولا يمكنه إلا لثقة الخليفة . وانصرف السيد أبو الحسن إلى بجاية موضع عمله ، وقسم العسكر بينه وبين أخيه السيد أبي زيد صاحب تونس وصلحت الأحوال . ثم أن ابن غانية لما تغلب على المهدية وعلى قراقش الغزيّ صاحب طرابلس ، وقد مرّت أخباره في أخبار ابن غانية . ثم تغلب على بلاد الجريد ، ثم نزل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة وافتتحها عنوة ، وتقبض على السيد أبي زيد ، وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق وبسط عليهم العذاب . وتولى ذلك فيهم كاتبه ابن عصفور حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم . ثم دخل في دعوته أهل بونه وبترت وشقبنارية والاريص والقيروان وسبته وصفاقس وقابس وطرابلس . وانتظمت له أعمال أفريقية وفرق العمال وخطب للعباسي كما ذكرناه في أخباره . ثم ولّى على تونس أخاه الغازي ونهض إلى جبال طرابلس فأغرمهم ألف ألف دينار مكررة مرتين ورجع إلى تونس . واتصل بالناصر كثرة الهرج بأفريقية واستيلاء ابن غانية عليها وحصول السيد أبي زيد في قبضته ، فشاور الموحدین في أمره ، فأشاروا بمسألة ابن غانية . وأشار أبو محمد بن الشيخ أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه ، ونهض من مراکش سنة إحدى وستائة ، وبعث الأسطول في البحر لنظر أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجي ، فبعث ابن غانية ذخيره وحرمه إلى المهدية مع عليّ بن الغازي بن محمد بن علي . وانتقض

أهل طرابلس على ابن غانية وأخرجوا عاملهم تاشفين بن الغازي بن محمد بن علي ابن غانية ، وقصدهم ابن غانية فافتتحها وخرّبها .

ووصل أسطول الناصر إلى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من أتباع ابن غانية ، ونهض الناصر في أتباع ابن غانية فأعجزه ونازل المهديّة ، وبعث أبا محمد بن الشيخ أبي حفص للقاء ابن غانية فلقيه بتاجرا فأوقع به وقتل أخاه جبارة . وكاتبه ابن اللمطي وعامله الفتح بن محمد . قال ابن نخيل : وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ثمانية عشر ألفاً من أحوال المال والمتاع والخزنى والآلة . ونجا بأهله وولده فأطلق السيد أبا زيد من الاعتقال بعد أن همّ حرسه بقتله عند الهزيمة . ثم تسلّم الناصر المهديّة من يد علي بن الغازي المعروف بالحاج الكافي على أن يلحق بابن عمّه فقبل شرطه ومضى لوجهه . ثم رجع من طريقه واختار التوحيد فناله من الكرامة والتقريب ما لا فوقه . وهلك في يوم العقاب الآتي ذكره . ثم فرض الناصر على المهديّة ، واستعمل عليها محمد بن يغمور الهرغي ، وعلى طرابلس عبدالله بن ابراهيم بن جامع ، ورجع إلى تونس فأقام إلى سنة ثلاث وستائة . وسرح أخاه السيد أبا إسحق في عسكر من المؤخّدين لاتباع العدو فدونخوا ما وراء طرابلس . واستأصلوا بني دمر ومطاطة وجبال نفوسة وتجاوزوها إلى سويقة بني مذكور . وقفل السيد أبو إسحق بهم إلى أخيه الناصر بتونس وقد كمل الفتح . ثم اعترم على الرحيل إلى المغرب وأجمع رأيّه على تولية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص ، وكان شيخ دولته وصاحب رأيّه فامتنع إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف ، فأكبر بحبيته وأتاب لذلك على أن يقيم بأفريقية ثلاث سنين خاصة خلاف ما يستحكم صلاحها ، وأن يحكم فيمن يقيم معه من العسكر فتقبل شرطه .

ورجع الناصر إلى مراکش فدخلها في ربيع سنة أربع وستائة ، وقدم عبد العزيز بن أبي زيد الهتاتي على الأشغال بالعدوتين وكان على الوزارة أبو سعيد بن جامع ، وكان صديقاً لابن عبد العزيز . وعند مرجعه من أفريقية توفي السيد أبو الربيع بن عبدالله ابن عبد المؤمن صاحب بجاية ، وقد كان أبو الربيع هذا وليّ بجاية من قبل ، وهو الذي جدّد للربيع (١) . وكان بنو حمّاد شيّدوها من قبل ، فأصابها الحريق وجدّدها

(١) وفي نسخة أخرى : جدّد الرفيع والبديع من رياضها .

السيد أبو الربيع . وفي سنة خمس وستائة بعدها عقد للسيد أبي عمران بن يوسف ابن عبد المؤمن على تلمسان ، أدال به من السيد أبي الحسن فوصل إلى تلمسان في عساكر الموحدين وتطوّف أقطارها ، وزحف إليه ابن غانية هنالك فانفضّ الموحّدون وقتل السيد أبو عمران . وارتاع أهل تلمسان وأسرع السيد أبو زكريا من فاس إليها فسكن نفوسهم خلال ما عقد الناصر لأبي زيد بن يوجان على تلمسان ، وسرّحه في العساكر فترّل بها . وقرّ ابن غانية إلى مكانه من قاصية أفريقية ومعه محمد بن مسعود البلط شيخ الزاودة^(١) من رياح وغيره من أعراب رياح وسُلم . واعترضهم أبو محمد بن أبي حفص فانكشفوا واستولى الموحّدون على محلاتهم وما بأيديهم ، ولحقوا بجهات طرابلس . ورجع عنهم سير بن اسحق آخذاً بدعوة الموحدين ، وفي هذه السنة عقد الناصر على جزيرة ميورقة لأبي يحيى بن أبي الحسين بن أبي عمران ، أدال به من السيد أبي عبد الله بن أبي حفص ، وعقد على بلنسية وعلى مرسية لأبي عمران بن ياسين الهنتاتي ، أدال به من أبي الحسن بن زاكاك^(٢) . وعقد للسيد أبي زيد على كورة جيان ، أدال به من أبي موسى بن أبي حفص ، وعقد للسيد أبي ابراهيم بن يوسف على أشيلية ولأبي عبد الله بن أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص على غرناطة إلى أن كان ما يذكر إن شاء الله تعالى .

* (أخباره في الجهاد) *

لما بلغ الناصر تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية أهمه ذلك وأقلقه ، وكتب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص يستشيريه في الغزو ، فأبى عليه فخالفه ، وخرج من مراکش سنة تسع وستائة ووصل أشيلية واستقرّ بها واستعدّ للغزو . ثم رجع من أشيلية وقصد بلاد ابن أذفونش فافتتح قلعة شلبطرة والبخ^(٣) في طريقه . ونازل الطاغية قلعة رياح وبها يوسف بن قادس وأخذ بمخنقه فصالحه على النزول ، ووصل إلى الناصر فقتله وصار على التعبية إلى الموضع المعروف بالعقاب . وقد استعدّ له

(١) وفي نسخة أخرى : الدواودة .

(٢) وفي نسخة أخرى : وراكك .

(٣) وفي نسخة أخرى : وائلج وفي النسخة الباريسية والحق وفي نسخة ثانية وائلج .

الطاغية ، وجاءه طاغية برشلونة مدداً بنفسه ، فكانت الدبرة على المسلمين . فانكشفوا في يوم بلاء وتمحيص أواخر صفر سنة تسع وستائة . وانكفأ راجعاً إلى مراکش فهلك في شعبان من السنة بعدها . وكان ابن أذفونش قد ناظر ابن عمه اليهودي^(١) صاحب ليون في أن يوالي الناصر ويحرّ الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك . ثم رجعوا إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين ، فلقىهم السيد أبو زكريا ابن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من أشبيلية فهزمهم ، وانتعش المسلمون بها ، واتصلت الحال على ذلك والله أعلم .

* (ثورة ابن الفرس) *

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالأندلس ويعرف بالمهر ، وحضر مجلس المنصور في بعض الأيام وتكلّم بما خشي عاقبته في عقده وخرج من المجلس فاختلفى مدّة ، ثم بعد مهلك المنصور ظهر في بلاد كزولة وانتحل الإمامة وادّعى أنه القحطاني المراد في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأها عدلاً كما ملئت جوراً » ، إلى آخر الحديث . وكان مما ينسب إليه من الشعر :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن علي	تأهبوا لوقوع الحادث الجَلَلِ
قد جاء سيّد قحطّان وعالمها ^(٢)	ومُنْتَهَى القول والغلاب للدولِ
والناس طوعاً وعصاه وهو سائِقُهُمْ	بالأمر والنهي بحرُ العِلْمِ والعَمَلِ
وبادروا ^(٣) أمره فالله ناصِرُهُ	والله خاذِلُ أهلِ الزَيْغِ والمَيْلِ

فبعث الناصر اليه الجيوش فهزموه وقتل وسيق رأسه الى مراکش فنصب بها والله أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : اليهودي .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : وعاملها .

(٣) وفي نسخة أخرى : تبادروا .

* (دولة المستنصر بن الناصر) *

لما هلك محمد الناصر بن المنصور ببيع ابنه يوسف سنة إحدى عشرة وستمائة وهو ابن ست عشرة سنة ولقب المستنصر بالله ، وغلب عليه ابن جامع ومشیخة الموحدين فقاموا بأمره . وتأخرت بيعة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص من أفريقية لصغر سن المستنصر . ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع صاحب الاشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته ، واشتغل المستنصر عن التدبير بما يقتضيه الشباب ، وعقد للسادة على عمالات ملكه ، فعقد للسيد أبي ابراهيم أخي المنصور ، وتلقب بالظاهر على فاس ، وهو أبو المرتضى . وعقد على أشبيلية لعمه السيد أبي إسحق الأحرل . واستولى ألفنش على المعقل التي أخذها الموحدون ، وهزم حامية الأندلس ، ووفد رسوله ابن الفخار فحاوله ابن جامع في السلم فعقده ثم صرف ابن جامع عن الوزارة بعد مهلك ابن أبي زيد بسعاية أبي زيد بن يوجان ، واستوزر أبا يحيى الهزرجي وولى على الأشغال أبا علي بن أشرفي ثم رضي عن ابن جامع وأعاده ، وعزل أبا زيد ابن يوجان من ولاية تلمسان بأبي سعيد بن المنصور ، وبعثه إلى مرسية فاعتقل بها . واستمرت أيام المنصور في هدنة وموادة إلى أن ظهر بنو مرين بجهات فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة ، فخرج إليهم واليها السيد أبو ابراهيم في جموع الموحدين فهزموه وأسروه . ثم عرفوه وأطلقوه ، ثم وصل الخبر بمهلك أبي محمد بن أبي حفص صاحب أفريقية فولّى عليها أبا العلي أخا المنصور ، وكان والياً بأشبيلية فعزل . وولى على أفريقية سعاية بن مثنى خاصة السلطان فتوجه إليها كما يذكر في أخبار بني أبي حفص . وخرج بناحية فاس رجل من العبّسيّين انتسب للعاضد ، وتسمّى بالمهدي ، فبعث السيد أبو ابراهيم أخو المنصور والي فاس إلى شيعته وبذل لهم المال فتقبضوا عليه ، وساقوه إليه فقتل . وفي سنة تسع عشرة وستمائة عقد المستنصر لعمه أبي محمد المعروف بالعاذل على مرسية ، وعزله عن غرناطة . وهلك سنة عشرين وستمائة وقد الثابت الأمور فكان ما نذكر ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن دولة المخلوع أخى المنصور) *

لما هلك المستنصر في الأضحى من سنة عشرين وستمائة اجتمع ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبى محمد عبد الواحد أخى المنصور ، فقام بالأمر وأمر بمطالبة ابن أشرفي بالمال . وكتب أخوه لأبى العلا بتجديد الولاية على أفريقية بعد أن كان المستنصر أو عز بعزله ، فأدركته الولاية ميتاً فاستبد بها ابنه أبو زيد المشرك كما نذكره في أخبار أفريقية . وأنفذ المخلوع أمره بإطلاق ابن يوجان فأطلق . ثم صدّه ابن جامع عن ذلك وأنفذ أخاه أبا إسحق في الأسطول ليغربه إلى ميورقة كما كان المستنصر أنفذه قبل وفاته . وكان الوالي بمرسية أبو محمد عبد الله بن المنصور وأغراه ابن يوجان بالتوثب على الأمر ، وشهد له أنه سمع من المنصور العهد له بالخلافة من بعد الناصر . وكان الناس على كره ابن جامع . وولاة الأندلس كلهم بنو منصور فأصغى إليه . وكان متردداً في بيعه عمّه ، فدعا لنفسه وتسمّى بالعدل . وكان إخوته أبو العلى صاحب قرطبة ، وأبو الحسن صاحب غرناطة ، وأبو موسى صاحب مالقة . فبايعوه سراً . وكان أبو محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وعزله المخلوع بعمّه أبى الربيع بن أبى حفص فانتقض وبايع للعدل وزحف مع أبى العلى صاحب قرطبة وهو أخو العدل إلى أشيلية ، وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم وامتنع السيد أبو زيد بن عبد الله أخى البياسي عن بيعه العدل ، وتمسك بطاعة المخلوع . وخرج العدل من مرسية إلى أشيلية فدخلها مع أبى زيد بن يوجان ، وبلغ الخبر إلى مراکش فاختلف الموحدون على المخلوع . وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه إلى هسكورة . وقام بأمر هتاتة أبو زكريا يحيى بن أبى يحيى السيد ابن أبى حفص ، وبأمر تينملل يوسف بن علي ، وبعث على اسطول البحر أبا إسحق بن جامع ، وأنفذه لمنع الجواز من الزقاق . وكان أسراً إلى ابن جامع حين خرج إلى هسكورة أن يحاول عليه من هنالك فلم يتم أمره ، وقتل بمكان خفي في ربيع سنة إحدى وعشرين وستمائة وبعث الموحدون ببيعتهم إلى العدل . والله أعلم .

* (الخبر عن دولة العادل بن المنصور) *

لما بلغت بيعة الموحدين للعادل وكتاب ابن زكريا بن الشهيد بقصة المخلوع ، قارن ذلك تغييره للبياسي فانتفض عليه ، ودعا لنفسه ببياسة ، وتلقب الظافر وشغل بشأنه ، وبعث أخاه أبا العلي لحصاره فامتنع عليه ، وبعث بعده ابنه أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فامتنع عليه أيضاً ، واختلت الأحوال بالأندلس على العادل وكثرت غارة النصارى على أشيلية ومرسية وهو مقيم بها . وانهرمت جيوش الموحدين على طليطلة وأغراه خاصته بابن يوجان فأخذ إلى سبتة . وعظم أمر البياسي بالأندلس وظاهر النصارى على شأنه ، فأجاز العادل إلى العدو وولى أخاه أبا العلي على الأندلس . ولما كان بقصر الحجاز دخل عليه عبّو بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص ، فقال له كيف حالك فأنشده :

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان اليه منها تائباً

فاستحسن ذلك وولاه أفريقية . وكتب للسيد أبي زيد ابن عمه بالقدوم ، ووصل إلى سلا فأقام بها . وبعث عن شيوخ جشم ، وكان لابن يوجان عناية واختصاص بهلال بن حمدان بن مقدم أمير الخلط ، فتثاقل ابن جرمون أمير سفيان عن الوصول ، وأقبل الخلط وسفیان ، وبادر العادل إلى مراکش فدخلها واستوزر أبا زيد بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص ، وتغير لابن يوجان ففسد باطنه . وتغلب على الدولة ابن الشهيد ويوسف بن علي شيخا هنتاة وتينملل . ثم خالفت هسكورة والخلط وعاثوا نواحي مراکش ، وخرج إليهم ابن يوجان فلم يغن شيئاً فخرّبوا بلاد دكالة فأنفذ إليهم العادل عسكرياً من الموحدين لنظر ابراهيم بن اسمعيل بن الشيخ أبي حفص وهو الذي كان نازع أولاد الشيخ أبي محمد بأفريقية كما نذكره فانهزم وقتل . وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلها للحشد ومدافة هسكورة ، فانفقوا على خلع العادل والبيعة ليحيى بن الناصر ، وقصدوا مراکش فاقتحموا عليه القصر ونهبوه ، وقتل العادل خنقاً أيام الفطر من سنة أربع وعشرين وستائة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له) *

كان المأمون لما بلغه انتفاض الموحدّين والعرب على أخيه ، وتلاشى أمره لنفسه بأشبيلية فبويج وأجابه أكثر الأندلس وباع السيد أبو زيد صاحب بَلَنْسِيَّة وشرق الأندلس :
ثم كان ما قدّمناه من انتفاض الموحدّين على العادل وقتله بالقصر وبيعهم ليحيى ابن أخيه الناصر ، فكاتب ابن يوجان سرّاً وعمل على إفساد الدولة ، فدخلهم هسكورة والعرب في الغارة على مراکش ، وهزم عساكر الموحدّين وفطن ابن الشهيد لتدبير ابن يوجان فقتله بداره . وخرج يحيى بن الناصر إلى معتصمه كما ذكرناه فخلع الموحدّون العادل^(١) وبعثوا بيعتهم إلى المأمون .

وتولّى كبير ذلك الحسن أبو عبدالله العريق^(٢) والسيد أبو حفص بن أبي حفص فبلغ خبرهم إلى يحيى بن الناصر وابن الشهيد ، فترلوا إلى مراکش سنة ست وعشرين وستائة وقتلوهم وباع للمأمون صاحب فاس وصاحب تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان ، وصاحب سبتة أبو موسى بن المنصور ، وصاحب بجاية ابن أخته ابن الأطامي^(٣) وامتنع صاحب أفريقية وكان ذلك سبباً لاستبداد الأمير أبي زكريا على ما يذكر . ولم يبق على دعوة يحيى بن الناصر إلا أفريقية وسجلماسة .

وزحف البياسي إلى قرطبة فملكها ، ثم زحف إلى أشبيلية فنازل بها المأمون والطاغية معه ، بعد أن نزل له عن مخاظة^(٤) وغيرها من حصون المسلمين فهزمهم المأمون بنواحي أشبيلية ولحق البياسي بقرطبة فثاروا به إلى حصن المدور ، فغدر به وزيره ميورك^(٥) ، وجاء برأسه إلى المأمون بأشبيلية . ثم ثار محمد بن يوسف بن هود وملك مرسية واستولى على الكثير من شرق الأندلس كما ذكرناه في أخباره . وزحف إليه المأمون وحاصره وامتنع عليه فرجع إلى أشبيلية ، ثم خرج سنة ست وعشرين وستائة

(١) حسب مقتضى السياق : يحيى بن الناصر وهكذا في النسخة الباريسية .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : الغريفر .

(٣) وفي نسخة أخرى : الاطاس .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : قجاطة .

(٥) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ميورك .

إلى مراکش لما استدعاه أهل المغرب ، وبعثوا إليه ببيعاتهم ، وبعث إليه هلال بن حميد ان أمير الخلط يستدعيه . واستمد الطاغية عسكرياً من النصارى وأمره على شروط تقبلها منه المأمون ، وأجاز إلى العدو . وبادر أهل أشبيلية بالبيعة لابن هود ، واعترضه يحيى بن الناصر فهزمه المأمون واستلحم من كان معه من الموحدين والعرب ، ولحق يحيى بجبل هنتاة . ثم دخل المأمون الحضرة وأحضر مشيخة الموحدين وعدد عليهم فعاليتهم وتقبض على مائة من أعيانهم فقتلهم ، وأصدر كتابه إلى البلدان بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة ، والنعي عليه في النداء للصلاة باللغة البربرية ، وزيادة النداء لطلوع الفجر وهو : « أصبح والله الحمد » وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي وعبد المؤمن ، وجرى على سننها أبنائه . فأوعز بالنهي عن ذلك كله . وشنع عليهم في وصفهم الامام المهدي بالمعصوم ، وأعاد في ذلك وأبدى .

وأذن للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة بمراكش على شرطهم ، فضربوا بها نواقيسهم . واستولى ابن هود بعده على الأندلس ، وأخرج منها سائر الموحدين ، وقتلهم العامة في كل محل ^(١) . وقتل السيد أبو الربيع ابن أخي المنصور وكان المأمون تركه والياً بقرطبة . واستبد الأمير أبو زكريا بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بأفريقية ، وخلع طاعته سنة سبع وعشرين وستائة للسيد أبي عمران ابن عمه محمد الخرصان ^(٢) على بجاية مع أبي عبد الله اللحياني أخي الأمير أبي زكريا . وزحف إليه يحيى بن الناصر فانهمز ، ثم ثانية كذلك ، واستلحم من كان معه ونصبت رؤسهم بأسوار الحضرة . ولحق يحيى بن الناصر ببلاد درعة وسجلماصة .

ثم انتفض على المأمون أخوه أبو موسى ودعا لنفسه بسبته وتسمى بالمؤيد ، فخرج المأمون من مراکش وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازان ومكلاثة حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها ، فسار إليها وحسم عاملها ^(٣) واستمر إلى سبته فحاصرها ثلاثة أشهر ، واستمد أخوه أبو موسى صاحب الأندلس لابن هود فأمدّه بأساطيله . وخالف يحيى بن الناصر المأمون إلى الحضرة فاقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم

(١) وفي نسخة ثانية : في كل مطر .

(٢) وفي نسخة ثانية : الخرصاني وفي النسخة الباريسية الخرصاني .

(٣) وفي النسخة الباريسية عليها وهي أصح حسب مقتضى السياق .

جرموند بن عيسى ، ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاة ، وعاثوا فيها ، فأقلع المأمون عن سبته يريد الحضرة وهلك في طريقه بوادي أم الربيع مفتتح سنة ثلاثين وستائة وحين إقلاعه دخل أخوه السيد أبو موسى في طاعة ابن هود ، وأمكنه من سبته فأداله منها ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون) *

لَمَّا هَلَكَ المَأْمُونُ بَوَيْعِ ابْنِهِ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَلُقِّبَ الرَّشِيدُ ، وَكُتِبَ مَوْتَ أَبِيهِ وَأُغْذُوا السَّيْرَ إِلَى مَرَاكُشَ ، وَلَقِيَهُمْ يَحْيَى بْنُ النَّاصِرِ فِي طَرِيقِهِمْ بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَفَ بِمَرَاكُشَ أَبَا سَعِيدَ بْنَ وَانُودِينَ فَهَزَمُوهُ ، وَقَتْلَ أَكْثَرٍ مِنْ مَعِهِ . وَصَبَّحَ الرَّشِيدُ مَرَاكُشَ فَامْتَنَعُوا عَلَيْهِ بِأَشْيَاعِهِمْ ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَيْهِ وَاسْتَقَامُوا عَلَى بَيْعَتِهِ . وَكَانَ وَصَلَ فِي صَحْبَتِهِ عَمَهُ السَّيِّدُ أَبُو مُحَمَّدٍ سَعْدٌ فَحَلَّ مِنَ الدَّوْلَةِ بِمَكَانٍ ، وَكَانَ إِلَيْهِ التَّدْيِيرُ وَالْحُلُّ وَالْعَقْدُ ، وَبَعْدَ اسْتِقْرَارِ الرَّشِيدِ بِالْحَضْرَةِ وَصَلَ إِلَيْهِ عَمْرُ بْنُ وَقَارِيطَ كَبِيرُ الْمَسَاكِرَةِ بِمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ أَوْلَادِ المَأْمُونِ السَّيِّدِ وَإِخْوَتِهِ ، جَاءُوا مِنْ أَشْبِيلِيَّةٍ عِنْدَ ثَوْرَةِ أَهْلِهَا بِهِمْ ، وَاسْتَقَرُّوا بِسَبْتَةِ عِنْدَ عَمِّهِمْ أَبِي مُوسَى ، وَمِنْهَا إِلَى الْحَضْرَةِ عِنْدَ اسْتِيلَاءِ ابْنِ هُودَ عَلَى سَبْتَةِ وَمَرُّوا بِهَسْكَورَةِ ، وَكَانَ ابْنُ وَقَارِيطَ حَذَرًا مِنَ المَأْمُونِ وَمَعْتَقَدًا أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ ، فَتَذَمَّنَ بِصَحْبَةِ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ ، وَقَدَّمَ عَلَى الرَّشِيدِ فَتَقَبَّلَهُ وَاعْتَلَقَ بِوَصْلِهِ مِنَ السَّيِّدِ أَبِي مُحَمَّدٍ سَعْدٍ وَصَحْبِهِ ^(١) لِمَسْعُودِ بْنِ حَمْدَانَ كَبِيرِ الْخُلَطَاءِ .

وَلَمَّا هَلَكَ السَّيِّدُ أَبُو مُحَمَّدٍ لَحِقَ ابْنُ وَقَارِيطَ بِقَوْمِهِ وَمَعْتَصَمِهِ ، وَكَشَفَ وَجْهَ الْخِلَافِ ، وَأَخَذَ بِدَعْوَةِ يَحْيَى بْنِ النَّاصِرِ ، وَاسْتَنْفَرَ لَهُ قِبَائِلَ الْمُوحِّدِينَ وَنَهَضَ إِلَيْهِمُ الرَّشِيدُ سَنَةً إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةً وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْحَضْرَةِ صَهْرَهُ أَبَا الْعَلِيِّ إِدْرِيسَ وَصَعَدَ إِلَيْهِمُ الْجَبَلَ ، فَأَوْقَعَ بِيَحْيَى وَجَمُوعِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ هَزْرَجَةِ وَاسْتَوْلَى عَلَى مَعْسِكَرِهِمْ . وَلَحِقَ يَحْيَى بِيَلَادِ سِجْلِمَاسَةَ وَانْكَفَأَ الرَّشِيدُ رَاجِعًا إِلَى حَضْرَتِهِ ، وَاسْتَأْمَنَ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُوحِّدِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَحْيَى بْنِ النَّاصِرِ فَآمَنَهُمْ وَلَحِقُوا بِحَضْرَتِهِ . وَكَانَ كَبِيرُهُمْ أَبُو عُمَانَ سَعِيدُ بْنُ زَكْرِيَا الْكَدْمِيَّيْ ، وَجَاءَ الْبَاقُونَ عَلَى أَثَرِهِ بِسَعْيِهِ بَعْدَ أَنْ شَرَطُوا عَلَيْهِ

(١) وفي نسخة أخرى : وصحابة .

إعادة ما كان أزال المأمون من رسوم المهدي فأعيدت . وقدم فيهم أبو بكر بن يعزى التينملي رسولاً عن يوسف بن علي بن يوسف شيخ تينمل ، ومحمد بن يوزيكن الهتاني رسولاً عن أبي علي بن عزوز ، ورجعا إلى مرسلهما بالقبول ، فقدا على الحضرة وقدم معهم موسى بن الناصر أخو يحيى وكبيره . وجاء على أثرهم أبو محمد ابن أبي زكريا وأنسوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية .

وكان مسعود بن حمدان الخلطي قد أغراه عمر بن وقاريط بالخلاف لصحبة بينهما ، وكان مدلاً ببأسه وكثرة جموعه . يقال : إنَّ الخلط كانوا يومئذ يناهزون إثني عشر ألفاً سوى الرجل والأتباع والحشود ، فرض في الطاعة وتناقل عن الوفاة ، ولما علم بمقام الموحدين أجمع اعتراضهم وقتلهم تمكيناً للفرقة والشتات في الدولة فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه ، وصرف عساكره إلى باجة^(١) لنظر وزيره السيد أبي محمد ، حتى خلا لابن حمدان الحوَّ وذهب عنه الريب ، واستقدمه فأسرع للحاق بالحضرة ، وقدم معه معاوية عم عمر بن وقاريط ، فتقبَّض عليه وقتل حينه . واستدعى مسعود بن حمدان إلى المجلس الخلافي للحديث فتقبَّض عليه وعلى أصحابه وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة ، وقضى الرشيد حاجة نفسه فيهم . واستقدم وزيره وعساكره من باجة فقدموا ، ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى ابن هلال بن حمدان^(٢) ، وأجلبوا على سائر النواحي ، وأخذوا بدعوة يحيى واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء .

وداخلهم في ذلك عمرو بن وقاريط ، وزحفوا لحصار الحضرة ، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلوان فدفع^(٣) ابن وقاريط في جموعه من العساكر فانهزموا ، وأحيط بجند النصارى فقتلوا وتفاقم الأمر بالحضرة ، وعدمت الأقوات . واعتزم الرشيد على الخروج إلى جبال الموحدين فخرج إليها . وسار منها إلى سجلماسة فملكها ، واشتدَّ الحصار على مراکش وافتتحها يحيى بن الناصر وقومه من هسكورة والخلط ، وسار أمرهم^(٤) فيها وتغيَّرت أحوال الخلافة . وتغلَّب على السلطان السيد

(١) وفي نسخة أخرى : حاجة .

(٢) وفي نسخة أخرى : جميدان .

(٣) وفي نسخة أخرى : فرجع .

(٤) وفي نسخة أخرى : أثرهم .

أبو ابراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حاقة ، وفي سنة ثلاث وثلاثين وستائة خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراکش ، وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان ، فأجازوا وادي أم الربيع وبرز إليه يحيى في جموعه ، والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحرّ القتل فيهم ، ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافراً .

وأشار يحيى بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الأندلس ، والأخذ بدعوته ، فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صئجة عمر بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ فاستقرّ هنالك . وخرج الرشيد من مراکش وفرّ الخلط أمامه ، وسار إلى فاس وسرّح وزيره السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالها ، وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب المعقل فأجاروه ووعدوه النصرة ، واشتطوا عليه في المطالب ، وأسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهة تازي ، وسبق رأسه إلى الرشيد بفاس فبعثه إلى مراکش ، وأوعز إلى نائبه بها أبي علي ابن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم : حسن بن زيد شيخ العاصم ، وقائد وفائد ابنا عامر شيخا بني جابر ، فقتلهم وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستائة وبلغه استيلاء صاحب درعة أبي محمد بن وانودين على سجلماسة ، وذلك أنّ الرشيد لما فصل من سجلماسة استخلف عليها يوسف بن علي التينملي ، فاستعمل ابن خالته من بني مردنيش ، وهو يحيى بن أرقم بن محمد بن مردنيش ، فثار عليه ثائر من صنهاجة وقتله في خبائه . قام ابنه أرقم يطلب الثأر ، وبلغ منه ما أراد . ثم حدثته نفسه بالانتقاض خوفاً من عزل الرشيد إياه فانتقض .

ونفض إليه الرشيد سنة إثنين وثلاثين وستائة فلم يزل أبو محمد بن وانودين يعمل الحيلة في استخلاصها حتى تمكّن منها وعفاً عن أرقم . وكان ابن وقاريط لما فصل إلى ابن هود سنة أربع وثلاثين وستائة ركب البحر في أسطول ابن هود ، وقصد لسلا وبها السيد أبو العلي صهر الرشيد ، فكاد ان يغلب عليها . وفي سنة خمس وثلاثين وستائة بايع أهل أشبيلية للرشيد ونقضوا طاعة ابن هود ، وتولّى كبير ذلك أبو عمر بن الحدّ ، واستخفّ^(١) بنو حجاج إلى سبتة ووصل وفدهم إلى الحضرة ومروا في طريقهم بسبتة ، فاقتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد ، وخلعوا أميرهم اليانسي^(٢) الثائر بها على

(١) وفي نسخة ثانية : أشخص .

(٢) وفي النسخة الباريية : الباشقي .

بن هود وقدموا على الحضرة ، وولّى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم . ولأيام من مقدمهم وصل عمر بن وقاريط معتقلاً من أشبيلية ، أغراههم بالقبض عليه القاضي أبو عبد الله المؤمناني ، كان توجه رسولاً إلى ابن هود عن الرشيد ، فأمكنهم من ابن وقاريط . وبعث إلى الرشيد في وفد من رسله فاعتقله بأزمور وقتل وصلب برباط هسكورة ، بعد أن طيف به على جمل . وانصرف وفد أشبيلية وسبته ، واستقدم الرشيد رؤساء الخلط فتقبّض عليهم ، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحياءهم . ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن وقاريط ، وقطع دابرهم . وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الناصر بالأندلس على ابن هود . وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة اشتدت الفتنة بالمغرب ، وانتشر بنو مَرين وقتلوهم قتلاً ذريعاً . وكان الرشيد استقدم أبا محمد بن وانودين من سجلماسة سنة خمس وثلاثين وستمائة وعقد له على فاس وسجلماسة وغمار ونواحيها من أرض المغرب ، فكان هنالك . ولما انتشر بنو مَرين بالمغرب زحف إليهم فهزموه ، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه ، وأقام في محاربتهم سنتين ورجع إلى الحضرة . واشتدّ عدوان بني مَرين بالمغرب ، وآلحوا على مكناسة حتى أعطوا الأتاوة لبني حمامة منهم ، فأسفوا بني عسكر بذلك ، واتصل عيشتهم في نواحيها . وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المؤمناني^(١) لمداخلة له مع بعض السادة ، وهو عمر بن عبد العزيز أخي المنصور ، وقف على كتابه إليه بخطه . وغلط الرسول بها فدفعها بدار الخليفة . وفي سنة أربعين وستمائة بعدها كانت وفاة الرشيد غريقاً ، زعموا في بعض حوائر^(٢) القصر . ويقال إنه أخرج من الماء وحمّ لوقته ، وكان فيها مهلكه ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن دولة السعيد بن المأمون) *

لَمَّا هَلَكَ الرَّشِيدُ بُويعَ أَخُوهُ أَبُو الْحَسَنِ السَّعِيدُ بِتَعْيِينِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ وَانُودِينَ ، وَتَلَقَّبَ الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ^(٣) وَاسْتَوَزَرَ السَّيِّدَ أَبَا إِسْحَقَ بْنَ السَّيِّدِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَيَحْيَى بْنَ عَطُوشَ .

(١) وفي النسخة الباريسية : ابن المأموني .

(٢) وفي النسخة الباريسية : جزاء وفي نسخة أخرى : حوائر ، ولعله يقصد أحواز جمع حوز ، وهي بركة الماء .

(٣) وفي نسخة أخرى : المعتضد بالله .

وتقبّض على جملة من مشيخة الموحدّين واستصفى أموالهم واستخلف لنفسه رؤساء العرب من جشم . واستظهر بجمعهم على أمره وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير بحكة^(١) ولأول بيعته انتقض عليه أبو علي بن الخلاص البلنسي صاحب سبتة ، وكذلك أهل أشبيلية وبايعوا جميعاً للأمير أبي زكريا صاحب أفريقية .

ثم انتقض عليه بسجلماسة عبدالله بن زكريا الهزرجي لمقالة كانت منه يوم بيعة الرشيد أسرها له فباع للأمير أبي زكريا . ثم وصلته في هذه السنة هدية يغمراسن بن زيّان صاحب تلمسان ، فنهض الأمير أبو زكريا صاحب أفريقية بسبب ذلك إلى تلمسان ، واستولى عليها . ثم عقد عليها ليغمراسن حسبما نذكر في أخباره . وخرج السعيد من مراكش لتمهيد بلاد المغرب سنة إثنتين وأربعين وتغيّر لسعيد بن زكريا الكدميوي فتقبّض عليه من معسكره بتا نسفت وفرّ أخوه أبو زيد ومعه أبو سعيد العود الرطب ، ولحقوا بسجلماسة فاستصفى أموالهم بمراكش ، وارتحل بقصد سجلماسة وأخذ إليها عبدالله الهزرجي في أسباب الامتناع ، فغدر به أبو زيد بن زكريا الكدميوي ، وداخل أهل سجلماسة في الثورة عليه وملك البلد . واستدعى السيد لها فوصل وقتل الهزرجي . وفرّ أبو سعيد العود الرطب إلى تونس . ثم رجع السعيد إلى المغرب وقتل سعيد بن زكريا ونزل المقرمة من أحواز فاس . وعقد المهادنة مع بني مَرين وقتل إلى مراكش فتقبّض على أبي محمد بن وانودين واعتقله بأزمور . واعتقل معه يحيى بن مزاحم ويحيى بن عطّوش لنظر ابن ماكسن ، فأعمل الحيلة في الفرار من معتقله . وخلص ليلاً إلى كانون بن جرمون فأركبه وبعث معه من عرب سفيان من أوصله إلى قومه هنتاة . وراسله السعيد على أثرها وسكنه واعتذر له ، وأسعفه بسكنى تافيت من حصون عمله^(٢) بأهله وولده .

ثم انتقض على السعيد كانون بن جرمون وسفيان ، وخالفهم إليه بنو جابر والخلط ، وخرج من مراكش واستوزر السيّد أبا اسحق ابن السيّد أبي ابراهيم إسحق أخي المنصور . واستخلف أخاه أبا زيد على مراكش ، وأخاهما أبا حفص عمر على سلا وفصل من مراكش سنة^(٣) وجمع له أبو يحيى بن عبد الحق جموع بني

(١) وفي نسخة أخرى : كبير بحله

(٢) وفي نسخة أخرى : جيله .

(٣) بياض بالاصل ولم نستطع تحديد السنة في المراجع التي بين أيدينا .

راشد وبني وراوسفيان ، حتى اذا تراءى الفريقان للقاء ، خالف كانون بن جرمون الموحدين إلى أزمور . واستولى عليها ورجع السعيد أدراجه في أتباعه ، ففرّ كانون واعترضه السعيد فأوقع به ، واستلحم كثيراً من سفيان قومه ، واستولى على ماله من مال وماشية ، ولحق كانون في فلّ بني مَرين ورجع السعيد إلى الحضرة . وفي ثلاث وأربعين وستائة ثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه . وحذر مشيختها من سطوته فحوّلوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حَفْص صاحب أفريقية ، وبعثوا إليه ببيعتهم ، وكانت من إنشاء أبي مطرف بن عميرة ، وذلك بمداخلة أبي يحيى بن عبد الحق أمير بني مَرين ووفاقه لهم على ذلك . وشارطوا أبا يحيى بن عبد الحق بمال دفعوه إليه على الحماية .

ثم راجعوا أمرهم^(١) وأوفدوا صلحاءهم ببيعتهم فرضي عنهم السعيد ورضوا عنه ، وفي هذه السنة بعث أهل أشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا صاحب أفريقية . وبعث ابن خلاص بهديته مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك ففرق عند إقلاعه من المرسى . وفي سنة ست وأربعين كان استيلاء الطاغية على أشبيلية لسبع وعشرين من رمضان ولما بلغ السيّد بيعة أهل أشبيلية وسبتة للأمير أبي زكريا إلى ما كان من تغلبه على تلمسان ، وأخذ يغمراسن بدعوته ، ثم ما كان من بيعة أهل مكناسة وأهل سجلماسة أعمل نظره في الحركة إلى تلمسان ثم إلى أفريقية . وخرج إلى مراکش في ذي الحجة من سنة خمس وأربعين وستائة ووافاه كانون بن جرمون فعاوده الطاعة واستحشد سفيان وجاء في جملة السعيد مع سائر القبائل من جشم . ولما احتلّ السعيد بتازي وافاه وفد بني مَرين عن أميرهم أبي يحيى بن عبد الحق ، فاعطوه الطاعة وبعثوا معه عسكرياً من قومهم مدداً له .

ثم ثار السعيد إلى تلمسان فكان مهلكه بتامزردكت على يد بني عبد الواد في صفر سنة ست وأربعين وستائة حسبما يشرح في أخبارهم . ويقال إن ذلك كان بمداخلة من الخلط فاستولوا على المحلة وقتلوا عدوهم كانون ، وانفضّ العسكر إلى المغرب وقد اجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد واعترضهم بنو مَرين بجهات تازي ، فقتلوا عبد الله بن السعيد ولحق الفلّ بمراكش فبايعوا المرتضى كما نذكر إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة أخرى : رأيهم .

* (الخبر عن دولة المرتضى ابن أخي المنصور) *

لما لحق فلّ العسكر بعد مهلك السعيد بمراكش ، اجتمع الموحدون على بيعه السيّد أبي حفص عمر بن السيد أبي ابراهيم اسحق أخي المنصور ، واستقدموه لها من سلا ، فلقبه وافدهم بتأمسنا من طريقه ومعه أشياخ العرب فبايعوه وتلقّب المرتضى ، وعقد لعقوب بن كانون على بني جابر ولعمّه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد أن كان قومه قدّموه عليهم ، ودخل الحضرة فاستوزر أبا محمد بن يونس وتقبّض على حاشية السعيد ، ثم وصل أخوه السيد أبو اسحق من الفلّ آخذاً على طريق سجلماسة فاستوزره واستبدّ عليه واستولى أبو يحيى بن عبد الحق وبنو مَرّين إثر مهلك السعيد على رباط تازي من يد السيد أبي علي أخي أبي دبّوس وأخرجوه فلحق بمراكش . ثم استولوا بعدها على مدينة فاس سنة سبع وأربعين وستمائة كما يذكر في أخبارهم بعد . وفي هذه السنة ثار بسبّة أبو القاسم العزفي وأخرج ابن الشهيد الوالي على سبته من قرابة الأمير أبي زكريّا صاحب أفريقية ، وحوّل الدعوة للمرتضى حسبما يذكر في أخبار الدولة الحفصية وأخبار بني العزفي ^(١) وفي سنة تسع وأربعين وستمائة وفد على المرتضى موسى بن زيّان الونكاسي وأخوه علي من قبائل بني مَرّين وأغروه بقتال بني عبد الحق فخرج إليهم ولما انتهى إلى أمان إيملولي ^(٢) أشاع يعقوب بن جرمون قضية الصلح بينهما فأصبحوا راحلين ، وقد استولى الجزع على قلوبهم فانفضّوا ووقعت الهزيمة من غير قتال . ووصل المرتضى إلى الحضرة فعزل أبا محمد بن يونس عن الوزارة لشيء بلغه عنه ، وأسكنه بحملته مع حاشيته ، وقرّ من حملته عليّ بن بدر إلى السوس سنة إحدى وخمسين وستمائة ، وجاهر بالعناد . وسرّح إليه السلطان عسكرياً من الجند فرجعوا عنه ولم يظفروا به ، وتفاقم أمره سنة اثنتين وخمسين وستمائة . وجمع أعراب الشبانات وبني حسان وحمل أموال ونازل تارودانت فحاصر من كان بها . وسرّح المرتضى إليه عسكرياً من الموحدين فأفرج عنها . ثم رجع بعد قفولهم إلى حاله ، وعثر المرتضى على خطابه لقريبة ابن يونس وكتاب ابن يونس إليه بخطه ، فاعتقل هو

(١) وفي نسخة أخرى : الغزى .

(٢) وفي نسخة أخرى : يملولن .

وأولاده ثم قتل .

وفي هذه السنة استدعى مشيخة الخلط إلى الحضرة وقتلوا لما كان منهم في مهلك السعيد . وفيها خرج أبو الحسن بن يغلو في عسكر من الموحدين إلى تامسنا ليكشف أحوال العرب ، ومعه يعقوب بن جرمون ، وعهد إليه المرتضى بالقبض على يعقوب ابن محمد بن قيطون شيخ بني جابر ، فتقبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين .

وفي سنة ثلاث وخمسين وستائة خرج المرتضى من مراکش لاسترجاع فاس ونواحيها من يد بني مرين المتغلبين عليها ، فوصل إلى بني بهلول ، وزحف إليه بنو مرين وأميرهم أبو يحيى فكانت الهزيمة على الموحدين بذلك الموضع . ورجع المرتضى مفلولاً إلى مراکش ، ورعى^(١) بني مرين من بعد ذلك سائر أيامه . واستبد العزفي بسبته ، وابن الأمير بطنجة كما نذكره في أخبارهم .

وفي سنة خمس وخمسين وستائة بعث المرتضى إلى السوس عسكراً من الموحدين لنظر أبي محمد بن أصناك فلقيم علي بن بدر وهزمهم واستبد بأمره في السوس . وفي هذه السنة استولى أبو يحيى بن عبد الحق على سجلماسة وتقبض على واليها عبد الحق بن أصكو بمداخلة من خديم له يعرف بمحمد القطراني بنواحي سلا ، فصرف عبد الحق ابنه محمداً هذا في مهمة وقربه من بين أهل خدمته ، وحدثه نفسه بالثورة فاستمال عرب المعقل أولاً بالمشاركة في حاجاتهم عند مخدومه ، والإحسان إليهم حتى اشمولوا عليه .

ثم داخل أبا يحيى بن عبد الحق في تمكينه من البلد فجاء بجملته ، وقدم وفده إلى البلد رسلاً في بعض الحديث فتقبض محمد القطراني على عبد الحق بن أصكو وأخرجه إلى أبي يحيى بن عبد الحق فقاده وسرّحه إلى مراکش . وكان القطراني شرط على أبي يحيى أن يكون والي سجلماسة فأمضى له شرطه ، وأنزل معه بها من رجالات بني مرين حتى إذا هلك أبو يحيى بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة ، وراجع دعوة المرتضى واعتذر إليه واشترط عليه الاستبداد فأمضى له شرطه إلا في أحكام الشريعة^(٢) .

(١) وفي نسخة أخرى : مروادع .

(٢) وفي نسخة أخرى : الاحكام الشرعية .

وبعث أبا عمر بن حجاج قاضياً من الحضرة ، وبعض السادات للنظر في القضية^(١) ، وقائد من النصارى بعسكر للحاية ، فأعمل ابن الحجاج الحيلة في قتل القطراني وتولاه قائد النصارى . واستبد السيد بأمر سجالمة بدعوة المرتضى ، واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك . ونزل يعقوب بن عبد الحق بسائط تامسنا . فسرح إليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن وانودين فأجفلوا إلى وادي أم ربيع ، فاتبعهم الموحدون فرجعوا إليهم ، وغدر بهم بنو جابر فانهمزم الموحدون بأمر الرجلين^(٢) . ولحق شيخ الخلط عيسى بن علي ببني مرين وارتحلوا إلى أوطانهم . وكان المرتضى قدّم يعقوب بن جرمون على قبائل سُفْيَان ، وكان محمد ابن أخيه كانون يناهضه في رياسة قومه ، وغصّ به فقتله ، وثأر به أخواه مسعود وعليّ بفد فد فقتلاه . وولّى المرتضى مكانه ابنه عبد الرحمن فاستوزر يوسف بن وازرك ويعقوب ابن علوان . وشغل بلداته وتصدّى لقطع السابلة ، ثم نكث الطاعة ولحق ببني مرين ، فولّى مكانه عمّه عبدالله بن جرمون ويكنى بأبي زمام . وعقد له المرتضى ، ثم أدال منه بأخيه مسعود لعجزه . ووفد على المرتضى عواج بن هلال من أمراء الخلط نازعاً إلى طاعته ومفارقاً لبني مرين ، فأترل معه أصحابه بمراكش وجاء على أثره عبد الرحمن بن يعقوب بن جرمون ، فتقبّض على عواج ودفعه إلى علي بن أبي علي فقتله ، وكان تقبّض معه على عبد الرحمن بن يعقوب ووزيره فقتلوا جميعاً ، واستبدّ برياسة سفیان مسعود بن كانون ، وبرياسة بني جابر اسمعيل بن يعقوب بن قيطون .

وفي سنة ستين وسمائة عند رجوع يحيى بن وانودين من واقعة أم الرجلين ، خرج عسكر من الموحدين إلى السوس لنظر محمد بن علي الزلماط^(٣) ولقيه علي بن بدر فهمزم جموعه وقتله ، وعقد المرتضى من بعده على حرب علي بن بدر للوزير أبي زيد بن بكيت ، وسرح معه عسكراً من الجند ، وكان فيهم دُئلب من زعماء النصرانية ، فدارت الحرب بين الفريقين ، ولم يكن للموحدين فيها ظهور على كثرتهم وقوة جلدتهم وحسن بلائهم ، فسلمهم عن ذلك تكاسل دُئلب وخروجه عن طاعة

(١) وفي نسخة أخرى : للسكنى في القضية .

(٢) وفي نسخة أخرى : بأمر الرجلين .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أزلماط

الوزير . وكتب بذلك للمرتضى فاستقدمه ، وأمر أبو زيد بن يحيى الكدميوي باعتراضه في طريقه وقتله . وفي سنة إثنين وستين وستائة أقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مَرِّين فنازلوا مراکش واتصلت الحرب بينهم وبين الموحّدين بظاهرها أياماً هلك فيها عبدالله أنعجوب بن يعقوب ، فبعث المرتضى إلى أبيه بالتعزية ولاطفه وضرب له أتاوة يبعث بها إليه في كل عام ، فرضي وارتحل عنهم ، والله أعلم .

* (الخبر عن انتقاض أبي دبوس وتغلبه على مراکش ومهلك المرتضى وما كان في دولته من الأحداث) *

لما ارتحل بنو مَرِّين عن مراکش بعد مهلك أنعجوب فرّ من الحضرة قائد حروبه السيد أبو العلي الملقّب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبدالله محمد بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لسعاية تمكّنت فيه عند المرتضى ، وصحبه ابن عمه السيّد أبو موسى عمران بن عبدالله بن الخليفة ، فلحقا بمسعود بن كلداسن كبير هسكورة فأجاره . ثم لحق بيعقوب بن عبد الحق بفاس صريحاً به على شأنه . واشترط له المقاسمة في العمالة والذخيرة فأمدّه بالمال ، يقال خمسة آلاف دينار عشرية . وأوعز إلى ابن أبي عليّ الخلطي بمظاهرته وإعطائه الآلات . ورجع إلى علي بن أبي علي الخلطي فأمدّه بقومه . ثم سار إلى هسكورة ونزل على صاحبه مسعود بن كلداسن فأطاعه قبائل هسكورة وهزوجة .

وبعثوا إليه عزوز بن ببورك كبير صنهاجة في ناحية أزموّر ، وكان منحرفاً عن طاعة المرتضى إلى جملة يعقوب بن عبد الحق ، ووفد عليه جماعة من السادة الموحّدين والجنّد والنصارى ، وارتاب المرتضى بمسعود بن كانون شيخ سفيان ، وباسماعيل بن قيطون شيخ بني جابر ، فتقبّض عليهما واعتقلهما ، وصار الكثير من قومها إلى أبي دبوس . وقتل اسمعيل بن قيطون في معتقله ، فانتفض أخوه ثائراً ولحق بهم ، وحذّر علوش بن كانون مثلها على أخيه فاتبعهم ، وزحف أبو العلي إلى مراکش . ولما بلغ أغمات وجد بها الوزير أبا يزيد بن بكيت في عساكر لحمايتها فناجزه الحرب فانهزم ابن بكيت وقتل عامّة أصحابه . وسار أبو دبوس إلى مراکش ، وأغار علوش بن كانون على باب الشريعة والناس في صلاة الجمعة ، وركّز رمحاً بمصرعه .

ودخلت سنة خمس وستين وستائة والمرضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس والأسوار خالية من الحراس والحامية ، وقصد أبو دبوس باب اغمات فتسور البلد من هنالك ودخلها على حين غفلة . وقصد القصبة فدخلها من باب الطبول وقرّ المرتضى ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومي ، وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي ، فلحقوا بهتاتة وألفوهم قد بعثوا بطاعتهم فرحل إلى كدميوة ، ومَرَّ في طريقه بعلي بن زكدان الونكاسي^(١) كان نزع إليه عن قومه ، ولم يقد عليه بعد ، فنزل به المرتضى ورحل معه عليّ بمن معه إلى كدميوة ، وكان فيها وزيره أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم ، فأراد النزول عليه فمنعه ابن سعد الله ، وسار إلى شفشاوة ، ووجد بها عددا من الظهر فنحها علي بن زكدان . وكتب إلى ابن واتودين بمعسكره من حاحة . وإلى ابن عطوش^(٢) بمعسكره من ركراكة باللاحاق به فأقلعا إلى الحضرة .

وخطب أبو دبوس علي بن زكدان يرغبه في القدوم عليه ، فارتاب المرتضى لذلك ولحق بأزمور فتقبّض عليه واليا ابن عطوش . وكذا صهره^(٣) واعتقله ، وطير بالخبر إلى أبي دبوس ، فأمر وزيره السيد أبا موسى أن يكاتبه في كشف أماكن الذخيرة ، فأجابه بإنكار أن يكون ذخرا شيئا عندهم ، والحلف على ذلك . وسأهم بالرحم ، فعطف أبو دبوس عليه وجنح إلى الإبقاء . وبعث وزيره السيد أبا موسى ومسعود بن كانون في إزعاجه إليه . ثم بدا له في استحيائه بإشارة بعض السادة ، فكتب خطه إلى السيد أبي موسى بقتله ، فقتله واستقل أبو دبوس بالأمر ، وتلقّب الوائق بالله والمعتمد على الله . واستوزر السيد أبا موسى وأخاه السيد أبا زيد ، وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعيّة ، وحدث بينه وبين مسعود بن كلداسن وحشة فارتحل إليه لإزالتها . وقدم عبد العزيز بن عطوش سفيراً إليه في ذلك . وبلغه أنّ يعقوب بن عبد الحق نزل تامسنا فأوفد عليه حميد^(٤) بن مخلوف المسكوري بهديّة فقبلها ، وأكد بينهما العهد وانكفاً راجعاً إلى وطنه . ورجع حميد إلى الوائق ، ووافق وصول عبد العزيز بن عطوش بطاعة مسعود بن كلداسن ، فرجع أبو دبوس إلى

(١) وفي نسخة أخرى : علي بن زكدان الونكاسي .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : عضوش .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : وكان أصهره .

(٤) وفي نسخة أخرى : حيمدي .

مراكش بعد أن عقد لأبي موسى بن عزوز على بلاد حاحة . وبلغه في طريقه عن عبد العزيز بن السعيد أنه حدث نفسه بالملك ، وأن ابن بكيت وابن كلداسن داخلوه في ذلك . وساءل عن ذلك السيد أبا زيد بن السيد أبي عمران خليفته ، وأخبره بما سمع ، وأمره بالقبض عليه وقتله ، فأنفذ ذلك .

ثم ارتحل إلى السوس لتهيئده ، وحسم علل ابن بدر فيه . وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم ، وسار يتقرب المنازل ويستنفر القبائل ، ومرّ بتارودنت فوجدها قفراً خلاءً إلا قلائل من الدور بخارجها . ونزل على حميدي صهر علي بن بدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس ، كان لصنهاجة فعلهم عليه ابن بدر وملكه منازل أبو دبوس وحاصره أياماً ، وهزم فيها جموعه وداخل حميدي علي بن زكداز في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه ، فأعجله الفتح عن ذلك ونجا بدمائه إلى بيته . وطولب بالمال ، وبقي معتقلاً عند ابن زكداز ، وامتنع ابن بدر بحصنه . ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته ، فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة . وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنه زاحف إلى (١)

صحة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن ، وخرج بهم من مراكش ابن أبي مديون السكاسني (٢) دليلاً . وسلك بهم على القفر إلى سجلماسة ، وبها يحيى بن يغمراسن ، فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه فألقوه بجهة مليانة ، فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره . وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مَرِين وعسكر المغرب ، ونزل بضواحي مراكش وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس في عساكر الموحدين فاستجّره يعقوب إلى وادي اغفو ، ثم ناجزه الحرب فاقتل مصافه وقرّ عسكره . وانهمز يريد مراكش ، والقوم في اتباعه فأدرك وقُتل . وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وقرّ بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلم بعد أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس ، وسمّوه المعتصم مدة خمسة أيام وخرج في جملتهم ، وانقرض أمر بني عبد المؤمن ، والبقاء لله وحده .

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد البلد في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي النسخة الباريسية : المساكني وفي نسخة أخرى : الونكاسي .

* (وأما هسكورة) *

وهم أكثر قبائل المصامدة ، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة . وأما سواهم من بطون كنفيسة فأنفقتهم الدولة بما تولوا من مشايعتها ، وإبرام عقدتها ، فهلك رجالهم في إنفاقها سبل الأمم قبلهم في دولهم ، وأما هسكورة فكان لهم بين الموحدّين مكان واعتزاز بكثرتهم وغلبيهم إلا أنهم كانوا أهل بدو ولم يخالطوهم في ترفهم ولا انغمسوا في نعيمهم . وكان جبلهم الذي أوطنوه من حاله دون القنة منها والذروة . واعتصموا منه بالآفاق الفدد واليفاع الأشمّ والطود الشاهق ، قد لمس الأفلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه . وتلقّع بالحساب في مروطه ، وآوى الرياح العواصف الدجوة وألقى إلى خبر السماء باذنه ، وأظل على البحر الأخضر بشماريخه ، واستدبر القفر من بلاد السوس بظهره ، وأقام سائر جبال درن في حجره . ولما انقرض أمر الموحدّين وتغلب بنو مرين على المصامدة أجمع ، وساموهم خطة الخسف في وضع الضرائب والمغارم عليهم ، فاستكانوا لعزهم وأعطوهم يد الطوعية ، واعتصم هسكورة هؤلاء بمعقلهم واعتزوا فيه بمنعتهم ، فلم يغمسوا في خدمتهم يداً ، ولا أعطوهم مقادراً ، ولا رفعوا بدعوتهم راية ، إنما هي منابذة لأمرهم وامتناع عليهم سائر الأيام . فاذا زحفت الحشود وتمرّست بهم العساكر دافعوهم بطاعة معروفة وأتاوة غير ملتزمة ، ورئيسهم مع ذلك يستخلص جبايتهم لنفسه ويدفعهم في المضايق لحمايته ، وربّما تخطّاهم إلى بعض قبائل الجبل ومن قاربه من أهل بسائط السوس يعسكر بذلك للرجل من قومه هسكورة وكنفيسة ، وبالحشد من العرب الوطنين بأرض السوس .

وسفيان وهم بطن الحارث ومن المعقل وهم بطن الثبانات ، وكان رئيسهم في ذكرنا بعد انقراض عبد المؤمن بن يوسف ، وحرّروا لسان الأعجمين ، هو عبد الواحد ، وكان له في الاستبداد والصرامة ذكر . وهلك سنة ثمانين وستائة وكان متحلاً للعلم واعية له جماعاً لكتبه ودواوينه ، حافظاً لفروع الفقه . يقال إن المدوّنة كانت من محفوظاته ، محبّاً في الفلسفة مطالعاً لكتبها ، حريصاً على نتائجها من علم الكيمياء والسيمياء والسحر والشعوذة ، مطلعاً على الشرائع القديمة والكتب المتزلة بكتب

التوراة . ويجالس أحبار اليهود حتى لقد اتهم في عقيدته ورمي بالرغبة عن دينه ، ثم ولي من بعده ابنه عبدالله ، وكان مقتفياً سنن أبيه في ذلك وخصوصاً في انتحال السحر والاستشراف إلى صنعة الكيمياء . ولما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أخيه عمر ، وسكن فتنة المغرب ودوخ أقطاره وحلّ معتصمه بالعساكر وأوطأ ساحاته لكتائب رجاله دون من يمدّه من أعراب السوس من ورائه ، بما كان من تغلبه على بلادهم واقتضائه بطاعتهم وانزال عماله بالعساكر بينهم ، فلاذّ منه عبدالله السكسيوي بطاعة معروفة رهن فيها ابنه ، واشترط للسلطان الهدية والضيافة ، فتقبل منه ومنحه جانب الرضى .

ولما كانت نكبة السلطان بالقروان ، واضطرب المغرب فتنة وخلا جوّ البلاد المراكشية من المشايخ اجتمع رأي الملأ من المصامدة على النزول إلى مراكش ، وأحكموا عقد الاتفاق بينهم وأجمعوا تخريبها بما كانت داراً للأمة ولقام الكتائب المحمّرة ، وزعم عبدالله السكسيوي هذا بانفاذ ذلك فيها ، وضمن هو تخريب المساجد لتجافهم عنها فكانت مذكورة على الأيام . ثم انحلّ عزمهم وافترقت جماعتهم وكلمتهم بما كانت من استقامة الدولة بفاس واجتماع بني مَرين على السلطان أبي عَنان كما يذكر بعد فأنحجر كل منهم بوجاره .

ولما فرغ أبو عَنان من شأن أبيه واستولى على المغرب الأوسط وغلب عليه بنو عبد الواد ، ولحق أخوه أبو الفضل بن مطرح اغترابه في الأندلس بالطاعة يروم الإجازة إلى المغرب لطلب حقّه ، فأركبه السفير إلى مراحل السوس فتزل به ، ولحق بعبدالله السكسيوي فأواه وظاهره على أمره . فجردّ أبو عَنان العزائم إليهم وعقد لوزيره فارس ابن ميمون بن وادرار على حربهم . واستخرج جيوش المغرب وأناخ بساحته سنة أربع وخمسين وستائة واختطّ بسفح الجبل مدينة لحصاره سمّاها القاهرة . وأخذت بمخنفه وزاحمت بمناكبها أركان معقله حتى لاذت للسلم ، واشترط أن ينبذ العهد إلى أبي الفضل المصري عنده يذهب حيث يشاء فتقبل منه . وعقد له سلماً على عادته وأفرج عنه . وخرج على عبدالله السكسيوي لأيام السلطان أبي سالم ابنه محمد المعروف في لغتهم ايزم ومعناه الأسد ، فقبله على أمره ولحق عبدالله بعامر بن محمد الهنتاتي كبير المصامدة لعهدده ، وعامل السلطان عليهم ، فاستجاش به ووعدده عامر النصر وأمهله عاماً ونصفه حتى وفد على السلطان ، واستوهب في ذلك . ثم أجمع

على نصره من عدوه فجمع له الناس وخاطب أهل ولايته أن يكون معه يداً . وزحف
عبدالله حتى نزل بالقاهرة وأخذ بمخنق أبيه وأشياعه . ثم داخله بعض بطانته ودلّه
على بعض العورات اقتحم منها الجبل وثاروا بابنه ايزم فصاح به عبدالله وقومه . وفرّ
محمد أمامهم فأدرك بتلاسف من نواحي الجبل وقتل واسترجع عبدالله ملكه ،
واستقلّت قدمه إلى أن مكر به ابن عمه يحيى بن سليمان حين بلغ استبداد الوزير عمر
ابن عبدالله على سلطان المغرب واستبداد عامر بن محمد بولاية مراکش ، وثار منه
يحيى هذا بأبيه سليمان وهو عمّ عبدالله ، كان قتله أيام إمارته الأولى وأقام مملكاً على
سكسيوة إلى سني خمس وسبعين وستائة ، فثار عليه أبو بكر بن عمر بن خرو فقتله
بأخيه عبدالله ، واستقلّ بأمر سكسيوة ومن إليهم . ثم خرج عليهم لأعوام من
استقلاله ابن عمّ له من أهل بيته لم ينقل لي من تعريفه إلا أن اسمه عبد الرحمن ،
لأن ثورته كانت بعد رحلتي الثانية من المغرب سنة ست وسبعين وستائة ، فأخبرني
الثقة بأمره وأنه ظفر بأبي بكر بن عمر وقتله . واستبدّ بأمر الجبل إلى هذا العهد فيما
زعم وهو سنة تسع وسبعين وستائة ثم بلغني سنة ثمان وثمانين وستائة أن عبد الرحمن
هذا ويعرف بأبي زيد بن مخلوف بن عمر آجلید قتله يحيى بن عبدالله بن عمر ،
واستبدّ بأمر هذا الجبل وهو الآن مالكة ، وهو أخوايزم بن عبدالله والله وارث الأرض
ومن عليها وهو خير الوارثين .

(وأما بقية قبائل المصامدة) من سوى هؤلاء السبع مثل هيلانة وحاحة ودكالة وغيرهم
ممن أوطن هضاب الجبل أو ساحته فهم أم لا تنحصر . ودكالة منهم في ساحة الجبل
من جانب الجوف مما يلي مراکش إلى البحر من جانب الغرب . وهناك رباط آسني
المعروف ببني ماكر من بطونهم وبين الناس اختلاف في انتسابهم في المصامدة أو
صنهاجة ، ومحاورهم من جانب الغرب في بسيط ينغطف ما بين ساحل البحر وجبل
درن في بسيط هناك يقضي إلى السوس ، يعمره من حاحة هؤلاء خلق أكثرهم في
خُمُر الشعراء من الشجر المعروف بأرجان ، يتحصّنون بملكها وأدواحها ويعتصرون
الزيت لادامهم من ثمارها . وهوزيت شريف طيب اللون والرائحة والطعم يبعث منه
العمال إلى دار الملك في هداياهم فيطرفون به .

وبآخر مواطنهم مما يلي أرض السوس وفي القبلة عن جبل درن بلدة دنست وبها معظم
هذه الشعراء يتزلها رؤساؤهم ، ورياستهم في بطن منهم يعرفون بمغراوة وكان شيخهم

لعهد السلطان أبي عنان ابراهيم بن حسين بن حماد بن حسين ، وبعده ابنه محمد بن ابراهيم بن حسين وبعده ابن عمهم خالد بن عيسى بن حماد واستمرت رياسته عليهم إلى أعوام ست وسبعين وسبعائة أيام استيلاء السلطان عبد الرحمن بن بطوسن على مراكش ، فقتله شيخ بن مَرين علي بن عمر الورتاجي من بني ويغلان منهم وما أدري لمن صارت رياستهم من بعده ، وهم ذكالة جميعاً أهل مغرم واسع وجباية موفورة فيما علمناه ، والله الخلق والأمر وهو خير الوارثين .

كان الواثق جهّز لحرب أحد أمراء المصامدة ، فكان وزيره داخله في ذلك وسائل من ذلك السيد أبا زيد ابن السيد أبي عمران خليفته وأخبره بما سمع ، وأمره بالقبض عليه وقتله فأنفذ ذلك . ثم ارتحل إلى السوس لتمهيد ، وحسم هلال بن بدر فيه وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم ، وسار يتعدى المنازل ويستنفر القبائل وهو بتارودنت فوجدها قفراً خلاء إلا قليلاً من الدور بخارجها ، ونزل على حميد بن صهر علي بن بدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس ، كان لصنهاجة فغلهم عليه ابن بدر وملكه فنازله أبو دبّوس وحاصره أياماً وهزم فيها جموعه .

وداخل محمد بن علي بن زكدان في إفراج أبي دبّوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه ، فأعجله الفتح من ذلك ونجا بدمائه إلى بيته ، وطولب بالمال وبقي معتقلاً عند ابن زكدان ، وامتنع على ابن بدر بحصنه ، ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستائة وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنهى إليه فبعث بمرتبته إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن . خرج إليهم من مراكش ابن أبي مديون الونكاسي دليلاً وسلك بهم على الثغر إلى سجلماسة ، وبها يحيى بن يغمراسن فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه ، وألفوه بجهة مليانة فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره . وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مَرين ونزل بضواحي مراكش ، وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبّوس بعساكر الموحّدين فاستجره يعقوب إلى وادي أعفر . ثم ناجزه الحرب فاختلف مصافه وفرّ عسكره وانهزم يريد مراكش والقوم في اتباعه ، فأدرك وقتل وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في الحرم فاتح سنة ثمان وستين وستائة ، وفرّ بقية المشيخة من الموحّدين إلى معاقلمهم بعد أن كانوا

الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصاريف أحوالهم

هذا العهد لما دعا المهدي إلى أمره في قومه من المصامدة بجبال درن وكان أصل دعوته نفي التجسيم الذي آل إليه مذهب أهل المغرب باعتمادهم ترك التآويل في التشابه من الشريعة ، وصرح بتكفير من أبى ذلك آخذاً بمذهب التكفير بالمثل فسمي لذلك دعوته بدعوة التوحيد ، وأتباعه بالموحدين نعيّاً على الملتزمين مثال مذاهبهم إلى اعتقاد الجسمية ، وخصّ بالمزنية من دخل في دعوته قبل تمكنها ، وجعل علامة تمكنها فتح مراكش ، فكان إنما اختصّ بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح ، وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثمانى قبائل سبعة من المصامدة : هرغة وهم قبيلة الإمام المهدي وهنتاة وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الإجارة والحماية ، وكنفيسة وهزرجة وكدميوة ووريكة . وثمانية قبائل الموحدين : كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته ، دخلوا في دعوته قبل الفتح فكانت لهم المزنية بسابقة عبد المؤمن وسابقتهم فاخص هؤلاء القبائل بمزنية هذه السابقة وإسمها . وقاموا بالأمر وحملوا سريره وانفقوا في مذاهبه وممالكه في سائر الأقطار على نسبة قريبهم من صاحب الأمر وبعدهم . وبقي من بقي منهم بمحالهم ومعاقلهم بقية حتوف . وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك أذيال الغلب والقهر حتى أبقوهم بالاتاوات ، وانتظموا في عدد الغارمين من الرعايا ، وصاروا يولّون عليهم من زناتة تارة ومن رجالاتهم أخرى ، وفي ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب ، والملك لله بورثه من يشاء .

* (هرغة) *

فأما هرغة وهم قبيل الإمام المهدي قد دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القاصية من كل وجه لما كانوا أشد القوم بلاءً في القيام بالدعوة ، وأصلاهم لنارها بقرابتهم من صاحبها

وتعصّبهم على أمره . ولم يبق منهم إلاّ أخلاط وأوشاب أمرهم إلى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً .

* (تينملل) *

وكذا تينملل إخوتهم في التعصّب على دعوة المهدي والاشتمال عليه والقيام بأمره حتى تحيّر إليهم وبنى داره ومسجده بينهم ، فكان يعطيهم من النّبي بقدر عظمهم من الابتلاء^(١) ، وأبعدوا في ممالك الدولة وعمالاتها فانقرض رجالاتهم ، وملك غيرهم من المصامدة أمرهم عليهم ، وقبر الإمام بينهم بهذا العهد على حاله من التجلّة والتعظيم وقراءة القرآن عليه أحزاباً بالغدوّ والعشيّ ، وتعاهده بالزيارة وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء لتسهيل الإذن ، واستشعار الأبّهة وتقديم الصدقات بين يدي زناثة على الرسم المعروف في احتفال الدولة ، وهم مصمّمون مع كافة المصامدة أن الأمر سيعود وأن الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب وتملأ الأرض كما وعدهم المهدي ، لا يشكّون في ذلك ولا يستربون فيه .

* (هنتاة) *

وأما هنتاة وهم تلو القبيلتين في الأمر ، وكل من بعدهم فإنما جاؤا على أثرهم وتبعاً لهم ، لما كانوا عليه من الكثرة والبأس ، ومكان شيخهم أبي حفص عمر بن يحيى من صحابة الإمام والاعتزاز على المصامدة . وكانت لهم بأفريقية دولة كما نذكّره ، فاتفقت الدولتان منهم عوالم في سبيل الاستظهار بهم ، وبقي بموطنهم المعروف بهم من جبال دَرَن ، وهو الجبل المتاخم لمراكش على توسّط من الاستبداد والخضوع ولهم في قومهم مكان بامتناع معقلهم وإطلاقه على مراكش . ولما تغلّب بنو مرّين على المصامدة ، وقطعوا عنهم أسباب الدعوة كان لرؤسائهم أولاد يونس انخياش إليهم بما

(١) وفي نسخة أخرى : فكان حظهم من الغناء بمقدار حظهم من الاستيلاء .

كانوا مسخوطين في آخر دولة بني عبد المؤمن ، فاختصّوهم بالإثرة والمخالصة .
 وكان علي بن محمد كبيرهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق خالصة له
 من بين قومه . وهلك سنة سبعين وستائة ^(١) على يد ابن الملياني الكاتب بكتاب لبس
 فيه ، وأنفذه على السلطان لابنه أمير مراكش فقتل رهط من مشيخة المصامدة في
 اعتقاله ، كان منهم : علي بن محمد فقام السلطان لها في ركائبه ، وندم على ما قرط
 من أمره في افلات ابن الملياني على ما يذكر من أمر هذه الواقعة في أخبار السلطان
 يوسف بن يعقوب . ولما ولي السلطان أبو سعيد وانقطع عن المصامدة ما كان لهم من
 أثر الملك والسلطان ، وانقادوا للدولة رجع بنو مَرِين إلى التولية عليهم من رجالاتهم ،
 ودالوا بينهم في ذلك وأخبار السلطان بعد صدر من دولة موسى بن علي بن محمد
 للولاية على المصامدة وجبايتهم ، فعقد له وأنزله مراكش فاضطلع بهذه الولاية سنين
 ورسخت فيها قدمه ، وأورثها أهل بيته ، وصار لهم بها في الدولة مكان انتظموها له في
 الولاية ، وترشّحوا للوزارة . ولما هلك موسى عقد السلطان من بعده لأخيه محمد ،
 وأجراه على سنته إلى أن هلك فاستعمل السلطان بنه في وجوه خدمته ، وعقد لعامر
 منهم على قومه . ولما ارتحل السلطان أبو الحسن إلى أفريقية صحبه عامر فيمن صحبه
 من أمراء المصامدة وكافة الوجوه ، حتى إذا كانت نكبة القيروان سنة تسع وأربعين
 وسبعائة عقد له على الشرطة بتونس على رسم الموحدّين من بيوت الخطة وسعة
 الرزق . وأسأم إليه فيها فكفاه همّها ، ولما فصل من تونس ركب الكثير من حرمه
 وخطاياه السفن لنظر عامر هذا ، حتى إذا غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بما
 أصابهم من عاصف الريح رمى الموج بالسفينة التي كانوا بها إلى المريّة من ثغور
 الأندلس ، فأنزل بها كرائم السلطان لنظره وبعث عنهنّ ابنه أبو عنّان المستبدّ على أبيه
 بملك المغرب ، فامتنع من إسلامهنّ إليه وفاء بأمانته في خدمتهم .
 وخلص السلطان أبو الحسن بعد النكبة البحريّة إلى الجزيرة سنة خمسين وسبعائة
 وزحف إلى بني عبد الواد فقلّوه ونهض إلى المغرب ، وسلك إليه القفر حتى نزل
 سجلماسة فقصده أبو عنّان فخرج منها إلى مراكش وقام بدعوته المصامدة وعرب
 جشم ، فاحتشد ، ولقي ابنه بأغاث بجهات أمّ ربيع فكانت الدبرة عليه ، ونجا إلى

(١) وفي النسخة الباريسية : تسع وتسعين وفي نسخة أخرى : سبع وسبعين والنسخة الباريسية : أصح .

جبل هنتاة . وكان عبد العزيز بن محمد شيخا عليهم منذ مغيب عامر ، وكان في جملته ، وخلص معه فأنزله عبد العزيز بداره ، وتآمر هو وقومه على إجارته والموت دونه فاعتصم بمعقلهم . وجاء السلطان أبو عنان في كافة بني مرين إلى مراکش فخيم بظاهرها واحتشد لحصارهم أشهراً حتى هلك السلطان أبو الحسن كما نذكره بعد ، فحملوه على الأعواد ونزلوا على حكم أبي عنان فأكرمهم ورعى لهم وسيلة هذا الوفاء ، وعقد لعبد العزيز على إمارته ، واستقدم عامراً كبيرهم من مكانه بالمرية ، فقام بهن لأمانته من حظايا السلطان وحرمه فلقيه السلطانة مبرة وتكرماً ، وأناله من اعتناؤه حظاً .

وتخلّى له أخوه عبد العزيز عن الأمر فأقره نائباً . ثم عقد السلطان لعامر سنة أربع وخمسين وسبعائة على سائر المصامدة واستعمله لجبايتهم فقام بها مضطجعاً ، وكفاههم الأعمال المراكشية حتى عرف عناء فيها وشكر له كفايته . وهلك السلطان أبو عنان واستبدّ على ابنه السعيد ووزيره الحسن بن عمر المودودي^(١) . وكان ينفس عليه ما كان له من الترشيح للرتبة ، وبينها في ذلك شحنة ، فخشي بادرته وخرج من مراکش ، إلى معقله في جبل هنتاة ، وحمل معه ابن السلطان أبي عنان الملقب بالمعتمد . وكان أبوه عقد له يافعاً قبيل وفاته على مراکش لنظر عامر فخلص به إلى الجبل ، حتى إذا استوت قدم السلطان أبي سالم في الأمر واستقل بملك المغرب سنة ستين وسبعائة وفد عليه عامر بن محمد مع رسله إليه ، وأوفد ابن أخيه محمد المعتمد فتقبل السلطان وفادته ، وشكر وفاءه ، وأقام ببابه مدة . ثم عقد له على قومه ، ثم استنفره معه إلى تلمسان ، ولم يزل مقيماً ببابه إلى قبيل وفاته فأنفذه لمكان إمارته .

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد بالمغرب بعده عمر بن عبد الله بن عمر على ما نذكره ، وكانت بينه وبين عامر بيباب السلطان صداقة وملاطفة ، وصل يده بيده ، وأكد العهد معه على سد تلك الفرجة ، وحول عليه في حوط البلاد المراكشية وأن لا يؤتى من قبله ، وكان زعيماً بذلك . وعقد له على الأعمال المراكشية وما إليها إلى وادي أم ربيع . وفوض إليه أمر تلك الناحية ، واقتسم المغرب شق الأبلême^(٢) وخلص إليه الأعياص من ولد السلطان أبي سعيد أبو الفضل بن السلطان أبي سالم ، وعبد

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : الغودودي .

(٢) وفي النسخة الباريسية : الأبلême .

المؤمن بن السلطان أبي علي ، فاعتقل عبد المؤمن وأمكن أبا الفضل من إمارته على ما نذكر بعد . وساءت الحال بينه وبين عمر ونهض إليه من فاس بجموع بني مَرِين وكافة العساكر ، واعتصم بِجَبَلْه وقومه واستبد على الأمر من بعده ^(١) . ووصل عبد المؤمن من معتقله يُجَاجِيءُ به بنو مَرِين لما كانوا يؤملون من ولايته واستبداده لما آسفهم من حجب الوزراء للموكلهم . فلما رأوا استبداد عامر عليه أعرضوا عنه ، وانعقد السلم بينه وبين عمر بن عبد الله على ما كان عليه من مقاسمته إياه في أعمال المغرب ، ورجع واستقل عامر بناحية مراكش وأعمالها ، حتى إذا هلك عمر بن عبد الله بيد عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما نذكره ، حدثت أبا الفضل بن السلطان أبي سالم نفسه بالفتك بعامر بن محمد كما فتك عمه بعمر بن عبد الله . ونذر بذلك فاحتمل كرائمه وصعد إلى داره بالجبل ، ففتك أبو الفضل بعبد المؤمن ابن عمه لأنه كان معتقلاً بمراكش . واستحكمت لذلك النقرة بينه وبين عامر بن محمد . وبعث إلى السلطان عبد العزيز فنهض من فاس في جموعه سنة تسع وستين وسبعائة .

وفرّ أبو الفضل فلاحق بتادلاً ، وتقبّض عليه عمه السلطان عبد العزيز وقتله كما نذكر في أخباره . وطلب عامراً في الوفاة فخشيته على نفسه ، واعتصم بمعتقله فرجع إلى حضرته ، واستجمع عزائمهم . وعقد على مراكش وأعمالها لعلي بن أجانا من صنائع دولتهم ، وأوعز إليه بمنازلة عامر فدافعه عامر وقومه عن معتصمه ، وأوقع به وتقبّض على طائفة من بني مَرِين وصنائع السلطان في المعركة أودعهم سجنه ، فحرّك بها عزائم السلطان ، ونهض إليه في قومه من بني مَرِين وعساكر المغرب وأحاط به ونازله حولاً كريئاً ^(٢) . ثم تغلب عليه سنة إحدى وسبعين وسبعائة ، وانفضت جموعه . وتقبّض عليه عند اقتحام الجبل فسيق أسيراً إلى السلطان فقيده ، وقفل به إلى الحضرة . ولما قضى نسك الفطر من سته أحضره ووبّخه . ثم أمر به فتلّ إلى مصرعه ، واثخن جلدًا بالسياط وضرباً بالمقارح حتى فاض عفا الله عنه . وعقد السلطان على قومه لفارس ابن أخيه عبد العزيز ، كان نزع إليه بين يدي مهلك عمّه ، وعفا عن ابنه أبي يحيى بسابقته إلى الطاعة قبيل اقتحام الجبل عليهم ، أشار

(١) وفي نسخة أخرى : على الأميرين عنده .

(٢) هكذا في النسخة التونسية وبياض في النسخة المصرية . ومقتضى السياق حولاً كاملاً .

عليه بذلك أبوه نظراً له فظفر بالسلامة والحظ^(١) ، وأصاره السلطان في جملته . ثم هلك بعد ذلك فارس بن عبد العزيز ، واضطرم المغرب فتنةً بعد مهلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعائة وصارت أعمال مراکش في إيالة السلطان عبد الرحمن بن علي الملقب بأبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي . ونزع إليه أبو يحيى بن عامر فعقد له على قومه . ثم آتهم باحتال الأموال منذ عهد أبيه وشره إلى اسطفائه ، ونذر به ابن عامر فلحق ببعض قبائل المصادمة جيرانهم بأطراف السوس ، ونزل عليهم . وكان مهلكه فيهم أعوام ثمانين وسبعائة ، والله وارث الأرض ومن عليها .

* (كدميوة) *

وأما كدميوة وكانوا تبعاً لهنتاتة وتينملل في الأمر ، وجبلهم بصدف^(٢) جبل هنتاتة ، وكان رؤساءهم لعهد الموحدين بنو سعد الله . ولما تغلب بنو مَرين على المصادمة ووضعوا عليهم الضرائب امتنع يحيى بن سعد الله بعض الشيء بحصن تافرْجَا وتيسخت من جبلهم^(٣) وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه إلى طاعة بني مَرين ، واختلفت إليهم العساكر إلى أن هلك يحيى بن سعد الله سنة أربع وتسعين وستائة ، وعساكر يوسف بن يعقوب محمّرة على حصاره ، فهدموا حصونه ، وأذلّوا من قومه . واستخلص السلطان يوسف بن يعقوب عبد الكريم بن عيسى منذ عهد أبيه فعقد له عليهم . ثم تقبّض على أمراء المصادمة واعتقله فيمن اعتقل منهم ، حتى إذا فعل ابن الملياني فعلته في استهلاكهم لعداوة عمه بهاليس^(٤) الكتاب على لسان السلطان لابنه على أمير مراکش ، فقتل عبد الكريم فيمن قتل منهم ، وقتل معه بنوه عيسى وعليّ ومنصور ، وابن أخيه عبد العزيز بن محمد . وامتعض السلطان لذلك وأقلت ابن الملياني من معسكره لحصار تلمسان فدخلها .

(١) وفي نسخة أخرى : فظفر من السلامة بحظ .

(٢) وفي نسخة أخرى : لصق .

(٣) وفي نسخة أخرى : تيسخت .

(٤) وفي نسخة أخرى : بتليس .

ثم قام بأمر كدميوة عبدالحق بن^(١) الملياني سعدالله أيام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عَنان ، وكانت بينه وبين عامر بن محمد فتنة جرّها منصب العمالة ، شأن المجاورين من القبائل ، وقديم العداوة بين السلف . فلما استفحل أمر عامر بالولاية على مراكش وسائر المصامدة ، نبذ إلى عبد الحق العهد ونحلة الخلاف والمداخلة للسكسيوي شيخ الفتنة المستعصي منذ أول الدولة ، فصمد إليه سنة سبع وخمسين وسبعائة في قومه ومشايخ السلطان التي كانت بمراكش لنظره فاقتحم عليه معقله عنوة وقتله . واستولى على كدميوة ولحق بنو سعدالله بفاس ، فأقاموا بها حتى اذا خاض السلطان أبو سالم البحر إلى ملكه بعد أخيه أبي عَنان ونزل بغمارة ، نزل^(٢) إليه يوسف بن سعدالله واعتقد منه ذمّة سابقته تلك . فلما استولى على البلد الحديد واستقل سلطانه ، عقد له على قومه رعيّاً لوسيلته ، فأقام في ولايته مدّة السلطان أبي سالم . وكان عامل مراكش محمد بن أبي العلي من حاشية السلطان ويوت الولاة بالمغرب معوّلاً فيها على مظاهرتة .

ولما هلك السلطان ابو سالم واستبدّ عمر بن عبدالله على الملوك بعده ، بادر لحين ثورته بالعقد لعمر على أعمال مراكش ليستظهر به ، وطير إليه الكتاب بذلك ، ونزل إلى مراكش وقتل بها يوسف بن سعدالله ، ونكث ابن أبي العلي ، ثم قتله وألحقه بابنه عبد الحق^(٣) ، وذهبت الرياسة من كدميوة برهة من الدهر ، ثم رجعت إليهم في بني سعدالله ، والله تعالى قادر على ما يشاء ، وييده تصارييف الأمور لا ربّ سواه ، ولا معبود إلا إياه .

* (وريكه) *

فهم مجاورون لهنتاتة ، وبينهم فتنة قديمة وحروب متصلة ودماء مطلولة ، كانت بينهم سجالاتاً ، وهلك فيها من الفريقين أم إلى أن غلبهم هنتاتة باعتزازهم بالولاية ،

(١) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم أبيه من المراجع التي بين أيدينا . ولكن يبدو أن والده يدعى يوسف بن سعدالله وذلك حسبما يأتي في آخر هذا الموضع من هذه النسخة .

(٢) وفي نسخة أخرى : نزع .

(٣) وفي نسخة أخرى : وقتل بها يوسف بن سعدالله . ونكث بأبي العلي ثم قتله وألحقه بأبيه عبد الحق .

فخضدوا منهم الشوكة وأصاروهم في الجملة ، والله وارث الأرض ومن عليها . والله تعالى أعلم بغيبه وهو على كل شيء قدير .

محمد بن عبد الحق < بن سعد الله بن كادمية

على

محمد بن يوسف

عيسى < بن عبد الكريم < بن عيسى

منصور

عبد العزيز بن محمد

يحيى بن سليمان

أبو بكر بن عامر < بن محمد موسى بن علي < بن محمد من أولاد يونس من هتانة

يحيى بن فاس بن عبد العزيز

يحيى

محمد ايزم < بن عبد الله < بن عمر بن حرو بن يوسف السكسوى

يحيى بن سليمان

زيد بن مخلوف

أجلد

* (الخبر عن بني يدر^(١) امراء السوس من الموحدين بعد

انقراض بني عبد المؤمن وتصاريف أحوالهم) *

كان أبو محمد بن يونس من جملة وزراء الموحدين من هتاتة ، وكان المرتضى قد استوزره ثم سخطه ، وعزله سنة خمسين وستائة وألزمه داره بناء مصلحت ، وفر عنه قومه وحاشيته وقرباته . وكان من أهل قرابته علي بن يدر من بني باداسن فقر إلى السوس وجاهر بالخلاف سنة إحدى وخمسين وستائة ونزل بحصن تانصاحت بسفح الجبل حيث يدفع وادي السوس من دَرَن ، وشيده وحصنه وتغلب على حصن تيسخت من أيدي صنهاجة وشيده ، وأنزل فيه ابن عمه بوحمدين^(٢) . ثم تغلب على بسيط السوس ، وجأجأ بني حسان من أعراب المعقل من مواطنهم بنواحي ملوية إلى بلاد الريف ، فارتحلوا إليه وعاث بهم في نواحي السوس ، وأطاع له كثير من قبائله فاستوفى جبايتهم . وأجلب على عامل الموحدين بتار ودانت وضيق عليه المسالك ، وتفاقم أمره . واتهم الوزير أبو محمد بن يونس بمداخلته وعثر على كتابه إلى علي بن يدر فأمر المرتضى باعتقاله وقتله سنة اثنتين وخمسين وستائة وأغزى أبا محمد ابن أصال^(٣) إلى بلاد السوس في عسكر الموحدين والجند ، وعقد له عليها فترل تارودانت وتحصن علي بن يدر في تيونودين^(٤) . وزحف إليه ابن أصناك في عسكره فهزمه ابن يدر وقتل كثيراً منهم ، ورجع إلى مراکش مفلولاً . وأقام علي بن يدر على حاله من الخلاف ، وأغزاه المرتضى محمد بن علي أزلماط في عسكر من الموحدين سنة ستين وستائة فهزمهم ، وقتل ابن أزلماط فعقد المرتضى من بعده على السوس لوزيره أبي زيد بن بكيت فرحف إليه ودارت الحرب بينهما ملياً ، وانقلب من غير ظفر ، واستفحل ابن يدر ببلاد السوس واستخدم الأعراب من الشبانات وذوي حسان . وأطاعته القبائل من كزولة ولطة وزكن ولخس من شعوب لمطة وصناكة . وجبى الأموال واستخدم الرجال ، يقال كان جنده ألف فارس ، وكان بينه وبين كزولة فتن

(١) وفي نسخة أخرى : يدر .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن عمه حمدين .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ابن أصناك .

(٤) وفي نسخة أخرى : تيونون .

وحروب يستظهر في أكثرها بدوي حسان .

ولمّا استولى أبو دبّوس على مراکش سنة خمس وستين وستائة وفرغ من تمهيد ملكه بها ، اعترم على الحركة إلى السوس ، ورحل من مراکش ، وقدم بين يديه يحيى بن وانودين لاحتشاد القبائل ومن بالجبل ، ثم أسهل من تامسكروط إلى بسيط السوس ، ونزل على بني باداسن وقبيلة ابن يدر على فرسخين من تيونودين . وقصد تيزخت ومرّ بتارودنت وعين آثار الخراب الذي بها من عيث ابن يدر ، ولما بلغ حصن تيزخت خيم بساحته وحشد أمماً من القبائل لحصاره ، وكان بوحمدين^(١) ابن عم علي بن يدر فحاصره أياماً . ولما اشتدّ عليه الحصار داخل علي بن زكدان من مشيخة بني مَرين ، كان في جملة أبي دبّوس فداخله في الطاعة ، وتقبّل السلطان طاعته على التزول عن حصنه .

ثم أعجله الحرب واقتحم عليهم الجلب ولحقوا إلى الحصن وفرّ حمدين إلى بيت علي بن زكدان فأمره السلطان باعتقاله . واستولى السلطان على الحصن ، وأنزل به بعض السادة لولايته . وارتحل أبو دبّوس إلى محاصرة علي بن يدر فحاصره أياماً ، ونصب عليه المجانيق . ولما اشتدّ عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة ، فتقبّل وأقنع السلطان عن حصاره ، وقفل إلى حضرته . ولما استولى بنو مَرين على مراکش سنة ثمان وستين وستائة استبدّ علي بن يدر وتمكك سوس واستولى على تارودنت ابغري وسائر أمصاره وقواعده ومعاقله ، وأرهف حدّه للأعراب فزحفوا إليه . وكانت عليه الدبرة ، وقتل سنة ثمان وستين وستائة وقام بأمره علي ابن أخيه عبد الرحمن بن الحسن مدّة . ثم هلك وقام بأمرهم علي بن الحسن بن بدر . ولمّا صار أبو علي بن السلطان أبي سعيد إلى ملك سِجِلْمَاسَة يصلح عقده مع أبيه كما يذكر في أخبارهم ، فترها وشيّد ملكه بها ، واستخدم كافة عرب المعقل فرغبوه في ملك السوس وأطمعوه في أموال ابن يدر فغزاه من سِجِلْمَاسَة ، وفرّ ابن يدر أمامه إلى جبال نكيسة . واستولى السلطان أبو علي على حصنه نانصاوت وسائر أمصار السوس ، واستصفي ذخيره وأمواله ، ورجع إلى سِجِلْمَاسَة .

ثم استولى السلطان أبو الحسن من بعد ذلك عليه وانقرض ملك بني يدر . ولحق به

(١) وفي نسخة أخرى : وكان به حمدين .

عبد الرحمن بن علي بن الحسن ، وصار في جملته . وأنزل السلطان بأرض السوس مسعود بن ابراهيم بن عيسى البريتاني^(١) من طبقة وزرائه ، وعقد له على تلك العمالة إلى أن هلك ، وعقد لأخيه حسون من بعده إلى أن كانت نكبة القيروان . وهلك حسون وانقض العسكر من هنالك ، وتغلب عليه العرب من بني حسان والشبانات ، ووضعوا على قبائله الأتاوات والضرائب . ولما استبد أبو عتّان بملك المغرب من بعد أبيه أغزى عساكره السوس لنظر وزيره فارس بن ودرار سنة ست وخمسين وستمائة فملكه واستخدم القبائل والعرب من أهله ، ورتب المشايخ بأمصاره ، وقفل إلى مكان وزارته ، فانقضت المشايخ ولحقت به .

وبقي عمل السوس ضاحياً من ظلّ الملك لهذا العهد ، وهو وطن كبير في مثل عرض البلاد الجريدية وهوائها المتّصل من لدن البحر المحيط إلى نيل مصر الهابط من وراء خط الاستواء في القبلية إلى الاسكندرية . وهذا الوطن قبلة جبال درن وعماثر وقرى ومزارع ومدن^(٢) وأمصار وجبال وحصون ، ويحدّق به وادي السوس ينصبّ من باطن الجبل إلى ما بين كلاوة وسيكسيوة ، ويدفع إلى بسيطه ، ثم يمرّ مغرباً إلى أن ينصب في البحر المحيط والعماثر متصلة حفافي هذا الوادي ذات المدن والمزارع ، وأهلها يتخذون فيها قصب السكر . وعند مصبّ هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودنت وبين مصبّ هذا الوادي في البحر ومصبّ وادي آش^(٣) مرحلتان إلى ناحية الجنوب على ساحل البحر ، وهناك رباط ماسة الشهير المعروف بتردد الأولياء وعبادتهم . وترعم العامة أن خروج الفاطمي منه .

ومنه أيضاً إلى زوايا أولاد بو نعمان مرحلتان في الجنوب كذلك على ساحل البحر ، وبعدها على مراحل عصب الساقية الحمراء وهي منتهى مجالات المعقل في مشابيتهم وفي رأس وادي السوس جبل زكنون^(٤) قبلة جبل الكلاوي ، وفي قبلة جبال درن جبال نكيسة تنتهي إلى جبال درعه ويعرف الآخر منها في الشرق بابن حميدي ويصب من جبال نكيسة وادي نول ويمرّ مغرباً إلى أن يصبّ في البحر . وعلى هذا

(١) وفي نسخة أخرى : البريتاني وفي النسخة الباريسية : البريتاني .

(٢) وفي نسخة أخرى : فدن .

(٣) وفي نسخة أخرى : ماسة .

(٤) وفي نسخة أخرى : جبل زكندر .

الوادي بلدتا كاوصت محطّ الرفاق والبضائع بالقبلة ، وبها سوق في يوم واحد يقصده
التجار من الآفاق ، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان . وبلد إيفري بسفح جبال
نكيسة بينها وبين تاكاوصت مرحلتان ، وأرض السوس بمحالات لتزول لمطة ^(١) ،
فلمطه منهم مما يلي درن وكزولة مما يلي الرمل والقفز . ولما تغلب المعقل على بسائطه
اقتسموها مواطن ، فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن . وصارت قبائل لمطة من
أحلافهم ، وصارت كزولة من أحلاف ذوي حسن . والأمر على ذلك لهذا العهد ،
ويبد الله تصارييف الأمور ، لا رب سواه ، ولا معبود إلا إياه .

علي

عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن بدر من بني باداسن

* (الخبر عن دولة بني حفص ملوك افريقية من الموحدين ومبدأ أمرهم وتصارييف أحوالهم) *

قد قدّمنا أنّ قبائل المصامدة بجبل درن وما حوله كثير مثل : هنتاتة وتينملل وهرغه
وكنفيسة وسكسيوة وكدميوة وهزرجة ووريكة وهزميرة وركراكة وحاحة وبني ماغوس
وكلالوة وغيرهم ممن لا يحصى . وكان منهم قبل الإسلام وبعده رؤساء وملوك . وهنتاتة
هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعاً وأشدّها قوّة ، وهم السابقون للقيام بدعوة
المهديّ والممهّدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده ، كما ذكرنا في أخباره . وإسم
هنتات جدّهم بلسان المصامدة حتى كان كبيرهم لعهد الإمام المهديّ الشيخ أبو
حفص عمر بن يحيى ، ونقل البيدق أنّ إسمه بلسانهم فارصكات ^(٢) .

وهنتاتة لهذا العهد تقول إنه إسم جدّهم ، وكان عظيماً فيهم متبوع غير مذافع ، وهو
أول من بايع الإمام المهدي من قومه ، فجاء يوسف بن وانودين وأبو يحيى بن بكيت

(١) وفي نسخة أخرى : وأرض السوس بمحالات لكزولة ولمطة .

(٢) وفي نسخة أخرى : فاصكات .

وابن يغمور وغيرهم منهم على أثره . واختص بصحابة المهديّ فانتظم في العشرة السابقين إلى دعوته . وكان تلو عبد المؤمن فيهم ، ولم تكن مزية عبد المؤمن عليه إلا من حيث صحابة المهدي .

وأما في المصامدة فكان كبيرهم غير مدافع ، وكان يسمى بين الموحّدين بالشيخ كما كان المهديّ يسمى بالإمام ، وعبد المؤمن بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن واقتن بن محمد ابن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطّاب ، هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحّدين . ويظهر منه أنّ هذا النسب القرشيّ وقع في المصامدة والتحم بهم ، واشتملت عليه عصبية شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم كما قلناه أول الكتاب . ولما هلك الإمام وعهد بأمره إلى عبد المؤمن ، وكان بعيداً عن عصبية المصامدة إلا ما كان له من إثرة المهديّ واختصاصه فكم موت المهدي وعهد عبد المؤمن ابتلاءً لطاعة المصامدة . وتوقّف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين ، ثم قال له أبو حفص نقدّمك كما كان الإمام يقدّمك فعلم أنّ أمره منعقد . ثم أعلن بيعته وأمضى عهد الإمام بتقديمه وحمل المصامدة على طاعته ، فلم يختلف عليه إثنان . وكان الحل والعقد في المهمات إليه سائر أيام عبد المؤمن وابنه يوسف ، واستكفوا به نواب الدعوة فكفاهم همّها . وكان عبد المؤمن يقدّمه في المواقف قبل فيها^(١) . وبعثه على مقدّمته حين زحف إلى المغرب الأوسط قبل فتح مراكش سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وزناة كلّهم مجتمعون بمنداس لحرب الموحّدين مثل بني ومانو وبني عبد الواد وبني ورسيفان وبني توجين وغيرهم ، فحمل زناته على الدعوة بعد أن أنحن فيهم . ولأول دخول عبد المؤمن لمراكش خرج عليه الثائر بماسة ، وانصرفت إليه وجود الغوغاء وانتشرت ضلالته في النواحي وتفاقم أمره ، فدفع لحربه الشيخ أبا حفص فحسم داءه ومحا أثر غوايته .

ولما اعترم عبد المؤمن على الرحلة إلى أفريقية حركته الأولى لم يقدّم شيئاً على استشارة أبي حفص . ولما رجع منها وعهد إلى ابنه محمد خالفه الموحّدون ، ونكروا ولاية ابنه ، فاستدعى أبا حفص من مكانه بالأندلس ، وحمل الموحّدين على البيعة له .

(١) وفي نسخة أخرى : فيجلي فيهم .

وأشار بقتل يصلاتي الهرغي رأس المخالفين في شأنه فقتله ، وتمّ أمر العهد لابنه محمد . ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى أفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة وحركة الثانية لفتح المهديّة استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب ، وينقل من وصاة عبد المؤمن على الرحلة إلى أفريقية لبنيه أنه لم يبق من أصحاب الإمام إلاّ عُمر بن يحيى ويوسف بن سليمان ، فأما عمر فإنه من أوليائكم ، وأما يوسف فجهزه بعسكره إلى الأندلس تستريح منه . وكذلك فافعل بكل من تكرهه من المصامدة . وأما ابن مردنيش فاتركه ما تركك وترّص به ريب المنون ، وأخل أفريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب ، وأدّخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك .

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن تحلف الشيخ أبو حفص عن بيعته ، ووجم الموحدون لتخلفه حتى استنبل غرضه في حكم أمضاه بمقعد سلطانه ، وأعجب بفضلله وأعطاها صفقة يمينه ، وأعلن بالرضا بخلافته فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر ، وتسمّى بأمر المؤمنين سنة ثلاث وستين وخمسمائة . ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن وتحركت الفتنة بمجال غارة وصنهاجة التي تولى كبرها سبع بن منقباد سنة إثنين وستين وخمسمائة عقد للشيخ أبي حفص على حربهم فجلى في ذلك . ثم خرج بنفسه فأثنى فيهم وكمل الفتح كما ذكرناه . ولمّا بلغه سنة أربع وستين وخمسمائة تكالب الطاغية على الأندلس وغدره بمدينة بطليوس ، واعتزم على الإجازة لحمايتها قدم عساكر الموحدين إليها لنظر الشيخ أبي حفص ، ونزل قرطبة وأمر من كان بالأندلس من السادة أن يرجعوا إلى رأيه ، فاستنفذ بطليوس من هذا الحصار . وكانت له في الجهاد هنالك مقامات مشهورة . ولما انصرف من قرطبة إلى الحضرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة هلك عفا الله عنه في طريقه بسلا ودفن بها ، وكان ابنائوه من بعده يتداولون الإمارة بالأندلس والمغرب وأفريقية مع السادة من بني عبد المؤمن ، فولّى المنصور ابنه أبا سعيد على أفريقية لأوّل ولايته ، وكان من خبره مع عبد الكريم المتري بالمهديّة ما ذكرناه في أخباره . واستوزر أبا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد ، وكان في مقدّمته يوم المعركة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فجلى عن المسلمين ، وكان له في ذلك الموقف من النصرة والثبات ما طار له به ذكر . واستشهد في ذلك الموقف ، وعرف أعقاب بني الشهيد آخر الدهر ، وهم لهذا العهد بتونس . ولما نهض الناصر إلى أفريقية سنة إحدى وستائة ، لما بلغه من تغلب ابن غانية على

تونس فاسترجعها ، ثم نازل المهديّة فتعاونت عليه ذئاب الأعراب . وجمعهم ابن غانية ونزل قابس فسرح الناصر ، اليهم أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص في عسكر من الموحدين ، فأوقع بابين غانية بتاجرا من نواحي قابس سنة إثنين وستائة ، وقتل جبارة أخو ابن غانية ، وأثنى فيهم قتلاً وسبياً ، واستبعد منهم السيد أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الوالي كان بتونس ، وأسر ابن غانية ورجع إلى الناصر بمكانه من حصار المهديّة . فكان سبياً في فتحها . وكان ذلك مما حمل الناصر على ولاية الشيخ أبي محمد بأفريقية حسبما يذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن إمارة أبي محمد بن الشيخ أبي حفص
بأفريقية وهي أولية أمرهم بها) *

لما تكالب ابن غانية واتباعه على أفريقية واستولى على أمصارها ، وحاصر تونس وملكها ، وأسر السيد أبا زيد أميرها ، ونهض الناصر من المغرب سنة إحدى وستائة كما ذكرناه فاسترجعها من أيديهم وشردهم عن نواحيها . وخيم على المهديّة يحاصرها ، وقد أنزل ابن غانية ذخيرته وولده بها وأجلب في جموعه خلال ذلك على قابس ، فسرح الناصر إليه الشيخ أبا محمد هذا في عساكر الموحدين . وزحف إليهم بتاجرا من جهات قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم وما كان بأيديهم ، وأثنى فيهم بالقتل والسبي واستنفذ السيد أبا زيد من أسرهم ، ورجع إلى الناصر بمعسكره من حصار المهديّة ظافراً ظاهراً . وعاین أهل المدينة يوم هزمه بالغنائم والأسرى فبهتوا وسقط في أيديهم ، وسألوا التزول على الأمان . وكمل فتح المهديّة ورجع الناصر إلى تونس فأقام بها حوالاً إلى منتصف سنة ثلاث وستائة . وسرح أثناء ذلك أخاه السيد أبا اسحق لیتبع المفسدين ، ويمحو مواقع عيهم ، فدوخ ما وراء طرابلس ، وأثنى في بني دمر ومطاطة ونفوسه ، وشارف أرض سرت وبرقة ، وانتهى إلى سويقة ابن مذكور . وفر ابن غانية إلى صحراء برقة وانقطع خبره . وانكفأ السيد راجعاً إلى تونس . واعتزم الناصر على الرحلة إلى المغرب وقد أفاء على أفريقية ظلّ الرضى^(١) وضرب عليهم

(١) وفي نسخة أخرى : ظل الأمر .

سرادق الحماية . وبدا له أن ابن غانية سيخالفه إليها ، وأن مراکش بعيدة عن الصريح ، وأنه لا بد من رجل يسد فيها مسد الخلافة ، ويقيم بها شئون الملك ، فوقع اختياره على أبي محمد بن الشيخ أبي حفص ، ولم يكن ليعدوه^(١) لما كان عليه هو وأبوه في دولتهم من الجلالة ، وأن أمر بني عبد المؤمن إنما تم بوافق الشيخ أبي حفص ومظاهرتهم ، وأن أباه المنصور كان قد أوصى الشيخ أبا محمد به وبإخوته . وكان يوليّه صلاة الصبح إذا حضره شغل وأمثال ذلك .

وسار الخبر بذلك إلى أبي محمد^(٢) فامتنع ، وشافهه الناصربه فاعتذر ، فبعث إليه ابنه يوسف فأكرم موصله . وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات أفريقية في ثلاث سنين ، وأن يختار عليهم من رجالات الموحدين وأن لا يتعقب عليه في تولية ولا عزل ، فقبل شرطه ونودي في الناس بولايته ، ورفعت بين الموحدين رايته . وارتحل الناصر إلى المغرب ورجع عنه الشيخ أبو محمد من بجاية^(٣) ففقد مقعد الإمارة بقصبة تونس في السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمئة ، وأنفذ أوامره ، واستكتب أبا عبدالله محمد بن أحمد بن نجيل ورجع ابن غانية إلى نواحي طرابلس ، فجمع أحزابه واتباعه من العرب من سُلَيم وهلال .

وكان فيهم محمد بن مسعود في قومه من الزواودة ، وعادوا عيشتهم ، وخرج إليهم أبو محمد سنة أربع وستمئة في عساكر الموحدين . وتحيز إليه بنو عوف من سُلَيم وهم مِرْدَاس وعلاق فلقبهم بشير^(٤) فتواقعوا واحتربوا عامة يومهم ، ونزل الصبر . ثم انفض عسكر ابن غانية آخر النهار واتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم ، وأفلت ابن غانية جريحاً إلى أقصى مفرّة ورجع أبو محمد إلى تونس بالظفر والغنيمة . وخطب الناصر بالفتح واستنجاز وعده في التحول عن الولاية فخطبه بالشكر والعذر بمهمات المغرب عن إدالته ، وأنه يستأنف النظر في ذلك . وبعث إليه بالمال والخيول والكسي للانفاق والعطاء . كان مبلغها مائة ألف ألف^(٥) دينار إثنان وألف وثمانمئة كسوة ، وثلثمائة سيف ، ومائة فرس ، غير ما كان أنفذ إليه من سبته وبجاية ، ووعدّه

(١) وفي نسخة أخرى : ليعدوه .

(٢) وفي النسخة الباريسية : أبي عمرو .

(٣) وفي نسخة أخرى : باجة .

(٤) وفي نسخة أخرى : شبرو .

(٥) وفي نسخة أخرى : مائتا ألف دينار .

بالزيادة . وكان تاريخ الكتب سنة خمس وستائة فاستمر أبو محمد على شأنه وترادفت الوقائع بينه وبين يحيى الميورقي كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (وقبعة تاهرت وما كان من أبي محمد في تلافيتها واستنفاذ غنائمها) *

كان يحيى بن غانية لما أفلت من وقبعة أشير^(١) بداله ليقصدن بلاد زناته بنواحي تلمسان ، وقارن ذلك وصول الشيخ أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن والياً عليها من مراکش ، وخروجه إلى بلاد زناته لتمهيد أنحاثهم وجباية مغارمهم . وكتب إليه الشيخ أبو محمد نذيراً بشأنه ، وأن لا يعرض له وأنه في اتباعه فأبى من ذلك ، وارتحل إلى تاهرت وصبحه بها ابن غانية فأنقض معسكره . وفرت زناته إلى حصن بها ، وقتل السيد أبو عمران . واستبيحت تاهرت ، فكان آخر العهد بعمرانها ، وامتلات أيديهم من الغنائم والسبي ، وانقلبوا إلى أفريقية فاعترضه الشيخ أبو محمد في موضع^(٢) فأوقع بهم واستنفذ الأسرى من أيديهم ، واكتسح سائر مغائهم ، وقتل فيها كثير من المثلثين ولحق فلهم بناحية طرابلس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (واقعة نفوسة ومهلك العرب والمثلثين بها) *

كان ابن غانية بعد واقعة أشير واستنفاذ^(٣) أبي محمد تاهرت من يده خلص إلى جهة طرابلس ، وتلاحق به فل المثلثين وأولياؤه من العرب . وكان الجلي معه في مواقف الزواودة^(٤) من رياح ، وكبيرهم محمد بن مسعود فتدامروا واعتزموا على معاودة الحرب ، وتعاقدوا على الثبات والصبر ، وانطلقوا يستألفون الأعراب من كل ناحية ،

(١) وفي نسخة أخرى : شبرو .

(٢) بياض بالاصل ولم نستطع تحديد المكان في المراجع التي بين أيدينا

(٣) وفي نسخة أخرى : واستفتاح .

(٤) وفي نسخة أخرى : في مواقف الدواودة .

حتى اجتمع إليهم من ذلك أمم كان فيهم رياح ورغب والشريد وعوف ودباب ونغات . واحتفلوا في الاحتشاد وأجمعوا دخول أفريقية ، فبادرهم أبو محمد قبل وصولهم إليه . وخرج من تونس سنة ست وستائة وأغذ السير إليهم ، وتراحفوا عند جبل نفوسة ، واشتدت الحرب ، ولما حمي الوطيس ضرب أبو محمد أبنيته وفسطاطه ، وتحيزا إليه بعض الفرق من بني عوف بن سُلَيْم واختل مصاف ابن غانية واتبعة الموحدون إلى أن دخل في غيابات الليل وامتلأت أيديهم بالأسرى والغنائم ، وسيقت طعائن العرب . وقد كانوا قدّموها بين أيديهم للحفيظة أفذاذاً في الكرّ والفرّ ، فأصبحت مغنماً للموحدين وربات خدورها سبياً .

وهلك في المعركة خلق من الملتئمين وزناتة والعرب ، وكان فيهم عبدالله بن محمد بن مسعود البليط بن سلطان شيخ الزواودة ، وابن عمه حركات بن الشيخ بن عساكر ابن السلطان^(١) وشيخ بني قرّة وجرار بن ويفرن كبير مغزاوة ومحمد بن الغازي بن غانية في آخرين من أمثالهم . وانصرف ابن غانية مهيبض الجناح مفلول الحدّ عفوّاً باليأس من جميع جهاته ، وانقلب أبو محمد والموحدون أعزّةً ظاهرين ، واستفحل أمر أبي محمد بأفريقية وحسم علل الفساد واستوفى جبايتها وطالت مواقف حروبه ، ولم تهزم له راية . وهلك الناصر وولي ابنه يوسف المستنصر واستبدّ عليه المشيخة لمكان صغره ، وشغلوا بفتنة بني مَرِين وظهورهم بالمغرب ، فاستكفى بالشيخ أبي محمد في أفريقية وعوّل على غنائه فيها ، وضبطه لأحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على أعمالها ، وسرّب إليه الأموال لنفقاتها وأعطياتها ، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستائة والله أعلم .

* (الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد بن الشيخ أبي حفص
وولاية عبد الرحمن ابنه) *

كانت وفاة الشيخ أبي محمد فاتح سنة ثمان عشرة وستائة ولما هلك ارتاع الناس لمهلكه ، وافترق أمر الموحدون في الشورى فريقين بين عبد الرحمن بن الشيخ أبي

(١) وفي نسخة أخرى : حركات بن أبي شيخ بن عساكر بن سلطان .

محمد وإبراهيم ابن عمّه اسمعيل بن الشيخ أبي حفص ، فتردّدا ملياً ثم اتفقوا على الأمير أبي زيد عبد الرحمن ابنه . وأعطوه صفقة إيمانهم . وأقعدوه بمجلس أبيه في الإمارة ، فسكن الثائرة وشمّر للقيام بالأمر عزائمهم . وأفاض العطاء وأجاز الشعراء ، واستكتب أبا عبدالله ابن أبي الحسن ، وخاطب المستنصر بالشأن . وخرج في عساكره لتمهيد النواحي وحماية الجوانب إلى أن وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته حسبما ذكره فارتحل إلى المغرب ومعه إخوانه وكتبه ابن أبي الحسين ولحق بالحضرة .

* (الخبر عن ولاية السيد أبي العلا على إفريقية وابنه أبي

زيد من

بعده وأخبارهم فيها واعتراضهم في الدولة الحفصية) *

لما بلغ الخبر إلى مراکش بمهلك أبي محمد بن أبي حفص ، وقارن ذلك عزله السيد أبي العلا من أشيلية ، ووصله إلى الحضرة مسخوطاً : وهو أبو العلا إدريس بن يوسف عبد المؤمن أخو يعقوب المنصور ، وعبد الواحد المخلوع المباع له بعد ذلك . وعوّل على الوزير ابن المثني في جبر حاله ، فسعى له عند الخليفة ، وعقد له على إفريقية . ووصل الخطاب بولايته ونيابة إبراهيم بن اسمعيل بن الشيخ أبي حفص عنه خلال ما يصل ، واستقدّام أبناء الشيخ أبي محمد إلى الحضرة . وقرئ الكتاب شهر ربيع الأول من سنة ثمان مائة وستة ، فقام الشيخ بالنيابة في أمره ، واستعمل أحمد المشطب في وزارته ، وغلب عليه بطانته ، وأساء في الموالاتة لقربائه . واختصّ أبناء الشيخ أبا محمد بقييحة ، وظنّ امتداد الدولة له . ووصل السيد أبو العلا شهر ذي القعدة من السنة ، فترل بالقصبة^(١) ونزل ابنه السيد أبا زيد بقصر ابن فاخر من البلد ، ورتّب الأمور ونهج السنن .

ولشهر من وصوله تقبّض علي محمد بن نخيل كاتب الشيخ أبي محمد ، وعلى أخويه

(١) هي قصبة تونس كما في قبائل المغرب ص ١٦٠

أبي بكر ويحيى ، واستصفى أموالهم واحتاز عقارهم وضياعهم . وكان المستنصر عهد إليه بذلك ، لما كان أسفه بفلات من القول والكتاب تنمى إليه أيام رياسته في خدمة أبي محمد ، فاعتقلهم السيد أبو العلا ، ثم قتله وأخاه يحيى لشهر من اعتقالها بعد أن قر من سجنه وتقبض فقتل . ونقل أبو بكر إلى مطبق المهديّة فأردع به (١) .

وخرج السيد أبو العلا من تونس سنة تسع عشرة وستمائة في عساكر الموحدين إلى نواحي قابس لقطع أسباب ابن غانية منها ، فترل قصر العروسين ، وسرح ولده السيد أبا زيد في عسكر من الموحدين إلى درج وغدامس من بلاد الصحراء لتمهيدها وجبايتها . وقدّم بين يده عسكراً آخراً لمنازلة ابن غانية بوذّان ، وواعدهم هناك منصرفة من غدامس فأرجف بهم العرب في طريقهم بمداخلة ابن غانية . ومال بذله في ذلك فانفضّ العسكر ، وزحفوا إلى قابس . وأهل السيد أبو زيد في غدامس إليهم فلقية خبر مفرهم . فلحق بأبيه وأخبره بالحلّى في أمرهم ، فسخط قائد العسكر وهم بقتله . وطرق السيد أبا العلا المرض فرجع إلى تونس . وبلغه أن ابن غانية نهض من وُدّان إلى الزاب ، وأن أهل بسكرة أطاعوه ، فسرح السيد أبا زيد في عساكر الموحدين إليه ، ودخل ابن غانية الرمل فأعجزهم .

ورجع السيد أبو زيد إلى بسكرة فأثرل بهم عقابه من النهب والتخريب ، ورجع إلى تونس . ثم بلغه أن ابن غانية قد رجع إلى جوانب أفريقية ، واجتمع إليه أخلاط من العرب والبربر ، فسرح السيد أبا زيد إليه في العساكر ونزل بالقيروان ، وخالفه ابن غانية إلى تونس فقصده السيد أبو زيد ومعه العرب وهوارة بطعائهم ومواشيهم . وتراحفوا بمجدول فاتح إحدى وعشرين وستمائة ، واشتدّ القتال وعصّت الموحدون الحرب ، وأبلى هوارة وشيوخهم بكرة بن حناش بلاء جميلاً . وضرب ابتيه وتناغوا في الثبات والصبر فانهزم المثلثون وانجلت المعركة عن حصيد من القتلى من أصحاب ابن غانية ، واستولى الموحدون على معسكرهم .

وكان بلغ السيد أبا زيد خبر مهلك أبيه السيد أبي العلا بتونس في شعبان سنة عشرين وستمائة . فلما فرغ من واقعة ابن غانية رجع إلى تونس واقصر عن متابعتها . وخاطب المستنصر بمهلك أبيه وواقعة المثلثين ، وكان المستنصر قد عزله واستبدل منه بأبي

(١) كذا بالأصل ، والاصح : فردع به بمعنى : صرع .

يحيى بن أبي عمران التَّيْنَمَلِّي صاحب مَيُورَقَّة ، ولم يصل إليه الخبر بعزله بعد .
وهلك الملك المستنصر إثر ذلك سنة عشرين وستمائة ، وولي عبد الواحد المخلوع بن
يوسف بن عبد المؤمن فنقض تلك العقدة ، وكتب إلى السيد أبي زيد بالإبقاء على
عمله ، ونقض ما أصدر المستنصر من عزله ، فأرسل عنانه في الولاية ، وبسط يده
في الناس بمكروهه ، وتكررت له الوجوه ، وانحرف عنه الناس ، بما كانوا عليه من
الصاغة لأبي محمد بن أبي حفص وولده ، إلى أن عزل واستبدل بهم كما ذكره ،
وركب البحر بذخائره وأهله فلحق بالحضرة .

* (الخبر عن ولاية أبي محمد عبدالله بن أبي محمد بن الشيخ
أبي حفص وما كان فيها من الأحداث) *

لما هلك المخلوع وولي العادل ، ولّى على أفريقية أبا محمد عبدالله بن أبي محمد عبد
الواحد . وولّى على بجاية يحيى بن الأَطَّاس التَّيْنَمَلِّي ، وعزل عنها ابن يغمور .
وكتب إلى السيد أبي زيد بالقدوم . وكتب أبو محمد عبدالله إلى ابن عمه موسى بن
ابراهيم بن الشيخ أبي حفص بالنيابة عنه خلال ما يصل ، فخرج السيد أبو زيد في
ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، واستقل أبو عمران موسى بأمر أفريقية ،
واستمرت نيابته عليها زهاء ثمانية اشهر . وخرج أبو محمد عبدالله من مراكش إلى
أفريقية .

ولما انتهى إلى بجاية قدّم بين يديه أخاه الأمير أبا زكريّا ليعترضه طبقات الناس للقائه ،
فوصل إلى تونس في شعبان من هذه السنة بعد أن أوقع في طريقه بولهاصة . وكان
أولاد شدّاد رؤسائهم قد جمعوا لاعتراضه بناحية بونة ، فسرح أخاه الأمير أبا زكريّا
لحسم دائهم ولخروج الطبقات من أهل الحضرة للقائه فكان كذلك . وخرج في
رمضان من سته ، وخرج معه الناس على طبقاتهم فلقوه بسطيف ، ووصل إلى
الحضرة في ذي القعدة من آخر السنة ، وتزحزح أبو عمران عن النيابة . ثم لحقه من
المغرب أخوه أبو ابراهيم في صفر سنة أربع وعشرين وستمائة ، فعقد له على بلاد
قسطيلية وعقد لأخيه الأمير أبي زكريا على قابس وما إليها ، وذلك في جمادي من

هذه السنة .

وبعد استقراره بتونس بلغه أن ابن غانية دخل بجاية عَنوةً ، ثم تخطى كذلك إلى تدلس ، وأنه عاث في تلك الجهات فرحل من تونس وعقد لأخويه كما ذكرناه . وأغذ السير إلى فحص أبة فصبح به هواره ، وقد كان بلغه عنهم السعي في الفساد ، فأطلق فيهم أيدي عسكره ، واعتقل مشايخهم وأنفذهم إلى المهديّة . ثم مرّ في اتباع ابن غانية ، فأنهى إلى بجاية ، وسكن أحوالها ، ثم إلى متيجة ومليانة فأدركه الخبر أن ابن غانية قصد سِجلماسة فانكفاً راجعاً إلى تونس ، ودخلها في رمضان سنة أربع وعشرين وستائة ، ولم يزل مستبداً بإمارته إلى أن ثار عليه الأمير أبو زكريا ، وغلبه على الأمر كما نذكر .

* (الخبر عن ولاية الامير أبي زكريا ممهد الدولة لآل أبي حفص

بافريقية ورافع الراية لهم بالملك واولية ذلك وبدايته) *

لما قتل العادل بمراكش سنة أربع وعشرين وستائة ، وبويع المأمون بالأندلس بعث إلى أبي محمد عبدالله بتونس ليأخذ له البيعة على من بها من الموحدين . وكان المأمون قد فتح أمره بالخلاف ، ودعا لنفسه قبل موت أخيه العادل بأيام ، فامتنع أبو محمد وردّ رسله إليه ، فكتب بذلك لأخيه الأمير أبي زكريا وهو بمكانه من ولاية قابس . وعقد له على أفريقية فأخذ له البيعة على من إليه ، ودخله في شأنها ابن مكّي كبير المشيخة بقابس . واتصل ذلك بأبي محمد فخرج من تونس إليهم . ولما انتهى إلى القيروان نكر عليه الموحدون نهوضه إلى حرب أخيه ، وانتقضوا عليه وعزلوه . وطير بالخبر إلى أخيه في وفد منهم فالقوه معملًا في اللحاق برحاب بن محمد^(١) وأعراب طرابلس ، فبايعوه ووصلوا به إلى معسكرهم . وخلع أبو محمد نفسه ، ثم ارتحل الأمير أبو زكريا إلى تونس فدخلها في رجب من سنة خمس وعشرين [وستائة] ، وأنزل أخاه

(١) وفي مكان آخر : رحاب بن محمود وهو أمير دباب .

أبا محمد بقصر ابن فاخر ، وتقَبَّضَ على كاتبه أبي عمرو طرا من الأندلس . واستكتبه أبو محمد فغلب على هواه ، وكان يغريه بأخيه ، فبسط الأمير أبو زكريا عليه العذاب إلى أن هلك . ثم بعث أخاه أبا محمد في البحر إلى المغرب فاستبدَّ بملكه ، واستوزر ميمون بن موسى الهنتاتي ، واستقامت أموره .

* (الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن) *

لما اتصل به ما آتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش ، وخصوصاً هتاتة وتينملل . وكان منهم أخواه أبو محمد عبدالله المخلوع وإبراهيم ، وأنه أشاع النكير على المهدي في العصمة ، وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربري ، وإحداث النداء للصبح وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سننه . وأنه غيَّر رسوم الدعوة ، وبدَّل أصول الدولة . وأسقط إسم الإمام من الخطبة والسكَّة وأعلن بلعنه . ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتولية المأمون فصرفهم ، وأعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستائة . وحوَّل الدعوة إلى يحيى ابن أخيه الناصر المتري عليه يجبال المساكرة . ثم اتصل به بعد ذلك عجز يحيى واستقلاله ، فأغفله واقتصر على ذكر الإمام المهدي ، وتلقَّب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته . ثم جدَّد البيعة لنفسه سنة أربع وثلاثين وستائة ، وثبت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصرأ على لفظ الأمير ، لم يجاوزه إلى أمير المؤمنين . وخاض أولياء دولته في ذلك حتى رفع إليه بعض شعرائه في مفتتح كلمة مدحه بها :

الأصل بالأمير المؤمنين فأنت بها أحق العالمينا
فرحزهم عن ذلك وأبي عنه ، ولم يزل على ذلك إلى آخر دولته .

* (الخبر عن فتح بجاية وقسنطينة) *

لما استقلَّ الأمير أبو زكريا بالأمر بتونس ، وخلع بني عبد المؤمن ، نهض إلى قُسْطِنَية

سنة ست وعشرين وستائة ، فترل بساحتها وحاصرها أياماً . ثم داخله ابن غلّاس في شأنها وأمكته من غرّتها فدخلها ، وتقبّض على واليها السيد^(١) ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري . وولّى عليها ابن النعمان . ورحل إلى بجاية فافتتحها ، وتقبّض على واليها السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني وصيرهما معتقلين في البحر إلى المهديّة . وأجريت عليهما هنالك الأرزاق ، وبعث بأهلها وولدهما مع ابن أوماز^(٢) إلى الأندلس ، فترلوا بأشبيلية . وبعث معها إلى المهديّة في الاعتقال محمد بن جامع وابنه وابن أخيه جابر بن عون بن جامع من شيوخ مرداس عوف ، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الدواودة ، فاعتقلوا بمطبق المهديّة وكان أخوه أبو عبد الله اللحياني صاحب أشغال بجاية فصار في جملته ، وولاه بعدها الولايات الجليلة ، وكان يستخلفه بتونس في مغيبه . وفي هذه السنة تقبّض على وزيره ميمون بن موسى واستصفى أمواله ، وأشخصه إلى قابس فاعتقل بها مدة . ثم غرّبه إلى الإسكندريّة ، واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبي العلا بن جامع ، إلى أن هلك ؛ فاستوزر بعده أبا زيد ابن أخيه الآخر محمد إلى أن هلك .

* (الخبر عن مهلك ابن غانية وحرّكة السلطان الى بجاية
وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها) *

لما استقل الأمير أبو زكريا بأفريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن صرف عزمه أولاً إلى مدافعة يحيى بن غانية عن نواحي أعماله ، فكانت له في ذلك مقامات مذكورة ، وشرّده عن جهات طرابلس والزاب وواركلا . واختطّ بواركلا المسجد لما نزلها في أتباعه ، وأنزل بالأطراف عساكره وعمّاله لمنعها دونه . ولم يزل ابن غانية وأتباعه من العرب من أفريق سلّيم وهلال وغيرهم على حالهم من التشريد والجلّاء ، إلى أن هلك سنة إحدى وثلاثين وستاية ، وانقطع عقبه فانقطع ذكره ، ومحا الله آثار فتته من الأرض . واستقام أمر الدولة ونبضت منها عروق الاستيلاء واتساع نطاق الملك .

(١) كذا بياض بالأصل ، ولم نعث في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذا السيد .

(٢) كذا ، وفي ب : أومازير .

ونَهَضت عِزَّاهُ إِلَى تَدْوِيخِ أَرْضِ الْمَغْرِبِ فَخَرَجَ مِنْ تُونِسَ سَنَةَ إِثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَمَاءَةَ
يَوْمَ بِلَادِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ . وَأَعَدَّ السَّيْرَ إِلَى بَجَايَةِ قَتْلُومَ بِهَا . ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى الْجَزَائِرِ
فَافْتَتَحَهَا وَوَلَّى عَلَيْهَا . ثُمَّ نَهَضَ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ مِغْرَاوَةَ فَأَطَاعَهُ بَنُو مَنَدِيلَ بْنِ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ . وَجَاهِرَ بَنُو تَوْجِينَ بِخِلَافِهِ ، فَتَزَلَّ الْبَطْحَاءُ وَأَوْقَعَ بِهِمْ . وَتَقَبَّضَ عَلَى
رَأْسِهِمْ عَبْدُ الْقَوِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ فَاعْتَقَلَهُ ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى تُونِسَ وَدَوَّخَ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ
وَقَفَلَ رَاجِعاً إِلَى حَضْرَتِهِ . وَعَقَدَ مَرْجِعَهُ مِنَ الْمَغْرِبِ لِابْنِهِ الْأَمِيرِ أَبِي يَحْيَى زَكْرِيَا عَلَى
بَجَايَةِ وَأَنْزَلَهُ بِهَا . وَاسْتَوَزَرَ لَهُ يَحْيَى بْنُ صَالِحِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْهَنْتَاتِيَّ وَجَعَلَ شَوَارَهُ
لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي تَهْدَى ، وَجَبَايَتَهُ لِعَبْدِ الْحَقِّ بْنِ يَاسِينَ ، وَكَلَّمَهُمْ مِنْ هَنْتَاتِهِ . وَكُتِبَ
إِلَيْهِ بِوَصِيَّتِهِ مُشْتَمِلَةً عَلَى جَوَامِعِ الْخِلَالِ فِي الدِّينِ وَالْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ ، يَجِبُ إِثْبَاتُهَا
لشَرَفِ مَغْزَاهَا وَغَرَابَةِ مَعْنَاهَا وَيَأْتِي نَصُّهَا فِيهَا بَعْدَ .

* (الْخَبَرُ عَنْ سَطْوَةِ السُّلْطَانِ بِهَوَارَةِ) *

كَانَ لِهَوَارَةِ هَؤُلَاءِ بِأَفْرِيْقِيَّةِ ظُهُورٌ وَعَدَدٌ مِنْذَ عَهْدِ الْفَتْحِ ، وَكَانَتْ دَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ قَدْ
جَرَتْ عَلَيْهِمْ بِكُلِّكُلِهَا لَمَّا كَانَ مِنْهُمْ فِي فِتْنَةِ أَبِي يَزِيدَ كَمَا نَذَرَهُ فِي أَخْبَارِهِمْ . وَبَقِيَ
مِنْهُمْ قَلٌّ بِجَبَلِ أَوْرَاسَ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ بِلَادِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَبَسَائِطِهَا إِلَى آبَةِ وَمَرَّ مَاجَنَّةً وَسُيَّيَّةً
وَتَبَرَسَقَ . وَلَمَّا انْقَرَضَ مَلِكُ صِنَهَاجَةَ بِالْمُوَحِّدِينَ وَتَغَلَّبَ الْأَعْرَابُ مِنْ هِلَالٍ وَسَلِّمَ عَلَى
سَائِرِ النَّوَاحِي بِأَفْرِيْقِيَّةِ ، وَكَثُرُوا سَاكِنَهَا ، وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِمْ أَخَذَ هَذَا الْقَلُّ بِمَذْهَبِ
الْعَرَبِ وَشَعَارِهِمْ وَشَارْتَهُمْ فِي اللَّبُوسِ وَالزِّيِّ وَالظُّعُونِ وَسَائِرِ الْعَوَائِدِ . وَهَجَرُوا لُغَتَهُمْ
الْعَجْمِيَّةَ إِلَى لُغَتِهِمْ ، ثُمَّ نَسَوْهَا كَأَن لَمْ تَكُنْ لَهُمْ ، شَأْنُ الْمَغْلُوبِ فِي الْاِقْتِدَاءِ بِغَالِبِهِ . ثُمَّ
كَانَ لَهُمْ انْخِيَاشٌ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ إِلَى الطَّاعَةِ بِغَلْبِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَقَوْمِهِ . فَلَمَّا اسْتَبَدَّ الْأَمِيرُ أَبُو
زَكْرِيَا ، وَانْقَلَبَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى بَنِي أَبِي حَفْصَ ظَهَرَ مِنْهُمْ التِّيَاشُ فِي الطَّاعَةِ ، وَامْتَنَاعُ
عَنِ الْمَغْرَمِ ، وَأَضْرَارُ بِالسَّابِلَةِ ، فَاعْتَمَلَ السُّلْطَانُ فِي أَمْرِهِمْ . وَخَرَجَ مِنْ تُونِسَ سَنَةَ
سِتِّ وَثَلَاثِينَ وَسَمَاءَةَ مُورِياً بِالْغَزْوِ إِلَى أَهْلِ أَوْرَاسَ ، وَبَعَثَ فِي احْتِشَادِهِمْ فَتَوَافَدُوا فِي
مَعْسِكَرِهِ . ثُمَّ صَبَحَهُمْ فِي عَسْكَرِهِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْعَرَبِ فَفَتَكَ بِهِمْ قَتْلًا وَسِيَّيًّا ،
وَكَتَسَحَ أَمْوَالَهُمْ وَقَتَلَ كَبِيرَهُمْ أَبُو الطَّيِّبِ بَعْرَةَ بْنَ حَنَاشٍ وَأَفْلَتَ مِنْ أَفْلَتِ مِنْهُمْ نَاجِيًا

بنفسه ، عارياً من كسبه ، فَأَلَانَتْ هذه البطشة من حدّهم وخضّدت من شوكتهم ، واستقاموا على الطاعة بعد .

* (الخبر عن ثورة الهرغي بطرابلس ومنال أمره) *

كان هذا الرجل من مشيخة الموحّدين وهو يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي ويكنّى بأبي عبد الرحمن ، وكان الأمير أبو زكرياء وقد عقد له على طرابلس وجهاتها ، وسرّح معه عسكرياً من الموحّدين من أعراب دباب من بني سلّيم ، فقام بأمرها واضطلع بجباية رعاياها . واستخدم العرب والبربر الذين بساحتها وكان بينه وبين الجواهري مصدوقة ود . فلما قتل الجواهري سنة تسع وثلاثين وستائة كما قدّمناه استوحش لها يعقوب الهرغي واستقدمه السلطان فتلكأ ، وبعث عنه أخاه ابن أبي يعقوب فازداد نفاره ، وحدّثه نفسه بالاستبداد لما كان أثرى من الجباية وشعر لها أهل البلد . فانطلقوا وهم يتخافون أن يعاجلوه قبل مداخلته العرب في أمره ، فتقبّضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعها ليلة أجمعوا الثورة في صباحها . وطّروا بالخبر إلى الحضرة فنفذ الأمر بقتلهم فقتلوا ، وبعث برؤوسهم إلى باب السلطان ، ونصبت أشلائهم بأسوار طرابلس ، وأصبحوا عبرة للمعتبرين وأنشد الشعراء في التهنية بهم وقامت للبشائر سوق لكائناتهم .

وكان ممن قتل معه محمد ابن قاضي القضاة بمزراكش أبي عمران بن عمران . وصل علقاً^(١) إلى تونس وقصد طرابلس فاتصل بهذا الهرغي ، ونمي عنه أنه أنشأ خطبة ليوم البيعة فكانت سائقة حتفه . وكان بالمهدية رجل من الدعاة يعرف بأبي حمراء^(٢) اشتهر بالنجدة في غزو البحر ، وقدّم على الأسطول فردّد الغزو حتى هابه الغزى من أمم الكفر ، وأمنت سواحل المسلمين من طروقهم . وطار له فيها ذكر ونمي أنه كان مداخلاً للجواهري والهرغي ، وأن القاضي بالمهدية أبا زكرياء البرقي اطلع على دسيستهم في ذلك ، فنفذ الأمر السلطاني للوالي بها أبي علي بن أبي موسى بن أبي

(١) كذا ، ولا معنى لها ، وفي ب : غلقاً بمعنى : غضبان .

(٢) كذا ، وفي ب : ابن أبي الأحمر .

حفص بقتل ابن أبي الأحمر ، وإشخاص القاضي إلى الحضرة معتقلاً ، فأمضى عهده . ولما وصل البرقي إلى تونس فحفص السلطان عن شأنه فبرىء من مداخلتهم ، فسرحه وأعادته إلى بلده . وقتل بالحضرة رجل آخر من الجند أتهم بمداخلتهم وسعايته في قيامهم ، وكان له تعلّق برحاب بن محمود أمير دباب ، فأوعز السلطان إلى بعض الدّعار من زناته ، فقتله غيلة ثم أهدر دمه . وتتبّع أهل هذه الخائنة بالقتل حتى حسم الداء ، ومحا شوائب الفتنة .

* (الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق الأندلس ووفدهم) *

لما استقلّ أبو جميل زيّان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج بن سعد بن مردنيش بملك بلنسية ، وغلب عليها السيّد أبا زيد بن السيد أبي حفص ، وذلك عند خمود ريع بني عبد المؤمن بالأندلس . وخروج ابن هود على المأمون ، ثم فتته هومع ابن هود ، وثورة ابن الأحمر بأرجونة . واضطراب الأندلس بالفتنة . وأسف الطاغية إلى ثغور الأندلس من كل جانب . وزحف ملك أرغون إلى بلنسية فحاصرها ، وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين وستائة سبع محلات لحصار المسلمين : إثنان منها على بلنسية ، وجزيرة شقر وشاطبة . ومحلة بجيان ومحلة بطيرة ومحلة بمرسية ومحلة بلبله ، وأهل جنوة من وراء ذلك على سبّة .

ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قرطبة ، وظفر طاغية أرغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة ، وبنى حصن أنيسة لحصار بلنسية . وأنزل بها عسكره وانصرف . فاعتزم زيّان بن مردنيش على غزو من بقي بها من عسكره ، واستنفر أهل شاطبة وشقر وزحف إليهم فانكشف المسلمون ، وأصيب كثير منهم . واستشهد أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالأندلس ، وكان يوماً عظيماً . وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً . ثم ترددت عليها سرايا العدو . ثم زحف إليها طاغية أرغون في رمضان سنة خمس وثلاثين وستائة فحاصرها واستبلى في نكايتها . وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم ، وظهر أمر بني أبي حفص بأفريقية ، فأمل ابن مردنيش وأهل شرق

الأندلس الأمير أبا زكرياء للكرّة ، وبعثوا إليه بيعتهم ، وأوفد عليه ابن مردنیش كاتبه
الفقيه أبا عبدالله بن الأبار صريحاً ، فوفد وأدّى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة ،
وأُنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين ، يستصرخه فيها للمسلمين وهي
هذه :

أَذْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ
عَاشَ مَا تُعَانِيهِ حُشَاشَتَهَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْراً
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ إِلَامٌ بَائِقَةٍ
وَكُلِّ غَارِبَةٍ إِجْحَافٌ نَائِبَةٍ
نَقَاسِمُ الرُّومِ لَا نَالَتْ مَقَاسِمُهُمْ
وَفِي بَلَنَسِيَّةٍ مِنْهَا وَقُرْطُبَةٍ
مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاقُ مُبْتَسِمًا
وَصَيَّرَتْهَا الْعَوَادِي عَائِثَاتٍ بِهَا
مَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعِدَى يَبْعًا
لَهْفًا عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِتِهَا
وَأَرْبَعًا غَنِمَتْ أَيْدِي الرِّبْعِ بِهَا
كَانَتْ حَدَائِقُ لِلْأَحْدَاقِ مَوْفَقَةً
وَحَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنْظَرٍ عَجَبٍ
سِرْعَانِ مَا عَاثَ جَيْشُ الْكُفْرِ وَاحْرَبَا
وَابْتَزَّ بَزْزَتَهُمَا مَا تَحَيَّفَهُمَا

إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دُرْسًا
فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسًا
فَطَالَمَا ذَاقَتْ الْبَلْوَى صَبَاحَ مَسَا
لِلنَّائِبَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسَا
يَعُودُ مَأْتَمُهَا عِنْدَ الْعَدَا عُرْسًا
تُثْنِي الْأَمَانَ حِذَارًا وَالسُّرُورَ أَسَا
إِلَّا عَقَائِلُهَا الْمَحْجُوبَةَ الْأُنْسَا
مَا يُذْهَبُ النَّفْسَ أَوْ مَا يُتْرَفُ النَّفْسَا
جَذْلَانِ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانُ مُنْيَسَا
يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا أُنْسَا
وَلِلنَّدَاءِ يُرَى أَثْنَاءَهَا جَرَسَا
مَدَارِسًا لِلْمُثَانِي أَصْبَحَتْ دُرْسَا
مَا شِئْتَ مِنْ خِلْعٍ مُوشِيَةٍ وَكِسَا
فَصَوَّحَ النَّصْرُ مِنْ أَدْوَا حَهَا وَعَسَا
يَسْتَوْقِفُ الرِّكْبَ أَوْ يَسْتَرْكِبُ الْجُلُسَا
عَيْثُ الدَّبَا فِي مَغَانِيهَا الَّتِي كَبَسَا^(١)
تَحْيِفُ الْأَسَدِ الضَّارِي لَمَّا افْتَرَسَا^(٢)

(١) وفي نسخة أخرى : سرعان ما عاد جيش الكفر محتربا

بعث الربا في مغانيها الذي كبسا

(٢) وفي نسخة أخرى : وابتر بزتها تحيف خائف الأسد

الضاريات بها لكل ما افترسا

فَأَيْنَ عَيْشٍ جَنِينَاهُ بِهَا خَضِرًا^(١)
 حَا حَاسِنَهَا طَاغٍ اتَّبَحَ لَهَا
 وَرَجَّ^(٢) أَرْجَاءَهَا لَمَّا أَحَاطَ بِهَا
 خَلَا لَهُ الْجَوُّ وَامْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى
 وَأَكْثَرَ الزَّعْمَ بِالتَّثْلِيثِ مُنْفَرِدًا
 صِلَ حَبْلُهَا أَتُهَا الْمَوْلَى الرَّحِمُ فَمَا
 وَأُخِي مَا طَمَسَتْ مِنْهَا الْعِدَاةُ كَمَا
 أَيَّامَ صِرَتْ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُسْتَبْقَاً
 وَقَمْتُ فِيهَا لِأَمْرِ اللَّهِ مُنْتَصِرًا
 تَمْحُو الَّذِي كَتَبَ التَّجْسِيمُ مِنْ ظُلْمٍ
 هَذَا رِسَالُهَا تَدْعُوكَ مِنْ كِتَابٍ
 وَافْتِكَ جَارِيَةً بِالنَّجْحِ رَاجِيَةً
 خَاضَتْ خُضَارَةً يعلوها وَيُخَفِّضُهَا
 وَرَبَّمَا سَبَحَتْ وَالرِّيحُ عَاتِيَةً
 تَوْمٌ يَحْيِي بَنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بَنَ أَبِي
 مَلِكٍ تَقَلَّدَتْ الْأَمْلاكَ طَاعَتُهُ
 مِنْ كُلِّ غَادٍ عَلَى يُمْنَاهُ مُسْتَلَمًا^(٥)
 مُؤَيَّدٌ لَوْ رَمَى نَجْمًا لِأَثْبَتَهُ
 إِمَارَةً تَحْمِلُ الْمِقْدَارَ^(٧) رَأَيْتُهَا
 يُبْدِي النَّهَارُ بِهَا مِنْ ضَوْئِهِ شَبَابًا

وَأَيْنَ غُصْنُ جَنِينَاهُ بِهَا سَلْسًا
 مَا نَامَ عَنْ هَضْمِهَا حِينًا وَمَا نَعَسَا
 ففَادَرَ الشَّمَّ مِنْ أَعْلَامِهَا خَنَسَا
 إِذْ رَأَى مَا لَمْ تَنْلِ رِجْلَاهُ مُخْتَلِسَا
 وَلَوْ رَأَى رَايَةَ التَّوْحِيدِ مَا نَبَسَا
 أَبْقَى الْمِرَاسُ لَهَا تَبْلًا وَلَا مَرَسَا
 أَحْبَبْتَ مِنْ دَعْوَةِ الْمَهْدِيِّ مَا طَمَسَا
 وَبِتَ مِنْ نُورِ ذَاكَ الْهَدْيِ مُقْتَبَسَا
 كَالصَّارِمِ اهْتَزَّאוْ كَالْعَارِضِ انْبَجَسَا
 وَالصُّبْحُ مَاحِيَةً أَنْوَارَهُ الْغَلَسَا
 وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرْجُوٍّ لِمَنْ يَشَا
 مِنْكَ الْأَمِيرُ الرِّضَى وَالسَّيِّدُ النَّدِيسَا^(٣)
 عُيَّابُهُ فَتَعَانِي اللَّيْنُ وَالشَّرْسَا
 كَمَا طُلِبَتْ بِسَاقِصِي شِدَّةِ الْفَرَسَا
 حَفْصٌ مُقْبَلَةٌ مِنْ تُرْبَةِ الْقُدْسَا
 دِينًا وَدُنْيَا فَعَشَّاهَا الرِّضَى لِبَسَا^(٤)
 وَكُلُّ صَادٍ إِلَى نُعْمَاهُ مُلْتَمِسَا
 وَلَوْ دَعَا أَفْقًا لَبَّى وَمَا احْتَبَسَا^(٦)
 وَذَوَّلَتْ عِزُّهَا يَسْتَضْحِبُ الْقَعْسَا
 وَيَطْلُعُ اللَّيْلُ مِنْ ظِلْمَائِهِ لَعَسَا

(١) وفي نسخة أخرى : سمرًا .

(٢) وفي نسخة أخرى : وريح .

(٣) وفي نسخة أخرى : السيد الرثسا .

(٤) وفي نسخة أخرى : يشا .

(٥) وفي نسخة أخرى : ملتئمًا .

(٦) وفي نسخة أخرى :

مؤيد نورها نجمًا لأثبتته

(٧) وفي نسخة أخرى : الأقدار .

ولو دعا آبقًا ولَّى وما احتسبا

كَأَنَّهُ الْبَذْرُ وَالْعَلِيَاءُ هَالَتْهُ
لَهُ الثَّرَى وَالْثَرِيَّا خَطَّتَانِ فَلَا
يَأْيَهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْتَ لَهَا
وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَنْبَاءُ أَنَّكَ مِنْ
طَهْرٍ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ
وَأَوْطَىءَ الْفَيْلَقَ الْجَرَّارَ أَرْضَهُمْ
وَانْصُرْ عَبِيداً بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرَقَتْ
هَمُّ شَيْعَةِ الْأَمْرِ وَهِيَ الدَّارُ قَدْ نَهَكَتْ
أَمْلًا هَنِئِلاً لَكَ التَّمَكِينُ سَاحَتَهَا
وَاضْرِبْ لَهَا مَوْعِداً بِالْفَتْحِ تَرْقُبُهُ (١)

تَحِفُّ مِنْ حَوْلِهِ شُهْبُ الْقَنَاحِ رَسَا
أَعَزُّ مِنْ خَطَّتَيْهِ مَا سَمَا وَرَسَا
عَلِيَاءُ تَوْسِعُ أَعْدَاءُ الْهُدَى تَعَسَا
يَحْيَى بِقَتْلِ (١) مُلُوكِ الضُّفْرِ أَنْدَلَسَا
وَلَا طَهَارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النُّجَسَا
حَتَّى يُطَاطِىءَ رَأْسُ كُلِّ مَنْ رَأَسَا
عُيُونُهُمْ أَدْمَعَا تَهْمِي زَكَاءُ وَخَسَا
دَاءٌ مَتَى لَمْ تُبَاشِرْ حَسَمَهُ انْتَكَسَا
جُرْدَا سَلَا هَبْ أَوْ خَطَّيْتَهُ دَعَسَا
لَعَلَّ يَوْمَ الْأَعَادِي قَدْ أَتَى وَعَسَا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم ، وبعث إليهم أسطوله مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال ، مع أبي يحيى بن يحيى بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص . وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار . وجاءهم الأسطول بالممدد وهم في هذا الحصار ، فترل بمرسی دانية واستفرغ الممدد بها ورجع بالناس إذا لم يخلص إليه من قبل ابن مردنیش من يتسلمه . واشتد الحصار على أهل بلنسية ، وهدمت الأقوات وكثر الهلاك من الجوع ، فوقعت المراودة على إسلام البلد فتسلمها جاقمة ملك أرغون في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة ، وخرج عنها ابن مردنیش إلى جزيرة شقر ، فأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكريا . ورجع ابن الأبار إلى تونس ، فترل على السلطان وصار في جملة ، وألح العدو على حصار ابن مردنیش بجزيرة شقر ، وأزعجه عنها إلى دانية فدخلها في رجب من ستته ، وأخذ عليهم البيعة للأمير أبي زكريا .

ثم داخل أهل مرسية ، وقد كان بويج بها أبو بكر عزيز بن عبد الملك ابن خطاب في مفتتح السنة ، فافتتحها عليه في رمضان من ستته وقتله ، وبعث ببيعتهم إلى الأمير أبي زكريا . وانتظمت البلاد الشرقية في طاعته ، وانتقل وفد ابن مردنیش إليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود

(١) وفي نسخة أخرى : تقبل .

(٢) وفي نسخة أخرى : للفتح نرقبه .

على مرسية ، وخرج عنها إلى لقنت^(١) الحصون سنة ثمان وثلاثين وستائة ، إلى أن أخذها طاغية برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وستائة ، وأجاز إلى تونس ، والبقاء لله .

* (الخبر عن الجوهرى وأوليته ومال أمره) *

إسم هذا الرجل : محمد بن محمد الجوهرى ، وكان مشتهراً بخدمة ابن ألكازير الهنتاى والى سبتة وغمارة من أعمال المغرب . وكان حسن الضبط متراًمياً إلى الرياسة . ولما ورد على تونس وتعلق بأعمال السلطان نظر فيما يزلفه ويرفع من شأنه ، فوجد جباية أهل الخيام بأفريقية من البرابرة الموطنين مع الأعراب غير منضبطة ولا محصلة^(٢) في ديوان ، فنبه على أنها مأكلة للعمّال ونهبة للولاة ، فدفع إليها فأمنى^(٣) جبايتها وقرّر ديوانها ، وصارت عملاً منفرداً يسمّى عمل العمود وطار له بذلك بين العمال ذكر ، جذب له السلطان أبو زكرياء بضبعة ، وعوّل على نصيحته واثره باختصاصه . ووافق ذلك موت أبي الربيع الكنفيتى المعروف بابن الغريفر^(٤) صاحب الأشغال بالحضرة ، فاستعمل مكانه ، وكان لا يلي تلك الخطّة إلا كبير من مشيخة الموحّدين ، فرشّحه السلطان لها لكفايته وغنائه ، فظفر منها بحاجة نفسه ، واعتدّها ذريعة إلى أمنّيته ، فاتخذ شارة أرباب السيوف ، وارتبط الخيل واتخذ الآلة في حروبه مع أهل البادية إذا احتاج إليها .

وأسف أثناء ذلك أبا علي بن النعمان وأبا عبيدالله بن أبي الحسن بعدم الخضوع لها ، فنصبا له ، واغريا به السلطان ، وحذّراه غائلة عصيانه . وكان فيه إقدام أوجد به السبيل على نفسه ، ويحكى أن السلطان استشاره ذات يوم في تقويم بعض أهل الخلاف والعصيان ، فقال له : عندي بيباك ألف من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم ، فأعرض عنه السلطان واعتدّها عليه . وجعلها مصداقاً لما نمي عنه . ولما

(١) وفي نسخة أخرى : لمت .

(٢) وفي نسخة أخرى : محصية .

(٣) وفي نسخة أخرى : فأمنى .

(٤) وفي نسخة أخرى : موت أبي الربيع الكنفيسى المعروف بابن القريقر .

قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الأشغال ببجاية مع زكريا بن السلطان ، أظهر له الجوهري أنَّ ذلك بسعايته ، وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابته ، فالتقى عبد الحق ذلك إلى الأمير أبي زكريا فقام لها وقعد ، وأنف من استبداد الجوهري عليه . ولم تزل هذه وأمثالها تعد عليه حتى حقَّ عليه القول فسطا به الأمير أبو زكريا وتقبض عليه سنة تسع وثمانين وستمائة ، ووكل امتحانه إلى اعدائه ابن لمان^(١) والندرومي ، فتجلد على العذاب وأصبح في بعض أيامه ميتاً بمحبسه . ويقال خنق نفسه وألقي شلوه بقارعة الطريق فتفنن أهل الشبات في العبث به ، وإلى الله المصير .

* (الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية) *

كان الأمير أبو زكريا منذ استقل بأمر أفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة . وكان يرى أن بمظاهرة زناته له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك ، فكان يداخل أمراء زناته فيه ويرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة . وكان يُغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لوليم وحرماً على عدوهم . وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص ، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة ، وعأوده الاتحاف بأنواع الألطاف والهدايا تيمناً^(٢) لمسرته ، وميلاً إليه عن جانب أقتاله بني مَرِين المجبلين على المغرب والدولة ، فاستكبر السلطان أبو زكريا اتصال الرشيد هذا بيغمراسن وألزمهم من جواره بالحل القريب . وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض ولد منديل^(٣) بن عبد الرحمن أمراء مغراوة صريحاً على يغمراسن فسهلوا له أمره ، وسؤلوا له الاستبداد على تلمسان . وجمع كلمة زناته ، واغداد^(٤) ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك

(١) وفي نسخة أخرى : بعض وفد بني منديل .

(٢) وفي نسخة أخرى : واعتداد .

(٣) كذا ، وفي ب : ابن برنمار ، وفي نسخة : أخرى برعان .

(٤) وفي النسخة البارسية : تضمناً وفي نسخة أخر تضمناً وهذا تحريف ظاهر .

الموحدّين بمراكش ، وانتظامه في أمره ، وسلماً لارتقاء ما يسموئيه من ملكه ، وبأباً
لولوج المغرب على أهله ، فحركه إملاؤهم وهزّه إلى النعرة^(١) صريخهم ، وأهاب
بالموحدّين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان . واستنفر لذلك سائر البدو
من الأعراب الذين في طاعته من بني سُليّم ورياح بظعنهم ، فاهبطوا لداعيه^(٢) .
ونهب سنة تسع وثلاثين وستائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة . وسرّح إمام
حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من وأقى بأوطانهم من
أحياء زناتة وذؤبان قبائلهم ، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب . وضرب معهم
موعداً لموافاتهم في في تخوم بلادهم . ولما نزل صحراء زاغر قبلة تيطري منتهى بمحالات
رياح وبني سُليّم من المغرب ، ثاقل العرب عن الرحلة بظعنهم في ركاب السلطان ،
وتلّوا بالمعاذير فالطف الأمير أبو زكريا الحيلة . زعموا في استنهاضهم وتنبيه عزائمهم ،
فارتحلوا معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدّين وحشود زناتة وظعن العرب
بعد أن كان قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة بالأعذار والدعاء إلى الطاعة ،
فرجّعهم بالخيبة . ولما حلّت عساكر الموحدّين بساحة البلد ، وبرز يغمراسن وجموعه
لللقاء بصحبته ناشية السلطان بالنبل ، فانكشفوا ولاذوا بالجدران وعجزوا عن حامية
الأسوار ، فاستمكنت المقاتلة من الصعود . ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد
فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفّاً في ذويه وخاصته . واعترضه عساكر
الموحدّين فصمم نحوهم وجندل بعض أبطالهم فأفرجوا له ، ولحقوا بالصحرَاء
وتسلّلت الجيوش إلى البلد من كل حذب ، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان
واكتساح الأموال .

ولما تجلّى غشي تلك الهبة ، وخسر تيّار الصدمة ، وخمدت نار الحرب ، راجع
الموحدون بصائرهم وأنعم الأمير أبو زكريا نظره فيمن يقلّده أمر تلمسان والمغرب
الأوسط ، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها .
واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرّأ أمراء زناتة ضعفاً عن مقاومة يغمراسن علماً
بأنه الفحل الذي لا يُقرّع أنفه ، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته .
وسرّح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر فاخطف الناس من حوله ، واطلعوا من

(١) وفي نسخة أخرى : النفرة .

(٢) وفي نسخة أخرى : فاهبطوا الحامية .

المراقب عليه . ثم بعث وفده متطارحين على السلطان في الملامة والاتفاق ، واتصال اليد على صاحب مراكش طالب الوتر في تلمسان وأفريقية . وان يفردة بالدعوة الموحدية فأجابه إلى ذلك . ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها وأسنى جائزتها ، وأحسن وفادتها ومنقلبها ، وسوّغ ليغمراسن في شرطه بعض الأعمال بأفريقية ، وأطلق أيدي عماله على جبايته ، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله .

وفي أثناء طريقه وسّوس إليه الموحدون باستبداد يغمراسن ، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وأمراء المغرب الأوسط شجى في صدره ، ومعتزلاً عن مرامه ، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيّه ، فاجابهم وقلّد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني ، والعبّاس بن منديل المغراوي ومنصور المليكشي أمر قومه ووطنه ، وعهد إليهم بذلك وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريبهم ، فاتخذوه بحضرته وبمشهد من ملأ الموحدين . وأقاموا مراسمها ببابه . وأغذّ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه ، وبلوغ وطره والإشراف على أذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه ، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته ، فدخل الحضرة واقتعد أريكنه وأنشده الشعراء في الفتح ، وأسنى جوائزهم وتناولت إليه أعناق الآفاق نذكره . الله أعلم .

* (الخبر عن دخول أهل الأندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة إشبيلية وكثير من أمصارها) *

كان بأشبيلية أبو مروان أحمد الباجي من أعقاب أبي الوليد وأبو عمرو بن الجدّ من أعقاب الحافظ أبي بكر الطائر الذكر ، ورثا التجلّة عن جدّهما وأجراهما الخلفاء على سننهم . وكانا مسمتين وقورين متبوعين من أهل بلدهما مطاعين في أفقهما . وكان السادة من بني عبد المؤمن يعولون على شوراها في مضرّهما . وكان بعدوة الأندلس التياث في الملك منذ وفاة المستنصر ، وانتزى بها السادة وافترقوا . وثار بشرق الأندلس ابن هود وزيّان بن مردنيش ، وبغربها ابن الأحمر . وغلب ابن هود الموحدين

وأخرجهم عنها . وملك ابن هود أشبيلية سنة ست وعشرين وستائة واعتقل من كان بها من الموحدين . ثم انتقضوا عليه سنة تسع وعشرين وستائة بعدها وأخرجوا أخاه أبا النجاة سالماً ، وباعوا الباجي وتسمى بالمعتضد ، واستوزر أبا بكر بن صاحب الرد ، ودخلت في بيعته قرمونة ، وحاصره ابن هود فوصل الباجي يده بمحمد بن الأحمر الناصر بأرجونة وجيان بعد أن ملك قرطبة

وزحف ابن هود إليهم فلقوه وهزموه ، ورجعوا ظافرين ، فدخل الباجي إلى أشبيلية وعسكر بخارجها ، ثم انتهر فرصته في أشبيلية وبعث قريه ابن اشقيلولة مع أهل أرجونة والنصارى إلى فسطاط الباجي فتقبضوا عليه وعلى وزيره وقتلوهما سنة إحدى وثلاثين وستائة . ودخل ابن الأحمر أشبيلية ، ولشهر من دخوله إليها ثار عليه أهلها ورجعوا إلى طاعة ابن هود ، وولى عليهم أخاه أبا النجاة سالماً . ولما هلك محمد بن هود سنة خمس وثلاثين وستائة صرف أهل أشبيلية طاعتهم إلى الرشيد بمراكش ، وولوا على أنفسهم محمد بن السيد أبي عمران الذي قدمنا أنه كان والياً بقسنطينة ، وأن الأمير أبا زكريا غلبه عليها واعتقله ، وبعث ولده إلى الأندلس فربي محمد هذا في كفالة أمه بأشبيلية . ولما سار أهل أشبيلية للرشيد قدموه على أنفسهم ، وتولى كبير ذلك أبو عمرو بن الجحد ، وبعثوا وفدهم إلى الحضرة فأقر السيد أبا عبد الله على ولايتهم . واستمرت في دعوة الرشيد إلى أن هلك سنة أربعين وستائة . وقد ملك الأمير أبو زكريا تلمسان وأشرف على أعمال المغرب ، فاقتدوا بمن تقدم إلى بيعته من أهل شرق الأندلس ببلنسية ومرسية ، وباعوا للأمير أبي زكريا بن أبي محمد بن أبي غفص واقتدى بهم أهل شريش وطريف ، وبعثوا إليه وفدهم ببيعته سنة إحدى وأربعين وستائة . وسألوا منه ولاية بعض أهل قرابته فولى عليهم أبا فارس ابن عمه يونس بن الشيخ أبي حفص ، فقدم أشبيلية وقام بأمرها ، وسلم له ابن الجحد في نقضها وإبرامها .

ثم انتقض عليه سنة ثلاث وأربعين وستائة وطرده من البلد إلى سبتة واستبد بأمر أشبيلية ، ووصل يده بالطاغية . وعقد له السلم وضرب على أيدي أهل المغاورة من الجند وأسقطهم من ديوانه فقتلوه بإملاء قائدهم شفاف^(١) واستقل بأمر أشبيلية .

(١) كذا ، وفي ب : شفاف .

ورجع أبا فارس بن أبي حفص وولاه بدعوة الأمير أبي زكريا فسخطهم الطاغية لذلك وانتقض عليهم وملك قرمونة ومرشانة . ثم زحف إلى حصرهم وسألوه الصلح فامتنع . وصار أمر البلد شورى بين القائد شفاف وابن شعيب ويحيى بن خلدون ومسعود بن خيار وأبي بكر بن شريح ، ويرجعون في أمرهم آخرأ إلى الشيخ أبي فارس بن أبي حفص .

وأقاموا في هذا الحصار سنتين ونازلهم ابن الأحمر في جملة الطاغية ، وبعث إليهم الأمير أبو زكريا المدد ، وجهاز له الأسطول لنظر أبي الربيع بن الغريغر التينملي . وأوعز له إلى سبته بتجهيز أسطولهم معه فوصل إلى وادي أشيلية ، وغلبهم أسطول الطاغية على مرسية فرجع . واستولى العدو عليها صلحاً سنة ست وأربعين وستمائة بعد أن أعانهم ابن الأحمر بمدده وميرته . وقدم الطاغية على أهل الدخن بها عبد الحق بن أبي محمد البياسي من آل عبد المؤمن ، والأمر لله .

* (الخبر عن بيعة أهل سبته وطنجة وقصر ابن عبد الكريم
وتصاريف أحوالهم ومال أمرهم) *

كان أهل سبته بعد إقلاع المأمون عنهم ، ونزول أخيه موسى عنها لابن هود قد انتقضوا وأخرجوا عنهم القشتيني والي ابن هود ، وقدموا عليهم أحمد الينشتي وتسمى بالموثق . ثم رجعوا إلى طاعة الرشيد عندما بايعه أهل أشيلية سنة خمس وثلاثين وستمائة . وتقبضوا على الينشتي وابنه وأدخلوا السيد أبا العباس ابن السيد أبي سعيد ، كان والياً بغمرة قولوه عليهم . ثم عقد الرشيد على ديوان سبته لأبي علي بن خلاص ، كان من أهل بلنسية واتصل بخدمة الرشيد فجلى فيها . ودفعه إلى الأعمال فضبطها ، فولاه سبته فاستقل بها . وولّى على طنجة يوسف ابن الأمير قائداً على الرحل الأندلسي وضابطاً لقصبتها . حتى اذا هلك الرشيد سنة أربعين وستمائة ، وقد استفحل أمر الأمير أبي زكريا بأفريقية ، واستولى على تلمسان وبايعه الكثير من أمصار الأندلس ، فصرف ابن خلاص وجهه إليه .

وكان قد اقتنى الأموال واصطنع الرجال ، فدخل في دعوته ، وبعث الوفد ببيعته . واقتدى به في ذلك أهل قصر ابن عبد الكريم فبعثوا بيعتهم للأمير أبي زكريا . وعقد

لابن خلاص على سبته وما إليها ، فبعث بالهدية إليه في أسطول أنشأه لذلك سمّاه الميمون ، وأركب ابنه أبا القاسم فيه وافداً على السلطان ، ومعه الأديب ابراهيم بن سهل ، فعطب عند إقلاعه . ولما رجع الأسطول من أشبيلية كما قدّمناه على بقية هذا العطب وحزن أبي عليّ بن خلاص على ابنه ، رغب من قائده أبي الربيع بن الغُرَيْر أن يحمله بحملته إلى الحضرة ، فانتقل بأهله واحتمل ذخيرته . ولَمَّا مرَّ الأسطول بمرسي وهران نزل بساحلها فأراح ، وأحضر له تين فأكله فأصابه مغص في معاه هلك منه فجأة سنة ست وأربعين وسئاته . وعقد السلطان على سبته لأبي يحيى ابن زكريا ابن عمّه أبي يحيى الشهيد بن الشيخ أبي حفص . وبعث معه على الجباية أبا عمر بن أبي خالد الأشبيلي ، كان صديقاً لشفاف وعدواً لابن الجد . ولما قتل شفاف لحق بالحضرة فولّاه الأمير أبو زكريا أشغال سبته ، استمرت الحال إلى أن كان من إستبداد العزفي بسبته ما نذكره .

* (الخبر عن بيعة المرية) *

لما هلك محمد بن هود بالمرية سنة خمس وثلاثين وسئاته كما ذكرناه واستبدّ وزيره أبو عبدالله محمد بن الرميحي بها ، وضبطها لنفسه وضايقه ابن الأحمر فبعث ببيعته سنة أربعين إلى الأمير أبي زكريا حين أخذ أهل شرق الأندلس بطاعته . ولم يزل ابن الأحمر يحاصره إلى أن تغلّب عليه سنة ثلاث وأربعين وسئاته كما ذكرناه في أخباره . وخرج منها إلى سبته بأهله وذخيرته ، وأحلّه أبو علي ابن خلاص محل البر والتكرمة ، وأنزله خارج المدينة في بساتين بنيونش ، وأجمع الثورة بأبي خلاص ، فنذربه وتغيّر له . فلما رجع الأسطول من أشبيلية ركب الرميحي ولحق بتونس ، فترّل على الأمير أبي زكريا وحل من حضرته محل التكرمة . واستوطن تونس ، وتملّك بها الضياع والقرى ، وشيّد القصور إلى أن هلك والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن بيعة ابن الأحمر) *

كان محمد بن الأحمر قد انترى على ابن هود ببلده أرجونة ، وتملّك جَيّان وقرطبة

وأشبيلية وغرب الأندلس وطالت فنتته مع ابن هود وراجع طاعته . ثم انتقض عليه وباع للرشيد سنة ست وثلاثين وستائة عندما بايعه أهل أشبيلية وسبته ، فلم يزل على ذلك إلى أن هلك الرشيد على حين استفحال ملك الأمير أبي زكريا بأفريقية وتأميله للنصرة والبكرة ، فحول ابن الأحمر إليه الدعوة ، وأوفد بها أبا بكر بن عيَّاش من مشيخة مالقة فرجعهم الأمير أبو زكريا بالأموال للنفقات الجهادية . ولم يزل يواصلها لهم من بعد ذلك إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وستائة ، فأطلق ابن الأحمر نفسه من عقال الطاعة واستبدَّ بسلطانه .

* (الخبر عن بيعة سجلماسة وانتقاضها) *

كان عبدالله بن زكريا الهزرجي من مشيخة الموحدّين والياً بسجلماسة لبني عبد المؤمن . ولما هلك الرشيد وبويع أخوه السعيد سنة أربعين وستائة ، ونميت إليه عن الهزرجي عزيمة من القول خشن بها صدره وبعث إليه مستعجباً فلم يعتبه . ومزق كتابه فخشيته الهزرجي على نفسه ، واتصل به ما كان من استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ونواحيها ، فخاطبه بطاعته وأوفد عليه بيعته ، فعقد له الأمير أبو زكريا على سجلماسة وأنحائها ، وقوّض إليه في أمرها ووعدّه بالمدد من المال والعسكر لحمايتها . وخطب له عبدالله بسجلماسة ، وقرَّ إليه من مراکش أبو زيد الكدميوي بن واكاك ، وأبو سعيد العود الرطب ، فلحق بتونس . وأقام أبو زيد معه بسجلماسة . وزحف إليه السعيد سنة إحدى وأربعين وستائة ، وقيل سنة أربعين ، ومن معسكره كان مقرّ أولئك المشيخة . وخاطب السعيد أهل سجلماسة وداخلهم أبو زيد الكدميوي فغدروا بالهزرجي وثاروا به ، فخرج من سجلماسة وأسلمها ، وقام بأمرها أبو زيد الكدميوي . وطير بالخبر إلى السعيد فشكر له فعلته ، وغفر له سالفته . وتقبَّض على عبدالله الهزرجي بعض الأعراب ، وأمکن منه السعيد فقتله وبعث برأسه إلى سجلماسة فنصب بها . ورجع من طريقه إلى مراکش وأقامت سجلماسة على دعوة عبد المؤمن إلى أن كان من خبرها ما نذكره في موضعه .

* (الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بني

مرين) *

كان بين بني عبد الواد وبين بني مرين منذ أوليتهم وتقلّبهم في القفار فتن وحروب ، ولكل منها أحلاف في المناصرة وأشياء . فلما التاث دولة بني عبد المؤمن غلب كل منها على موطنه ، وكانت السابقة في ذلك لبني عبد الواد ليعدهم عن حضرة مراکش حيث محشر العساكر ويعسوب القبائل . ولما استبدّ الأمير أبو زكريا بأمر أفريقية ، ودوّخ المغرب الأوسط وافتتح تلمسان ، وأطاعه بنو عبد الواد ، حذّر بنو مرين حينئذٍ غائلتهم . وخافوا أن يظاهروهم الأمير أبو زكريا عليهم ، فألّانوا له في القول ولاطفوه على البعد بالطاعة ، وخاطبوه بالتمويل ، وأوجبوا له حق الخلافة ، ووعدوه أن يكونوا أنصاراً لدعوته وأعاوناً في أمره ، ومقدّمة في عسكره إلى مراکش وزحفه . وحملوا من تحت أيديهم من قبائل المغرب وأمصاره على طاعتهم ، والاعتصام ببيعتهم . ولم تزل المخاطبات بينهم وبين الأمير أبي زكريا في ذلك من أميرهم عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد من بعده . ورسلمهم تقد عليه بذلك مرّة بعد أخرى إلى أن هلك الرشيد . وقد استولى الأمير أبو زكريا على تلمسان ، ودخل في دعوته قبائل زنّانة بالمغرب الأوسط واستشرف أهل الأمصار من العدوّتين إلى إيالته . وكان أهل مكناسة قد اعتصموا بوصلة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق ، وجاءهم والٍ من مراکش وأساء فيهم السيرة فتوثّبوا به وقتلوه . وبعثوا إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق ، فحملهم على بيعة الأمير أبي زكريا فأنفذوها من إنشاء قاضيم أبي المطرف بن عميرة سنة ثلاث وأربعين وستائة . وضمن أبو يحيى بن عبد الحق حمايتهم خلال ما يأتيهم أمر السلطان من تونس ومدده . وبلغ الخبر إلى السعيد فأرهمف حدّه واعتزم على النهوض إليهم فخامهم الرعب ، وراجعوا طاعته وأوفدوا صلحاءهم وعلماءهم في الإقالة واغتفار الجريرة ، فتقبّل ذلك إلى أن كان من حركته بعد ذلك ومهلكه ما هو معروف .

* (الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي العهد بمكان
امارته من بجاية وتصيير العهد الى أخيه محمد) *

كان الأمير أبو زكريا قد عقد لابنه أبي يحيى زكريا على ثغر بجاية قاعدة ملك بني
حمّاد ، وجعل إليه النظر في سائر أعمالها من الجزائر وقسنطينة وبوّة والزاب سنة ثلاث
وثلاثين وستمائة كما ذكرناه ، فاستقل بذلك ، وكان بمكان من الترشيح للخلافة بنفسه
وجلاله ، وانتظامه في سلك أهل العلم والدين وإيناس العدل . فولاه الأمير أبو زكريا
عهده سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وأحضر الملا لذلك وأشهدهم في كتابه ، وأوعز
بذكره في الخطبة على المنابر مع ذكره . وكتب إليه بالوصيّة التي تداولها الناس من
كلامه ونصها :

أعلم سدّدك الله وأرشدك ، وهداك لما يرضيه وأسعدك ، وجعلك محمود السيرة ،
مأمون السريرة . إن أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه ، وجعله مسؤولاً عن
رعيته في جُلّ أمرهم ودقه ، أن يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله ، وأن
يكل أمره وحوله وقوّته لله ، ويكون عمله وسعيه وذّبّه عن المسلمين ، وحربه وجهاده
للمؤمنين ، بعد التوكل عليه ، والبراءة من الحول والقوة إليه . ومتى فاجأك أمر
مقلق ، أو ورد عليك نأ مرهق ، فريّض لبك ، وسكن جأشك ، وارع عواقب أمر
تأتيه ، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه . ولا تُقدّم إقدام الجاهل ، ولا تحجم إحجام
الأخرق المتكاسل . وأعلم أن الأمر اذا ضاق بحاله ، وقصر عن مقاومته رجاله ،
ففتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم ، وذوي التجارب من
نبيائهم . ثم الإقدام عليه ، والتوكل على الله فيما لديه ، والإحسان لكبير جيشك
وصغيره الكثير على قدره ، والصغير على قدره . ولا تلحق الحقير بالكبير فنجري الحقير
على نفسك ، وتغلّطه في نفسه وتفسد نيّة الكبير وتؤثره عليك ، فيكون إحسانك إليه
مفسدة في كلا الوجهين ، ويضيع إحسانك وتشتت نفوس من معك .

واتخذ كبيرهم أباً وصغيرهم ابناً ، واخضع لهم جناح الذلّ من الرحمة ، وشاورهم
في الأمر ، فاذا عزمت فتوكّل على الله ، إن الله يُحبّ المتوكّلين . واتخذ نفسك
صغيرة ، وذاتك حقيرة ، وحقّر أمورك ، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين ، بأنك

أعظم الناس قدراً ، وأكثرهم بذلاً ، وأحسنهم سيرة وأجملهم صبراً ، فذاك غرور وبهتان وزور .

واعلم أنَّ من تواضع لله رفعه الله . وعليك بتفقد أحوال رعيَّتِكَ والبحث عن عمَّالهم والسؤال عن سير قضائهم فيهم ، ولا تنمَّ عن مصالحهم ، ولا تسامح أحداً فيهم . ومهما دعيت لكشف مُلِمَّةٍ فاكشفها عنهم ، ولا تراع فيهم كبيراً ولا صغيراً إذا عدل عن الحق . ولا تراع في فاجر ولا متصرف إلاَّ ولا ذِمَّةً ، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعيَّة والمتظلمين . ولا تقف عند مراده في أحوالهم .

واتخذ لنفسك ثِقاة صادقين مصدقين ، لهم في جانب الله أوفر نصيب ، وفي مسائل خلقه ، اليك أسرع مجيب . وليكن سؤالك لهم افذاذ^(١) ، فأنت متى اقتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه ، حملة الهوى على الميل ، ودعته الحميَّة إلى تجنُّب الحق ، وترك قول الصدق . وإذا رفع إليك أحد مظلمة ، وأنت على طريق ، فأدعه إليك وسله حتى يوضح قصته لك . وجاوبه جواب مشفق مصغٍ إلى قوله ، مصيخ إلى نازلته ونقله ، ففي إصاحتك له وحنوك عليه أكبر تأنيس ، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة ، والجمهور أعظم تأسيس .

وأعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الآخر إلاَّ في حق أوجبه الكتاب والسنة ، وعصديته أقاويل الشرعية والحجة ، أو في مفسد عاثت في طرقات المسلمين وأموالهم جار على غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم ، فليس إلاَّ السيف فإن أثره عفاء ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء ، ولا تقل عثرة حسود على النعم ، عاجز عن السعي ، فإن إقالته تحمله على القول ، والقول يحمله على الفعل ، ووبال عمله عائد عليك . فاحسم داءه قبل انتشاره ، وتدارك أمره قبل إظهاره ، واجعل الموت نصب عينيك ، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يديك . لا تنقلب إلى ربك إلاَّ بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح .

واعلم أن الإيثار أريح المكاسب وانجح المطالب ، والقناعة مال لا ينفد . وقد قال بعض المفسرين في قوله عزَّ من قائل : « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » إنه النبأ الحسن في الدنيا على ما خلَّد فيها من الأعمال المشكورة ، والفعلات الصالحة المذكورة .

(١) الفذ : الفرد . جمع افذاذ وفذوذ .

فليُكفِكَ من دنياك ثوبٌ تَلْبِسُهُ وفرسٌ تَدُبُّ به عن عبادِهِ . وأرجو بك متى جعلت وصيَّتِي هذه نصب عينيك ، لم تعدم من ربِّكَ فتحاً يُيسِّرُهُ على يدِكَ ، وتأييداً ملازماً لا يبرح عنكَ إلَّا إِلَيْكَ ، بمنَّ الله وحوله وطوله . والله يجعلك ممن سمع فوعى ، ولتَّى داعي الرشد إذ دعا ، إِنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وبالإجابة جديرٌ ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العليِّ العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمت الوصية المباركة ، فعظم ترشيح الأمير أبي يحيى لذلك ، وعلا في الدولة كعبه ، وقوي عند الكافة تأميله ، وهو بحالة من النظر في العلم والجنوح للدين ، إلى أن هلك سنة ست وأربعين وستمائة ، فأُسِّي له السلطان ، واحتفل الشعراء في رثائه وتأيينه ، فكانوا يثيرون بذلك شجوا السلطان ، ويبعثون حزنه ، وعقد العهد من بعده لأخيه الأمير أبي عبدالله محمد ، بحضور الملأ ، وإيداع الخاصة كتابهم بذلك في السجل ، إلى أن كان من خلافته ما نذكره بعده .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من الأحداث) *

كان السلطان أبو زكريا قد خرج من تونس إلى جهة قسنطينة للإشراف على أحوالها ، ووصل إلى باغاية فعرض العساكر بها ، ووافته هنالك الداودة ، وشيخهم موسى بن محمد . وكان منه اضطراب في الطاعة فاستقام . وأصاب السلطان هنالك المرض فرجع إلى قسنطينة . ثم أبلَّ من مرضه ، ووصل منها إلى بونة ، فراجع المرض . ولما نزل بظاهر بونة اشتدَّ به مرضه . وهلك لسبع بقين من جمادي الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لإثنتين وعشرين سنة من ولايته ، ودفن بجامع بونة . ثم نقل شلوه بعد ذلك إلى قسنطينة سنة ست وستين وستمائة بين يدي حصار النصاري تونس . وبويع إثر مهلكه ابنه وليَّ عهده أبو عبدالله محمد كما نذكره . وطار خبر مهلكه في الآفاق ، فانتفض كثير من أهل القاصية ، ونبذوا الدعوة الحفصية ، وعطل ابن الأحمر منابره من الدعوة الحفصية . وتمسَّك بها يُغْمُراسِن بن زيَّان صاحب المغرب الأوسط ، فلم

يزالوا عليها حيناً من الدهر ، إلى أن انقطعت في حصار تلمسان كما نذكره . ولمّا بلغ الخبر بمهلكه إلى سبتة ، وكان بها أبو يحيى بن الشهيد من قبل الأمير أبي زكريا كما نذكره ، وأبو عمرو بن أبي خالد ، والقائد شفاف ، فثارت العامة وقتل ابن أبي خالد وشفاف ، وطرّدوا ابن الشهيد فلحق بتونس . وتولّى كبر هذه الثورة حجبون الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي .

واتفق الملاء على ولاية العزفي ، وحولوا الدعوة للمرتضى ، وذلك سنة سبع وأربعين وستائة . وتبعهم أهل طنجة في الدعوة ، واستبدّ بها ابن الأمير ، وهو يوسف بن محمد بن عبد الله أحمد الحمداني ، كان والياً عليها من قبل أبي علي بن خلاص . فلما صار الأمر للعزفي والقائد حجبون الرنداحي ، خالفهم هو إلى الدعوة الحفصية ، واستبدّ عليهم . ثم خطب للعبّاسي وأشرك نفسه معه في الدعاء ، إلى أن قتله بنو مرين غدراً كما نذكره ، وانتقل بنوه إلى تونس ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم^(١) عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة ، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء ، فترّلوا بها وأصهر إليهم بنو الأمير^(٢) ، وارتحلوا معهم إلى تونس . وعرف دين القاضي أبي القاسم وفضله ومعرفته بالأحكام والوثائق ، واستعمل في خطة القضاء بالحضرة أيام السلطان ، وكان له فيها ذكر .

ولمّا بلغ الخبر بمهلك الأمير أبي زكريا إلى صقلية أيضاً ، وكان المسلمون بها في مدينة بلرم قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الاشراك في البلد والضاحية ، فتسكنوا حتى اذ بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى إلى العيث فيهم فلجأوا إلى الحصون والأوعار ، ونصبوا عليهم ثائراً من بني عبس ، وحاصروهم طاغية صقلية بمعقلهم من الجبل . وأحاط بهم حتى استترهم . وأجازهم البحر إلى عدوته ، وانزلهم بوجاره من عمائرهما . ثم تعدى إلى جزيرة مالطة فأخرج المسلمين الذين كانوا بها ، وألحقهم بإخوانهم . واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها . ومحا منها كلمة الإسلام بكلمة كفره ، والله غالب على أمره .

(١) وفي نسخة أخرى : أبو الصنم .

(٢) وفي نسخة أخرى : بنو الأميين .

* (الخبر عن بيعة السلطان أبي عبدالله المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث) *

لما هلك الأمير أبو زكريا بظاهر بونة سنة سبع وأربعين وستمائة كما قدمناه اجتمع الناس على ابنه الأمير أبي عبدالله ، وأخذ له البيعة عمّه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل المعسكر ، وارتحل إلى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من السنة ، فجدّد بيعته يوم وصوله وتلقّب المستنصر بالله . ثم جدّد البيعة بعد حين ، واختار لوضع علامته : « الحمد لله ، والشكر لله » وقام بأعباء ملكه ، وتقبّض على خاصة أبيه الخصي كافور ، كان قهرمان داره ، فأشخصه إلى المهديّة ، وأوعز إلى الجهات بأخذ البيعة على أهل العائلات فترادفت من كل جانب . واستوزر أبو عبدالله بن أبي مهدي ، واستعمل على القضاء أبا زيد التوزري وكان يعلم ولد عمّه اللحياني التأثير عليه كما نذكره ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني ومقتله ومقتل أبيه) *

كان للأمير أبي زكريا من الإخوة إثنان : محمد وكان أسنّ منه ويعرف باللحياني لطول لحيته ، والآخر أبو إبراهيم ، وكان بينهم من المخالصة والمصافاة ما لا يعبر عنه . ولما هلك الأمير أبو زكريا ، وقام بالأمر ابنه أبو عبدالله المستنصر ، واستوزر محمد بن أبي مهدي الهتائي ، وكان عظيماً في قومه ، فأمل أن يستبدّ عليه لمكان صغره ، إذ كان في سنّ العشرين ونحوها . واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالي العلوجين^(١) ، والصنائع من بيوت الأندلس . فقد كان أبوه اصطنع منهم رجالاً ، ورتّب جنداً كثراً الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة . فداخل ابن أبي مهدي السلطان ، وبعث عندهما الأسف على ما فاتهما من الأمر ، فلم يجد عندهما ما

(١) وفي نسخة ثانية : العلوج .

مل من ذلك . فرجع إلى ابن محمد اللحياني ، فأجابه إلى ذلك . وبإيعه ابن أبي مهدي سرّاً ، ووعد المظاهرة . ونمي الخبر بذلك إلى السلطان من عمّه محمد اللحياني وحذّره من غائلة ابنه ، وأبلغه ذلك أيضاً القاضي أبو زيد التوزري متصححاً .

وبأكر ابن أبي مهدي مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين وستائة ، وتقبّض على الوزير أبي زيد بن جامع . وخرج ومشىخة الموحدّين معه ، فبايعوا لابن محمد اللحياني بداره ، واستركب السلطان أوليائه . وعقد للقائد ظافر على حربهم فخرج في الجند والأولياء ، ولقي ^(١) الموحدّين بالمصلّى خارج البلد ، ففضّ جمعهم ، وقتل ابن أبي مهدي وابن وازكلدن وسار ظافر مولى السلطان إلى دار اللحياني عمّ السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة ، وحمل رؤوسها إلى السلطان . وقتل في طريقه أخاه أبا إبراهيم وابنه ، وانتهب منازل الموحدّين وخرّبت . ثم سكنت الهيعة وهدأت الثورة ، وعطف السلطان على الجند والأولياء وأهل الاصطناع ، فأدرّ أرزاقهم ووصل تفقّدهم . وأعاد عبدالله بن أبي الحسين إلى مكانه بعد أن كان هجره أول الدولة ، وترخّح لابن مهدي عن رتبته ، وتضاءل لاستطالته ، فرجع إلى حاله واستقامت الأمور على ذلك . ثم سعى عند السلطان بمولاه الظافر ، وقبّحوا عنده ما أتاه من الأفتيات في قتل عميه من غير جرم . ونذر بذلك فخشي البادرة ولحق بالدواودة ، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه ، فعقد له مكانه واستنفر ظافر في جوار العرب طريداً ، إلى أن كان من أمره ما كان .

* (الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في أيامه) *

فنها شروعه في اختطاط المصانع الملوكة ، وأولها المصيد بناحية بترّرت . اتخذها للمصيد سنة خمسين وستائة ، فأدار سياجاً على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد ، بحيث لا يُراع فيه سرب الوحش ، فإذا ركب للمصيد تحطّى ذلك السياج إلى قوراء في لِمّة من مواليه المتخصّصين ^(٢) وأصحاب بيزرته ^(٣) ، بما معهم من

(١) وفي نسخة أخرى : ولحق .

(٢) كذا ، والأصح : خصبة أو خصيان جمع خصي . وفي نسخة ثانية : المختصين .

(٣) وفي نسخة ثانية : وأصحاب بيززون .

حوارج بزاة وصقوراً وكلاباً سلوقية وفهوداً ، فيرسلونها على الوحش في تلك القوراء ، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام فيقضي وطراً من ذلك القنيص سائر يومه ، فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها . ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة ^(١) بحائطين ممتدّين يجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقاً سالكاً ما بينهما ، وعلى ارتفاع عشرة أذرع يحتجب به الحرم في خروجهنّ إلى تلك البساتين عن ارتفاع العيون عليهنّ ، فكان ذلك مصنعاً فخماً وأثراً على أيام الدولة خالداً .

ثم بنى بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقبة أسارك . وأسارك باللسان المصمودي هو القوراء الفسيحة . وهذا الصرح هو إيوان مرتفع السماء متباعد الأقطار متّسع الأرجاء يشرع منه إلى الغرب ، وجانيبه ثلاثة أبواب لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة ينوء كل مصرع منها في فتحه وغلقه بالعصبة أولى القوة . ويفضي بابها الأعظم المقابل لسمت الغرب إلى معارج قد نصبت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف إلى القبلة بعرض الأيوان ، يناهز عددها الخمسين أو نحوها ، ويفضي البابان عن جانيبه إلى طريقين ينتهيان إلى حائط القوراء . ثم ينعطفان إلى ساحة القوراء يجلس السلطان فيها على أريكته مقابل الداخل أيام العرض والفود ^(٢) ومشاهد الأعياد ، فجاءت من أضخم الأواوين وأحفل المصانع التي تشهد بأبهة الملك وجمالة الدولة .

واتخذ أيضاً بخارج حضرته البستان الطائر الذكور المعروف بأبي فهر ، يشتمل على جنّات معروشات وغير معروشات ، اغترس فيها من شجره كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب ، وسائر الفواكه وأصناف الشجر . ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري ، وسمّى دوح هزم بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائر ^(٣) وشجر النور والتزه من الليم والتارنج والسرّو والرّيهجان ، وشجر الياسمين ، والخيري والنيلوفر وأمثاله . وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة ، وصنع فيه للماء حائراً من عداد البحور ^(٤) ، جلب إليه الماء في القناة القديمة ، كانت ما بين عيون زغوان

(١) وفي نسخة أخرى : الطالبية ، وفي النسخة الباريسية : الطابية .

(٢) كذا ، وفي ب : والفود . وفي نسخة أخرى : والفود .

(٣) كذا ، وفي ب : والحدائق . وفي نسخة أخرى : والحرار .

(٤) وفي نسخة أخرى : وصنع فيه للماء حاجزاً من أعواد الحور .

وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن ، وتركب البناء العاديّ ذا الهياكل المائلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة في أخرى ، فعطف هذه القناة من أقرب السموات ^(١) إلى هذا البُستان . وأمطاها حائطاً وصل ما بينها حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جب عميق المهوى ، رصيف البناء متباعد الأقطار مربع القناة مجلّج بالكلس ، إلى أن يغمره الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية ، فينبعث في الصهريج إلى أن يعقب حوضه ، وتضطرب أمواجه يترفه الحظايا عن السعي بشاطئه لبعد مداه فيركبن في الجواري المنشآت ثبجه فيتبارى بهنّ تباري الفتح ، ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبيراً وصغراً على أعمدة المرمر ، مشيدة جوانبها بالرخام المنجّد ، ورفعت سقفها من الخشب المقدّر بالصنائع المحكّمة والأشكال المنمّقة ، إلى ما اشتملت عليه هذه الرياض من المقاصير والأواوين والحوائر والقصور غرفاً من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار ، وتأتّق في مبانيه هذه واستبلغ وعدل عن مصانع سلفه ورياضهم إلى متزّهاته من هذه ، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال وطار لها ذكر في الآفاق .

* (الخبر عن فرار أخيه أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن ذلك من الأحداث) *

كان الأمير أبو إسحاق في إيالة أخيه المستنصر ، وكان يعاني من خلقه وملكته عليه شدة ، وكان السلطان يخافه على أمره وخرج سنة إحدى وخمسين وستائة لبعض الوجوه السلطانية ، ففرّ الأمير أبو إسحاق من معسكره ، ولحق بالدواودة من رياح ، فبايعوه بروايا من نواحي نقاوس ، واجتمعوا على أمره . وبايع له ظافر مولى أبيه النازع إليهم واعتقد منه الذمّة والرتبة ، وقصدوا بسكرة وحاصروها ، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي ابن الحسن بن مزني من مشيختها . واثتمر به الملاء ليقتلوه ، ففرّ إليه وصار في جملته . ثم بايع له أهل بسكرة ودخلوا في طاعته . ثم ارتحلوا إلى قابس فنازلوها ، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب . وأهمّ السلطان شأنه ، وتقبّض

(١) وفي نسخة أخرى : الثمرات .

على ولده فحبسهم بالقصبة جميعاً . ووكل بهم من يحوطهم وألف ابن أبي الحسين الحيلة في فساد ما بين الأمير أبي إسحاق ومولاه ظافر ، بتحذير ألقاه إلى أخته بالحضرة تنصّحاً ، فبعثت به إلى أخيها ، فتنكر لظافر وفارقه ، وسار إلى المغرب . ثم لحق بالأندلس ، وافترق جموع الأمير أبي إسحاق فلهق يتلمسّان ، وأجاز منها إلى الأندلس . ونزل على السلطان محمد بن الأحمر فرعى له عهد أبيه ، وأسنى له الجراية . وشهد هنالك الوقائع ، وأبلى في الجهاد . ولم يزل السلطان المستنصر يتاحف ابن الأحمر ويهاديه ، ويوفد عليه مشيخة الموحّدين مصانعة في شأن أخيه واستجلاءً لحاله ، إلى أن هلك . وكان من ولاية أخيه أبي إسحاق ما نذكر . ولحين مهلكه أجاز ظافر من الأندلس إلى بجاية . وأوفد ولده علي الواصل مستعباً وراعياً في السبيل إلى الحج . وقلق المستولي على الدولة بمكانه ، وراسل شيخ الموحّدين أبا هلال عباد^(١) بن محمد الهتائيّ صاحب بجاية في اغتياله عن قصده ، فذهب دمه هدراً وبقي ولده عند بني توجين حتى جاءوا في جملة السلطان أبي إسحاق ، وبید الله تصارييف الأمور .

* (الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها إلى الزاب) *

كان بنو النعمان هؤلاء من مشيخة هنتانة ورؤسائهم ، وكان لهم في دولة الأمير أبي زكريا ظهور ومكان ، وخلصت ولاية قسنطينة لهم يستعملون عليها من قرابتهم . واتصل لهم ذلك أول دولة المستنصر ، وكان كبيرهم أبو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد ، وكان لهم في مداخلة اللحياني أثر . فلما استوسق^(٢) للسلطان أمره ، وتمهدت دولته نكبهم وتقبّض عليهم سنة إحدى وخمسين وستائة ، فأشخص أبا علي إلى الإسكندرية ، وقتل ميمون وانقرض أمرهم . وظهر أثر ذلك بالزاب خارج تسمّى بأبي حمارة ، فخرج السلطان من تونس وقصده بالزاب ، فأوقع به وبجموعه وتقبّض عليه ، وسبق إلى السلطان فقتله ، وبعث برأسه إلى تونس فنصب

(١) كذا ، وفي ب : عباد .

(٢) استوسق الأمر : انظم . (قاموس) .

بها . وقفل السلطان إلى مقرّه فترّل بها ، وسخط وجوهاً من سُلَيْم : من مرداس ودباب ، كان فيهم رحاب بن محمود وإبنه ، فاعتقلهم واشخصهم إلى المهديّة فأودعهم بمطبخها ورجع إلى تونس ظافراً غانماً .

* (الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية) *

كان صاحب مَكَّة ومتولّي أمرها من سادة الخلق وشرافهم ولد فاطمة ، ثم من ولد إبنها الحسن صلوات الله عليهم أجمعين ، أبو نعي وأخوه إدريس ، وكانوا قائمين بالدعوة العباسيّة منذ حولها إليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين يوسف بن أيّوب الكردي ، وأمر الموسم وولايته راجعة إليه ، وإلى بنيه ومواليه من بعده إلى هذا العهد . وجرت بينهم وبين الشريف صاحب مكة مغاضبة وافقها استيلاء الططر على بغداد ، ومحوهم رسم الخلافة بها ، وظهور الدعوة الحفصيّة بأفريقية ، وتأميل أهل الآفاق فيها وامتداد الأيدي إليها بالطاعة . وكان أبو محمد بن سبعين الصوفي نزيلاً بمكة ، بعد أن رحل من بلده مرسيةً إلى تونس ، وكان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية ، وسالكاً مرتاضاً بزعمه على طريقة الصوفية . ويتكلم بمذاهب غريبة منها ، ويقول برأي الوحدة كما ذكرناه في ذكر المتصوّفة الغلاة ، ويزعم بالتصوّف في الأكوان على الجملة ، فأرهق في عقيدته ، ورمي بالكفر أو الفسق في كلماته ، وأعلن بالنكير عليه والمطالبة له شيخ المتكلمين بأشبيلية . ثم بتونس أبو بكر بن خليل السكوني ، فتنمّر له المشيخة من أهل الفتيا وحملة السنّة وسخطوا حالته .

وخشي أن تأسره البيّنات فلهق بالمشرق ونزل مكة ، وتذمّم بجوار الحرم الأمين ، ووصل يده بالشريف صاحبها . فلما أجمع الشريف أمره على البيعة للمستنصر صاحب أفريقية ، داخله في ذلك عبد الحق بن سبعين وحرّضه عليه ، وأملى رسالة بيعتهم ، وكتبها بخطه تنوّهاً بذكره عند السلطان والكافة ، وتأميلاً للكرة ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الإسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا

عزیزاً ، هو الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيَابِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

هذا النوع من الفتح أعني المبين هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه ، وهو الذي خصّت به مكة ، وهو أعظم فتح نذر في أيام الدهر والزمان الفرد منه خير من أيام الشهر ، وبه تتم النعمة ، ويستقيم صراط الهداية ، وتحفظ النهاية ، وتغفر ذنوب البداية ، ويحصل النصر العزيز ، ونور السكينة ، وتتمكن قواعد مكة والمدينة . وكلمة الله عاملة في الموجودات بحسب قسمة الزمان . ثم لا يقال إنها متوقفة على شيء ، ولا في مكان دون مكان .

وهذا الفتح قد كان بالقصد الأول والقدر الأكمل ، للمتبوع الذي أفاد الكمال الثاني كالسبع المثاني ، فإنه هو الإسوة صَلَّى الله عليه وسلم ، وكل نعمة تظهر على سعيد ترجع إليه مثل التي ظهرت على خلقته وعلى يديه . وإن كانت نصبة مولده صَلَّى الله عليه وسلم ورسالته تقتضي ختم الأنبياء بهذا القرن الذي نحن فيه ، وأماننا فيه هو ختم الأولياء . فمن فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة ، ورفعت له الدرجة ، وضفت عليه الرحمة . ومن وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشd وسار على صراطه ، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وأرهاطه . ومن حرم هذا فقد حرم من ذلك ، والأمر هكذا .

وسنة الله كذلك ، وصلى الله على رسوله الذي طلع المجد من مدينته بعدما أطلعه من بلده ، ورضي الله عن خليفته المنتخب من عنصر خليفة عمر صاحب نبیه ، ثم من عمر صاحبه وولّيه والحمد لله على نعمه .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد ولد آدم محمد . « حم ، والكتاب المبين ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . قد صح أن هذه الليلة فيها تنزل الآيات وترتقب البينات ، وفيها تخصيص القضايا الممكنة وأحكام الأكوان ويفرق الأمر ، ويفسر الملك الموكل بقبض الأرواح بحمل الآجال في الأزمان ، وفيها تقرر خطة الإمامة والملك ، وتفيض الإمامة بالهلك ، وهي في القول الأظهر في أفضل الشهور ، وفي السابع والعشرين منه كما ورد في الحديث المشهور . ثم هي في أم القرى وفي حرمها تقدّر بقدر زائد ، ويعم فضلها إلا للحائد عن الفائدة ،

وإنما قلت هذا لرسمته ليعلم من وقف على الخطبة التي اقتضبتها ، والليلة التي فيها قرأتها ، أنها من أفضل المطالب التي قصدت ، وأن القرائن التي اجتمعت فيها ولها ، زادت على الفضائل التي لأجلها رصدت ، وأيضاً تأخر فيها مجد إمام عن إمام ، وبعد مجد إمامه وراء إمام هو وراء الإمام ، ورحمت فيها نفس خليفة عبرت وتلقب وعظمت فيها ذات خليفة تحيي التي سلفت ، فهذه نعمة بركة ينبغي أن يقرر حدّها ويتحقّق مجدها ، ولا يقدر قدرها فإنها ليلة قدر ، ليلة قدرها .

والحمد لله حمداً واصلاً : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على واحد الله في عنايته سيّدنا محمد « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين » إلى قوله « منهم ما كانوا يحذرون » الحق الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته ، وفي سنة الله التي لا تحول ولا تبدّل والمتعارف من عاداته التي ربطها بحكمته التي تعدّل ولا تعدّل ، أن لكل هداية نبويّة ضلالة فرعونيّة ، وكذا الحال في الأولياء ، ومع كل مصيبة فرج ، ولا ينعكس الأمر في الأتقياء . ولكل ظلم ظالم متجبر قهر قاهر متكبر ، وعند ظهور ظفر المبطل يظهر قصد الحق المفضل . وفي عقب كل فترة أو فيها كلمة قائم بحق يغلب لا يُغلب ، وفي كل دور أو قرن أمانة تطلب بشخصها ولا تطلب ، وكواكب الكفر اذا طلعت على أفق الإيمان فيه نكب آفة ، وكلمة الله اذا عورضت تكرر معارضتها قافلة . وإنما ذكرت ذلك بعد الذكر المحفوظ ليتذكّر بالآيات الظاهرة إلى الآيات القاهرة . وليعلم كل مؤمن أن كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب ، وعاملة في الأشياء مع الأزمان والحقب ، وأن رجال الملة الحنفية أعلى المنازل والرتب . ولذلك يقول في نوع فرعون الأذل ، ونوع موسى الأجل : أشخاصها متعددة ، وأكوانها متّحدة ، والله غالب على أمره . وقد قيل إن الملة الحنفية المضريّة تنصرها السيرة العُمريّة الحمديّة المستنصريّة .

ولعلّ الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه ، ينجيه من المغرب ولا ينقله عنه ، فينبغي لمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، وبما يجب كما يجب أن لا يتغير قصده ولا يتوقف عند سماع المهلكات حمده ، قد قيّدت أقدام قوم بشرك الشرك ، وحملهم الضجر إلى الهلك بطاعة الترك وكع^(١) كيد الكنود هلك كنعان وكل بصر.

(١) كذا ، وفي ب : وكع .

بصيرته ، وليس لهم ثوب الذلّ بالعرض ، وجعل مصيبة الدين تفتته مع جحوده
لسلطان السنّة والفرض . وأما هامان المرتدين فليس هم بالمؤمنين ، وعلا فرعون
الشر في الأرض ، والله يمين على المستضعفين في الأرض بنصر من عنده ، ويهلك
المفسدين بجند من رفده . وينبغي أوجب أن نضرب عن ذكر كائنة مدينة السلام ،
فإنها تزلزل الطبع وتحمل الروح إلى ساحة الشام أو تفرع في صلاة كسوف شمس
سرورها إلى التسليم بالاستسلام وتكبر أربع تكبيرات على الأنس ويودع بعد ذلك
وعد وسلام ، وينتظر قيامه بقيام أمر محيي الدين والإسلام ، والحمد لله على كل
حال .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الذي أعجزت خصاله العدّ والحدّ ، مسلم
والطبقة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر أمّتي خليفة يحثي
المال حثياً لا يعدّه عدداً . وقال صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان خليفة يقسم
المال ولا يعد . زاد أبو العباس الهمداني ، وأشار بيده إلى المغرب . وذكر بهاء الدين
التبريزي في ملحمة التي زعم أنه لا يثبت فيها من الأخبار إلا ما صحّحته روايته ،
ولا يذكر من الأحكام المنسوبة إلى الصنائع العمليّة إلا ما أبرزته درايته . ولا يعتبر
من الأعلام الدينيّة إلى ما أدركته هدايته . قال في الترجمة الأولى : إذا خرجت نار
الحجاز يقتل خليفة بغداد ، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار ،
ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس ، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند .

ذكرت هذا ليعلم المقام أيده الله أنه هو المشار إليه ، وأنه الذي يعول في إصلاح ما
فسد بحول الله عليه . ومن تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان
الحديث ، تبين له ما أردناه وذلك يظهر من وجوه ، منها : أن الخليفة المذكور لم
يسمع به فيما تقدم ، ولا ذكر في الدول الماضية ، ولو ذكر لرددنا القول به وأهملناه
لأجل تقييده بآخر الزمان . والثاني : أن آخر الزمان الذي يراد به ظهور الشروط
المتوسطة ، وأكثر العلامات المنذرة بالساعة هو هذا بعينه . الثالث : لا خليفة لأهل
الملة في وقتنا هذا غير الذي قصدناه .

وهذه أقطار الملة منحصرة ومعلومة لنا من كل الجهات ، والذي يشاركه في الإسم
ويقاسمه في إطلاقه فقط لا يصدق عليه ، إذ هو أضعف من ذرة في كرة ، ومن غلة
في رملة . وأفقر من قصد طالب السراب ، ويده مع هذا أبيض من التراب فصعّ

سبر والتقسيم ، وبتصفّح الموجودات والأزمان والدول والمراتب والنعوت إنه هو لا شريك له فيها ، والمصحّح لذلك كله ، والذي يصدق وينطبق عليه مدلول الحديث كرمه الذي يعجز عنه الحدّ ، ولا يتوقّف فيه العد . وهذا خليفة الملة كذلك ، وهذه دلائله هي أوضح من نار على علم . وهذه خصاله شاهدة له بفضائل السيف والقلم ، وهذه خزائنه تغلب الطالب وتعجز عن الدافع ، وهذه سعوده في صعوده ، وهذه متاجر تعويله على الله رابحة وهذه أخواله بالكلية صالحة ، وهذه سعائته ناجحة . ثم هذه موازين ترجيحه راجحة ، والحمد لله كما يجب .

وما النصر إلا من عند الله وصلى الله على عبده محمد بن عبدالله إنه من بكة وإنه للحق وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، وإنه إلى خضر لا تحصر الحصر ويحدر فيها النذر^(١) ويحافظ على سنة الرؤوف الرحيم . صلى الله عليه وسلّم أمّا بعد فبهدهم اقتده ، الحمد لله الذي أحسن بمقام الإحسان وتمّم النعمة ، ويّن لمن تبيّن علم البيان ، وحكم لمن أحكم الحكمة وسبقت في صفات أفعاله صفة الرحمة وذكر الهداية في كتابه بعد ذكر النعمة ، هو الرؤوف بالبرية وهو الرحيم والحفي بالحنفية ، وهو القاهر الماضي المشيئة الذي يقبض ويبسط ويمضي المشيئة . شهد له بالكمال الممكن الذي أبرزه وخصّصه وعرفه بالجلال من يسره لذلك وخلصه . هو الذي استعمل عليها من اختاره لإقامة النافلة والفرض ، وأعمى من أهلها من توسّل له بنية العرض وأعتق العقاب وسر العقاب وأهمل العقاب بطاعة من يستعمر به الربع المعمور ، وأنعم على المستضعفين في الأرض بإمام نجر المجد في بحر خصاله يعد بعض البعض .

سنته محمديّة ، وسيرته بكريّة وسريرته علويّة ، وسلالته عُمريّة . فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض ، بل هذه خطوط فصل الطول فيها مثل العرض . عرف بالرياسة العالية ، ووصف بالنفاسة السالية ، وشهد له بذلك الخاص والعام ونزه من النقائص . التزيه النفس ومن نزهه في سلطانه علمه العام . صلى الله على الإسوة الرؤوف بالمؤمنين ، سيّدنا محمد الذي أنزل عليه الترتيل ، وكتب اسمه في صحيح القصص والنصوص ، ونبي الله به وبأمة أمته الذين شبّههم بالبنيان المرصوص ،

(١) كذا ، وفي ب : النذر .

وعلى آله وصحبه الكرام البررة الذين اصطفاهم وطهرهم ، ثم أيدهم فطهروا الأرض من الكفرة الفجرة . وأخرج من ظهورهم ذرياتهم بالدين أظهرهم ، ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم .

ومنهم الخليفة المستنجد بالله المفضل على الناس ، ولكن أكثرهم ورضي الله عنهم وعنه ، وضاعف للمحب الثواب الدائم منهم ومنه . وبعد خدمة يتقدم فيها بعد الحمد والتصلة والدعاء للدولة الدالة على قبول الدعوة أصلية ، تحية بعضها مكية وكلها ملكوتية ، وروضة ريجها حضرة القدس ونشرها يدرك فيه صحة النفث ، روح القدس . وتكبر عن أن تشبه بالعنبر والند والورد وأزهار الربى والرياض . لأن المفارق للمادة مفارق لغير المفارق لها مفارقة السواد للبياض . ثم هي مع هذا واجبة القصد عذبة الورد . تذكر الذاكر الذكي بعرفها الذكي لمدرجات جنة الخلد والنعيم . وفي مثل هذه فليتنافس المتنافسون .

وتذكر النفس النفيسة لذة النعيم لأنها ظاهرة طيبة ، وكريمة صبيّة ، واقفة على حضرة الملك والسلطان ، ومدار فلك النسك ومستقر الإمامة والجلالة ، ومعدل الهداية والدلالة ، وأصل الأصالة ودار المتقين . وبيت العدالة وحزب اليقين . وإنسانها الأعظم معلي الموحدين على الملحين وقائم الدين وقيمه ، ومقر الإسلام ومقدمه ، القائم بالدعوة العامة بعد أبيه إمام المجد والفخر ، ثم الأمة الذي اذا عزم أوهم بتخصيص مهمل ، اتخذ في خلد ما هو بالفعل مع ما هو بالقوة ، وأن يعرض له في طريق إعراضه الممكن العسير يسره سعه وساعده ساعد القوة وإن سمع بالحمد في جهة حد به ^(١) بخاصة خصاله بعد مجد الأبوة وفخر النبوة . لا يذكر معه ولا عنده صعب الأمور إلا بالضد ، فإنه مظهر العناية الإلهية . ومراة المجد والجد . هو علم العلم ثم هو محل الحلم ، اسمه متوحد في مدلوله كالإسم العلم . وعهده لا يتوقف على اللسان ولا على رسوم القلم .

كتب في السماء وسمع به في الكرسي وكذلك العرش ، وما هنا إنما هو مما هنالك فهو الأعلى . وإن كان في الفرش هو شامخ القدر ظاهر الفضل شديد البطش . ثم هو ما ظهر عليه علم أن الشجاعة لم تنتقل من الانسان إلى الأسد . ولا يقال هذا بحر العلم

(١) كذا . وفي ب : حله .

فينقل من الطبيعة إلى بحر الخلد ، لأن ذلك كله فيه بوجه أكمل وبه وعليه ، وفي يديه بنوع أفضل بلغ ذروة النهاية المخصوصة ، بالمطالب العالية وحصل في الزمان الفرد ما حصله الفرد في الأيام الخالية . وبلغ في تبليغ حمده بصفاته ما بلغ الأشد عمره ونال غاية الانسان ، ويتعجب منه في القيامة عمره ، ويسره أمره طلعت سعوده على مولده ، ومطالعه كلمة بحده لأحكام الفلك وطالعه . إن حرّ القول فيه وفهم شأنه ، قيل هو من فوق الأطلس والمكوكب ، وإن قيس سعده بالكلمات الثلاثة كان كالبيسط مع المركب .

أي غاية تطلب بعد طاعته ، وأي تجارة تنظر مع بضاعته ، له الحمد بيده الملك والأمانة ، بل له الكل بفضل الله وفيه المقصد والسلامة ، لا بل له الفتح المبين وتتميم النعمة والهداية ونور السكينة ، وفيه الإمارة والعلامة . منير مكة بإزاء بيت بكة خطب بخطبته ، والذي ذهب بالمدينة يطلب فلعله يسعفه في خطبته أفئدة السرّ تطير اذا سمعت بذكره ، والمهندات البتر تلين لباس ساعده . ويقول طباع أربابها بشكره دولة التوحيد ، توحدت له إذ هو واحد الأوحاد ، وسياسة التسديد تحكمت له فهو مدبرها الأرشد . ومع هذا كتابته أهملت صيت الصادين ، وكورت شمس الفتح ، ثم الفتح والصادين .

وكذلك الثلاثة الذين من قبلهم لا نذكر معه الأديب حبيب في رد الأعجاز على الصدور ، فإنه الذي يعتبر في ذلك والذي يصدر عنه هو واقع في الصدور ، وأفعل في طباع المهرة وفي نفوس الصدور يتأخر عن شعره شعر الرجلين . وبعده نذكر الطبقة ، ثم شعراء نجد ، والخبب والجلي والولد بعده والهدلي ، والمؤكد هو تقديمه في المغرب من ذلك . والهدلي علوم الأدب ، الخمسة تمها وسادسها وسابعها زاده من عند نفسه . وخليل النحو لو حضر عنده كان خليله في تحصيل نوعه وجنسه ، والفارسي تلميذه ثم الآخر بعده والأخفش الكبير ثم الصغير ما ضرب لهم من قبل في مثله بنصيب . وأقام أئمة النحو تنحو نحوه بنحو ينحوه نحو نحو ، ثم لا يكون كالمصيب . وكل كوفي بل كل بصري يحب الظهور إذا سمع به اختفى ، والمنصف منهم هو الذي بنحوه اكتفى . أقيسة الفقه الثلاثة هذبها وحصلها ، وأصوله كما يجب علمها وفصلها . والمسائل الطولية تكلم على مفصلها ومحملها ، وسهّل الصعب من مخصّصها ومهمّلها .

وإن فسر كتاب الله المعجز عجز أرباب البلاغة بإعجاز بعد إعجازه ، وإن تعرض لعوارض ألفاظه أظهر العجب في اختصاره^(١) وإيجازه . وإن شرع في شرح قصصه وجدله ، وفي تفسير ترغيبه وترهيبه . ومثله يبصر الناظر فيه والمستمع لما لم يسمع وما لم يبصر ، فإنه سلك بقدّم كماله وتكميله على قنطرة بعد لم تعبر ويضطر الزعيم به بتحصيله إلى تجديد قنطرة أخرى ، وبعد هذا يفتقر في بيانه إليه في الأولى وإلى الله في الأخرى . وإن تكلم على متشابهه ومحكمه علم الإصطلاح . ثم بيان النوع للخبر به وبمحكمه ، وكذلك القول على الناسخ والمنسوخ والوعد والوعيد . وإن يشاء طول في مطولاتهم واختصر من مختصراتهم ، فبيده الزيادة وضد المزيد ، وأما تحرير أمره ونهيه وأسراره ورقائقه ، وفواتح سوره وحقائقه . والذي يقال إنه لا من جنس الذي يكتب والذي هو أعظم من الذي يرد ، وإليه الأحوال تنتسب فهو الشارح لها والخبر بها ، وإن تأخر . ويتّوع في ذلك ويزيد غير الأول وإن تكرّر . وأما علوم الحديث وأنواعها السبعة فهو بعلمها ، وصناعته بجملتها للعلماء يعلمها . والوراقة والضبط والخط وقفت عليه مهنة غايتها ، وحمله الأمر علوم الشريعة كلّها عرفها ووعاها ورعاها حق رعايتها . وكل العلوم العقلية والنقلية ورجاها على ذهنه الطاهر من دنس النسيان ، والمقامات السنية المستترلات العلوية أدركها بعد التبيان . فمن أراد أن يمدحه ويعدل عن إطلاق القول فقد اقترف أعظم الذنب . ومن ذكره ولم يتلذذ بذلك فقد جاء بما ينضج حمله الخبب ، ونعوت جماها يمنع عن إدراكها نور المتصل ، وحضرة جلاله محفوظة بجدها وجدها وقاطعها المنفصل . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قل اللهم مالك الملك ، الله أعلم حيث يجعل رسالاته .

هذه كلّها . آياته والرابعة : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها فإنها هباته إن حدث المحدث بكرمه يقول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده ، ونصر الله إذا جاء لا يردّه ، وفتح من ذا الذي عن السعيد يصدّه ، والمؤرخ يتذكّر بتذكره الكلمات الهذلي من حيث المطالب ، إذ قال : وقد سئل عن الإمام علي بن أبي طالب هو الإمام وفيه أربعة وهو واحداه حتى في رفع التشبيه وقطع السبب ، العلم والحلم والشجاعة وفضل الحسب ، يسرّ

(١) كذا ، وفي ب : اختياره ، وهو تحريف .

بحكمته ويغبط بها متى يتبع جملته ، الباحث الحكيم ولا يشعر بشعره إذا تصفح
نعوته الشاعر العليم ، وينشد طبعه في الحين والوقت والحزة ويخرج الحروف من مخارج
الهمزة .

شهدتُ لقد أُوتيتَ جامعَ فضله وأنتَ على علمي بذاك شهيدُ
ولَوْ طُلِبَتْ في الغيبِ مِنْكَ سَجِيَّةٌ لَقَدْ قَرَّ^(١) مَوْجُودٌ وَعَزَّ وُجُودُ
أدام الله له المجد الذي يسلك به على النجدين ، وحفظ عليه مقامه الذي لا يحتقر فيه
إلا جواهر النقيدين ، وبسط له في العلم والقدرة . وبارك له في نصيب النصرة ، وجهز
به العسرة ، وردّ به على الشرك والفتن الكثرة ، وعرفه في كل ما يعترمه صعباً جميلاً ،
ولطفاً خفياً جليلاً . وكفاه الشر المحض وخير الشرين ، كما كشف له عن الخير المحض
وعلم السرّين ، وأيده بروح منه في السرّ والسريّة ، وحفظه في حركاته وسكناته من
الصغيرة والكبيرة . وجعل كلمته غالبية للضد والجند ، وبلغ صيته الجزائر والبربر ، ثم
إلى السند والهند . وخلّد ملكه وسلّم فلكه ، ورفع على أوج المجد بجده الطويل
العريض . وأهبط عدوّه من الشرف الأعلى إلى الخضيض .

وفتح الله به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح الثغور ، وشرح بنصره وفتح
أوساط الصدور ، وما استنبطته الضمائر من نفثات الصدور وجبر به كسر الظفر ،
ووصل به ما انقطع من الأسباب . وعصم جنده من ضد الدنف الأنف ، وردّهم
إلى ردم الأبواب وقدّس كلمته بعد الحرمين في البيت المقدّس ، وسلك به مسالك
السبل في المقيّل والمعرس . وبعد هذا فهذه أدعيتنا ، بل هذه أوديتنا ، وهذه مسائلنا
بل هذه وسائلنا ، وهذه تحية حيّاها ذو الفطرة السليمة ، وهذه خدمة يفتخر بها طبيعة
النفس العليمة . واستنبت فيها الكتاب واستثبت فيها الجواب ، والموجب لإصدارها
محبة أصلها ثابت وفرعها في العلى وحفز عليها حافزان : شوق قديم ، ورعاية الآخرة
والأولى ، بل الأمر الذي هو في خير الأمور من أوسطها ، وإذا نظم في عقد الأسباب
الموجبة لهذه الخطابة يكون في وسطها ، فإنه يحكي أحكام الشأن والقصة ، ويعلم
المقام أبدّه الله الذي حصل له في حرم الله وحرّم نبيه من النصيب والحصة ، وفيه
ينبغي أن تذهب الألفاظ وتلحظ عيون الأغراض وينفع المقاصد ويحمل على جواهر

(١) كذا . وفي ب : قر .

الكلمات كالأعراض ، فمن ذلك ذكر الملة التي كملت وكبرت ، والأخرى التي كانت ثم غمرت وصغرت . والمنبر الذي صعد خطب خطبته على الخطيب ، وعرج إلى سماء السمّ وهو على درجه ، والآخر الذي درج عنه خطيبه وضاق صدره الأمر حرجه ، وقرئت سورة الإمام بحرف المستنجد المستبصر ، لا بحرف المستعصم بن المستنصر .

بسط القول وأطلق ترجمة عبدالله بعدما قبضه الذي أمات وأحيا ، وقبض على مقامه ودفع للإمام محمد بن يحيى ، وكان ذلك في يوم وصول الخبر بمصيبة الاختبار ، ثم في ليلة الآيات والاعتبار . ومن ذلك أيضاً بعمة الحمد والدعاء الظاهر القول والمقبول في الحرم الشريف ، وانقياد الذي ظهر على طائفة الحق والسيد والشريف . ومن ذلك صعود علم الأعلام على جبل معظم الحجّ ومقرّ وفوق الحاج ، ووقف به المتكلم في مقام من كانت له سقاية الحاج ، وذكر كما يجب بها يجب في موقف الإمام مالك ، وعرف هنالك أنه الإمام والمالك لكل مالك ، وتعرّفت نكرة دعوة التوحيد بتخصيص خصوصية المخصوص بعرفه ، وتعارف بها من تعارف معه هناك ونعم التعارف والمعرفة .

ثم ذكر عند المشعر الحرام وفي جهات حدود حرم المسجد الحرام ، وعظم اسمه بعد ذكر الله وذكر الوالدين ، وطلع الذاكر بالتركيب إلى الجديّن الساكنين في الخلد والخالدين . فلماً وصل الحجيج إلى عقبة الجمرات ، ذكر مع السبع الأولى سبع مرّات . وكذلك عند الركوع في مسجد الخيف ، وكل كلمات تمجيده بالكم والكيف ، وعند التوجّه من هناك ويوم النفر قرّرت آياته المذكورة في كتاب الجفّر . ثم جدد الذكر حول البيت العتيق بالحمد والشكر . فلماً وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان ، أظهر الخفي المكنون فكان ذلك مع التسييح والقرآن ، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذهاب ينتظر الخطفة من نحو عراق والمغرب . والآن وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب .

والذي حمل على هذا كلّ طاعة كاملة وغبطة عاملة ، والله تعالى بفضله يعصمه من كيد المعاند ، فإنه في إظهار دعوة التوحيد كالجهاد والمكابد ، ومعاد التحيّة على المقام الأرفع والمقرّ الأنفع ، وعلى خدام حضرته العلية ، وأرباب دعوته الجليلة وأنواع رحمته تعالى وبركاته . والحمد لله كما يجب وصلى الله على نبيّه محمد وعلى آله وسلّم .

كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف ، والحمد لله رب العالمين . ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملأ والكافة ، وقرئت بمجمعهم وقام خطيبهم القاضي أبو البراء في ذلك المحفل فاسحنفر في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها ، وإظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته . ثم جار بالدعاء للسلطان وانفضّ الجمع فكان من الأيام المشهودة في الدولة .

* (الخبر عن الوفود من بني مرين والسودان وغيرهم) *

كان بنو مرين كما قدّمناه قد تمسّكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الحفصية ، وحملوا عليها من تحت أيديهم من الرعايا مثل : أهل مكناسة وتازى والقصر ، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع . ولما هلك السلطان وولي ابنه المستنصر ، وقارن ذلك ولاية المرتضى بمراكش . ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره ، فاتصل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس ، وأوفد بها مشيخة بني مرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين وستائة فكان لها موقع من السلطان والدولة . وقابلهم من الكرامة كل على قدره ، وانصرفوا محبورين إلى مرسلهم . ولما هلك أبو يحيى بن عبد الحق ، واستقل أخوه يعقوب بالأمر أوفد إليه ثانية رسله وهديته ، وطلب الإعانة من السلطان على المرتضى وأمر أهل مراكش على أن يقيموا بها الدعوة له عند فتحها . ولم يزل دأبهم إلى أن كان الفتح :

وفي سنة خمس وخمسين وستائة وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان ، وهو صاحب بُرنو موطنه قبلة طرابلس ، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلى والشيات ، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غصّ بها الفضاء ، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته ، وأخذها من كل حيوان يشبه . وفي سنة ثمان وخمسين وستائة وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لأخيه ، ووفد على السلطان بتونس فتلقاه من المبرة والحباء بما يلقي به

كرام القوم وعظماء الملوك ، ونزل من دولته بأعزّ مكان . وكان تتابع هذه الوفادات مما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها .

* (الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته) *

كان هذا الحافظ أبو عبدالله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية ، وكان علامة في الحديث ولسان العرب ، وبليغاً في الترسيل والشعر . وكتب عن السيد أبي عبدالله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ببلنسية . ثم عن ابنه السيد أبي زيد . ثم دخل معه دار الحرب حين نزع إلى دين النصرانية ، ورجع عنه قبل أن يأخذ به . ثم كتب عن ابن مردنيش . ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيّان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا ، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ ، فحضر مجلس السلطان وأنشد قصيدته على رويّ السين يستصرخه ، فبادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسي فوجدتهم في هوة الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية . ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكوباته ، فكتبها مدّة . ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي ، وكان أثر عنده من الخطّ المغربي فسخط ابن الأبار إنفة من إثارة غيره عليه ، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه ، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالردّ ووضعها استبداداً وإنفة ، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد متمثلاً .

وَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطَى وَذَرِ الذُّلَّ وَلَوْ كَانَا فِي جِنَانِ الْخُلُودِ

فمنى ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته ، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عدّاً فيه من عوتب من الكتاب ، واعتب . وسمّاه أعتاب الكتاب . واستشفع فيه بإبنة المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته ، وأعادته إلى الكتابة . ولما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس

راهل تونس ، وكان في ابن الأبار أنفةً وبأو^(١) وضيق خلق ، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه ، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه .

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم ، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببتزرت ، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته ، ووصف اباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم . ونبه على ذلك فاستضحك وقال : إن أباً لا تعرف حياته من موته لأب خامل . ونميت إلى ابن أبي الحسين فأسرّها في نفسه ، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية . ثم رضي عنه واستقدمه ورجّعه إلى مكانه من المجلس . وعاد هو إلى مساءة السلطان بترعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق وساءل عنه السلطان فاستبهم ، فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها ، فأنهم بتوقع المكروه للدولة والتريص بها كما كان أعداؤه يشنون عليه ، لما كان ينظر في النجوم فتقبّض عليه . وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع ، وألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بآيات أولها :

طغى بتونس حلف سموه ظلماً خليفة

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه ، ثم بقتله قعصاً بالرماح ، وسط محرم من سنة ثمان وخمسين وستائة ، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه .

* (الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريه أحواله) *

أصل هذا الرجل من لبيانة قرية من قرى المهديّة ، مضمومة اللام مكسورة الثانية ، وكان أبوه عاملاً بالمهديّة ، وبها نشأ ابنه أبو العباس . وكان يتحل القراءة والكتاب حتى حذق في علوم اللسان . وتفقه على أبي زكريّا البرقي ، ثم طالع مذاهب الفلاسفة ، ثم صار إلى طلب المعاش من الإمارة فولّي أعمال الجباية . ثم صودر في ولايته على مال أعطاه وتخلّص من نكبته ، فنهض في الولايات حتى شارك كل عامل

(١) بأي ، بأوا — عليهم : فخر ، تكبر — قاموس .

في عمله بما أظهر من كفايته وتنميته للأموال حتى قصر بهم وأدبل منهم .
وكان الكثير منهم متعلّقاً من ابن أبي الحسين رئيس الدولة بدمّة خدمة ، فأسفه بذلك وأغرى به بطانة السلطان ومواليه ، حتى سعوا به عند السلطان ، وأنه يروم الثورة بالمهدية ، حتى خشن له باطن السلطان . فدخل عليه ذات يوم أبو العباس الغساني فاستجازه السلطان في قوله : «اليوم يوم المطر» فقال الغساني : «ويوم رفع الضرر» فتنبه السلطان واستزاده فأنشد : «والعام تسعة كمثّل عام الجوهري» فكانت إغراء باللياني ، فأمر أن يتقبّض عليه وعلى عدوه ابن العطار ، وكان عاملاً . وأمر أبا زيد بن يغمور بامتحانها فعدّ بهما حتى استصفى أموالها ، والميل في ذلك على اللياني . وكان في أيام امتحانه يباكر موضع عمله . ثم نمي عنه أنه يروم الفرار إلى صقلية ، وبوحد بعض من داخله في ذلك فأقرّ عليه ، فدفع إلى هلال كبير الموالي من العلوج فضربه إلى أن قتله ، ورمى بشلوه إلى الغوغاء فعبثوا به وقطعوا رأسه ، ثم تتبع أقاربه وذووه بالنكال إلى أن استنفدوا .

* (الخبر عن انتقاض أبي علي الملياني بمليانة على يد الأمير أبي حفص) *

كان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلب أبوه الأمير أبو زكريا عليه ، وفتح تلمسان وأطاعه يغمراسن وكان بين زناته بتلك الجهات فتن وحروب شأن القبائل اليعاسيب ، وكانت مليانة من قسمة مغراوة بني ورسيفان ، وكانوا أهل بادية . وتقلّص ظل الدولة عن تلك الجهات بعض الشيء . وكان أبو العباس الملياني من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين ، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه العلماء ، وانتهت إليه رئاسة الشورى ببلده . ونشأ ابنه أبو عليه علي من الخلال متهاكاً في الرياسة متبعاً غواية الشبيبة ، فلما رأى تقلّص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغمراسن ومزاحمته لهم ، حدّثه نفسه بالاستبداد فخلع طاعة آل أبي حفص ونبد دعوتهم ، وانبرى بها داعياً لنفسه . وبلغ الخبر إلى السلطان فسرح إليه أخاه الأمير أبا حفص ، ومعه الأمير أبو زيد بن جامع ، ودن الرنك أخو الفنش ،

وطبقات الجند . فخرج من تونس سنة تسع وخمسين وستمائة وأغذَّ السير إلى مليانة فنازلها مدة ، وشد حصارها حتى اقتحموها غلاباً . وفر أبو علي الملياني ولحق ببني يعقوب من آل العطار أحد شعوب زغبة فأجاروه وأجازوه إلى المغرب الأقصى ، إلى أن كان من خبره ما نذكره بعد .

ودخل الأمير أبو حفص مليانة ومهَّد نواحيها وعقد عليها إلى ابن منديل أمير مغراوة فللكها مقيماً فيها لدعوة السلطان شأن غيرها من عمالات مغراوة . وقفل الأمير أبو حفص إلى تونس ، ولقيه بطريقه كتاب السلطان بالعقد له على بجاية وإمارتها ، فكره ذلك غبطة بجوار السلطان . وتردَّدت في ذلك رغبته فأدبل منها بالشيخ أبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي ، وعقد له على بجاية . ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة إلى أن كان من خلافته ما نذكر بعد . وهلك شقيقه أبو بكر بن الأمير أبي زكريا ثانية مقدمه إلى تونس سنة إحدى وستين وستمائة ، فتفجَّع له الخليفة والقراة والناس وشهد السلطان جنازته ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد وخروجه في رباح) *

كان أبو القاسم بن أبي زيد هذا في جملة ابن عمه الخليفة ، وتحت جريته ، وأبوه أبو زيد هو القائم بالأمر بعد أبيه الشيخ أبي محمد . ولحق بالمغرب . وجاء أبو القاسم في جملة الأمير أبي زكريا ، وأوصى به إليه إلى أن حدثته نفسه بالتوثب والخروج . وخامره الرعب من إشاعة تناقلها الدهماء ، سببها أن السلطان استحدث سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة ، حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق تسهياً على الناس في المعاملات بأسرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجاتهم . ولما كان لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها ، وسمى سكته التي استحدثها بالهندوس . ثم أفسدها الناس بالتدليس وضررها أهل الربب ناقصة عن الوزن ، وفشا فيها الفساد . واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطع وقتل ، وصارت ريبة لمن تناولها . وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقَّعت الفتنة . وأشيع من طريق الحدثان الذي تكلف به العامة أن الخارج الذي

يشير الفتنة هو أبو قاسم بن أبي زيد ، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عليه ، وأهمه شأن أبي القاسم ابن عمه ، وبلغه الخبر فخامره الرعب الى ما كان يحدث نفسه من الخروج ، ففر من الحضرة سنة إحدى وستين وستمائة ، ولحق برياح ونزل على أميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة ، فباع له وقام بأمره . ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض إليه فخشي بادرته واضطرب أمر العرب من قبيله . ولما أحس أبو القاسم باضطرابهم وخشي أن يسلموه إذا أزالهم السلطان عليها ، تحوّل عنهم ولحق بتلمسان وأجاز البحر منها إلى الأندلس ، وصحب الأمير أبا إسحاق ابن عمه في مشى اغترباها بالأندلس . ثم ساءت أفعاله وعظم استهتاره . وفشا النكير عليه من الدولة فلحق بالمغرب وأقام بتينملل مدة . ثم رجع إلى تلمسان ، وبها مات . وقام الأمير أبو إسحاق بمكانه من جوار ابن الأحمر إلى أن كان من أمره ما ذكره .

* (الخبر عن خروج السلطان الى المسيلة) *

لما اتصل بالسلطان شأن أبي قاسم ابن عمه أبي زيد وفصّاله عن رياح إلى المغرب بعد عقدهم معه ، خرج من تونس سنة أربع وستين في عساكر الموحدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن ، ومحو آثار الفساد منه ، وتقويم العرب على الطاعة . وتنقّل في الجهات الى أن وصل بلاد رياح فدوخها ومهد أرجاءها ، وفرّ شبل بن موسى وقومه الدواودة الى القفر ، واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رياح . ووافاه هنالك محمد من عبد القوي أمير بني توجين من زناتة مجدداً لطاعته ، ومتبركاً بزيارته ، فتلقاه من البرور تلقى أمثاله ، وأثقل كاهله بالحباء والجواهر ، وجنب له الجياد المقربات بالمراكب المثقلة بالذهب ، واللجم المحلات . وضرب له الفساطيط الفسيحة الارحاء من ثياب الكتان وجدل القطن ، الى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكرع والأسلحة . واقطع له مدينة مقرة وبلد أوماش من عمل الزاب ، وانقلب عنه الى وطنه .

ورجع السلطان إلى تونس وفي نفسه من رياح ضغن إلى أن صرف إليهم وجه تدبيره كما ذكره ، ولثانية احتلاله في الحضرة كان مهلك مولاه هلال ، ويعرف بالقائد ،

وكان له في الدولة مكان بمكان تلادا للسلطان ، وكان شجاعاً جواداً خيراً محبباً سهلاً مقبلاً على أهل العلم وذوي الحاجات ، وله في سبيل الخير آثار منقولة صار له بها ذكر ، فارتضى السلطان لمهلكه ، والله أعلم .

* (الخبر عن مقتل مشيخة الدواودة) *

كان شبل بن موسى وقومه من الزواودة فعلوا الأفاعيل في اضطراب الطاغية ، ونصب من لحق بهم من أهل هذا البيت للملك ، فبايعوا أولاً للأمير أبي إسحق كما ذكرناه ، ثم بعده لأبي القاسم ابن عمه أبي زيد ، وخرج إليهم السلطان سنة أربع وستين وستائة ودوخ أوطانهم ، ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد بطاعة ممرضة فتقبلها ، وطوى لهم على البت^(١) . ورجع إلى تونس فأوعز إلى أبي هلال عباد عامل بجاية من مشيخة الموحدين باصطناعهم واستتلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد ، وجمع السلطان أحلافه من كعوب بني سُلَيْم ودباب وأفاريق بني هلال ، وخرج من تونس سنة ست وستين وستائة في عساكر الموحدين وطبقات الجند ، ووافاه بن عساكر ابن السلطان إخوة بني مسعود ابن السلطان من الزواودة فعقد لمهدي ابن عساكر عن إمارة قومه وغيرهم من رياح ، وقرّب بنو مسعود ابن السلطان مصحرين والسلطان في أثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بثنايا الزاب ، ورسلمهم تختلف إلى أبي هلال إيناساً للمراجعة على يده للدخلة في الساحة^(٢) ، فأشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك ، فتقبلوا إشارته . ووفد أميرهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه يحيى ، وبنو عمّهما أولاد زيد بن مسعود : سباع بن يحيى بن دريد وابنه ، وطلحة بن ميمون بن دريد ، وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وأخوه ، فتقبّض عليهم لحينهم ، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة . وانتهت أسلابهم وضربت أعناقهم ونصبت أشلاؤهم بزوايا من جهات نقاوس حيث كانت

(١) وفي نسخة أخرى : التنا ولا معنى لها هنا ، والبت كما في القاموس بث الأمر : قطعه وأمضاه . وبث الوعد : أكد أنجازه . ولعلها : طوى لهم على الشاء .

(٢) وفي نسخة أخرى : السابقة .

بيعتهم لأبي القاسم بن أبي زيد ، وبعث برؤسهم إلى بسكرة فنصبها بها ، وأغذ السير غازياً إلى أحيائهم وأحلهم^(١) بمكانها من ثنانيا الزاب .

وصحبهم هنالك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والأبنية ، فامتلات أيدي وسدويكشر منها ، ونجوا بالعيال والولد على الأقتاب ، والعساكر في أتباعهم إلى أن أجازوا وادي شدى قبله الزاب وهو الوادي الذي يخرج أصله من جبل راشد قبله المغرب الأوسط ويمر إلى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب إلى أن يصب في سبخة نفزاوة من بلاد الجريد . فلما جاز فلهم الوادي أصبحروا إلى المفازة المعطشة والأرض الحرّة السوداء المستحجرة المسماة بالحماة ، فرجعت العساكر عنهم ، وانقلب السلطان من غزاة ظافراً ، ظاهراً وأنشده الشعراء في التهنته ، ولحق فل الزواودة بملوك زناتة فترل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيان ، وبنو محمد بن مسعود على يعقوب بن عبد الحق ، فأجازوهم وأوسعوهم حباء وملؤا أيديهم بالصلات ، ومرابطهم بالخيال ، وأحياءهم بالإبل ورجعوا إلى مواطنهم فتغلبوا على واركلة وقصور ريغة واقتطعوها من إيالة السلطان . ثم انحرفوا إلى الزاب فجمع لهم عامله ابن عتو وكان موطناً بمقرة ، ولقيهم على حدود أرض الزاب فهزموه واتبعوه إلى بطاوة^(٢) فقتلوه عندها ، واستطالوا على الزاب وجبل أوراس وبلاد الحصنة إلى أن اقتطعتهم الدول إياها من بعد ذلك ، فصارت ملكاً لهم ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن طاغية الافرنجة ومنازلته تونس في أهل

نصرانيته) *

هذه الأمة المعروفة بالافرنجة وتسميها العامة بالإفرانيس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى إفرانسة ، ونسبهم إلى يافث بن نوح ، وهم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الأندلس وخليج القسنطينة ، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة من جانب الغرب . وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع

(١) وفي نسخة أخرى : حلهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : قطاوة .

الروم ، ومنهم لَقَنُوا دينها . واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم وأجازوا البحر إلى أفريقية مع الروم فلكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سَبَيْطَلَّة وجَلُولَا (١) وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولمس وغيرها من الأمصار وغلبوا على من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد .

ثم جاء الاسلام وكان الفتح بانتزاع الأعراب من أيديهم سائر أمصار أفريقية ، والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل أقريطش ومالطة وصقلية وميورقة ورجوعهم إلى عدوتهم . ثم أجازوا خليج طنجة وغلبوا القوط والجلالقة والبشكس ، وملكوا جزيرة الأندلس وخرجوا من ثنایاها ودورها إلى بسائط هؤلاء الإفرنجة فدوخوا وعاثوا فيها . ولم تزل الصوائف تتردد إليها صدرأ من دولة بني أمية بالأندلس ، وكان ولاية أفريقية من الأغلبة ومن قبلهم أيضاً يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدو حتى غلبوهم على الجزر البحرية ، ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن ، فكان يخالجهما الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها .

وكان الربع أقرب إلى سواحل الشام وطمع فيها . فلما وصل أمر الروم بالقسطنطينا ورومة ، واستفحل ملك الفرنجة هؤلاء ، وكان ذلك على هيئة سمو الخلافة بالمشرق : فسموا حينئذ إلى التغلب على معاقل الشام وثغوره ، وزحفوا إليها وملكوا الكثير منه واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد ، ونازلوا مصر والقاهرة مراراً حتى جاد الله للإسلام من صلاح الدين أبي أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنة واقية ، وعذابا على أهل الكفر مصوباً ، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه ، وطهر المسجد الأقصى من أفكهم وكفرهم ، وهلك على حين غرة من الغزو والجهاد . ثم عاودوا الكرة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد الملك الصالح صاحب مصر والشام ، وأيام الأمير أبي زكريا بتونس ، فغضبوا أبنيهم بدمياط وافتتحوها وتغلبوا في قرى مصر . وهلك الملك الصالح خلال ذلك ، وولي ابنه المعظم وأمكنك المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل ، ففتحو الغياض وأزالوا مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم ، وقيد سلطانهم أسيراً

(١) ورد في المقدمة ان المدن الحافلة التي كانت بالغرب أيام القرطاجنيين هي : سبيطة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة . ومدينة جلولا تبعد عن القيروان أربعة وعشرين ميلاً فتحها عبد الملك بن مروان في جيش معاوية بن حريج (المعجم التاريخي / ٢٣) .

من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالإسكندرية ، حتى مرّ عليه بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يكتنوا المسلمين من دمياط فوقوا له . ثم على شرط المسالمة فما بعد فنقضه لمدة قريبة ، واعتزم على الحركة إلى تونس متجنّياً عليهم فيما زعموا بمال أديعاء تجّار أرضهم ، وأنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلثائة دينار بغير موجب يستندون إليه ، فغضبوا لذلك واشتكوا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس لما كان فيها من الجماعة والموتان .

فأرسل الفرنسييس طاغية الإفرنج وإسمه سنلويس بن لويس وتلقّب بلغة الإفرنج روا فرنس ومعناه ملك إفرنس ، فأرسل إلى ملوك النصارى يستنفرهم إلى غزوها ، وأرسل إلى القائد^(١) خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية بمظاهرتة ، وأطلق يده في أموال الكنائس مدداً له . وشاع خبر استعداد النصارى للغزو في سائر بلادهم ، وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الإنكثار وملك اسكوسيا وملك نزول^(٢) وملك برشلونة وإسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك الإفرنج ، هكذا ذكر ابن الأثير وأهم المسلمين بكل ثغر شأنهم وأمر السلطان في سائر عملاته بالاستكثار من العدة ، وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختران الحبوب ، وانقبض تجّار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين . وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسييس لاختبار رحاله ومشارطته على ما يكف عزمه . وحملوا ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا ، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أنّ غزوه إلى أرضهم . فلما طلبوا المال اعتلّ عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن صاحب مصر ، فأحضر عند الفرنسييس واستجلس فأبى وأنشده قائلاً من قول أبي مطروح شاعر السلطان بمصر :

قال للفرنسييس اذا جئتـه
آجرك الله على ما جرى
أتيت مصرأً تبتغي ملكهـا
فساقت الحين إلى أدّهم

مقال صدق من وزير نصيح^(٣)
من قتلي عباد نصارى المسيح
تحسب ان الزمر بالطبل ريح
ضاق به عن ناظرئك الفسيح

(١) هو بابا رومة .

(٢) وفي نسخة أخرى : ملك تورك .

(٣) وفي نسخة أخرى : من قول فصيح .

وكل أصحابك أودعتهُم
سبعون ألفاً لا يرى منهم
أَلمَكَ اللهُ إلى مثلهُـا
إن كان باباكم بذا راضياً
فاتخذوه كاهناً إنه
وقل لهم إن أزمعوا عودةً
دار ابن لقمان على حـاها
بسوء تذكيرك بطن الضريح
إلا قتيـل أو أسير جريح
لعـل عيسى منكم يستريح
فرب غش قد أتى من نصيح^(١)
أنصح من شق لكم أو سطيح
لأخذ ثار أو لشغل قبيح
والقيـد باقٍ والطواشي صيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالإسكندرية والطواشي في عرف أهل مصر هو الخصي . فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك الطاغية إلا عتواً واستكباراً ، واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات ، عذراً دافعهم به ، وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه . فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستائة فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية . ثم واعدتهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس بالنذير بالعدو والاستعداد له ، والتفير إلى أقرب المدائن ، وبعث الشواني لاستطلاع الخبر واستفهم أياماً^(٢) .

ثم توالى الأساطيل بمرسى قرطاجنة وتفاوض السلطان مع أهل الشورى من الأندلس والموحدين في تخليتهم وشأنهم من التزول بالساحل أو صدهم عنه ، فأشار بعضهم بصدهم حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء فيضطرون إلى الإقلاع . وقال آخرون إذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض الثغور سواها فلكوه واستباحوه ، واستصعبت مغالبتهم عليه فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من التزول فترلوا بساحل قرطاجنة بعد أن ملئت سواحل رودس بالمراقبة يجند الأندلس والمطوعة زهاء أربعة آلاف فارس لنظر محمد بن الحسين رئيس الدولة .

ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس ، وثلاثين ألفاً من الرجال فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما الله قال : وكانت أساطيلهم ثلثمائة بين كبار وصغار ،

(١) وفي النسخة التونسية : إن يكن البابا بذا راضياً فرب عسر قد أتى من نصيح .

(٢) وفي نسخة أخرى : واستفهم أياماً . وفي النسخة التونسية عبارة زائدة وهي : « ثم كان عينه فراه » وهذا المثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه .

وكانوا سبعة يعاسبسكان فيهم الفرنسيين وإخوة جرون^(١) صاحب صقلية وصاحب الجزر ، والعليجة زوج الطاغية تسمى الرينة ، وصاحب البر الكبير ، وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون ظاهروا على غزو تونس وليس كذلك . وإنما كان واحداً وهو طاغية الفرنجة وإخوته وبطارقته ، عدّ كل واحد منهم ملكاً لفضل قوّته وشدة بأسه ، فأنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة . وكانت ماثلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها ، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بالواح الخشب ونصّدوا شرفاتها وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى وتحصّنوا . وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها . وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر والمدد يأتيه في أساطيله من البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأصلحة والأقوات .

وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحيرة واتبعهم العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم ، فكلفوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم ، وبعث السلطان في ممالكه حاشداً فوافته الأمداد من كل ناحية ، ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش وولهاصة وهوارة حتى أمدّه ملوك المغرب من زناته ، وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيّان وأخرج السلطان أبنيته^(٢) وعقد لسبعة من الموحدّين على سائر الجند من المرتقة والمطوعة وهم : إسماعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو ، وأمرهم كلّهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر منهم .

واجتمع من المسلمين عددٌ لا يحصى ، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بإيوائه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم : الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود ، وابن أبي الحسين ، وقاضيه أبو القاسم بن البراء ، وأخو العيش . واتصلت الحرب والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنتصف ، فزحف يومئذ يحيى بن صالح وجزون فأت من الفريقين خلق ، وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده ، ثم غلبوا عليه بعد أن قتل من النصاري زهاء

(١) أوفي النسخة الباريسية : جرون .

(٢) لا معنى لهذه الجملة وربما تكون : وأخرج السلطان من أبنيته ، أو أخرج السلطان من في .

خمسائة ، فأصبحت أبنيته مضروبة كما كانت . وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي ، واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه ، وابتلي المسلمون بتونس ، وظنوا الظنون وأنهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان .

ثم إن الله أهلك عدوهم وأصبح ملك الفرنجة ميتاً يقال حتف أنفه ، ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقع فأبته^(١) ويقال أصابه مرض الوباء ، ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه . ولما هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط سمي بذلك لميلاده بها فبايعوه ، واعتزموا على الإقلاع . وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم ، وترجع بقومها فأسغفها السلطان لما كان العرب اعتموا على الإنصراف إلى مشاتهم .

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستائة فتولّى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاماً . وحضر أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغاز وزيان بن محمد بن عبد القوى أمير بني توجين ، واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته . وأقلع النصارى بأساطيلهم وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب ، وهلك الكثير منهم وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية . يقال إنه عشرة أحمال من المال وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجنيقاً . وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح ، وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتي بنيانها من القواعد ، فصير أبنيتها طامسة ورجع الفرنجة إلى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال ولم يزلوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم علامات . واستبدّ صاحب صقلية لنفسه ، وكذا صاحب نايل وجنوده وسردانية ، وبقي بيت ملكهم الأقدم لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

(١) هكذا بالأصل وفي النسخة التونسية : فأبته بمعنى أماته .

* (الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبدالله بن أبي الحسين
وأبي سعيد العود الرطب) *

أصل هذا الرجل من بني سعيد رؤسا القلعة المجاورة لغرناطة ، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين ، وكان جدّه أبو الحسن سعيد صاحب الأشغال بالقيروان . ونشأ حافده محمد هذا في كفالته . ولما عزل وقفل إلى المغرب هلك ببونة سنة أربع وستائة ورجع حافده محمد إلى تونس والشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب أفريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيدة . ولما ولي الأمر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه . ثم جاء السيد أبو علي من مراکش وعلى أفريقية محمد ابن أبي الحسين في جملته إلى أن هلك في حصار هسكورة بمراكش كما قدّمناه ورجع ابن أبي الحسين إلى تونس واتصل بالأمرير أبي زكريا لأول استبداده فغلب على هواه ، وكان مبعثاً في صحابة الملوك . ولما ولي المستنصر أجراه على سته برهة . ثم تنكر له إثر كائنة اللحياني ، وعظمت سعاية أعدائه من الباطنية^(١) وأشاعوا مداخلته لأبي القاسم بن عزومة^(٢) أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد فنكبه السلطان واعتقله بدارة تسعة أشهر . ثم سرحه وأعادته إلى مكانه وثار من أعدائه ، واستولى على أمور السلطان إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وستائة وكلف ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن أشغال الحضرة ، وكان قد اقتنى مالا جسيماً ونال من الحضرة منالاً عظيماً . وكان الرئيس أبو عبدالله متفناً في العلوم مجيداً في اللغة والشعر ينظم فيجيد وينثر فيحسن^(٣) ، وله من التأليف : كتاب ترتيب المحكم لابن سيده على نسق الصحاح للجوهري واختصاره ، وسمّاه الخلاصة . وكان في رياسته صليب الرأي قوى الشكيمة عالي المهمة ، شديد المراقبة والحزم في الخدمة ، وله شعر نقل منه التيجاني وغيره ، ومن أشهره ما نقل له يخاطب عنان بن جابر عن الأمير أبي زكريا لما خالف واتبع ابن غانية ، وهي على روي الراء ، وكان قبلها أخرى على روي

(١) وفي نسخة أخرى : البطانة وهي الأصح .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن عذومه .

(٣) وفي نسخة أخرى : يقرض الشعر فيحسن ، ويرسل فيجيد .

الدال . وكان له ولد اسمه سعيد وترقى في حياة أبيه في المراتب السلطانية . ثم اغتبط دون غايته وفي ثالث مهلكه . كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاني المعروف بالعود الرطب ، ويعرف أهل بيته بالمغرب ببني أبي زيد . وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الأشغال كان قر من المغرب أيام السعيد لحفوة نالته ، ولحق بسجلماة سنة إحدى وأربعين وقد كان انتزى بها عبدالله الهزرجي ، وباع للأمير أبي زكريا فأجازه عبدالله إلى تونس ، ونزل على الأمير أبي زكريا ونظمه في طبقات مشيخة الموحدين وأهل مجلسه . ثم حظي عند إبنه المستنصر بعد نكبة بني النعمان حظوة لا كفاء لها . واستولى على الرأي والتدبير إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وستائة فشيح طيب الذكر ملحقا بالرضوان من الخاصة والعامة ، والله مالك الأمور .

* (الخبر عن انتقاض أهل الجزائر وفتحها) *

كان أهل الجزائر لما رأوا تقلص ظل الدولة عن زناته وأهل المغرب الأوسط حدثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم ، وخلع ربة الطاعة من أعناقهم فجاءوا بالخلعان . وسرح السلطان إليهم العساكر سنة تسع وستين وستائة وأوعز إلى صاحب القفر صاحبه وهو أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاني فقدم إليها في عساكر الموحدين سنة إحدى وسبعين وستائة ونازلها مدة حول ، وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع إلى بجاية ، وهلك بمعسكر ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستائة .

ثم إن السلطان صرف عزمه إلى منازلهم سنة أربع وسبعين وستائة وسرح إليهم العساكر في البر وأنفذ الأساطيل في البحر وعقد على عسكر تونس لأبي الحسن بن ياسين وأوعز إلى عامل بجاية بإنفاذ عسكر آخر فأنفذه لنظر أبي العباس بن أبي الأعلام ، ونهضت هذه العساكر براً وبحراً إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب ، واشتد حصارها . ثم افتتحها عنوة وأُخِنَ فيهم القتل وانتهت المنازل وافتضح الكرائم في أبقارهن . وتقبض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس وصفدين ، واعتقلوا بالقصبة أن سرحهم الواصل بعد مهلك السلطان والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن مهلك السلطان المستنصر ووصف شيء من أحواله) *

كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العمال ، فأصابه في سفره مرض ورجع إلى داره ، واشتدّت علته وكثر الأرجاف بموته ، وخرج يوم الأضحى ستة خمس وخمسين وستائة يتهاذى بين رجلين ، ورجلاه تخطّان في الأرض^(١) وجلس للناس على منبر متجلداً . ثم دخل بيته وهلك ليلته تلك رضوان الله عليه ، وكان شأن هذا السلطان في ملوك آل حفص عظيماً . وشهرته طائفة الذكر بما انفسح من أمر سلطانه ، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به . وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على ابنه وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم تحرير وملك أورع وشجاع أهيش متفيثين ظلّ ملكة متناغين في اللياذبه لطموس معالم الخلافة شرقاً ، وغرباً على عهده ، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه^٢ .

فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك بشرق الأندلس وغربها ، فأخذت قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستائة وبلنسية سنة ست وثلاثين وستائة بعدها وأشبيلية سنة ست وأربعين وستائة ، واستولى التتر على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الإسلام سنة ست وخمسين وستائة ، وانترع بنو مرين ملك بني عبد المؤمن ، واشتملوا على حضرة مراکش دار خلافة الموحدين سنة ثمان وستين وستائة ، كل ذلك على عهده وعهد أبيه ودولتهم أشدّ ما كانت قوّة وأعظم رفاهية وجباية وأوفر قبلاً وعصابة ، وأكثر عساكر وجنداً ، فأملّه أهل العلم للكرّة ، وأجفلوا إلى الإمساك بحقوقه . وكان له في الأئمة والجلال أخبار ، وفي الحروب والفتوح آثار مشهودة ، وفي أيامه عظمت حضارة تونس ، وكثر ترف ساكنها . وتأتق الناس في المراكب والملابس والمباني

(١) وفي نسخة أخرى : ورجلاه لا يخطّان الأرض « وهي أصح » .

(٢) بعد وفاة أبو زكرياء سنة ٦٤٧ هـ ١٢٤٩ م تولى ابنه المستنصر الحكم الذي ازدادت في عهده الدولة قوة ومهابة والرعية رفاهية وهناء ، لكنه كان شديد البطش غير متوقف في سفك الدماء ، ومن ضحاياه الكاتب الكبير أبو عبدالله بن الأبار القضاعي صاحب المؤلفات الأدبية النفيسة . (قبائل المغرب ص ١٧٠)

والماعون والآنية ، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها إلى أن بلغت غايتها .
رجعت من بعده أدراجها ، والله مالك الأمور ومصرفها كيف يشاء .

* (الخبر عن بيعة الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور
بالمخلوع وذكر أحواله) *

لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين وستمائة كما قدمناه ، اجتمع الموحدون
وسائر الناس على طبقاتهم إلى ابنه يحيى ، فبايعوه ليه مهلك أبيه ، وفي غدها وتلقب
الواثق . وافتتح أمره برفع المظالم وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء في الجند وأهل
الديوان ، وإصلاح المساجد ، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس . وامتدحه الشعراء
فأسنى جوائزهم ، وأطلق عيسى بن داود من اعتقاله وردّه إلى حاله . وكان المتولي
لأخذ البيعة عن الناس والقائم بأمره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانه من
الدولة ورسوخه في الشهرة ، فقام بالأمر ولم يزل على ذلك إلى أن نكبه وأدال منه
بالجبر والله أعلم .

* (الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن الحبر على
الدولة) *

هذا الرجل اسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته أبو الحسن أندلسياً من أعمال
مرسية ، وفد مع الجالية من شرق الأندلس أيام استيلاء العدو ، وكان يحسن الكتابة
ولم يكن له من الخلال سواها ، فصرف في الأعمال ، ثم ارتقى إلى خدمة أبي
الحسين فاستكتبه ، ثم رّاه إلى ولاية الديوان فعظمت حالته ، وكانت له أثناء ذلك
مداخلة للواثق ابن السلطان ، واعتدّها له سابقة . فلما استوثق الأمر للواثق رفع منزلته
واختصّه بالشورى ، وقلّده كتاب علامته . وكان سعيد بن أبي الحسين مزاحماً له
بهافساً لما كان أسف من تقديمه . فأغرى به السلطان ورغبه في ماله فتقبّض على أبي
سعيد بن أبي الحسين لسته أشهر من الدولة سنة ست وسبعين وستمائة واعتقل

بالقصبه . واستقل على معلقة^(١) ابن ياسين وابن صياد الرجاله وغيرهم . وقدم على الأشغال مدافعاً في الموالي العلوجين . ووكل أبا زيد بن أبي الأعلام من الموحدين بمصادرة ابن أبي الحسين على المال وامتحانه .

ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى الاملاق واستحلف فخلف . ثم ضرب فادعى مؤتمناً من ماله عند قوم استكشفوا عنه فأدوه . ثم دلّ بعض مواليه على ذخيرة بداره دفينة فاستخرج منه زهاء ستمائة ألف من الدنانير ، فلم يقبل بعدها مقالته ، وبسط عليه العذاب إلى أن هلك في ذي الحجة من سنته ، ودفن شلوه بجيث لم يعرف مدفنه . واستبد أبو الحسن الحبّير على الدولة والسلطان ، وبعث أخاه أبا العلاء والياً على بجاية ، وأسف المشيخة والبطانة بعتوه واستبداده وما يتجشمونه من مكابرة بابه إلى أن عاد وبال ذلك على الدولة كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحق من الأندلس ودخول أهل بجاية في طاعته) *

كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين وستائة لأبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي ، وأدال به من أخيه الأمير أبي حفص ، فأقام والياً عليها إلى أن هلك ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستائة كما قدّمنا وعقد عليها من بعده لابنه محمد ، وكان له غناء في ولايته واضطلع بأمره إلى أن هلك المستنصر وولي ابنه الواثق ، فبادر إلى انقياد^(٢) طاعته ، وبعث وفد بجاية ببيعتهم . ثم قلّد أبو الحسن القائم بالدولة أخاه إدريس ولاية الأشغال ببجاية ، فقام بها وأفنى الأموال وتحكّم في المشيخة . وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه فهم إدريس بنكته ، فخشي محمد بن أبي هلال بادرته ودخل بعض بطانته في قتله . وفاوض الملاء فيه فعدوا عليه لأوّل ذي القعدة سنة سبع وسبعين وستائة بمقعده من باب السلطان فقتلوه ورموا برأسه إلى الغوغاء والزعانف فبعثوا به .

(١) وفي نسخة ثانية : وتقبّض على نقله . ومقتضى السياق واستقلّ بنقله ابن ياسين وابن صياد .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابتداء .

ووافق ذلك حلول السلطان أبي إسحق بتلمسان ، وكان عند بلوغ الخبر إليه بمهلك أخيه المستنصر أجمع أمره على الإجازة لطلب حقّه بعدما تردّد برهة . ثم اعترم وعاد إلى تلمسان ، ونزل على يغمراسن بن زيّان فقام لمورده ، واحتفل في مبرّته ، وفعل أهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم وخشوا بواد السلطان بالحضرة فخطب السلطان أبا إسحق وأتوه ببيعتهم ، وبعثوا وفدهم يستحثّونه للملك ، فأجابهم ودخل إليها آخر ذي القعدة من سنته ، فبايعه الموحدون والملاّ من أهل بجاية . وقام بأمره محمد بن هلال . ثم زحف في عساكره إلى قسنطينة فنازلها ، وبها عبد العزيز بن عيسى بن داود ، فامتنعت عليه فأقلع عنها إلى أن كان من أمره ما نذكره .

* (الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء السلطان أبي إسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع الوثائق) *

لما بلغ الخبر إلى الوثائق ووزيره المستبدّ عليه ابن الحبيّر بدخول السلطان أبي إسحق بجاية ، شيع العساكر إلى حربه ، وعقد عليها لعمّه أبي حفص . واستوزر له أبا زيد بن جامع ، فخرج من تونس واضطرب معسكره بجاية . وعقد الوثائق على قسنطينة لعبد العزيز بن عيسى بن داود لدمّة صهر كانت له من ابن الحبيّر ، فتقدّم إلى قسنطينة ، ومانع عنها الأمير أبا إسحق كما ذكرناه . ثم اضطرب رأي ابن الجيد في خروج الأمير أبي حفص ، وأراد انفضاض عسكره فكتب الوثائق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما بصاحبه ، فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحق ، وبعثوا إليه بذلك . واتصل الخبر بالوثائق وهو بتونس منتبذا عن الحامية والبطانة . فاستيقن ذهاب ملكه ، وأشهد الملاّ ، وانخلع عن الأمر لعمّه السلطان أبي إسحق غرة ربيع الأوّل من سنة ثمان وسبعين وستائة وتحول عن قصور الملك بالقصبة إلى دار الأقورى وانقرضت دولته وأمره ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحق على الحضرة) *

لما بلغ السلطان أبا اسحق كتاب أخيه الأمير أبي حفص وابن جامع من بجاية ، يادر مغذا إليهم . ثم وافاه خبر انخلاع الواثق ابن أخيه بتونس ، فارتحلوا جميعاً وسائر أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقائه ، وآتوا طاعتهم ودخل الحضرة منتصف الحجة آخر سنة ثمان وسبعين وستمائة ومحمد بن هلال شيخ دولته . وعقد على حجابته لأبي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسين ، وعلى خطة الأشغال لابن أبي بكر بن الحسن ابن خلدون^(١) . كان وفد مع أبيه الحسن على الأمير أبي زكريا من أشيلية لذمة رعاها لهم ، لما كانت أم ولده أم الخلائف من هدايا ابن المحتسب أبي زكريا محلهم . ورحل الحسن إلى المشرق ومات هنالك ، وبقي ابنه أبو بكر بالحضرة فاستعمله الأمير أبو اسحق لأول دخوله في خطة الأشغال ، ولم يكن يليها إلا الموحدون كما قلناه . وعقد لفضل بن علي بن مزني على الزاب ، ولم يكن أيضاً يليها إلا الموحدون . لكن رعى لفضل بن مزني ذمة اغترابه معه إلى الأندلس ، فعقد له على الزاب ، ولأخيه عبد الواحد على بلاد قسطليلية . ثم تقبّض على أبي الحبر وأمر باعتقاله ودفعه إلى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان . ووجد مكان التائب عليه طوابع وطلسمات مختلفة الأشكال والصور ، وتسحر بها فيما زعموا مخدومه فحاق به وبأهلها . وكان شأنه في الامتحان والاستحلاف والهلاك بالعذاب شأن سعيد بن أبي الحسين أيام صولته^(٢) ، إلى أن هلك في شهر جادي الأولى من سنته ، والله لا يظلم مثقال ذرة .

ولما اعتقد السلطان أبو اسحق كرسي ملكه ، واستوثق عرى خلافته ، تقبّض على محمد بن أبي هلال وقتله بجر^(٣) نكبته سنة ست وسبعين وستمائة لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة وما عرف به من المساعي في الفتنة والله أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : وعلى خطة الأشغال لابن أبي الحسن بن خلدون .

(٢) وفي نسخة أخرى : شأن سعيد بن أبي الحسين منكوبه أيام دولته .

(٣) وفي نسخة أخرى : لحين .

* (الخبر عن مقتل الواثق وولده) *

لما انخلع الواثق عن الأمر وتحول إلى دار الأقوري فأقام بها أياماً . وكان له ثلاثة من الولد أصاغر : الفضل والطاهر ، والطيب ، فكانوا معه . ثم نمي عنه للسلطان أبي إسحق أنه يروم الثورة وأنه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى من الجند ، فأقلق مكان ترشيحه واعتقله بمكان اعتقال بنيه ، وهو من القصبية أيام أخيه المستنصر . ثم بعث إليهم ليلتهم فذبجوا جميعاً في شهر صفر سنة تسع وسبعين وستمائة واستوثق له الأمر وأطلق من عنان الأمارة لولده إلى أن كان من شأنهم ما يذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس ابن السلطان أبي إسحق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك) *

كان للسلطان أبي إسحق من الأبناء خمسة : أبو فارس عبد العزيز وكان أكبرهم ، وأبو محمد عبد الواحد ، وأبو زكريا يحيى ، وخالد ، وعمر ، وكان السلطان المستنصر قد حبسهم عند فرار أبيهم إلى رباح في أيامه ببعض حُجَر القصر ، وأجرى عليهم رزقاً فنشؤوا في ظل كفالته وجميع رزقه ، إلى أن استولى أبوهم السلطان أبو إسحق على الملك فظلموا بأفاته . وطالت فروعهم في دوحه ، واشتملوا على الغز واصطنعوا أهل السوايق من الرجال ، وأرخصى السلطان لهم ظلهم في ذلك . وكان المجلي فيها كبيرهم أبو فارس لما كان مرشحاً لولاية العهد ، وكان ممن اصطنعه وألقى عليه رداء محبته في الناس وعنايته أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري ، وأخوه أبو الحسين لسابقة رعاها لها ، وذلك أن أباهما أبا بكر بن سيد الناس ، كان من بيوت أشيلية حافظاً للحديث راوية له ، ظاهرياً في فقهه على مذهب داود وأصحابه . وكانت لأهل أشيلية خصوصاً من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه ، منذ ولايته غرب الأندلس .

فلما تكالب الطاغية على الدولة^(١) والتم ثغورها واكتسح بساطها ، وأشفّ إلى قواعدها وأمصارها ، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وأفريقية . وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها . فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الأندلس وقبح مصايرها ، وخفة ساكنها ، أجمع الرحلة عنها إلى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء . فأجاز البحر ونزل بتونس فلقاه السلطان تكرمها ، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهواء التي أنشأها^(٢) أمّه أمّ الخلائف .

ونشأ بنوه أحمد وأبو الحسين في جوّ الدولة وحجر كفالتها للاختصاص الذي كان لأبيهم بها . وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا ، وتشوّقوا إلى مراتب السلطان ، واتصلوا بأبناء السلطان أبي إسحق بمكانهم من حجر القصر حيث أنزلهم عمهم بعد ذهاب أبيهم ، فخالطوهم واستخدموا لهم . ولما استولى السلطان على الأمر ورشح ابنه أبا فارس للعهد ، وأجراه على سنن الوزارة فاصطنع أحمد بن سيّد الناس ، ونوّه باسمه وخلع عليه ملبوس كرامته . واختصه بلقب حجابته ، وأخوه أبو الحسين يناهضه في ذلك عنوة . ونفس ذلك عليها البطانة فأغروا السلطان أبا إسحق بابنه وخوّفوه شأنه . وأن أحمد بن سيّد الناس داخله في التوثّب بالدولة . وتولّى كبر هذه السعاية عبد الوهاب بن قائد الكلاعي من عليّة الكتاب ووجههم . كان يكتب للعامة يومئذ ، فسطا السلطان بابن سيّد الناس سنة تسع وستين وستمئة آخر ربيع ، استدعى إلى باب القصر فتعاورته السيوف هرباً . ووري شلوه ببعض الحفر . وبلغ الخبر إلى الأمير أبي فارس فركب إلى أبيه في لبوس الحزن ، فعزّاه أبوه عن ذلك بأنه ظهر لابن سيّد الناس على المكر والخديعة بالدولة . وأماط سواده بيده ، ونجا أبو الحسين من هذه المهلكة . واعتقل في لمة من رجال الأمير أبي فارس بعد أن توارى أياماً إلى أن أطلق من محبسه ، وكان من أمره ما ذكره بعد . واستبلى السلطان في تأنيس ابنه ، ومسح الضغينة عن صدره ، فعقد له على بجاية وأعمالها ، وأنفذه إليها أميراً مستقلاً . وأنفذ معه في رسم الحجابة جدي محمد ابن صاحب أشغاله أبي بكر بن

(١) وفي نسخة أخرى : العدو .

(٢) وفي نسخة أخرى : أسستها .

الحسن بن خلدون ، فخرج إليها سنة تسع وستين وستمائة وقام بأمرها ، ولم يزل أميراً بها إلى آخر دولته كما نذكر والله أعلم .

* (الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسنطينة ومقتله) *

اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى ، ونسبته في كومية من بيوت الموحدين . كان مستخدماً لابن كلداسن الوالي بقسنطينة بعد ابن النعمان من مشيخة الموحدين أيام المستنصر . ووفد ابن كلداسن على الحضرة ، وأقام ابن وزير نائباً عنه بقسنطينة ، فكان له غناء وصداقة ^(١) . وولاه السلطان أبو اسحق حافظاً على قسنطينة . واتصلت ولايته ، وهلك المستنصر واضطربت الأحوال . ثم ولّاه الواثق ، ثم السلطان أبو اسحق وكان ابن وزير هذا طموحاً جموعاً لأموال ^(٢) الناس لا يمل . وعلم أن قسنطينة معقل ذلك القطر وحصنه فحدثه نفسه بالإمتناع بها ، والاستبداد على الدولة . وساء أثره في أهلها فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي اسحق ، واستعدوه فلم يعدمهم لما رأى من مخايل الحراية من الطاغية ^(٣) . وكتب هو بالاعتذار والنكير لما جاء به ، فتقبله وأغضى له عن هباته . ولما مرّ به الأمير أبو فارس إلى محل إمارته من بجاية سنة تسع وسبعين وستمائة قعد عن لقائه وأوفد إليه جمعاً من الصلحاء بالمعاذير والاستعطاف ، فمنحه من ذلك كفاء مرضاته ، حتى إذا أبعد الأمير أبو فارس إلى بجاية ، اعترم على الانتراء . وكاتب ملك أرغون في جيش من النصارى يكون معهم في ثغره يردّد بهم الغزو على أن يكون فيما زعموا داعية له فأجابه ووعد به بيعت الأسطول إليه ، فجاهر بالخلعان ، وانتزى بغير قسنطينة داعياً لنفسه آخر سنة ثمانين وستمائة .

وزحف إليه الأمير أبو فارس من بجاية في عساكره ، واحتشد الأعراب وفرسان

(١) وفي نسخة ثانية : فكان له غناء وصرامة .

(٢) وفي نسخة ثانية : طموحاً جموع الأمل .

(٣) وفي نسخة ثانية : من مخايل انحرافه عن الطاعة .

القبائل إلى أن احتل بجميلة . ووفد عليه من أهل قسنطينة جمع من الرعية ^(١) بعثهم ابن وزير فأعرض عنهم ، وقصد قسنطينة في أول ربيع سنة إحدى وثمانين وستمائة فثار بها وجمع الأيدي على حصارها . ونصب المجانيق وقرب قواعد الرماة ، وقاتلها يوماً أو بعض يوم ، وتسور عليهم المعقل من بعض جهاته . وكان المتولي لتسوره صاحبه محمد ابن أبي بكر بن خلدون ، وأبلى بن وزير عند الصدمة حتى أحيط به ، وقتل هو وأخوه وأشياعها ، ونصبت رؤسهم بسور البلد . وتمشى الأمير في سكك البلد مسكناً ومؤنساً ، وأمر برم ما تثلم من الأسوار وبإصلاح القناطر. ودخل إلى القصر وبعث بالفتح إلى أبيه بالحضرة . وجاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن وزير ، فأخفق مسعاهم ، وارتحل الأمير أبو فارس ثلاثة الفتح إلى بجاية ، فدخلها آخر ربيع من سته ، والله أعلم .

* (الخبر عن قيادة ابن السلطان العساكر إلى الجهاد) *

كان السلطان يؤثر أبناءه بمراتب ملكه ، ويوليهم خطط سلطانه شغفاً بهم وترشياً لهم ، فعقد في رجب سنة إحدى وثمانين لابنه الأمير زكريا على عسكر من الموحدين والجند ، وبعثه إلى قفصة للإشراف على جهاتها . وضمّ جبايتها ^(٢) فخرج إليها وقضى شأنه من حركته ، وانصرف إلى تونس في رمضان من سته . ثم عقد لابنه الآخر أبي محمد عبد الواحد على عسكره ، وأنفذه إلى وطن هواره لانقضاء مغارمهم وجباية ضرائبهم وفرائضهم ، وبعث معه عبد الوهاب بن قائد الكلاعي مباشراً لذلك وواسطة بينه وبين الناس ، فأنتهى إلى القيروان ، وبلغه شأن الدعي وظهوره في دباب بنواحي طرابلس ، فطير بالخبر إلى السلطان وأقبل على شأنه . ثم انتشر أمر الدعي وانكفاً راجعاً إلى تونس ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : بمكر من الرغبة والتوسل .

(٢) وفي نسخة ثانية : مجابيا .

* (الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن) *

كان السلطان لما أجاز البحر من الأندلس لطلب ملكه ، ونزل على يغمراسن بن زيان بتلمسان ، فاحتفل لقدمه وأركب الناس للقائه ، وأتاه يبيعه على عادته من سلفه لما علم أنه أحق بالأمر ، ووعدته النصره من عدوه والمؤازرة على أمره ، وأصهر إليه في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشریفاً خطبه منه ، فأولاه اسعافاً به^(١) . ولما استولى السلطان على حضرته واستبدّ بأحوال ملكه بعث يغمراسن ابنه إبراهيم المكنى بأبي عامر في وفد من قومه لإتمام ذلك العقد ، فاعتمد السلطان مبرّتهم وأسعف طلبتهم ، وأقاموا بالحضرة أياماً ، وظهر من إقدامهم في فتن الدعي مقامات ، وانصرفوا بظعينتهم سنة إحدى وثمانين وستمائة بمجورين مجبورين . وأبنتى بها عثمان حين وصولها فكانت من عقائل قصورهم ومفاخر دولتهم ، وذكراً لهم ولقومهم إلى آخر الأيام .

* (الخبر عن ظهور الدعي أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره) *

كان أحمد بن مرزوق أبو عمارة من بيوتات بجاية الطارئین علیها من المسيلة ، نشأ ببجاية وسياً محترفاً بصناعة الخياطة غراً غمراً . وكان يحدث نفسه بالملك لما كان يزعم أن العارفين يخبرونه بذلك . وكان هو يخط فيريه خطه ذلك . ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة واختلط بعرب المعقل وانتمى إلى أهل البيت ، وادّعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار ، وانه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة ، فاشتملوا عليه وحدّثوا بشأنه أياماً . أخبرني طلحة بن مظفر من شيوخ العمارية إحدى بطون المعقل أنه رآه أيام ظهوره بالمعقل ملتبساً بتلك الدعوى حتى فضحه العجز . ثم لمّا زهدوا فيه لعجز مدّعاه ذهب يتقلّب في الأرض حتى وصل إلى جهات طرابلس ، ونزل

(١) وفي نسخة ثانية : فولاه الأسعاف به .

على دباب وصحب منهم الفتى نصيراً مولى الواثق بن المستنصر ، ويلقب برى^(١) ولما رآه تبين فيه شهاً من الفضل ابن مولاة فطفق يبكي ويقبل قدميه ، فقال له ابن أبي عمارة : ما شأنك ؟ فقص عليه الخبر ، فقال : صدقتني في هذه الدعوى وأنا أثرك من قاتلهم .

وأقبل نصير على أمراء العرب منادياً بالسروور بابن مولاة ، حتى خيل عليهم . ثم نزل بادس إلى ابن أبي عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الواثق ، قصها عليهم ابن أبي عمارة نفيّاً للريب بأمره ، فصدّقوا واطمأنوا ، وأتوه ببيعته . وقام بأمره صرغم^(٢) بن صابر بن عسكر أمير دباب وجمع له العرب ونازلوا طرابلس ، وبها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتي وشهر بعنق الفضة ، فامتنعت عليهم ، ورحلوا إلى بحر بين^(٣) الوطنين بزيور وجهاتها من هواره فأوقعوا بهم . ثم سار في تلك النواحي واستوفى جباية لماية وزواوة وزواغة ، وأغرم نفوسة وغريان ونفزة من بطون هواره وضائع ألزمهم إياها واستوفاه . ثم زحف إلى قابس فبايع له عبد الملك بن مكى في رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة وأعطاه صفقته طواعية ، وفاه بحق آبائه فيما طوقوه وذريعة إلى الاستقلال الذي كان يؤمله ، وأعلن بخلافته ونادى بقومه واستخدم له بني كعب بن سُلَيْم ورياستهم في بني شيخة^(٤) لعبد الرحمن بن شيخة ، فأجابوا داعيه وأنابوا إلى خدمته ، وتوافت إليه بيعة أهل حزبه والحامية^(٥) وقرى نفزاوة . ثم زحف إلى توزر وبلاد قسطنطية فأطاعوه . ثم رجع إلى قفصة فبايع له أهلها ، وعظم أمره وعلاصيته . فجهز إليه السلطان أبو إسحق العساكر من تونس كما نذكره . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن

تونس) *

لما تفاقم أمر الدعي بنواحي طرابلس ، ودخل الكثير من أهل الأنصار في طاعته ،

(١) وفي نسخة أخرى : وتلقب نوبى .

(٢) وفي نسخة أخرى : مرعم .

(٣) وفي نسخة أخرى : ورحلوا إلى مجريس الوطنين بزيور .

(٤) وفي نسخة أخرى : بني شيخة .

(٥) وفي نسخة أخرى : بيعة أهل جربه والحامه وقرى نفزاوة .

جَهَّزَ السُّلْطَانُ عَسَاكِرَهُ وَعَقَدَ لِابْنِهِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا عَلَى حَرْبِهِ ، فَخَرَجَ مِنْ تُونِسَ وَنَزَلَ الْقَيْرَوَانَ ، وَاقْتَضَى مِنْهَا غَرَائِمَ وَوَضَائِعَ اسْتَأْثَرَ مِنْهَا بِأَمْوَالٍ . ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى لِقَاءِ الدَّعِيِّ وَانْتَهَى إِلَى تَمُودِهِ ، وَبَلَغَهُ هُنَاكَ مَا كَانَ مِنْ اسْتِيلَاءِ الدَّعِيِّ عَلَى قَفْصَةِ فَأَرْجَفَ بِهِ الْعَسْكَرُ وَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ ، وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ فَدَخَلَهَا آخِرَ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ سَنَتِهِ ، وَارْتَحَلَ الدَّعِيُّ عَلَى أَثَرِهِ مِنْ قَفْصَةِ وَاحْتِلَالِ الْقَيْرَوَانَ ، فَبَايَعَ لَهُ أَهْلَهَا وَاقْتَدَى بِهِ أَهْلُ الْمَهْدِيَّةِ وَصَفَاقِسَ وَسُوسَةَ فَبَايَعُوا لَهُ ، وَكَثُرَ الْإِرْجَافُ بِتُونِسَ ، فَاضْطَرَبَ السُّلْطَانُ وَأَخْرَجَ مَعْسُكِرَهُ بِظَاهِرِ الْبَلَدِ فِي وَسْطِ شَوَّالٍ . وَضَرَبَ الْغَزْوَةَ عَلَى النَّاسِ وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْعَدَدِ ، وَخَرَجَ إِلَى مَعْسُكِرِهِ بِالْمَهْدِيَّةِ وَتَلَوَّمَ بِهَا لِإِزَاحَةِ الْعُلَلِ . وَارْتَحَلَ الدَّعِيُّ مِنَ الْقَيْرَوَانَ زَاحِفًا إِلَيْهِ فَتَسَرَّبتْ إِلَيْهِ طَبَقَاتُ الْجُنُودِ وَمَشِيخَةُ الْمُوَحِّدِينَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِمَكَاتِهِ وَطَاغِيَةِ^(١) بَنِي الْمُسْتَنْصِرِ خَلِيفَتِهِمُ الطَّوِيلِ أَمَدَ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِمْ ، وَرَحِمَهُ لَمَّا نَالَ الْوَاتِقَ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ عَمَلِهِمْ^(٢) ثُمَّ انْفَضَّ عَنِ السُّلْطَانِ كَبِيرُ الدَّوْلَةِ مُوسَى بْنُ يَاسِينَ فِي مَعْظَمِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَلَحِقَ الدَّعِيُّ بِطَرِيقَةٍ ، فَاحْتَلَّ أَمْرَ السُّلْطَانِ وَانْتَقَضَتْ عَرَى مَلِكِهِ ، وَقَرَأَ إِلَى بَجَايَةِ كَمَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

* (الْخَبَرُ عَنْ لِحَاقِ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَقَ بِجَايَةِ وَدُخُولِ

الدَّعِيِّ بْنِ أَبِي عِمَارَةَ إِلَى تُونِسَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بِهَا) *

لَمَّا انْفَضَّ مَعْسُكِرُ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَقَ آخِرَ شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةِ رَكَبَ فِي خَاصَّتِهِ وَبَعْضَ جُنُودِهِ ذَاهِبًا إِلَى بَجَايَةِ ، وَمَرَّ بِتُونِسَ فَوَقَفَ عِنْدَهَا ثُمَّ احْتَمَلَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَسَارَ فِي كَلْبِ الْبَرْدِ ، فَكَانَ يَعْانِي مِنْ قَلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَتَعَاوَرَ الْمَطَرُ وَالثَّلْجُ شَدَّةً . وَكَانَ يَصَانِعُ الْقِبَائِلَ فِي طَرِيقِهِ سَلَامًا لَهُ^(٣) . ثُمَّ مَرَّ بِقُسْنُطَيْنَةَ فَنَعَهُ عَامِلُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ تَوْفِيَّانَ^(٤) الْهَرْغِي مِنْ دُخُولِهَا وَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَعْضَ الْقُرَى مِنَ الْأَقْوَاتِ ، وَارْتَحَلَ إِلَى بَجَايَةِ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : رَضِيَ بِمَكَانِهِ وَصَاغِيَةَ إِلَى بَنِي الْمُسْتَنْصِرِ .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : عَنْهُمْ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : يَبْذُلُ مَالَهُ .

(٤) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْقِيَانَ الْهَرْغِي .

وكان من أمره ما يذكر . ودخل الدعي بن أبي عمارة إلى الحضرة ، وقلد موسى بن ياسين وزارته ، وأبا القاسم أحمد بن الشيخ حجابته ، وتقبّض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصادره على مال امتحنه عليه . ثم قتله خنقاً ، وصرف خطة الجباية إلى عبد الملك بن مكّي رئيس قابس . واستكمل القاب الملك ، وقسم الخطط بين رجال الدولة ، وصرف همه إلى غزو بجاية ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول أبيه إليه) *

لما وصل السلطان أبو اسحق إلى بجاية في شهر ذي القعدة من سنته طريداً عن ملكه غافلاً عن كرسي^(١) سلطانه ، انتقض عليه ابنه الأمير أبو فارس ومنعه من الدخول إلى قصره ، فترل بروض الرفيع ، وأراد على الخلع فاخلع له . وأشهد الملأ من الموحّدين ومشیخة بجاية بذلك ، وأنزله قصر الكوكب ودعا الناس إلى بيعته آخر ذي القعدة ، فبايعوه وتلقّب المعتمد على الله . ونادى في أوليائه من رياح وسدويكش . وخرج من بجاية زاحفاً إلى الدعي ، واستخلف عليها أخاه الأمير أبا زكريا . وخرج معه الأمير أبو حفص وأخواه ، فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء الدعي ثم انهزامه أمامه واستلحامه وأخوته في المعركة وما كان أثر ذلك من مهلك أبيهم السلطان أبي اسحق وفرار أخيه الأمير أبي زكريا الى تلمسان) *

لما بلغ الخبر إلى الدعي باستبداد الأمير أبي فارس على أبيه واستعداده للقاءه ،

(١) وفي نسخة ثانية : حلى ،

تقبّض على أهل البيت الحفصي ، فاعتقلهم بعد أن همّ بقتلهم . وخرج من تونس في عساكر من الموحّدين وطبقاتهم الجند في صفر سنة إثنيتين وثمانين وستائة فأنتهى إلى مرماجنّة ، وتراءى الجمعان ثالث ربيع الأوّل فاقتتلوا عامّة يومهم . ثم اختلّ مصاف الأمير أبي فارس ، وتخاذل أنصاره فقتل في المعركة ، وانتهب معسكره وقتل إخوته صبراً : عبد الواحد قتله الدعي بيده ، وعمر وخالد وأبو محمد بن عبد الواحد وبعث برؤسهم إلى تونس فطيف بها على الرماح ونصبت بأسوار البلد . وتخلّص عمه الأمير أبو حفص من الواقعة إلى أن كان من أمره ما نذكر .

وبلغ خبر الواقعة إلى بجاية فاضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض ، وخرج السلطان أبو إسحق وابنه الأمير أبو زكريا إلى تلمسان ، فقدم أهل بجاية عليهم محمد بن السيد قائماً فيهم بطاعة الدعيّ ، وخرج في أتباع السلطان فأدركه بجبل بني غبرين من زواوة ، فتقبّض عليه ، ونجا الأمير أبو زكريا إلى تلمسان ، وبقي السلطان أبو إسحق ببجاية معتقلاً ريثما بلغ الخبر إلى تونس ، وأرسل الدعيّ محمد بن عيسى بن داود فقتله آخر ربيع الأوّل سنة إثنيتين وثمانين وستائة وانقضى أمره ولله عاقبة الأمور ، لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

* (الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص وبيعته وما كان على أثر ذلك من الأحداث) *

قد ذكرنا أنّ الأمير أبا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعيّ بمرماجنّة ، فخلص من المعركة راجلاً ، ونجا إلى قلعة سنان معقل هوّارة القريب من مكان الملحمة ، ولاذ به في ذهابه إلى منجاته ثلاثة من صنائعهم : أبو الحسين بن أبي بكر بن سيّد الناس ، ومحمد بن القاسم بن إدريس الفازازي ، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون ، وهو جدّ المؤلف الأقرب . وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم إذا أصابه الكلال . ولما نجا إلى قلعة سنان تحدّث به الناس وشاع خبر منجاته إليها . وكان الدعيّ قد أشف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيء الملكة فيهم ، فليوم دخوله شكاه إليه الناس

عبيهم فتقبّض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم . ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق تافراكين لحسم علمهم وأوعز إليه بالإثخان فيهم . فاستلحم من لقي منهم . ثم تقبّض على مشايخ بني علاق وأودع سجونه منهم نحواً من الثمانين^(١) ، فساء أثره فيهم وتطلّبوا أعياص البيت ، وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص بمكانه من قلعة سنان ، فرحلوا إليه وأتوه ببيعهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين وستائة وجمعوا له شيئاً من الآلة والأخوية ، وقام بأمره أبو ليل بن أحمد أميرهم . وبلغ الخبر إلى الدعيّ فداخلته الظنة في أهل دولته . وتقبّض على أبي عمرا بن ياسين شيخ دولته ، وعلى أبي الحسن بن ياسين وابن وانودين ، وعلى الحسين بن عبد الرحمن يعسوب زناته فامتنحهم واستصفي أموالهم . ثم قتلهم آخرأ وتوجّع لهم الناس واضطرب أمر الدعيّ إلى أن كان ما ذكره انتهى .

* (الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان أبي حفص على ملكه وغلبه ومهلكه) *

لما ظهر السلطان أبو حفص وبايعه العرب تسامع به أهل الحضرة واجتمع إليه الناس وأوقع الدعيّ بأهل الدولة فقتوه ، وخرج من تونس يريد قتاله فأرجف به أهل العسكر ورجع منهزماً ، ودخلت البلاد في طاعة السلطان أبي حفص ونهض إلى تونس فتزل بسحوم قريباً منها . وعسكر الدعيّ بظاهر البلد تجاهه وطالت بينهما الحرب أياماً والناس كل يوم يستوضحون خبء الدعيّ ومكره إلى أن تبرّأ منه وأسلموه ، ورحل من مكان معسكره ولاذ بالاختفاء ، ودخل السلطان البلد في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستائة واستولى على سرير ملكه ، وطهر من الدنس قاصية ودانية^(٢) ، واختفى الدعيّ بتونس وغاص في لجة ساكنها وأحاط به البحث فغثر عليه لليال من مدخل السلطان بدور بعض السوق يعرف بأبي قاسم القرمادي فهدمت حينها . ونُلّ إلى السلطان فأحضره الملاء ، ووبّخه وساءله فأعترف بإدعائه في نسبهم فأمر بامتحانه وقتله . وذهب في غير سبيل مرحمة ، وطيف بشلوه ونصب

(١) وفي نسخة أخرى : نيفاً على ثمانين

(٢) وفي نسخة أخرى : وطهره من دنس فاضحه ودعيه .

رأسه . وكان عبدالله بن يغمور المباشر لقتله ، وكان خبره من المثلات . واستبدَّ السلطان بملكه وتلقَّب المستنصر بالله ، وبادر الناس إلى الدخول في طاعته . وبعث أهل القاصية ببيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما . وعقد للشيخ أبي عبدالله الفازازي على عساكره على الحروب والضاحية ، وأقطع البلاد والمغارم للعرب رعيّاً لخدمة قيامهم بأمره ، ولم يكن لهم قبلها أقطاع ، وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك لا يفتحون فيه على أنفسهم باباً ، وأقام متمتعاً في ماله وفي حضرته ^(١) إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استيلاء العدو على جزيرة جربة وميورقة ومنازلته المهديّة واجلابه على السواحل) *

كان من أعظم الحوادث ، تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحريّة ، فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثمان وثمانين وستمائة ورياستها يومئذ من محمد بن مهوبن شيخ الوهبيّة ^(٢) . ويخلف ابن امغار شيخ النكازة ^(٣) وهما فرقنا الخوارج . وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائباً عن الغديرك بن الريدان ملك برشلونة في أساطيله البحرية وكانوا فيما قيل سبعين أسطولاً من غربان وشواني ، وضايقهم مراراً . ثم تغلبوا عليها فانتهبوا أموالها وحملوا أهلها أسراً وسبيّاً . ففيل إنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضع في الجيوب ^(٤) ، فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين . ثم بنوا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحاً . وفرض عليهم المغرم مائة ألف دينار كل سنة ، وأقام على ذلك المراكيا إلى رأس المائة . وبقيت الجزيرة في ملك النصارى إلى أن عادوا إلى مالقة أواخر ^(٥) الأربعين والسبعائة كما نذكره .

(١) وفي نسخة أخرى : وأقام متحلياً ملكه وادعاً في حضرته .

(٢) وفي نسخة أخرى : محمد بن سمون شيخ الوهبيّة .

(٣) وفي النسخة الباريسية : ويخلف بن أومغار شيخ النكازة .

(٤) يقتضي أن يقول : أجّاب أو جّاب أو جّبّه وهي جمع جب أي البئر العميقة (قاموس) .

(٥) وفي نسخة أخرى : إلى أن أعادها الله في أواخر الأربعين والسبعائة .

وفي سنة خمس وثمانين وستائة ظفر العدو بجزيرة ميورقة ، ركب إليها طاغية برشلونة أساطيله في عشرين ألفا من الرجال المقاتلة ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم ورئيسها التزول للاستسقاء فأذن لهم . فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب فتزاحفوا ثلاثاً يتخن فيهم المسلمون في كلها قتلاً وجراحة بما يناهز آلافاً ، والطاغية في بطارقه قاعد عن الزحف ، فلما كان اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية في العسكر فانهمزم المسلمون ، ولجؤا إلى قلعهم فانحصروا بكعابها ، وعقدوا لابن حكم ذمة في أهده وحاشيته ، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو ، وسار إلى ميورقة ^(١) واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدة والأمر بيد الله وحده .

وفي سنة ست وثمانين وستائة بعدها غدر النصارى بمرسى الخزور فاقتحموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها ، واحتملوا أهلها أسرى وأضرموا بيوتها ناراً . ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا إلى بلادهم . وفيها أو في سنة تسع وثمانين وستائة بعدها نازل أسطول العدو مدينة المهدية ، وكان فيها الفرسان لقتالها فرحفوا إليها ثلاثاً ظفر بهم المسلمون في كلها . ثم جاء مدد أهل الأجم فانهمزم العدو حتى اقتحموا عليهم الأسطول ، وانقلبوا خائبين وتمت النعمة .

الخبر عن استيلاء الأمير أبي بكر زكريا على الثغر المغربي بجاية والجزائر وقسنطينة وأولية ذلك ومصابره

كان للأمير أبي بكر زكريا ابن السلطان من الترشيح للأمل بهدييه وشرف همته وحسن ملكته ، ومخالطته أهلالعلم ما يشهد له بحسن ^(٢) حاله ، وهو الذي اختط المدرسة للعلم بأزاء دار الأقوري حيث كان سكناه بتونس ، ولما لحق بتلمسان بعد منجاته من مهلك أبيه ببجاية ، نزل على صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان ، وجاء في أثره أبو الحسن بن أبي بكر بن سيد الناس صنيعة أبيه وأخيه بعد أن خلص مع السلطان أبي حفص من الواقعة إلى مرماجه . فلما بايع له العرب وبدت مخايل الملك ، رأى أبو

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : فأجازهم الى جارتهم منورقة .

(٢) وفي نسخة أخرى : بمهبة .

الحسن إيثار السلطان للفازاوي عليهم فنكب عنه ، ولحق بالأمر أبي زكريا بتلمسان واستحثه لطلب ملكه . واستقرض من تجار بجاية مالا أنفقه في إقامة أبهة الملك له ، وجمع الرجال واصطنع الأولياء .

وفشا الخبر بما يرومه من ذلك ، فصده عثمان بن يغمراسن عنه بما كان تقلد من طاعة السلطان أبي حفص على سنهم من الخلفاء بالحضرة قبله ، فاعترم الأمير أبو زكريا على شأنه ، وخرج من تلمسان مرّياً بالصيد الذي كان ينتحله أيام قيامه بينهم ، ولحق بداد بن هلال بن عطف أمير بني يعقوب ، وكافة بني عامر من زغبة ، أوغر عثمان بن يغمراسن إلى داود برده إليه فأبى من إخفار ذمته ، وارتحل معه بقومه إلى آخر بلاد زغبة ، ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباع من رؤساء الزواودة ، فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعاً إلى ضواحي قسنطينة فدخل العرب سدويكش في طاعته .

ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين وستائة وعاملها يومئذ أبو نوفيان^(١) من مشيخة الموحدّين ، وكان صاحب بجاية بها أبو الحسن بن طفيل . كان له من العامل صهر فداخل الأمير أبا زكريا في شأن البلد ، وشرط لنفسه وصهره فأمضى السلطان شرطهم وأمكنوه من البلد . وأقاموا بها دعوته ، وارتحل إلى بجاية وكان قد حدث فيها اضطراب بين أهلها أدى إلى الخلاف والتباين ، واستحثوا الأمير أبا زكريا فأغذ السير إليهم ودخلها سنة أربع وثمانين وستائة ويقال إنّ ملكه ببجاية كان سابقاً على ملكه بقسنطينة وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا . وبعث إليهم أهل الجزائر بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور القرية^(٢) ، وتلقب المنتخب لآحياء دين الله . وأغفل ذكر أمير المؤمنين أدباً مع عمه الخليفة بالحضرة ، حيث مالاً الموحدّين أهل الحلّ والعقد من الجماعة . ونصب للحجاجة أبا الحسين بن سيّد الناس فقام بها ، ورسخ ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية ، وانقسمت به الدولة إلى أن خلص الأمر للملوك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكره إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق .

(١) وفي نسخة أخرى : ابن يوقيان وقد مرّ معنا من قبل .

(٢) وفي نسخة أخرى : الغربية .

الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا الى ناحية طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية في مغيبه

لما استولى الأمير أبو زكريا على الناحية الغربية ، واقتطعا من أعمال الحضرة اعتمد في الحركة على تونس ، فنهض إليها في عساكره سنة خمس وثمانين وستائة . ووفد عليه عبدالله بن رحاب بن محمود من مشيخة ذباب ومانعه الفازاري عن أحواز تونس فنازل قابس وحاصرها ، وكان له في قتالها أثر واستولت الهزيمة على مقاتلتها ذات يوم فأتحن فيهم قتلاً وأسراً ، وهدم ربضها وأحرق المنازل والنخل ، وارتحل إلى مسراته وانتهى إلى الأبيض واطاعه الجوّاري والمحاميد وآل سالم وعرب برقة ، وبلغه بمكانه من مسراته أن عثمان بن يغمراسن أسف إلى منازلة بجاية وكان من خبره أن الأمير أبا زكريا لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه ، وامتنع جاره داود بن عطاف من رده ، وامتلأ له عداوة وحقد ، وجدّد البيعة لصاحب تونس ، وأوفد بها علي ابن محمد الخراساني من صنائعه . وكان له اثناء ذلك ظهور على بني توجين ومغراوة بالمغرب الأوسط وضاق ذرع أهل الحضرة بمكان الأمير أبي زكريا من مطالبهم وتدويخه لقاصيتهم ، فدخلوا عثمان بن يغمراسن في منازلة معقله بعد^(١) بجاية ليردّوه على عقبه عنهم ، فرحف إلى بجاية سنة ست وثمانين وستائة ونازلها أياماً وامتنع عليه سائر ضواحيها فلم يظفر بأكثر من الأطلال عليها . وانكفأ الأمير أبو زكريا راجعاً إلى بجاية سنة ست وثمانين وستائة إلى أن كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجزيرة) *

كان في بعض الأيام بين سدادة وكثومة^(٢) من عمل تقيوس فتنة قتل فيها ابن شيخ سدادة ، وأقسم ليثأّر فيه بشيخ كثومة نفسه ، وكان عامل توزر محمد بن يحيى بن

(١) وفي نسخة أخرى : ثغر بجاية .

(٢) وفي نسخة أخرى : كنومة .

أبي بكر التينملي من مشيخة الموحدين فتدتم شيخ كثومة به ، وبذل له مالا على نصره من عدوه ، فكاتب الحضرة وأعلن بخلاف أهل سداده واحتشد لهم أهل نفطة وتقيوس ، وخرج في حشد أهل توزر وغزاهم في بلدهم ولاذ بإعطاء الرهن ، وبذل المال فلم يقبل فأمدتهم أهل نفزاوة وزحفوا إليه ، فانهزمت جموعه وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً إلى توزر ، وذلك سنة ست وثمانين وستائة . ثم عاود غزوهم عقب ذلك ففتحوا عليه^(١) ثم عقد لهم سلماً على الوفاء بمغارهم واشتروا أن لا حكم عليهم في سواها ، وأن رؤساء نفزاوة منهم ، فأمضى شرطهم وكان أول استبداد أهل الجريه كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي دبوس داعياً لنفسه بجهاً طرابلس

كان أبو دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وخمسين وستائة ، وافترق بنوه وتقلبوا في الأرض ، لحق منهم عثمان بشرق الأندلس ، ونزل على طاغية برشلونة فأحسن تكريمه ، ووجد هنالك أعقاب عمه السيد أبي زيد المنتصر أخي أبي دبوس في مئواهم من إيالة العدو . وكان لهم هنالك مكان وجاه لتزوع أبيهم السيد أبي زيد عن دينه إلى دينهم ، فاستبلغوا في مساهمة قريبهم هذا الوافد ، وخطبوا له عن الطاعة خطباً^(٢) . ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوارى من بني دياب في قبضة أسره ، وكان قد أسره الغزى^(٣) من أهل صقلية بنواحي طرابلس سنة اثنتين وثمانين وستائة . وباعوه من أهل برشلونة فاشتراه الطاغية ، وقام عنده أسيراً إلى أن نزع إليه عثمان بن أبي دبوس هذا كما ذكرناه . وشهر بطلب حق الدعوة الموحدية^(٤) وأمل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية ، فعبر البحر إلى طرابلس ، وكان من حظوظ كرامته عند الطاغية أن أطلق له مرغم بن صابر ، وعقد له حلفاً معه على مظاهرتة ، وجهاز له أساطيل وشحنها بالمدد

(١) كذا في النسخة الباريية وفي نسخة أخرى فلبخوا عليه . وبلغ : تكبير وحمق .

(٢) وفي نسخة ثانية : وخطبوا له من الطاغية حظاً . وفي نسختنا تحريف ظاهر .

(٣) وفي نسخة ثانية : العدى .

(٤) وفي نسخة ثانية : وشمر بطلب حقه في الدعوة الموحدية .

من المقاتلة والأقوات على مال شرطوه ، فتركوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن أبي دبوس ، ونازلوا البلد معه ومع جنده من النصرانية فحاصروها ثلاثاً ، وساء أثرهم فيها . ثم رحل النصارى بأسطوطهم وسروا بأقرب السواحل إلى البلد وتنقل ابن أبي دبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد أن أنزلوا عليها عسكرياً للحصار ، فاستوفوا بجاية المغارم والوضائع مالاً دفعوه للنصارى في شرطهم ، وانقلبوا في أسطوطهم ، وأقام ابن أبي دبوس يتقلب مع العرب . واستدعاه ابن مكى من بعد ذلك لأن يشتد به في استبداده^(١) ، فلم يتم أمره إلى أن هلك بجربة ، والله وارث الأرض ومن عليها .

الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيّد الناس حاجب بجاية وولاية ابن أبي حي^(٢) مكانه

قد قدّمنا سلف هذا الرجل وأوليته ، وأنه لحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان ، وأبلى في خدمته ، فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي واقتطعه عن أعمال الحضرة ، ونزل بجاية وظاهر بها تونس ، عقد لأبي الحسين بن سيّد الناس على حجابته ، وقوّض إليه فيما وراء بابه وأجراه في رياسته على سنن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذي كانوا يتلقّون طرقة ، ويتزعمون إلى مراميه ، بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين لجلاء جوّ الدولة ببجاية من مشيخة الموحّدين الذين يزاحمونهم ، كما كان ابن أبي الحسين مزاحماً بهم ، فاستولى أبو الحسين بن سيّد الناس على الدولة ببجاية ، وقام بأمر مخدمه أحسن قيام ، وصار إلى الحلّ والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكّن في يده الزمام ، إلى أن هلك سنة تسعين وستمائة أعظم ما كان رئاسة وأقرب من صاحبه مكاناً وشرفاً^(٣) ، فأقام الأمير أبو زكريا مكانه كاتبه أبا القاسم بن أبي حي ولا أدري من أوليته أكثر من أنه من جالية الأندلس ، وردّ على الدولة ، وتصرف في أعمالها ، واتصل بأبي الحسين بن سيّد

(١) وفي نسخة أخرى : لأنه يشبه به في استبداده .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن أبي جبي .

(٣) وفي نسخة أخرى : سرا .

الناس فاستكتبه ، ثم رقاّه واستخلصه لنفسه ، وأجرّه رسنه ، وتناول زمام الدولة من يد سيّد الناس ، فقادها في يد مظفر^(١) خدمته حتى اجتمعت عليه الوجوه وأمله الخاصّة ، وأطلع السلطان على اضطلاعه وكفايته في أمور مخدمه . وهلك أبو الحسين ابن سيّد الناس ، فرشّحه السلطان بخطته فقام بها سائر أيامه وصدرأً من أيام ابنه الأمير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى من أمره .

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص الى طاعة الأمير أبي زكريا وانتظام بسكرة في جماعته

كان السلطان أبو اسحق قد عقد على الزاب لفضل بن علي بن مزني من مشيخة بسكرة كما قدمناه ، فقام بأمره . ولما هلك السلطان عدا عليه بعض أفاريق العرب الموطّنين قرى الزاب بمدخله قوم من أعدائه ، وقتلوه سنة ثلاث وثمانين وستائة كما نذكره ، وأمّلوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بني زيّان^(٢) . واستقلوا بأمر بلدهم وبايعوا للأمير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن . وتوقعوا عادية منصور بن فضل بن مزني . وكان لحق بالحضرة عند مهلك أبيه فخطبوا فيه السلطان أبا حفص ورموه بالدواهي فأمر باعتقاله . وأودع السجن سبع سنين إلى أن فرّ منه ولحق بكرفة من أحياء هلال بن عامر ، وهم العرب المتولون أمر جبل أوراس ، ونزل على الشبه بأفاريقهم فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة إثنين وتسعين وستائة فترّل بباب السلطان . ورغبه في ملك الزاب ، وصانع الحاجب ابن أبي حي بأنواع التحف . وضمن له تحويل الدعوة بالزاب للسلطان الأمير أبو زكريا وتسريب جبايته إليه . فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمدّه بالعسكر ، ونازل بسكرة فامتنعت عليه ورأى مشيختها بنو رمان بعدهم عن صريخ تونس . وإلحاق عدوهم منصور بن فضل عليهم فأعلنوا بطاعة الأمير أبي زكريا وبعثوا إليه ببيعتهم ووفدهم ودفع عادية بن مزني عنهم . فأرجعهم بما أمّلوه من القبول . وأن تكون

(١) وفي النسخة الباريسية : مظفر وفي نسخة ثانية مطهر .

(٢) وفي نسخة أخرى : بني رمان .

أحكامهم إلى قائد عسكره . ونظر ابن مزني مصروفاً إلى بجاية ^(١) ولما وصل الوفد إلى بكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني ، فأدخلوه البلد ودانوا بالطاعة ، وتصرفت الأمور على ذلك إلى أن كان من أمر منصور بن مزني ما تذكره في أخباره ، ولم يزل الزاب في دعوة الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن استولى على الحضرة بعده بنوة لهذا العهد ، كما تراه في الأخبار بعد إن شاء الله تعالى .

الخبر عن مهلك عبدالله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم بن الشيخ رؤساء الدولة

كان أبو عبدالله الفازازي من مشيخة الموحدين ، وكان خالصة للسلطان أبي حفص ، وعقد له على العساكر كما قدمناه ودفعه إلى الحروب وتمهيد النواحي ، فقام في ذلك المقام المحمود ، ودوخ الجهات واستترل الثوار ودفعهم ، وجبى الخراج وكانت له في ذلك آثار مذكورة ، وفي بلاد الجريد ومشيختها تصاريق وأحوال ، وهو الذي امتحن أحمد بن بهلول ^(٢) بسعاية المشيخة من أهل توزر ، وكبح عنانه من مراميه إلى الرياسة عليهم ، وهلك آخر حركاته إلى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين وستمائة ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم بن الشيخ ، وكان من خبر أوليته أنه قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة ست وعشرين وستمائة واتصل بعاملها محمد بن ياسين فاستكتبه وغلب عليه .

واستدعى ابن ياسين إلى الحضرة وابن الشيخ في جملة ، واتمس السلطان من يرشحه لكتابه ويخف عليه ، فاطنب ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه ، وابتلاه السلطان فلم يرضه وصرفه ، ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته ، وأمر ابن أبي الحسين بتلقيه الآداب وتصريفه في وجوه الخدمة ومذاهبها . فكان له في ذلك غناء وخفة على مخدومه إلى أن هلك ابن أبي الحسين . وكان الخراج بدار السلطان موقوفاً على نظره من جملة ما إليه ، وكان قلمه عاملاً فيه ، فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه إلى آخر أيام السلطان المنتصر . ولما ولي السلطان

(١) وفي نسخة أخرى : إلى الجاية فقط .

(٢) وفي نسخة أخرى : أحمد بن بهلول .

الوائق استبدّ ابن أبي الحسين^(١) عليه كما قلناه ، فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جملته . ثم جاءت دولة السلطان أبي إسحق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب أشغاله . وكانت الرياسة الكبرى على عهده لبنيه أبي فارس ، ثم أبي زكريا عبد المؤمن من بعده . ثم كانت قضية الدعي^(٢) ، فاستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم بن الشيخ ، واستضاف له إلى خطة التنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات . فلما ارتجع للسلطان أبي حفص ملكه وقتل الدعي ، خافه ابن الشيخ لما كان من رتبته عند الدعي ، فلاذ بالصلحاء لإثارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشفعوا له وتقبلها السلطان ، وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة إلى استعماله ، وقّله حجابته مجموعة الى تنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات . فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الخارج وصرف العلامة إلى غيره من طبقة الدولة ، فلم يزل على ذلك إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وستمائة وبقي إسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاث وأمر التدبير والحرب ورياستها راجع إلى مشيخة الموحّدين إلى أن تصرفت الأحوال ، وأدبل بعضها من بعض كما يأتيك أثناء الأخبار ، وقّله السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لأبي عبد الله المحبي^(٣) من طبقة الجند فقام بها إلى آخر الدولة ، والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من بعده) *

لم يزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور والدعة إلى أن استوفى مدّته ، وأصابه وجع أول ذي الحجة من سنة أربع وتسعين وستمائة ثم اشتدّ به الوجع وأهمّه أمر المسلمين وما قلّده من عدّتهم فعهد لابنه عبد الله بالخلافة ثاني أيام التشريق ونكره الموحدون لتخلّفه عن المراتب لصغره وأنه لم يحتمل وتحدّثوا في ذلك . وأفضى الخبر إلى السلطان فأسخّطه ، وعدل عنهم إلى الشورى مع الولي أبي محمد المرجاني . وكان

(١) وفي نسخة أخرى : ابن الحبير .

(٢) وفي نسخة أخرى : ثم كانت مضلة الدعي .

(٣) وفي النسخة الباريية : الشخشي وفي نسخة ثانية التحي .

رأيه فيه جميلاً وظنّه به صالحاً . وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنوه بمحبسهم قرّت إحدى جواريه ، وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط هذا الولي فوضعت في بيته ، فسماه الشيخ محمداً ، وعقّ عليه وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة ، فلقّب بأبي عصيدة إلى آخر الدهر . ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من قومه ، حيث شبّ وبقيت له مع الولي أبي محمد ذمة يثابر كل منها على الوفاء بها ، فلما فاضله السلطان أبو حفص في شأن العهد وقصّ نكير الموحدّين لولده ، أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق فتقبّل إشارته وعلم ترشيحه ، وأنفذ بذلك عهده بمحضر الملأ ومشیخة الموحدّين ، وهلك آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستائة وإلى الله المصير اهـ .

* (الخبر عن دولة السلطان أبي عصيدة وما كان على أثرها من الأحوال) *

لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملأ من الموحدّين والأولياء والجند والكافة إلى القصبة ، فبايعوا بيعة عامة لوليّ عهده السلطان أبي عبدالله محمد ، ويلقّب كما ذكرناه بأبي عصيدة ابن السلطان الواثق في الرابع والعشرين لذي الحجة سنة أربع وتسعين وستائة فانشرحت بيعته الصدور ، ورضيته الكافة ، وتلقب المستنصر بالله . وافتتح أمره بقتل عبدالله ابن السلطان أبي حفص لمكان ترشيحه ، وقلّد وزارته محمد ابن يريزكن من مشيخة الموحدّين ، وأبقى محمد الشخشي على خطّة الحجابة وصرف التدبير والعساكر ورياسة الموحدّين إلى أبي يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني قتل السلطان المستنصر ، عند تعرّض ابنه للبيعة ، واستنامة الخلافة فقام بما دفع إليه من ذلك . وضايقه فيه عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدّين قبله ، حتى اذا نكب وهلك استبدّ هو على الدولة ، واستقل الشخشي بحجابه . وكان محمد بن ابراهيم بن الدبّاغ رديفاً له فيها .

وكان من خبر ابن الدبّاغ هذا أنّ ابراهيم أباه وفد على تونس في جالية أشيلية سنة ست وأربعين وستائة فولد هو بتونس ونشأ بها ، وأفاد صناعة الديوان وحساباته من المبرزين كان فيه أبي الحسن وأبي

الحكم ابني مجاهد ، وأصهر إليهما في ابنة أبي الحسن فانكحاه ورشحاه للأمانة على ديوان الأعمال . ولما استقل أبو عبدالله الفازري بالرياسة استكتبه وكان طياشاً مستعصياً على الخليفة ، فكان كاتبه محمد بن الدبّاغ يروّضه لأغراض الخليفة إذا دسّها إليه الحاجب ابن الشيخ ، فيقع ذلك من الخليفة أحسن الموقع . ولما ولي السلطان أبو عصيدة وكانت له عنوة سابقة رعاها ، وكان حاجبه الشخصي بهمة غفلاً عن أدوات الكتاب فاستكتب السلطان ابن الدبّاغ ثم رقاها إلى كتابة علامته سنة خمس وتسعين وستمائة وكان يتصرّف فيها فأصبح رديفاً للشخصي في حجابته ، وجرت أمور الدولة على ذلك إلى أن هلك الشخصي سنة تسع وتسعين وستمائة فقلّده السلطان حجابته فاستقلّ بها على ما قدّمناه من أن التدبير والحرب مصروف إلى مشيخة الموحّدين .

* (الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر بنيه من

بعده) *

كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحّدين لعهد السلطان أبي حفص ، وأصله من تينملل الموطّنين بتبرسق مذ أوّل الدولة ، كانت له ولسلفه الرياسة عليهم ، وصارت إليه رياسة الموحّدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة ، وكان حريصاً على ولاية ابنه عبدالله للعهد . وكان يدافع نكير الموحّدين في ذلك ، فأسرّ هاله السلطان أبو عصيدة . ولما استوثق له الأمر ، وقتل عبدالله بمحبسه ، تقبّض على أبي محمد بن سليمان واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين وستمائة . ولم يزل معتقلاً إلى أن قتل بمحبسه على رأس المائة ، وفرّ عند نكبته إبناه محمد وعبدالله ، فأما عبدالله فلحق بالأمر أبي زكريا ، وصار في جملته إلى أن دخل تونس مع إبنه السلطان أبي البقاء خالد . وأما محمد فأبعد المفرّ ولحق بالمغرب الأقصى ، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين بمعسكره من حصار تلمسان ، فاستبلى في تكريمه وأقام عنده مدّة . ثم عاود وطنه ونزل عن طريقه إلى النسك ولبس الصوف . وصحب الصالحين وقضى فريضة الحج ، وامتدّ عمره وحسنت فيه ظنون الكافة ، واعتقدوا فيه وفي دعائه ، وكثرت غاشيته لالتماس البركة

منه . وأوجب الخلفاء أزاء ذلك تجلّة أخرى ، وأوفدوه على ملوك زناتة مرّة بعد مرّة في مذاهب الودّ وقصود الخير . وحضر في بعض الجهاد بجبل الفتح عندما نازلته عساكر السلطان أبي الحسن ، ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك في الطاعون الجارف في منتصف المائة الثامنة . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين ومهاداته) *

كان السلطان أبو عصيدة لما استفحل أمره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الأمير أبي زكريا ، وكان الأمير أبو زكريا قد انتفض عليه أهل الجزائر بعد مهلك عاملها عليها من الموحدين من بني الكمازير ، انبرى بها بعده محمد بن علّان من مشيختها ، واستفحل أمر عثمان بن يغمراسن وبني عبد الواد من ورائه ، وتغلّبوا على توجين ومغراوة ، وبلغين^(١) ، وكان شيعة لصاحب الحضرة بما كان متمسكاً بدعوتهم ومتقبلاً مذهب أبيه في بيعتهم ، فقويت عزائم السلطان أبي عصيدة لذلك ، ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين وستائة وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسنطينة ، وأجفلت أمامه الرعايا والقبائل وانتهى إلى ميله ، وفيها كان منقلبة إلى حضرته في رمضان من سته .

ولما ضايق عمل بجاية بغزوه أعمل الأمير أبو زكريا نظره في تسكين الناحية الغربية ليتفرّغ عنها إلى مدافعة السلطان صاحب الحضرة ، فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكد معه قديم الصهر بجادث الود والمواصلة . وفي خلال ذلك زحف يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين إلى تلمسان ، وألقى عليها بكنككته ، واستجاش عثمان بن يغمراسن بالأمير أبي زكريا فأمدّه بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بني مرين بناحية تدلس فهزمهم وأثنخوا فيهم قتلاً . ورجع فلهم إلى بجاية وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بني مرين إلى بجاية وعقد عليها لأخيه أبي يحيى بعد أن كان عثمان بن سباع وفد عليها نازعاً عن صاحب بجاية إليه ، ومرغباً له في ملكها ، فأوسع له في الحباء

(١) وفي نسخة أخرى : مليكش .

والكرامة ما شاء ، وبعث معه هذا العسكر فانتهاوا إلى بجاية ، وضايقوها ثم جاوزوها إلى تآكرارت وبلاد سدويكش ، وعاثوا في تلك الجهات ودوّخوها وانقلبوا راجعين إلى السلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان .

وكان السلطان أبي عصيد صاحب الحضرة لما علم بإمداد الأمير أبي زكريا لعثمان بن يغمراسن بعث إلى يوسف بن يعقوب عدوّهم وحرّضه على بجاية ونواحيها ، وسفر له ^(١) في ذلك رئيس الموحّدين أبا عبدالله بن الكجار أولى سفارته . ثم سفر ثانية سنة ثلاث وسبعمئة بهدية ضخمة فأغرب فيها بسرج وسيف ومهاز من الذهب من صنعة الحلّي الفاخر من حصى الياقوت والجوهر . ورافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة أبو عبدالله بن يرزيكن ورجعا بهدية ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلثائة من البغال ، واتصلت المخاطبات والسفارات والهدايا والملاطفات . وكان يوسف بن يعقوب يكتب السلطان في تلك الشؤون تعريضاً ويكتب رئيس الموحّدين أبا يحيى اللحياني وتردّد عساكر بني مرين إلى نواحي بجاية إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مقتل هداج وفتنة الكعوب وبيعهم لابن أبي دبوس وما كان بعد ذلك من نكبتهم) *

كان هؤلاء الكعوب قد عظمت ثروتهم واصطناعهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص ^(٢) ، فعمّروا ونمّوا ويطروا النعمة ، وكثر عيثهم وفسادهم وطال إضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنات ، وانتهاهم للزرع ، فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم . ودخل رئيسهم هداج بن عبيد سنة خمس وسبعمئة إلى البلد فحضرتة ^(٣) العيون وهمّت به العامة . وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنّوا عليه بأنه وطىء المسجد بخفيه . وقال لم أنكر عليه ذلك : «إني أدخل مجلس السلطان بهما»

(١) وفي نسخة أخرى : وسفر بينهما من ذلك رئيس الموحّدين أبو عبدالله بن الكجار أولى سفارته .
(٢) وفي نسخة أخرى : كان هؤلاء الكعوب قد أثرتهم الدولة واصطنعتهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص .
(٣) وفي نسخة أخرى : فحضرتة : من خزر أي نظر بمؤخر عينه .

فثاروا به عقب الصلاة وقتلوه ، وجروا شلوه في سكك المدينة ، فزاد عيْشهم وأجلاهم على السلطان ، واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان بن أبي دبوس من مكانه بنواحي طرابلس ، ونصّبه للأمر ، وأجلب به على الحضرة ونازلها .

وخرج إليهم الوزير أبو عبد الله بن برزيكن في العساكر فهزمهم ، وسار بالعساكر لتهديد الجهات وتسكين ثائرة العرب ، فوفد عليه أحمد بن أبي الليل ومعه سليمان بن جامع من رجالات هوّارة بعد أن راجع الطاعة . وصرف ابن أبي دبوس إلى مكانه فتقبّض عليهما ، وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزالا معتقلين إلى أن هلك أحمد بمحبسه سنة ثمان وسبعائة وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم إينا أخيه عمر رديفين له . ثم خرج الوزير بعساكره سنة سبع وسبعائة ، واستوفد مولاهم ابن عمر وتقبّض عليه وبعث به إلى الحضرة فاعتقل مع عمّه أحمد . وجاهر أخوه حمزة بالخلاف وأتبعه عليه قومه فكثّر عيْشهم ، وأضروا بالرعايا وكثرت الشكاية من العامة ، ولغطوا بها في الأسواق وتصايحوا . ثم نفروا إلى باب القصبة يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموا بالحجارة ، وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدباغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله . ورفع أمرهم الحاجب واستلحمهم جميعاً^(١) فأبى من ذلك السلطان وأمره بملاطفتهم إلى أن مكنت بيعتهم^(٢) . ثم تبع بالعقاب من تولى كبر ذلك منهم ، وانحسم الداء . وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان وسبعائة واستمرّ العرب في غلوائهم إلى أن هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن انتفاض أهل الجزائر واستبداد ابن علان

بها) *

قد قدمنا ما كان من انتفاض الجزائر أيام المستنصر ودخول عساكر الموحّدين عليهم عنوة ، واعتقال مشيختهم بتونس حتى أطلقوا بتونس بعد مهلكه ، ولما استقلّ الأمير

(١) العبارة غير واضحة وسياق المعنى : ورفع الحاجب أمرهم إلى السلطان لإستلحامهم ...

(٢) وفي نسخة أخرى : إلى أن سكنت هيجتهم .

أبو زكريا الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وقسنطينة . وكان الوالي على الجزائر ابن الحَكَم زمن الموحّدين^(١) فبادر إلى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر ، ووفد عليه . وكتب ابن أكمار بولايتها ، فلم يزل والياً عليهم إلى أن نشأت^(٢) بنو مرين وزحفوا إلى بجاية . وكان ابن أكمار قد أسنّ وهرم فأدركته الوفاة خلال ذلك . وكان ابن علّان من مشيخة الجزائر مختصاً به متصرفاً بأوامره ونواهيهِ ومصدراً لإمارته . حصلت له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه . ويقال كان له معه صهر ، فلما وصل ابن أكمار حدّته نفسه بالاستبداد والانتزاع بالجزائر ، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره ، وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد . وشغل الأمير أبو زكريا عنه بما كان من منازل بني مرين ببجاية إلى أن هلك ، وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر إلى أن تملكها بنو عبد الواد كما يذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا وبيعة ابنه الأمير أبي البقاء خالد) *

كان الأمير أبو زكريا قد استولى على الثغور الغربية كما قلنا ، واقتطعها من أعمال الحضرة ، وقسّم الدعوة الحفصية بدولتين . وكان على غاية من الحزم واليقظ والصرامة لم يبلغها سواه . وكان كثير الإشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسدّ خلله . ولم يزل على ذلك إلى أن هلك على رأس المائة السابعة . وكان قد عهد بالأمر لابنه الأمير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين وستائة وعقد له على قسنطينة وأنزله بها . فلما هلك الأمير أبو زكريا جمع الحاجب أبو القاسم بن أبي حي مشيخة الموحدين وطبقات الجند ، وأخذ بيعتهم للأمير أبي البقاء وطبّر له بالخير واستقدمه فقدم ، وبويع البيعة العامّة ، وابقى ابن أبي حي على حجابته واستوزر يحيى بن أبي الأعلام ، وقدم على صنهاجة أبا عبد الرحمن بن يعقوب بن حلوب منهم ،

(١) وفي نسخة أخرى : ابن أكمار من مشيخة الموحدين وفي النسخة الباريسية ابن أكمار .

(٢) وفي نسخة أخرى : إلى أن كان شأن بني مرين وزحفهم إلى بجاية .

ويسمى المزدار^(١) . وقلّد رياسة الموحدّين أبا زكريا يحيى بن زكريا من أهل البيت الحفصيّ واستمرّ الأمر على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله) *

قد قدمنا ما كان من زحف بني مرين إلى بجاية بمداخلة صاحب تونس . ولما ولي السلطان أبو البقاء اعترم على المواصلّة مع صاحب تونس قطعاً للزبون عنه ، وعيّن للسفارة في ذلك شيخ القرابة ببابه أبا زكريا يحيى بن زكريا الحفصي^(٢) ليحكم شأن المواصلّة بينهما . وبعث معه القاضي أبا العبّاس الغبريني كبير بجاية وصاحب شوراها ، فأدوا رسالتهم وانقلبوا إلى بجاية ، ووجد بطانة السلطان السبيل في الغبريني فأغروه به ، وأشاعوا أنه داخل صاحب الحضرة في التوثّب بالسلطان . وتولى كبير ذلك ظافر الكبير وذكّره بحديثه^(٣) ، وما كان منه في شأن السلطان أبي إسحق وأنه الذي أغرى بني غبرين به ، فاستوحش منه السلطان وتقبّض عليه سنة أربع وسبعائة . ثم أغروه بقتله فقتل بمحبسه في سنته تلك ، وتولّى قتله منصور التركي ، والله غالب على أمره .

* (الخبر عن سفارة الحاجب بن أبي حي^(٤) إلى تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله) *

ولما ولي السلطان أبو البقاء كانت عساكر بني مرين متردّة إلى أعمال بجاية بمداخلة صاحب تونس كما ذكرناه ، فدوّخوا نواحيها . وكان ابن أبي حي مستبداً على الدولة في حجابته ، فضاق ذرعه بشأنهم وأهمته حال الدولة معهم . ورأى أن اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن عزمهم ، فعزم على مباشرة ذلك بنفسه لوثوقه من

(١) وفي نسخة أخرى : المزوار .

(٢) وفي نسخة أخرى : أبا زكريا الحفصي .

(٣) وفي نسخة أخرى : ذكره يجرأثره .

(٤) وفي نسخة أخرى : ابن أبي جبي .

سلطانه . فخرج من بجاية سنة خمس وسبعائة وقدم على الحضرة رسولاً عن سلطانه ، فاهترت له الدولة ولقي بما يجب له ولرسله من البر ، وأنزله شيخ الموحدين ومدبر الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياي بداره استبلاغاً في تكريمه . وقضى من أمر تلك الرسالة حاجة صدره ، وكانت بطانة الأمير أبي البقاء لما خلاهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على النصيح إليه والسعاية بابن أبي حي عنده .

وشمر لذلك يعقوب بن عمر وجلّى فيه وتابعه عليه عبدالله الرخامي من كاتب ابن أبي حي وصديقه بما كان ابن طفيل قريبه يسخط عليه الناس ، ويوغر له جدورهم بياؤه وتحقيره بهم ، فالح له العداوة في كل جانحة وأسخطه على عبدالله الرخامي . وكان صديقه ومداخله فتولّى من السعاية فيه مع يعقوب بن عمر كبرها ، وألقى إلى السلطان أن ابن أبي حي داخل صاحب الحضرة في تمكينه من ثغور قسنطينة وبجاية ، بما كان على الأمير^(١) العامل بقسنطينة صهراً لابن أبي حي ، وهو الذي ولّاه عليها فاستراب السلطان به ، وتنكر له بعد عوده من تونس . وخشي كل منها بادرة صاحبه . ثم رغب ابن أبي حي في قضاء فرضه وتولية سبيله إليه ، فأسعف وخرج من بجاية ذاهباً إلى الحج ، ولحق بالقبائل من ضواحي قسنطينة وبجاية فنزل عليهم وأقام بينهم مدة . ثم لحق بتونس وأقام بها إلى حين مهلك السلطان أبي عصيدة ويعة أبي بكر الشهيد ، وحضر دخول الأمير أبي البقاء عليه بتونس ، وخلص من تيار تلك الصدمة فلحق بالمشرق وقضى فرضه . ثم عاد إلى المغرب ومر بأفريقية ولحق بتلمسان وأغرى أبا حمو بالحركة على بجاية فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن عمر ومصاير أمره) *

هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن عمر السلمي ، وكنيته أبو عبد الرحمن . كان حده محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضياً بشاطبة ، وخرج مع الجالية أيام العدو إلى

في نسخة أخرى : بما كان علي بن الأمين العامل بقسنطينة .

تونس ، ونزل بالربع الجوفي أيام السلطان أبي عبيدة ، وانتقل ابنه أبو بكر ومحمد إلى قُسْنَطِينَة ونزلا على ابن أوقيان العامل عليها من مشيخة الموحدین لعهد الأمير أبي زكريا الأوسط ، فأوسعها عنايةً وتكريماً . وولّى أبا بكر على الديوان واستخلصه لنفسه . وكان يتردّد إلى الحضرة ببجاية في شؤونه فاتصل بمرجان الخصي من موالي الأمير أبي زكريا وخواص داره ، واستخدم على يد الأمير خالد وأمه من كرائم السلطان ، فحظى عندهم وترّوج ابنه يعقوب من بنات ^(١) القصر ، وخوله ، ونشأ في جوتلك العناية . وأعلقوا بصحبة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته فاستخدم له سائر أيامه إلى أن هلك . وكان الحاج فضل كثيراً ما يتردّد إلى الأندلس لاستجلاب الثياب الحريرية من هنالك وانتقاء أصنافها . وكذلك إلى تونس لاستجادة الثياب منها . وبعثه السلطان آخر أمره إلى الأندلس فاستصحب ابن عمر وهلك الحاج فضل هنالك ، فعُدل السلطان عن خطاب ابنه محمد إلى خطاب ابن عمر ، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدوم به ، فقدم هو وابن الحاج فضل وساء لهما السلطان عن عملهما ، فكان ابن عمر أوعى من صاحبه فحلي بعينه وخفّ عليه ، واعتلق بذمة من خدمته أحظته عند السلطان ورقته فاستعمل في الجباية . ثم قلّد أعمال الأشغال وزاحم ابن أبي حي وعبدالله الرخامي ، وغصّوا به فأغروا السلطان بنكبته ، فنكبه وأشخصه إلى الأندلس فأقام هنالك ، واستعطف السلطان أبا البقاء بعد مهلك أبيه ، وتشفّع بوسائل خدمته فاستقدمه . وقدم مع علي وحسين ابني الرنـداحي ، وركب معها البحر إلى بجاية في مغيب ابن أبي حي عن الحضرة فصادف من السلطان قبولا ، وشمر في السعاية بابن أبي حي مع مرجان إلى أن تم له ما أراد من ذلك . وصرف ابن أبي حي كما ذكرناه ، فقلّد السلطان حجابته ليعقوب بن عمر ، وقدم على الأشغال عبدالله الرخامي ، وكان ناهضاً في أمور الجباية لمباشرتها مع مخدومه ، فأصبح رديفاً لابن عمر وغصّ بمكانه فأغرى به السلطان ودّله على مكان ثورته وعلى عداوته ، فنكب وصودر وامتحن وغرّب إلى ميورقة ، حتى اقتداه يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين من أسره ، واستقدمه ليقلّده أشغاله عند تنكّره لعبدالله

(١) وفي نسخة أخرى : من ربيبات القصر .

ابن أبي مدين كما نذكره في أخباره ، فهلك يوسف بن يعقوب دون ما أمل من ذلك ، وأقام الرخامي بتلمسان وبها كان مهلكه . واستقل يعقوب بن عمر بأعباء خطته واضطلع بها ، وقوض إليه السلطان في الإبرام والنقض ، فحوّل المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه . وكان أول ما أتاه صرعه لمرجان مصطنعه ملاً صدر السلطان عليه ، وحذره مغبته فتقبّض عليه وألقي في البحر فالتقمه الحوت ، فخلا وجه السلطان لابن عمر وتفرد بالعقد والحلّ إلى أن استولى السلطان أبو البقاء على الحضرة وكان من أمره ما يذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ثورة ابن الأمير^(١) بقسنطينة وبيعة السلطان أبي عصيدة ثم فتح السلطان أبي البقاء خالد لها وقتله) *

كان يوسف بن الأمير الهمداني بعد أن قتله بطنجة أبناء أبي يحيى من بني مرين كما يأتي في أخبارهم ، انتقل بنوه إلى تونس أيام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة قيامهم بالدعوة الحفصية أيام أبي علي بن خلاص بسبته وبعدها إلى أن غلبهم عليها الغز في كما نذكره في أخباره فلقاهم مبرة وتكريماً ، ونزلوا من الحضرة خير نزل تحت جارية ونعمة وعناية . وكان كبيرهم متحمّماً متعاضماً فرما لقي في الدولة لذلك عسفاً إلا أن الإبقاء عليهم كان مانعاً من اضطهادهم . ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم . ثم هلك السلطان واضطربت الأمور وضرب الدهر ضرباته ، ولحق عليّ منهم بالثغر الغربي ، وتأكدت له مع ابن أبي حي لحمة نسب وذمة صهر ووشجت بينهما عروقها . فلما استقل ابن أبي حي بحجابه الأمير أبي زكريا لم يأل جهداً في مشاركة علي بن الأمير وترقيته المنازل إلى أن ولّاه ثغر قسنطينة مستقلاً بها وحاجباً للسلطان أبي بكر بن الأمير أبي زكريا ، وأنزله معه فقام بحجابه وأظهر فيها غناؤه وحزمه ، حتى إذا سخط السلطان ابن أبي حي وصرفه عن حجابه تنكر أبو الحسن بن الأمير وخشي بواد السلطان فحوّل الدعوة إلى صاحب الحضرة وطير إليه بالبيعة ، واستدعى المدد والنائب فوصله رئيس الموحدين والدولة أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد

(١) وفي نسخة ثانية : ابن الأمين .

اللحياني ، وعقد البيعة لسلطانة سنة أربع وسبعائة .
 وبلغ الخبر إلى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض إليه بالعساكر آخر سنة أربع
 وسبعائة ، ونازله أياماً فامتنع عليه ، وهمّ بالإفراج عنه . ثم داخل رجل من بطانة
 ابن الأمير يعرف بابن موزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدين ، وكان معسكره
 بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنالك حتى انتهى إلى السور ، فتسّنه المقاتلة
 باغضاء ابن موزة لهم عنه ، وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على
 باب البلد ، وقد استكن أولياؤه منه فخرج إليه بنو المعتمد^(١) وبنو باديس ومشيخة
 البلد ، فاقتحم البلد عنوة ومضى أبو محمد الرخامي واستنزله . ثم حمّله في رجال
 السلطان إلى دار ابن الأمير فغشيه بها وقد انفص عنه الناس واستخفى^(٢) بغرفة من
 غرف داره واستمات ، فلاطفه الرخامي واستنزله . ثم حمّله على برذون مستديراً ،
 وأحضره بين يدي السلطان فقتل ، ونصب شلوه وأصبح آية للمعتبرين والله أعلم .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى الجزائر) *

قد قدمنا ما كان من خبر انتقاض الجزائر على الأمير أبي زكريا واستبداد ابن علان
 بها . فلما استولى السلطان أبو البقاء على الأمر وتمهّدت له الأحوال وأقلع بنو مرين بعد
 مهلك يوسف بن يعقوب عن تلمسان ، أعمل السلطان نظره في الحركة إليها ، فخرج
 إليهم سنة سبع وسبعائة أوست وسبعائة وانتهى إلى متيجة ودخل في طاعته منصور بن
 محمد شيخ ملكين^(٣) وجمع قومه ولجأ إليه راشد بن محمد بن ثابت بن منديل أمير
 مِغْرَاوَة هارباً أمام بني عبد الواد ، فأواه إلى ظلّه وألقى عليه جناح حمايته . واحتشد
 جميع من في تلك النواحي من القبائل وزحف إلى الجزائر وأقام عليها أياماً فامتنعت
 عليه ، وأنكفأ راجعاً إلى حضرته ببجاية ، وأقام ملكين على طاعته ومطاولته الجزائر
 بالقتال إلى أن كان من أمرها . وتغلّب بنو عبد الواد عليها كما نذكره في أخبارهم .

(١) وفي نسخة ثانية : بنو المغفل وفي النسخة الباريسية : بنو الغنفدي .

(٢) وفي نسخة ثانية : استحصن .

(٣) وفي نسخة أخرى ملكيش .

وجاء معه راشد بن محمد إلى بجاية متذمماً لخدمته إلى أن قتله عبد الرحمن بن خلوف كما يذكر في موضعه إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن السلف وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية) *

لما افتتح السلطان أبو البقاء خالد قسنطينة وقتل ابن الأمير وفرغ من ذلك الشأن أدرك أهل الحضرة الندم على ما استدبروا من مهادنة صاحب الثغر ، وقارن ذلك مهلك يوسف بن يعقوب الذي كانوا يرجونه شاغلاً له فجنحوا إلى السلم ، ويعثوا وفدهم في ذلك إليه فأسدوا وألحموا . وشرط عليهم السلطان أبو البقاء أن من هلك منها قبل صاحبه فالأمر من بعده للآخر والبيعة له ، فتقرر^(١) الشرط وحضر الملأ والمشايخ من الموحدين ببجاية ، ثم بتونس ، فأشهدوا به على أنفسهم ، وربط ذلك العهد وأحكمت أوأخيه إلى أن نقضها أهل الحضرة عند مهلك السلطان أبي عصيدة كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس ابن اللحياني لحصار جربة ومضيه منها إلى الحج) *

لما انعقد أمر هذا الصلح واستتم ، راجع رئيس الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني نظره لنفسه ، وأعمل فكره في الخلاص ممن استوطنه^(٢) ، وكان يؤمل رجوع الوفد المقربين بالمهدية من أمراء الديار المصرية إلى يوسف بن يعقوب فيصحبهم لقضاء فرضه ، وأبطأ عليه شأنهم فاعترم على قصده وورى بحركته إلى جزيرة جربة لاسترجاعها من أيدي النصارى والرجوع عنها من بعد ذلك إلى الجريد لتمهيد أحواله . وتناول الرأي في الظاهر من أمره مع السلطان فأذن له وسرح معه العساكر فخرج من

(١) وفي نسخة أخرى : فتقبلوا .

(٢) وفي نسخة أخرى : من انشوطه .

تونس في جمادي سنة ست وسبع مائة آغازياً إلى جربة. ولم يزل يغذ السير حتى انتهى إلى مجازها. ثم عبر منه إلى الجزيرة، وكان النصارى لما تغلبوا عليها سنة ثمان وثمانين وستائة شيدوا بها حصناً لا اعتصام الحامية سمّوه بالقشتيل، فترلت العساكر عليه. وأنفذ الشيخ أبو يحيى عمّاله للجباية وأقام في منازلته شهرين. ثم انقطعت الأقوات واستعصى الحصن إلا بالمطاولة فرجع إلى قابس. ثم ارتحل إلى بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها، وأعمل في خدمته أحمد بن محمد بن بهلول^(١) من مشيختها، فاستوفى جباية الجريد وعاد إلى قابس.

وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بداره، وصرّح بما روى عنه من حجّه. وصرف العساكر إلى الحضرة وولي بعده رياسة الموحدين وتدير الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن، وتحول عن قابس إلى بعض جبالها تجافياً عن هوائها الوخم. وأقام في انتظار الركب الحجازي، وكان مريضاً فتحول إلى طرابلس فأقام بها عاماً ونصفه إلى أن وصل وفد الترك من المغرب الأقصى آخر سنة ثمان وسبع مائة فخرج معهم حاجاً، ثم قضى فرضه رعاد فكان من شأنه واستيلائه على منصب الخلافة ما يأتي ذكره. ووصل مدد النصرانية إلى قشتيل سنة ثمان وسبع مائة بعد منصرف العساكر عنهم، وفيهم فردريك ابن الطاغية صاحب صقلية، فقاتلهم أهل الجزيرة من المكارية^(٢) لنظر أبي عبد الله ابن الحسين من مشيخة الموحدين ومعه ابن أومغار في قومه من أهل جربة فأظفروهم الله بهم. ولم يزل شأن هذه الجزيرة من المكان مع العدو كذلك منذ نشأت دولة صنهاجة، وربما وقعت الفتنة بين المكارية فتصل إحدى الطائفتين يدها بالنصارى إلى أن كان ارتجاعها في هذه النوبة سنة^(٣) وأربعين لعهد مولانا السلطان أبي يحيى كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وخبر أبي بكر الشهيد) *

كان السلطان أبو عصيدة بعد تبيؤ سلطانه^(٤)، وتمهيد ملكه، طرقه مرض الاستسقاء

(١) وفي نسخة ثانية: أحمد بن محمد بن بهلول.

(٢) وفي نسخة ثانية: النكارين.

(٣) يياض بالأصل ولم نهند إلى تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا

(٤) وفي نسخة أخرى: بعد تملي سلطانه.

فأزمن به . ثم مات على فراشه في ربيع الآخر سنة تسع وسبعائة ، ولم يخلف ابناً ، وكان بقصرهم سبط من أعقاب الأمير أبي زكريا جدّهم من ولد أبي بكر ابنه الذي ذكرنا وفاته في خبر شقيقه أبي حفص في فتح مليانة أيام السلطان المستنصر ، فلم يزل بنوه في قصورهم وفي ظل ملكهم . ونشأ منهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر في إيالة السلطان أبي عصيدة ، وربّي في جميع نعمته . فلما هلك السلطان أبو عصيدة ولم يعقب ، وكان السلطان أبو البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن عمر عند إياسه من خروج أخيه من محبسه فرغبه في ملك الحضرة واستحثه عليها . ثم وصل أبو عبدالله بن يرزيكن السلطان أبا عصيدة واستنفض السلطان أبا البقاء لملك تونس ، فنهض كما نذكر . واستراب الموحدون بتونس في شأن حركته فخافوه على أنفسهم ، فبايعوا لهذا الأمير أبي بكر الذي عرف بالشهيد بما كان من قبله لسبع عشرة ليلة من بيعته ، وأبقى أبا عبدالله بن يرزيكن على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة . فتوّعه لما كان يحقد عليه من التقصير به أيام سلطانه ، فكان عوناً عليه إلى أن هلك عند استيلاء السلطان أبي البقاء كما نذكره إن شاء الله تعالى .

*** (الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية) ***

لما بلغ السلطان أبا البقاء بمكانه من بجاية وأعمالها الخبر بمرض السلطان أبي عصيدة مع ما كان من العقد بينها بأنّ من مات قبل صاحبه جمع الأمر بعده للآخر ، داخلته الظنة أن يتقض أهل الحضرة في هذا الشرط واعترم على النهوض لمشاركة الحضرة ، ووصل إليه حمزة بن عمر نازعاً عنهم ، فرغبه واستحثه ، وخرج من بجاية في عساكره ، وورى بالحركة إلى الجزائر لما كان من انتقاضهم على أبيه ، واستبداد ابن علان بها . ثم ارتحل إلى قصر جابر وعند بلوغه إليه ورد الخبر بمهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة الموحدين بعده لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا ، فاضطغنوا على الموحدين .

وأغذّ السير والنحاش إليه كافة أولاد أبي الليل واجتمع أمثالهم أولاد مهلهل إلى

صاحب تونس ، وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن والوزير أبو عبد الله ابن يرزيكن في العساكر للقاء ، ووقوا سلطانهم بأنفسهم . فلما زحف إليهم السلطان أبو البقاء اختلّ مصافهم وانهزموا وانتهب المعسكر ، وقتل الوزير ابن يرزيكن ، وأجفلت أحياء العرب إلى القفر ، ودخل العسكر إلى البلد واضطرب الأمر ، وخرج الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلاً ، ثم تفرّق عنه العسكر وتسايلوا إلى السلطان أبي البقاء . وفر أبو بكر ثم أدرك ببعض الجهات فثلّ إلى السلطان فاعتقله في بعض الفازات ، وغدا على السلطان أهل الحضرة من المشيخة والموحدين والفقهاء والكافة فعقدوا بيعته . وقتل الأمير فسمي الشهيد آخر الدهر ، وباشر قتله ابن عمه أبو زكريا يحيى بن زكريا شيخ الموحدين . ودخل السلطان من الغد إلى الحضرة واستقل بالخلافة ، وتلقّب بالناصر لدين الله المنصور . ثم استضاف إلى لقبة المتوكل . وأبقى أبا يعقوب بن يزدوتن في رياسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام الذي كان رئيساً عنده قبلها واستمرّ على خطة الحجابة أبو عبد الرحمن يعقوب بن عمر ، وولّى على الأشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني ، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عنبيعة ابن مزني يحيى بن خالد ومصاير
أموره) *

كان يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحق في جملة السلطان أبي البقاء خالد ، وتنكرت له الدولة لبعض التمرغات فخشى البادرة وفرّ فلقق بمنصور بن مزني . وكان منصور قد استوحش من ابن عمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب ، وعقد له على حجابته ، وجمع له العرب وأجمع على قسنطينة أياماً ، وبها يومئذ ابن طفيل ، وكانت قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفة من الأوغاد اشتملوا عليه واشتمل عليهم ، وأغروه بابن مزني فوعدهم إلى حين ظفروه ، واطلع ابن مزني على سوء دغلته فنفض يده من طاعته ، وانصرف عنه إلى بلده ، فانفضت جموعه ابن مزني على سوء دغلته فنفض يده من طاعته ، وانصرف عنه إلى بلده ، فانفضت جموعه وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء ومخالصة بطانته وحاجبه فتقبّلوه ، ولحق

يحيى بن خالد بتلمسان مستجيشاً ، ونزل على أميرها أبي زيّان محمد بن عثمان بن يغمراسن فهلك لأيام من قدومه . وولي بعده أخوه أبو حمو موسى بن عثمان فأمدّه وزحف إلى محاربة قسنطينة فامتنعت عليه . ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية ، ورّتب عليه الحرس . وكان السلطان ابن اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه ، حتى لقد أقطع له بتونس من قرى الضاحية ما كان للسلطان وابنه ، فلم يزل في إسهامه وإسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى ابن خالد بمكانه عنده سنة إحدى وعشرين وسبعائة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عنبيعة السلطان أبي بكر بقسنطينة على يد الحاجب ابن عمر وأولية ذلك) *

لما نهض السلطان أبو البقاء إلى الحضرة عقد على بحاية لعبد الرحمن بن يعقوب بن مخلوف^(١) مضافاً إلى رياسته في قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها ، وكان يلقّب المزوار ، وجعله حاجباً لأخيه الأمير أبي بكر على قسنطينة فانتقل إليها . وعكف السلطان أبو البقاء في تونس على لذاته وأرهف حدّه وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجالات سدويكش ودعار بن حريز^(٢) من رجالات الأتابج فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا غدرته^(٣) وأعمل الحاجب ابن عمر وصاحبه منصور بن فضل عامل الزاب الحيلة في التخلص من إيالته ، واستعصب^(٤) راشد بن محمد أمير مغراوة ، كان نزع إليهم عند استيلاء بني عبد الواد على وطنه فتلّقوه من الكرامة بما يناسبه واستقرّ في جملتهم ، وعليه وعلى قومه كانت تدور رحى حروبهم . واستصحبه السلطان أبو البقاء خالد إلى الحضرة أميراً على زناتة فدفع بعضهم حشمه إلى الحاجب في مقعد حكمه ، وقد استعدى عليه بعض الخدم فأمر بقتله لحينه . وأحفظ ذلك الأمير راشد بن محمد فرتب لها عزائمه ، وقوّض خيامه لحينه مغاضباً ،

(١) وفي نسخة أخرى : المخلف .

(٢) وفي نسخة أخرى : دعا بن حريز وفي النسخة الباريسية ابن جرير .

(٣) وفي نسخة أخرى : بادرته .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى واستغضب .

فوجد الحاجب بذلك سبيلاً إلى قصده وتمت حيلته صاحبه . وأهمّ السلطان شأن بجاية ونواحيها ، وخشي عليها من راشد بما كان صديقاً ملاطفاً لعبد الرحمن بن مخلوف وفاوضها فيمن يدفعه إليها ، فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزني ، وأشار منصور بالحاجب ، وتدافعاها أياماً حتى دفعها جميعاً إليه ^(١) . وطلب ابن غمر من السلطان العقد لأخيه أبي بكر على قسنطينة فعقد له ، وولّى علياً ابن عمه الحجابة بتونس نائباً عنه . وفصل من الحضرة ولحق بقسنطينة ، وصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزاب فكان من خلفه ما يذكر . وقام ابن عمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرّف في حجابته . ثم داخله في الانتقاض على أخيه ، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء وأحسّ علي بن الغمر بارتياحه فلحق بقسنطينة . وجّه السلطان أبو البقاء عسكرياً وعقد عليه لظافر مولاه المعروف بالكبير ، وسرّحه إلى قسنطينة فأنتهى إلى باجة وأناخ ^(٢) بها إلى أن كان من أمره ما يذكر . وبادر ابن غمر إلى المجاهرة بالخلعان ودعا مولانا السلطان أبا بكر إليه فأجابه ، وأخذ له البيعة على الناس فتمت سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، وتلقّب بالمتوكل وعسكر بظاهر قسنطينة إلى أن بلغه مجاهرة ابن مخلوف بخلافهم ، فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استيلاء السلطان على بجاية ومقتل ابن مخلوف وما كان من الإدارة في ذلك) *

كان يعقوب بن مخلوف ويكنى أبا عبد الرحمن كبير صنهجة من جند السلطان الموطّنين بنواحي بجاية ، وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوهم . ولما نزلت عساكر بني مزني على بجاية مع أبي يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمائة ، كان له في حروبهم مقامات مذكورة وآثار معروفة . وكان الأمير أبو زكريا وابنه يستخلفونه ببجاية أزمان سفرهم عنها ، وكان يلقّب بالمزوار . ولما هلك خلفه في

(١) وفي نسخة أخرى : حتى دفعها جميعاً إليها .

(٢) وفي نسخة أخرى : أراح .

سبيله تلك ابنه عبد الرحمن واستخلفه السلطان أبو البقاء خالد على بجاية عندما نهض إلى تونس سنة تسع وسبعائة وأنزله بها ، وكان طموحاً لجوجاً مدلاً بياسه وقدمه ومكانه من الدولة . فلما دعا السلطان أبو بكر لنفسه وخلع طاعة أخيه ، وأخذ له أبو عبد الرحمن بن غمر البيعة على الناس وخاطبوه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية وأعمالها فأبى منها ، وتمسك بدعوة صاحبه ، ونفس على ابن عمر ما تحصّل له من ذلك من الحظ فجاهر بخلافهم .

وجمع واحتشد وتقبّض على صاحب الأشغال عبد الواحد ابن القاضي أبي العباس الغماري وعلى صاحب الديوان محمد بن يحيى القالون مصطنع الحاجب ابن غمر من أهل المريّة كان أسدى إليه عند إجتيازه به معروفاً ، ورحل إليه عندما استولى على الرتبة ببجاية ، فكافأه عن معروفه واصطنعه وألقى عليه محبته ورقاه إلى الرتب ، وصرفه في أعمال الجباية وقلّده ديوان بجاية ، فتقبّض عبد الرحمن بن مخلوف عليه وعلى صاحبه . وجمع الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد . وارتحل السلطان أبو بكر من معسكر بظاهر قسنطينة وأغذّ السير إلى بجاية ، ونزل مطلاً عليها وأمهل الناس عامة يومهم^(١) وشرط ابن مخلوف على السلطان عزل ابن غمر ، وتردّت الرسل بينهم في ذلك . وكان الوزير أبو زكريا بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الإصلاح بما كان له من الصهر مع ابن مخلوف . وحين رجع إليه بامتناع السلطان عن شرطه منعه من الرجوع إليهم وحبس عنده ، وزحف أهل المعسكر بالسلطان وخاموا عن لقاء صنهاجة ومن معهم من مغراوة أهل الشوكة والعصبية والعدد والقرّة .

وأجفل السلطان من معسكره فانتهب وأخذت آتته ، وسلب من كان في المعسكر من أخلاط الناس . ودخل السلطان إلى قسنطينة في فلّ من عسكره ، وبعث ابن مخلوف عسكراً في اتباعه فوصلوا إلى ميلة فدخلوها عنوة . ثم وصلوا إلى قسنطينة فقاتلوا أياماً ، ثم رجعوا إلى بجاية . وأقام السلطان واضطرب أمره ، وتوقع زحف ظافر إليه من باجة ، واتصل به أن أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني قفل من المشرق ، وأنه لما انتهى إلى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بأفريقية من الاضطراب ، فبيع وتوافت إليه

(١) وفي نسخة أخرى : واقتل الناس عامة يومهم .

العرب من كل جهة ، فرأى السلطان من مذاهب الحزم أن يبعث إليه بالحاجب ابن أبي عبد الرحمن بن غمر ليشيد من سلطانه ، ويشغل أهل الحضرة عنه ، فوزى بالفرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر باين مخلوف في ذلك .

ولحق ابن عمر باللحياني واستحثه لملك تونس وهون عليه الأمر ، وغدا السلطان عند فصول ابن غمر على منازل فكبسها وسطا بحاشيته ، وولّى حجابته حسن بن إبراهيم ابن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسنطينة والقل من كتامة ، يعرف قومه ببني نهلان^(١) ، وكان قد اصطنعه من قبل ، وارتحل بالعساكر إلى بجاية

سنة إثنتي عشرة وسبعائة ، واستخلف على قسنطينة عبدالله بن ثابت أخا الحاجب . وأشيع بالجهات أن السلطان تنكر لابن غمر وسخطه ، وأنه ذهب إلى ابن اللحياني واستجاشه على الحضرة ، وبلغ ذلك ابن مخلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر ، وتوثق لنفسه منه بالعهد بمدخلة عثمان بن شبل بن عثمان بن سباع بن يحيى من رجالات الزواودة والولي يعقوب الملاذي^(٢) من نواحي قسنطينة . وأغذ السير من بجاية ولقي السلطان بغرجيوه من بلاد سدويكش فلقاه مبرّة ورحباً . ثم استدعاه من جوف الليل إلى رواقه في سرب من مواله فعاقرهم الخمر إلى أن ثمل ، واستغضبوه ببعض التزعات فغضب وأقرع فتناولوه طعنًا بالخناجر إلى أن قتلوه ، وجروا شلوه فطرحوه بين الفساطيط ، وتقبّض على سائر قومه وحاشيته ، وفرّ كاتبه عبدالله بن هلال فلحق بالمغرب . وارتحل السلطان مغدًا إلى بجاية فدخلها وظفر بها ، وتملك بها حتى ربا ملكه وعلا ، وكان دخوله إلى بجاية على حين غفلة من أهلها واستولى السلطان على سائر المملكة التي كانت تحت إيالة أبيه بالجهة المعروفة بالناحية الغربية ، وتكمل واستوثق له أمرها ، وأقام في انتظار صاحبه ابن غمر إلى أن كان من الأمر ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي النسخة الباريسية : ضيلان وفي نسخة أخرى نليلان وفي نسخة ثانية : تيلان .

(٢) وفي نسخة ثانية : الملازي .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء السلطان أبي يحيى بن اللحياني على الحضرة) *

كان السلطان أبو البقاء خالد بعد بيعته السلطان أبي بكر بقسنطينة قد اضطربت أحواله وجهّز إليه العساكر لمنازلة قسنطينة ، وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير فعسكر ببجاية^(١) وأراح ينتظر أمر السلطان . وكان أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد ابن اللحياني ابن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص قد بويغ بطرابلس لما قفل من المشرق ، ورأى اضطراب الأحوال ووفد عليه هنالك الحاجب أبو عبد الرحمن بن عمر بهدية من السلطان أبي بكر ، وأنه يمده ويظهره على شأنه ، فأحكم ذلك من عقده وشدّ من أمره ، وتوافت إليه رجالات الكعوب أولاد أبي الليل ، ومعهم شيخ دولته أبو عبدالله محمد بن محمد المزدوري فأغذوا السير إلى الحضرة . وبعث السلطان إلى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشاً به ، فاعترضوه قبل وصوله وأوقعوا به واعتقلوا ظافراً وصباحوا تونس ثامن جمادي سنة إحدى عشرة وسبعائة ووقفوا بساحتها فكانت هيلة بالبلد قتل فيها شيخ الدولة أبو زكريا الحفصي ، وغدا القاضي أبو اسحق بن عبد الرفيغ على السلطان . وكان متبوعاً صارماً قوياً الشكيمة ، فأغراه بمدافعة العدو فخام عن لقائه ، واعتذر بالمرض وأشهد بالانحلاع عن الأمر وحل البيعة . ودخل أبو عبدالله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله .

ثم جاء السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني على أثره بلا تأخر ثاني رجب فبويغ البيعة العامة بظاهرها ودخل إلى البلد ، واستولى عليها ، وولى على حجابته كاتبه أبا زكريا يحيى بن علي بن يعقوب ، وعلى الاشغال بالحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب . وبنو يعقوب هؤلاء أهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء ، قدموا إلى الحضرة مع الجالية ، وكان منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن يعقوب ، وفد مع ابن الأمين صاحب طنجة كما قدّمناه . وتصرف في القضاء بأفريقية ، وولاه السلطان المستنصر قضاء الحضرة . وسافر عنه إلى ملوك مصر ، وكان بنو علي هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من أقاربه ، فكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها . وكان

(١) وفي نسخة ثانية : باجة

عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد ، وهلك بتوزر سنة إثنين وسبعماية . وكان السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد استكتب أخاه أبا زكريا يحيى أيام رياسته على الموحدین فحظي عنده واختصه ولازمه وحج معه . فلما ولي الخلافة أحظاه وولاه حجابته . ولما استقر بتونس استوثق له الأمر أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مرسله السلطان ابن بكر بعد أن وثق معه العهد إلى أبي يحيى على المعاهدة ^(١) ، وضمن له ابن غمر من ذلك ماضيه وتمسك بابن عمه على ابن غمر فأقام عنده مكرماً متسع الجراية والإسهام إلى أن كان من الأمر ما ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن قدوم ابن عمر على السلطان ببجاية ونكبة ابن ثابت وظافر الكبير) *

لما قدم ابن غمر على بجاية استبد بجابته وكفأته كما كان ، وليوم وصوله قرَّ عبد الله ابن هلال كاتبه ابن مخلوف ، ولحق بتلمسان وشمر ابن غمر عزأه للإطلاع بأمره ، ودفع حسن بن ابراهيم بن ثابت عن الرتبة فلم يترشح يوماً ^(٢) ، وخرج لجباية الوطن . ثم أغرى به السلطان وحذره من استبداده بقسنطينة لمكان معقلة الجاور لها وسعائيات تنصح بها حتى صادفت القبول لمكانه والوثوق بنصائحه . وخرج السلطان في العساكر من بجاية إلى قسنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعماية للنظر في أحوالها . فلما انتهى إلى فرجيوه لقيه عبد الله بن ثابت فتقبض عليه وعلى أخيه حسن بن الحاجب سنة ثلاث عشرة وسبعماية بعد أن استصفى أموالها ، ويقال إنه بعد خروج حسن بن ثابت إلى عمل قسنطينة بعث في أثره بعض مواليه ، وأوعز معهم إلى عمل عبد الكريم بن منديل ورجالات سدويكش فقتلوه بوادي القطن . وأنَّ السلطان لم يباشر نكبته ، وكان ظافر الكبير بعد إنهزامه وحصوله في أسر العرب كما قدَّمناه انعموا عليه وأطلقوه ، ولحق بالسلطان أبي بكر فآثره واستخلصه كما كان لأخيه ، وولاه على

(١) وفي نسخة ثانية : أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مرسله السلطان أبي يحيى بعد أن وثق العهد معه على المعاهدة .

(٢) وفي نسخة ثانية : فلم يترشح له .

قسنطينة عند نكبة ابن ثابت . واستكتب أبا القاسم بن عبد العزيز لخلوه من الولايات فأقام ظافراً والياً بقسنطينة . ثم استقدمه السلطان إلى بجاية وقد غصّ ابن غمر بمكانه ، فأغرى به السلطان فتقبّض عليه وأشخصه في السعية^(١) إلى الأندلس والله أعلم .

* (الخبر عن منازل عساكر بني عبد الواد ببجاية وما كان في أثر ذلك من الاحداث) *

كان السلطان أبو يحيى بعد إنهزام جنده عن بجاية سنة عشر وسبعائة بعث سعيد بن بشر بن يخلف عن مواله إلى أبي حمّو موسى بن عثمان بن يغمراسن . وكان قد أتيح له في زناة المغرب الأوسط ظفر واعتزاز . فملك أمصارهم من أيدي بني مرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب على تلمسان ودوّخ جهاته ، واستولى على أعمال مغراوة وتوجين ، وملك الجزائر ، واستنزل منها ابن علان الثائر بها وملك تدلس من يد ابن مخلوف فبعث إليه السلطان في المواصله والمظافرة ، وأن تكون يدهما على ابن مخلوف واحدة ، فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية . ثم بلغه مهلك ابن مخلوف فبعث إليه السلطان في المواصله واستيلاء السلطان على ثغره فاستمرّ على المطالبة . وادّعى أن بجاية له في شرطه ، وقارن ذلك لحاق صنهاجة إليه عند مهلك صاحبهم فرغّبوه في ملك بجاية وضمنوا له أمرها . ثم قدم عثمان بن سباع بن يحيى مغاضباً للسلطان بما كان من إساءته عليه في ابن مخلوف وإخفار ذمته وعهده فيه ، واستقرّ عنده ابن أبي يحيى بعد منصرفه عن الحجابة^(٢) ، ورجوعه من الحج فرغّبوه في ذلك واستحثّوه لطلب بجاية ، فسرّح العساكر إليها لنظر محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن ومسعود ابن عمّه أبي عامر إبراهيم ومولاه مسامح . وبعث معها أبا القاسم ابن أبي يحيى الحاجب ففصلوا عنه بدار مقامه بشلف ، فأغذّوا السير . وهلك ابن أبي يحيى في طريقه بجبل الزاب ونازلوا البلد . ثم جاوزوها إلى الجهات الشرقية

(١) وفي نسخة ثانية : السفين .

(٢) وفي نسخة ثانية : واستقرّ عنده ابن أبي جبي منذ منصرفه عن الحجابة .

فأُتخِنُوا فيها ودخلوا جبل ابن ثابت ، واستولوا عليه واستباحوه سنة ثلاث عشرة وسبعائة

ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحات أعظم النيل ، وقفلوا راجعين فشدوا حصناً بأصفون وشحنوه بالأقوات . ولما وصل محمد بن يوسف ومسامح وبخها وطوفها ذنب القصور والعجز وعزلها . وبعث السلطان عسكرياً في البر وأسطولاً في البحر بعد رجوعه من قسطنطينة سنة أربع عشرة وسبعائة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون ، فخرّب وانتهت أقواته وعُدَدُهُ ، وسرّح أبو حمو عسكرياً آخر لحصار بجاية عقد عليه لمسعود ابن عمّه ابن أبي عامر بن ابراهيم بن يغمراسن ، فنازلوها سنة خمس عشرة وسبعائة واتصل بهم خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن بني توجين معه على أبي حمو ، وأنهم أوقعوا به وهزموه ، واستولوا على معسكره ، فأجفل مسعود بن أبي عامر ومعسكره وأفرجوا عن بجاية . ووصل على أثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانحياس فبعث السلطان إليه صنيعته محمد ابن الحاج فضل بالهدية والآلة ، ووعدّه بالمظاهر وتسويغ السهام التي كانت ليغمراسن بأفريقية . وشغل ابن عبد الواد عن بجاية ، وخرج السلطان في عساكره للإشراف على وطنه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية) *

لم يزل ابن غمر مستبداً على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده وأمره متوقف على إنفاذه . وصار يغريه بيطانته فيقتلهم ويغرمهم^(١) ، وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه . وداخله بعض أهل قُسْطَنْطِينَة سنة ثلاث عشرة وتسعمائة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك ، ولم يتم فقطن لها ابن غمر فأوقع بهم وقسمهم بين النكال والعذاب فرقاً . ثم رجع السلطان إلى بجاية سنة ثلاث عشرة وسبعائة لِمَا أهمهم من حصاره ، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان أشده وأرهف حدّه وسطا محمد بن فضل فقتلهم في خلوة معاقرة من غير مؤامرة

(١) وفي نسخة أخرى : يغريهم .

الحاجب . وباكر ابن غمر مقعدة بباب دار السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مضرجاً في ثيابه ، وأخبر أن السلطان سطا به فدخله الريب من استبداد السلطان وإرهاق حدّه ، وخشي بواده ، وتوقّع سعاية البطانة وأهل الخلوة . فتحيل في بعده عنه واستبداده بالثغر دونه فأغراه بطلب أفريقية من يد ابن اللحياني ، وجهّزه بما يصلح من الآله والفساطيط والعساكر والخدام ، ورتّب له المراتب . وارتحل السلطان إلى قسنطينة سنة خمس عشرة وسبعائة ثم تقدّم غازياً إلى بلاد هوّارة ، وأجفل عنها ظافراً بهم^(١) وكان قائدها من مواليم . فاستوفى جباية هوّارة ، وقفل إلى قسنطينة سنة ست عشرة وسبعائة واستبدّ ابن غمر ببجاية ومدافعة العدو من زناتة عنها . واستخلف على حجابة السلطان محمد بن قالون ، وقرّت عينه بما كان يؤمّل من استبداده إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى اللحياني الى قابس
وتجافيه عن الخلافة) *

كان هذا السلطان أبو يحيى اللحياني قد طعن في السنّ ، وكان بصيراً بالسياسة مجرباً للأمور ، وكان يرى من نفسه العجز عن حمل الخلافة واستحقاقها مع أبناء الأمير أبي زكريا الأكبر . وعلم مع ذلك استفحال صاحب الثغور الغربية الأمير أبي بكر واستغلاظ أمره بمن انتظم في ملكه^(٢) ، وارتسم في ديوان جنده من أعياص زناتة وفحول شولهم من توجين ومغراوة وبني عبد الواد وبني مرين . كانوا يفرعون إليه مع الأيام عن ملوكهم خشية على أنفسهم ، لما قاسموهم في النسب وساهموهم في يعسوبيّة القبيل وفحوليّة الشول ، ومنهم من غلبوا على مواطنهم فلكوها عليهم مثل مغراوة وبني توجين وملكيش ، فاستكشف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك . ونهض سنة ست عشرة وسبعائة إلى أفريقية وجال في بلاد هوّارة وأخذ جبايتها كما ذكرنا ، فتوقّع السلطان ابن اللحياني زحفه إليه بتونس . وكانت أفريقية مضطربة عليه ، وكان تعويله في الحامية والمدافعة على أوليائه من العرب ، تولى منهم حمزة بن

(١) وفي النسخة الباريسية ثم . وفي نسخة أخرى . وأجفل عنها ظافراً بمن تعاطى قائدها من مواليم .

(٢) وفي النسخة الباريسية : في جملته .

عليّ بن عمر بن أبي الليل فحكمه في أمره وأشركه في سلطانه ، وأفرده برياسة العرب وأجره الرسن ، وسرّب إليه الأموال ، وكثر بذلك زبون العرب واختلافهم عليه ، فاجتمع على التقويض عن أفريقية ونفض اليد من الخلافة ، فجمع الأموال والذخيرة ، وباع ما كان بمودعاتهم من الآنية والفرش والخرفي والماعون والمتاع ، حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها ، أخرجت للورّاقين فبيعت بدكاكين سوقهم . فجمع من ذلك زعموا قناطير من الذهب تجاوز العشرين قنطاراً وجوالقين من حصى الدرّ والياقوت ، وخرج من تونس إلى قابس مورياً بمشارفة عملها فاتح سنة سبع عشرة وسبعمائة بعد أن رتب الحامية بالحضرة وباجة والحمامات ، واستخلف بالحضرة أبا الحسن بن وانودين وانتهى إلى قابس فأقام بها ، وصرف القمال في جهاتها إلى أن كان من بيعة ولده بتونس كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر الى الحضرة ورجوعه الى قسنطينة) *

لما رجع^(١) السلطان من هواره إلى قسنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة كما قدّمناه استبلغ في جهاد حركة أخرى إلى تونس ، فاحتشد وقسم العطاء وأزاح العلل ، واعترض الجنود على طبقاتهم من زناتة والعرب وسديكش . واستخلف على قسنطينة الحاجب محمد بن القالون وبعث إلى حاجبه الأعظم أبي عبد الرحمن بن عمر^(٢) بمكانه من إمارة بجاية في مدد المال للنفقات والأعطيات . فبعث إليه منصور بن فضل بن مزني عامل الزاب ، وكان ابن عمر لما رأى من كفايته وأنه جماعة للمال ، استضاف له عمل جبل أوراس والحصنة وسديكش وعياض وسائر أعمال الضاحية ، فكانت أعمال الجبابة كلّها لنظره ، وأموالها في حساب دخله وخرجه ، فبعثه ابن عمر ليقم إتفاق السلطان . واستخلفه على خطة حجابته ، وارتحل السلطان من قسنطينة في جمادي سنة سبع عشرة وسبعمائة يطوي المراحل . ولقيه في طريقه وفود العرب ،

(١) وفي نسخة أخرى : خرج .

(٢) وفي النسخة الباريسية ابن عمر وفي النسخة التونسية ابن غمر

وانتهى إلى باجة مستغيثاً^(١) حاميتها إلى تونس .

وكان السلطان أبو يحيى اللحياني قد خرج عنها إلى قابس كما قدّمناه ، واستخلف عليها أبا الحسن بن وانودين ، وبعث إليه بنهوض السلطان أبي بكر إلى تونس ، وأنه محتاج إلى المدافعة ، فاعتذر لهم اللحياني بما قبله من الأموال ، وأطلق يدهم في الجيش والمال ، فأركبوا واستلحقوا ورتّبوا الديوان ، وأخرجوا ابنه محمداً ويكنى أبا ضربة فأطلقوه من اعتقاله .

ولقيهم الخبر بإشراف السلطان أبي بكر على باجة ، فخرجوا جميعاً من تونس ، وخالفهم إلى السلطان مولاهم ابن عمر بن أبي الليل . كان مضطغناً على الدولة مترتباً بها ، لِمَا كان اللحياني يؤثر عليه أخاه حمزة ، فلقى السلطان في دوين باجة ، فأعطاه صفقته واستحثّه ، ووصل إلى تونس ، فترل روض السنافرة^(٢) من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة وسبعمئة وخرج إليه الملاً وتردّدوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لَشَأْنِ أبي ضربة وأصحابه . وكان من خبرهم أَنَّ السلطان لما أغذ السير من باجة بادر حمزة بن عمر إلى بطانة اللحياني وأوليائه بتونس ، فلقيهم وقد خرجوا عنها ، فأشار عليهم ببيعة أبي ضربة ابن السلطان اللحياني ومزاحفة القوم به ، فبايعوه وزحفوا إلى لقاء السلطان .

ودسّ حمزة إلى أخيه مولاهم أن يزحف بالمعسكر فأجفل السلطان عن مقامته بروض السنافرة لسبعة أيام من احتلاله قبل أن يستكمل البيعة ، وارتحل إلى قسنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه ، وسرّح منصور بن مزني إلى ابن عمر بباجة ودخل أبو ضربة بن اللحياني والموحدون إلى تونس منتصف شعبان من سنته . وبويع بالحضرة البيعة العامّة وتلقّب المستنصر . وأراد أهل تونس على إدارة سور بالأرباض فيكون سياجاً عليها ، فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه ، وأوهنه العرب في مطالبهم واشتطوا عليه في شروطهم إلى أن عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة أخرى : فانفضّت .

(٢) وفي نسخة أخرى : روض السانجرة .

* (الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وايقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس الى المشرق) *

لا قفل السلطان من تونس إلى قسنطينة بعث قائد محمد بن سيّد الناس بين يديه إلى بحاية فارتاب لذلك ابن عمر بوصول أمره^(١) ، وتنكّر له وشعر السلطان بذلك . وأغضى له وطالبه في المدد ، فاحتفل في الحشد والآلة والأبنية . وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم : محمد بن سيّد الناس ، ومحمد بن الحكم ، وظافر السنان وأخوه من موالى الأمير أبي زكريا الأوسط ، ومحمد المديوني ومحمد المجري ومحمد البطوي^(٢) . وبعث له من فحول زناتة وعظائهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين ، كان ارتحل إليه من الأندلس كما نذكر في خبره ، وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من أعياص بني عبد الواد فيمن كان معهم من قومهم وحاشيتهم . توافوا بعساكرهم عند السلطان بقسنطينة ، فاعترم على معاودة الزحف إلى تونس ، وكان قد اختبر أحوال أفريقية وأحسن في ارتيادها ، فخرج في صفر من سنة ثمانى عشرة وسبعائة واستعمل على حجابته أبا عبد الله بن القالون ، ويرادفه أبو الحسن بن عمر ووافاه بالأندلس وفد هواره وكبيرهم سليمان بن جامع ، وأخبروه بأن ضربة بن اللحياني انتقل^(٣) من باجة بعد أن نازها معتزماً على اللقاء ، فارتحل مولانا السلطان مغدّاً ولقيه مولاهم بن عمر فراجع الطاعة ، وارتحلوا في أتباع أبي ضربة وجموعه حتى شاربوا على القيروان ، فخرج إليه عاملها ومشيختها فألقوا إليه باليد وأعطوا الطاعة .

وارتحل السلطان راجعاً عن اتباع عدوّه إلى الحضرة وقد نزل بها أبو ضربة بن اللحياني من بطانة محمد بن الغلاق ليمنع دونها ، فأخرج الرماة إلى ساحتها وقفل العساكر ساعة من النهار . ثم اقتحموها عليه ، واستبيح عامة أربابها وقتل ابن الغلاق ودخل السلطان إلى الحضرة في ربيع من سنته ، فأقام خلافاً انعقدت بين العامة . وقدم على

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : فارتاب ابن عمر بوصوله .

(٢) وفي نسخة أخرى : محمد البطوني .

(٣) وفي نسخة أخرى : أجفل .

الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد . ورحل في اتباع أبي ضربة بن اللحياني وجموعه فأوقع بهم بمصبوح^(١) من جهات بلاد هواره .
وقُتِلَ من مشيخة الموحدّين أبو عبدالله بن الشهيد من أهل البيت الحفصي ، وأبو عبدالله بن ياسين . ومن طبقات الكتّاب أبو الفضل البجائي^(٢) وتقبّض على شيخ الدولة أبي محمد عبدالله بن يغمور . وقيد إلى السلطان فعفا عنه وقومه^(٣) ليومه . ثم أعاده إلى خطته بعد ذلك . وزجع السلطان إلى تونس من سنته . وكان السلطان أبو عيسى بن اللحياني لما بلغه الخبر بنهوض السلطان إلى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة وسبعائة وما كان من بيعة الموحدّين والعرب لابنه أبي ضربة ، وارتحل من مقامه بقابس إلى نواحي طرابلس . ثم بلغه رجوع السلطان إلى قسنطينة فأوطن طرابلس فبنى مقعداً للملكه بسور البلد مما يلي البحر سمّاه الطارمة ، وبعث العمّال في الجهات لجباية الأموال ، وبعث على جبال طرابلس أبا عبدالله بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجوّاري من ذئاب^(٤) فدوّخ البلاد وفتح المعازل وجبى الأموال وانتهى إلى برقة . واستخدم آل سالم وآل سليمان من عرب ذئاب ، ورجع إلى سلطانه بطرابلس ووافاه الجند بانهمزام أبي ضربة إبنه ، فبعث حاجبه أبا زكريا بن يعقوب ووزيره أبا عبدالله بن ياسين بالأموال لاحتشاد العرب ، ففرّقوها في علاق وذئاب وزحف أبو ضربة إلى القيروان . وبلغ خبره إلى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان من سنة ثمان عشرة وسبعائة فأجفلوا عن القيروان . ثم تدامروا وعقلوا رواحلهم مستميتين بزعمهم حتى أطلّت عليهم العساكر بمكان فجّ النعام ، فانفضت جموعهم وشرّدت رواحلهم وارتحلوا منهزمين ، والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه . ولحق أبو ضربة في فله إلى المهديّة ، وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع منها إلى أن كان من شأنه ما نذكره .

وبلغ خبره إلى أبيه بمكانه من طرابلس فاضطرب معسكره وبعث إلى النصاري في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوافوه بستة أساطيل فاحتمل أهله وولده ، وركب

(١) وفي النسخة البارسية : بمصرح وفي نسخة ثانية بمصبوح .

(٢) وفي النسخة البارسية : التجاني .

(٣) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة ثانية ونوهه .

(٤) وفي نسخة أخرى : دباب وهي الأصح .

البحر ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الإسكندرية ، واستخلف على طرابلس أبا عبدالله بن أبي عمران من ذوي قرابته وصهره ، فلم يزل بها إلى أن استدعاه الكعوب ونصّبوه للأمر ، وأجلبوا به على السلطان مراراً كما نذكره بعد . وركب السلطان أبو يحيى بن اللحياني البحر إلى الاسكندرية فتنزل بها على السلطان محمد بن قلاون من ملوك الترك بمصر والشام واستقدمه إلى مِصْرَ فعظّم من مقدمه واهترّ للقائه وتوّه من مجلسه ، وأسنى من جريته وأقطاعه إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعائة ورجع السلطان أبو بكر إلى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفجّ النعام ، فدخلها في شتّال من سسته . واستقامت أفريقية على طاعته ، وانتظمت أمصارها وثغورها في دعوته إلى المهدية وطرابلس كما ذكرناه إلى أن كان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مهلك الحاجب ابن عمر ببجاية وولاية الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الادالة منه بابن سيد الناس) *

كان الحاجب بن عمر لما استبدّ ببجاية سنة خمس عشرة وسبعائة ، انتقل السلطان إلى قسنطينة ولم يراجعها بعد . ثم لما رجع من تونس ثانية حركته سنة سبع عشرة وسبعائة صرف إليه منصور بن فضل وبعث في أثره قائده أبا عبدالله محمد ابن حاجب أبيه محمد^(١) بن سيد الناس يهيبه له قصوره ببجاية للتحول إليها ، فردّه ابن عمر وتنكّر له وطالبه السلطان في المدد فبادر به فأقطعه جانب الرضا . وعقد له على بجاية وقسنطينة كما ذكرنا ذلك كله قبل . فاستبدّ ابن عمر بالثغر وما إليه من الأعمال مقتصرأ على ذكر السلطان في الخطبة واسمه في السكّة . وأقام على ذلك إلى أن ملك السلطان تونس واستولى على جهاتها ، وبعث إليه بان عمّه علي بن محمد بن عمر ففقد له أبو عبد الرحمن الحاجب على قسنطينة فضى إليها ، وهو في خلال ذلك كلّه يدافع عساكر زناتة عن بجاية .

وقد كان أبو حمّو صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف واسترجاعه بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدّمناه يسرّب العساكر لحصارها . وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة بكر يجهز^(٢) بها الكتائب لحصارها . ثم هلك أبو حمّو وولي ابنه أبو

(١) وفي نسخة أخرى : حاجب أبيه أبي الحسن .

(٢) وفي نسخة أخرى : قلعة تكرر ليجمّر بها الكتائب .

تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة وسبعائة فتنفس منحنى الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان إلى تونس وفتحها . ثم خرج أبو تاشفين من تلمسان لتمهيد أعماله ، وقتل محمد بن يوسف بمعقله من جبل وانشريس كما ذكره في أخبارهم ، فارتحل من هنالك غازياً إلى بجاية ، فاطلّ عليه في سنة تسع عشر وسبعائة وبدا له من حصنها وكثرة مقاتلتها وامتناعها ما لم يحتسب فانكفاً راجعاً إلى تلمسان ، وأصاب ابن عمر المرض فبعث عن عليّ ابن عمّه بمكان عمله بقسنطينة ، وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر السلطان .

وهلك لأيام علي فراشه في شوال من سنة تسع عشرة وسبعائة ، وقام علي بن عمر بأمر بجاية ، واتصل الخبر بالسلطان فأهمّه شأن الثغر . وطير ابن سيّد الناس إليه مع قهرمانه داره لتحصيل تراثه والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة ، وقدم معه علي بن عمر ، فأولاه السلطان من رضاه ما أحسب أمله ، وأقام بالحضرة إلى أن كان منه خلاف مع ابن أبي عمران . ثم راجع الطاعة وقد أحفظ السلطان بولاية عدوّه . فلما عاد إلى تونس أوعز إلى مولاه نجاح هلال بقتله ، فاغتالوه خارجاً من بستانه فأشوهه ، وهلك من جراحته ، والله أعلم .

* (الخبر عن إمارة الأمير أبي عبدالله على قسنطينة وأخيه

الامير أبي زكريا على بجاية وتولية ابن القالون على حجابتها) *

لما هلك ابن عمر أهمّ السلطان شأن بجاية لما كانت عليه من حال الحصار ، ومطالبة بني عبد الواد لها فرأى أي أن يكشف الحامية بالثغور الغربية وينزل بها أبناءه للمدافعة والحماية ، وعقد على قسنطينة لإبنه الأمير أبي عبدالله وعقد على بجاية لابنه الآخر الأمير أبي زكريا وجعل حجابتها لأبي عبدالله بن القالون مستبدّاً عليها لمكان صغرهما . وأكثف له الجند وأمره بالمقام ببجاية للممانعة من العدوّ والملح على حصارها وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين وسبعائة في احتفال من العسكر والأصحاب والأبهة . وأبقى خطة الحجابة خلواً ممن يقوم بها . وأبقى على ابن القالون . وبقي للتصرّف في الأمور من رجالات السلطان أبو عبدالله محمد بن عبد العزيز الكردي الملقّب بالزوار . وكان مقدّماً على بطانة السلطان المعروف بالدخلة . وعلى الأشغال

الكاتب أبو القاسم بن عبد العزيز ، وسنذكر أوليتها بعد . وانصرف إلى بجاية رافلاً في حلل الغر والتنويه إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن استقدام ابن القالون والادالة منه بابين سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في قسنطينة) *

لما انصرف أبو عبد الله بن يحيى بن قالون إلى بجاية ، وخلا وجه السلطان فيه لبطانه عند ولايته ببجاية ، بثوافيه السعيات ونصبوا الغوائل ، وتولى كبر ذلك المزوار بن عبد العزيز بمداخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الأشغال . وعظمت السعاية فيه عند السلطان حتى داخلته فيه الظنة ، وعقد لمحمد بن سيد الناس على بجاية ، وقام بأمر حصارها وحجابه أميرها إلى أن استقدم للحجابه ، وكان من أمره ما نذكره . ومّر ابن قالون بقسنطينة في طريقه إلى الحضرة فحدثته نفسه بالامتناع بها ، وداخل مشيختها في ذلك فأبوا عليه ، فأشخصهم إلى الحضرة نكالا بهم . ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فأسرّها لابن القالون وعزم على استضافة الحجابه بقسنطينة لابن سيد الناس ، فأستغفى مشيختها من ذلك وأروه أن ابن الأمين قريبه وابن أخيه ، وذكره ثروة أبيه فأقصر عن ذلك ، وصرف اعتزاه إلى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب ، وكان من خبره أنه كان من موالي الأمير أبي زكريا ، وكان له في دولة ابنه السلطان أبي البقاء ظهور ، وزحف هو بالعساكر عندما استراب السلطان أبو البقاء بأخيه السلطان أبي بكر فأقام ببجاية . وجاء المزدوري والعرب إلى تونس في مقدّمة ابن اللحياني فرحف إليهم ففضّوه وتقبّضوا عليه كما ذكرنا ذلك كله . ثم لحق بعدها بمولانا السلطان أبي يحيى وأعادته إلى مكانه من الدولة ، وولاه قسنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشرة وسبعائة .

ثم غصّ به ابن عمر وأغرى به السلطان فأشخصه في السفين إلى الأندلس ، وجاز إلى المغرب . ونزل على السلطان أبي سعيد إلى أن بلغه الخبر بمهلك ابن عمر فكّر راجعاً إلى تونس ، ولقاه السلطان مبرّة وتكرّماً . ووافق ذلك وصول الحاجب ابن قالون من بجاية ، فعقد السلطان لظافر هذا على حجابه ابنه بقسنطينة الأمير أبي عبد الله فقدمها وقام بأمرها ، واستعمل ذويه وحاشيته في وجوه خدمتها وصرف من كان هنالك من

الخدّام أهل الحضرة إلى بلدهم . وكان بها أبو العبّاس بن ياسين متصرفاً بين يدي
الأمير أبي عبدالله ، والكاتب أبو زكريا بن الدبّاغ على أشغال الجباية ، وكانا قدما
من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبدالله فصرفهما القائد ظافر لحين وصوله ، واستقلّ
بأمره إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى

* (الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن قالون إليه على
عينه) *

كان محمد بن أبي عمران هذا من أعقاب أبي عمران موسى بن ابراهيم ابن الشيخ
أبي حفص ، وهو الذي ولي أفريقية نائباً عن أبي محمد عبدالله ابن عمه الشيخ أبي
محمد عبد الواحد ، كتب له بها من مراکش لأوّل ولايته ، فأقام والياً عليها ثمانية أشهر
إلى أن قدم آخر سنة ثلاث وعشرين وستائة ، وأقام أبو عمران هذا في جملتهم إلى أن
هلك ونشأ بنوه في ظلّ دولتهم إلى أن كان من عقبه أبو بكر والد محمد هذا ، فكان له
صيت وذكر . وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمّة قرابته ،
ووصله بصهر عقده لابنه محمد على إبنته . واستخلفه على تونس عند خروجه عنها .
ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفينة إلى الإسكندرية . وكان أبو ضربة بعد
انهزامه وافتراق جموعه اعتصم بالمهدية ، ونازله بها السلطان أبو بكر فامتنعت عليه
وأقلع عنها على سلم عقده لأبي ضربة وأقام حمزة بن عمر في سبيل خلافه على
السلطان يتقلّب في نواحي أفريقية حتى عظم زبونه على السلطان ونزع إليه الكثير من
الأعراب وكثرت جموعه ، فاستقدم محمد بن أبي عمران من مكان ولايته لشغل
طرابلس .

وزحف إلى تونس معارضاً للسلطان قبل اجتماع عساكره وكمال تعبيته ، فخرج
السلطان أبو بكر عن تونس في رمضان من سنة إحدى وعشرين وسبعائة ولحق
بقسنطينة وصحبه إليها مولاهم ابن عمر وكان الحاجب محمد بن يحيى بن القالون قد
غصّته البطانة والحاشية بالمعاية فيه عند السلطان ، وتبين له انحرافه عنه . وكان معن
ابن مطاع^(١) الفزاري وزير حمزة بن عمرو صاحب شواره صديقاً لابن القالون

(١) وفي نسخة ثانية : معن بن وطاعن .

ومخالصاً ، فداخله في الاجلاب بابن أبي عمران . فلما خرج السلطان أمام زحفهم تخلف ابن القالون بتونس ، وركب من الغد في البلد منادياً بدعوة ابن أبي عمران . ودخل محمد بن أبي عمران ثانية خروج السلطان ، واستولى على الحضرة وأقام بها بقية سنته ، وصدرأ من أخرى ، ولحق السلطان بقسنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه ، وأزاح العلل واستكمل التعبئة وزحف منها في صفر سنة إثنيتين وعشرين وسبعمائة وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع العرب ولقيهم السلطان أولى وثانية بالرجلة وأوقع بهم ، وقتل شيخ الموحدين أبا عبدالله بن أبي بكر . وكان على مقدمتهم محمد بن أبي منصور بن مزني وغيره . اثخن العساكر فيهم قتلاً وأسرأ ، وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له . ثم تقبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مقتل مولاهم بن عمر وأصحابه من الكعوب) *

لما أتيح للسلطان من الظهور على ابن أبي عمران وأتباعه والظفر بهم ما أتيح ، وصنع لهم فيه رغم أنف مولاهم ابن عمر ، وظهرت مع أصحابه كلمات أنبات بفساد دخلتهم . ثم نمي للسلطان أن مولاهم داخل في الفتك به إينه منصور وربييه جعدان^(١) ومعدان ابني عبد الله بن أحمد بن كعب ، وسليمان بن جامع من شيوخ هواره . وشى بذلك عنهم ابن عمهم عون ابن عبدالله بن أحمد بعد أن داخلوه فيها ، فتنصّح بها للسلطان . فلما عدوا على السلطان تقبض عليهم وبعثهم إلى تونس فاعتقلوا بها ، ورجع هو إلى الحضرة فدخلها في جمادي من سنته . وجدّد البيعة على الناس ، وزحفت العرب في اتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشرطوا عليه إطلاق مولاهم وأصحابه ، فأنفذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم ، وبعث بأشلائهم إلى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن ، وصرخ في قومه وتآمرؤ أن يثأروا بصاحبهم^(٢) . وأغذ السير إلى الحضرة وابن أبي عمران معهم على حين افتراق وإزاحة السلطان .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زعدان .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : وتدامروا ان يثيروا بصاحبهم .

وظنوا أنهم ينتهزون الفرصة ، وخرج السلطان عن تونس لأربعين يوماً من دخوله ولحق بقسنطينة ودخل ابن أبي عمران إلى تونس فأقام بها ستة أشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تعبته . ونهض من قسنطينة وزحف إليه ابن أبي عمران وهزمه ابن عمر في جموعه . فأوقع السلطان بهم وأثنى فيهم وشردهم في النواحي وعاد إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين وسبعائة ومضى حمزة لوجهه إلى أن كان من أمره ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن واقعة رغيص مع ابن اللحياني وزناته وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران) *

لما انهزم حمزة بن عمرو بن أبي عمران عن تونس مرة بعد أخرى ورأى حمزةُ ابنَ أبي عمران غير مغن عنه فصرفه إلى مكان عمله بطرابلس ، وبعث إلى أبي ضربة ابن السلطان اللحياني بمكانه من المهدية فدخله في الصريح زناته والوفود على سلطان بني عبد الواد فرحل معه أبو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان ورغبوه في الظفر ببجاية ، وأن يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر إليه ، فسرح معهم السلطان آلافاً من العسكر وعقد عليها لموسى بن علي الكردي صاحب الثغر بتميزدكت ، وكثير الحاشية والرجالات . وارتحلوا من تلمسان يغذون السير ، وبلغ السلطان خبر فصولهم بتلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى إلى رغيص بين بونة وقسنطينة .

ولما أطلت عساكر زناته والعرب اختل مصاف السلطان ، وانهمت المحنّبات وثبت في القلب وصدق الغزيمة واللقاء ، فاقتل مصافهم وانهموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعائة وامتلات أيدي العساكر من أسلابهم والسبايا من نساء زناته ، ومنّ عليهن السلطان وأطلقهن . ورجع أبو ضربة وموسى بن علي الكردي في فلهم إلى تلمسان ، وعاد السلطان إلى حضرته لأيام من هزيمتهم . ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب بنواحي القيروان ، فتخطى الحضرة إليهم ولقيهم بالشقة ، وأوقع بهم ورجع إلى تونس في شوال من سنة أربع وعشرين . فاتبه حمزة ومن معه إلى تونس عندما افرقت العساكر ، ومعه ابراهيم بن الشهيد الحفصي .

وسبق إليه بخبرهم عامر أبو علي^(١) ابن كثير وسحيم بن^(٢) فخرج للقائهم من يومه في خفّ من الجنود بعد أن بعث عن عسكر باجة ، وقائدها عبدالله العاقل مولاه فصبحه العرب بنواحي شاذلة فقاتلوه صدرها وحمى الوطيس ، ووصل عبدالله العاقل والناس متواقفون ، واشتدّت الحرب ثم كانت الهزيمة على العرب ، واستبيحت حرماهم وافترقت جموعهم ، ورجع السلطان إلى البلد واستقرّ بالحضرة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن إجلاب حمزة بابراهيم بن الشهيد وتغلبه على
الحضرة) *

لما انهزم أبو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمر وعساكر بني عبد الواد لحق أبو ضربة بتلمسان فهلك بها ، ولقي حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقي ، ويُسّ الكعوب من غلابه وتذامر والفتنة والإجلاب عليه ، فوفد حمزة بن عمر على ابن تاشفين صريحاً ومعه طالب بن مهلهل ، قرنه في قومه ، ومحمد بن مسكين شيخ بني حكيم من أولاد القوس وكلّهم من سُلَيم ومعهم الحاجب ابن القالون ، فاستحثوا عساكره لصريخهم فكتب لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن علي الكردي وأعادهم معهم . ونصب لهم للملك تونس من أعياص أبي حفص ابراهيم بن الشهيد منهم ، وأبوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطّاب عبد الرحمن الذي نصّب للأمر عند مهلك السلطان أبي عصيدة ، وقتله السلطان أبو البقاء خالد كما ذكرناه . وكان أبوهم هذا قد لحق بالعرب ونصّبوه للأمر وأجلبوا به على تونس أثر واقعة رغيص وبرزت إليهم العساكر فانهزموا كما ذكرناه ، ولحق بتلمسان وجاء هذا الوفد على أثره فنصبه السلطان أبو تاشفين لهم واستعمل على حجابته محمد بن يحيى بن القالون ، وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن علي الكردي وزحفوا إلى أفريقية . وخرج السلطان أبو بكر من تونس لمداغتهم في ذي القعدة من سنة أربع وعشرين وسبعائة وانتهى إلى قسنطينة وعاجلوه قبل استكمال التعية فنزل بساحتها . وأقام موسى بن عليّ على منازلها بعساكر بني عبد الواد . وتقدّم ابراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر إلى تونس

(١) وفي نسخة أخرى : عامر بن بو علي بن كثير .

(٢) بياض بالأصل ، ولم نستطع تحديد هذا الاسم في المراجع التي بين أيدينا .

فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعائة واستمكن منها ، وعقد على باجة
 لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين وثار عليه في بعض ليالي رمضان بعض بطانة
 السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء ، وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان ،
 وهو ابن أخي عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين ، وفيهم القائد بلاط من
 وجوه الترك المرتزقة بالحضرة ، وابن حسّان^(١) نقيب الشرفاء فاعتدوا واجتمعوا من
 جوف الليل وهتفوا بدعوة السلطان وطافوا بالقصبة فامتنعت عليهم ، فعمدوا إلى دار
 كشلي من الترك المرتزقة ، وكان بطانة لابن القالون فقاتلوها وامتنعت عليهم . ثم
 أعجلهم الصباح عن مرامهم وتبعوا بالقتل ، وفرغ من شأنهم ، وكان موسى بن علي
 ومن معه من العساكر لما تخلف عن ابن الشهيد لحصار قسطنطينة أقام عليها أياماً ، ثم
 ألق عنها لخمس عشرة ليلة من منازلته ورجع إلى صاحبه بتلمسان . وخرج السلطان
 من قسطنطينة فاستكمل الحشد والتعبية ، ونهض إلى تونس فأجفل منها ابن الشهيد وابن
 القالون ، ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين وسبعائة واستولى على دار
 ملكه ، وأقام بها إلى أن كان من أمره ما تذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهازم عساكر السلطان عنها) *

كان أبو تاشفين منذ خلاله الجوّ وتمكن في الأمر من القوم^(٢) يلحّ على بجاية بترديد
 البعوث ومطاوله الحصار ، والسلطان أبو بكر يدفع لحمايتها والممانعة دونها من رجالات
 دولته وعظماء وزرائه الاول ، فالأول من أهل الكفاية والاضطلاع بما يدفع إليه من
 ذلك . وسرّب إليهم المدد من الأموال والأسلحة والجنود وتعهّد إليهم بالصبر والثبات
 في المواطن ونظراؤه من وراء ذلك . وكان أبو تاشفين كلما أحس من السلطان أبي بكر
 بنهوضه إلى المدافعة عنها ، أو عزم على غزو كتائبه المحمّرة عليها رماه بشاغل يوهن من
 عزمه ويسكّن^(٣) عنان بطشه . وكان فتنة ابن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما

(١) وفي نسخة أخرى : ابن جسّار .

(٢) وفي نسخة أخرى : وتمكنت في الأمر منه القدم

(٣) وفي نسخة أخرى : يمسك .

كان يجنب العرب عن الطاعة ، ويجمع الأعراب للإجلاب على الحضرة ، وينصّب الأعياص يطعمهم فيما ليس لهم من نيل الخلافة . كان ذلك ديدناً متصلاً أزمان تلك المدة .

ولما سرح أبو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين وسبعائة إلى ابراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر وأولياهم من أهل أفريقية ، وعقد عليها لموسى بن علي من رجالاته ، فنازل قسنطينة ثم أقلع عنها وعاود حصارها سنة ثمان وعشرين وسبعائة . وشن الغارة في نواحيها ، واكتسح الأموال ورجع إلى وادي بجاية فاخبط مدينة بشيكلات على مرحلة منها ، وعلى قارعة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق بما كانت بجاية زائغة عنه إلى البحر ، فاخبطوا تلك المدينة وشيدوها وجمعوا الأيدي عليها ، وقسموها مسافات على جيوشهم فاستتمت لأربعين يوماً سمّوها تيمرزدكت باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة ، حيث امتنع يغمراسن على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في أخباره . وشحنوا هذه المدينة بالأقوات والعُدَدَ وعمرّوها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل ، وأخذت بمخنق البلد .

وقلق السلطان بمكانها فأوعز إلى قواد عساكره وأصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه أن يفرّوا بعساكرهم إلى صاحب الثغر محمد بن سيّد الناس ويزحفوا معه إلى هذا البلد المخروب ، ويستमितوا دون تخريبه ، فنهض ظافر الكبير من قسنطينة وعبدالله العاقل من هوّارة وظافر السنان من بونة ، وتوافر ببجاية سنة سبع وعشرين وسبعائة . وبلغ موسى بن علي خبرهم فاستنفر من عساكر بني عبد الواد ، وخرجت العساكر جميعاً من بجاية تحت لواء ابن سيّد الناس . وزحف إلى العدوّ بمحلّهم من تيكلات فكانت الدبرة عليه وعلى أصحابه ، وقتل ظافر الكبير ورجع فلّهم إلى بجاية . وداخلت ابن سيّد الناس فيهم الظنّة كما تداخل موسى بن علي ابن زبون كل واحد منها بصاحبه على سلطانه^(١) . فنتعهم من دخول البلد ليلتذّر وأسحروا قافلين إلى أعمالهم ، وعقد السلطان على قسنطينة لأبي القاسم بن عبد العزيز أيّاماً . ثمّ استقدمه إلى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلاً من الادوات التي تحتاج إليها الحجابة . وعقد على حجابة الأمير أبي عبدالله بقسنطينة لمولاه ظافر السنان إلى أن كان من تحويل شأنه ما ذكره اهـ .

(٧) وفي نسخة أخرى : بما كان يداخل موسى بن عيسى في الزبون كل واحد منها لصاحبه على سلطانه .

* (الخبر عن مهلك المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون) *

هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار ، لا أدري من أوليته أكثر من أنه كردي من الأكراد الذين وفد رؤسائهم على ملوك المغرب أيام أجلاهم التتر عن أوطانهم شهرزور عند تغلبهم على بغداد سنة ست وخمسين وستائة ، فمنهم من أقام بتونس ، ومنهم من تقدّم إلى المغرب فترلوا على المرتضى بمراكش فأحسن جوارهم . وصار قوم منهم إلى بني مرين وآخرون إلى بني عبد الواد حسبما يذكر في أخبارهم .

ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا إلى أن نشأ هو في دولة الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغور الغربية ، وتحت كنف من اصطناعه . واختلط بأبنائه وقدم في جملة إبنه السلطان أبي بكر إلى تونس مقدّماً في بطانته ورئيساً على الحاشية المتسمين بالدخلة ، وكان يعرف لذلك بالمزوار . وكان شهماً وقوراً متديناً وله في الدولة حظ من الظهور ، وهو الذي تولى كبر السعاية في الحاجب بن القالون حتى إرتاب بمكانه . ووفد إلى أبي عمران سنة إحدى وعشرين وسبعائة كما قدّمناه . وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعيناً بالكاتب أبي القاسم بن عبد العزيز لخلوة هو من الأدوات . وإنما كان شجاعاً ذاهمة . ولم يزل على ذلك إلى أن هلك في شعبان سنة سبع وعشرين وسبعائة وأراد السلطان على الحجابة محمد بن خلدون جدنا الأقرب فأبى ، ورغب في الإقالة فأجيب جنوحاً لما كان بسيله منذ سنين من الصاغية في السكون والفرار من الرتب . وأشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيّد الناس لتقدمة سلفه مع سلف السلطان ، وكثرة تابعه وخاشيته وقوة شكيمة في الاضطلاع بما يدفع إليه . أخبرني بهذا الخبر أبي رحمه الله وصاحبنا محمد بن منصور بن مزني ، قال لي : حضرت لاستدعاء جدكم إلى معسكر السلطان بياجة يوم مهلك المزوار ، وأدخله السلطان إلى رواقه ، وغاب ملياً ثم خرج وقد استفاض بين البطانة والحاشية أنه دعي إلى الخطة فاستنكرها ، وأقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم ، واستقدم خالسته محمد ابن حاجب أبيه أبي الحسين ابن سيّد الناس ، فقدم في محرّم فاتح ثمان

وعشرين وسبعائة وولاه حجابته فاضطلع بها ، وجدّد له العقد على بحاية وحجابه ابنه بها ، فدفع إليها للنياحة عنه في الحجابة صنيعة محمد بن فرحون ، ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريد . وجرى الحال على ذلك ببجاية وعساكر زناتة نجوس خلالها ومعاقلهم . تأخذ بمخنفها . وقدم ابن القالون دوين مقدّم ابن سيّد الناس بشفاعة من نزله علي بن أحمد سيد الزواودة ، وطمع في عوده إلى الخطة .

وكان من خبره أنه لما تخلف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عمران رأى ركوب السفن إلى الأندلس ، فأعجلهم السلطان عن ذلك وخرج ابن أبي عمران فأجلب معه على الحضرة ماراً ، ولحق بتلمسان . ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الأفاعيل ، ثم انحلّ أمر ابن الشهيد ، ولحق هو بالزواودة من رياح . ونزل على عليّ ابن أحمد رئيسهم لذلك العهد فأجاره وأنزله بطولقة من بلاد الزاب ، وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الأمان حتى أسعف ووفد على الحضرة مع أخيه موسى بن أحمد ، وفي نفس ابن القالون طمع في الخطة . وسبقه ابن سيّد الناس إلى السلطان فأشغل بها . وجاء ابن القالون من بعده فأوصله السلطان إلى نفسه ، واعتذر إليه ووعدته وعقد له على قفصة فسار إليها وصحب موالي السلطان من المعلوجين بشهير وفارح^(١) وأوعز ابن سيّد الناس إلى مشيخة قفصة يتقبضون على حاميته ليتمكن الموالي منه . فلما نزل بساحة البلد دخل كشلي من جند الترك المرتقة كان في جملته منذ أيام حجابته وكان يستظهر بمكانه . فلما دخل إلى البلد قتل في سككها فكانت لقتله هيلة تسمع الناس بعظمها^(٢) من خارج البلد ، وبرز ابن القالون من فسطاطه وقد كرّ^(٣) فتقدّم إليه الموالي الذين جاؤا معه وتناولوه طعنًا بالخناجر إلى أن هلك . والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن ولاية الفضل على بونة) *

كان السلطان عقد على بونة منذ أول دولته لمولاه مسرور المعلوجي فقام بأمرها فاضطلع

(١) وفي نسخة أخرى : المعلوجي بشير وفارح .

(٢) وفي نسخة أخرى : لغطها .

(٣) وفي نسخة أخرى : وقد جث للرب .

بولايتها ، وكان من الغلظة ومراس الحروب بمكان . وكان مع ذلك غشوماً جباراً
وخرج إلى ولهاصة سنة^(١) فاضطّروهم ونهضوا إلى مدافعته عن أموالهم
فحاربهم . وبلغ خبر مهلكه إلى السلطان فعقد على بونة لابنه أبي العباس الفضل ،
وبعثه إليها . وولّى على حجابته وقيادة عسكره ظافر السنان من مواله المملوجين^(٢)
فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام إلى أن كان من أمرهم ما نذكره .

* (الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مقتل الأمير أبي
فارس أخي السلطان) *

كان السلطان أبو بكر لما قدم إلى تونس قدم معه إخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز وعبد
الرحمن ، وهلك عبد الرحمن منهم وبقي الآخرون . وكانا في ظلّ ظليل من النعمة ،
وحظ كبير من المساهمة في الجاه . وكان في نفس الأمير أبي فارس تشوّق إلى نيل
الرتبة وتربّص بالدولة . وكان عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول
بني مرين وأعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعاً إليها من الأندلس ، فنزل على ابن
عمر ببيجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشر وسبعمائة ثم لحق بالسلطان فلقاه مبرّة ورحباً ،
ووفّر حظّه وحظ حاشيته من الجرايات والاقطاع ، وجعل له أن يتركب ويستلحق ،
وكان يستظهر به في مواقف حروبه ، ويتجمل في المشاهد بحركاته^(٣) بما كان سيّداً في
قومه . وكان قد انعقدت له بيعة على أهل وطنه ، وكانت فيه غلظة وأنفة وإباء . وغدا
في بعض أيامه على الحاجب بن سيّد الناس فتلّقاه الإذن بالعدو^(٤) ، فذهب
مغاضباً ، ومّرّ بدار الأمير أبي فارس فحمله على ذات صدره من الخروج والثورة ،
وخرجا من يومها في ربيع سنة سبع وعشرين وسبعمائة ومراً ببعض أحياء العرب
فاعترضها أمير الحيّ فعرض عليهما التزول ، فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه إلى
أن لحق بتلمسان ، وأما الأمير أبو فارس فأجاب ونزل ، وطيّروا بالخبر إلى السلطان

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى المملوجي .

(٣) وفي نسخة أخرى : بمكانه من سريره .

(٤) وفي نسخة أخرى : الإذن بالعدو .

فسرّح لوقته محمد بن الحكيم من صنائعه وقوّاد دولته في طائفة من العسكر والنصارى ، فصبحوه في الحى وأحاطوا ببيت نزله فامتنع من الإلقاء باليد ، ودافع عن نفسه مستميتاً فقتلوه قهصاً^(١) بالرماح ، وجاؤا بشلوه إلى الحضرة فدفن بها .

ونزل عبد الحق بن عثمان على أبي تاشفين حين نزل ، ورغبه فيما كان بسيله من مطالبة الدولة الحفصية وتدويخ ممالكها ، ووفد على أثر ، حمزة بن عمر ورجالات سُلَيْم صريحاً على عاداتهم . فأجاب أبو تاشفين صريحهم ونصب لهم محمد بن أبي عمران وكان من خبره أنه تركه السلطان اللحياني عاملاً على طرابلس . فلما انهزم أبو ضربة وانحل أمره استقدمه العرب وأجلبوا به على الحضرة سنة إحدى وعشرين وسبعائة فملكها ستة أشهر . ثم أجفل عنها عند رجوع السلطان إليها ، ولحق بطرابلس إلى أن انتقض عليه أهلها سنة أربع وعشرين وسبعائة وثاروا به وأخرجوه فلحق بالعرب وأجلبوا به على السلطان مراراً ينهزمون عنه في كلها .

ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي تاشفين في خير جوار وكرامة وجراية إلى أن وصل هذا الوفد إليه سنة تسع وعشرين وسبعائة فنصبه للأمر بأفريقية . وأمدّهم بالعساكر من زناته . عقد عليهم ليحيى بن موسى من بطانته وصنائع أبيه . ورجع معهم عبد الحق بن عثمان بمن في جملته من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته . وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريمة ، فنهضوا جميعاً إلى تونس فرحف السلطان للقائهم وتراءى الجمعان بالرياس من نواحي هوّارة آخر سنة تسع وعشرين^(٢) وسبعائة ، فدارت الحرب واختل مصاف السلطان ، وفلّت جموعه . وأحيط به فأفلت بعد عصب الريق ، وأصابته في حومة الحرب جراحة وهن لها ، وقتل كثير من بطانته وحاشيته ، كان من أشهرهم محمد المديوني . وانتهب المعسكر وتقبّض على أحمد وعمر ابني السلطان فاحتملا إلى تونس^(٣) حتى أطلقهما أبو تاشفين بعد ذلك في مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتّحد فيها أبو تاشفين ، وجنح إلى السلم وأطلق الإبنين ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك . وتقدّم ابن أبي عمران بعد الواقعة إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين وسبعائة واستبدّ عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد ، وحجب التصرف

(١) قوصاً : أي قتله في مكانه ، أجهز عليه .

(٢) وفي نسخة أخرى : سبع وعشرين .

(٣) وفي نسخة أخرى : تلمسان .

في شيء من أمره ، ثم عاد يحيى بن موسى إلى سلطانه . ونهض السلطان أبو بكر من قسنطينة إلى تونس بعد أن استكمل الحشد والتعبية ، فأجفل ابن أبي عمران عنها ، ودخل إليها السلطان في رجب من سنة إلى أن كان ما نذكره .

* (الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة على بني عبد الواد وما يتبع ذلك من المصاهرة) *

كان السلطان أبو بكر لما خلاص من واقعة الرياس نجا إلى بونة ، وركب منها البحر إلى بجاية ، وقد ضاق ذرعه بالحاح بني عبد الواد على ممالكه وتجهيز الكتائب على ثغره وترديد البعوث إلى وطنه ، فأعمل نظره في الوفاة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد ليدكره ما بين سلفه وسلفهم من السابقة ، وما لهم عند بني عبد الواد من الأوتار والإحاف ، ليعث بذلك دواعيهم على مطالبة بني عبد الواد : فيأخذ بحجزتهم عنه . ثم عيّن للوفادة عليه ابنه الأمير أبا زكريا ، وبعث معه أبا محمد عبدالله بن تافراكين من مشيخة الموحدّين لساناً لخطابه ونجياً لشوراه . وركبوا البحر من بجاية فترلوا بمرسى غساسة ، واهتر صاحب المغرب لقدمه وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والاجارة ، وأجاب دعاءهم إلى محاربة عدوّهم وعدوّه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما تلمسان لموعده ضربوه لذلك . وكان السلطان أبو سعيد بعث سنة إحدى وعشرين وسبعائة يحيى الرنداحي^(١) قائد الأسطول بسبته إلى مولانا السلطان أبي بكر في الإصهار على إحدى كرامه ، وشغل عن ذلك بما وقع من شأن ابن أبي عمران . فلما وفد عليه ابن السلطان وأولياؤه أعاد الحديث في ذلك ، وعين للنيابة عنه في الخطبة من السلطان ابراهيم بن أبي حاتم العزفي وصرفه مع الوفد ، فوافوا السلطان بتونس آخر سنة ثلاثين وسبعائة وقد طرد عدوّه وشفى نفسه ، فجاءه بأمنيته من حركة صاحب المغرب على تلمسان . وخطب منه ابراهيم للأمير أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد ، فعقد على ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكريا السفير إليهم وزفّها إليه في أساطيله سنة إحدى وثلاثين وسبعائة وأنفذ

(١) هكذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : للرنداحي .

رفافها من مشيخة الموحدين أبا القاسم بن عتو ومحمد بن سليمان الناسك ، وقد مر ذكره ، فنزلت على وثير من الغبطة والعز ، وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولائمها وجهازها كله من الفاخر للدولتين ، ولم يزل مذكوراً على الأيام .

* (الخبر عن حركة السلطان الى المغرب وفرار بني عبد الواد وتخريب تيمرزدكت) *

مات السلطان أبو سعيد على تفيئة ما قدّمناه من الأخبار آخر سنة إحدى وثلاثين وسبعائة وولي السلطان أبو الحسن من بعده فبعث إلى أبي تاشفين يخاطبه في الغض عن عنان عيئه ببلاد الموحدين وطغيانه عليها ، فليج واستكبر وأساء الرد ، فنهض إليه على سبيل الصريح لهم سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة وطوى البلاد طياً إلى تلمسان ، وأفرجت عساكرهم عن بجاية إلى سلطانهم . وتقدّم السلطان أبو الحسن عن تلمسان لمشاركة أحوال بجاية والأخذ بحجزة العدو لمحاصرتها وبعث عسكرياً من قومه مدداً لهم عقد عليهم محمد البطوي ، وأركبهم أساطيله من سواحل وهران فدخلوا إليها وقبولوا بما يناسبهم من الكرامة والجراية . واستنهض السلطان أبو الحسن أبا بكر لحصر تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين ابنه الأمير أبي زكريا ، فشرع السلطان في جهاز حركته وإزاحة عله . وأقام السلطان أبو الحسن في تاسالة في انتظاره شهراً حتى انصرف فصل الشتاء . وبلغه بمعسكره من تاسالة أن أخاه السلطان أبا علي صاحب سبيلماسة انتقض عليه وخرج إلى درعة ، فقتل عامله عليها بعد أن كان داخله وعقد له على المهادنة والتجافي عنه بمكانه من سبيلماسة . فلما بلغه هذا الخبر كرّر راجعاً إلى المغرب لإصلاح شأنه . وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فأنتهى إلى بجاية وبعث مقدماته إلى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتائبها . ثم زحف يجملته إلى تيمرزدكت ، وفرت عنها الكتائب المجهزة^(١) بها ، فأناخ عليها حتى خربها وانتهب أموالها وأسلحتها ، ونسف آثارها وقفل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي ، وموطن أولاد سباع بن يحيى من الزواودة ، كانت

(١) وفي نسخة أخرى : المجرّة .

مشيختهم سليمان ويحيى إبننا علي بن سباع وعثمان بن سباع عمهم وابنه سعيد ، قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم ، ونهجوا لعساكره السبيل إلى وطء بلاد الموحدين والعيث فيها ومحاذبة حبلها .

وأقطعهم أبو تاشفين بلاد المسيلة وجبال مشنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من أعمالها ، فلما شرد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغرهم عليها واسترجع أعمال بجاية إليها سار بجموعه إلى هذا الوطن ليسترجع أعماله ويحدد به دعوته . وزاد في إغرائه بذلك علي بن أحمد كبير أولاد محمد لقتال أولاد سباع هؤلاء ونظرائهم وأهل أوتارهم ودخولهم ، فارتحل غازياً إلى المسيلة حتى نزلها ، واصطلم نعمها وخرب أسوارها ، وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني واجلابه على تونس ، وكان من خبره أنه قدم من المشرق بعد مهلك أبيه السلطان أبي يحيى زكريا سنة تسع وعشرين وسبعماية فترل على دباب وبائع له عبد الملك بن مكّي رئيس المشيخة بقابس ، وتسامع به الناس وأفريقية شاعرة من الحامية والعساكر لهوضهم مع السلطان ، فاغتم حمزة بن عمر الفرصة ، واستقدمه فبايع له ورحل به إلى الحضرة ، فترل بساحتها ، ودخل عبد الواحد بن اللحياني بصحابة ابن مكّي إلى البلد فأقاموا بها ريثما بلغ الخبر إلى السلطان ، فقفل من الحضرة وبعث في مقدمته محمد بن البطوي من بطانته في عسكر إختارهم لذلك ، فأجفل ابن اللحياني وجموعه عن تونس لخمس عشرة ليلة من نزولهم ، ودخل البطوي إليها وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة إثنين وثلاثين وسبعماية .

* (الخبر عن نكبة الحاجب ابن سيد الناس

وولاية ابن عبد العزيز وابن عبد الحكم من بعده) *

قد قدّمنا أولية هذا الرجل وأنّ أباه الحسن كان حاجباً للأمير أبي زكريا ببجاية . ولما هلك سنة تسعين وستائة خلف إبنه محمداً هذا في كفالة السلطان ومرعى نعمته ، فاشتمل كرسيمهم^(١) عليه وآواه إلى حجره وأرضهم مع الكثير من بنيه ، ونشأ في

(١) وفي نسخة أخرى : قصرهم .

كفنه . وكان الحجاب للدولة من بعد أبيه مثل ابن أبي حيّ والرخامي صنائع لأبيه فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه على أنفسهم في التجلّة . ولم يدراً في سنّ الرجولية والسعي في المجد إلا أيام ابن عمر آخرهم ، فكان له منه مكان حتى اذا ارتحل السلطان أبو يحيى إلى قسنطينة لطلب تونس ، وجّه له ابن عمر الآلات والعساكر ، وأقام له الحجاب والوزراء والقوّاد ، كان فيمن سرّح معه محمد بن سيد الناس قائداً على عسكر من عساكره . وكان سفيراً للسلطان فكانت له عنده أثره واختصاص ، وعقد له من بعد مهلك ابن عمر على بجاية لما عزل عنها ابن القالون كما قدّمناه ، فاستبدّ بها على السلطان وحماها دون عساكر زناته ، ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كلّ مقامات مذكورة . وكانت بينه وبين قائد زناته موسى بن علي بن زبون مداخلة^(١) كل واحد منهما في مكان صاحبه على سلطانه ، وفطن لأمرهما . فأما أبو تاشفين فنكب موسى بن علي كما نذكره في أخباره ، وأما السلطان أبو بكر فأغضى لابن سيّد الناس عنها . ثم استدعاه وقلّده حجابته سنة سبع وعشرين وسبعمائة كما قدّمناه ، واستخلف على مكانه ببجاية صنيعة محمد بن فرحون وأحمد بن مزيد للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الأمير أبي زكريا ابن السلطان . وقدم هو على السلطان وأسكنه بقصور ملكه ، وفوّض إليه أمور سلطانه ، تفويض الاستقلال ، فجرى في طلق الاستبداد عليه وأرخص له السلطان حبل الإمهال واعتدّ عليه فلتات الدالة على ما كانت الظنون ترجح فيه بالمداهنة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم . وأمهله السلطان لمكانه من حماية ثغر بجاية والاشتغال^(٢) به دونه ، حتى اذا تجلّت غمامتهم ، وأطلّ أبو الحسن عليهم من مرقبه ونهض السلطان أبو بكر إلى بجاية وخرّب تيمرزدكت ، فأغراه البطانة حيثنذ بالحاجب محمد بن سيّد الناس ، وتنبه له السلطان فأحفظ له استبداده وتقبّض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقله . ثم امتحنه بأنواع العذاب لإستخراج المال منه فلم ينبس بقطرة ، وما زال يستغيث ويتوسّل بسوابقه من الرضاع والمربى ، وسوابق أبيه عند سلفه حتى لدغه العذاب فأفحش ، ونال من السلطان وأقذع فقتل

(١) وفي نسخة أخرى : وكانت بينه وبين قائد زناته موسى بن علي مداخلة في زبون .

(٢) وفي نسخة أخرى : من حماية الثغر ببجاية والاستقلال به دونه

شدخاً بالعصي وجرّشلوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كأن لم يكن ، وإلى الله عاقبة الأمور .

ولما تقبّض السلطان على ابن سيّد الناس ومحا أثر استبداده قلّد حجابته الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز ، وقد كان قدم من الحج عند مبايعة ابن مكّي لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه إلى تيمرزدكت ، فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته ، وتقبّض على ابن سيّد الناس فولّاه الحجابة ، وكان مضطّعباً لا يقوم بالحرب ، فعقد السلطان على الحرب والتدبير لصنيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وقوّض له فيما وراء الحضرة ، وهو محمد بن علي بن محمد بن > ابن ابراهيم بن أحمد اللخمي ، ونسبه في بني العزفي الرؤساء بسبته . وجدّه أحمد هو أبو العباس المذكور بالعلم والدين والرأي ابن القاسم^(١) المستقل برياسة سبته من بعد الموحدّين ، وكان من خبر أوليته فيما حدّثني به محمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي آخر رؤساء العزفيين بسبته ، والمنقضي أمرهم بها بانقضاء رياسته ، وحدّثني أيضاً بها حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبي طالب ، وحدّثني بها أيضاً الثقة عن ابراهيم ابن عمها أبي حاتم قالوا جميعاً : إنّ أبا القاسم العزفي كان له أخ يسمّى ابراهيم ، وكان مسرفاً على نفسه وأصاب دماً في سبته ، وحلف أخوه أبو القاسم ليقْتادَنَّ منه ، فقرّ ولحق بديار المشرق . هذا آخر خبرهم . وأنّ محمداً هذا من بنيه . وبقيّة الخبر عن أهل هذا البيت من سراتهم أنّ ابراهيم أنجب محمداً ، وأنجب محمد حمزة ، ثم أنجب حمزة علياً فكلف بالقراءة واستظهر علم الطبّ في إيالة السلطان أبي بكر^(٢) بالشغور الغربية وأصاب السلطان وجع في بعض أزمانه وأعياء دواؤه فجمع له الأطباء وكان فيهم عليّ هذا فحدس على المرض وأحسن المداواة ، فوقع من السلطان أحسن المواقع واستخلصه لنفسه وخلطه بخاصته وأهل خلوته ، وصار له من الدولة مكان لا يجاريه أحد فيه . وكان يدعى في الدولة بالحكيم وبه عرف إبنه من بعده ، وأصهر إلى أحد بيوت قسنطينة فزوّجوه وخلط أهله بحرم السلطان . وولد له محمد إبنه بقصره ، ورضع مع الأمير أبي بكر ابنه ، ونشأ في حجر الدولة وكفّالتها على أحسن الوجوه من

(١) وفي نسخة أخرى : والد أبي القاسم .

(٢) وفي نسخة أخرى : أبي زكرياء .

تربيتها . ولما بلغ الحدّ وصرف إليه رئيس الدولة يعقوب بن عسر وجه إقباله واختصاصه . فكان له منه مكان أكسبه ترشيحاً للرياسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه .

ولما نهض السلطان إلى أفريقية قلّده قيادة بعض العساكر . ثم عقد له بعد مهلك ابن عمر على عمل باجة حين رقى ابن سيّد الناس عنها إلى بجاية . وكان عمل باجة من أعظم الولايات في الدولة فأضطلع به . ثم لما أمر السلطان بطانته في نكبة ابن سيّد الناس دفعه لذلك . فولي القبض عليه كمن له في عصابة من البطانة في بعض الحجر من رياض رأس الطابية . واستدعى ابن سيّد الناس إلى السلطان ومّر بمكانهم . فلما انتهى إليهم توثّبوا به وشدّوه كتافاً وتلّوه إلى محبسه بالبرج المعدّ لعقاب أمثاله بالقصبة . وتولّى ابن الحكيم من امتحانه وعذابه ما ذكرناه إلى أن هلك . وعقد له السلطان مكانه على الحرب والتدبير من خططه . وفوّض إليه فيما وراء الحضرة كما قلناه . وجعل تنفيذ الأموال والكتب على الأوامر لابن عبد العزيز . فكان عدله في حمل الدولة . إلا أنّ ابن عبد الحكيم كان أشفّ فيه لما كان إليه من التدبير في الحرب والرياسة على الكتابة ، لرياسة السيف على القلم فاضطلع برياسته وأحسن الغناء والولاية إلى أن كان من خبره وخبر الدولة ما نذكر .

* (الخبر عن فتح قفصة وولاية الأمير أبي العباس عليها) *

كان أهل الجريد منذ تقلّص عنهم ظل الدولة عند إنقسام الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما إليها ، وصار أمرهم إلى الشورى من المشيخة إلا في الأحيان يؤمّلون الاستبداد كما كانوا عليه من قبل الموحدين ، فقدم عبد المؤمن إلى أفريقية وبنو الرند على قفصة وقسنطينة^(١) ، وابن واطاس على توزر ، وابن مطروح على طرابلس فأملّوا فتكها^(٢) ، وشغل مولانا السلطان أبو بكر عنهم بعد استقلاله بالأمر وانفراده بالدعوة الحفصية شأن الفتنة مع آل يغمراسن بن زيّان واجلاب عساكرهم مع حمزة

(١) وفي نسخة أخرى : قسطنطينية .

(٢) وفي نسخة أخرى : مثلها .

ابن عمر على أوطانه . حتى اذا أخذ السلطان أبو الحسن بحجزتهم وأطل عليهم من مراقبه فعادوا إلى أوكارهم بعد أن استبدّوا^(١) ، وتنفس مخنق الثغور الغربية من حصارهم ، وزال عن كاهل الدولة إصر معاناتهم وسكن اضطراب الخوارج على الدولة خفت أصوات المرجفين في ممالكها ، وصرف السلطان نظره في أعطاف ملكه ومحو الشقاق من سائر أعماله ، وسمت همته إلى تدويخ القاصية من بلاد الجريد واستنقاذ أهلها من أيدي الذئاب الغاوية والكلاب العاوية زعماء أمصارها وأعراب فلاتها ، فنهض إلى قفصة سنة خمس وثلاثين وسبعائة وقد كان استبدّ بشورها يحيى ابن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها ، فنازلها أياماً والعساكر تلجّ عليها بأنواع القتال ، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا . ثم جمع الأيدي حتى قطع تحيلهم وامتناع صرائحهم^(٢) فنادوا بالأمان فأمنهم . وخرج إليه ابن عبد الجليل رئيسهم الآخر من سنته ، فأشخصه إلى الحضرة وأنزله بها ورجالات من قومه بني العابد . وفرّ سائرهم إلى قابس فترل في جوار ابن مكّي ودخل أهل البلد في حكمه ، وتفيؤا بعد أن كانوا ضاحين من الملك كله فأحسن التجاوز عنهم ، وبسط المعدلة فيهم . وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم بالإسهام والأقطاع وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية . ثم آثرهم بسكنى بلده المخصوص بعديد لعهد الأمير أبي العباس ، وأنزله بين ظهرانيهم وأوصاه بهم ، وعقد له على قسنطينة وما إليها . وجعل معه على حجابته أبا القاسم ابن عتوم مشيخة الموحدين ، وقفل إلى حضرته فدخلها في رمضان من سنته ، والله أعلم .

* (الخبر عن ولاية الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء
خالد سوسة ثم اضافة المهدية اليهما) *

لما نكب السلطان حاجبه ابن سيّد الناس ، ووّلّى محمد بن فرحون على حجابة ابنه الأمير أبي زكريا ، وقرب^(٣) ذلك ما نزل بآل يغمراسن من عدوّهم وتفرغ السلطان

(١) وفي نسخة أخرى : بعد أن اسفوا .

(٢) هكذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : حتى قطع نخيلهم وإقلاع شجرائهم .

(٣) وفي نسخة أخرى : وقارن .

للنظر في ملكه وتمهيد أحواله ، وأن يرسي قواعد أعماله بنجباء أبنائه . فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الأميرين عزوز وخالد شريكين في الأمر ، وأنزلها بسوسة ، وأنزل معها محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الأندلس القادمين في الحالية ، ورياسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف . وكان أخوه أبو القاسم صاحب الأشغال بالحضرة فأقاما كذلك . ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية معه باستبداد ابنه وأن يولي من شاء على حجابته وأنزل ابن فرحون مع هذين الأميرين لصغرهما ستة خمس وثلاثين وسبعائة . ثم استدعاه الأمير أبو زكريا فرجع إليه وأقام هذان الأميران بسوسة حتى اذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الزكراك^(١) من المهديّة كان أنزل به ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من أهل رجيس ، ويعرف بابن عبد الغفار سنة^(٢) واتخذها حسناً لنفسه ، وأنزل بها قريبه هذا وشحنها بالعدد والأقوات فلم يغن عنه . ولما هلك استنزل ابن الزكراك وبعث السلطان عليها ابنه الأمير أبا البقاء ، وأفرد الأمير أبا فارس بولاية سوسة فأقاما كذلك إلى أن كان من خبر مهلكهما ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ولاية الأمير أبي عبدالله صاحب

قسنطينة من الابناء وولاية بنيّه من بعده) *

كان الأمير أبو عبدالله مخصوصاً من أبيه من بين ولده بالأثرة والعناية قد صرف إليه إقباله وأوقع^(٣) عليه محبته لما كان يتوسم في شواهد من الترشيح ، وما تحلى به من خلال الملك . وكان الناس يعرفون له حق ذلك . وذلك أنّ ابن عمر كان مستبدّاً بالثغور الغربية ببجاية وقسنطينة ومدافعاً عنها العدو من زناتة المطالبين لها . فلما هلك ابن عمر سنة تسع عشرة وسبعائة كما قدّمناه صرف السلطان نظره إلى ثغوره ، فعقد

(١) وفي نسخة أخرى : محمد بن الزكراك .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) وفي نسخة أخرى : وألقى .

على بحاية لابنه الأمير أبي زكريا وعقد على حجابته لابن القالون وسرّحه معه لمداغة العدو ، وعقد على قسنطينة للأمير أبي عبدالله ومعه أحمد بن ياسين . وخرجوا جميعاً من تونس سنة عشرين وسبعائة ونزل كل بعمله . وقدم ظافر الكبير من الغرب فولاه السلطان حجابة ابنه بقسنطينة وأنزله بها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وسبعائة على تيمرزدكت كما ذكرناه ، فجاء لحجابته من تونس أبو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فأقام أربعين يوماً . ثم رجع إلى الحضرة وأضاف السلطان حجابة قسنطينة لابن سيّد الناس إلى حجابة بحاية ، وبعث إليها نائباً عنه مولاه هلالاً النازع إليه عن موسى بن علي قائد بني عبد الواد فقام بخدمة الأمير أبي عبدالله إلى أن كانت نكبة ابن سيّد الناس عندما بلغ الأمير أبا عبدالله أثره ^(١) وجرى في طلق استبداده فقوّض له في عمله السلطان وأطلق من عنانه ، وكان يؤامره في شأنه ويناجيه في خلوته . وأنزل معه بقسنطينة نبيلاً من المعلوجين يقيم له رسم الحجابة . ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة أربع وثلاثين وسبعائة لقيادة الأعتة والحرب ، فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها . ثم رجع وقام نبيل لحجابته كما كان ودفع يعيش بن ^(٢) من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الأوطان فقاسمه لذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة واستمرت حال الأمير أبي عبدالله على ذلك والأيام تزیده ظهوراً ومساغیه الملوکیة تكسبه جلالاً وترشیحاً إلى أن أسقط ^(٣) دون غايته واغتاله الأجل عن مداه ، فهلك رضوان الله عليه آخر سبع وثلاثين وسبعائة وقام بأمره من بعده كبير بنیه الأمير أبو زید عبد الرحمن ، ففقد له السلطان أبو بكر على عمل أبيه لنظر نبیل مولا هم لمكان صغره ، واستمرت حالهم على ذلك إلى آخر الدولة ، وكان من أمره ما نذكر بعد والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : عندما بلغ الأمير أبو عبدالله أشده .

(٢) بياض بالأصل ولم نعتز على هذا الإسم في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) وفي نسخة أخرى : اغتبط .

* (الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم إجلاب بنيه على
الحضرة

وانهزمهم ومقتل معروز بن همر وما قارن ذلك من
الأحداث) *

لما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان وأعمالها ، وقطع دابر آل زيّان واجتث أصلهم
وجمع كلمة زنّانة على طاعته ، واستتبّعهم عصابة تحت لوائه ، ودانت القبائل
بالانقياد له ورجفت القلوب لرعبه ، ووفد عليه حمزة بن عمر يرغبه في ممالك
أفريقية ويستحثه لها ديدنه مع أبي تاشفين من قبله ، فكفّ بالبأس من غلوائه ،
وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه . ونهج له بالشفاعة سبيلاً إلى معاودة طاعته
والعمل بمرضاته ، فرجع حمزة إلى السلطان عائداً بحلمه متوسلاً بشفاعة صاحبه
راغباً بإذعانه ، وقلعه مواد^(١) الخلاف من العرب باستقامته فتلّقاه السلطان بالقبول
وأسعف الرغبة والجزاء على المناصحة والمخالصة . ولم يزل حمزة بن عمر من لدن
رضى مولانا السلطان عنه وإقباله عليه صحيح الطاعة خالص الطوية منادياً بمظاهرة
محمد بن الحكيم قائد عسكره^(٢) ، وشهاب دولته على تدويغ أفريقية وتدويغ أعمالها
وحسم أدواء الفساد منها .

وأخذ الصدقة من جميع ظواعن البدو الناجعة في أقطارها ، وجمع الطوائف
المتعاصين بالثغور على إلقاء اليد للطاعة والكفّ عن أموال الجباية فكانت لهذا القائد
آثار لذلك مهّدت من الدولة وأرغمت أنوف المتعاصين بالاستبداد^(٣) في القاصية
حتى استقام الأمر وانمحت آثار الشقاق فاستولى على المهديّة سنة سبع وثلاثين وسبعائة
وغلب عليها ابن عبد الغفار المتري عليها من أهل رحيش^(٤) واستولى على تبسة
وتقبّض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها وأودعه سجن المهديّة إلى أن أطلق

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زعيماً بإذعانه وقطع مواد .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : قائد حربه .

(٣) وفي نسخة أخرى : المتعاطين للاستبداد .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى رجيس .

بعد نكبته ، ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن بهلول على طاعته للعصية ، واسترهن ولده ، ونازل بسكرة غير مرة يدافعه يوسف بن منصور من بني مزني بدمّة يدّعيها من السلطان أبي بكر وسلفه . ويعطيه الجباية بدفع ما كان من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحسن فتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه ، وزحف إلى بلاد ريغة^(١) فافتتح قاعدتها تُغرت واستولى على أموالها وذخيرتها وسار إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله . وعصفت ربح الدولة بأهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض . وفي أثناء ذلك هلك حمزة بن عمر سنة إثنين وأربعين وسبعائة على يد ابن عون بن أبي علي من بني كثير^(٢) أحد بطون بني كعب بطعنة طعنه غيلة فأشواه^(٣) وقام بأمره من بعده بنوه ، وكبيرهم يومئذ عمر ، وداخلتهم الظنة بأن قتله باملاء الدولة فاعصوبوا وتآمروا واستجاشوا بأقاتلهم أولاد مهلهل فجيشوا معهم وزحف إليهم ابن الحكيم في عساكر السلطان من زناتة والجند فقلوه واستلحموا كثيراً من وجوههم . ورجع إلى الحضرة فتحصّن بها واتبعوه فترل بساحتها ثلاثين وسبعائة وقاتلوا العساكر سبع ليال . ثم اختلفوا ونزل طالب بن مهلهل إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان في جمادي من سته في عساكره وأحزابه من عرب هوّارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سته . وذهبوا مفلولين إلى القفر ومروا في طريقهم بالأمر أبي العباس بقفصة فرغبوه بالخلاف على أبيه ، وأن يجلبوا به على الحضرة فأملى لهم في ذلك حتى ظفر بالمعز بن مطاع وزير حمزة وكان رأس النفاق والغواية فتقبّض عليه وقتله ، وبعث برأسه إلى الحضرة ونصب بها . ووقع ذلك من مولانا السلطان أحسن المواقع . ووفد بعدها على الحضرة فبايع لها بالعهد في آخر سته في محفل أشهده الملأ من الخاصة والكافة ببايون ملكه . وكان يوماً مشهوداً قرئ فيه سجل العهد على الكافة ، وانفصلوا منه داعين للسلطان . وراجع بنو حمزة الطاعة بعدها واستقاموا عليها إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) يقال لشعب اوريفة وريفة أو ريغة اختصاراً ، ويقال لهم هوّارة تغلياً ، وهم بنو اوريف بن برنس .

(٢) وفي نسخة أخرى : أبي عون علي بن كبير .

(٣) أشواه : أصاب شواه أي أطرافه ولم يصب مقتلته ، على أنه أراد هنا بمعنى قتله ، وجاء بها بمعنى قتله في مواضع أخرى من هذا الكتاب . قال عمر بن الغارص : سهم سهم القوم أشوى وشوى سهم أعما حكم أحشاي شي . (قاموس)

* (الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية
أبي محمد بن تافراكين من بعد وما كان على تفيثة ذلك من
نكبة ابن الحكيم) *

هذا الرجل اسمه أحمد بن اسمعيل بن عبد العزيز الغساني وكنيته أبو القاسم ، وأوصل
سلفه من الأندلس انتقلوا إلى مراکش واستخدموا بها للموحدين ، واستقرّ أبوه
إسمعيل بتونس . ونشأ أبو القاسم . سكتبه الحاجب ابن الدبّاغ ولما دخل السلطان
أبو البقاء خالد إلى تونس ، ونكب ابن الدبّاغ لجأ ابن عبد العزيز إلى الحاجب ابن
عمر ، وخرج من تونس إلى قسنطينة واستقرّ ظافر الكبير هناك فاستخدمه إلى أن
غرب إلى الأندلس كما قدّمناه . واستعمله ابن عمر على الأشغال بقسنطينة سنة ثلاث
عشرة وسبعائة فقام بها وتعلّق بخدمة ابن القالون بعد استبداد ابن عمر بيجاية . فلما
وصل السلطان أبو بكر إلى تونس سنة ثمان عشرة وسبعائة استقدمه ابن القالون
واستعمله على أشغال تونس . ثم كانت سعايته في ابن القالون مع المزوار بن عبد العزيز
إلى أن فرّ ابن القالون سنة إحدى وعشرين وسبعائة وولي الحجابة المزوار بن عبد
العزيز ، وكان أبو القاسم بن عبد العزيز هذا رديفة لضعف أدواته .

ولما هلك ابن عبد العزيز المزوار بقي أبو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم إلى أن قدم
ابن سيّد الناس ، من بجاية ، وتقلّد الحجابة كما قدّمناه فغصّ بمكان ابن عبد العزيز
هذا وأشخصه عن الحضرة وولّاه أعمال الحامة^(١) ثم استقدم منها عندما ظهر عبد
الواحد اللحياني بجهاث قابس فلحق بالسلطان في حركته إلى تيمرزكت ، وأقام في
جملة السلطان إلى أن نكب ابن سيّد الناس ، وولي الحجابة بالحضرة كما ذكرت
ذلك كله من قبل إلى أن هلك فاتح سنة أربع وأربعين وسبعائة فعقد السلطان على
حجابه لشيوخ الموحدين أبي محمد بن عبد الله بن تافراكين .

وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل ومن آيت الخميس . وولي
عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على قابس أول ما ملكها الموحدون سنة أربعين

(الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده (القاموس) .

وخمسمائة إلى أن فتحوا مراكش ، فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها أيام مغيبه عنها على الإمارة والصلاة . ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا أومغار أخو الإمام المهدي سنة إحدى وخمسين كان مغيبه عنها على أول ثورتهم أن اعترضوا عمر بن تافراكين عند ندائه بالصلاة فقتلوه ، وفضحهم الصبح فاستلحمهم العامة ، ثم كان ابنه عبد الله بن عمر من بعده من رجالات الموحّدين ومشيعتهم . ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لأخيه السيّد أبي إسحق أنزله معه عبد الله بن عمر ابن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحّدين كان منهم يوسف بن وانودين ، وكان عبد الله المقدّم فيهم وجاء ابنه عمر من بعده مشتغلاً بمذهبه مرموقاً بتجلّته^(١) . ولما ولي السيد أبو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على أفريقية ولّاه قابس وأعمالها إلى أن استنزله عنها يحيى بن غانية سنة إثنين وتسعين وخمسمائة .

ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخروهم عبد العزيز بن تافراكين ، خالف الموحّدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون ، فاغتالوه في طريقه إلى المسجد عند الآذان للصبح ، بما كان محافظاً على شهود الجماعات . ورعاها له المأمون في أخيه عبد الحق وبنيه أحمد ومحمد وعمر فلما استلحم الموحّدون وعمهم الجزع ارتحل عبد الحق مورياً بالحج ونزل على السلطان المستنصر فأنزله بمكانه من الحضرة وسرّحه بعض الأحياء إلى الحامة لحسم الداء فيها . وقد كان توقّع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها ، وقتل أهل الخلاف وحسم العلل ، وولّاه السلطان أبو إسحق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها . ولما ولي الدعيّ ابن عمارة أنه سرّحه في عسكر من الموحّدين لقهر العرب وكفّ عداوتهم فأثنى فيهم ما شاء . ولم يزل معروفاً بالرياسة مرموقاً بالتجلة إلى أن هلك . وكان بنو أخيه عبد العزيز وهم : أحمد ومحمد وعمر جاؤا على أثره من المغرب فترلوا بالحضرة خير منزل ، وغدوا بلبان النعمة والجاه فيها . وكان أحمد كبيرهم ، وولّاه السلطان أبو حفص على قفصه ثم على المهديّة ، ثم استعفى من الولاية فعوفي .

وكان السلطان أبو عصيدة يستخلفه على الحضرة إذا أخرج منها على ما كان لأوّله إلى أن هلك الأوّل المائة الثامنة سنة ثلاث . ونشأ ابنه أبو محمد عبد الله وأبو العبّاس

(١) وفي نسخة أخرى : متقبلاً مذهبه مرموقاً بتجلّته .

مد في حجر الدولة وجو عنايتها وأصهر عبد الله منها إلى أبي يعقوب بن زدوتين شيخ الدولة في إبنته فعقد عليها . وأصهر من بعده أخوه أحمد بن أبي محمد بن يعمور في إبنته فعقد له أيضاً عليها ، واستخلص أبو ضربة بن اللحاني كبيرها أبا محمد عبد الله وآثره بصحبته ، فلم يزل معه إلى أن كانت الواقعة عليه بمصوح ، وتقبّض على كثير من الموحدين فكان في جملتهم . ومنّ عليه السلطان أبو بكر ورقاه في رتب عنايته إلى أن ولّاه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم . ثم قدّمه شيخاً على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة إثنين وأربعين وبعثه إلى ملك المغرب مع ابنه الأمير أبي زكريا صاحب بحاية صريحاً على بني عبد الواد فجلى في خدمة السلطان وعرض سفارته . وتوجّه للإيثار بعدها إليه . واختصّ بالسفارة إلى ملك المغرب سائر أيامه . وغصّ الحاجب ابن سيّد الناس بمكانه ، وهمّ بمكروهه فكبح السلطان عناة عنه ، ويقال إنه أفضى إليه بذات صدره من نكبته . ولما انقسمت خطط الدولة من الحرب والتدبير ومخالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد . كان له هو القدح المعلى في المشورة والتدبير ، وكانوا يرجعون إليه ويعولون على رأيه ، وكان ثالث أنافيم ومصقلة آرائهم .

ولما هلك ابن عبد العزيز ، وكان السلطان قد أضمر نكبة ابن الحكيم ، لما كان يتعاطاه من الاستبداد ويحتججه من أموال السلطان ، وأسرّ الحاجب ابن عبد العزيز إلى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته ، وأنه فاوضه أيام نزول العرب عليه بساح تونس سنة إثنين وأربعين كما قدّمناه في الادالة من السلطان ببعض الأعياص من بني أبي دبوس ، كانوا معتقلين بالحضرة ، ألقاها القدر على لسانه ضجراً من قعود السلطان عن الخروج بنفسه إلى العرب وسامة ما هو فيه من الحصار واعتدّها عليه ابن عبد العزيز حتى ألقاها إلى السلطان عند موته ، وبرىء منها إليه فأودعها إذناً وأعية وكان حتف ابن الحكيم فيها . ولما هلك وولي شيخ الموحدين أبو محمد بن تافراكين فاوضه في نكبة ابن الحكيم ، وكان يتربّص به لما كان بينهما من المنافسة .

وكان ابن الحكيم غائباً عن الحضرة في تدويخ القاصية ، وقد نزل جبل أوراس فاقتحمه واقتضى مغارمه وتوغّل في أرض الزاب واستوفى جباية من عامله يوسف بن منصور ، وتقدّم إلى ربيعة ونازل تغرت وافتتحها ، وامتلات أيدي العساكر من

مكاسيم وخيلهم^(١) . واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بر تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظن أن السلطان لا يعدل بها عنه . وكان يرشح له كاتبه أبا القاسم وازار^(٢) ، ويرى أن ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها إثارة عليه ، فبدا له ما لم يحتسبه فظن الظنون وجمع أصحابه ، وأعد السير إلى الحضرة وقد أمر السلطان أبا محمد بن تافراكين في نكبته وأعد البطانة للقبض عليه . وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع وأربعين وجلس له السلطان جلوساً فخماً فعرض عليه هديته من المقربات والرقيق والأنعام ، حتى اذا انفض المجلس وشيع السلطان وزراؤه وانتهى إلى بابه أشار إلى البطانة فلحقوا به ونقلوه إلى محبسه^(٣) . وبسط عليه العذاب لاستخراج الأموال فأخرجها من مكان احتجاجها وحصل منها في مودع السلطان أربعمائة ألف من الذهب العين أو مثالها أو ما يقاربها قيمة من الجوهر والعقار إلى أن استصفى . ولما افتك عظمه ونفذ ماله خنق بمحبسه في رجب من سنته وذهب مثلاً في الأيام . وغرب ولده مع أمه إلى المشرق ، وطوح بهم الاغتراب إلى أن هلك منهم من هلك ، وراجع الحضرة علي وعبيد منهم في آخرين من أصاغرهم بعد أيام وأحوال والله يحكم لا معقب لحكمه .

* (الخبر عن شان الجريد واستكمال فتحه وولاية أحمد بن مكي على جزيرة جربة) *

كان أمر الجريد قد صار إلى الشورى منذ شغلت الدولة بمطالبة زناته بني عبد الواد وما نالها لذلك من الاضطراب ، واستبدت مشيخة كل بلد بأمره ، ثم انفرد واحد منهم بالرياسة ، وكان محمد بن بهلول من مشيخة توزر هو القائم فيها والمستبد بأمرها كما سندكره . ولما نزعت الدولة إلى الاستبداد وأرهف السلطان حدّه للثوار وعفى على آثار المشيخة بقفصة وعقد لابنه الأمير أبي العباس على قسطنطينية . ونزل بقفصة فأقام بها

(١) وفي نسخة أخرى : حليم .

(٢) وفي نسخة أخرى : أبا القاسم بن واران .

(٣) وفي نسخة أخرى : فأحدقوا به وتلوه إلى محبسه .

ممهّداً لإمارته ، ومردّداً بعوته إلى البلاد اختباراً لما يظهرون من طاعته . وزحف حاجبه أبو القاسم بن عتّو سنة (١) بالعساكر إلى نفطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف ، وكانوا إخوة أربعة استبدوا برياستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب ، ولادوا منه يجدران الحصون التي ظنوا أنها مانعهم وتبرأت منهم الرعايا فأدركهم الدهش ، وسألوا التزول على حكم السلطان فجذبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين ، وأفلت السيف عليّاً صغيرهم لتروعه إلى العسكر قبل الحادثة ، فكانت له ذمّة واقية من الهالكة . فانظم الأمير أبو العباس بلد نفطة في مملكته وجدّد له العقد عليها أبوه . وتملّك الكثير من نفزاوة .

ولما استيحت نفطة ونفزاوة سمّت همتة إلى ملك توزر جرثومة الشقاق وعش الخلاف والتناق ، وخشى مقدّمهما محمد بن بهلول عيث (٢) حاله فذهب إلى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه إلى أن كان مهلكهما في سنة واحدة ، واضطرب أمر توزر وتوائب بنوه وإخوته وقتل بعضهم بعضاً . وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذ عليه الموائيق بالطاعة والجباية ، ومضى إلى توزر فملكها وطالبه الأمير أبو العباس صاحب قفصّة وبلاد قسطليلية بالانقياد الذي عاهد عليه فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد وصارت لذلك شجاً معترضاً في صدر إمارته فخاطب أباه السلطان أبا بكر وأغراه به فنهض إليه سنة خمس وأربعين والتقى به ففرّ عنه وانتهى إلى قفصّة وصار الخبر إلى أبي بكر ابن بهلول رئيسها يومئذ فأدركه الدهش وانفضّ من حوله الأولياء ، وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففرّ عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على أمره علي بن محمد المعمودي المعروف الشهرة ، ولحق ببسكرة في جوار يوسف بن مزني وأغذّ السلطان السير إلى توزر فخرج إليه أبو بكر بن بهلول وألقى إليه يده وخلط نفسه بجملته .

ثم ندم على ما قرط من أمره وأحس بالنكير من الدولة ، وأنذر بالهلكة فلحق بالزاب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلّقه من الترحيب والقرى بما تحدّث به الناس ولما استولى السلطان على توزر وانتظمها في أعماله عقد عليها لابنه الأمير أبي العباس وأنزله بها وأمكنه من رمتها ورجع السلطان إلى الحضرة ظافراً عزيزاً ، واتصلت (٣)

(١) بياض بالأصل ولم تستطع تحديد السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة أخرى : مقبّة .

(٣) وفي نسخة أخرى : وتملّأ .

أيام ملكه إلى أن هلك على فراشه كما نذكر . واتصلت ممالك الأمير أبي العباس في بلاد الجريد وساور أبو بكر بن بهلول^(١) توزر مراراً يفلت في كلهما من الهلكة إلى أن مات ببسكرة سنة سبع وأربعين قبيل مهلك الناس كما نذكر . وأقام أبو العباس بمحل إمارته ولم يزل يمهّد الأحوال ويستتزل الثوار . وكان أبو مكّي قد امتنع عليه بقابس ، وكان من خبره أنه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجباً له وذهب ابن اللحياني إلى المغرب وأقام هو بقابس . ثم استراب بمكان أمره مع السلطان حين ذهب ملك آل زيّان فأوفد أخاه أحمد بن مكّي على السلطان أبي الحسن متنصّلاً من ذنوبه متدّمماً بشفاعته منه إلى السلطان أبي بكر فشفع له وأعادته السلطان إلى مكان رياسته . واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة .

وكان لأحمد بن مكّي حظ من المال والأدوات ونفس مشغوفة بالرياسة والشرف^(٢) ، وكان يقرض الشعر فكان يجيد ويرسل فيحسن ، وكان خط كتابته أنيقاً ينحوبه منحى الخط الشرقيّ شأن أهل الجريد فيمتنع ما شاء ، فكانت لذلك كلّ في نفس الأمير أبي العباس صاغية إليه . وكان هو مسترباً بالمخالطة لما شاء من آثاره السالفة . ولم يزل الأمير أبو العباس يفتل له في الذروة والغارب إلى أن جلبه إلى مجلس السيدة أمّه الواحدة^(٣) أخت مولانا السلطان قافلة من حجّتها فسح ما كان بصدّره ، وأحكم له عقد مخالضته واصطنعه لنفسه فحل من إمارته بمكان غبطة واعتزاز . وعقد له السلطان على جزيرة جربة ، واستضافها إلى عمله وأنزل عنها مخلوف بن الكناد من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين وعقد له السلطان عليها فترها أحمد بن مكّي . واستقل عبد الملك أخوه برياسة قابس فقاما على ذلك وجردا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب أعمال الجريد فلم يزالوا كذلك إلى أن كان من أمر الجميع ما نذكر إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة أخرى : أبو بكر يملول .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بالرياسة والسرو .

(٣) وفي النسخة الباريسية : أمة الواحد .

* (الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين) *

كان السلطان أبو بكر عند نكبة القائد ابن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدین
أبا محمد بن تافراكين كما ذكرناه ، وقوّض إليه فيما وراء بابه وعقد على الوزارة لأخيه
أبي العباس أحمد وكان أبو محمد جلس الباب لمكان الحجابة فرفع إلى الحرب وقود
العساكر ، وإمارة الضاحية أخاه أبا العباس فقام بما دفع إليه من ذلك . وكان بنو
سُلَيم بعد مهلك حمزة بن عمر نعموا ما كان عليه من الأذعان وسموا إلى الخلاف
والعناد فكان من أبناء حمزة في ذلك من الاجلاب على الحضرة ما ذكرناه وكان
سحيم بن ^(١) من أولاد القوس بن حكيم بينه وبينهم غدر وخلاف وعناد ^(٢) ، وكان
السلطان قد ولّى على حجابة ابنه الأمير أبي العباس في أعمال الجريد أبا القاسم بن
عتو من مشيخة الموحدین وكان يناهض بني تافراكين بزعمه في الشرف ، وينفس
عليهم ما آتاهم الله من الرتبة والحظ ، فلمّا ولي أبو محمد الحجابة ملئ منه حسداً
وحقداً ^(٣) ، ودخل فيما زعموا سحيماً هذا الغوي في النيل من أبي العباس بن
تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بما آذاه إليه وتكاثموا أمرهم . وخرج أبو
العباس بن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لجباية هوّارة فوفد عليه سحيم هذ
وقومه وضايقوه في الطلب . ثم انتهزوا الفرصة بعض الأيام وأجلبوا عليه ، فانفضّ
معسكره وكبابه فرسه فقتل وحمل شلوه إلى الحضرة فدفن بها وجاهر سحيم
بالخلاف ، وخرج إلى الرمال فلم يزل كذلك إلى مهلك السلطان كما نذكر ذلك إن
شاء الله تعالى .

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد اسم والده في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بهمة غوار ومارد خلاف وعناد .

(٣) وفي نسخة ثانية : حسداً وحفيظة .

* (الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من
الانباء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي
حفص وولاية ابنه الأمير أبي عبدالله) *

كان السلطان أبو بكر لما هلك الحاجب بن عمر عقد على بجاية لابنه الأمير أبي زكريا
كبير ولده ، وأنفذه إليها مع حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل أموره تحت
نظره . ثم رجع القالون إلى تونس فأنزل معه ابن سيّد الناس كذلك ، فلما استبدّ سيّد
الناس بحجابه الحضرة جعل على حجابه أبا عبدالله بن فرحون . ثم لما تقبّض على ابن
سيّد الناس وعلي ابن فرحون وقد استبدّ الأمير أبو زكريا بأمره ، وقام على نفسه فوض
إليه السلطان الأمر في بجاية وبعث إليه ظافراً السنان مولى أبيه الأمير أبي زكريا
الأوسط قائداً على عسكره . والكاتب أبا إسحق بن علاق^(١) متصرفاً في حجابه
فأقاما ببابه مدة ثم صرفهما إلى الحضرة ، وقدم لحجابه أبا العباس أحمد بن أبي
زكريا الرندي ، كان أبوه من أهل العلم وكان يتحل مذهب الصوفية الغلاة ، ويطالع
كتب عبد الحق بن سبعين . ونشأ أحمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان وترقى في
الرتب إلى أن استعمله الأمير أبو زكريا كما قلناه . ثم هلك وقد أنف السلطان أبو بكر
من الأمراء هؤلاء على حجابه ابنه^(٢) فأنفذ لها من حضرته كبير الموحدين يومئذ
وصاحب السفارة أبا محمد بن تافراكين سني أربعين وسبعائة فأقام أحوال ملكه ،
وعظم أبته سلطانه ، وجهّز العساكر لسفره وأخرجه إلى أعماله فطاف عليها
وتفقدّها ، وانتهى إلى تخومها من المسيلة ومقرة . ولم يستكمل الحول حتى سخطه
الشيخة من أهل بجاية لما نكروا من الأبهة والحجاب حتى استغلظ عليهم باب
السلطان ، وتولى كبر ذلك القاضي ابن يوسف تعتاً وملالاً ، واستعفى هو من ذلك
فأعني وغاد إلى مكانه بالحضرة .

ثم استقدم الأمير أبو زكريا حاجبه الأول بعهد ابن سيّد الناس ، وهو أبو عبدالله محمد
ابن فرحون ، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب في الأسطول

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : علان ، وفي نسخة أخرى : غلان .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : من انتزأ هؤلاء السوقة على حجابه ابنه .

الذي بعثه مدداً للمسلمين عند إجازة السلطان أبي الحسن إلى طريف . وكان أخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الأسطول بما كان قائده ببحر بجاية ، فلما رجع أبو عبد الله ابن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الأمير أبي زكريا واستعمله على حجابته إلى أن هلك فولى من بعده في تلك الخطة ابن القشاش من صنائع دولته . ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب ، واتصل بدار هذا الأمير وترقى في ديوانه إلى أن ولّاه خطة الحجابة . ثم عزله وولى يحيى بن محمد بن المنت الحضرمي ^(١) . كان أبوه وعمّه قدما على جالية الأندلس وكانا ينتحلان القراءات . وأخذ أهل بجاية عن عمّه أبي الحسن علم القراءات ، وكان خطيباً يجامع السلطان ونشأ علي ابن أخيه واستعمل في الديوان ، وكان طموحاً للرياسة واتصل بمحظية كانت للمولى أبي زكريا تسمى أمّ الحكم قد غلبت على هواه ، فرسمت على ابن المنت هذا بخطة الحجابة ^(٢) واستعمله فيها فقام بها وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره ، وجهّز له العساكر وجال في نواحي أعماله .

وهلك هذا الأمير في إحدى سفراته وهو على حجابته بتكرارات من أعمال بجاية من مرض كان أزمّن به في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وسبعائة وكان ابنه الأمير أبو عبد الله في حجر مولاه فارح بن معلوجي ابن سيّد الناس . وكان اصطنعه فألقاه قابلاً للترشيح فأقام مع ابن مولاه ينتظر أمر الخليفة ، وبادر حاجبه الأول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة وأنهى الخبر إلى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص كان معه بالحضرة ، وهو من أصاغر ولده ، وأنفذه إليها مع رجاله وأولى اختصاصه . وخرج معه أبو القاسم بن علناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة . وحمله الأوغاد من البطانة على إرهاف الحد وإظهار السطوف فخشي الناس البوادر واتثمروا . ثم كانت في بعض الأيام هيئة تمالأ فيها الكافة على التوثب بالأمير القادم فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بإمارة ابن مولاهم . ثم تسوّروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا أمره وأخرجوه برمته بعد أن انتهوا جميع موجوده ، وتسايلا إلى دار الأمير أبي عبد الله محمد ابن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معترماً على التقويض عنهم واللاحق بالخليفة جدّه . وأذن له في ذلك عمه القادم فبايعوه بداره من البلد . ثم نقلوه من

(١) وفي نسخة ثانية : ثم عزله بعلي بن محمد بن المنت الحضرمي .

(٢) وفي نسخة ثانية : فرسخت على ابن المنت هذا خطة الحجابة .

الغد إلى قصره بالقصبة وملكوه أمرهم . وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمر حالهم على ذلك . ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة آخر جمادي الأولى من سسته لشهر يوم ولايته إلى أن كان من شأنه بعد مهلك مولانا السلطان ما نذكره . وتدارك السلطان أمر بحاية وبعث إليهم أبا عبدالله بن سليمان من كبار الصالحين ومشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم وبعث معه كتاب العقد عليها لحافده الأمير أبي زكريا طالباً مرضاتهم^(١) فسكنت نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم ، وجاءت الأمور إلى مصايرها كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى والله وليّ التوفيق .

* (الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية ابنه الأمير أبي حفص) *

بينما الناس في غفلة من الدهر وظلّ ظليل من العيش وأمن من الخطوب تحت سرادق من العز وذمة وافية من العدل ، إذ ريع بالسرف وتكدر الشرق^(٢) وتقلّصت ظلال العز والأمن ، وتعطلّ فناء الملك ونعي السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الأربعاء ثاني رجب من سنة سبع وأربعين وسبعائة ، فهبّ الناس من مضاجعهم متسايلين إلى القصر يستمعون نبأ النعي وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى . وبادر الأمير أبو حفص عمر من داره إلى القصر فلكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب أبا محمد بن تافراكين من داره ، ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند ، وأخذ الحاجب عليهم البيعة للأمير أبي حفص . ثم جلس من الغد جلوساً فخماً على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لمعرفة لعوائدها وقوانين ترتيبها ، تلقّته عن أشياخه أهل الدولة من الموحدين ، وغدا عليه الكافة في طبقاتهم فبايعوا له وأعطوه صفقة إيمانهم . وانفضّ المجلس وقد انعقدت بيعته وأحكمت خلافته .

وكان الأمير خالد ابن مولانا السلطان مقيماً بالحضرة قدمها رائداً^(٣) منذ أشهر وأقام

(١) كذا في النسخة الباريية وفي نسخة ثانية : ذهاباً مع مرضاتهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : إذ ريع السرب وتكدر الشرب .

(٣) وفي نسخة أخرى : زائراً .

متبناً^(١) من الزيارة ، فلما سمع النعمي قر من ليلته ، وتقبّض عليه أولاد مندبل من الكعوب وردّوه إلى الحضرة فاعتقل بها . وقام أبوه محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلا أن بطانة السلطان كانوا يكثرّون السعاية فيه ويوغرون صدره عليه يذكرون منافساته ومناقشة سابقة بين الحاجب والأمير أيام أبيه ، واتصل ذلك منهم غصاً لمكانه ، وأنذر الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في الخلاص من صاحبهم كما يذكر بعد اهـ ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن زحف الأمير أبي العباس وليّ العهد من مكان امارته بالجريد الى الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الاميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد) *

كان السلطان أبو بكر قد عهد إلى ابنه الأمير أبي العباس صاحب أعمال الجريد كما ذكرناه سنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، فلما بلغه خبر مهلك أبيه وما كان من بيعة أخيه ، حقد على أهل الحضرة ما جاؤا به من نقض عهده . ودعا العرب إلى مظاهرة أمره ، فأجابوه ونزعوا جميعاً إلى طاعته عن طاعة أخيه بما كان مرهفاً لحده في الاستبداد والضرب على أيدي أهل الدولة من العرب وسواهم . وزحف إلى الحضرة ولقيه أخوه أبو فارس صاحب عمل سوسة لقيه بالقيروان فاتاه طاعته وصار في جملته ، وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه واستلحق وأزاح العلل ، وخرج غرة شعبان وارتحل عن تونس ، وحاجبه أبو محمد بن تافراكين قد أنذر منه بالهلكة ، واعتمل في أسباب النجاة ، حتى اذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجياً إلى المغرب . وبلغ خبر مفرة إلى السلطان فأجفل واختلّ مصادفه ، وتخيّر إلى باجة فتلوم بها وتخلّف عنه أهل المعسكر فلحقوا بالأمير أبي العباس ، وملك الحضرة ثامن رمضان ونزل برياض رأس الطابية وأطلق أخاه أبا البقاء من معتقله .

ثم دخل إلى قصره لسبع ليال من ملكه وصبحه الأمير أبو حفص في ثامنها فاقتحم

(١) وفي نسخة أخرى : متبلياً .

عليه البلد لضاغنة كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه نساءهم^(١) وطروقه منازلهم أيام جنون الشباب وقضاء لذاته في مراه . وفكك بأخيه الأمير أبي العباس . ولسرعان ما نصب رأسه على القناة ، وداست شلوه هنالك سنايك العسكر ، وأصبح آية للمعتبرين . وثارت العامة بمن كان بالبلد من وجوه العرب ورجالهم فقتلوا فيه تلك الهيعة من كتب عليه القتل . وتلوا كثيراً منهم إلى السلطان فاعتقلهم ، وقتل أبا الهون^(٢) بن حمزة بن عمر بن بينهم ، وتقبّض على أخويه خالد وعزوز ، فأمر بقطعهم من خلاف فقطعوا وكان فيه مهلكهم . واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حجابتها أبا العباس أحمد بن علي بن زين من طبقة الكتاب ، وكان كاتباً للضحشي^(٣) الحاجب وبعده للقائد ظافر الكبير . واتصل السلطان أبو بكر لأول ملكه بالحضرة فأسف عليّ بن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه . ثم أطلق من محبسه ومضى إلى المغرب ونزل على السلطان ابن سعيد فأجمل نزله ، ثم رجع إلى الحضرة ولم يزل مشرداً أيام السلطان كلّها واستكتب الأمير أبو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة ، فلما استوسق له الملك بعد مفرّ أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه ، وولّى أباه أبا العباس هذا على حجابته ، وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى أبيه وجدّه المعروف بالسنان ، واستخلص لنجواه وسرّه كاتبه أبا عبدالله محمد بن الفضل ابن نوار^(٤) من طبقة الفقهاء والقضاة ومن أهل البيوت الناهية بتونس ، كان له بها سلف مذكور ، واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده . وقرأ عليه هذا الأمير أبو حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من أجل ذلك يد^(٥) ومزيد عناية عنده . ولما استبدّ بأمره كان هو مستبدّاً بشوراه ، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أسأهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : أبو الهول .

(٣) وفي نسخة ثانية : للشحشي الحاجب

(٤) وفي نسخة ثانية : ابن نزار .

(٥) وفي نسخة ثانية : خصوصية به .

* (الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن على أفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الابناء من بجاية وقسنطينة الى المغرب وما تخلل ذلك من الاحداث) *

كان السلطان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك أفريقية ، وبتربص بالسلطان أبي بكر ويسر له حسداً في ارتقاء^(١) ، فلما لحق به حاجبه أبو محمد بن تافراكين بعد مهلكه رغبه في سلطانها واستحثه بالقدوم عليها ، وجدد له الحوار^(٢) فتنبت لذلك عزائمهم . ثم وصل الخبر بمهلك ولي العهد وأخويه وخبر الواقعة ، فأحفظه لذلك بما كان من رضاه بعهده ، وخطه بالوفاق على ذلك بيده في سجله . وذلك أن حاجب الأمير أبي العباس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآخر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية . وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان أبو الحسن ، وسأل منه إمضاء لمولاه وكتب ذلك بخطه في سجله ، فخطه يمينه وأحكم له عقده . فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلل بأن النقص أتى على ما أحكمه فأجمع غزو أفريقية ومن بها ، فعسكر بظاهر تلمسان ، وفرق الأعطيات ، وأزاح العلل . ثم رحل في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعائة يجرّ الدنيا بما حملت . وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر أمراء البدو بأفريقية ، ورجالات الكعوب أخاهم خالداً يستصرخه لثأر أخيه أبي الهول الهالك يوم الواقعة فأجابهم . ونزع إليهم أيضاً أهل القاصية من أفريقية بطاعتهم فجاءوا في وفد واحد مع ابن مكّي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة ، فلقوه بوهران وآتوه بيعتهم رغبة ورهبة . وأدّوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس ، ولم يتخلف عنهم إلا من بُعد داره . ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني ومعه مشيخة الموحدين الزواودة ، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية

(١) وفي نسخة ثانية : ويسر له حسواً في ارتقاء .

(٢) وفي نسخة ثانية : وحرك له الحوار .

فأوسع الكل حباً وتكرماً ، وأسنى الصلات والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله . وبعث مع أهل الجزائر الولاية للجباية لنظر مسعود بن ابراهيم اليرنياوي^(١) من طبقة وزرائه ، وأغذ السير إلى بجاية ، فلما أطلت عساكره عليها توافر أهلها في الامتناع ، ثم أنابوا وخرج أميرها أبو عبدالله محمد ابن الأمير أبي زكريا قاتاه طاعته ، وصرفه إلى المغرب مع إخوانه ، وأنزله ببلد ندرومة . وأقطع له الكفاية من جبايتها وبعث على جباية عماله وخلفائه^(٢) . وسار إلى قسنطينة فخرج إليه ابناء الأمير أبي عبدالله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد وآتوه طاعتهم ، وأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها ، وأنزل بقسنطينة خلفاء وعماله ، وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها ، وفيهم أبو عبدالله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه ، ومحمد ابن الأمير خالد وإخوانه وبنوه ، وأصارهم في جملته حتى صرفهم إلى المغرب من الحضرة من بعد ذلك .

ووفد عليه هنالك بنو حمزة بن عمرو مشايخ قومهم الكعوب فأخبروه باجفال المولى أبي حفص من تونس مع ظواغن أولاد مهلهل ، واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر ، وسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العشري من مواليه ، وسرح عسكرياً آخر إلى تونس لنظر يحيى بن سليمان من بني عسكر ومعه أبو العباس بن مكى ، وسارت العساكر لطلب الأمير أبي حفص فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس ، وسبحوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء ، ثم انفضوا وكبابا للأمير أبي حفص جواده في بعض نافقاء اليرابيع^(٣) ، وانجلت الغيابات عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما ، وأوثقها قائد الكتائب بيده ، حتى إذا جن الليل وتوقع أن يفلتها العرب من أساره قبل أن يصل بهما إلى مولاه فذبجها ، وبعث برؤسها إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجة .

وخلص الفلّ من الواقعة إلى قابس ، فتقبض عبد الملك بن مكى على رجالات من أهل الدولة ، كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة ، فبعث بهم ابن مكى إلى السلطان .

(١) وفي نسخة ثانية : اليرنياني .

(٢) وفي نسخة ثانية : الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله وخلفاءه .

(٣) كذا في النسخة الباريسية ونافقاء اليربوع : جحره . وفي نسخة أخرى نافقاء اليرابيع .

فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم من خلاف ، واعتقل الباقي ، وسيقت العساكر إلى تونس . ثم جاء السلطان على أثرهم ودخل الحضرة في الزي والاحتفال في جهادي الآخرة من سسته ، وخفت الأصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد ، وانقرض أمر الموحدين إلا أذبالاً في بونة فإنه عُقد عليها للمولى الفضل ابن مولانا أبي بكر لمكان صهره ووفادته عليه بين يدي مهلك أبيه . ثم ارتحل السلطان إلى القيروان ثم إلى سوسة والمهدية وتطوّف على المعالم التي بها ، ووقف على آثار ملوك الشيعة وصنهاجة في مصانعها ومبانيها ، والتَمَس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء في ساحتها ، وقفل إلى تونس فدخلها آخر شعبان والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل على بونة وأولية ذلك ومصايره) *

كان السلطان أبو الحسن قد أصهر إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في إحدى كرائمه ، وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سويد من زغبة وصاحب شواره وخالصة سرّه وفد من رجالات دولته من طبقات الفقهاء والكتاب والموالي كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه أبو عبدالله السطي وكاتب دولته أبو الفضل عبدالله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخصي ، فأسعفه السلطان وعقد له على حظيته عزونة شقة ابنه الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع أخيه الفضل ، ومعه أبو محمد عبد الواحد ابن الجماز^(١) من مشيخة الموحدين ، وأدركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم . فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبلهم بقبول حسن ، ورفع مجلس الفضل ، واستتب له ملكها فأعرض عن ذكر ذلك ، إلا أنه رعى له دمة الصهر وسابقة الوعد فأسعفه^(٢) بالعقد على بونة مكان عملة منذ أيام أبيه ، وأنزله بها عندما رحل عنها إلى تونس . وانقمع^(٣) المولى الفضل من ذلك حقداً لما يرجوه من تجافهم له عن ملك

(١) وفي النسخة الباريسية : أكمازير وفي نسخة ثانية أكماز .

(٢) وفي نسخة أخرى : فأقنعه .

(٣) وفي نسخة أخرى : واضطغن .

آبائه ، ولحق وفادته وصهره وأقام بمكان عمله منها يؤمل الكرّ إلى أن كان من أمر ما نذكره والله أعلم .

* (الخبر عن بيعة العرب لابن أبي دبوس وواقعهم مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله من الأحداث) *

كان السلطان أبو الحسن لما استوسق له ملك أفريقية أسف العرب بمنعهم من الأمصار التي ملكوها بالاقطاعات ، والضرب على أيديهم في الأتاوات ، فوجموا لذلك ، واستكانوا لغلبته ، وتربّصوا الدوائر . وربما كان بعض البادية يشنّ الغارات في الأطراف فيعتدّها السلطان على كبارهم . وأغاروا بعض الأيام في ضواحي ترنس فاستاقوا الظهر الذي كان في مرعاها ، وأظلم الجوّ بينهم وبينه ، وخشوا عاديته وتوقّعوا بأسه . ووفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد من بني كعب وخليفة بن عبد الله من بني مسكين^(١) ، وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم . وساءت طنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فدخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان . وكان من خبر عبد الواحد هذا أنه بعد إجماله من تونس سنة إثنين وثلاثين وسبعائة كما ذكرناه لحق بأبي تاشفين فأقام عنده في مبرة وتكرمة . ولما أخذ السلطان أبو الحسن بمخنق تلمسان واشتدّ حصارها سأل عبد الواحد بن أبي تاشفين تخليته للخروج فودّعه وخرج إلى السلطان أبي الحسن فترّل عليه . ولم يزل في جملته إلى أن احتل بأفريقية . فلما اخشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الأعياص من بني أبي حفص فيصطفونهم^(٢) للأمر رجوا أن يظفروا من عبد المؤمن هذا بالبغيه فدخلوه وإرتاب لذلك ، وخشي بادرة السلطان فرفع إليه الخبر ، فتقبّض السلطان عليهم وأحضرهم معه فأنكروا وبهتوا . ثم وبّخهم واعتقلهم ، وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم ، وتلوم لبعث الأعطيات

(١) وفي نسخة أخرى : ابن مسكين .

(٢) وفي نسخة أخرى : ينصبونهم .

وأزاح العلل ، وبلغ الخبر إلى أحيائهم فقطع اليأس أسباب رجائهم . وانطلقوا يحزّبون الأحزاب ويلتمّون^(١) للملك الأعياص . وكان أولاد مهلهل أقباهم وعديلة حملهم قد أيأسهم السلطان من القبول والرضا بما بالغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرتهم فلحقوا بالقفر ، ودخلوا الرمال فركب إليهم قتيبة بن حمزة وأمه ومعهم طعائن أبنائها متذمّمين لأولاد مهلهل بالعصبية والقراية ، فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلية وتحاثوا التراب والدماء ، وتذامروا بما شملهم من رهب السلطان ، وتوقع بأسه . وتفقدوا من أعياص الموحّدين من ينصّبونه للأمر ، وكان بتوزر أحمد بن عثمان ابن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه يجهات طرابلس وإجلاله مع العرب على تونس أيام السلطان أبي عصيدة . ثم انفصوا وبقي عثمان يجهات قابس وطرابلس إلى أن هلك بجزيرة جربة ، واستقرّ بنو أبيه عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها أيام السلطان أبي بكر . ثم غرّبهم إلى الإسكندرية مع أولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله ، فترلوا بالإسكندرية وأقبلوا على الحرف لمعاشهم . ورجع أحمد هذا من بينهم إلى المغرب واستقرّ بتوزر واحترف بالخياطة . ولما تفقد العرب الأعياص دلّهم على نكرته بعض أهل عرفانه فانطلقوا إليه وجاؤا به ، وجمعوا إليه الآلة ، ونصّبوه للأمر وتبايعوا على الاستماتة . ورجع إليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان ، ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلبهم وأجفلوا أمامه إلى القيروان . ثم تذامروا ورجعوا مستميتين ثاني محرّم سنة تسع فاختلف مصافه ودخل القيروان وانتهبوا معسكره بما اشتمل عليه وأخذوا بمخنقه إلى أن اختلفوا فأفرجوا عنه وخلص إلى تونس كما نذكر ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن حصار القصبة بتونس ثم الافراج عن القيروان
وعنها وما تخلل ذلك) *

كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابة السلطان أبي بكر مستبداً بأمره مفوضاً

(١) وفي نسخة أخرى : يلتبسون .

إليه في سائر شؤونه فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يحره على مألوفه لما كان قائماً على أمره وليس التفويض للوزراء من شأنه . وكان يظن أن السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر أفريقية وينصب معه الفضل للملك . وربما زعموا أنه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض ، وكان العرب يفاضونه بذات صدورهم من الخلاف والإجلاب ، فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيّل ابن تافراكين في الخروج على السلطان لما تبين فيه من النكر منه ومن قومه . وبعث العرب في لقائه وأن يحملوه حديث بيعتهم إلى الطاعة فأذن له وخرج إليهم وقلّده حجابة سلطانهم ، ثم سرّحوه إلى حصار القصبه . وكان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من أبنائه وجوه قومه . فلما كانت واقعة القيروان واتصل الخبر بتونس كانت لبناته هيعة خشي عليها عسكر السلطان على أنفسهم فلجأ من كان معهم من تونس إلى قصبته ، وأحاط بهم الغوغاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة للحصار ، وفرقوا الأموال في الرجال ، وعظم فيها غناء بشير من المعلوجين الموالي فطار له ذكر . وكان الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب فوافاه الخبر دوين القيروان ، فانقضّ معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم بالقصبه .

ولما فرج عن^(١) ابن تافراكين من هوة الحصار بالقيروان طمعوا في الاستيلاء على قصبه تونس وفض ختامها ، فدفعوه إلى ذلك . ثم لحق به سلطانه ابن أبي دبوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعباً لكثرة الرجل الذين كانوا بها ، ونصب المجانيق عليها فلم يغن شيئاً وهو أثناء ذلك يحاول النجاء بنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان إلى سوسة . وكان من خبره أن العرب بعد إيقاعهم بعساكره أحاطوا بالقيروان واشتدوا في حصارها ، وداخل السلطان وأولاد مهلهل من الكعوب وحكيماً من بني سُلَيْم في الإفراج عنه ، واشترط لهم على ذلك الأموال واختلف رأي العرب لذلك ، ودخل عليه قنيبة^(٢) بن حمزة بمكانه من القيروان زعماً بالطاعة فتقبّله وأطلق أخويه خالداً وأحمد ، ولم يثق إليهم . ثم جاء إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة ابن أبي زيد وأبو الهول بن

(١) وفي نسخة ثانية : ولما خرج .

(٢) وفي نسخة أخرى : فتبته بن حمزة

يعقوب من أولاد القوس وأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصباحها وركب منها في أساطيله إلى تونس ، وسبق الخبر إلى ابن تافراكين بتونس فتسلل من أصحابه وركب السفينة إلى الإسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعائة وأصبحوا وقد فقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس ، وخرج أهل القصبة من أولياء السلطان فلكوها وخربوا منازل الحاشية فيها . ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الآخر فاستقلت قدمه من العثار ، ورجا الكرة لولا ما قطع أسبابها عنه مما كان من انتراء أبنائه بالمغرب على ما نذكره في أخبارهم . وأجلب العرب وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم فرجعوا إلى مهادنته فعقد لهم السلم ، ودخل حمزة بن عمر إليه وافداً فحبسه إلى أن تقبض على ابن أبي دبوس وأمكنه منه فلم يزل في محبسه إلى أن رحل إلى المغرب ، ولحق هو بالأندلس كما نذكره في أخباره ، وأقام السلطان بتونس ، ووفد عليه أحمد بن مكّي فعقد لعبد الواحد بن اللحياني على الثغور الشرقية طرابلس وقابس وصفاقس وجربة وسرحه مع ابن مكّي فهلك عند وصوله إليها في الطاعون الجارف ، وعقد لأبي القاسم بن عتوم مشيخة الموحدّين وهو الذي كان قطعه بإغراء أبي محمد بن تافراكين ، فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتو إلى مكانه ، وعقد له على بلاد قسطنطية وسرحه إليها وأقام هو بتونس إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على قسطنطية وبجاية ثم استيلاء أمراءهما بتمهيد الملك) *

كان سنن السلطان أبي الحسن في دولته بالمغرب وفود العمّال عليه آخر كل سنة لإيراد جبايتهم والحاسبة على أعمالهم ، فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب ووافاهم خبر الواقعة بقسطنطية وكان معهم ابن مزني عامل الزاب وفد أيضاً بجبايته وهديته ، وكان معهم ابن عمه تاشفين^(١) ابن السلطان أبي الحسن كان أسيراً من يوم واقعة طريف . ووقعت المهادنة بين الطاغية وبين أبيه فأطلقه وأوفد معه جمعاً من بطارقه

توفي في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أبو عمر تاشفين .

وقدموا معه على أبيه ووفد معه أخوه عبدالله من المغرب وكان أيضاً معهم وفد السودان من أهل مالي في غرض السفارة ، واجتمعوا كلهم بقسنطينة فلما اتصل بهم خبر الواقعة على السلطان كثر الاضطراب ، وتطلبت السفهاء من الغوغاء إلى ما بأيديهم وخشي الملأ من أهل البلد على أنفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة . ولما أطلّ على قسنطينة ثارت العامة بمن كان هنالك من الوفد والعمّال وانتهبوا أموالهم واستلحموا منهم ، وخلص أبناء السلطان مع وفود السلطان والجلائقة إلى بسكرة مع ابن مزني ، وفي خفارة يعقوب بن علي أمير الزاودة فأوسع ابن مزني قرى وتكرمة إلى أن لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع .

ودخل المولى الفضل إلى قسنطينة وأعاد ما ذهب من سلطان قومه . وشمل الناس بعدله وإحسانه ، وسوّغ الأقطاع والجوائز ورحل إلى بجاية لما آنس من صاغية أهلها إلى الدعوة الحفصية . فلما أطلّ عليها ثار أهلها بالعمّال الذين كان السلطان أترلهم بها واستباحوهم وأفلتوا من أيدي نكبتهم بحريفة الرفل^(١) ودخل الفضل إلى بجاية واستولى على كرسي ملكها . ونظّمها مع قسنطينة وبونة في ملكه . وأعاد ألقاب الخلافة ورسومها وشتاتها كما كانت ، واعتزم على الرحيل إلى الحضرة . وبينما هو يحدث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدوم أمراء بجاية وقسنطينة من المغرب ، وكان من خبرها أنّ الأمير أبا عنّان لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتراء منصور ابن أخيه إلى ملكه^(٢) بالبلد الجديد دار ملكهم ، وأحسّ بخلاص أبيه من هوة الحصار بالقيروان وثب على الأمر ودعا لنفسه ، ورحل إلى المغرب كما نذكره في أخباره . وسرّح الأمير أبا عبدالله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية والأنباء إلى عمله . وأمّده بالأموال وأخذ عليه المواثيق ليكون له رداً دون أبيه ، وليحولنّ بينه وبين الخلوص متى مرّ به . وانطلق أبو عبدالله إلى بجاية وقد سبقه إليها عمّه الفضل واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها ، ولحق بمكانه من منازلها نبيل المولى ابن المعلوجي مولى الأمير أبي عبدالله وكافل بنه من بعده . وتقدّم إلى قسنطينة وبها عامل من قبل الفضل ، فثار به الناس لحينه ، ودخل نبيل وملك البلد وأقام فيها دعوة الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي عبدالله . وكان الأمير أبو عنّان استصحبه وإخوانه إلى المغرب ، وبعد احتلاله بفاس سرّحهم إلى

(١) وفي نسخة ثانية : بجريرة الذقن . أي بمعنى برمق أنفسهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ابى مالك .

مكّان إمارتهم بقسنطينة بعد أن أخذ عليهم الموثق في شأن أبيه بمثل موثق ابن عمّهم فجاءوا على أثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد واحتل أبو زيد منها بمكان إمارته وسلطان قدمه كما قبل رحلتهم إلى المغرب .

ولم يزل الأمير أبو عبد الله ينازل بجاية إلى أن بيّتها بعض ليالي رمضان من سنته بمداخلة بعض الأشياء من رجالها داخلهم مولاة وكافله فارجح في ذلك ، فسرب فيهم الأموال وواعدوه للبيات ، وفتحوا له باب البرّ من أبوابها واقتحمه وفاجأهم هدير الطبول فهبّ السلطان من نومه وخرج من قصره فتسّم الجبل المطلّ عليها وتسربّ في شعبه إلى أن وضع الصباح وظهر عليه فجيء به إلى ابن أخيه فنّ عليه واستبقاه ، وأركبه السفينة إلى بلد بونة في شوال من سنة تسع وأربعين وسبعائة ووجد بعض الأعياص من قرابته قد ثاروا بها ، وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا الأكبر كان هو وأخوه عمر بالحضرة ، وكان لعمر منها النظر على القرابة . فلما كان هذا الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم ببونة عند سفره إلى بجاية ، فحدثتهم أنفسهم بالانتراء فلم يتم لهم أمر . وثارت بهم الحاشية والعامّة فقتلوا لوقتهم ووافي الفضل إلى بونة وقد انجلت غيبتهم وحيت آثارهم فدخل إلى قصره وألقى عصا تسياره ، واستقل الأمير أبو عبد الله ابن الأمير أبي زكريا ببجاية محلّ إمارة أبيه الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي عبد الله بقسنطينة محلّ إمارة أبيه ، والأمير أبو العباس الفضل ببونة محلّ إمارة منذ عهد الأمر والسلطان أبو الحسن بتونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة الفضل الى تونس بعد رحيل السلطان أبي الحسن الى المغرب) *

كان العرب بعدما قدمنا من طاعتهم وإسلامهم سلطانهم إلى أبي دبّوس قد انفضوا عن السلطان أبي الحسن وأجلبوا عليه ثانية ، وتولّى كبر ذلك قتيبة بن حمزة ، وخالف إلى السلطان أخوه خالد مع أولاد مهلهل وافترق أمرهم . وخرج كبيرهم عمر ابن حمزة حاجاً فاستقدم قتيبة وأصحابه الأمير الفضل من مكان إمارته ببونة لطلب حقّه واسترجاع ملك آبائه فأجابهم ووصل إلى أحيائهم آخر سنة تسع وأربعين

وسبعائة ، فنازلوا تونس وأجلبوا عليها . ثم أفرجوا عن منازلها أول سنة خمسين وسبعائة ، وأفرجوا عنها آخر المصيف واستدعاهم أبو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل وحمل أهل الجريد كلهم عليها واتبعه في ذلك بنو مكّي وانتقضت أفريقية عن السلطان أبي الحسن من أطرافها فركب أساطيله إلى المغرب أيام الفطر من سنة خمسين وسبعائة ومضى المولى الفضل إلى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن ، كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله إلى المغرب تفادياً عن ثورات الغوغاء ومضرة هيعتهم ، وأمن عليه بما كان عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته ، فلما أطلت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشيع للدعوة الحفصية ، وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجموه بالحجارة . وأرسل أبو الفضل إلى بني حمزة متذمماً بصهرهم فدخل عليه أبو الليل وأخرجه ومن معه إلى الحّي واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغه مأمنه وهداه السيل إلى وطنه ، ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس آباءه من الخلافة وجدّد ما طمسته بنومرين من معالم الدولة واستمر أمره على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى أبي إسحق في كفالة أبي محمد بن تافراكين وتحت استبداده) *

لما دخل أبو العباس الفضل إلى الحضرة واستبدّ بملكها عقد على حجابته لأحمد بن محمد بن عتو نائباً عن عمّه أبي القاسم ريثما يفيء من الجريد وعقد على جيشه وحرّبه لحمد بن الشواش من بطانته . وكان وليه المطارد به أبو الليل قتيبة بن حمزة مستبدّاً عليه في سائر أحواله مشتطاً في طلباته . وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكّر له ، وأن يدلّله منه بولاية خالد أخيه وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلّده في حجابته وفوّض إليه أمره وجعل مقاد الدولة بيده ، فركب إليه البحر من سوسة واستألف له خالد بن حمزة ظهيراً على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده وفأوضهم أبو الليل ابن حمزة قبل استحكام أمورهم فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها . واضطربت نار الفتنة بين أبي الليل بن حمزة

وبين أخيه خالد ، وكاد شملهم أن يتصدع . وبينما هم يحشون نار الحرب ويجمعون
الجموع والأحزاب إذ قدم كبيرهم عمر وأبو محمد عبدالله بن تافراكين من حجهم .
وكان ابن تافراكين لما احتل بالإسكندرية بعث السلطان فيه إلى أهل المشرق ،
وخطبه ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الأمير المستبد على الدولة يومئذ
بيقاروس . وخرج من مصر لقضاء فرضه ، وخرج عمر بن حمزة لقضاء فرضه أيضاً
فاجتمعا في مشاهد الحاج آخر سنة خمسين وسبعائة وتعاقدا على الرجوع إلى أفريقية
والتظاهر على أمرهما وقفلاً فألقيا خالداً وقتيبة على الصفين فأشار عمر بن داية فاجتمعا
وتواقفا ومسح الاحن من صدورهما ، وتواطوا جميعاً على المكر بالسلطان ، وبعث
إليه وليه قتيبة بالمراجعة فقبله واتفقوا على أن يقلد حجابته أبا محمد ابن تافراكين
صاحب أبيه . وكبير دولته ، ويدل به من ابن عتو فابى .

ثم أصبحت ونزلت أحياءهم ظاهر البلد واستحثوا السلطان للخروج إليهم ليكملوا عقد
ذلك ووقف بساحة البلد إلى أن أحاطوا به ، ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأذنوا لابن
تافراكين في دخول البلد ، فدخلها لإحدى عشرة من جمادي الأولى سنة إحدى
 وخمسين وسبعائة وعمد إلى دار المولى أبي إسحق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي
 بكر فاستخرجه بعد أن بذل من العهد لأمه والمواثيق مارضيها ، وجاء به إلى القصر
 وأقعدته على كرسي الخلافة وباع له الناس خاصّة وعامة وهو يومئذ غلام مناهز
 فانعقدت بيعته . ودخل بنوكعب فأتوه طاعتهم وسبق إليه أخوه الفضل ليلتذ فاعتقل
 وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض ولاذ حاجبه أبو القاسم بن عتو بالاختفاء في
 غيابات البلد وعثر عليه ليلال فاعتقل وامتنحن وهلك في امتحانه ، وخطب العمال
 في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا ابن بهلول صاحب توزر على
 الطاعة وبعث بالجباية والهدية ، واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم
 ابن مكّي وذهب إلى الاجلاب على ابن تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجزه
 عن التصرف في أمره واستبدّ عليه إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى والله
 تعالى أعلم .

* (الخبر عن حركة صاحب قسنطينة وما كان من حجابة أبي
العباس بن مكي وتصاريه ذلك) *

لما استولى أبو محمد بن تافراكين على تونس وباع للمولى أبي إسحق بالخلافة واستبدَّ
عليه نغم عليه الأمراء شأن استبداده ونقمه ابن مكي للسعي عليه لمنافسة كانت بينها
قديمة من لدن أيام السلطان أبي بكر . واستعان على ذلك بأولاد مهلهل مقاسمي
أولاد أبي الليل في رئاسة الكعوب ومحاذيهم حبل الإمارة ، فلما رأوا صاغية ابن
تافراكين إلى أولاد أبي الليل أقتلهم أجمعوا له ولهم ، وحالفوا بني حكيم من قبائل
علان^(١) ، وأجلبوا على الضواحي وشنوا الغارات . ثم وفد على الأمير أبي زيد
صاحب قسنطينة وأعلمها يستحثهم للنهوض إلى أفريقية واستخلاص ملك آبائه ممن
استبدَّ عليه واحتازه ، دونهم فسرح معهم عسكريين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من
مواليه وموالي أبيه ، وارتحلوا من قسنطينة . وارتحل معهم يعقوب بن علي كبير الزواودة
بمن معه من قومه وسرح أبو محمد بن تافراكين من الحضرة للقاسم عسكرياً مع أبي
الليل بن حمزة لنظر مقاتل من موالي السلطان ، والتقى الجمعان ببلاد هواره سنة
إثنتين وخمسين وسبعائة فكانت الدبرة على أولاد أبي الليل .

وقتل يومئذ أبو الليل قتيبة بن حمزة بيد يعقوب بن سحيم من أولاد القوس شيوخ بني
حكيم ، ورجع فلهم إلى تونس وامتدَّت أيدي أولاد مهلهل وعساكر قسنطينة في
البلاد وجبوا الأموال من أوطان هواره وانتهوا إلى ابدة^(٢) . ثم قفلوا راحلين إلى
قسنطينة ، وولي على أولاد أبي الليل مكان قتيبة أخوه خالد بن حمزة ، وقام
بأمرهم ، وكان أبو العباس بن مكي أثناء ذلك يكتب للمولى أبا زيد صاحب قسنطينة
من مكان ولايته بقباس ويبعده من نفسه الوفاة والمدد بالمال والأحزاب والقيام
بأعطيات العرب ، حتى إذا انصرم فصل الشتاء ووفد عليه مع أولاد مهلهل لقاء مبرة
وتكريماً . وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهز آلاته وأزاح علل تابعه ،
ورحل من قسنطينة سنة ثلاث وخمسين وسبعائة في صفر ، وجهز أبو محمد بن

(١) وفي نسخة أخرى : علاق وقد مرت معنا من قبل .

(٢) وفي نسخة أخرى : أبيه .

مراكين سلطانه أبا إسحق لما يحتاج إليه من العساكر والآلة ، وجعل على حربته ابنه أبا عبدالله محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيخة الكتاب ، كان يعلم أبناء السلطان الكتاب وقرئهم القرآن كما قدّمناه ، وفصل من تونس في التعبئة حتى إذا تراءى الجمعان كرّ محمد وتراحفوا فاختلف مصاف السلطان أبي إسحق ، وافترت جموعه وولّوا منهزمين . واتبعهم القوم عشية يومهم ولحق السلطان بصاحبه أبي محمد بن تافراكين بتونس وجاؤا على أثره فنزلوا تونس أياماً وطالت عليهم الحرب . ثم امتنعت عليهم وارتحلوا إلى القيروان ، ثم إلى قفصة ، وبلغهم أنّ ملك المغرب الأقصى السلطان أبا عبدالله قد خالفهم إلى قسنطينة بمدخله أبي محمد بن تافراكين واستجاشته . ونازل جهات قسنطينة وانتهب زروعها وشنّ الغارات عليها وفي بسائطها فبلغهم أنه رجع إلى بجاية منكشاً من زحف بني مرين ، واعتزم الأمير أبو زيد على مبادرة ثغره ودار إمارته يعني قسنطينة . وزغب إليه أبو العباس بن مكّي وأولاد مهلهل أن يخلف بينهم من إخوانه من يجتمعون إليه ويزاحفون به ، فولّى عليهم أخاه العباس فبايعوه ، وأقام فيهم هو وشقيقه أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما نذكر ، وانصرف الأمير أبو زيد عند ذلك من قفصة يغدّ السير إلى قسنطينة واحتل بها في جمادى من سته والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن وفادة صاحب بجاية على أبي عنان واستيلائه عليه وعلى بلده ومطلبه قسنطينة) *

كان بين الأمير أبي عبدالله صاحب بجاية وبين الأمير أبي عنان أيام إمارته بتلمسان ، ونزول الأعياص الحفصيين بندرومة وجدة أيام أبيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة ، أحكمها بينهما نسب للشباب والملك وسابقة الصهر ، فكان الأمير أبو عبدالله من أجل ذلك صاغية إلى بني مرين أوجد بها السبيل على ملكه . ولما مرّ السلطان أبو الحسن في أسطوله عند ارتحاله من تونس كما قدّمناه أمر أهل سواحله بمنعه الماء والأقوات من سائر جهاتها رعيّاً للذمة التي اعتقدها مع الأمير أبي عنان في شأنه وجنوحاً إلى تشييع سلطانه . ولما أوقع السلطان أبو عنان ببني عبد الواد سنة ثلاث وخمسين وسبعائة واستولى على المغرب الأوسط ونجا فلّهم إلى بجاية أوعز إلى الأمير أبي

عبدالله باعتراضهم في جهاته والتقبض عليهم فأجابه إلى ذلك ، وبعث العيون بالمراسد فعثروا في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن ، وعلى أخيه أبي ثابت الزعيم بن عبد الرحمن وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن سليمان فأوثقوهم اعتقالاً ، وبعث بهم إلى السلطان أبي عَنان. ثم جاء على أثرهم فتلقاه بالقبول والتكرمة وأنزله بأحسن نزل . ثم دس إليه من أغراه بالنزول له عن بجاية رغبة فيما عند السلطان إزاء ذلك من التجلة والادالة عنها بمكناسة المغرب ، الراحة من زبون الجند والبطانة ، وأخفافا مما سواه إن لم يعتمده فأجاب إليه على اليأس والكره ، وشهد مجلس السلطان والملا من بني مرين بالرغبة في ذلك ، فأسعف وانيفت^(١) جائزته ، واقتطعت له مكناسة من أعمال المغرب . ثم انتزعها لأيام قلائل ونقله في جملته إلى المغرب ، وبعث الأمير أبو عَنان مولاه فارحاً المستبد عليه ليأتيه بأهله وولده ، وعقد أبو عَنان على بجاية لعمر بن علي ابن الوزير من بني واطاس ، وهم يتسبون بزعمهم إلى علي بن يوسف أمير لمتونة فاخصه أبو عَنان بولايتها لِمَتَانَة هذا النسب الصنهاجي بينه وبين أهل وطنها منهم . وانصرفوا جميعاً من المريّة . ولما احتلوا بجاية تأمر أولياء الدعوة الحفصية ومن بها من صنهاجة والموالي وهجست^(٢) رجالاتهم في قتل عمر بن علي الوزير وأشياخ بني مرين ، وتصدّى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن ابراهيم بن الحاج في رجالات من قومه باملاء فارح كما زعموا . وغدوا عليه في داره من القصبة فأكبّ عليه منصور يناجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضي ابن مركان^(٣) بما كان شيعة لبني مرين . ثم أجهزوا على عمر بن علي ومضى القاضي إلى داره فمات .

واتصلت الهبة بفارح فركب إليه وهتف الهاتف بدعوة صاحب قسنطينة المولى أبي زيد ، وطيروا إليه بالخبر واستحثّوه للقدوم . وأقاموا على ذلك أياماً ثم تأمر الملا من أهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفاً من بواده فثاروا بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وبعثوا برأسه إلى السلطان بتلمسان . وتولى كبر ذلك هلال صاحبه من موالي ابن سيّد الناس ومحمد بن الحاجب أبي عبدالله بن

(١) وفي نسخة ثانية : واسنيت .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى تمتش .

(٣) وفي نسخة أخرى : ابن فركان .

سيّد الناس ومشیخة البلد ، واستقدموا العامل حواس^(١) من بني مرين وهو يحيى بن عمر بن عبد المؤمن من بني ونكاس فبادر اليهم . وسرّح السلطان أبو عئان إليها حاجبه أبا عبدالله محمد بن أبي عمر في الكتائب فدخلها فاتح أربع وخمسين وسبعائة وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق كبارهم وذوو الفعلة منه بتونس ، وتقبّض على هلال مولى ابن سيّد الناس لما داخلته فيه من الظنة ، وعلى القاضي محمد بن عمر لما كان شيعة لفارح ، وعلى زعماء^(٢) الغوغاء من أهل المدينة وأشخصهم معتقلين إلى المغرب . وصرف نظره إلى تمهيد الوطن واستدعى كبراء العرب وأهل النواحي من أعمال بجاية وقسنطينة .

ووفد عليه يوسف بن مَزْنِي صاحب الزاب ومشیخة الزاودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة ، وقفل بهم إلى المغرب . واستعمل أبو عئان على بجاية موسى بن ابراهيم اليرنياني من طبقة الوزراء وبعثه إليها . ولما وفدوا على السلطان جلس جلوساً فخماً ، ووصلوا إليه ولقاهم تكربة ومبرمة ، وأوسعهم حياءً واقطاعاً وأنفذ لهم الصكوك والسجلات وأخذ على طاعتهم العهود والمواثيق والرهن وانقلبوا إلى أهلهم وعقد لحاجبه ابن أبي عمر وعلى بجاية وأعمالها وعلى حرب قسنطينة من ورائها ، ورجّعه إليها فدخلها في رجب من سنته .

وأوعز السلطان إلى موسى بن ابراهيم بالولاية على سدويكش والتزول ببني ياورار في كتيبة جهّزها هنالك لمضايقة قسنطينة وجباية وطنها ، وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية ، وكان بقسنطينة أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلاً من لدن واقعة بني مرين بها . وكان موسوساً في عقله معروفاً بالحنون عند قومه . وكان الأمراء بقسنطينة قد أسنوا جريته في اعتقاله وأولوه من المبرّة والكفاية كفاء نسبه^(٣) . فلما زحف كتائب بني مرين إلى بني ياورار آخر عمل بجاية ودانوا قسنطينة ومن بها من الحروب والحصار ، نصب المولى أبو زيد هذا الموسوس أبا عمر ليجأجيء به رجالات بني مرين أهل العسكر ببجاية وبني ياورار ، وجهّز له الآلة ، وتسامعوا بذلك ففرّج إليهم الكثير منهم . وخرج نبيل حاجب الأمير أبي زيد إلى أهل صنهاجة من بونة

(١) وفي نسخة أخرى : بتونس .

(٢) وفي نسخة أخرى : عرفاء .

(٣) وفي نسخة أخرى : من المبرّة والحفاوه كفاء نفسه .

ومن كان على دعوته من سدويكش والزواودة فجمعهم وزحفوا جميعاً الى وطن بجاية ، واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الزواودة من مشاتهم بالصحراء فأقبلوا إليه حتى نزلوا التلول . ووفد عليه أبو دينار بن علي بن أحمد واستحثه للحركة على قسنطينة فاعترض عساكره وأزاح عنهم ، وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين وسبعمائة فكرّ أبو عمر ومن معه راجعين إلى قسنطينة . وزحف الحاجب فيمنّ معه من بني مرين والزواودة وسدويكش ، ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة . واكتسحت أموال بونة ، ورجع ابن أبي عمر بعساكره إلى قسنطينة فأناخ عليها سبعاً . ثم ارتحل عنها إلى ميلة ، وعقد يعقوب بن علي بين الفريقين صلحاً على أن يملكوه من أبي عمر الموسوس ، فبعثوا به إلى أخيه السلطان أبي عَنان فَأَنزَلَهُ ببعض الحجر ، ورتب عليه الحرس . وسار الحاجب في نواحي أعماله وانتهى إلى المسيلة واقتضى مغارمها ، ثم انكفأ راجعاً إلى بجاية وهلك فاتح سنة ست وخمسين وسبعمائة وعقد السلطان على بجاية وأعمالها بعده لوزيره عبدالله بن علي بن سعيد من بني بابان^(١) وسرّحه إليها فدخلها ، وزحف إلى قسنطينة فحاصرها وامتنعت عليه فرجع إلى بجاية . ثم زحف من العام المقبل سنة سبع وخمسين وسبعمائة كذلك ونصب عليها المجانيق فامتنعت عليه وأرجف في عسكره بموت السلطان فانفضوا وأحرق مجانيقه . ورجع الى بجاية جمرّ الكتائب ببني ياورار لنظر موسى بن ابراهيم اليرنياني عامل سدويكش إلى أن كان من الإيقاع به وبعسكره ما ذكره إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم رجوعها الى ابن مكى) *

كانت طرابلس هذه ثغراً منذ الدول القديمة وكانت لهم عناية بجبايتها لما كان وضعها في البسيط ، وكانت ضواحيها قفراً من القبائل فكان النصارى أهل صقلية كثيراً ما يحدّثون أنفسهم بملكها . وكان ميحاييل الأنطاكي صاحب أسطول رجّار قد تملكها

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بابان .

من أيدي بني حزروق^(١) من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما ذكرنا . ثم رجّعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحّدين ومّرت عليها الأيام إلى أن استبدّ بها ابن ثابت وولّيا من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعائة منقطعاً عن الحضرة ومقيماً رسم الدعوة . وكان تجار الجنوبيين يتردّدون إليها فاطلعوا على عوراتها واثتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين وانتشروا بالبلد في حاجاتهم ثم بيّتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم . وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبّوا من مضاجعهم ، فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همّهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبّوا من مضاجعهم ، فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همّهم إلا النجاة بأنفسهم . ونجا ثابت بن محمد مقدّمهم إلى حلّة الجوار في أعراب وطنها من دباب إحدى بطون بني سلّيم ، فقتل لدم كان أصابه منهم . ولحق أخويه بالإسكندرية ، واستباحها النصارى ، واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخريّ والمتاع والعقائل والأسرى وأقاموا بها . وداخلهم أبو العباس بن مكي صاحب قابس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألفاً من الذهب العين ، فبعث فيها للملك المغرب السلطان أبي عَنان يطرفه بمثوبتها . ثم تعجّلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحامّة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير . وأمّكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها وأزال ما دسّسها من ضرر الكفر . وبعث السلطان أبو عَنان بالمال إليه . وأن يرّد على الناس ما أعطوه وينفرد بمثوبتها وذكراها فامتنعوا إلا قليلاً منهم ، ووضع المال عند ابن مكي لذلك ، ولم يزل ابن مكي أميراً عليها إلى أن هلك كما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيدة بقسنطينة) *

كان الأمير أبو زيد قد ولي الأمر من بعد أبيه الأمير أبي عبدالله بولاية جدّه الخليفة أبي بكر ، وكان إخوته جميعاً في جملته ، ومنهم السلطان أبو العباس أمير المؤمنين لهذا

(١٦) وفي نسخة ثانية خيزرون واسمه الصحيح خزرون (قبائل المغرب ص ١٦٦) .

العهد، والمنفرد بالدعوة الحفصية من لندن مهلك أبيهم يرون أن الوراثة لهم، وإن الأمر فيهم حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الولي أبي هادي المشهور الذكر، وكان من أهل المكاشفة، أنه قال ذات يوم وقد جاؤا لزيارته بأجمعهم على طريقهم وسنن أسلافهم في التبرك بالأولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء الله ثم قال: البركة إن شاء الله في هذا العرش، وأشار إلى الإخوة مجتمعين، وكان الحذاق^(١) والمنجمون أيضاً يخبرون بمثلها، ويحومون بوظنهم على أبي العباس منهم لما يتفرسون فيه من الشواهد والمخايل. فلما كان من منازل أخيه أبي زيد بتونس سنة ثلاث وخمسين وسبعائة ما قدّمناه، ثم ارتحل عنها إلى نفطة وأراد الرجوع إلى قسنطينة للارجاف بسائل^(٢) السلطان أبا عثمان وأنه زحف إلى آخر عمله من تخوم بجاية، رغب إليه حينئذ أولاد مهلهل أولياؤه من العرب وشيعته حاجبه أبو العباس بن مكّي صاحب عمل قابس وجربة أن يستعمل عليهم من إخوته من يقيم معهم لمعاودة تونس بالحصار، فسرّح أخاه مولانا أبا العباس فتخلف معهم لذلك وفي جملة شقيقه أبو يحيى فأقاما بقابس.

وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث أسطوله لحصار جربة فدخل الأمير أبو العباس بمن معه الجزيرة وخاضوا إليها البحر فأجفل عسكر ابن ثابت وأفرجوا عن الحصن. ثم رجع السلطان إلى قابس وزحف العرب أولاد مهلهل إلى تونس وحاصروها أياماً فامتنعت عليهم. ورجع إلى أعمال الجريد وأوفد أخاه أبا يحيى زكريا على السلطان صريخاً سنة خمس وخمسين وسبعائة فلقاه مبرّة ورحباً، وأسنى جائزته وأحسن وعده وانكفأ راجعاً عنه إلى وطنه، ومرّ بالحاجب أبي عمر عند إفراجه عن قسنطينة، ولحق بأخيه بمكانه من قاصية أفريقية واتصلت أيديهما على طلب حقها. وفي خلال ذلك فسد ما بين أبي محمد بن تافراكين صاحب الأمر بتونس وبين خالد ابن حمزة كبير أولاد أبي الليل فعدل عنه إلى أقتاله وأولاد مهلهل، واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا عليه. وتخيّر خالد إلى السلطان أبي العباس وزحفوا معه إلى تونس فنازلوها سنة ست وخمسين وسبعائة وامتنعت عليهم وأفرجوا عنها واستقدمه أخوه أبو زيد إثر ذلك لينصره من عساكر بني مرين عند ما تكاثفوا عليه، وضاق به الحصار

(١) وفي نسخة أخرى: الحزى جمع حازي وهو الذي يزجر الطير ليتكهن.

(٢) وفي نسخة أخرى: بشأن.

واستخلف على قسنطينة أخاه أبا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها ، وأقام بها مدة وعساكر بني مرين قد ملأت عليه الضاحية فدعاه الأولياء إلى الاستبداد وأنه أبلغ في المدافعة والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر إليهم من بجاية ، فأجاب وبوع شهر^(١) من سنة ست وخمسين ، وانعقد أمره . وزحف عبدالله بن عليّ صاحب بجاية إلى قسنطينة من سسته ، وفي سنة سبع بعدها فحاصرها ونصب الجانيق . ثم أجفل آخر الأرجاف كما ذكرناه . وتنفس محقق الحصار عن قسنطينة ، وكان الأمير أبو زيد أخوه لما ذهب مع خالد إلى تونس ونازلها امتنعت عليه ، ورجع وقد استبد أخوه بأمر قسنطينة فعدل إلى بونة وراسل أبا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والتزول لهم عن بونة فأجابه ونزل عنها الأمير أبو زيد لعمه السلطان أبي اسحق . وتحول إلى تونس فأوسعوا له المنازل وأسنوا الجرايات والجوائز ، وأقام في كفالة عمه إلى أن كان من أمره ما نذكره والله أعلم .

* (الخبر عن واقعة موسى بن ابراهيم واستيلاء أبي عنان بعد على قسنطينة وما تحلل ذلك من الأحداث) *

لما استبد السلطان أبو العباس بالأمر وزحفت إليه عساكر بجاية وبني مرين ، فأحسن دفاعها عن بلده . وتبين لأهل الضاحية مخايل الظهور فيه فدخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن إبراهيم وكتائبه المحمّرة ببني ياورار ، ودعوا إلى ذلك ميمون بن عليّ بن أحمد وكان منحرفاً عن أخيه يعقوب ظهير بني مرين ومناصحبهم فأجاب . وسرح السلطان أخاه أبا يحيى زكريا بينهم بمن في جملته من العساكر وصحبهم في غارة شعواء ، فلما شارفهم ركبوا إليهم فتقدموا ثم أحجموا واختلّ مصافهم وأحيط بهم وأثنى قائد العسكر موسى بن إبراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيّان وأبو القاسم ومن إليهم وكانوا أسود هياج وفرسان ملحمة

(١) يياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذا الشهر في المراجع التي بين أيدينا . وفي نسخة أخرى سنة خمس وخمسين .

في آخرين من أمثالهم وتبعوا بالقتل والنهب إلى أن استبيحوا ونجا فلهم إلى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عَنان . ولما بلغه الخبر قام في ركائبه وقعد وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات .

وأعدّ من الجنود وأزاح العلل وشكا له موسى بن إبراهيم قعود عبد الله بن علي صاحب بجاية عن نصره فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود ، وتلّوم بعده أشهراً في تجهيز العساكر ، وبعث السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى إلى تونس صريحاً لعمّه السلطان أبي إسحق فأعجله الأمر عن الإياب إليه ، وارتحل أبو عَنان في عساكره . ثم بعث في مقدّمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار ، وزحف على أثره في ربيع سنة ثمان وخمسين وسبعائة ، وأغذّ السير إلى قسنطينة وقد نازها وزيره ابن ودرار قبله . فلما نزل بساحتها وقد طبّقوا الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وجم أهل البلد ، وأدركهم الدهش فانفضوا وتسَلّوا إليه . وتخيّر السلطان أبو العباس إلى القصبه فامتنع بها حتى توثّق لنفسه بالعهد . ثم نزل إليه فلقاه تكرمة ورحباً واسنى له الفساطيط في جواره . ثم بدا له لأيام قلائل فنقض عهده وأركبه السفن إلى المغرب ، وأنزله بسبّية ورَتّب عليه الحرس ، وبعث خلال ذلك إلى بونة فدخلت في طاعته ، وفرّ عنها عمّال الحضرة . ولما استولى عقد على قسنطينة لمنصور بن مخلوف شيخ بني بابان من قبيل^(١) بني مرين . ثم بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراكين في الأخذ بطاعته والتزول عن تونس فردّهم ، وأخرج سلطانه المولى أبا إسحق مع أولاد أبي الليل ومن إليهم من العرب بعد أن جهّز له العساكر وما يصلح من الآلة والجنّد ، وأقام هو بتونس وأجمع أبو عَنان النهوض إليه ، ووفد عليه أولاد مهلهل يستحثّونه لذلك ، فسرح معهم عسكرياً في البرّ لنظر يحيى بن رحوبن تاشفين معطي حشود بني^(٢) تيريين من قبائل بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه . وسرح عسكرياً آخر في الأسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر من الملوك بالأندلس لهذا العهد ، فسبق الأسطول وصباحوا تونس وقاتلوا يوماً أو بعض يوم ، وأتيح لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين ولحق بالمهدية ، واستولت عساكر بني مرين على تونس في رمضان سنة ثمان وخمسين وسبعائة وحقّ لهم الظهور فخرج

(١) وفي نسخة ثانية : من قبائل بني مرين .

(٢) وفي نسخة ثانية : يحيى بن رحوبن تاشفين بن معطي كبير تيريين .

عنها أبو محمد بن تافراكين ، ولحق يحيى بن رحو بعسكره فدخل البلد وأمضى فيها أوامر السلطان . ثم دعاه أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغثة أولاد أبي الليل وسلطانهم فخرج معهم لذلك ، وأقام ابن الأحمر وأهل الأسطول بالبلد في خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبين من نكر السلطان أبي عتّان وإرهاق حدّه للعرب ، ومطالبتهم بالرهن ، وقبض أيديهم عن الأتاوات ومسح أعطافه بالمدارة فلم يقبلها ، فلحق يعقوب بالرمل ، واتّبعه السلطان فأعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالبلد والصحرَاء فخرّبها وانتسفها .

ثم رجع إلى قسنطينة وارتحل منها يريد أفريقية وقد نهض المولى أبو اسحق بمن معه من العرب للقاءه ، وانتهوا إلى حصن سبتة . ثم تمشت رجالات بني مرين واثمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بأفريقية ما أصابهم من قبل ، فانفضوا متسللين إلى المغرب . ولما خفّ المعسكر من أهله أقصر عن القدوم إلى أفريقية فرجع إلى المغرب بمن بقي معه ، واتبع العرب آثاره ، وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراكين بمكان منجّاته من المهديّة فسار إلى تونس . ولما أطلّ عليها ثار أهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعمّالهم ، فنجوا إلى الأسطول ودخل أبو محمد بن تافراكين إلى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة . ولحق به السلطان أبو إسحق بعد أن تقدّم الأمير أبو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسنطينة ، فاتبعهم إلى تخوم عملهم ورجع أبو زيد إلى قسنطينة وقاتلها أياماً فامتنعت عليه فانكفأ راجعاً إلى الحضرة . ولم يزل مقيماً بها إلى أن هلك عفا الله عنه وعنا آمين سنة (١)

وكان أخوه يحيى بن زكريا قد لحق بتونس من قبل صريحاً كما قلناه ، فلما بلغهم أنّ قسنطينة قد أحيط بها تمسكوا به فلحق به الفلّ من مواليم وصنائعهم فكانوا معه إلى أن يسّر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين ، وأعاد السلطان أبا العبّاس إلى الأمر من بعد مهلك أبي عتّان كما يذكر ومدّ إياته على الخلق فطلع على الرعايا بالعدل والأمان وشمول العافية والإحسان ، وكفّ أيدي العدوان ورفع الناس والدولة في ظلّ ظليل ومرعى جميل كما نذكر إن شاء الله .

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد سنة وفاته في المراجع التي بين أيدينا .

* (الخبر عن انتقاض الامير أبي يحيى زكريا بالمهدية ودخوله في دولة أبي عنان ثم نزوله عنها الى الطاعة وتصاريه ذلك) *

كان الحاجب أبو محمد عند رجوعه إلى الحضرة صرف عنايته إلى تحصين المهدية بعدها للدولة وزراً من حادث ما يتوقعه من المغرب وأهله ، فشيّد من أسوارها وشحن بالآفات والأسلحة مخازنها ومستودعاتها ، وكان أحمد بن خلف من أوليائه وذويه مستبداً عليه فأقام على ذلك حولاً أو بعضه . ثم سجن الأمير أبو يحيى زكريا من الاستبداد عليه واستنكف من حجره في سلطانه فوثب به ^(١) أحمد بن خلف فقتله ، وبعث عن أبي العباس أحمد بن مكّي صاحب جربة وقابس ليقم له رسم الحجابة لما كان مناوئاً لأبي محمد بن تافراكين كافلة فوصل إليه ، وطبّروا بالخبر إلى السلطان أبي عنان صاحب المغرب وبعثوا إليه ببيعتهم واستحثّوه لصريخهم . وأضطراب أمرهم وسرّح أبو محمد بن تافراكين إليها العسكر واستعمل عليها أبو محمد بن تافراكين يحيى زكريا بقابس ، واستولى عليها العسكر واستعمل عليها أبو محمد بن تافراكين محمد بن الحكجك من قرابة ابن ثابت ، اصطنعه عندما وقعت الحادثة على طرابلس ، ولحق به فاستعمله على المهدية . ولما وصل الخبر إلى أبي عنان بشأن المهدية جهّز إليها الأسطول وشحنه بالمقاتلة والرجال ، وعيّن الموالي والخاصة فألفوها وقد رجعت إلى إيالة الحضرة ، ووصل إليها ابن الحكجك وأقام بها وحسن غناؤه فيها إلى أن كان من أمره ما نذكر .

وأقام الأمير زكريا بقابس ، وأجلب به أبو العباس بن مكّي على تونس . ثم بعثوه بالزواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في ابنة أخيه سعيد ، فعقد له عليها . ولما استولى أخوه أبو اسحق على بجاية استعمله على سدويكش بعض الأعوام ، ولم يزل بين الزواودة إلى أن هلك سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكره بعد والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى فييت .

* (الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحق على بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها) *

لما رجع السلطان أبو عَنان من قسنطينة إلى المغرب أراح بسبته^(١) ، وسرّح عساكره من العام المقبل إلى أفريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسنطينة ومعه ميمون بن علي بن أحمد ادبل من يعقوب على قومه من الزواودة ، وعثمان بن يوسف ابن سليمان شيخ أولاد سَبَاع منهم . وحضر معهم يوسف بن مزني عامل الزاب ، وأوعز إليه السلطان بذلك فدوَّخ الجهات وانتهى إلى آخر وطن بونة ، واقتضى المغارم . ثم انكفأ راجعاً إلى المغرب وهلك السلطان أبو عَنان إثر قفوله سنة تسع وخمسين وسبعائة واضطرب المغرب ثم استقام على طاعة أخيه السلطان أبي سالم كما نذكره . وكان أهل بجاية قد نعموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عَنان سوء ملكته وشدة سطوته وعسفه فدخلوا أبا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به ، فجهّز إليهم السلطان أبو اسحق ما يحتاج إليه من العساكر والآلة ، ونهض من تونس ومعه ابنه أبو عبدالله على العساكر . وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على أمرهم وسار أخوه أبو دينار في جملتهم . ولما أطلق على بجاية ثارت الغوغاء بيحيى بن ميمون العامل ، كان عليهم منذ عهد السلطان أبي عَنان ، فألقى بيده وتقبّض عليه وعلى من كان من قومه ، وأركبوا السفين إلى الحضرة ، وأودعهم أبو محمد بن تافراكين سجونته تحت كرامة وجراية إلى أن منّ عليهم من بعد ذلك وأطلقهم إلى المغرب . ودخل السلطان أبو إسحق إلى بجاية سنة إحدى وستين وسبعائة واستبد بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله أبو محمد يدبر أمره من الحضرة . ثم استقدم ابنه ونصب لوزارة السلطان أبي محمد عبد الواحد بن محمد بن أكمازير من مشيخة الموحّدين فكان يقيم له رسم الحجابة . وقام بأمر الرجل بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعافنة بجاية وأوغادها ، التفت عليه الثوار^(٢) والدغار وأصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : أراح بسبته .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : الشرار .

* (الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي إسحق صاحب الحضرة) *

هذه الجزيرة من جزر هذا البحر الذي هو قريب^(١) من قابس إلى الشرق عنها قليلاً طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً ، وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلاً . ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً ، وبين فرضتها في ناحية الغرب^(٢) ستون ميلاً . وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب ، واختصت بالنسيج^(٣) وعمل الصوف للباسهم فيتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتال . وغير المعلمة للباس . ويحب منها إلى الأقطار فيتقيها الناس للباسهم . وأهلها من البربر من كتامة وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم ، وفيهم أيضاً من نغزة وهوارة وسائر شعوب البربر . وكانوا قديماً على رأي الخوارج ، وبقي بها إلى الآن فريقان منهم الوهبة وهم بالناحية الغربية ، ورياستهم لبني سمر من^(٤) ، والنكارة وهم بالناحية الشرقية ، وجربة فاصلة بينهما . والظهور والرياسة على الكل لبني النجار من الأنصار من جند مِصْرَ ، ولآه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا أفريقية وفتح جربة سنة سبع وأربعين بعدها ، وشهد الفتح حسين بن عبدالله الصنعائي ورجع إلى بَرْقَة فمات بها . ولم تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به . ولما كان شأن أبي زيد سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فأخذوا بدعوته بعد أن دخلها عنوة ، وقتل مقدمها يومئذ ابن كلوس^(٥) وصلبه .

ثم استردّها المنصور بن اسمعيل ، وقتل أصحاب أبي زيد^(٦) . ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في إنشاء الأساطيل وغزوا الساحل . ثم غزاهم علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس سنة تسع وخمسمائة

(١) وفي نسخة أخرى : الذي يمر قريباً من قابس .

(٢) وفي نسخة ثانية : وبينها وبين قرقنه في ناحية المغرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : بالتفاح .

(٤) وفي نسخة ثانية : سموم .

(٥) كذا في النسخة الباريسية ، وفي نسخة أخرى : ابن كلدين وفي نسخة ثانية : ابن الدين .

(٦) وفي نسخة ثانية : ابن يزيد .

بأساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلاح الحال . ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخمسمائة عند تغلبهم على سواحل أفريقية . ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ثم غلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل العلم ^(١) . ثم عادت للمسلمين ولم تزل مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها الموحدون أيام عبد المؤمن بن علي . واستقام أمرها إلى أن استبد أمراء بني حفص بأفريقية . ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحق بالناحية الغربية ، وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه ، فتغلب على هذه الجزيرة أهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوا بها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج ، وبين كل ركنين برج . ويحاوره خفير وسوران . وأهم المسلمين شأنها ، ولم تزل عساكر الحضرة تتردد إليها كما تقدم إلى أن كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد مخلوف بن الكماد من بطانته سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة واستضافها ابن مكى صاحب قابس إلى عمله فأضافها إليه ، وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده .

واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكى ، وبعث الحاجب أبو محمد ابن تافراكين عن أبيه أبي عبدالله ، وكان في جملة السلطان ببجاية كما قلناه . ولما وصل إليه سرحه في العساكر لحصار جربة وكان أهلها قد نعموا على ابن مكى سيرته فيهم ودسوا إلى أبي محمد بن تافراكين بذلك فسرّح إليه ابنه في العساكر سنة ثلاث وستين وسبعمائة وكان أحمد بن مكى غائباً بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى ، وجعلها داراً لإمارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبدالله ابن الحاجب أبي محمد ، ونزلوا في الأسطول فطلعوا بالجزيرة ^(٢) وضايقوا القشتيل بالحصار إلى أن غلبوا عليه وملكوه . وأقاموا به دعوة صاحب الحضرة . واستعمل عليه أبو عبدالله ابن تافراكين كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون ، كان من صنائع الدولة منذ العهد الأول ، وكانت لأبيه قرابة من أبي عبد العزيز الحاجب ترقى بها إلى ولاية الأشغال بتونس مناهضاً لأبي القاسم بن طاهر الذي كان يتولاها يومئذ ، فكان رديفه عليها إلى أن هلك ابن طاهر فاستبد هو بها منذ أيام الحاجب أبي محمد

(١) وفي نسخة ثانية : أهل الفلح .

(٢) وفي نسخة أخرى : ونهض الأسطول في البحر فزلوا بالجزيرة وضايقوا القشتيل .

واتصل ابنه محمد هذا بخدمة ابن الحاجب واختص بكاتبه إلى أن استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة ، وانكفاً راجعاً إلى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون والياً عليها . ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وقرار يده^(١) على السلطان إلى أن غلبه عليها السلطان أبو العباس سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما ذكره إن شاء الله .

* (الخبر عن دعوة الامراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس على قسنطينة) *

لما هلك السلطان أبو عتّان قام بأمره من بعده وزيره الحسن بن عمر ، ونصب ابنه محمد السعيد للأمر كما ذكره في أخباره . وكان يضطغن للأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فقبض عليه لأول أمره واعتقله حذراً من وثوبه على عمله فيما زعموا . وكان السلطان أبو العباس بسبب منذ أنزله السلطان أبو عتّان بها ، وربّ عليه الحرس كما ذكرنا فلما انتزى على الملك المنصور بن سليمان من أعياص ملكهم ، ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سبتة فنهض إليه . وانتهى في طريقه إلى طنجة ووافق في ذلك إجازة السلطان أبي سالم من الأندلس لطلب ملكه . وكان أول ما استولى عليه من أعمال المغرب طنجة وسبتة فاتصل به السلطان أبو العباس وظهره على أمره إلى أن نزع إليه قبيلة بني مرين عن منصور بن سليمان المتري على ملكهم فاستوسق أمره واستثبت سلطانه به ودخل فاس وسرح الأمير أبا عبد الله من اعتقال الحسن بن عمر كما قدّمناه . ورعى للسلطان أبي العباس ذمة سوابقه القديمة والحادثة فرفع مجلسه وأسنى جريته ، ووعد بالظاهرة على أمره ، واستقروا جميعاً إلى إيلائه إلى أن كان من تغلب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب الأوسط ما ذكره في أخبارهم . واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون ورجالات قبيلهم ، فامتعض لذلك وحين قفل إلى المغرب نفّض يده من الأعمال الشرقية ونزل للسلطان أبي

(١) وفي نسخة ثانية : وفرار ابنه من السلطان .

العبّاس عن قسنطينة دار إمارته ومثوى عزّه ومنبت ملكه ، فأوغز إلى عاملها منصور ابن مخلوف بالتزول له عنها وسرّحه إليها وسرّح معه الأمير أبا عبدالله ابن عمّه لطلب حقّه في بجاية ، والاجلاب على عمّه السلطان عبد الحق جزاءً بما نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرّة . وارتحلوا من تلمسان في جمادي من سنة إحدى وستين وسبعائة وأغذوا السير إلى مواطنهم . فأما السلطان أبو العباس فوقف منصور بن خلوف عامل البلد على خطاب سلطانه بالتزول عن قسنطينة فترّل وأسلمها إليه ، وأمكنه منها فدخلها شهر رمضان سنة إحدى وستين وسبعائة واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدأ سلطانه ومظهرأ لسعادته ومطلعاً لدولته على ما نذكر بعد . وأما الأمير أبو عبدالله صاحب بجاية فلحق بأوّل وطنها ، واجتمع إليه أولاد سبّاع أهل ضاحيتها وقفرها من الزواودة . ثم زحف إليها فنازلها أياماً وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بني ياورار ، واستخدم أولاد محمد بن يوسف والعزير بين أهل ضاحيتها من سدويكش . ثم نزعوا عنه إلى خدمة عمّه ببجاية فخرج إلى القفر مع الزواودة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وصول الامير أبي يحيى زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها) *

كان الأمير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه أبو العبّاس إلى عمّه السلطان أبي إسحق صريحاً لم يزل مقيماً بتونس ، وبلغه استيلاء السلطان أبي عنّان على قسنطينة وهو بتونس ثم لما كانت عودة مولانا أبي العبّاس من المغرب واستيلائه على قسنطينة فخشى الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته ، وتوقع زحفه إليها ^(١) وغلبه إياه على الأمر . ورأى أن يخفض ^(٢) جناحه في أخيه ، ويتوثّق به فاعتقله بالقصبة تحت كرامه ورعي ، وبعث فيه السلطان أبو الحسن بعد مراوضة في السلم فأطلقه وانعقد بينها السلم . ولما وصل الأمير أبو يحيى ابن أخيه بقسنطينة عقد له عن العساكر

(١) وفي نسخة ثانية : إليه .

(٢) وفي نسخة ثانية : يحصر .

وأصاروها نجماً لعمله واستمرت حالها على ذلك إلى أن كان من أمرها ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبدالله على بجاية ثم على تدلس بعدها) *

لما قدم السلطان أبو عبدالله من المغرب ونازل بجاية فامتنعت عليه خرج إلى أحياء العرب كما قدمناه ولزم صحابته أولاد يحيى بن علي بن سباع بعد توالي الوفاء بها^(١) وأقام بين ظهرانهم وفي حللهم ومتعهداً في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف وتكفلوا ، نفقة عياله ومؤنة حشمه وأنزلوه بتلك المسيلة من أوطانهم ، وتجاؤا له عن جبايتها^(٢) وأقام على ذلك سنين خمساً ينازل بجاية في كل سنة منها مراراً ، وتحول في السنة الخامسة عنهم إلى أولاد علي بن أحمد ، ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقره من بلاده إلى أن بدا لعمه المولى أبي إسحق رأيته في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك حاجبه وكافله أبي محمد بن تافراكين ، أسره إليه بعض الجند فحذره مغيبته ووقع من ذلك في نفوس أهل بجاية انحراف عنه وخرج أمره^(٣) وراسلوا أميرهم الأقدم أبا عبدالله من مكانه بمقره وظاهره على ذلك يعقوب بن علي وأخذ له العهد على رجالات سدويكش أهل الضاحية ، وارتحلوا معه إلى بجاية ونازلها أياماً . ثم استيقن الغوغاء اعتزام سلطانهم على التقويض عنهم ، وشتموا ملكة علي بن صالح الذي كان عريفاً عليهم فثاروا به ونبذوا عهده وانفضوا من حوله إلى الأمير أبي عبدالله بالحرسة من ساحة البلد . ثم قاد إليه عمه أبا إسحق فرّ عليه وخلص سبيله إلى حضرته فلحق بها واستولى أبو عبدالله على بجاية محل إمارته في رمضان سنة خمس وستين وسبعائة وتقبّض على علي بن أبي صالح^(٤) ومن معه من عرفاء الغوغاء أهل الفتنة فاستصفى أموالهم ، ثم أمضى حكم الله في قتلهم . ثم نهض إلى تدلس

(١) وفي نسخة ثانية : فغربوا في الوفاء بها .

(٢) وفي نسخة ثانية : جبايتهم .

(٣) وفي نسخة أخرى : ومرج أمرهم .

(٤) وفي نسخة أخرى : علي بن صالح .

لشهرين من مملكة بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بني عبد الواد ، ومن أعياص قبيلهم ، وتملكها في آخر سنة خمس وستين وسبعائة . وبعث عني من الأندلس وكنت مقيماً بها نزيراً عند السلطان أبي عبد الله بن أبي الحاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطوعة تغلب منذ مهلك السلطان أبي سالم الجاذب بضبعي إلى تقويمه ، والترقي في ^(١) في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها . فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبد الله بادرت إلى امثاله «ولو شاء ربك ما فعلوه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير» فاجزت البحر شهر جمادى من سنة ست وخمسين وسبعائة وقلدني حجابته ، ودفع إليّ أمور مملكته . وقت في ذلك المقام المحمود إلى أن يأذن الله بانقراض أمره ، وانقطاع دولته ، والله الخلق والأمر ، وييده تصارييف الأمور .

*** (الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين واستبداد سلطانه من بعده) ***

كان السلطان أبو اسحق آخر دولته ببجاية قد تحيّن مهلك حاجبه المستبدّ عليه أبي محمد بن تافراكين لما كان أهل صنهاجة أهل التنجيم يحدثونه بذلك ، فأجمع الرحلة إليها ، وانفض عنه أهل بجاية إلى ابن أخيه كما قدّمناه . واستولى عليه ثم أطلقه إلى حضرته فلحق بها في رمضان سنة خمس وستين وسبعائة وتلقاه أبو محمد بن تافراكين ورآه مرهف الحدّ للاستبداد الذي لفّه ببجاية فكابله بصاع الوفاق ، وصارفه نقد المصانعة ، وازدلف بأنواع القربات . وقاد إليه النجائب ومنحه الذخائر والأموال وتجافى له عن النظر في الجباية . ثم أصهر إليه السلطان في كريمته فعقد له عليها وأعرس السلطان بها . ثم كان مهلكه عقب ذلك فاتح ست وستين وسبعائة فوجم السلطان لتعبه وشهد جنازته حتى وضع في لحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلم ازاء داره جوفي المدينة . وقام على قبره باكباً وحاشيته يتناولون التراب حثياً على جدته فقرن ^(٢) في الوفاء معه ما تحدّث به الناس واستبدّ من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه .

(١) وفي نسخة أخرى : تنويه ، والراقي بي في خطط .

(٢) وفي نسخة أخرى : فخر .

وكان أبو عبد الله الحاجب^(١) غائباً عن الحضرة وخرج منها بالعسكر للجباية والتمهيد فلما بلغه خبر مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر إلى الحضرة ، وارتفع مع حكيم من بني سُلَيْم ، وعرض نفسه على معاقل أفريقية التي كان يظن أنها خالصة لهم . فصده محمد بن أبي العيون كاتبه عن عزمه^(٢) ، فحمد الحكيم صنيعه وطاف بهم على المهديّة^(٣) . وبعث إليه السلطان بمارضيه من الأمان فاستصحب بعد النفور وبادر إلى الحضرة فتلقاها السلطان بالبر والترحيب ، وقلّده حجابته وأنزله على مراتب العزّ والتنويه والشرف . ونكر هو مباشرة السلطان للناس من رفعه للحجاب ، ولم يزل يريضة لما أُلّف من الاستبداد منذ عهد أبيه فأظلم الجوّ بينه وبين السلطان ودبّت عقارب السعاية لمهاده الوثير ، فتنكّر وخرج من تونس ولحق بقسنطينة ، ونزل بها على السلطان أبي العباس مرغباً له في ملك تونس ومستحيّاً فأنزله خير نزل ، ووعده بالنهوض معه إلى أفريقية بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمّه صاحبها من الفتنة كما نذكرها بعد . واستبدّ السلطان أبو اسحق بعد مفرّ ابن تافراكين عنه ، ونظر في أعطاف ملكه ، وعقد على حجابته لأحمد بن ابراهيم المالقي^(٤) مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمّال ، وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريحة من العلوجي ، ورفع الحجاب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جبايات الخراج وعرفاء الحشم ، وأوصلهم إلى نفسه وألغى الوسايط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على بجاية وملك

صاحبها ابن عمه) *

لما ملك الأمير أبو عبد الله بجاية واستقل بإمارتها تنكّر للرعيّة وساءت سيرته فيهم بإرهاق الحدّ للكافة وإسقاط الخاصّة ، فنقلت^(٥) الصدور ومرضت القلوب

(١) وفي النسخة البارسية : الحاجب لأبي محمد وفي نسخة أخرى : الحاجب ابن أبي محمد .

(٢) وفي نسخة أخرى : عن جربة .

(٣) وفي نسخة أخرى تختلف العبارة تماماً : ومحمد بن الحكجك ضيعتهم ويطانتهم عن المهديّة .

(٤) وفي نسخة أخرى : الياضي .

(٥) نقلت الصدور : أي ضغنت (قاموس) .

واستحكمت النفرة ، وتوجّهت الضاغية إلى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسطنطينة لما كان استفسد منه وأعلن بلذاته وأقوم على سلطانه . وكانت بينهما فتنة وحروب جرّتها المنافسة في تخوم العالتين منذ عهد الآباء . وكان السلطان أبو العباس أيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال مستقيم الطريقة في مثوى اغترابه . وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض التزعّات المعرّضة لصاحبها للامامة وسثقل نصيبته . وشغل بذلك ضميره فلما استولى على بجاية عاد إلى الفتنة فتنّبه ، وشمّر عزائمه لها فكان مغلباً فيها . واعتلق منه يعقوب بن علي بذمه في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه وراجع يعقوب سلطانه . ثم جهّز هو العساكر من بجاية لمزاحمة تخوم قسطنطينة وفيها مولانا أبو العباس فهض إليه ثانية بنفسه في العساكر ، وتراجع العرب من أولاد سبّاع بن يحيى وجمع هو أولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زنّانة ، والتقى الفريقان بناحية سطيف فاختلّ مصافّ أهل بجاية وانهمزوا ، واتبعهم السلطان أبو العباس إلى تاكرارت وجال في عمله ووطىء نواحي وطنه ، وقفل إلى بلده . ودخل الأمير أبو عبدالله إلى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين أهل بلده فدسّوا إلى السلطان أبي العباس بقسطنطينة بالقدوم عليهم ، فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين وسبعائة في عساكره وشيعته من الزاودة أولاد محمد ، وانضوى إليه أولاد سبّاع بشيعة بجاية بالجوار والسابقة القديمة لما نكروا من أحوال سلطانهم . وعسكر الأمير أبو عبدالله بلبزو في جمع قليل من الأولياء ، وأقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح ، فبيّته السلطان بمعسكره من لبزو ، وصبحه في غارة شعواء فانفضّ جمعه ، وأحيط به ، وانتهب المعسكر ، وفرّ إلى بجاية ، فأدرك في بعض الطريق وتقبّض عليه ، وقتل قعصاً بالرماح . وأغذ السلطان أبو العباس السير إلى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان من سنة سبع وستين وسبعائة وكنت بالبلد مقيماً فخرجت في الملاء وتلقاني بالمبرة والتنويه . وأشار إليّ بالاصطناع واستوسق له ملك جدّه الأمير أبي زكريا الأوسط في الثغور الغربية وأقمت في خدمته بعض شهر . ثم توخمت الحنقة في نفسي وأذنته في الانطلاق فأذن لي تكرّماً وفضلاً وسعة صدر ورحمة ، ونزلت على يعقوب بن عليّ ، ثم تحوّلت عنه إلى بسكرة ونزلت على ابن موسى إلى أن صفا الجوّ ، واستقبلت من أمري ما استدبرت واستأذنته لثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصه من شأنّي فأذن لي ، وقدمت

عليه فقابلتني وجوه عنايته ، وأشرقت عليّ أشعة نبعثته^(١) كما نذكر ذلك من بعد إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن زحف حمو وبني عبد الواد الى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها) *

كان الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين عمه السلطان أبي العباس مع ما كان بينه وبين بني عبد الواد من الفتنة عند غلبه إياهم على تدلس ، يكابد حمل العداوة من الجانبين ، وصفا إلى مهادنة بني عبد الواد فترل لهم عن تدلس ، وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها . وأوفد رسله على سلطانهم أبي حمو بتلمسان ، وأصهر إليه أبو حمو في ابنته فعقد له عليها وزفّها إليه بجهاز أمثالها . فلما غلبه السلطان أبو العباس على بجاية وهلك في مجال حربه ، أشاع أبو حمو الامتعاض له لمكان الصهر ، وجعلها ذريعة إلى الحركة على بجاية . وزحف من تلمسان يجرّ الشوك والمدرفي آلاف من قومه وطبقات العساكر والجند . وتراجع العرب حتى انتهى إلى وطن حمزة فأجفل أمامه أبو الليل موسى بن زغلي في قومه بني يزيد ، وتحصّنوا في جبال زواوة المطلّة على وطن^(٢) حمزة . وبعث إليه رسله لاقتضاء طاعته فاوثقهم كتابا ، وكان فيهم يحيى حافد أبي محمد صالح نزع عن السلطان أبي العباس إلى أبي حمو ، وكان عيناً على غزاة أبي الليل هذا لما بينهما من الولاء والجوار والوطن ، وجاء في وفد الوفادة عن أبي حمو فتقبّض عليهم وعليه فقتله وبعث برأسه إلى بجاية . وامتنع على أبي حمو وعساكره فأجلبوا إلى بجاية ، ونزل معسكره بساحتها وقتلتها أياماً ، وجمع الفعلة على الآلات في الحصار . وكان السلطان أبو العباس بالبلد وعسكره مع مولاه بشير بتكرارت ، ومعهم أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن ، وهو عم أبي حمو من أعياص بيتهم ، وكان من خبره أنه كان خرج من المغرب كما نذكره في أخباره . ونزل على السلطان أبي إسحق بالحضرة ورعى له أبو محمد

(١) كذا في النسخة الباريسية ويقال : فلان نجعتي : أي أمني . وفي نسخة ثانية بخته .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي طبعة بولاق : وطا حمزة .

الحاجب حق بعثه ^(١) فأوسع في كرامته . ولما غلب الأمير أبو عبد الله على تدلس بعث إليه من تونس ليوليه عليها ، وتكون رداً بينه وبين حمو ، ويتفرغ هو للإجلا ب على وطن قسنطينة ، فبادر إلى الإجابة وخرج من تونس . ومرّ السلطان أبو العباس بمكانه من قسنطينة فصدر على سبيله واعتقله عنده مكرّماً ، فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف أبي حمو أطلقه من اعتقاله ذلك واستبغ في تكريمته وحبائه ، ونصبه للملك وجهاز له بعض الآلة . وخرج في معسكره مولاة بشير ليحاجي به بني عبد الواد عن ابن عمه أبي حمو لما سثموا من ملكه وعنفه .

وكان زغبة عرب المغرب الأوسط في معسكر أبي حمو ، وكان على حذر من ^(٢) مغبة أمره معهم فراسلوا أبا زيان واثمروا بينهم في الارجاف بالمعسكر . ثم تحيّنوا لذلك أن يشبّ الحرب بين أهل البلد وأهل المعسكر فأجفلوا خامس ذي الحجة ، وانفضّ بالمعسكر وانتحوا إلى مضايق الطرقات بساح البلد فكفلت بزحامهم وتراكموا عليها فهلك الكثير منهم ، وخلفوا من الأثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف . وأسلم أبو حمو عياله وأمواله فصارت نهياً واجتلبت حظاياها إلى السلطان فوهبها لابن عمه ونجا أبو حمو بنفسه بعد أن طاح في كظيظ الزحام عن جواده فترل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاؤه عليه ، ونزل بالجزائر في الفلّ ، ولحق منها بتلمسان واتبع أبو زيان أثره ، واضطرب المغرب الأوسط كما نذكره في أخباره . وخرج السلطان أبو العباس من بجاية على أثر هذه الواقعة فنازل تدلس وافتتحها وغلب عليها من كان بها من عمال بني عبد الواد وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جدّه الأمير أبي زكريا الأوسط حين قسم الدعوة الحفصية بها إلى أن كان ما نذكره بعده إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن زحف العساكر الى تونس) *

كان أبو عبد الله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان أبي إسحق

(١) وفي نسخة ثانية : بيته .

(٢) وفي نسخة ثانية : وكانوا حذرين مغبة أمره .

صاحب الحضرة لحق بجلل أولاد مهلهل من العرب ، ووفدوا جميعاً على السلطان أبي العباس فاتح سنة سبع وستين وسبعائة يستحثونه إلى الحضرة ويرغبونه في ملكها فاعتذر لهم لما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية . وزحف إليها في حركة الفتح وصاروا في جملته ، فلما استكمل فتح بجاية سرح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكريا في العساكر فساروا معه إلى الحضرة ، وابن تافراكين في جملته ، فنازلوها أياماً وامتنعت عليهم وأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم ، وقفل المولى أبو يحيى بعسكره إلى مكان عمله . ولحق ابن تافراكين بالسلطان ، فلم يزل في جملته إلى أن كان من فتح تونس ما نذكره والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي اسحق صاحب الحضرة
وولاية ابنه خالد من بعده) *

لما نزل السلطان أبو إسحق بالحضرة على ما ذكرناه ، وتخلّف عن المهادنة مع السلطان أبي العباس طوراً بطور ، واستخلص لدولتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب يستظهر به على أمره ، ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه . وعقد سنة تسع وستين وسبعائة لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجنود من مغراوة مستبدّاً على ابنه . وسرّحه مع منصور بن حمزة وقومه وأوعز إليهم بتدويخ ضواحي بونة واكتساح نعمها وجباية ضواحيها فساروا إليها . وسرّح الأمير أبو يحيى زكريا صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأغنوا في مدافعتهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم . ولما رجعوا إلى الحضرة تنكّر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر فخرج من الحضرة ولحق بقومه بمكانهم من لحفه من أعمال تونس . واستقدمه السلطان بعد أن استعيب له فلما قدم تقبّض عليه وأودعه السجن . وعلى أثر ذلك كان مهلك السلطان فجأة ليلة من سنة سبعين وسبعائة بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر وغلبه النوم آخر ليله فنام ، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً ، فاستحال السرور ، وعظم الأسف وغلب على البطانة الدهش ثم راجعوا بصائرهم ورفعوا الدهش عن أنفسهم وتلافوا أمرهم بالبيعة لابنه الأمير أبي البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور

سريحة من المعلوجين^(١) وحاجبه أحمد بن ابراهيم الياقي^(٢) ، وحضر لها الموحدون والفقهاء والكافة . وانفض المجلس وقد انعقد أمره إلى جنازة أبيه حتى واروه التراب . واستبد منصور وابن الباقي على هذا الأمير المنسوب للأمر فلم يكن له تحكم عليها ، وكان أول ما افتتحا به أمرهما أن تقبضا على القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء ، كان نزع إلى السلطان من بلده نقطة مغاضبا لمقدمها عبدالله بن علي بن خلف فرعى له نزوعه إليه واستعمله بخطة القضاء بتونس عند مهلك أبي علي عمر ابن عبد الرفيح . ثم ولّاه قود^(٣) العساكر إلى بلاد الجريد وحربهم فكان له منها عناء واستدفعوه مرات يجبايتهم يبعثون بها إلى السلطان ، ومرات بمصانعة العرب على الارجاف بمعسكره . وكان ابن الياقي يغض بمكانه عند السلطان فلما اشتد على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه ، وأودعه السجن مع محمد بن علي بن رافع . ثم بعث عليها من داخلها في الفرار من الاعتقال حتى دبّره معه ، وظهر على أمرهما فقتلها في محبسها خنقا والله متولي الجزاء منه . وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون . ثم أظهر ابن الياقي من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتراخ أموالهم ، وإهانة سبال^(٤) الأشراف ببابه منهم ما نقموه ، وضرعوا إلى الله في إنقاذهم من ملكته فكان ذلك على يد مولانا السلطان أبي العباس كما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (فتح تونس وبقية عمالات أفريقية) *

* (الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده بالدعوة الحفصية في سائر عمالات أفريقية وممالكها) *

لما هلك السلطان أبو اسحق صاحب الحضرة سنة سبعين وسبعائة كما قدّمنا وقام بالأمر مولاه منصور سريحة وصاحبه الياقي ونصبوا ابنه الأمير خالدا للأمر صبيا لم يناهز

(١) وفي النسخة الباريسية : المعلوجي

(٢) وفي نسخة أخرى : الياقي .

(٣) وفي نسخة ثانية : قيادة .

(٤) سبله : سبه وشتمه . (قاموس) .

الحلم غراً فلم يحسنوا تدبير امره ولا سياسة سلطانه ، واستخلصوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب المتغلبين على الضاحية ثم أطمعوه بسوء تدبيرهم في شركته لهم في الأمر . ثم قبلوا له ظهر المجن فسخطهم ولحق بالسلطان أبي العباس وهو مظل عليهم بمراقبة من الثغور الغربية مستجمع للتوئب بهم ، فاستحثه للمكهم وحرّضه على تلافي أمرهم ورمّ ما تثلم من سياج دولتهم . وكان الأحق بالأمر لشرف نفسه وجلالته واستفحال ملكه وسلطانه ، وشياع الحديث على عدله ورفعته ^(١) وجميل سيرته ولما أن أهل مملكته نظروا لعقب نظره فيهم واستبداد سواه عليهم ، فأجاب صريخه وشتمّ للنهوض عزمه . وكان أهل قسنطينة قد بعثوا بمثل ذلك ، فسرح إليهم أبا عبدالله بن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لاستخبار ^(٢) طاعتهم وابتلاء دخلتهم ، فسار إليهم واقتضى سمعهم ^(٣) وطاعتهم ، وسارع إليها يحيى بن يملول مقدّم توزر والخلف بن الخلف مقدّم نفطة فأتوها طواعية . وانقلب عنهم وقد أخذوا بدعوة السلطان وأقاموها في أمصارهم .

ثم خرج السلطان من بجاية في العساكر وأغذّ السير إلى المسيلة ، وكان بها ابراهيم ابن الأمير أبي زكريا الأخير فأجابه ^(٤) أولاد سليمان بن علي من الزواودة من مثنى اغترابه بتلمسان ، ونصّبوه لطلب حقه في بجاية من بعد أخيه الأمير أبي عبدالله ، وكان ذلك بمداخلة من أبي حمو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة مختلفة . فلما انتهى السلطان إلى المسيلة نبدوا إلى ابراهيم عهده وتبرؤا منه . ورجعوا من حيث جاؤا ، وانكفأ السلطان راجعاً إلى بجاية . ثم نهض منها إلى الحضرة وتلقته وفود أفريقية جميعاً بالطاعة وانتهى إلى البلد فخيم بساحتها أياماً يغادها القتال ويراوحها . ثم كشف عن مصدوقته وزحف إلى أسوارها وقد ترجّل أخوه والكثير من بطانته وأوليائه فلم يقم لهم حتى تسنموا الأسوار برياض رأس الطابية ، فترل الطابية ، فترل عنها المقاتلة وفرّوا إلى داخل البلد . وخامر الناس الدهش وتبرأ بعضهم من بعض ، وأهل الدولة في مركبهم وقوف بباب الغدر من أبواب القصبة . فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولّوا الأعقاب

(١) وفي نسخة ثانية : رفقه .

(٢) وفي نسخة ثانية : لاختبار .

(٣) وفي نسخة ثانية : بيعاتهم .

(٤) وفي نسخة ثانية : جأأ به .

وقصدوا باب الجزيرة فكبروا قبالة^(١) . وثار أهل البلد جميعاً بهم فحاصروا بساحتهم من البلد^(٢) بعد عصب الريق ، ومضى الجند في اتباعهم فأدرك أحمد بن الياقوتي فقتل وسبق رأسه إلى السلطان . وتقبض على الأمير خالد واعتقل ، ونجا العليج منصور سريحه برأس طمرة^(٣) وخام وذهل عن القتال دون الأجرة . ودخل السلطان القصر واقتعد أريكته ، وانطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة فاكتمحت ما كان الناس يضطغنون عليهم تحاملهم على الرعية واغتصاب أموالهم ، واضطربت نار العيث في دورهم ومخلفهم فلم تكذب أن تنطفئ ولحق بعض أهل العافية معرات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى أطفأه الله ببركات^(٤) السلطان وجميل نيته وسعادة أمره . ولأذ الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل ، وتهاوتوا عليه تهاوت الفراش على الذبال يلثمون أطرافه ، ويحدّون بالدعاء له ويتنافسون في انتقاس مجيده^(٥) إلى أن غشيهم الليل ودخل السلطان قصوره وخلا بما ظفر من ملك آبائه ، وبعث بالأمير خالد في الأسطول إلى قسطنطينة ، فعصفت به الريح وانخرقت السفينة وترادفت الأمواج إلى أن هلك^(٦) . واستبدّ السلطان بأمره وعقد لأخيه الأمير أبي يحيى زكريا . على حجابته . ورعى لابن تافراكين حق انخياشه إليه ونزوعه فجعله رديفاً لأخيه واستمرّ الأمر على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض منصور بن حمزة واجلابه بالعمّ أبي يحيى زكريا على الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين) *

كان منصور بن حمزة هذا أمير البلد من بني سُلَيْم بما كان سيّد بني كعب . وكان

(١) وفي نسخة ثانية : كسروا إقفاله .

(٢) وفي نسخة ثانية : فخلصوا سلطانهم من البلد .

(٣) وفي النسخة الباريسية : برأس طرة .

(٤) وفي نسخة ثانية : ببركة .

(٥) وفي نسخة ثانية : التماح حيّاه .

(٦) وفي نسخة ثانية : وبعث الأمير خالد وأخيه في الأسطول إلى قسطنطينة فوصفت بها الريح وانخرقت السفينة وتقاذفت الأمواج إلى أن هلكا .

السلطان أبو يحيى يؤثره بمزيد العناية ، ويجعل له على قومه المزية . وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا على السلطان أبي الحسن على أفريقية وأزعجوه منها قد استطالت أيديهم عليها وتقسموها أوزاعاً ، وأقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصارها ، استتلاًفاً لهم على المصاهرة وإقامة الدعوة والحماية من أهل الثغور الغربية ، فلكوا الأكثر منها ، وضعف سهمان السلطان بينهم فيها . فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبدّ بالدعوة الحفصية كبح أعينهم عن التغلب والاستبداد وانتزع ما بأيديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالصة السلطان وبداهم ما لم يكونوا يحتسبونه فأحفظهم ذلك وأهمهم شأنه وتكرّر منصور بن حمزة وقلب ظهر المِجنّ ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف ، وتابعه على خروجه على السلطان أبو معنونة^(١) أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم . وارتحل بأحيائه إلى الزواودة صريحاً مستجيشاً بالأمير أبي يحيى بن السلطان أبي بكر المقيم بين ظهرانهم من لدن قفلته من المهدية وانتراه بها على أخيه المولى أبي إسحق كما ذكرناه ، فنصبوه للأمر وبايعوه . وارتحل معهم وأغدوا السير إلى تونس ، ولقيم منصور بن حمزة في أحياء بيته فبايعوا له وأوفدوا مشيختهم على يحيى ابن يملول شيطي^(٢) الغواية المراد على الخلاف يستحثونه للطاعة والمدد بمداخلة كانت بينهم في ذلك سؤل لهم فيها بالمواعيد ، وأملى لهم حتى اذا غمسوا أيديهم في النفاق والاختلاف سوفهم عن مواعيد حمايته^(٣) بماله فأسرّها منصور في نفسه ، واعترم من يومئذ على الرجوع إلى الطاعة .

ثم رحلوا للإجلاب على الحضرة ، وسرح السلطان أبو العباس أخاه الأمير أبا يحيى زكريا للقيم في العساكر ، وتزاحفوا فأتى منصور وقومه ظهور على عساكر السلطان وأوليائه لم يستكملوه ، وأجلوا على البلاد أياماً . ونمي إلى السلطان أن حاجبه أبا عبد الله ابن تافراكين داخلهم في تبييت البلد فتقبّض عليه وأشخصه في البحر إلى قسنطينة فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين وسبعائة . ثم سرب السلطان أمواله في العرب فانتقض على المنصور قومه وخشي مغبة حاله ، وسوَّغ السلطان جائزته فعاود

(١) وفي نسخة ثانية : أبو صعنونة وهنا أصح .

(٢) وفي نسخة ثانية : شيطان الغوايه المراد على الخلاف .

(٣) وفي نسخة ثانية : سوفهم عن مواعيده ضنانه بماله .

الطاعة ، ورهن إبنه ونبد إلى السلطان زكريا العم عهده ورجعه على عقبه إلى الزواودة ، والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة إلى أن هلك سنة ست وتسعين وسبعائة فقتله محمد ابن أخيه قتيبة في مشاجرة كانت بينهما ، طعنه بها فأشواه ورجع جريحاً إلى بيته ، وهلك دونها أواخر يوم . وقام بأمر بني كعب بعده صولة ابن أخيه خالد وعقد له مولانا السلطان على أمرهم واستمرت الحال إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن فتح سوسة والمهدية) *

كانت سوسة منذ واقعة بني مرين بالقيروان وتغلب العرب على العائلات فأقطعها السلطان أبو الحسن لخليفة بن عبدالله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الأمصار والاقطاعات مما لم يكن لهم فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها وأحكامها . واستبد بها على السلطان ولم يزل كذلك إلى أن هلك وقام بأمره في قومه عامر بن عمه محمد بن مسكين أيام استبداد أبي محمد بن تافراكين فسوغها له كذلك مفضلاً مرهباً من قتله (١) ثم قتله بنو كعب ، وأقام بأمر حكيم من بعده أحمد الملقب أبو صعغونة بن محمد أخي خليفة بن عبدالله بن مسكين فاستبد بسوسة على السلطان واقتعدها دار إمارته ، وربما كان ينتفض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة ، ويسن الغارات في نواحيها حتى لقد أوقع في بعض أيامه بمنصور سريجه مولى السلطان أبي إسحق وقائد عسكره ، فتقبض عليه واعتقله بسوسة أياماً . ثم من عليه وأطلقه وعاود الطاعة معه ، ولم يزل هذا دأبهم . وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة ، ولم يزالوا يضرعون إلى الله في إنقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم إلى أن تأذن الله لأهل أفريقية باقتبال الخير وفي ظلال الأمر . واستبد مولانا السلطان أبو العباس بالحضرة وسائر عمالات أفريقية وهبت ريح العز على المغرب في جميع النواحي ، فتنكر أهل سوسة لعاملهم أبي صعغونة هذا ، وأحس بتنكراتهم فخرج عنهم وتجافى للسلطان عن البلد . وثارت عامتها بعماله وأجهضوهم ، ونزل

(١) وفي نسخة ثانية : متقبلاً مذهب من قبله .

عمّال السلطان . ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبي يحيى إلى نواحي طرابلس ودوّخ جهاتها واستوفى جباية أعمالها . وكان بالمهدية محمد بن الحكجك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين أيام ارتجاعه إياها من أيدي أبي العباس بن مكّي ، والأمير أبي يحيى زكريا المتري بها ابن مولانا السلطان أبي بكر كما مرّ . وأقام ابن الحكجك أميراً عليها بعد موت الحاجب . فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة ، وطلع نحوه قتام العساكر فرق من الاستيلاء عليه ، وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لدمّة صهر قديم كان بينها وبادر مولانا السلطان إلى تسليم المهدية ، وبعث عليها عمّاله وانتظمت في ملكيته . واطردت أحوال الظهور والنجاح ، وكان بعد ذلك ما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان) *

كان محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ ولّاه أبو عبدالله محمد بن تافراكين على هذه الجزيرة ، قد تقبّل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحاله مذاهب الإمارة وطرقها ولبوس شارتها . وقد ذكرنا سلفه من قبل ، وأن والده كان صاحب الأشغال بالحضرة أيام الحاجب أبي محمد بن تافراكين وأنه اعتلق بكتابة ابنه أبي عبدالله مولاه على جربة عند افتتاحه إياها سنة (١) وأنه قصده عند مقرّه عن المولى أبي اسحق لينزل جربة معولاً على قديم اصطناعه إياه فنعّه . ثم داخل شيوخ الجزيرة من بني سمو من في الامتناع على السلطان والاستبداد بأمرهم فأجابوه ، وأقام ممتنعاً سائر دولة مولانا السلطان (٢) وابنه من بعده .

ولما استولى مولانا السلطان أبو العباس على تونس داخله الروح والوحشة وصار إلى مكاثرة رؤساء الجريد في التظافر على المدافعة بزعمهم ، فأجرى في ذلك شأواً بعيداً مع تحلّفه في مضمار بقديمه وحديثه . وصارف السلطان سوء الامتثال وإتيان الطاعة

(١) هكذا بياض بالأصل ولم نستطع تحديد السنة في المراجع التي بين أيدينا

(٢) هو المولى أبو اسحق .

ومنع الحباية فأحفظ ذلك ، ولما افتتح أمصار الساحل وثغوره سرح ابنه الأمير أبا بكر في العساكر إلى جربة ومعه خالصة الدولة محمد بن علي بن ابراهيم من ولد أبي هلال شيخ الموحدين ، وصاحب بجاية لعهد المستنصر ، وقد تقدّم ذكره . وأمده في الأسطول في البحر لحصارها ، ونزل الأمير بعسكره على مجازها ووصل الأسطول إلى مرساتها فأطاف بحصن القشتيل ، وقد لاذ ابن أبي العيون بجدارانه وافترق عنه شيوخ الجزيرة من البربر وانحاش معه بطانته من الجند المستخدمين معه بها . ولما رأوا ما لا طاقة لهم به وأنّ عساكر السلطان قد أحاطت بهم يراً وبحراً نزلوا إلى قائد الأسطول وأمكنوه من الحصن ، وبادروا إلى معسكر الأمير فأقبل معهم الخاصة أبو عبدالله بن أبي هلال فيمن معه من بطانة الأمير وحاشيته فاقتحموا الحصن ، وتقبضوا على محمد بن أبي العيون ونقلوه من حينه إلى الأسطول ، واستولوا على داره وولّوا على الجزيرة وارتحلوا قافلين إلى السلطان . ووصل محمد بن أبي العيون إلى الحضرة ونزل بالديوان فأركب القصبة على جمل وطيف به على أسواق البلد إظهاراً لعقوبة الله النازلة به ، وأحضره السلطان فويّخه على مرتكبه في العناد ومدخلته أهل الغواية من أمراء الجريد في الانحراف عنه . ثم تجافى عن دمه وأودعه السجن إلى أن هلك سنة تسع وسبعين .

* (الخبر عن استقلال الامراء من الابناء بولاية الثغور الغربية) *

كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى أفريقية باستحثاث أهلها لذلك ، ووفادة منصور بن حمزة شيخ الكعوب مرغباً فيها فأهمّه لذلك شأن الثغور الغربية ، وأحال اختياره في بنيه بسبر أحوالهم ويعيش على الأكفاء لهذه الثغور منهم فوقع نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعناية الله في إلقاء محبته عليه الأمير أبي عبدالله فعقد له على بجاية وأعمالها ، وأنزله بقصور الملك منها ، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند . واستعمل على قسنطينة وضواحيها مولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه ، وناشئ قصده وتلاد مرباه . وكانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس ، ودالة بالقديم والحادث . وخلال لقيها أيام التغلب في أواوين الملك . وكان ملازماً ركاب

مولاه في مطارح اغترابه وأيام تمحيصه ، وربما لقي عند الورود على قسطنطينة من المحنة والاعتقال الطويل ما أعاضه الله عنه بحمیل السرور^(١) ، وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الأحوال . فظفر من ذلك بالبغيه وحصل من الرتبة على الأمانة . وكان السلطان يثق بنظره في العسكر ويبعثه في مقدّمة الحروب ، وكان عند استيلائه على بجاية وصرف العناية إليها ولّاه أمر قسطنطينة وأنزله بها ، وأنزل معه ابنه الأمير أبا إسحق وجعل إليه كفالته لصغره ثم استنفره بالعساكر عند النهوض إلى أفريقية فنهض في جملته وشهد معه الفتح . ثم رجّعه إلى عمله بقسطنطينة بمزيد التفويض والاستقلال ، فلم يزل قائماً بما دفع إليه من ذلك إلى أن هلك .

وكان السلطان قد أوفد ابنه أبا إسحق على ملك بن مقرب^(٢) والسلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنتاً بالظفر ملفحاً غراس الودّ وأنفذ معه شيخ الموحّدين ساسة أبا إسحق بن أبي هلال ، وقد مرّ من قبل ذكر أخيه فتلقّاهما ملك بن مقرب بوجوه المبرّة والاحتفاء ، ورجّعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث وسبعين وسبعائة . ونزل الأمير أبو إسحق بقسطنطينة دار إمارته وعقد له السلطان عليها وألقاب الملك ورسومه مصروفة إليه . والقائد بشير مولى أبيه مستبدّ عليه لمكان صغره إلى أن هلك بشير ثمان وسبعين وسبعائة عندما استكمل الأمير أبو إسحق الحال واستجمع الإمارة فجدّد له السلطان عهده عليها وقوّض إليه في إمارتها فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام وأحواله تصدق الظنون وتومي إليه وشهادة المخايل التي دلّت عليه ، فاستقل هذان الأميران بعهد بجاية وقسطنطينة وأعمالها مفوضاً إليهما الإمارة مآذوناً لهما في اتخاذ الآلة وإقامة الرسوم الملوكية والشارة . وكان الأمير أبو يحيى زكريا الأخ الكريم مستقلاً أيضاً ببونة وعملها منذ استيلائه عليها سنة^(٣) قد أضافها السلطان وأصارها

في سهانه ، فلما ارتحلوا إلى أفريقية عام الفتح وتيقن الأخ أبو يحيى طول مغيبه واغتياب السلطان أخيه لكونه معه ، عقد عليها لابنه الأمير أبي عبد الله محمد وأنزله بقصره منها ، قوّض إليه في إمارته لما استجمع من خلال التشريع والذكر الصالح في

(١) وفي نسخة ثانية : التنويه .

(٢) وفي نسخة ثانية : ملك المغرب السلطان عبد العزيز .

(٣) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد السنة في المراجع التي بين أيدينا .

الدين . واستمرّ الحال على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، والله مدبر الأمور سبحانه .

* (الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام أعمال قسنطينة في طاعة السلطان) *

كان أمر هذا الجريد قد صار شوري بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لإعتقال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر ، فلما استبدّ السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ عن الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره . ثم نهض فجاء إثر الشوري منها ، وعقد لابنه أبي العباس عليها كما قلناه . فلما كان بعد مهلكه من اضطراب أفريقية وتغلب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وتنازع رؤسائهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك ومساريه^(١) ، يقتعدون الأرائك ويتفقّدون في المشي بين السكك المراكب^(٢) ، ويهثون في إيوانهم سبال الأشراف ، ويتخذون الآلة أيام المشاهد آية للمعتبرين في تقلّب الأيام ، وضحكة الأهل الشمات ، حتى لقد حدّثتهم أنفسهم بألقاب الخلافة ، وأقاموا على ذلك أحوالاً والدولة في التياش ، فلما استبدّ السلطان أبو العباس بأفريقية وعمالاتها ، وأتيح منه بالحضرة البازي المطل من مرقبه والأسد الخادر في عرينه ، وأصبحوا فرائس له يتوقعون انصبابه إليهم وتوثبه بهم ، داخلوا حينئذٍ الأعراب في مدافعتهم عنهم باضرار نار الفتنة ، واقتعاد مطيّة الخلاف والنفاق يفتلون بذلك في عزائمهم وأرخبى هو لهم حبل الإمهال وفسح لهم مجال الإيناس بالمعاونة والوعد ، رجاء الفينة إلى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فأصروا وازدادوا عناداً ونفاقاً فشمرّ لهم عن عزائمهم ونبد إليهم عهدهم على سواء . ونهض من الحضرة سنة سبع وسبعين وسبعمائة في عساكره من الموحيدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة من استألف إليه من العرب أولاد مهلهل وحكيم وأصهار أولاد أبي الليل على المدافعة عن أهل الجريد ، ووافقوا

(١) وفي نسخة ثانية : وشاراته .

(٢) وفي نسخة ثانية : ويعقدون في المشي بين السلك والمواكب .

السلطان أياماً. ثم أجفلوا أمامه وغلبهم السلطان على رعاياهم من نحيزه^(١)، وكانوا من بقايا بني يفرن عمروا ضواحي أفريقية مع طواعن هَوّارة ونفوسة ومغراوة^(٢). وكانت للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة، فلما تغلب المغرب على بسائط أفريقية وتنافسوا في الاقطاعات كانت طواعن من نحيزة هؤلاء في اقطاع أولاد حمزة، فكانت جبايتهم موفورة ومالهم دثراً بما صاروا مدداً لهم بالمال والكرع والدروع والأدم، وبالفرسان منهم يستظهرون بهم في حروبهم مع السلطان ومع قومهم، فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح أموالهم، وبعث رجالهم أسرى إلى سجون الحضرة وقطع بها عنهم أعظم مادة كانت تمدّهم، فحمد ذلك من عتوهم وقصّ من جناحهم إلى آخر الدهر، ووهنوا له. ثم عاد السلطان إلى حضرته وافترق أشياعه، ونزع عنهم أبو صعنونة فتألف على أولاد أبي الليل، وزحفوا إلى الحضرة فاحتلوا بساحتها أياماً وشنوا الغارات عليها. ثم انفصّوا عنها وخرج على أثرهم لأول فصل الشتاء، وتساحل إلى سوسة والمهدية فاقتضى مغارم الأوطان التي كانت لأبي صعنونة، ثم رجع إلى القيروان وارتحل منها يريد قفصة وجمع أولاد أبي الليل لمدافعة عنها، وسرّب فيهم صاحب توزر الأموال فلم تغن عنه. وزحف السلطان إلى قفصة فنازلها ثلاثاً ولجّوا في عصيانهم وقاتلوه بجمع الأيدي على قطع نخيلهم وتسايلت إليه الرعيّة من أماكنهم، وأسلموا أحمد بن القائد مقدّمهم وابنه محمد المستبدّ عليه لكبره وذهوله، فخرج إلى السلطان واشترط ما شاء من الطاعة والخراج ورجع إلى البلد وقد ماج أهلها بعضهم في بعض، وهموا بالخروج فسبقهم إبنه أحمد المستبدّ على أبيه، وكان السلطان سرح أخاه أبا يحيى في الخاصة والأولياء إلى البلد، فلقية محمد بنواحي ساحتها فبعث به إلى السلطان، ودخل هو إلى القصة وتمكّل البلد وتقبّض السلطان على محمد بن القائد لوقته، وسبق إليه أبوه أحمد من البلد فجعل معه واستولى على داره وذخائره.

واجتمع المدد والكافة من أهل البلد عند السلطان، وآتوه بيعتهم وعقد عليها لابنه أبي بكر، وارتحل يقدّ السير إلى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة إلى ابن يملول فركب لحينه، واحتمل أهله وما خفّ من ذخائره ولحق بالزاب. وطير أهل توزر بالخبر إلى

(١) وفي نسخة ثانية : فرنجيزة .

(٢) وفي نسخة ثانية : مغراوة .

السلطان فلقبه أثناء طريقه ، وتقدّم إلى البلد فللكها واستولى على ذخيرتها ابن يملول ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يعدّ لأعظم ملك من ملوك الأرض ، وأحضر بعض الناس ودائع كانت لهم عنده من نفيس الجواهر والحلى والثياب وبرؤا منها إلى السلطان .

وعقد السلطان على توزر لابنه المُنتَصِر وأنزله قصور ابن يملول ، وجعل إليه إمارتها واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نَفْطَة فقدم عليه وآتاه طاعته ، وعقد له على بلده وولاية حجابة ابنه بتوزر ، وأنزله معه وقفل إلى حضرته . وقد كان أهل الخلاف من العرب عند تغلبه على أمصار الجريد إلى التلول ، فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فأوقع بهم وفلّ من عزمهم ، وأجفلوا إلى الجهات الغربية يؤمّلون منها ظفراً لما كان ابن يملول قد منهم ونصر ابن عمه منصور صريخين به على عادة صريخهم بأبي تاشفين سلفه فدافعهم بالمواعدة ، وتبينوا منها عجزه وأنكفوا راجعين . ووفد صولة على السلطان بعد أن توثق لنفسه فاشتراط له على قومه ما شاء ، ورجع إليهم فلم يرضوا بشرطه ونهض السلطان من الحضرة في العساكر الأولياء من العرب ، وأجفلوا أمامهم فأتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرّات وافقوه فيها . ثم أجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم وفدهم على السلطان والاشترط له كما يشاء ، فتقبّل ووسعهم عفوه ، وصاروا إلى الانقياد والاعتماد في مذاهب السلطان ومرضاته ، وهم على ذلك لهذا العهد .

* (الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن الخلف) *

لما استقل الخلف بن علي بن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان . وعقد له مع ذلك على عمله بنفطة فاستخلف عليها عامله ، ونزل بتوزر مع المنتصر . ثم سعى به أنه يداخل ابن يملول ويراسله فبثّ عليه العيون والأرصاد ، وعثر على كتابه بخط كاتبه المعروف إلى ابن يملول وإلى يعقوب بن علي أمير الزاودة يحرّضها على الفتنة ، فتقبّض عليه وأودعه السجن . وبعث عمّاله إلى نفطة واستولى على أمواله وذخائره ، وخاطب أباه في شأنه فأمله بعد أن تبين نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف . وكان السلطان قبل فتح نفطة قد نزع إليه من بيوتاتها أحمد بن أبي يزيد ، وسار في ركابه إليها . فلما

استولى على البلد رعى له ذمة نزوعه إليه ، وأوصى به ابنه أبا بكر فاستولى على مشورته وحلّه وعقده ، وطوى على البيت ^(١) . ثم حدثته نفسه بالاستبداد وتحين له المواقيت واتفق أن سار الأمير أبو بكر من نفطة لزيارة أخيه المتصربتوزر وخلف بالبلد عبدالله الترمكي ^(٢) من مواليهم ، وكان السلطان أنزله معه وولّاه حجابته ، فلمّا توارى الأمير عن البلد داخل ابن أبي يزيد عنفة من الأوغاد وطاف في سكك المدينة والمهاطة معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة . وتقدّم إلى القصبة فأغلقها القائد عبدالله دونه وحاربها فامتنعت عليه . وقرع عبدالله الطبل بالقصبة واجتمع إليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضي إلى الناية فكثروا ومنع ^(٣) ابن أبي يزيد ، وتسلسل عنه الناس فلاذ بالاختفاء . وخرج الائد من القصبة فتقبّض على كثير من أهل الثورة وأودعهم السجن واستولى على البلد . وسكّن الهيعة وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فأغذّ السير منقلباً إلى قفصة ، ولحين دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة وأمر الهاطف فنادى في الناس بالبراءة من ابن أبي يزيد وأخيه . ولأيام من دخوله عثر بها الحرس في مقاعدهم بالباب مستترين بزى النساء فتقبّضوا عليهما وتلّوهما إلى الأمير ففرض أعناقهما وصلبهما في جذوع النخل . وكانا من المترفين فأصبحا مثلاً في الأيام وقد خسرا دينهما ودنياهما ، وذلك هو الخسران المبين ، وارتاب المتصرب صاحب توزر حينئذ بآبن الخلف وحذر مغبة حاله فقتله بمحبسه وذهب في غير سبيل مرحمة وانتظم السلطان أمصار الجريد كلّها في طاعته واتصل ظهوره إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان) *

هذه البلد لم تزل في هذه الدولة الحفصية لبني مكي المشهور ذكره في هذه العصور وما إليها ، وسيأتي ذكر أخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرد لهم فيما بعد ، وكان أصل رياستهم فيها اتصالهم بخدمة الأمير أبي زكريا لأول أيام ولاية قابس سنة ثلاث

(١) وفي نسخة ثانية : وطوى على النث وقد ورد في القاموس : نث الخبر افشاه ، وفث الحرح دهنه .

(٢) وفي نسخة ثانية : التريكي .

(٣) وفي نسخة ثانية : شيع .

وعشرين وستائة فاخصّصوا به ، وداخلهم في الانتفاض على أخينا أبي محمد عبدالله عندما استجمع لذلك ، فأجابوه وباعوه فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبدت بأفريقية ، وأفردهم برياسة الشورى في بلدهم . ثم سموا إلى الاستبداد عندما فشل ربح الدولة عن القاصية بما حدث من الفتن وانفراد الثغور الغربية بالملك . ولم يزالوا جانحين إلى هذا الاستبداد ورامقين إليه بنظر العين^(١) والانتفاض على السلطان ، ومداخلة الثوار والإجلاب بهم على الحضرة . والدولة أثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من أهل الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة وإلحاق صاحب الثغور الغربية على مطالبة الحضرة .

ثم استبدت مولانا السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية في سائر عمالات أفريقية وشغله عنهم شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان في الإجلاب على الحضرة مع جيوشه ومنازلتهم ثغر بحاية وتسريبه جيوش بني عبد الواد مرة بعد أخرى مع الأعياص من بني أبي حفص والعرب إلى أفريقية . وكان المتولى الرياسة بقابس يومئذ عبد الملك بن مكى بن أحمد ابن عبد الملك ورديفه فيها أخوه أحمد ، وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الإجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم . ورما خالفوا السلطان إلى الحضرة أزمان مغيبة عنها كما وقع لهم مع عبد الواحد بن اللحياني ، وقد مرّ ذكر ذلك . فلما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان وانمحق أثر بني زيّان فزع السلطان أبو بكر هؤلاء الثوار الرؤساء بالجريد الدائنين بالانتفاض سائر أيامهم . وزحف إلى قفصة فلكها فذعروا ولحق أحمد بن مكى بالسلطان أبي الحسن متذمماً بشفاعته ، بعد أن كان الركب الحجازي من المغرب مرّ بقابس وبه بعض كرائم السلطان فأوسعوا حباءهم وسائر الركب قرى وحباء . وقدّموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فقبل السلطان وسيلتهم وكتب إلى مولانا السلطان أبي بكر شافعاً فيهم لدمّة السلطان والصهر فتقبل شفاعته وتجاوز عن الانتقام منهم بما اكتسبوه .

ثم هلك مولانا السلطان أبو بكر وماج بحر الفتنة وعادت الدولة إلى حالها من الانقسام وانسلت^(٢) على صاحب الحضرة وجوه الانتصاف منهم فعاد بنو مكى وسواهم من رؤساء الجريد إلى حالهم من الاستبداد على الدولة . وقطع أسباب الطاعة ومنع المغارم

(١) وفي نسخة ثانية : سائحين إليه بثار الفتن .

(٢) وفي نسخة ثانية : واشتدت .

والجباية ومشايعة صاحب الغربية ركوناً على صاحب الحضرة . فلما استبدّ مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصية وجمع الكلمة ، واستولى على كثير من الثغور المنتقضة ترأس أهل هذه العصور الجريدية وتحدّثوا بما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه ، والامتناع عليه .

وكان عبد الملك بن مكّي أقعدهم بذلك لطول مراسلة^(١) الفتن وانحياشه إلى الثوار ، وكان أحمد أخوه ورديفه قد هلك سنة خمس وستين وسبعائة ، وانفرد هو برياسة قابس فراسلوه وراسلهم في الشأن ، وأجمعوا جميعاً على تجهيز العرب على السلطان وتسريب الأموال ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك أفريقية ، فانتدبوا لذلك من كل ناحية ، وبعثوا البريد إلى صاحب تلمسان فأطمعهم من نفسه ، وعلّلهم بالمواعيد الكاذبة ، والسلطان أبو العباس مقبل على شأنه يقتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب أولاد أبي الليل الذين كانوا يغزونهم بالمدافعة عنهم ، وافتتح قفصة وتوزر ونقطة . وتبيّن لهم عجز صاحب تلمسان عن صريخهم ، فحينئذ بادر عبد الملك إلى مراسلة السلطان يعده من نفسه الطاعة والوفاء بالجباية ، ويستدعي لاقتضاء ذلك منه بعض حاشيته فأجابه إلى ذلك ، وبعث أمره إليه^(٢) ورجع إلى الحضرة في انتظاره فطاولة ابن مكّي في العرض وردّه بالوعد .

ثم اضطرب أمره وانتقض عليه أهل ضاحيته بنو أحمد إحدى بطون دباب ، وركبوا إليه فحاصروه وضيّقوا عليه ، واستدعوا المدد لذلك من الأمير أبي بكر صاحب قفصة فأمدّهم بعسكر وقائد فنازلوه واشتدّ الحصار ، واتهم ابن مكّي بعض أهل البلد بمدخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم ، وتنكرت له الرعية وساءت حاله ، ودسّ إلى بعض المفسدين من العرب من بني علي في تبييت العسكر المحاصرين له ، واشترط لهم على ذلك مارضوه من المال ، فجمعوا لهم وبيّتوهم فانفضّوا ونالوا منهم . وبلغ السلطان خبرهم فأحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة إحدى وثمانين وسبعائة ، وتلوّم أياماً حتى استوفى العطاء واعترض العساكر ، وتوافت أحياء أوليائه من أولاد مهلهل وحلفائهم من سائر سُلّيم . ثم ارتحل إلى القيروان ، وارتحل منها يريد قابس ، وقد استكمل التعبية وبادر إلى لقائه والأخذ

وفي نسخة ثانية : مراسه .

وفي نسخة ثانية : وبعث وافده إليه .

بطاعته مشيخة ذباب أعراب من بني سُلَيْم . ووفد منهم خالد بن سَبَاع بن يعقوب شيخ المحاميد وابن عمّه عليّ بن راشد فيمن إليهم يستحثونه إلى منازل قابس ، فأغذّ السير إليها وقدم رسله بين يديه بالإنذار لابن مكّي . وانتهاوا إليه فرجعهم بالإجابة والانقياد إلى الطاعة . ثم احتمل رواحله وعبّى ذخائره وخرج من البلاد ، ونزل على أحياء ذباب هو وابنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن ابنه مكّي مالك^(١) لها منذ سنين من قبل .

واتصل الخبر بالسلطان فبادر إلى البلد ودخلها في ذي القعدة من سته ، واستولى على منازل ابن مكّي وقصوره . ولأذ أهل البلد بطاعته وولّى عليها من حاشيته ، وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث إلى السلطان بالطاعة والانحياس ، ووافته رسله دون قابس . فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة ، وأقام عبد الملك بن مكّي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالي قلائل . ثم بغته الموت فهلك ولحق ابنه وحافده بطرابلس فنعهم ابن ثابت الدخول إليها فترلوا بزنزور من قراها في كفالة الجوّاري من بطون ذباب . ولما استكمل السلطان الفتح وشؤنه انكفأ راجعاً إلى الحضرة فدخلها فاتح إثنين وثمانين وسبعائة ولحق إليه رسوله^(٢) من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه . ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل أولاد أبي الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فأجابهم إلى ذلك . ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبله أبو صعنونة شيخ حكيم ، ورهنوا أبناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة . واتصل النجح والظهور والأمر على ذلك لهذا العهد وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعائة ، والله مالك الأمور لا رب غيره .

* (الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما اكتنف ذلك من
الأحوال) *

كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد بالزباب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل ،

(١) وفي نسخة أخرى : الهالك .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولحقه رسله .

واستربوا المغبة حالهم معه ومراوغتهم له بالطاعة يرومون استحداث الشواغل ويؤملون لها سلطان تلمسان لعهدهم أبا حمو الأخير ، وأنه يأخذ بحجزته عنهم إن وصلوا به أيديهم واستحثوه لذلك لا يلافيهم مثلها من سلف قومه . وأبي حمو بن تاشفين من قبله قياساً متورطاً في الغلط بعيداً من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة ، وما أصاب قومهم من الشتات بأيديهم وأيدي عدوهم وتقدمهم في هذا الشأن أحمد بن مزني صاحب بسكرة لقرب جواره واشتহার مثلها من سلفه فاتبعوه وقلدوه وغطى هواهم جميعاً على بصيرتهم . وقارن ذلك نزول الأمير أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد عمّ أبي حمو على ابن يملول بتوزر عند منابذة سالم بن ابراهيم الثعالبي إياه ، وكان طارد به أياماً . ثم راجع أبو حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين وسبعائة فخرج من أعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم ونزل على ابن يملول بتوزر .

وطير الخبر إلى إمامه في تلك الفتنة أحمد بن مزني واغبتوا بمكان أبي زيّان ، وأن تمسكهم به ذريعة إلى اعتمال أبي حمو في مرضاتهم ، وإجابته إلى داعيهم وركض يريداهم إلى تلمسان في ذلك ذاهباً وجائياً حتى أعيت الرسل واشتبهت المذاهب ولم يحصلوا على غير المقاربة والوعد لكن على شرط التوثق من أبي زيّان . وبينما هم في ذلك إذ هجم السلطان على الجريد وشرّد عنه أولاد أبي الليل الذين تكفل الرؤساء به بالمدافعة . وافتتح قفصة وتوزر ونفطة ولحق يحيى بن يملول ببسكرة ، واستصحب الأمير أبا زيّان فترل علي ابن مزني وهلك لأيام قلائل كما ذكرناه . واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن عليّ شيخ رباح بأمره مع السلطان لما سلف منه من مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقوقه والمبالغة في العذر عنهم . ثم غدرته أنصاره^(١) من مشيخة الزواودة وانحاشوا إلى السلطان فأفاض عليهم عطاءه ، واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب ، وارتحل إلى السلطان أبي حمو صاحب تلمسان فاتح إثنين وثمانين وسبعائة يستحيشه هؤلاء الرهط ويهزه بها إلى البدار بصريخهم .

ونزل على أولاد عريف أوليائه من سويد ، وأوفد عليه ابنه فتعلّل لهم بمنافرة حدثت

(١) وفي نسخة أخرى : ثم غيرته بأنظاره .

في الوقت بينه وبين صاحب المغرب ، وأنه لهم بالمرصاد متى راهبهم ريب من نهوض السلطان^(١) أبي العباس ليتمسك بذلك طرق التوثب من أبي زيّان وربما دسّ ، لهم بمشارطة اعتقاله وإلقائه في غيابات السجون . وفي مغيب يعقوب هذا طرق السلطان طائف من المرض أرجف له المفسدون بالجريد ودسّ لشيع ابن يملول بتحيزه إلى صبيّ من أبناء يحيى مخلف ببسكرة ، فذهل ابن المزني عن لتبث لها ذهاباً مع صاغية الولد وأوليائه ، وجهّزهم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشارطين في مثلها بالمال ، وأغدّوا السير توزر على حين غفلتهم من الدهر وخفّ من الجند فجلى المنتصر وأوليائه في الامتناع ، وصدق الدفاع وتمحضت بهذه الانالة طاعة أهل توزر ومخالصتهم وانصرف ابن يملول بإخفاق من السعي واليم من الندم وتوقع للمكاره . ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي فرجّعه من المغرب فبالغ في تغييبهم بالملامة على ما أحدثوا بعده من هذا الخرق المتسع الغني عن الواقع^(٢) .

وكان السلطان لأوّل بلوغ الخبر بإجلابهم على توزر وممالة ابن مزني على إبنه وأوليائه ، أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة ، وفتح ديوان العطاء وجهّز آلات الحصار . وسرى الخبر بذلك إليهم فخلصوا نجياً ونقضوا عنه آراءهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيّان الكفيل لهم بصريخ أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض الترعّات ، وتورّطوا في اخفار ذمته ، وطيّروا بالصريخ إلى أبي حمو ، وانتظروا فما راعهم إلا وافده بالعدر عن صريخهم والإعاضة بالمال ، فتيّنوا عجزه ونبذوا عهده ، وبادروا عليه السبيل لأبي زيّان العذر له لما كان السلطان نكر عليهم من أمرهم فارتحل عنهم ولحق بقسنطينة . وحملهم يعقوب بن عليّ على اللباز بالطاعة ، وأوفد ابن عمه متطارحاً وشافعاً فتقبّل السلطان منه وسيلته^(٣) وأغضى لإبن مزني عن هنائه وأسعفهم بكبير دولته وخالصة سرّه أبي عبدالله ابن أبي هلال ليتناول منه المخالصة . ويمكن له الإلفة ويمسح عنه هو أجس الارتباب والمخافة .

وكان قد انتهى إليهم من الحياة ففصل عن الحضرة ، وإرتحل السلطان في ذي القعدة آخر سنة إثنين وثمانين وسبعمائة لتفقد عمّاله وابتلاء الطاعة من أهل أوطانه . ولما

(١) وفي نسخة أخرى : نهوض السلطان أبي العباس إليهم ، تمسّك بذلك طرف التوثق من أبي زيّان .

(٢) وفي نسخة أخرى : المعبي على المراقع .

(٣) وفي نسخة ثانية : فتقبّل السلطان فيشته ووسيلته .

وصل وافد السلطان إلى أبي مزني ألقى زمامه إليه وحكمه في ذات يده وقبله ، ومحا أثر المراوغة واستجد لبؤس الانحياش والطاعة ، وبادر إلى استجادة المقربات وانتقاء صنوف التحف . وبعث بذلك في ركاب الوافد فدفع الذي عليه من الضريبة المعروفة محملاً أكباد جياده^(١) وظهور مطاياه ، ووصلوا إلى معسكر السلطان بساح تبسة فاتح سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فجلس لهم السلطان جلوساً فخماً ولقاهم قبولاً وكرامة ، فعرضوا الهدية ، وأعربوا عن الانحياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم إحسان السلطان في مقامتهم وجوارثه على الطبقات في انصرافهم ، وانقلبوا بما ملأ صدورهم إحساناً ونعمة وظفروا برضا السلطان وغبطته ، وحسبهم بها أمينة وبيد الله تصاريف الأمور ومظاهر الغيوب .

* (الخبر عن انتفاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة) *

قد ذكرنا ما كان من رجوع أولاد أبي الليل هؤلاء إلى طاعة السلطان إثر منصرفه من فتح قابس ، وأنهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبلهم وعفا عن كبائرهم واسترهن على الطاعة أبناءهم ، واقتضى بالوفاء على ذلك أيمانهم . وخرج الأخ الكريم أبو يحيى زكريا في العساكر لاقتضاء المغارم من هوارة التي استأثروا بها في مدة هذه الفتن . وارتحل معه أولاد أبي الليل وأحلافهم من حكيم حتى استوفى جبايته وجال في أقطار عمله . ثم انكفأ راجعاً إلى الحضرة ، ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في أفعالهم بالعسكر إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء اقطاعاتهم ، فسرّح السلطان معهم لذلك ابنه أبا فارس وارتحلوا معه بأحيائهم ، وكان ابن مزني وابن يملول من قبله ويعقوب بن علي كثيراً ما يرسلونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الإغراف ومشايعة صاحب تلمسان .

ولما اعتقلوا أبا زيان ببسكرة كما ذكرناه وتوفي بصريخ أبي حمو ومظاهرته . فنقضت عروق الخلاف في أولاد أبي الليل وفزعوا إلى العلاق بيعقوب بن علي رجاء فيما

(١) وفي نسخة ثانية : اكساد ثقاته .

توهموه من استغلاظ أمرهم بصاحب تلمسان ويأساً من معاودة التغلب الذي كان لهم على ضواحي أفريقية ، ففارقوا الأمير أبا فارس بعد أن بلغوه مأمنه من قفصة ، وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يقعوا على الغرض ولا ظفروا بالبغيه ، ووافوا يعقوب وابن مزني ، وقد جاءهم وافتد أبي حمو بالقعود عن نصرتهم ، والأمير أبو زيان قد انطلق لسييله عنهم ، فسقط في أيديهم وعادوهم الندم على ما استدبروا من أمرهم ، وحملهم يعقوب على مراجعة السلطان وأوفد ابنه محمداً في ذلك مع وافتد العزيز أبي عبدالله محمد بن أبي جلال فتقبلهم وأحسن التجاوز عنهم . وبعث أبا يحيى أخاه لاستقدامهم أماناً لهم وتأنيساً . وبذل لهم فوق ما أملوه من مذهب الرضا والقبول واتصل النجح والظهور ، والحمد لله وحده .

* (تغلب ابن يملول على توزر وارتجاعها منه) *

قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك ببسكرة خلف صبيّاً اسمه أبو يحيى ، وذكرنا كيف أجلب على توزر سنة ثنتين وثمانين وسبعائة مع لفيف أعراب رياح ومرداس . فلما كان سنة ثلاث وثمانين وسبعائة بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين أولاد مهلهل من الكعوب ، وانحدروا إلى مشاتهم بالصحراء فبعث أميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبيّ أبي يحيى من بسكرة ، فترل بأحيائه بساح توزر ، ودفع الصبيّ إلى حصارها ، واجتمع عليه شيعته من نواحي البلد وأشراف^(١) من أعراب الصحراء ، وأجلبوا على البلد وناوشوا أهلها القتال وكان بها المتصر ابن السلطان فقاتلهم أياماً . ثم تداعى شيعهم من جوانب المدينة وغلبوا عساكرهم وأحجروهم بالبلد ، ثم دخلوا عليهم ، وخرج المتصر ناجياً بنفسه إلى بيت يحيى بن طالب . واستندم به فأجاره وأبلغه إلى مأمنه بقفصة ، وبها عاملها عبدالله التريكي .

واستولى ابن يملول على توزر ، واستنفذ ما معه وما استخرجه من ذخائر توزر في أعطيات العرب ، وزادهم جباية السنة من البلد بكمالها ، ولم يحصل على رضاهم وبلغ الخبر إلى السلطان بتونس ، فشمر عزائمه وعسكر بظاهر البلد ، واعترض الجند

(١) وفي نسخة أخرى : أوشاب .

وأزاح عنهم وارتحل إلى ناحية الأريض وهو يستألف الأعراب ويجمع لقتال أولاد مهلهل أقاتلهم وأعداءهم أولاد أبي الليل وأولياءهم وأحلافهم ليستكثر بهم ، حتى نزل على فحوص تبسة فأراح بهم أياماً حتى توافت أمداده من كل ناحية ونهض يريد توزر . ولما احتلّ بقفصة قدم أخاه الأمير أبا يحيى وابنه الأمير المنتصر في العساكر ومعها صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل ، وسار على أثرهم في التعبئة . ولما انتهى أخوه وابنه إلى توزر حاصروها وضيقوا عليها أياماً . † وصل السلطان فرحف إليها العساكر من جوانبها وقتلوا يوماً إلى المساء ، ثم باذوها بالقتال فخذل ابن ابن يملول أصحابه وأفردوه فذهب ناجياً بنفسه إلى حلل العرب ، ودخل السلطان البلد واستولى عليه وأعاد ابنه إلى محل إمارته منه ، وانكفأ راجعاً إلى قفصة ، ثم إلى تونس منتصف أربع وثمانين وسبعائة .

* (ولاية الأمير زكريا ابن السلطان على توزر) *

ثم عاد ابن يملول إلى الاجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره ففكر راجعاً إلى الزاب ونزل السلطان قفصة ووافاه هنالك ابنه المنتصر ، وتظلم أهل توزر من أبي القاسم الشهرزوري الذي كان حاجباً للمنتصر فسمع شكواهم ، وأبلغ إليه الخاصة سوء دخلته وقبيح أفعاله فتقبض عليه بقفصة واحتمله مقيداً إلى تونس . وغضب لذلك المنتصر وأقسم لا يلي على توزر . وسار مع السلطان إلى تونس وولى السلطان على توزر الأمير زكريا من ولده الأصاغر لما كان يتوسم فيه من النجاة فصدقت فراسته فيه وقام بأمرها وأحسن المدافعة عنها ، وقام باستئلاف الشارد من أحياء العرب وأمرائهم حتى تم أمره وحسنت ولايته . والله متولي الأمور بحكمته لا إله إلا هو .

* (وفاة الأمير أبي عبدالله صاحب بجاية) *

كان السلطان لما سار إلى فتح تونس وولى على بجاية ابنه محمداً كما مر وأقام له حاجباً

وأوصاه بالرجوع إلى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد الأسطول المتقدم على أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم . فقام هذا الأمير أبو عبد الله في منصب الملك ببجاية أحسن قيام واصطنع أبي مهدي أحسن اصطناع فكان يجري في قصوره وأغراضه ويكفيه مهمه في سلطانه ، ويراقب مرضاة السلطان في أحواله ، والأمير يعرف له ذلك ويوفيه حقه إلى أن أدركته المنية أوائل خمس وثمانين وسبعائة فتوفي على فراشه آنس ما كان سرياً وآمن روعاً مشيعاً من رضى أبيه ورعيته بما يفتح له أبواب الرضى من ربه ، وبلغ نعيه إلى أبيه بتونس فبادر بانفاذ العهد لابنه أبي العباس أحمد بولاية بجاية مكان أبيه وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي مستبدًا عليه واستقامت الأمور على ذلك .

* (حركة السلطان إلى الزاب) *

كنت أنهيت بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من أيدي ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس ، ثم ركبت البحر منتصف أربع وثمانين وسبعائة إلى بلاد المشرق لقضاء الفرض ، ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر ، ثم صارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين ، فمن أول ما بلغنا وفاة هذا الأمير ابن السلطان ببجاية سنة خمس وثمانين وسبعائة . ثم بلغنا بعدها حركة السلطان إلى الزاب سنة ست وثمانين وسبعائة ، وذلك أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب لعده كان مضطرب الطاعة متحيزاً على السلطان وكان يمنع في أكثر السنين المغارم معولاً على مدافعة العرب الذين هلكوا بضواحي الزاب والتلول دونه ، وأكثر وثوقه في ذلك ببيعقوب بن علي وقومه الزواودة ، وقد مرّ طرف من أخباره مثبتاً في أخبار الدولة . وكان ابن يملول قد أوى إلى بلده واتخذ وكراً في جوه وأجلب على توزر مراراً برأيه ومعونته فاحفظ على ذلك السلطان ونبه له عزائمهم .

ثم نهض سنة ست وثمانين وسبعائة يريد الزاب بعد أن جمع الجموع واحتشد الجنود واستألف العرب من بني سُلَيْم فساروا معه وأوعبوا ، ومرّ على فحوص تبسه . ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد تهودا من أعمال الزاب ، واعصوصب الزواودة ومن

معه من قبائل رياح على المدافعة دون بسكرة والزاب غيرة من بني سُليم أن يتركوا أوطانهم أو يردوا مراعيهم إلا بني سباع بن شبل من الزاودة ، فإنهم تحيزوا إلى السلطان . استنفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الأثيج فغصت بسكرة بجمعهم وتواقف الفريقان ، وأنالهم السلطان القتال أياماً وهو يرأس يعقوب بن علي ويستحثه لما كان يطمعه به من المظاهرة على ابن مزني ، ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه وائتلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى تتمكن له فرصة أخرى ، فتقبل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها ، وقبل طاعته وضريته المعلومة ، وانكفاً راجعاً ، ومر بجبل أوراس ثم إلى قسنطينة فأراح بها ، ثم ارتحل إلى تونس فوصل إليها منتصف سنة ثمانين وسبعمائة هـ .

* (حركة السلطان الى قابس) *

كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وانتظمها في أعماله وشرّد عنها بني مكّي فذهبوا إلى نواحي طرابلس وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن أخيه أحمد ، وذهب ابنه يحيى إلى الحج ، وأقام عبد الوهاب بزور ثم رجع إلى جبال قابس يحاول على ملكها . واستتبّ له ذلك بوثوب جماعة من أهل البلد بعاملها يوسف بن الآبار من صنائع السلطان بقبح إيالته وسوء سيرته ، فدخلوا جماعة من شيعة ابن مكّي في ضواحي قابس وقراها ووعدوهم فجاءوا لميعادهم وعبد الوهاب معهم ، واقتحموا باب البلد وقتلوا البوّاب . وقصدوا ابن الآبار فقتلوه في مسكنه سنة إثنين وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه . وجاء أخوه يحيى من المشرق فأجلب عليه مراراً يروم ملك البلد منه فلم يتهبّ له ذلك ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها ، فبعث عبد الوهاب إلى صاحب الحامة وبذل له المال على أن يمكّنه منه فبعث به إليه فاعتقله بعض العروسيين ، وأقام يراوغ السلطان على الطاعة وبذل ماله في أعراب الضاحية من دباب وغيرهم للمدافعة عنه ، ومنع الضريبة التي كانوا يؤدّونها للسلطان أيام طاعتهم ، والسلطان مشغول عنهم بهمه ، فلما فرغ من شواغله بأفريقية والزاب

نهض إليه سنة تسع وثمانين وسبعائة بعد أن اعترض عساكره واستألف من العرب أوليائه وسرب فيهم عطاءه .

ونزل على قابس وقد استعدّ لها وجمع الآلات لحصارها فاكنتح نواحيها ، وجثم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى أعاد الكثير من ألفافها براحاً وموّج الهواء في ساحتها ، فصحّ إذ كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر ، في مكائف الطلال وما يلحقه في ذلك من التعفّن ، فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوحخم رحمة من الله أصابته من عذاب هذا السلطان وربما صحّت الأجسام بالعلل * ولما اشتدّ بهم الحصار وضاق المخرج ، وظنّ ابن مكّي أنه قد أحيط به استعتب للسلطان واستأمن فأعته وأمنه ورهن ابنه على الطاعة أداء الضريبة وأفرج عنه السلطان وانكفاً راجعاً إلى تونس ، واستقام ابن مكّي حتى كان من تغلب عمه يحيى عليه ما نذكره .

* (رجوع المنتصر الى ولايته بتوزر وولاية أخيه زكريا على نفطة ونفزاوة) *

كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته واصفقوا^(١) على محبته والتشيع له ، فلما رجع السلطان عن قابس وقفوا إليه في طريقه إلى أن تولى المنتصر على بلاد الجريد كما كان ورده إلى عمله بتوزر . وتولّى ذلك بنو مهلهل وأركبوا نساءهم الظعن في الهوادج واعترضوا بهنّ السلطان سافرات مولولات دخلاء عليه في إعادة المنتصر إلى توزر لما لهم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن وأعادته الى توزر ، ونقل ابنه زكريا إلى نفطة وأضاف إليها عمل نفزاوة فسار إليها واستعمل بعمله وأظهر من الكفاية والاضطلاع ما تحدّث به الناس عنه ، وكانت ولايته أول سنة تسعين وسبعائة .

* (فتنة الأمير ابراهيم صاحب قسنطينة مع الزواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير ابراهيم أثرها) *

كان للزواودة بقسنطينة عطاء معلوم مرتّب على مراتبهم زيادة لما بأيديهم من البلاد في

(١) بمعنى أجمعوا .

التلول والزاب بأقطاع السلطان وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاقت الجباية وصارت العرب يزرعون الأراضي في بلادهم بالمسيل ولا يحتسبون بمغارمها فضيق الدخول يمنعهم العطاء من أجل ذلك ، ففسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم . ولما رجع الأمير ابراهيم من حركته في ركاب أبيه إلى قابس ، وكان منذ أعوام ينقص من عطائهم لذلك ، ويعلّلهم بالمواعيد ، فلما قفل من قابس اجتمعوا إليه وطلبوا منه عطاءهم فتعالى ، وجاءه يعقوب بن عليّ مرجعه من الحج وأشار عليه بإنصاف العرب من مطالبهم فأعرض عنه وارتحل لبعض مذهبه ، وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استئلاف أعدائه فأجابه الكثير من أولاد سباع بن شبل وأولاد سباع بن يحيى وباديتهم من ذؤبان ورياح ، وخرج يعقوب من التل فترل على نفاوس فأقام بها ، وانطلقت أيدي قومه على تلول قسنطينة بالنهب وانتساف الزرع حتى اكتسحوا عامتها ولحقوا به مالتي اليد مثقلي الظهر .

ثم طرده المرض فهلك سنة تسعين وسبعائة ونقلوا شلوه إلى بسكرة فدفنوه بها وقام مكانه في قومه ابنه محمد . واستمرّ على العصيان وصعد إلى التل في منتصف إحدى وتسعين وسبعائة واستألف الأمير ابراهيم أعداءه من الزاودة وأحلافهم من البادية جنح إليه أبو ستة بن عمر أخو يعقوب بن عليّ بما معه من أولاد عائشة أم عمر ، وخالفه أخوه صميت إلى محمد بن يعقوب ، وتحاربوا مع الأمير ابراهيم فهزموه وقتل أبو ستة ثم جمع السلطان لحربهم ودفع عن التلول ومنعهم من المصيف عامهم ذلك . وانحدروا إلى مشاتهم وعجزوا بعدها عن الصعود إلى التلول وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزباب ، وانحدروا منه إلى المشاتي فلما رجعوا من مشاتهم وقد فقدوا الميرة انطلقت أيديهم على نواحي الزاب فانتسفوا زروعه ، وكاد أن يفسد ما بينهم وبين ابن مزني مظاهرهم على تلك الفتنة . ثم ارتحلوا صاعدين إلى التلول وقد جمع الأمير ابراهيم لدفاعهم عنه . وبينما هو في ذلك ألمّ به طائف من المرض فتوفي سنة إثنين وتسعين وسبعائة وافترت جموعه وأغذّ محمد بن يعقوب السير إلى نواحي قسنطينة فاحتلّ بها مظهراً للطاعة متبرئاً من الخلاف ، ونادى في أهل البلاد بالأمان العمارة فصلحت أحوال الرعايا والسابلة . وبعثوا إلى السلطان بتونس مستأمنين مستعتبين فأتمهم وأقام بقسنطينة مكان ابراهيم ابنه ، وبعث من حضرته محمد ابن

مولاه بشير لكفالاته والقيام بدولته فقام بأمرها ، وصلحت الأحوال والله بيده
تصاريص الأمور .

* (منازل نصارى الإفرنج المهدية) *

كانت أمة الفرنج وزاء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض
دولة الروم فملكوا جزائره ومثل : سردانية وميورقة وصقلية ، وملأت أساطيلهم فضاءه
وتخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها ، وعادت لهم سورة الغلب في هذا
البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله
ومراكبه ^(١) فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم ، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني
مريـن أياماً . ثم فشل ربح الفرنجة واختل مركز دولتهم بإفرنسة ، وافترقت طوائف في
أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية ، وأصبحوا دولاً
متعددة فتبتهت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل أفريقية لغزو بلادهم ، وشرع في
ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير ^(٢) والطائفة من غزاة البحر ، يضعون
الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال ، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائره على
حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة
فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور
الغربية من بجاية بأسراهم تضحج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما
يتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدايتهم بما يتعذر منه أويكاد ، فشق ذلك على أمم
الفرنجة وملأ قلوبهم ذلاً وحسرة وعجزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى
إلى السلطان بأفريقية فصم عن سماعها وتطارحوا سهمهم ونكلهم ^(٣) فيما بينهم
وتداعوا التزول المسلمين والأخذ بالثأر منهم .

وبلغ خبر استعدادهم إلى السلطان فسرّح إبنه الأمير أبا فارس يستنفر أهل النواحي
ويكون رصداً للأسطول هنالك ، واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم

(١) وفي نسخة ثانية : مران راكبيه .

(٢) وفي نسخة ثانية : فيجمع النفراء .

(٣) وفي نسخة أخرى : وتطارحوا بشم وثكلهم .

ويجاورهم من أمم النصرانية ، وأقلعوا من جنوة فحطّوا بمرسى المهديّة متصّفين إثنين وتسعين وسبعمائة وطرقوها على حين غفلة وهو على طرف البرّ داخل في البحر كأنه لسان دالّع فأرسوا عندها ، وضربوا عند أوّل الطرق سوراً من الخشب بينه وبين البرّ حتى صار المعقل في حكمهم ، وعالوا عليه بالأبراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكّنوا من قتال البلد ومن يأتيهم من مدد المسلمين ، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكايتهم ، وتحصّن أهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين . وتوافّت إليهم الأمداد من نواحي البلد فحال دونهم الفرنجة .

وبلغ الخبر إلى السلطان فأهمّه أمرها وسرّح العساكر تترى إلى مظاهرتهم . ثم خرج أخوه الأمير أبو يحيى زكريا وسائر بنيّه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا للجهاد هذا العدو ، واستنفر المقاتلة من الأعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها أمم ، وألحوا على الفرنجة بالقتال ونضح السهام حتى أحجروهم في سورهم . وبرز الفرنجة للقتال فكان بينهم وبين المسلمين جولة جلى فيها أبناء السلطان ، وكاد الأمير أبو فارس منهم أن يتورّط لولا حامية الله التي وقته . ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من أسوار البلد فاحترق البرج المظل عليها من جهة البحر فوجموا لحريقه . ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم ، وخرج أهل المهديّة يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الأمراء على ما اعتمدوه في نصرهم ، « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال » . وأمر الأمير أبو يحيى برّم ما تتلّم من أسوارها ، ولمّا ما تشعّت منها ، وقفل إلى تونس وقد أنجح الله قصدهم وأظهرهم على عدوّه وعدوّهم ، والله تعالى ينصر من يشاء وهو القوي العزيز .

* (انتفاض قفصة وحصارها) *

كان السلطان أبو العباس قد ولّى على قفصة عندما ملكها ابنه الأمير أبا بكر وأقام في خدمته من رجال دولتهم عبدالله التريكي من موالي جدّهم السلطان أبي يحيى فانظم به أمره وأقام بها حولاً . ثم تجافى عن إمارتها ولحق بأبيه بتونس سنة إثنين وثمانين وسبعمائة فجعل السلطان أمر قفصة لعبدالله التريكي وولاه عليها ثقة بغنائه واضطلاعه . ولم يزل بها والياً إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة وولّى السلطان

مكانه محمداً ابنه ، وكان له إخوة أصاغر أبنا علات فنافسوه في تلك الرتبة وحسدوه عليها ، وأغراهم به محمد الدينيدون من قرابة أحمد بن العابد كان ينظر في قسمة الماء بالبلد ، وكان فيها عدلاً معقلاً ، فلم تطرقه النكبة كما طرقت قومه ، وأبقاه السلطان بالبلد فأغرى هؤلاء الأخوة بأخيهم ووثبوا به فاعتقلوه وأظهروا العصيان . ثم حملة أعيان البلد على البراءة من بني عبدالله التريكي استرابة بهم أن يراجعوا طاعة السلطان فتوَّب بهم وأخرجهم واستصفاهم واستقل برياسة البلد كما كان قومه ، والسلطان في خلال ذلك يرعد ويبرق ويواصل الأعذار والإنذار ، وهم قد لجؤا في طغيانهم . ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الأعراب ووَقَّر لهم الأعطيات . ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين وسبعائة وقد استعدوا وتحصَّنوا فآلَح عليهم القتال وأذاقهم النكال ، وقطع عنهم الميرة فضيَّق محنتهم . ثم عدا على نخلمهم يقطعها حتى صرع جذوعها وفصح المجال بين لفافها .

ولما اشتد بهم الحصار وضاق عليهم المخرج ، فخرج شيخهم الدَّيْنِدَن إلى السلطان يعقد معه صلحاً على بلده وقومه فغدر به ، وحبسه رجاء أن يملك بذلك البلد . وكان بعض بني العابد واسمه عمرو بن الحسن قد انتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب ، ثم رجع ونزل بأطراف الزاب . ولما استقل الدينيدون بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً ثم استراب به وتقبَّض عليه وحبسه . فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الإمرة ، وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم . وسرَّبوإ إليهم الأموال فتصدَّى إلى الدفاع عنهم صولة بن خالد بن حمزة أمير أولاد أبي الليل ، وزحف إلى السلطان بمعسكره من ظاهر البلد ، وكان أولياؤه من العرب قد أبعدوا عنه في الجهات لانتجاع إبلهم فما راعه إلاَّ إطلاق صولة برايته في قومه فأجفل واتبعوه . وما زال يكرِّر عليهم في بنيه وخواصه حتى ردَّهم على أعقابهم . وأغذَّ السير إلى تونس وهم في اتباعه ، ولم يظفروا منه بعقال إلاَّ ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل إلى حضرته . ثم ندم صولة على ما كان منه وراسل السلطان بطاعته فلم يقبله ، وانحدر إلى مشاتيه سنة ست وتسعين وسبعائة .

واستدعى ابن يملول إلى صولة فأغراه بحصار توزر وأنزل معه عليها قومه فجلَّى الأمير المنتصر ابن السلطان في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يشوا ، واضطربت آراؤهم وأفرجوا عنها مفترقين . وصعد صولة إلى التلال للمصيف به ، وعاد الرغبة من

السلطان في قبول طاعته . وكان محمد الدينيدن لما أجفل السلطان عن قفصة تركه بتلك الناحية ، فلما وصل إلى تونس أرسل أهل قفصة في الرجوع إليهم فأجابه أشياءه ، ودخل البلد فبدر به عمر بن العابد وكبسه بمكانه الذي نزل به وقتله ، واستبدَّ بمشيخة قَفْصَة وخشي أهل قَفْصَة من غائلة السلطان وسوء مغبة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم ، وشرط عليهم نزول عامله عندهم ، وهذا آخر ما بلغنا عنهم والله مصروف الأمور بحكمته .

* (ولاية ابن السلطان على صفاقس واستيلاؤه منها على قابس وجزيرة جربة) *

هذا الأمير عمر ابن السلطان هو شقيق ابراهيم الذي كان أميراً بقسنطينة ، وكان في كفالة أخيه ابراهيم . فلما توفي كبراً مرّ لحق بالسلطان أبيه وأقام عنده . ولما كان من وفاة ابي بكر بن ثابت شيخ طرابلس ما قدّمناه واضطرب قومه من بعده ، ونزع قائداهم ورئيسهم ابن خلف إلى السلطان فبعث معه ابنه عمر هذا سنة اثنتين وتسعين وسبعائة لحصار طرابلس ، وأقام عليها حولاً كريئاً يحاصرها ويمنع الأقوات عنها ، حتى ضجروا وضجر من طول المقاومة فدافعوه بالضرية وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعائة ووافاه جائئاً على قفصة عندما انتقضوا عليه ، وقد مرّ في طريقه على جَرَبَة وأراد الدخول إليها فمنعه عامل أبيه بها من الموالي المعلوجين فأنف من ذلك ، وشكاه إلى أبيه فولّاه على صفاقس ، ووعده بولاية جَرَبَة فسار هو إلى صفاقس وأجاز البحر إلى جزيرة جربة ، وانضمّ إليه جميع من بها من القبائل . وامتنع العليج منصور العامل بمحصنها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج ، حتى كاتب السلطان فأمره بتمكين ابنه من الحصن والإفراج له عن الجزيرة أجمع ، فأستبدَّ بها . ثم إنَّ الأمير عمر سما إلى ملك قابس ، فداخل أهل الحامة في ذلك فأجابه وساروا معه يجمعهم سنة ست وتسعين وسبعائة فبيّتها وملكها ، وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك بن مكّي فضرب عنقه ، وانقرض أمر بني مكّي من قابس واستقلَّ بها الأمير عمر مضافة إلى ما كان بيده ، والله وارث الأمور .

* (وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز) *

كان السلطان أبو العباس أزمى به وجع النقرس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المحفة . ثم اشتدّ به آخر عمره وأشرف في سنة ست وتسعين وسبعائة على الهلكة . وكان أخوه زكريا رديفه في الملك والمرشح بعده للأمر ، وإبنه محمد والياً على بونة موضع إمارته من قبل . وكان للسلطان أولاد كثيرون يتناولون على أبيهم ويغصون بعمهم زكريا ، ويخشون غائلته بعد أبيهم ، فلما قارب السلطان منيته اشتدّ جزعهم واشفاقهم من عمهم . وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر بعهدده على قسنطينة فسار إليها بين يدي موته ، واغصوب الباكون على كبيرهم بعده إلى أبي فارس عزوز فقبضوا على عمهم زكريا وقد دخل يعود أخاه ، وأودعوه في بعض الحجر ووكّلوا به ، وهلك السلطان لثلاث بعدها فبايعوا أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ست وتسعين وجاء أهل البلد إلى بيعته أفواجاً من الأعيان والكافة فتمّت بيعته ، وأمر بنقل ما في بيوت عمّه من الأموال والذخيرة إلى قصره حتى استوعبها ، وضيق عليه في محبسه ، وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه . وولّى بعض إخوته على منابر عمله بأفريقية فبعث أحدهم على سوسة والثاني على المهدية ، وردف أخاه اسمعيل في ملكه بتونس ، وأحلّ الباقيين محل الشورى والمفاوضة .

وبلغ الخبر إلى أخيه المتصر بتوزر فاضطرب أمره ولحق بالحامة فأقام بها . وكذلك أخوه زكريا بنقطة فلاحق بالجلال بنفزاوة . وكان أخوه أبو بكر لما سار إلى قسنطينة لولاية أبيه قبيل وفاته ومربونة فلقه صاحبها الأمير محمد ابن عمّه زكريا بما شاء من أنواع الكرامة والمبرة ووافى قسنطينة فطلب منه القائمون بها كتاب السلطان بعهدده عليها فأقرأهم إياه ، وفتحوا له الأبواب فدخل واستولى على أمرها . وكان خالصة السلطان أبي فارس عبد العزيز المتولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العباس بن سالم في صفر من شهور السنة ، وحمّله من الهدايا والتحف ما يليق بأمثالها فسار . فلما انتهى إلى ميلة بلغه الخبر بوفاة السلطان مرسله وأوعز إليه الأمير أبو بكر من قسنطينة^(١)

(١) وفي طبعة بولاق المصرية : قسنطينة وكذا في النسخة التونسية . وفي معجم البلدان : قسنطينة . وفي كتب التاريخ الحديثة : قسنطينة .

بالرجوع إليه فرجع بهديته ، واستقرّ عنده هنالك .
(هذا آخر ما بلغنا) من الأخبار الصحيحة عنهم لهذه السنين وحالهم على ذلك لهذا
العهد ، والملك بيد الله يؤتية من يشاء لا ربّ سواه ، ولا معبود إلاّ إياه ، وهو على
كل شيء قدير .

أبو فارس غرور السلطان أبو العباس بن أحمد — بن محمد بن السلطان أبي بكر — بن محمد بن عبد الوالد

يهار

الامير أحمد بن محمد
الامير أبو بكر

الامير أبو زيد عبد الرحمن —

أبو فارس عبد العزيز

بن محمد بن إبراهيم

محمد أبو عبيدة بن المخلوع يحيى بن المنتصر محمد
ولي العهد زكريا

محمد بن ضربه بن زكريا
أبو الحسن بن أبي زيد

محمد بن أبي بكر بن عمران موسى بن إبراهيم بن أبي الشهيد

مزامح السلطان أبي بكر

محمد بن ١٨

بن ١٨
بن ١٨
بن ١٨

بن ١٨

محمد بن السلطان لمسلم

أبراهيم بن أبي بكر الشيبه

بن ١٨
بن ١٨
بن ١٨
بن ١٨

بن ١٨
بن ١٨

* (الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما إليها من الزاب) *

هذا البلد بَسْكَرَة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد ، وحدّه من لدن قصر الدّوسن بالمغرب إلى قصور هولة^(١) وبادس في المشرق ، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمّونه الحَصْنَة جبل جاتم من المغرب إلى المشرق ، ذو ثنایا تقضي إليه من تلك الحصنة ، وهو جبل دَرَن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة بَرَقَة . ويعتمر بعض ذلك الجبل في محاذاة الزاب من غربيه بقايا عمرت من زناته ، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الجوف^(٢) . وهو جبل مشهور الذكر يأتي الخبر عن بعض ساكنيه . وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعدّدة متجاورة جمعاً جمعاً ، يعرف كلّ واحد منها بالزاب . وأولها زاب الدّوسن ، ثم زاب طَوْلَقَة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس . وبسكرة أمّ هذه القرى كلها ، وكانت مشيختها في القديم بعد الأغالبة والشيعه لعهد صنهاجة ملوك القلعة من بني رَمّان من أهلها بما كثروا بساكنها . وملكوا عامّة ضياعها . كان لجعفر بن أبي رَمّان منهم له صيت وشهرة . ورثاً نقضوا الطاعة لعهد بلكنين بن محمد بن حمّاد صاحب القلعة في سني خمسين وأربعمائة ، وضبطوا البلد وامتنعوا . وتولى كبير ذلك جعفر بن أبي رمانه ، ونازلتهم جيوش صنهاجة إلى نظر الوزير خلف بن أبي حديدة^(٣) من صنائع الدولة فاقتحمها عليهم ، واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكنين جميعاً ، وجعلهم عِظَةً لمن بعدهم . وأصار الشوري لبني سندي من أهلها . وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش إلى الدولة على حين تقلّص ظلّها وفشل ريحها ، وألوى الهرم بشبابها . وهو الذي فتك بالمتصر بن خزرون الزناتيّ بعد وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة أغرى بالأثبج^(٤) وبني عديّ وبني هلال ، فمكر به

(١) وفي نسخة ثانية : تنومه .

(٢) وفي طبعة بولاق : إلى الشمال .

(٣) وفي طبعة ثانية : خلف بن أبي حيدرة .

(٤) وفي طبعة ثانية : وأعراب الأثبج ...

السلطان وأقطعه ضواحي الزاب وريغه طعمة . ودس إلى عروس في الفتك به ففعل كما قدّمنا ذكره في أخبار آل حمّاد . وانقرضت رياسة بني سندي بانقراض أمراء صنهاجة من أفريقية . وجاءت دولة الموحدّين ، والذكرة والبيت لبني زيان^(١) . وكان بنو مزني لفقاً^(٢) من لفائق الأعراب ، وصلوا إلى أفريقية أحلاقاً لطوالع بني هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدّمنا .

ونسبهم يزعمهم في مازن من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الأثيج . ثم من بني جُرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف ، واسم أبيهم مُزَنَة بن دَيْفَل بن مُحَيّا بن جُرى ، هكذا تلقّيته من بعض الهلاليّين ، وشهد لذلك الموطىء ، فإن أهل الزاب كلّهم من أفريق الأثيج عجزوا عن الطعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زنّاة وطوالع الفتح ، وإنما يتزعون عن هذا النسب إلى فزارة لما صار إليه أهل الأثيج بالزاب من المغرم والوضائع ، فيستنكفون لذلك ويتنسبون إلى غرائب الأنساب . وكان أوّل نزولهم بقرية من قرى بَسْكَرَة وكانت تعرف بقرية حَيّاس . ثم كثروا وتسايلوا وأخذوا مع أهل بسكرة بحظ وافر من تملك العقار والمياه . ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمتزل والظلال ، وقاسموا أهلها في الحلو والمّر ، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة . ثم استنكف بنو زيان^(٣) من انتظامهم معهم وحسدوهم على ما آتاهم الله من فضله ، وحذّروهم من أنفسهم فاضطربت بينهم نار العداوة والاحن ، وكان أوّلها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بأفريقية ، ولعهد الأمير أبي زكريا وابنه السلطان مستنصر .

ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا بسكك المدينة وكانت صاغية الدولة مع بني زيان لقدمهم في البلد . ولما خرج الأمير أبو اسحق على أخيه محمد المستنصر لأوّل بيعته ، ولحق بالزواودة من العرب وبابح له موسى بن محمد بن مسعود البُلُط أمير البدو يومئذ ، واعتمر به بسكرة وبلاد الزاب ، وأناخ عليها بكلّكله كما قدّمناه . قام يومئذ فضل بن عليّ بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني بدعوته ، وأعلن بين أهل البلد بطاعته

(١) وفي طبعة ثانية : والكثرة والبيت لبني رمان .

(٢) يقال للرجلين هما لفقان أي لا يفترقان .

(٣) وفي نسخة ثانية : بنو رمان .

واتبعوه على كره . ثم عاجلهم عساكر السلطان وأجهضتهم ^(١) عن الزاب ، فاعتلق فضل بن عليّ به ، واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الاندلس ، وبدا غربته منها إلى أن هلك المستنصر أخوه ، هياً الله له من أمر الخلافة ما هياً حسباً ذكرناه . ولما تمّ أمره واقتعد بتونس كرسيّ خلافته عقد لفضل بن عليّ على الزاب ولأخيه عبد الواحد على بلاد الجريد رعيّاً للذمة خدمتهما ، وذكرراً لإيلافهما في المنزل الخشن وصحبتهما ، فقدم والياً على الزاب ، ودخل بسكرة واستكان بنو زيان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى أمره فلم ينبسوا ^(٢) بكلمة في شأنه ، واضطلع بتلك الولاية ما شاء الله .

ثم كان شأن الداعي بن أبي عمارة وتلبّسه ، ومهلك السلطان أبو اسحق على يده . ثم ثار منه السلطان أبو حفص بأخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم ، وكان يثق بعنانيته ^(٣) ، ويعوّل في أمر الزاب على كفايته . وسيم أعداؤه بنو زيان أيام ولايته فدخلوا أولاد حريز من لطيف إحدى بطون الأتابج ، كانوا نزلوا بقرية باشاش ^(٤) لضيق المدينة حين عجزوا عن الظعن ، وخالطوا أهل البلد في أحوالهم وامترجوا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن عليّ أن يكون التقدّم لهم في الفتك به ، وتناول الأمر من يده ، وأن يخربوا بيوتهم من قرية باشاش بأيديهم ليسكنوا إليهم ويطمثوا إلى ولايتهم حلفاً عقدوه على المكر بهم . ولما أوقعوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين وستمائة وتولّوا من أمر الزاب ما كان يتولّاه ، تنكر لهم بنو زيان لحوّلين من ذلك الحلف ، ونابدوهم العهد فخرجوا عن البلد وفقدوا ما لهم بها من قريب ^(٥) ، وتفرّقوا في بلاد ريغة ، واستبدّ بنو زيان بشورى بسكرة والزاب متقضين عليهم وعلى السلطان ، والزواودة قد تغلبوا عليه وعلى بلاد الحضنة من ورائه نقاوس ومقرّة والميلة . وكان منصور بن فضل بن عليّ عند مهلك أبيه بالحضرة في بعض شؤونه . فلما هلك أبوه واستبدّ بنو زيان بعده ، بثّوا السعايات فيه إلى السلطان بالحضرة فأنجحت ، وتقبّض عليه واعتقل أيام السلطان أبي حفص .

(١) أي أبعدتهم عن الزاب .

(٢) وفي نسخة ثانية : فلم ينبسوا ولا معنى لها هنا .

(٣) وفي نسخة ثانية : وكان يثق بعنانيته .

(٤) وفي نسخة ثانية : ماشاش .

(٥) وفي نسخة ثانية : وفقدوا المأوى للتمرس بها من قريب .

ولما تغلب المولى أبو زكريا يحيى ابن الأمير أبي إسحق على بجاية وقسنطينة وبونة ، واستقلّ بأمرها وانقسمت دولة آل أبي حفص بملكه ذلك منها ، تمسك أهل الزاب بدعوة صاحب الحضرة المولى أبي حفص وفر منصور بن فضل بن عليّ من محبسه بتونس ولحق ببجاية بعد مهلك الحاجب القائم بالأمر أبي الحسين بن سيد الناس ، وتولية السلطان أبي زكريا مكانه كاتبه أبو القاسم بن أبي يحيى سنة إحدى وتسعين وستائة ، فلأزم خدمته وخفّ عليه وصانعه بوجوه التخف وتضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه ، وشريف أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك ، فعقد له على الزاب وأمدّه بالعسكر فنازل بسكرة ووفد أهلها بنو زيان على السلطان ببجاية يبيعهم فرجعهم على الأعقاب إلى عاملهم منصور ، وكتب إليه بقبول بيعتهم ، ودخل البلد سنة ثلاث وتسعين وستائة ، وكادهم في بناء القصر لشيعته ، وتخصّن العسكر بسوره . ثم نابذهم العهد ، وثار بهم فأجلاهم عن البلد ، واستمكن فيها ورسخت قدم إمارته فيها ، واستدرّ جباية السلطان ، واتسع له نطاق العالة ، فاستضاف إلى عمل الزاب جبل أوراس وقرى ريغه وبلد واركلي وقرى الحصنة : مقرة ونقاوس والمسيلة . فعقد له السلطان على جميعها ، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتها حتى كاد يغلبهم عليها . ووفرّ أموال الدولة وأنهى الخراج وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالهبة ، وجذبوا بضبعه إلى أقصى مراتب الاصطناع ، فأثرى واحتجز الأموال ورسخت عروق رياسته ببسكرة ، ورسخت منابت عزّه وهلك المولى أبو زكريا الأوسط على رأس المائة السابعة ، وولّوا مكانه ابنه الأمير أبا البقاء خالداً كما قدّمناه ، وقام بأمره صاحبه أبو عبد الرحمن بن عمر .

وكان لمنصور بن فضل هذا اختصاص به واعتلاق بيد حاجبه^(١) فاستنام إليه وعول في سائر الضواحي من ممالك السلطان على نظره ، وعقد له على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله ، وجرد عن ساعد كفايته في جبايتها فلّقح عقيمها وتفجّرت ينابيعها . ثم حدثت بينه وبين الدولة منافرة وأجلب على قسنطينة يبيحي بن خالد ابن السلطان أبي إسحق حاجبه من تلمسان^(٢) ، وباع له

(١) وفي نسخة ثانية : جابه .

(٢) وفي نسخة ثانية : جأجأ به تلمسان وهذا تحريف .

واستألف الزواودة لمشايعته ، ونازل به قسنطينة ثم اطلع على مكامن صدره فيه وما طوى عليه من التريص به فحلّ عقده ، ولحق بعسكره ببسكرة ، وراجع الطاعة . ولحق يحيى بن خالد واعتقله إلى أن هلك سنة عشرين وسبعمائة وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنّة من العرب أتباع سعادة المشهور الذكر فتن وحروب ، وطالبوه بترك المغارم والمكوس تخفيفاً عن الرعيّة وعملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها ، ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مراراً . ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليل كما مرّ في ذكره سنة خمس وسبعمائة . وجمع منصور بن مزني للمرابطين ، وبعث عسكره يقوده ابنه عليّ بن منصور مع عليّ بن أحمد شيخ الزواودة ، وعلى المرباط أبو يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل : عيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد عساكر ، وعطيّة بن سليمان بن سبّاع وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا ابنه عليّاً وتقبّضوا على عليّ بن أحمد ، ثم متوا عليه وأطلقوه .

ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها . ثم عاودوه ثانية وثالثة . ولم يزل بينه وبين هؤلاء المرابطين فتن سائر أيامه . وكان الحاجب ابن عمر قد استخلصه لنفسه وأحلّه محل الثقة بحلته واستقامه إلى صنائعه^(١) . ولما نهض السلطان أبو البقاء إلى تونس صحبه الحاجب في جملته حتى اذا أعمل المكيدة في الإنصراف عن السلطان شاركه في تدبيرها إلى أن تمت كما قدّمناه . ورجع الحاجب إلى قسنطينة وردّه إلى مكان عمله من الزاب . وكان يتردّد إليه بيجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى أن غدر به العرب في بعض طرقه إليها . وتقبّض عليه من أمراء الزواودة عليّ بن أحمد بن عمر ابن محمد بن مسعود ، وسليمان بن عليّ بن سبّاع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا حبل الإمارة من يد عثمان بن سبّاع بن شبل بن موسى بن محمد ، واقتسما رئاسة الزواودة قومها فاستمكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله بلاد سدويكش ، وأوثقوه اعتقالاً ، وهما بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب وارتاشوا^(٢) بمسكوبهم ، وصرفوا في وجوه رياستهم ألفاً منها ، وقبض منصور بن فضل عنانه عن السفر بعدها إلا في الأحيان . وبعد أخذ الرهن من العرب إلى أن

(١) وفي نسخة أخرى : والاستقامة الى صفاته .

(٢) ارتاش ربما استعملها ابن خلدون بمعنى راش أي أكل كثيرا (قاموس) .

كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة وسبعائة أول حركاته إليها ، وطالب صاحبه يعقوب بن عمر وهو بثمر بجاية بالأموال للنفقات والأعطيات ، فبعث إليه بمنصور بن فضل وأشار بعقده له على حاجاته ليقوم بأمره ، ويكفيه مهات شؤونه واعتدّها منصور على ابن عمر فساء ظنّه ، وتنكر له ابن عمر ، وحالت صبغة ودّه وانكفأ السلطان من حركته تلك مخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدّمناه . ولما احتلّ بقسنطينة بدت له من يعقوب بن عمر صاحب الثغر محاليل الامتناع فأقصر عن اللحاق به ، وتردّدت بينها الرسل وبعث ابن عمر في منصور بن فضل . ونذر منه بالشرّ فأجاب داعيه ، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد ابن أبي الحسن بن سيّد الناس إليه ، حتى اذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلده ، وهمّ به القائد فأجاره أولياؤه من العرب : عثمان بن الناصر شيخ أولاد حربي ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنفر ومن معهم من ذويهم . ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن عمر ففرع سنّ الندم عليه ، وشايح منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أبا تاشفين ودخل في دعوته وأوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة والهدية . وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد أفريقية وهلك ابن عمر سنة تسع عشرة وسبعائة ولم يزل منصور بن مزني ممتنعا سائر أيامه على الدولة ، والعساكر من بجاية تتردّد لمنازلته إلى أن هلك سنة خمس وعشرين وسبعائة ، وقام بأمره من بعده ابنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب ، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية قرى : ريغة وواركلي . وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن عمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيّد الناس ، وجعل له كفالة ابنه يحيى ودفعه إليه فتجدّدت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان بما كانوا جميعاً صبنائع وبطانة للحاجب ابن عمر . وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه . وناول عبد الواحد هذا لآل زيّان الخائفين^(١) الدولة طرفاً من حبل طاعته فقبل فيها مذهب أبيه آخر عمره . وطال تمرّس الجيوش به إلى ان استجنّ منه عبد الواحد بصهر عقده له على ابنته ، واشترط المهادنة وتسليم الجباية ، وتودع أمره إلى أن اغتاله أخوه يوسف سنة تسع وعشرين وسبعائة بمدخله بظانهم من بني

(١) وفي نسخة ثانية : مخانقي .

سباط وبني أبي كواية . ولما أحكم مداخلتهم في شأنه آذنه عشاء للشورى معه في بعض المهات ، وطعنه بخنجره فأشواه وهلك لحينه . واستقل يوسف بن منصور بإمارة الزاب ووصله مرسوم السلطان بالتقليد والخلع على العادة ، وأجرى الرسم في الدعاء له على منابر عمله .

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر ببجاية^(١) ، وفوض له أمور ملكه ، فهاجت نار العداوة والإحن القديمة بما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب ، وهم به لولا ما أخذ بحجزته من الشغل الشاغل للدولة بتحيف آل زيان وهلك الحاجب سنة إثنين وثلاثين وسبعائة في نكبة السلطان إياه كما ذكرناه ، وعقد لمحمد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر ، وفوض له في سائر القرى والضواحي ، فأجرى سياسته وحكمه في دولته وتغلب على أمره على حين فرغ السلطان من الشغل بمداخلة عدوه ، وحط ما كان من أمرهم على كاهل دولته . ونهض السلطان أبو الحسن إلى آل يغمراسن فقلّم أظفار اعتدائهم^(٢) وفلّ شبا عزائمهم كما شرحنا قبل ، فأذكى القائد محمد بن الحكيم مع يوسف بن منصور نار العداوة ، وأثار له من السلطان كأمن الحفيظة وصرف وجوه العزائم إلى حمله على الجادة وتقويمه عن المراوغة في الطاعة ، وناهضه بالعساكر مرّات ثلاثاً يدافعه في كلّها بتسليم الجباية إليه . ثم كانت بينه وبين علي بن أحمد كبير الزواودة فتن وحروب دعا إليها منافسة علي في استثارته بمال الجباية دونه فواضعه الحرب ، ودعا العرب إلى منازلته ممّوها بالدعاء إلى السنة ، وحشد أهل ريغة لذلك ونازله ، وانحرف عنه ابنه يعقوب ودخل إلى بسكرة فأصهر له ابن مزني في أخته بنت منصور بن فضل ، وعقد له عليها ، فحسن دفاعه عنه ، وبعث ابن مزني عن سليمان بن عليّ كبير أولاد سباع ، وقريع علي بن أحمد في شؤونه ، فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال ويرأوحوه إلى أن امتنع ابن مزني .

ورحل علي بن أحمد عن بسكرة وصار مع ابن مزني إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة . ثم كانت غزاة القائد بن الحكيم إليه نهض من أفرقية بعد أن نازل بلاد الجريد ، واقتضى طاعتهم ومغارمهم ، واسترهن ولد ابن يملول . ثم

(١) وفي نسخة ثانية : لحجابه .

(٢) وفي نسخة ثانية : اعتدائهم .

ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سُلَيْم فاجفل بالزاب ونزل بلد أوماش من قراه ، وقرت العرب من الزاودة وسائر رياح أمامه ، ودافعه يوسف بن مزني بهدية دفعها إليه وهو بمكانه من أوماش ، وارتحل عنه إلى بلاد ريغة فافتتح تقرت معقلهم واستباحها ودوخ سائر أعمالها . ورجع إلى تونس ونكب السلطان قائده محمد ابن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين وسبعائة وولى ابنه أبا حفص عمر . وخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرتة وسعاية بطانته فلحق بملك المغرب المروهب الشبا^(١) المطل على المالك ، يعسوب القبائل والعشائر الحسن ، وأغراه بملك أفريقية واستجره إليها ، فنهض في الأمم العريضة سنة ثمان وأربعين وسبعائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل . ووفد عليه يوسف بن منصور أمير الزاب بمعسكره من بني حسن فلقيه برًا وترحبًا واستتبعه في جملة إلى قسنطينة . ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة وواركلي ، وصرفه إلى عاملته . واستقبل تونس ، وأمره برفع الجباية إليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس الحول فاستعد لذلك ، حتى اذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسنطينة وفجأهم هنالك جميعاً الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه ، ونذكره فاعترم على اللحاق ببلده .

واعصوب عليه يعقوب بن علي بن أحمد أمير البدو بالناحية الغربية من أفريقية لأذمة صهر كانت بينهما ومخالصة ، وتخير إليهم من كان بقسنطينة من أولياء السلطان وحاشيته وعماله ، ورسل الطاغية والسودان الوافدين مع ابنه عبد الله من أصاغر بنيه ، وآوَاهم يوسف بن منصور جميعاً إليه ، وأنزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهوراً من الدهر حتى خلص السلطان من القيروان إلى تونس ، ولحقوا به مع يعقوب بن علي فكانت تلك يداً اتخذها يوسف بن منصور عند السلطان أبي الحسن وبنيه باقي الأيام . ثم اتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من أفريقية جميعاً في الانتقاض عليه ، وأقام مستمسكاً بطاعته يسرّب الأموال إليه بتونس وباجزائر عند خلوصه إليها من النكبة البحرية كما سذكّره ، ويدعوله على منابر بعد تفويضه على الجزائر إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه ، إلى أن هلك السلطان أبو الحسن بجبل هنتاة من أقصى المغرب سنة اثنتين وخمسين وسبعائة واستقام أمر الدولة المريّنة لابنه السلطان أبي

(١) شبا الشيء : علا واضاء ، وشبا النار : أوقدها وقد تكون شباة وهي حد كل شيء .

عنان الحية الذكر ، ولما استضاف إلى ملكه ملك تلمسان ، ومحاماً جدده بنو عبد الواد بها من رسوم ملكهم وجمع كلمة زناته ، وأطلّ على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين وسبعائة بادر يوسف بن منصور بطاعته فاتاها طواعية ، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته . ثم وفد عليه ثانياً مع حاجبه الكاتب أبي عبدالله محمد بن أبي عمر ، وبعثه بالعساكر لتدوين أفريقيا وتمهيد ملكه ببجاية كما سنذكره . ووفد عليه امراء القبائل والبدو ورؤساء النواحي سنة أربع وخمسين وسبعائة ووفد في جملتهم يوسف بن منصور أمير الزاب ويعقوب بن علي أمير البدو وسائر رؤساء الزواودة فلما هم السلطان تكرمه ورعياً لأذمة خلوصهم لأبيه وقومه من بين أهل أفريقية ، وأسنى جوائزهم . وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراءه من بلاد ريغة وواركلي على عادتهم وانقلب محبوا محبورا وقد ثبت له من ولاية السلطان ومخالصته حظاً ، ورفع له ببساطه مجلس ، ولما نهض السلطان إلى أفريقية لافتتاح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعائة كما سنذكره تلقاه يوسف بن منصور على قسنطينة فخلطه بأوليائه ، ونظمه في طبقات وزرائه . واستوحش يعقوب بن علي يومئذ من مطالبته بالرهن له ولقومه وانتقض ، فأجفلت أحياءه إلى بلاد الزاب وما وراءها من الصحراء ، وارتحل السلطان بعساكره في طلبهم إلى أن احتل بلاد الزاب وخرّب بلاد يعقوب بن علي بالزاب والتل بقطع أشجارها وتغوير مياهها وهدم بنائها ونسف آثارها ، ودخل يعقوب بأحيائه الرمل وأعجزوا السلطان فانكفأ راجعاً ، واحتلّ بظاهر بسكرة فتلّوم بها ثلاثاً لإراحة العساكر وإزاحة غلهم من وعثاء السفر وشعث الصحراء ، ففرّق^(١) يوسف بن منصور في قرى عساكره أيام مقامه يشملهم فيها من العلوفة والحنطة واللحان والأدم بما أرغد عيشهم وكفاهم همهم . وتحدثت بها الناس دهراً ، ورفع إليه جبايته لعامة قناطير من الذهب بعثه بين المال فقبضه القهارة من ثقاته ، وأجزل السلطان مثوبته وأسنى عطيته ، واختصّه بكسوة ثيابه وعباله من كسا حرمه وثياب صره . وانكفأ راجعاً إلى حضرته . ثم أوفد موسى بن منصور ابنه أحمد على السلطان سدّته من فاس عند منصور وزيره سليمان بن داود من حركة أفريقية سنة تسع وخمسين وسبعائة وأصبحه هدية من عتاق الخيل وفاره الرقيق . وأقام أياماً في نزل

وفي نسخة ثانية : مغرب .

كريم ومحلي من المجلس رفيع إلى أن هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين وسبعائة فأرغد القائم بالدولة من بعده جائزته وأسنى صلته وصرفه إلى عمله ، واستوصى به أمراء النواحي والثغور في طريقه . ولم ينشب أن شبت نار الفتنة وانترى الخوارج بالجهات بعد مهلك السلطان فخلص إلى أبيه بعد عنائه وعلى يأس من النجاة بعد أن حصل في قبضة أبي حموس سلطان بني عبد الواد عند استيلائه على تلمسان ، وهو بها مع بني مرين ، وقد مرّ بهم مجتازاً إلى وطنه فأجاره عليه صغير بن عامر من زغبة رعيّاً لأذمة ابنه يوسف صاحب الزاب ، وتأميلاً للعرب فيه وفي أعماله . وبعد أن بذل له من ذات يده ومن طرف ما وصله به بنو مرين من ذخائرهم بعث معه صغير وفاداً^(١) من قومه أبلغوه مأمناً ، فكانت إحدى الغرائب في نجاته .

واسترجع الموحدون ثغورهم : بحاية وقسنطينة من يد بني مرين وأزعجوا عنها العساكر المجترّة بها من قبائلهم كما قدّمناه ، فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة لهم إلى أن هلك سنة سبع وستين وسبعائة يوم عاشوراء ، وقام بأمره ابنه أحمد ، وجرى على سننه وهو لهذا العهد أمير على الزاب بمحل أبيه من إمارته متقبّل في مذهبه وطريقه إلا أن خلّق أبيه كان سجية وخلق هذا تقليد لما فيه من التحذلق^(٢) ، وربك يخلق ما يشاء ويختار . وله أولاد كبيرهم أبو يحيى من بنت محمد بن يملول أخت يحيى ، وهو لهذا العهد مرشح لمكانه . ولما حلّت بأهل الجريد الفاقة^(٣) ونزل به يحيى بن يملول الشؤم على وطنه توجّس الخيفة من السلطان وتوقّع المطالبة بطاعة غير طاعته المعروفة ، فسرب الأموال في العرب ومدّيده إلى حبل صاحب تلمسان ليستمسك به فوجده قاصراً عنه ، وأقام يقدّم في أمره رجلاً ويؤخّر أخرى . ثم قذف الله نور الهداية في قلبه ، وأراه سنن رشده . وبادر إلى الاستقامة في الطاعة والعدول عن المراوغة ، ووصله فأوفد السلطان أبو العباس شيخ الموحدين أبا العباس بن أبي هلال ، وكشف له قناع المخالصة والانحياس ، وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبّله السلطان وأعاده إلى أحسن الأحوال ورضي عنه والله متولي الأمور سبحانه لا ربّ سواه ، ولا معبود إلاّ آياه .

(١) وفي نسخة أخرى : ركاباً .

(٢) وفي نسخة أخرى : ان خلق أبيه كان سيخية وخلق هذا تلهوقاً .

(٣) الفاقة : الداهية الشديدة .

علي الجريد

عبد
عبد
عبد

عبد
عبد
عبد

عبد
عبد
عبد

أبو يحيى بن أحمد بن يوسف بن منصور بن فضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن

* (الخبر عن رياسة بني يملول بتوزر وبني الخلف بنفطة وبني أبي المنيع بالحامة) *

زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر لإتساع بلده وتمدّد مصره واحتلاله منها بأمر القرى من قطره ، وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن يملول . ونسبهم بزعمهم في طوابع العرب من تنوخ ، استقرار^(١) ولده بهذا الصقع كان منذ أول الفتح ففعلوا^(٢) وتأثّلوا ووشجت به عروقهم نسباً وصهرأ حتى انتظموا في بيوتات الشورى المتقدّمين للوفادة على الملوك وتلقى العمّال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل حمّاد بالقلعة ، وآل عبد المؤمن بمراكش وآل أبي حفص بتونس ، مثل بني واطاس وبني فرقان وبني ماردة وبني عوض . وكان التقدّم فيهم أيام عبد الله الشيعي لابن فرقان ، وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر به أنه يريد القيام على أبي القاسم القائم ، وأيام آل حمّاد ليحيى بن واطاس ، وهو النازع بطاعة أهل قسنطينة إليهم عن آل بلقين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري ، واقترب أمرهم . ثم عادت الرياسة لبني مروان لأول دولة الموحّدين ، ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وآتاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلده توزر ، فتقبّله ووصله .

وصار الأمر للموحّدين فحوا منها آثار المشيخة والاستبداد . ونشأ أحمد هذا الجدد متراًياً إلى الرياسة بهذا القطر يدافع عنه بالراح ، ويزاحم بالمناكب من وجوه البلد

(١) وفي نسخة ثانية : استقرار أولوه .

(٢) بمعنى كثروا .

وأشراف الوطن . وسعى به إلى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان أبي حفص محمد الغازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه . كانت أول نكباته التي أوردت من زناده وأوقدت من جمره ، وتخلص إلى الحضرة يؤمل اعتقال مطيته وثبوت مركه من دار الخلافة فأوطئها أياماً يباكر أبواب الوزراء والخاصة ، ويلثم أطراف الأولياء والخاصية ويتزل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم ، ويؤثره بعنايتهم حتى استعمل بديوان البحر مقعد العمال بمرفأ السفن لجباية الأعشار من تجار دار الحرب . ثم استضاف بما كان من عنائه فيها واضطلاعه سائر أعمال الحضرة فتقلدها زعيماً بامضاء الجرايات وأدراة الجباية . واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأثرى واحتجن المال ، واستخرج الذخيرة قاطعاً لألسنة السعاية بالمصانعة والاتحاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى أبطره الغنى ، ودلت على مكانته الثورة ، ورفع أمره إلى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه واستصفاء ماله لعهد السلطان أبي يحيى اللحياني فنكب الثانية وصودر على مئين^(١) . من آلاف الدنانير وامتحن لها ، وباع فيها كسوته حين قرأ الكتاب وخلص من النكبة مسلوب^(٢) الأمانة ممزق الأديم فقيد الرياش ، أحوج ما كان إلى ما يعوز من الكن والدفء وبلالة العيش . ولحق ببلده ناجياً بالرمق ضارعاً للدهر .

ودفعه الملاء إلى ما يستكفون عنه من خدمة العمال ومباكرة أبوابهم والامتحان في ضروراتهم ، وأنجده في ذلك بخت جذب بضبعه . وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وأمرائها فتخلص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشيء وحملت الرعايا بالبلاد الجريدية ، وصار أمرها إلى الشورى التي كانت عليها قبل . فلما أدرك أحمد هذه الشورى التي كان يسموها سمو حباب الماء ثلج صدره ، وأنجح سعيه ، واستبد بمشيخة توزر . وهلك في أعوام ثمانى عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحاً إلى المرتبة منافساً في الاستقلال ، ومزاحماً بيوتات المصر بمناكب استوطأها^(٣) بسائر عمره من الدعار والأوغاد بمعاقرة الخمر والحجارة في فنون

(١) وفي نسخة ثانية : مئين .

(٢) وفي نسخة ثانية : مثلوب . ثلثه : عابه ولامه ، اغتابه ، سبه طرده (قاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : استوصلها سائر عمره .

الشباب لسير^(١) أمره ، والاستعلاء^(٢) على نظائره حتى تطارحوا في هوة الهلاك بين قبيل ومغرب ونحيب العمران ، لم يعطفه عليهم عواطف الرحم ولا زجره وازع التقوى والسلطان ، حتى خلا له الجحواستوسق الأمر واستقل من أمر البلد والحل والعقد بأوفى من استبداد أبيه . وكان مهلكة قريباً من استبداده لخمس سنين متلقياً^(٣) الكرة من يده أخوه محمد تربه في الرياسة ومحاربه في مضمارها ، فأجرى إلى الغاية واقتعد كرسي الرياسة وعفى على آثار المشيخة . واستظهر على أمره بمصانعه أمراء البدو وأولاد أبي الليل ، والمئات إليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لأبي الليل جدّهم على أخته أو عمته . فكانوا ردأ له من الدولة فنفذ^(٤) صيته وعظم استيلاؤه وامتدت أيامه وعني الملوك بخطابه واسناد الأمور في تلك البلاد إليه خلال ما تعود الكرة وتهب ريح الدولة . وزحف إليه القائد محمد بن الحكيم سنى أربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانعة بالمال ، ورهنه ولده يحيى فرجعه إليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامة لما ابتلاه من خلوصه . وأقام على ذلك إلى أن هلك لعام أربع وأربعين من المائة الثامنة .

وتصدى ولده عبدالله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه أبو زيد بن أحمد فقتله على حدث أبيه صبح مواراته بعد أن كان أظهر الرضا به والتسليم له فثارت به العامة لحينه ، وكان مصرعها واحداً . وقام بالأمر أخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شرّ مدة وأسوأ ولاية ، لما أصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الأموال ، حتى كان ينسب إلى الجحون مرّة وإلى الكفر أخرى فرج أمرهم واستولى الضجر على نفوسهم ، وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله أهل توزر سرّاً وأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذت عليه الموائيق بالطاعة والوفاء بالحباية فصمد إليها بمن في لقّه من الأعراب ، وحشد نفزاوة والمحاورين لها في القرى الظاهرة المقدرة السير ، وأجلب عليهم ثم بيّتها فاقتحمها وبادر الناس إلى القبض على يملول أخيه وأمكنوه منه فاعتقله بداره وتبراً من دمه ، وأصبح لثالثة اعتقاله ميتاً بمحبسه . وكانت قصصة من قبل ذلك لما صار أمر الجريد إلى الشورى قد استبد بها يحيى بن

(١) وفي نسخة أخرى : ليستبد .

(٢) وفي نسخة أخرى : والاستيلاء .

(٣) وفي نسخة أخرى : فتلقف .

(٤) وفي نسخة أخرى : فبعد .

محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد من بيوتها ، ونسبهم بزعمهم في بلي ولهم خلف بزعمهم في الشريد من بطون سُكَيْم . والله أعلم بأولية نزولهم بقفصة حتى التحمو بأهلها وانتظموا أمر بيوتاتها . وكانت البيوت بها بيت بني عبد الصمد وبيت بني أبي زيد ، وكانت رياسته لبعض بني أبي زيد لعهد الأمير أبي زكريا الأعلى ، كان يستعمله على جباية أموال الجريد ، ثم سعى به أنه أصاب منها فنكبه وصور على آلاف من المال فأعطاه ، وأقامت رياستهم متفرقة في هذه البيوتات .

ولما حدثت العصية بالبلد أيام صار أمر الجريد إلى الشورى كان بنو العابد هؤلاء أقوى عصية من سائرهم ، واستبد بها كبيرهم يحيى بن علي . فلما فرغ السلطان من شغله بزناة وخيم السلطان أبو الحسن على تلمسان فحاصرها . وأقبل السلطان على النظر في تمهيد ملكه وإصلاح ثغوره ، وافتتح أمره بغزو قفصة ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعائة في عساكر من الموحدين وطبقات الجند والأولياء من العرب ، فحاصرها شهراً أو نحوه وقطع نخيلها فضاقت مخنقهم بالحصار وتلاوموا في الطاعة . واستبقوا بها إلى السلطان وفر الكثير من بني العابد فلحقوا بقابس في جوار ابن مكي ونزل أهل البلد على حكم السلطان فتقبل طاعتهم وأحسن التجاوز عنهم ، وبسط المعدلة فيهم وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم ، وانكفأ راجعاً إلى حضرته بعد أن آثرهم بسكنى الجريد ، واحتمل مقدم روضة يحيى بن علي إلى الحضرة فلم يزل بها إلى أن هلك سنة أربع وأربعين وسبعائة ، واستبد الأمير أبو العباس بأمر الجريد واستولى على نفطة كما قدمناه . وقيل لبني الخلف وهم : مدافع وأبو بكر عبدالله ومحمد وابنه أحمد بن محمد إخوة أربعة ، وابن أخيهم بنو الخلف من مدافع ، ونسبهم في غسان من طوابع العرب .

انتقل جدهم من بعض قرى نفزاوة إلى نفطة وتآئل بها ، وكان لبنيه بها بيت . واستبد هؤلاء الإخوة الأربعة أزمان الشورى كما قدمناه . ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد وأنزل ابنه أبا عباس بقفصة ، وعقد له على سائر أمصاره وأمضى طاعتهم وامتنعوا فسرّح إليهم وزيره أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين . وجهزت له العساكر من الحضرة ونازلها وقطع نخيلها ولاذ أهلها بالطاعة ، وأسلموا بني مدافع المتغلبين ف ضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين . وأفلت السيف منهم علياً صغيرهم لذمة اعتدّها له أبو القاسم بن عتو لتزوجه إليه قبل الحادثة .

فكانت واقبته من الملكة . واستولى الأمير أبو العباس على نفطة واستضافها إلى عمله . ثم مرض أبو بكر بن يملول في طاعته فنهض إليه السلطان أبو بكر من تونس سنة خمس وأربعين وسبعائة ، وكان الفتح كما قدّمناه . ولحق أبو بكر بن يملول ببسكرة فلم يزل بها إلى أن أجلب على توزر فنبتذ إليه يوسف بن مزني عهده ، وانتقل إلى حصون وادي ابن يملول المجاورة لتوزر ، وهلك سنة ست وأربعين . ثم كان مهلك السلطان وابنه أبو العباس صاحب الأعمال الجريدية إثر ذلك سنة سبع وأربعين وسبعائة ، ورجع إلى كل مصر من الجريد مقدّموه فرجع أحمد بن عمر بن العابد إلى قفصة من مكانه في جوار ابن مكّي واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى بن علي ، ورجع علي بن الخلف إلى نفطة واستبدّ بها . ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر من مثنى اغترابه ببسكرة ، ارتحل إليها مع عمه أبي بكر طفلاً ، فلما خلا الجريد من الإمارة ودرج يحيى هذا من عشه في جوار يوسف بن منصور بن مزني وأطلقه مع أولاد مهلهل من الكعوب بعد أن وصلهم وشاركهم^(١) ، واسترهن فيه أبناءهم فأوصلوه إلى محل رياسته بتوزر ، ونصّبه شيعته وأولياء أبيه ، وقاموا بأمره . ورجع أمر الجريد كلّ إلى رياسة مقدّمه كما كان .

ثم وفدوا على السلطان أبي الحسن عند رجعته إلى أفريقية ولقوه بوهران فلقاهم مبرة وتكرمة ورجع كلّاً إلى بلده ومحل رياسته بعد أن أسنى الجائزة ، ووفّر الاسهام والأقطاع ، وأنفذ الصكوك والكتب ، فرجع إلى توزر يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول صبيّاً مغتلاً ، وإلى نفطة عليّ بن الخلف . وإلى قفصة أحمد بن عمر بن العابد ونزل كل واحد من هذه الأمصار عاملاً وحامية . وعقد على الجريد كلّ لمسعود ابن ابراهيم بن عيسى اليرباني من طبقة وزرائه ، واستوصى بهؤلاء الرؤساء خيراً في جواره حتى اذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة تسع وأربعين وسبعائة وارتحل عامل الجريد مسعود بن ابراهيم ونزل المغرب بمن معه من العمّال والحامية ، ونمي خبره إلى الأعراب من كرفة فصبحوه في بعض مراحل سفره دون أرض الزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية ، واستولوا على أفنيّتهم وذخيرتهم وكراعهم ، واستبدّ رؤساء تلك البلاد بأمصارهم وعادوا إلى ديدنهم من التمريض ، وآذنوا بالدعاء لصاحب الحضرة

(١) وفي نسخة ثانية : شارطهم .

بمنابرهم ، واستمروا على ذلك . فأما يحيى بن محمد بن يملول فترع إلى مناغة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المقصور للصلاة ، واقتعاد الأريكة وخطاب السمر ، ^(١) بل وفسح للمجون والعكوف على اللذات مجالاً يرى أن جماع السياسة والمملك في إدارة الكأس وافتراش الآس والحجبة عن الناس والتأله على الندمان والجلاّس . وفتح مع ذلك على رعيته وأهل إيالته باب العسف والجور . ورعى بيت المشاهير منهم غيلة فأتلقت نفوسهم ، وامتدّ أمره في ذلك إلى أن استولى السلطان أبو العباس على أفريقية ، وكان من أمره ما نذكره . وأما جاره الجنب علي بن الخلف فلم يلبث لما استبدّ برياسته أن حجّ سنة أربع وستين وسبعائة والتزم مذاهب الخير وطرق الرضا والعدالة ، وهلك سنة خمس وستين وسبعائة بعدها ووليّ مكانه ابنه محمد جاريّاً على سنته . ثم هلك لسنة من ولايته ، وقام بأمره أخوه عبدالله بن علي فأذكى سياسته ، وأوقع ^(٢) حزمه وأرهف للناس حدّه فنقموا عليه سيرته ، وسيموا عسفه واستمكن مناهضهم في الشرف ومحاذيهم في رياسة البلد القاضي محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بدمّة كانت له في خدمته قديماً واستعمله لرعيها في خطة القضاء بحضرته ، وآثره بالمكان منه والصحبة فدعى بعبد الله هذا عنه الخليفة ودلّه على مكان من هلكته ، وبصره بعورات بلده . واقتياد عساكر السلطان إليه في زمامه . ولما احتلّ بظاهر البلد وعبدالله رئيسها أشدّ ما كان قوّة وأكثر جمعاً وأمضى عزماً استألف أخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه ، وحرّضهم عليه ودخل القاضي بتببيتها وأنه بالمرصاد في اقتحامها ، حتى اذا كانت البيعة دسّ إلى بعض الأوغاد في قتل أخيه عبدالله ، ومكر بالقاضي والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم . واستقل برياسة بلده وأقام على ذلك يناغي ابن يملول في سيره ويطارحه الكثير من مذهب ، ويجري في الثناء الذي بلغ إلى غايته وأولى على بنيته ^(٣) . وأما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده ببلده قفصة سالكاً مسالك الخمول منحطاً عن رتبة التكبر متحلاً مذاهب أهل الخير والعدالة في شارته وزيّه ومركبه ، جانحاً إلى التقلّل . فلما أوفى على شرف من العمر ^(٤) استبدّ عليه ابنه محمد

(١) وفي نسخة ثانية : وخطاب التمول .

(٢) وفي نسخة ثانية : ايقظ .

(٣) وفي نسخة ثانية : وأوفى على ثنيته .

(٤) أي أصبح شيخاً كبيراً .

وترفع عن حال أبيه بعض الشيء إلى مناغة هؤلاء الرؤساء المترفين ، فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحالة من الاستبداد على السلطان والتخلف بأخلاق الملوك ، والتشاغل عن الرعايا بالعسف والجور ، واستحداث المكوس والضرائب إذ طالما خصهم^(١) السلطان أبو العباس بالحضرة مستبداً بدعوته ، صارفاً سهم عزائمهم^(٢) فوجموا وتوجسوا الخيفة منه . واثتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد أن كانوا يستحثونه إلى الحضرة ، ويبعثون إليه بالانحياش على البعد زبوناً على صاحب الحضرة ونزوعاً على مصدوقية الطاعة . فلما استبد السلطان أبو العباس بالدعوة استرابوا في أمرهم وسرّبوا أموالهم في الأعراب المخالفين على السلطان من الكعوب ، يؤملون مدافعتهم عنهم فشرّ لها أولاد أبي الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من النفرة . ونهض إليهم السلطان فغلبهم على ضواحي أفريقية على الطواعن التي كانت جبايتها لهم من مَرَجِيزَة كما قلناه ، واستلحمهم فأوهن ذلك من قوتهم .

ثم زحف الثانية إلى أمصار الجريد فلاذوا بالامتناع ، فأناخ السلطان بعساكره وأوليائه من العرب أولاد مهلهل على قفصة فقاتلوها يوماً أو بعض يوم ، وعدا في ثانية على السلطان ونزل على حكمه فتقبّض عليه وعلى ابنه شهرذي القعدة من سنة ثمانين وسبعائة وتملك البلد ، واستولى على ديار ابن العابد بما فيها . وكان استيلاء لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثرة احتجاته للأموال . وعقد السلطان على قفصة لابنه أبي بكر وارتحل يريد توزر ، وطار الخبر لابن يملول في توزر فقوّض عنها بأهله ، ونزل على أحياء مَرْدَاس وسرّب فيهم المال فرحلوا معه إلى الزاب ، ولحق ببسكرة مأوى نكباته ومنتهى مقره ، فترّل بها على أحمد بن يوسف بن مزني وأقام هنالك على بلغة^(٣) من توقع مطالبة السلطان له ولحاره ابن مزني من خسارة أموالهم في لفوف^(٤) العرب وسوء المغبة إلى أن هلك لسنة أو نحوها واثتمر أهل توزر . بعد تقويضه عنهم ، بعثوا إلى السلطان يبيعهم فلقبه في أثناء طريقه ، وتقدّم إلى البلد فترّل بقصور ابن يملول واستولى على ذخيرته وتبرأ إليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص

(١) وفي نسخة ثانية : إذ أطل على مفاحصهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : صارفاً إلى فتحها عزائمهم .

(٣) وفي نسخة ثانية : على قلعة .

(٤) وفي نسخة ثانية : زبون .

الذخيرة فدفعوها إلى السلطان . وعقد لإبنه المنتصر على توزر ، واستقدم الخلف بن الخلف من نفطة ، وكان يخالف أصحابه إلى الطاعة حتى نقضوها زبوناً على ابن يملول وسالفه من العداوة ينقلها^(١) . فلما أحيط بهم أدركه الدهش وبادر إلى السلطان بطاعته فأثاها ، وقدم عليه فتقبل السلطان ظاهره وأعطى له عن غيرها طمعاً في استصلاحه ، وعقد له على حجابة إبنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وأمره باستخلافه ببلده نفطة ، وعقد له على ولايتها وانكفاً راجعاً إلى حضرته ، وقدم ابن الخلف على أمره ورأى أنه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر ، وعثر أولياء السلطان على كتابه إلى يعقوب بن علي شيخ رياح ومدره^(٢) حروبهم يحرضه على صريخ ابن يملول ومعونته ، فعلموا نكته ومداجاته وبادروا إلى القبض عليه ، وولّوا على نفطة من قبلهم وخاطبوا السلطان بالشأن وأقام في ارتحاله إلى أن كانت حادثة قفصة ، فبادر الأمير المنتصر إلى قتله .

وكان من خبر قفصة أن ابن أبي زيد من مشيختها كان يتزعج إلى السلطان قبل فتحها هو وأخوه لمنافسة بينهما وبين إبن العابد وهما : محمد وأحمد إبن عبد العزيز بن عبد الله إبن أحمد بن علي بن عمر بن أبي زيد . وقد ذكر أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الأمير زكريا الأعلى في جبايته الجريد . فلما استولى السلطان على البلاد رعى لها تشيعها وبادرهما إلى طاعته مع قومها فأمر لها مع إبنه بقفصة وكبيرها^(٣) رديف لحاجبه عبد الله من الموالي الأتراك ومدبر لأموال البلد في طاعة السلطان . ثم نزع الشيطان في صدره وحادثه نفسه بالاستبداد ، وأقام يتحين له الفرض وذهب الأمير أبو بكر إلى زيارة أخيه بتوزر فكاده بالتخلف عنه ، وجمع أوباشاً من الغوغاء والزعانف وتقدم بهم إلى القصبية وبعث بالصريخ للفتك بعبد الله التركي ونذر بذلك فأغلق أبواب القصبية وبعث الصريخ في أهل القرى ، وقاتلهم ساعة من نهار حتى وافى إليه المدد . فلما استغلظ بمدده أدركهم الدهش وانفض الأشرار من حوله ونجوا إلى الاختفاء في بيوت البلد ، وتقبضوا على الكثير من داخلهم في الثورة ، ووصل الخبر إلى الأمير

(١) وفي نسخة ثانية : كان يتقبلها .

(٢) مدره : دره عليم : طلع وهجم ، ودره لهم وعنهم : دافع (القاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : مع قديمها فانزلها مع إبنها بقفصة ، وكبيرها رديف لحاجة .

أبي بكر بتوزر فبادر إلى مكانه ، وقد سكن جأشه^(١) واستلحم جميع من تقبّض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد فقبّروا منه . وعثر الحرس عليه وعلى أخيه خارجين من أبواب البلد في زي النساء فقادوهما إليه فقتلها بعد أن مثل بهما .

واستبدّ السلطان بالجريد ومحامنه آثار المساءة^(٢) وعفا عليها وانتظمه في عمالات السلطان . وأمّا بلد الحامة وهي من عمالة قسطنطينية وتعرف بحامة قابس وحامة مطماطة نسبة إلى أهلها المواطنين كانوا بها من البربر ، وهم فيما يقال الذين اختطّوها ، ففيها الآن ثلاث قبائل من توجر وبني ورتاجن^(٣) وهم في العصبية فرقتان : أولاد يوسف ورياستهم في أولاد أبي منيع وأولاد حِجَاف^(٤) ورياستهم في أولاد وشاح ، ولا أدري كيف نسب الفرقتين . فأما أبو منيع فالحديث في رياستهم في قومهم أن جدّهم رجاء بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم بوشباك وأبو محمد^(٥) وملالة وأن رياسته بعده كانت لابنه بوشباك ، ثم ابنه أبي منيع من بعده ، ثم لابنه حسن بن أبي منيع ، ثم لابنه محمد بن حسن ، ثم لأخيه موسى بن حسن ثم لأخيهما أبي عَنان^(٦) إلى أن كان ما نذكر . وأمّا أولاد حِجَاف فكانت أول رياستهم لمحمد بن أحمد بن وشاح ، وقبله خاله القاضي عمر بن كلى ، وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم إلى أن أسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بأسرها . وكان مقدّمهم لأوّل دولة السلطان أبي بكر من أولاد أبي منيع ، وهو موسى بن حسن . وكان المديوني قائد السلطان واليا عليهم ، وارتاب بهم بعض الأيام وأحبّ الثورة به ، فدسّ بها إلى السلطان في بعض حركاته ، وغزاهم بنفسه ففروا ، وأدرك سبعة من أولاد يوسف هؤلاء وتقبّض عليهم فقتلوا . ثم رجع الأمير ووّلّى موسى بن حسن . ولمّا هلك تولّى بعده أخوه أبو عَنان ، وطال أمد ولايته عليهم وكان منسوباً إلى الخير والعفاف . وهلك سنة اثنتين

(١) وفي نسخة ثانية : وقد سكنت الهيمة .

(٢) وفي نسخة ثانية : آثار المشيخة .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : توجن وبني ورياجن .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : حِجَاف .

(٥) وفي نسخة ثانية : بوساك ويحمد وملالت .

(٦) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : علّان .

وأربعين وسبعائة وولّي بعده ابنه الآخر أبو زيان . ثم وُلّي بعدهما ابن عمّهما مولاهم ابن محمد . ووفد على السلطان أبي الحسن مع وفد أهل الجريد كما مرّ . ثم هلك فولّي بعده من بني عمّهم حسان بن هجرس ، وثار به محمد بن أحمد بن وشاح من أولاد حجاج المذكور فعزله ، وأقام في ولايته إلى سنة ثمان وسبعين وسبعائة فثار به على الحامة وقتلوا عمر بن كلبى القاضي ، وولّوا عليهم حسان بن هجرس واليه .

وثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح وهو الآن مقدّمها يعطي طاعة معروفة ، ويستدعي العامل في الجباية ويأوغ عن المصدوقية والغلب والاستيلاء ، قد أحاط به من كل جهة . وأُملي عليّ بعض نسابتهم أنّ مشيخة أهل الحامة في بني بوشباك . ثم في بني تامل بن بوشباك . وأنّ تامل رأس عليهم وأنّ وشاحاً من ولد تامل وأن بني وشاح ، على فرقتين : بنو حسن وبنو يوسف ، وحسان ابن هجرس ومولاهم وعمر أبو علان كلّهم من بني حسن ، ومحمد بن أحمد بن وشاح من بني يوسف ، وهذا مخالف للأوّل ، والله أعلم بالصحيح في أمرهم . وأمّا نفزاوة وأعمال قسطنطينية فنسب لهذا العهد إلى توزر وهي القرى العديدة المعروفة السيّر ، يعترض بينها وبين توزر إلى القبلية عنها السبخة المشهورة المانعة في الاعتساف ، ولها معالم قائمة من الخشب يهتدي بها السالك ، وربما يضل خائضها فتبتلع . ويسكن هذه القرى قوم من بقايا نفزاوة من البرابرة البتر الذين بقوا هنالك بعد إنقراض جمهورهم ، ولحق العرب بسائر بطون البربر ، ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الآن أعقابهم . ثم نزل عليهم من أعراب الشريد وزغب من بني سُلَيْم كل من عجز عن الظعن ، وملكوا بها العقار والمياه وكثرت نفزاوة ، وهم لهذا العهد عامّة أهلها وليس في نفزاوة هذه رياسة لصغرها ورجوعها في الغالب إلى أعمال توزر ورياستها . هذا حال المتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية أوردنا أخبارهم فيها

لأنهم من صنائعها ، وفي عداد ولايتها ومواليها ، والله متولي الأمور اهـ .

مد بن يحيى بن محمد بن أبي علي بن عبد الجليل بن العابد

محمد بن يحيى بن محمد بن أبي علي بن عبد الجليل بن العابد

أبو يحيى بن يحيى — بن محمد بن أحمد بن يملول

يملول بن محمد بن أحمد بن يملول

عبد الله بن محمد بن يحيى بن يحيى بن محمد بن أبي علي بن عبد الجليل بن العابد

أحمد بن محمد بن علي بن خلف بن مدافع

الخلف بن علي بن محمد بن خلف بن مدافع

مدافع بن محمد بن علي بن خلف بن مدافع

يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن حجاج بن يوسف

محمد بن أحمد بن وشاح بن حجاج

بن زياد بن محمد بن علي بن أحمد بن وشاح بن حجاج

علاء بن محمد بن علي بن أحمد بن وشاح بن حجاج

مولا هم ابن محمد بن حسن بن محمد بن أبي منيع بن بوشباك بن رجاء بن يوسف

رجاء بن يوسف بن حسن بن محمد بن أبي منيع بن بوشباك بن رجاء بن يوسف

حسان بن محمد بن علي بن أحمد بن وشاح بن حجاج

* (الخبر عن بني مكّي رؤساء قابس وأعمالها) *

كانت قابس هذه من ثغور أفريقية ومستظمة في عاملتها ، وكان ولائها من القيروان أيام الأغالبة والعُبَيْدِيِّين وصنهاجة من لدن الفتح ، ولمّا دخل الهلاليون أفريقية واضطربت أمورها واقتسمت دولة صنهاجة الطوائف ، انترى بقابس وصنهاجة المعز ابن محمد الصنهاجي وأدال منه مونس بن يحيى الصنبري من مرداس رياح بأخيه ابراهيم إلى أن هلك . وولي أخوه القاضي ابن ابراهيم ، ثم نازله أهل قابس فقتلوه أيام تميم بن المعز بن باديس فبايعوا لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفاً على أخيه ، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة . ثم غلبه عليها أخوه تميم وكان معتقلاً^(١) للعرب . وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال . ثم غلبتهم رياح عليها ونزل مكن بن كامل بن جامع من بني دَهْمَان وأخوه مادع^(٢) وهما معا من بني علي إحدى بطون رياح فاستحدث بها ملكا لقومه بني جامع وأورثه بنيه إلى أن استولى الموحدون على أفريقية وبعث عبد المؤمن عساكره إلى قابس ففر عنها مدافع بن رشيد آخرهم وانتظمها كما ذكرناه في أخبارهم وملكها ، وانقرض ملك بني جامع وصارت قابس وأعمالها للموحدين ، وكان ولاية أفريقية من السادة يولّون عليها من الموحدّين إلى أن تغلب بنو غالية^(٣) وقراقش على طرابلس وقابس وأعمالها ، وكان ما ذكرناه في أخبارهم . ثم غلب الموحدون يحيى بن غانية عليها وأنزلوا بها عمّالهم . ولمّا دعا بنو أبي حفص إلى أفريقية المرة الثانية بعد مهلك الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وعقد العاقل^(٤) على أفريقية لابنه أبي محمد عبدالله عقد معه على قابس للأمير أبي زكريا أخيه فترها أميراً . ثم كان من شأن استبداده وخلعه لأخيه ولطاعة بني عبد المؤمن ما ذكرناه . وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيت من بيوتاتها ، وهم بنو مسلم ولم يحضرني ممن نسبهم . وبنو مكّي ونسبهم في لوانة وهو مكّي بن فرح^(٥) بن زيادة الله

(١) وفي نسخة ثانية : مغلباً .

(٢) وفي نسخة ثانية : أخوة فادغ .

(٣) وفي نسخة ثانية : بنو غانية .

(٤) وفي نسخة ثانية : العادل .

(٥) وفي النسخة الباريسية : مراج وفي نسخة أخرى : فراج .

ابن أبي الحسن بن محمد بن زيادة الله بن أبي الحسين^(١) اللواتي . وكان بنو مكّي هؤلاء خالصة للأمير أبي زكريا . ولما اعترم على الاستبداد دخل أبو القاسم عثمان بن أبي القاسم بن مكّي وتولّى له أخذ البيعة على الناس وكان له ولقومه بذلك مكان من المولى أبي زكريا ، رعى لهم ذمّتها ورفع من شأنهم بسببها ، ورموا بني سلّيم نظراءهم في رياسة البلد بضغائنهم^(٢) إلى ابن غانية فأحمدوا ما لهم بماله ومحو آثارهم واستقلوا بشورى بلدهم . وأقاموا على ذلك أيام المولى أبي زكريا الأوّل وابنه المستنصر . ثم كان ما قدّمناه من مهلك الواثق بن المستنصر وبنيه على يد عمّهم السلطان أبي إسحق . وكان من أمر الداعي بن أبي عمارة ، وكيف شبّه على الناس بالفضل بن المخلوع بحيلة من مولاة نصير . رام أن يثار بها من قاتلهم فتمتّ مكيدته في ذلك لما أراده الله . ولما أظهر نصير أمره وتسايلت العرب إلى بيعته خطب لأوّل أمره رئيس قابس لذلك العهد من بني مكّي عبد الملك بن عثمان بن مكّي فسارع إلى طاعته وحمل الناس عليها ، وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف رسوخها .

ولما ألقى الداعي بن أبي عمارة جسداً^(٣) على كرسي الخلافة سنة إحدى وثمانين وستائة قلّده خطة الجباية بالحضرة مستقلاً فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان بعد أن أجزل من بيت المال عطاءه وجرايته وأسنى رزقه وأهدى الجوّاري من القصر إليه . ولما هلك الداعي واستقلّت قدم الخلافة من عثارها كما قدّمناه سنة ثلاث وثمانين وستائة لحق عبد الحق بن مكّي ببلده وامتنع بها على حين ركود ريع الدولة وفشلها ، ومرض في طاعته ودافع أهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره . ثم جاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين وستائة وبعث بطاعته إلى صاحب الثغور المولى أبي زكريا الأوسط . وهلك ابنه أحمد ولي عهده سنة سبع وتسعين وستائة . ثم هلك هو من بعده على رأس المائة السابعة ، وتخلّف حافده مكّي فنصّبوه يفعة . وكفله ابن عمّه يوسف بن حسن وقام بالأمر مستبداً عليه إلى أن هلك ، وخلفه في كفالة أحمد بن ليدان^(٤) من بيوت أهل قابس أصهار بني مكّي الثالث أمرهم بمهلك يوسف فنقلهم

(١) وفي النسخة الباريّة : أبي الحسن .

(٢) وفي نسخة أخرى : بصاغيّتهم إلى ابن غانية ، فأحمدوا ذبا لهم واستقلوا بشورى بلدهم .

(٣) وفي النسخة الباريّة : جسداً .

(٤) وفي نسخة ثانية : أحمد بن ليران .

السلطان ابن اللحاني إلى الحضرة ، وأقاموا بها أياماً ، ثم رَدَّهم إلى بلدهم أيام مجافاته عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس .

ثم هلك خلال ذلك مكِّي ، وخلف صبيين يافعين عبد الملك وأحمد فكفلهما ابن ليدان إلى أن شبَّا واكتهلا ، ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بأمر القطر والاقتصار على الدعاء للخليفة مثل ما كان لأبيهما وأكثر لتقلُّص ظل الملك عن قطرهم ، وشغل السلطان بمدافعة يغمراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية ، اجلابهم بالأعياص من أهل البيت على الحضرة ، ولما هلك السلطان أبو يحيى اللحاني بمصر قفل ابنه عبد الواحد إلى المغرب يحاول أسباب الملك ، ونزل بساحتهم على ما كان من صنائع أبيه إليهم فذكروا العهد ، وأوجبوا الحق وآتوا بيعتهم . وقام كبيرهم عبد الملك بأمره ودعا الناس إلى طاعته ، وخالف السلطان أبا يحيى عند نهوضه إلى الثغور ببجاية سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة كما قدَّمناه ، فدخل الحضرة ولبث بها أياماً لم تبلغ نصف شهر ، وبلغ خبرهم إلى السلطان فانكفأ راجعاً وقرَّوا إلى مكانهم من قابس ، والدولة تنظر إليهم الشزر وتتربص بهم الدوائر إلى أن غلب السلطان أبو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن ، وفرغت الدولة من شأنهم إلى تمهيد أعمالهم وتقويم المنحرفين عن الطاعة من ولائها .

وقفل حمزة بن عمر بشفاعه السلطان أبي الحسن إلى السلطان أبي يحيى في شأنه فتقبَّلَ وسيلته واستخلصه لنفسه من بعدها ، واستقام هو على الطاعة التي لم تجد وليجة عنها ، وسلك سبيله تلك أقتاله من الدولة الطائحين في هوة الشقاق ، فأوفده عبد الملك هذا شقيقه أحمد على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه لائذاً بشفاعته متوسلاً بما قدَّمناه من خدمته حظاياه في طريقهن إلى الحج ذاهباً وجائياً ، فخاطب السلطان أبا يحيى في شأنه وأعادته إلى مكانه من اصطناع سلفه واستقام على طاعته . ولما انتظم السلطان أبو يحيى سائر البلاد الجريدية في ملكه وعقد عليها لابنه أبي العباس ولي عهده ، وأنزله دار إمارتها متردداً ما بين توزر وقفصة إلى أن قفلت عمته من الحج سنة ست وأربعين وسبعائة ، وخرج للقائها مخفياً بين الطعائن فجمعه مجلسها بأحمد بن مكِّي كان قد اعتمد تلقياً والقيام بصحابتها في مراحل سفرها من بلده إلى آخر عمله ، فسح الأمير أبو العباس الإحلف عن صدره وأدال له الامن والرضى من توحشه ، واستخلصه لدولته ونجوى أسرارهِ واصطفاه لنفسه وحمله وديفاً

لحاجبه ، فحلّ من دولته بمكان غبطة فيه إمتيازته من أمراء تلك الطوائف .
وعقد له السلطان أبو يحيى على جزيرة جَزْبَة بوسيلة أبي العباس ابنه ، وقد كان
افتتحها مخلوف بن الكناد من صنائعهم من يد العدو أهل صقلية كما ذكرناه ،
فضمّها إليه وصيّرّها في أعماله . ولم يزل هذا شأنه معه إلى أن هلك أبو العباس ولي
العهد بتونس على يد أخيه أبي حفص عمر عندما دخلها بعد مهلك أبيها كما
ذكرناه ، ولحق أحمد بن مكّي بلده . ثم سار في وفد رؤساء الجريد إلى تلقي السلطان
أبي الحسن عند نهوضه إلى أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعائة ولقبه معهم بوخران
من أعمال تلمسان ، وكان قدمه عتد فوق قدمهم . ورجع الوفد على أعقابهم
محبورين . وتمسك بأحمد بن مكّي في جملته إلى الحضرة ، ووفد عليه أخوه عبد
الملك مؤدياً طاعة السلطان ، فكرم موصله وأحسن متقبلها جميعاً إلى بلدهما على ما
كان بيدهما من عمل قابس وجزْبَة .

ثم كانت نكبة السلطان أبي الحسن على القيروان مجدداً لعهد طاعته ، فأرادهم
السلطان على الإمتنان لعبد الواحد اللحياني سلطانهم الأقدم ، وعقد له على تلك
الثغور الشرقية ، وأنزله جربة ، وأمرهما بالطاعة له ما دام في طاعته . وعقد لأبي
القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر وقسطنطية بعد أن كان قطعه عندما تقبّض
عليه في واقعة السلطان أبي حفص عمر . ثم استقبل رأيّه في استخلاصه عندما
انتقض عليه أبو محمد بن تافراكين . ولما رجع من القيروان إلى تونس عقد له على
توزر كما ذكرناه ، ولعبد الواحد بن اللحياني على قابس وجربة فأسف بذلك بني
مكّي هؤلاء .

وهلك ابن اللحياني حين نزوله بجربة بما أصابه من علّة الطاعون الجارف سنة
تسع وأربعين وسبعائة فانتقض بنو مكّي على السلطان أبي الحسن ودعوا إلى الخروج
عليه وبايعوا الأفضل ابن السلطان أبي يحيى عندما أفرج عن حصار تونس سنة
خمسین وسبعائة ، وداخلوا أبا القاسم بن عتو وهو إذ ذاك لم يتوزر ، فأجابهم وكانت
من دواعي رحلة السلطان أبي الحسن من أفريقية وتقويضه عنها كما قدمناه . ولما رجع
الحاجب أبو محمد بن تافركين من المشرق ، واستقلّ بأمر تونس ، ونصّب الإمام أبا
إسحق ابن السلطان أبي يحيى للخلافة بها في كفالته غصوا بمكانه من التغلب وأنفوا
من استبداده ، وانحرفوا إلى دعوة الأمير أبي زيد صاحب ثغر قُسْطَنْطِيْنَة . ووفد عليه

أحمد بن مكّي مع محمد بن طالب بن مهلهل كبير البدو بأفريقية فيمن إليه فاستنصوه وقلّده الأمير أبو زيد حجابته وجعل أمره إليه . وأبرز الحاجب أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحق في عساكره مع خالد بن حمزة وقومه فالتقى الجمعان بمَرْمَجَنَة وكانت الدبرة على السلطان أبي إسحق سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وجاءوا على أثرهم فنازلوا تونس أياماً وما أفرجوا عنها إلا للصائح يخبرهم باحتلال عساكر بني مرين بالرية من آخر أعمال تلمسان ، وأن السلطان أبا عنان قد استلحم بني عبد الواد ، وجمع كلمة زناتة ، واستقام له أمر المغربين . وأطلّ على الثغور الشرقية فافترق جمعهم . ولحق الأمير أبو زيد بقسنطينة ، وأحمد بن مكّي بقابس ، وسأل من الأمير أبي زيد أن يقسّم رسم الإمارة بينهم في قابس وجربة بأخيه السلطان أبي العباس فأذن له في ذلك ، فكانت أول ولايته السعيدة ومضى إلى قابس فترها ، ثم أجاز البحر إلى جربة ، ودفع عنها العسكر الذي كان محاصراً للقشتيل من قبل ابن ثابت صاحب طرابلس ، ورجع إلى قابس حتى كان من أمره ما ذكرناه .

وأوفد السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى زكريا على أبي عنان ملك المغرب صريحاً على شأنه ، وأوفد ابن مكّي رسله متذمّماً ومذكراً بوسائله فتقبّل وأغضى . ثم كانت واقعة العدو دمره الله بطرابلس سنة أربع وخمسين وسبعائة كما قدّمناه فبعث إلى السلطان أبي عنان يسأله فديتها والنظر لها من بين ثغور المسلمين ، فحمل إليه خمسة أحمال من الذهب العين من بيت المال ، أوفد بها من أعيان مجلسه : الخطيب أبا عبد الله بن المرزوق ، وأبا عبد الله محمد حافد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس . وعقد لأحمد بن مكّي على طرابلس فاستقل بها ، وعقد لأخيه عبد الملك على قابس وجربة وأقاموا على دعوته . ومدّ أحمد يده إلى صفاقس فتناولها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين وسبعائة وهلك السلطان أبو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداً وتهماً فردّد عليها براً وبحراً إلى أن استخلص جزيرة جربة من أيديهما أعوام أربعة وستين وسبعائة وعقد عليها لولده محمد فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه .

وهلك أحمد بن مكّي سنة ست وستين وسبعائة على تفيئة مهلك الحاجب بن تافراكين بالحضرة فكانها ضرباً موعداً للهلكة وتوافيا . وتخلّف ابنه عبد الرحمن

بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العليج ، وهلك ظافر إثر مهلكه فاستبدَّ عبد الرحمن بطرابلس وساءت سيرته فيها إلى أن نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في أسطوله كما نذكر سنة إثنتين وسبعين وسبعائة . وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من أهل الوطن فانتقض عليه أهل البلد وثاروا به . وبادر أبو بكر بن ثابت لاقتحامها عليه وأسلموه إلى أمير من أمراء دباب فأجاره إلى أن أبلغه مأمنه من محلة قومه ، وإيالة عمّه عبد الملك بقابس إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وسبعائة ولم يزل عبد الملك لهذا العهد وهو سنة إحدى وثمانين وسبعائة والياً على عمله بقابس وابنه يحيى مستبدّ بوزارته ، وحافده عبد الوهاب لابنه مكّي رديف له ، وقد تراجعت أحوالهم عما كانت وخرجت من أيديهم الأعمال التي كانت في عمالتهم لعهد أخيه أحمد مثل طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما إلى ذلك من العمالات حتى كان التخت^(١) إنما كان لأخيه ، واليمن إنما اقترن بجيائه وسيرتها جميعاً من العدالة وتحريّ مذاهب الخير والسمت ، والاتسام بسماة أهل الدين حملة^(٢) الفقه معروفة حتى كان كل واحد منهم إنما يدعى بالفقيه علماً بين أهل عصره حرصاً على الانغماس في مذاهب الخير وطرقه . وكان لأحمد حظّ من الأدب ، وكان يقرض الأبيات من الشعر فيجيد عفا الله عنه . وله في الترسل حظّ ووساع بلاغة رسومها ، وينحوي كتابه منحى أهل المشرق في أوضاع حروفهم وأشكال رسومها ، ولأخيه عبد الملك حظّ من ذلك شارك به جهابذة أهل عصره وأفقه ولما انتظم السلطان أبو العباس أمصار أفريقيا في ملكه واستبدّ بالدعوة الحفصية على قومه داخل أهل الجريد منه الروح ، وفزعوا إليه للمعارضة في الامتناع فدخلهم في ذلك وأشاروا إلى صاحب تلمسان بالترغيب في أفريقية فعجز عنهم وألحوا عليه فخام عن العداوة . وزحف مولانا السلطان خلال ذلك إلى الجريد فللك قصة وتوزر ونقطة فبادر ابن مكّي إلى التلبّس بالاستقامة وبعث إليه بالطاعة . ثم رجع السلطان إلى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة وأتهم أهل البلد بالميل إلى السلطان فتقبّض على بعضهم وقرّ آخرون . وانتقض عليه بنو أحمد أهل ضواحيه من دباب فنازلوه وبعثوا إلى الأمير الأكبر بقفصة في العسكر لمنازلته ، فبعثه إليهم وأحاطوا به .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : البحث .

(٢) وفي نسخة ثانية : حلية الفقه .

ثم انتهر الفرصة ودخل بعض العرب من بني عليّ في تبييت المعسكر ، وبذل لهم في ذلك المال فيبتوه وانفض وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من حضرته سنة إحدى وثمانين وسبعائة ونزل القيروان وتوافقت الفتان^(١) وبعث رسله للأعذار بين يديه فردّهم ابن مكي بالطاعة ثم احتمل رواحله ونزل بأحياء العرب . وأعدّ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها ، ولأذ أهل البلد بالبيعة فأتوها واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعاً إلى تونس . وهلك عبد الملك لأيام قلائل بين أحياء العرب . وهلك بعده ابنه عبد الرحمن وابن أخيه أحمد الذي كان صاحب طرابلس بعد أبيه ، ولحق ابنه يحيى وحفيده عبد الوهاب بطرابلس فنعهم ابن ثابت من التزول ببلده لما كان متمسكاً بطاعة السلطان ، فترلوا بزئور من بلاد دباب التي بضواحيها وأقاموا هنالك . واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك .

ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه ، وأقام عبد الوهاب بين أحياء البرانس^(٢) بالجبال هنالك ، وكان الوالي الذي تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها ، فدسّ شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك وجاء إلى البلد فيّتها ، وثاروا بالوالي فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وسبعائة وملك عبد الوهاب قابس وجاء أخوه^(٣) يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه ، فأجلب عليه مراراً يروم ملكها منه ، ولم يتهيأ له ، ونزل على صاحب الحمة فدخله عبد الوهاب في أن يمكّنه منه ، ويشترط ما شاء . وتم ذلك بينهما وأوثقه كتاباً وبعث به إليه واعتقله بقصر العروسيين ، فكث في السجن أعواماً . ثم فرّ من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستنجداً بابن وشّاح صاحبها ، فأنجده . وما زال يحلب على نواحي قابس إلى أن ملكها وتقبّض على عبد الوهاب ابن أخيه مكي فقتله أعوام تسعين وسبعائة . ولم يزل مستبداً ببلده إلى سنة ست وتسعين وسبعائة وكان عمر ابن السلطان أبي العباس قد بعثه أبوه لحصار طرابلس فحاصرها حولاً كما نذكره ، حتى استقام أهلها على الطاعة وأعطوا الضريبة فأفرج عنها . ورجع إلى أبيه فولّاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها ، ثم دخل أهل

(١) وفي نسخة ثانية : وتوافقت إليه احاديث .

(٢) وفي نسخة ثانية : بين أحياء العرب .

(٣) وفي النسخة الباريسية : عمّه يحيى .

الحامة في ملك قابس فأجابوه وساروا معه فبيّتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك فضرب عنقه ، وانقرض أمر بني مكّي من قابس ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو خير الوارثين .

* (الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس واعمالها) *

قد تقدّم لنا شأن هذا البلد لأول الفتح الإسلامي ، وأن عمرو بن العاص هو الذي تولّى فتحه ، وبقي بعد ذلك من جملة أعمال أفريقية ، تنسحب عليه ولاية صاحبها ، فلم يزل ثغراً لهذه الأعمال من لدن إمارة عُقْبَة ومن بعده وفي دول الأغالبة . وكان المعزّ لدين الله من خلفاء الشيعة لمّا ارتحل إلى القاهرة ، وعقد على أفريقية لُبْلُكَيْن ابن زيري بن مناد أمير صنهاجة ، عقد على طرابلس لعبدالله بن يخلف من رجالات كتامة . ثم لمّا وليّ تزار الخلافة سنة سبع وستين وثلاثمائة طلب منه بلُكَيْن أن يضيف عمل طرابلس إلى عمله فأجاب وعهد له بها ، وولى عليها بلُكَيْن من رجالات صنهاجة . ثم عقد عليها الحاكم بعد مهلك المنصور بن بلُكَيْن ليأنس الصقْلِيّ سنة تسعين وثلاثمائة بمدخله عاملها بمصول من صنهاجة ، وأعانه على ذلك برجوان الصقْلِيّ المتغلّب على الدولة يومئذ لمنافسته ليأنس ، فوصل إليها في ألف وخمسمائة فارس فلكها ، فرّح باديس جعفر بن حبيب لحربه في عسكر من صنهاجة ، وتراحفا يومين بساحة زنور ، ثم انقضّ عسكر يأنس في الثالث وقتل ، ولحق فله بطرابلس فاعتصموا بها . ونازلهم جعفر بن حبيب القائد ، وزحف فلفول بن سعيد ابن خزرون الثائر على باديس وابنه بأفريقية إلى قابس فحاصرها .

ثم قصد جعفر بن حبيب بمكانه من حصار طرابلس فأفرج عنها جعفر ولحق بنفوسة ، وأميرهم يحيى بن محمد فامتنع عليهم ، ثم لحق بالقبروان ومضى فلفول بن سعيد إلى طرابلس فخرج إليه فتوج بن علي ومن معه من أصحاب يأنس فلكوه ، وقام فيها بدعوة الحاكم من خلفاء الشيعة وأوطنها . وعقد الحاكم عليها ليحيى بن علي بن حمدون أخي جعفر صاحب المسيلة النازع إليه من الأندلس فوصل إليها واستظهر بفلفول على بجاية ، ونازل قابس فامتنعت عليه . ثم عجز عن الولاية ورأى استبداد

فلقول عليه بعصته فرجع إلى مصر ، واستبدَّ فلفول بطرابلس وتداولها بنوه مع ملوك صنهاجة إلى أن استبدَّوا بها آخرًا . ودخل العرب الهلاليون إلى أفريقية فخرَّبوا أوطانها وطمسوا معالمها . ولم تزل بأيدي بني خزرون هؤلاء إلى أن غلبهم عليها جرجي بن ميخائيل صاحب أسطول رجَّار ملك صقلية من الإفرنج سنة أربعين وخمسمائة ، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم كما فعل في سواحل أفريقية فأقاموا في ملكة النصراني أيامًا . ثم ثار بهم المسلمون بمداخلة أبي يحيى بن مطروح من أعيانهم وفكوا بهم . ولما افتتح عبد المؤمن المهديَّة سنة خمس وخمسين وخمسمائة وفد عليه ابن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم تكرمه وردَّهم إلى بلدهم ، وولَّى عليهم ابن مطروح إلى أن كبر سنُّه وعجز . وارتحل إلى المشرق سنة ست وثمانين وخمسمائة بإذن السيد زيد بن عمر بن عبد المؤمن عامل أفريقية من قبل عمِّه يوسف واستقر بالإسكندرية .

وتعاقبت عليها ولاية الموحدين ، ثم كان من أمر ابن غانية وقراقش ما قدَّمناه ، وصارت طرابلس لقراقش . ثم استبدَّ بنو أبي حفص بأفريقية على بني عبد المؤمن . وهلك قراقش وابن غانية ، وانتظم عمل طرابلس في أعمال الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن انقسمت دولتهم ، واقتطعت الثغور الغربية عن الحضرة . وفشل ربح الدولة بعض الشيء وتقلَّص ظلُّها عن القاصية ، فصارت رياسة طرابلس إلى الشورى ولم يزل العامل من الموحدين يحيى إليها من الحضرة إلا أنَّ رئيسها من أهلها مستبدَّ عليها ، وحدثت العصبيَّة في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها . ثم نزلها السلطان أبو يحيى بن اللحياني سنة سبع عشرة وسبعماية حين تجافى عن ملك الحضرة ، وأحسَّ بزحف السلطان أبي يحيى صاحب بجاية إليها فأبعد عن تونس إلى ثغر طرابلس ، وأقام بها وأقام أحمد بن عربي من مشيختها بخدمته .

ولما فارق ابن اللحياني تونس ويشس الموحدون من عوده أخرجوا ابنه محمد المكنى بأبي ضربة من الاعتقال ، وبايعوا له . وخرج للقاء السلطان أبي بكر ومدافعتة فهزمه السلطان أبو بكر وحمله الأعراب الذين معه على قصد طرابلس لانتزاع الأموال والذخائر الملوكة من يد أبيه . ولما أحسَّ بذلك أبوه ركب البحر من طرابلس إلى الإسكندرية كما هو مذكور في خبره ، واستخلف على طرابلس صهره محمد بن أبي عمر بن ابراهيم بن أبي حفص فقام بأمرها ، وولَّى حجابته رجلاً من أهله يشهر

البطيسي ، فساء أثره في أهل طرابلس ، وحجب عنهم وجه الرضى من سلطانه ، وحمله على مصادرتهم واستخلاص أموالهم حتى أجمعوا الثورة بالسلطان فركب السفين ناجياً منهم بعد أن تعرّض بعضهم لوداعه فأطلعه على سعايات البطيسي بهم فقتلوه لوقته ، وقتلوا قاضياً بطرابلس من أهل تونس كان يمالئ على ذلك . وتولّى كبر ذلك أحمد بن عربي . ثم هلك وقام بأمر طرابلس محمد بن كعبور فقتله سعيد ابن طاهر المزوغي وملك أمر البلد ، وكان معه أبو البركات بن أبي الدنيا فمات حتف أنفه . واستقلّ ابن طاهر بأمر طرابلس اثنتي عشرة سنة . ثم هلك وقام بأمرها ثابت ابن عمّار الزكوجي من قبائل هوّارة . وثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مغتسله عند الآذان طاهر فقتله واستبدّ به . ثم ثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مغتسله عند الآذان بالصبح ، وولّوا محمداً ابن شيخهم ثابت بن عمّار أعوام سبعة وعشرين فاستبدّ بأمر طرابلس نحواً من عشرين سنة وظل الدولة متقلّص عنه . وهو يغالط عن الإمارة بالتجارة والاختراف بها ولبوس شارتها ، والسعي راجلاً في سكك المدينة يتناول حاجاته وماعونه بيده ويخالط السوق في معاملاته ، يذهب في ذلك مذهب التخلّط والتواضع يسر منه حسواً في ارتقاء ، ويطلب العامل من تونس ؛ فيبعثه السلطان على طرابلس يقيم عنده معتملاً في تصريفه . وهو يبرأ إليه ظاهراً من الأحكام والنقض والإبرام إلى أن كان تغلب بني مرين على أفريقية . ووصل السلطان أبو الحسن إلى الحضرة على ما نذكره ، فذاوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه ، ونقل إلى الإسكندرية ماله وذخيرته . ثم اغتاله أثناء ذلك جماعة من مجريش عند داره فقتلوه ، وثار منهم للحين بطانته وشيعه . وولي بعده ابنه ثابت ، فترتّب في الإمارة في اللبوس والركوب بحلية الذهب ، واتخاذ الحجاب والبطانة .

وأقام على ذلك إلى أن اجتمع بها أسطول من تجّار النصارى أغفلوا أمرهم لكثرة طروقهم وتردّدهم في سبيل التجارة ، وكثرة ما يغشاها من سفنهم ، فغدروا ليلاً وثاروا فيها وكثروا أهلها فأسلم الحامية إليهم باليد . وفرّ مقدّمهم ثابت إلى حلة أولاد مرغم أمراء الجوّاري في انحائها^(١) فقتلوه صبراً لدمّ كان أصابه منهم في رياسته ؛ فكانت مدته ست سنين ، وقتلوا معه أخاه عماراً . واكتسح النصارى جميع ما كان بالبلد من

(١) كذا ، وفي ب : انجائها .

الذخيرة والمتاع والخرثي والماعون ، وشحنوا السفن بها وبالأسرى من العقائل والحامية مصفدين ، وأقاموا بالبلد أياماً على قلقه^(١) ورهب من الكرة لو كان لها رجال . ثم تحدثوا مع من جاورها من المسلمين في فداها فتصدى لذلك صاحب قابس أبو العباس أحمد بن مكى وبذل لهم فيها خمسين ألفاً من الذهب استوهب أكثرها من جماعة المسلمين بالبلاد الجريدية ترفلاً إلى الله باستخلاص الشجر من يد الكفر ، وذلك سنة^(٢) وخمسين ولحق ولد ابن ثابت بثغر الإسكندرية فأقاموا به يحترفون بالتجارة إلى أن هلك أحمد بن مكى سنة ست وستين وسبعائة ، وقام بأمره ولده عبد الرحمن .

فسما أبو بكر بن محمد بن ثابت إلى رئاسة أبيه ، وذكر عهود الصبا في معاهد قومه فاكترى من النصارى سفناً شحنها بصنائه وموالي أبيه ، ونازلها سنة إحدى وسبعين وسبعائة في أسطول من أساطيلهم . واجتمع إليه ذوبان العرب ففرق فيهم الأموال وأجلب عليها بمن في قراها وأريافها من الرجل ، فاقتحمها على عبد الرحمن بن أحمد بن مكى عنوة ، وأجاره العرب من أولاد مرغم بن صابر ، تولّى ذلك منهم إلى أن أبلغوه مأمنه في إيالة عمه عبد الملك بمكان إمارتهم بقابس .

واستوسق أمر طرابلس لأبي بكر هذا ، واستقل بولايتها . ودخل في طاعة السلطان أبي العباس بتونس ، وخطب له على منابر ، وقام يصانعه بما للسلطان من الضريبة ، ويتحفه حيناً بعد حين بالهدايا والطرف إلى أن هلك سنة اثنتين وتسعين وسبعائة ، وولي مكانه علي ابن أخيه عمّار ، وقام بكفالاته عمه . وكان قائده قاسم ابن خلف الله متهماً بالتشيع للصبي المخلف عن أبي يحيى ، فارتاب ودفعوه لاقتضاء المغارم من مسرته ، فتوحش الخليفة من علي وانتقض . ثم بعث إليه بأمانه فرجع إلى طرابلس ، ثم استوحش وطلب الحج فخلّوا سبيله وركب البحر إلى الإسكندرية . ولقي بها خالصة السلطان محمد بن أبي هلال عام حج فأخذ منه ذمة ، وكرّ راجعاً في السفين إلى تونس يستحث السلطان لملك طرابلس . فلما مرّ بهم راسلوه ولاطفوه واستعادوه إلى مكانه فعاد إليهم . ثم جاءته النذر بالهلكة فقرّ ، ولحق السلطان بتونس واستحثه لملك طرابلس . وبلغ الخبر إلى السلطان فبعث معه ابنه

(١) كذا ، والأصح : قلق .

(٢) كذا بياض بالأصل ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة .

الأمير أبا حفص عمر لحصار طرابلس فترل بساحتها ، وافترق عرب دباب عليه وعلى ابن ثابت ، وقام ابن خلف الله في خدمته المقام المحمود ، ووفر له جباية الوطن ومغارمه ونقل العرب إلى طاعته ويستألفهم به ، وأقام عليها حولا كريتا^(١) يمنع عنهم الأقوات ويبرزون إليه فيقاتلهم بعض الأحيان . ثم دفعوه بالضربة التي عليهم لعدة أعوام نائطة^(٢) وكان قد ضجر من طول المقامة فرضي بطاعتهم وانكفأ راجعا إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة فولاه على صفاقس وافتتح منها قابس كما قدمناه . وأقام عليّ بن عمّار على إمارته بطرابلس إلى هذا العهد ، والله مدبر الأمور بحكمته .

هذا آخر الكلام في الدولة الحفصية من الموحدّين وما تبعها من أخبار المقدّمين المستبدّين بأمصّار الجريد والزاب والثغور الشرقية ، فلنرجع إلى أخبار زنّانة ودولهم ، ويكملها يكمل الكتاب إن شاء الله تعالى .

تم طبع الجزء السادس ويليّه الجزء السابع

(١) حولا كريتا أي كاملاً .

(٢) الباطط معلق كل شيء . ويقال مفازة بعيدة النياط : أي الحد . وأظنه يقصد بها هنا : لعدة أعوام غير محدودة .

فهرس الموضوعات

- الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجليل الناشيء لهذا العهد من بقية
 ٣ أهل الدولة الاسلامية من العرب
 ٨ خبر آل فضل وبني مهنا منهم ودولتهم بالشام والعراق
 الخبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم المغرب من الطبقة الرابعة
 ١٧ واخبارهم هنالك
 ٣٠ الخبر عن الأثبج وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة
 ٣٧ الخبر عن جشم الموطنين بسائط المغرب وبطونهم من هذه الطبقة
 ٤٠ الخلط من جشم
 ٤٢ بنو جابر بن جشم
 ٤٣ العاصم ومقدم من الأثبج
 ٤٣ الخبر عن رياح وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة
 ٥١ الخبر عن سعادة العالم بالسنة في رياح ومآل امره وتصاريف أحواله
 ٥٤ الخبر عن زغبة وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة
 ٥٥ بنو يزيد بن زغبة
 ٥٨ حصين بن زغبة
 ٥٩ بنو مالك بن زغبة
 ٦٨ بنو عامر بن زغبة
 ٧٥ عروة بن زغبة
 ٧٧ الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وانسابهم وتصاريف احوالهم
 ٨٠ ذوي عبيدالله
 ٨٤ الثعالب
 ٨٧ ذوي منصور
 ٩١ ذوي حسان عرب السوس
 الخبر عن بني سليم بن منصور من هذه الطبقة الرابعة وتعدد بطونهم وذكر

- ٩٤ انسابهم وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم
- الخبر عن قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنة في سليم ومآل أمره
- ١٠٦ وتصاريف أحواله
- ١٠٧ بنو حصن بن علاق
- ١١١ ذباب بن سليم
- ١١٦ اخبار البربر والامة الثانية من أهل المغرب وذكر اوليتهم وأجيالهم ودولتهم منذ بدء الخليقة لهذا العهد ونقل الخلاف الواقع بين الناس في انسابهم
- ١٢٨ الفصل الثاني في ذكر مواطن هؤلاء البربر بافريقية والمغرب
- الفصل الثالث في ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً من الفضائل الانسانية والخصائص الشريفة الراقية بهم الى مراقي العز ومعارج السلطان والملك
- ١٣٥ الفصل الرابع في ذكر اخبارهم على الحملة من قبل الفتح الاسلامي ومن بعده الى ولاية بني الاغلب
- ١٣٩ البرابرة البتر — الخبر عن البرابرة البتر وشعوبهم ونبدأ منهم اولاً بذكر نفوسة وتصاريف أحوالهم
- ١٤٩ الخبر عن نفزاوة وبطونهم وتصاريف أحوالهم
- ١٥٠ الخبر عن لوائه من البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم
- ١٥٢ الخبر عن بني فاتن من ضريسة إحدى بطون البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم
- ١٥٥ الخبر عن زواوة وزواغة من بطون ضريسة من البرابر البتر والالمام ببعض أحوالهم
- ١٦٨ زواغة
- ١٧٠ الخبر عن مكناسة وسائر بطون بني ورصطف وما كان لمكناسة من الدول والمغرب وأولية ذلك وتصاريفه
- ١٧٠ الخبر عن دولة بني واسول ملوك سجلماسة واعمالهم من مكناسة
- ١٧١ الخبر عن دولة بني أبي العافية ملوك تسول من مكناسة وأولية امرهم وتصاريف احوالهم
- ١٧٦ اخبار البرانس من البربر ولنبداً أولاً بالخبر عن هواره من شعوبهم وذكر

- ١٨٢ بطونهم وتصارييف احوالهم وافتراق شعوبهم في عمالات افريقية والمغرب
الخبر عن أوربة من بطون البرانس وما كان لهم من الردة والثورة وما صار لهم
١٩٢ من الدعاء لإدريس الأكبر
- الخبر عن كتامة من بطون البرانس وما كان لهم من العز والظهور على القبائل
١٩٥ وكيف تناولوا الملك من أيدي الأغالبة بدعوة الشيعة
- الخبر عن سدويكش ومن اليهم من بقايا كتامة في مواطنهم
١٩٧ الخبر عن بني ثابت أهل الجبل المطل على قسنطينة من بقايا كتامة
- ١٩٩ الامام بذكر زواوة من بطون كتامة
- ٢٠٠ الخبر عن صنهاجة من بطون البرانس وما كان لهم من الظهور والدول في
بلاد المغرب والاندلس
- ٢٠١ الطبقة الاولى من صنهاجة وما كان لهم من الملك
- ٢٠٢ الخبر عن دولة آل زيري بن مناد ولاية العبيدين من هذه الطبقة بافريقية
وتصارييف احوالهم
- ٢٠٥ دولة بلكين بن زيري
- ٢٠٦ دولة منصور بن لكين
- ٢٠٧ دولة باديس بن المنصور
- ٢٠٨ دولة تميم بن المعز
- ٢١٢ دولة يحيى بن تميم
- ٢١٣ دولة علي بن يحيى
- ٢١٣ دولة الحسن بن علي
- ٢١٤ الخبر عن بني خراسان من صنهاجة الثوار بتونس على آل باديس عند
اضطراب افريقية بالعرب ومبدأ امرهم ومصاير احوالهم
- ٢١٧ الخبر عن بني الرند ملوك قفصة الثائرين بها عند التياث ملك آل باديس
بالقيروان واضطرابه بفتنة العرب ومبدأ دولتهم ومصاير أمورهم
- ٢٢٠ الخبر عن بني جامع الهلالين امراء قابس لعهد الصنهاجيين وما كان لتييم بها
من الملك والدولة وذلك عند فتنة العرب بأفريقية
- ٢٢١ الخبر عن ثورة رافع بن مكن بن مطروح بطرابلس والعرامي بصفاقس على

- ٢٢٣ مصارى واخراجهم واستبدادهم بأمر بلدهم في آخر دولة بني باديس
الخبر عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة الداعين لخلافة العبيدين
وما كان لهم من الملك والسلطان بأفريقية والمغرب الاوسط الى حين انقراضه
٢٢٧ بالموحدين
- ٢٣٨ الخبر عن ملوك بني حبوس بن ماكسن من بني زيري من صنهاجة من
غرناطة من عدوة الاندلس وأولية ذلك ومصايره
- ٢٤١ الطبقة الثانية من صنهاجة وهم المثلثون وما كان لهم بالمغرب من الملك
والدولة
- ٢٤٢ الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك وأولية
ذلك ومصايره
- ٢٥٢ الخبر عن دولة ابن غانية من بقية المرابطين وما كان له من الملك والسلطان
بناحية قابس وطرابلس واجلابه على الموحدين ومظاهرة قراقش الغزي له
على أمره وأولية ذلك ومصايره
- ٢٥٦ رجع الخبر الى ابن غانية
- ٢٦٤ الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء المثلثين ووصف
احوالهم والامام بما اتصل بنا من دولتهم
- ٢٧٠ الخبر عن لمطة وكزولة وهسكورة بني تصكي وهم أخوة هواره وصنهاجة
- ٢٧٣ الطبقة الثالثة من صنهاجة
- ٢٧٥ الخبر عن المصامدة من قبائل البربر وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب
ومبدأ ذلك وتصاريفه
- ٢٧٦ الخبر عن برغواطة من بطون المصامدة ودولتهم ومبدأ امرهم وتصاريف
احوالهم
- ٢٨٠ الخبر عن سبتة ودولة بني عصام بها
- ٢٨٢ الخبر عن بني صالح بن منصور ملوك نكور ودولتهم في غمارة وتصاريف
احوالهم
- ٢٨٣

٢٨٨	الخبر عن حاميم المتنبي من غمارة
٢٨٨	الخبر عن دولة الادارسة وهي غمارة وتصاريف احوالهم
	الخبر عن دولة حمود ومواليهم بسببة وطنجة وتصاريف احوالهم واحوال
٢٩٥	غمارة من بعدهم
	الخبر عن أهل جبال درن بالمغرب الأقصى من بطون المصامدة وما كان لهم
٢٩٨	من الظهور والأحوال ومباديء امورهم وتصاريفها
	الخبر عن دولة عبد المؤمن خليفة المهدي والخلفاء الأربعة من بنية ووصف
٣٠٥	احوالهم ومصاير امورهم
٣١٢	فتح الاندلس وشؤونها
٣١٥	فتح افريقية وشؤونها
٣١٦	فتح بقية الاندلس
٣١٧	بقية فتح افريقية
٣١٨	اخبار ابن مردنيش الثائر بشرق الاندلس
٣١٩	دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن
٣٢٠	فتنة غمارة
٣٢١	اخبار الاندلس
٣٢٣	الخبر عن انتفاض قفوصة وامسترجاعها
٣٢٤	معاودة الجهاد
٣٢٥	دولة ابنه يعقوب المنصور
٣٢٥	الخبر عن شأن ابن غانية
٣٢٩	اخباره في الجهاد
٣٣٠	الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية من قبل صاحب الديار المصرية
٣٣١	دولة الناصر بن المنصور
٣٣٢	فتح افريقية
	خبر افريقية وتغلب ابن غانية عليها وولاية أبي محمد بن أبي الشيخ أبي
٣٣٢	حفص
٣٣٥	اخباره في الجهاد

- ٣٣٦ ثورة ابن الفرس
 ٣٣٧ دولة المستنصر بن الناصر
 ٣٣٨ الخبر عن دولة المخلوع أخى المنصور
 ٣٣٨ الخبر عن دولة المخلوع أخى المنصور
 ٣٣٩ الخبر عن دولة العادل بن المنصور
 ٣٤٠ الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له
 ٣٤٢ الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون
 ٣٤٥ الخبر عن دولة السعيد بن المأمون
 ٣٤٨ الخبر عن دولة المرتضى ابن أخى المنصور
 الخبر عن انتقال أبي دبوس وتغلبه على مراکش ومهلك المرتضى وما كان
 ٣٥١ في دولته من الأحداث
 ٣٥٤ وأما هسكورة
 الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم
 ٣٥٩ بمراكش وتصاريف احوالهم
 ٣٥٩ هرغة
 ٣٦٠ تينملل
 ٣٦٠ هنتانة
 ٣٦٤ كدميو
 ٣٦٥ وريكة
 الخبر عن بني بدر امراء السوس من الموحدين بعد انقراض بني عبد المؤمن
 ٣٦٧ وتصاريف احوالهم
 الخبر عن دولة بني حفص ملوك افريقية من الموحدين ومبدأ امرهم
 ٣٧٠ وتصاريف احوالهم
 الخبر عن امارة أبي محمد بن الشيخ أبي حفص بأفريقية وهي أولية امرهم
 ٣٧٣ بها
 ٣٧٥ وقبة تاهرت وما كان من أبي محمد في تلافيا واستنفاذ غنائمها
 ٣٧٥ واقعة نفوسة ومهلك العرب والملثمين بها

- الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد بن الشيخ أبي حفص وولاية عبد الرحمن ابنه ٣٧٦
- الخبر عن ولاية السيد أبي العلا على افريقية وابنه أبي زيد من بعده واخبارهم فيها واعتراضهم في الدولة الحفصية ٣٧٧
- الخبر عن ولاية أبي محمد عبدالله بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص وما كان فيها من الاحداث ٣٧٩
- الخبر عن ولاية الأمير أبي زكريا محمد الدولة لآل أبي حفص بأفريقية ورافع الراية لهم بالملك واولية ذلك وبدائته ٣٨٠
- الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن ٣٨١
- الخبر عن فتح بجاية وقسنطينة ٣٨١
- الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان الى بجاية وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها ٣٨٢
- الخبر عن سطوة السلطان بهوارة ٣٨٣
- الخبر عن ثورة المرغي بطرابلس ومنال أمره ٣٨٤
- الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق الاندلس ووفدهم ٣٨٥
- الخبر عن الجوهرى واوليته ومال أمره ٣٨٩
- الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية ٣٩٠
- الخبر عن دخول أهل الاندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة اشيلية وكثير من امصارها ٣٩٢
- الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن عبد الكريم وتصاريف احوالهم ومال امرهم ٣٩٤
- الخبر عن بيعة المرية ٣٩٥
- الخبر عن بيعة ابن الأحمر ٣٩٥
- الخبر عن بيعة سجداسة وانتفاضها ٣٩٦
- الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بني مرين ٣٩٧
- الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي العهد بمكان امارته من بجاية تصيير العهد الى أخيه محمد ٣٩٨

- ٤٠٠ الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من الاحداث
- ٤٠٢ الخبر عن بيعة السلطان أبي عبدالله المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث
- ٤٠٢ الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني ومقتله ومقتل أبيه
- ٤٠٣ الخبر عن الآثار التي اظهرها السلطان في أيامه
- الخبر عن فرار أخيه أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن ذلك من
- ٤٠٥ الأحداث
- ٤٠٦ الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها الى الزاب
- ٤٠٧ الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية
- ٤١٧ الخبر عن الوفود من بني مرين والسودان وغيرهم
- ٤١٨ الخبر عن مقتل ابن الابار وسياسة اوليته
- ٤١٩ الخبر عن مقتل اللباني وأوليته وتصاريه أحواله
- ٤٢٠ الخبر عن انتقاض أبي علي الملياني بمليانه على يد الأمير أبي حفص
- الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد وخروجه في
- ٤٢١ رياح
- ٤٢٢ الخبر عن خروج السلطان الى المسيلة
- ٤٢٣ الخبر عن مقتل مشيخة الزواودة
- ٤٢٤ الخبر عن طاعية الافرنجة ومنازلته تونس في أهل نصرانيته
- الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبدالله بن أبي الحسين وأبي سعيد العود
- ٤٣٠ الرطب
- ٤٣١ الخبر عن انتقاض أهل الجزائر وفتحها
- ٤٣٢ الخبر عن مهلك السلطان المستنصر ووصف شيء من احواله
- ٤٣٣ الخبر عن بيعة الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور بالملخوع وذكر احواله
- ٤٣٣ الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن الحبر على الدولة
- الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحاق من الاندلس ودخول أهل بجاية في
- ٤٣٤ طاعته
- الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء السلطان أبي إسحاق ثم
- ٤٣٥ دخوله في طاعته وخلع الواثق

- ٤٣٦ الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحق على الحضرة
- ٤٣٧ الخبر عن مقتل الوثاق وولده
- ٤٣٧ الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس ابن السلطان أبي اسحق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك
- ٤٣٩ الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسنطينة ومقتله
- ٤٤٠ الخبر عن قيادة ابن السلطان العساكر الى الجهاد
- ٤٤١ الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن
- ٤٤١ الخبر عن ظهور الدعي أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره
- ٤٤٣ الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن تونس
- ٤٤٣ الخبر عن لحاق السلطان أبي اسحق بجاية ودخول الدعي بن أبي عمارة الى تونس وما كان من أمره بها
- ٤٤٤ الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول أبيه اليه
- ٤٤٤ الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء الدعي ثم انهزمه أمامه
- ٤٤٥ الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص ويبعته وما كان على أثر ذلك من الأحداث
- ٤٤٥ الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان أبي حفص على ملكه وغلبه ومهلكه
- ٤٤٦ الخبر عن استيلاء العدو على جزيرة جربة وميورقة ومنازلته المهديّة واجلابه على السواحل
- ٤٤٧ الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على الثغر المغربي بجاية والجزائر وقسنطينة وأولية ذلك ومصابيره
- ٤٤٨ الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا الى ناحية طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية في مغيبه
- ٤٥٠ الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجزيرة
- ٤٥٠ الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي دبوس داعياً لنفسه بجبهات طرابلس
- ٤٥١ الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيّد الناس حاجب بجاية وولاية ابن أبي

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص الى طاعة الأمير أبي

زكريا وانتظام بسكرة في جماعته

الخبر عن مهلك عبدالله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم بن

الشيخ رؤساء الدولة

الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من بعده

الخبر عن دولة السلطان أبي عصيدة وما كان على اثرها من الأحوال

الخبر عن نكبة عيد الحق بن سليمان وخبر بنية من بعده

الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين ومها داته

الخبر عن مقتل هداك وفتنة الكعوب وبيعهم لابن أبي دبوس وما كان بعد

ذلك من نكبتهم

الخبر عن انتفاض أهل الجزائر واستبداد ابن علان بها

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا وبيعة ابنه الأمير أبي البقاء خالد

الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله

الخبر عن سفارة الحاجب بن أبي حي الى تونس وتنكر السلطان له بعدها

وعزله

الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن عمر ومصاير أمره

الخبر عن ثورة ابن الأمير بقسنطينة وبيعة السلطان أبي عصيدة ثم فتح

السلطان أبي البقاء خالد لها وقتله

الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء الى الجزائر

الخبر عن السلف وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية

الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس ابن اللحياني لحصار جربة ومضية منها الى

الحج

الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وخبر أبي بكر الشهيد

الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة وانفراده بالدعوة

الحفصية

الخبر عنبيعة ابن مزني يحيى بن خالد ومصاير أموره

- الخبر عن بيعه السلطان أبي بكر بقسنطينة على يد الحاجب ابن عمر وأولية ذلك ٤٧١
- الخبر عن استيلاء السلطان على بجاية ومقتل ابن مخلوف وما كان من الادارة في ذلك ٤٧٢
- الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء السلطان أبي يحيى بن اللحياني على الحضرة ٤٧٥
- الخبر عن قدوم ابن عمر على السلطان ببجاية ونكبة ابن ثابت وظافر الكبير ٤٧٦
- الخبر عن منازلة عساكر بني عبد الواد ببجاية وكان في أثر ذلك من الأحداث ٤٧٧
- الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية ٤٧٨
- الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى اللحياني الى قابس وتجافيه عن الخلافة ٤٧٩
- الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر الى الحضرة ورجوعه الى قسنطينة ٤٨٠
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار ابيه من طرابلس الى المشرق ٤٨٢
- الخبر عن مهلك الحاجب ابن عمر ببجاية وولاية الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الادالة منه بابن سيد الناس ٤٨٤
- الخبر عن إمارة الأمير أبي عبدالله على قسنطينة وأخيه الأمير أبي زكريا على بجاية وتولية ابن القالون على حجابتها ٤٨٥
- الخبر عن استقدام ابن القالون والادالة منه بابن سيد الناس في بجاية وظافر الكبير في قسنطينة ٤٨٦
- الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن قالون إليه على عينه ٤٨٧
- الخبر عن مقتل مولاهم بن عمر وأصحابه من الكعوب ٤٨٨
- الخبر عن واقعة رغيث مع ابن اللحياني وزناته وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران ٤٨٩
- الخبر عن اجلاب حمزة بابراهيم بن الشهيد وتقلبه على الحضرة ٤٩٠
- الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهمزام عساكر السلطان عنها ٤٩١
- الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن

- القالون
٤٩٣
الخبر عن ولاية الفضل على بونة
٤٩٤
الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مقتل الأمير أبي فارس أخي
السلطان
٤٩٥
الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة على بني عبد الواد وما يتبع
ذلك من المصاهرة
٤٩٧
الخبر عن حركة السلطان الى المغرب وفرار بني عبد الواد وتخريب تيمرزدكت
٤٩٨
الخبر عن نكبة الحاجب ابن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن عبد
الحكم من بعده
٤٩٩
الخبر عن فتح قفصة وولاية الامير أبي العباس عليها
٥٠٢
الخبر عن ولاية الأمير بن أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد سوسة ثم اضافة
المهدية اليها
٥٠٣
الخبر عن ولاية الامير أبي عبدالله صاحب قسنطينة من الابناء وولاية بنية
من بعده
٥٠٤
الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم إجلاب بنية على الحضرة
٥٠٦
الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين من
بعد وما كان على تفيثة ذلك من نكبة ابن الحكم
٥٠٨
الخبر عن شأن الجريد واستكمال فتحه وولاية أحمد بن مكّي على جزيرة
جربة
٥١١
الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين
٥١٤
الخبر عن مهلك الامير أبي زكريا صاحب بجاية من الابناء وما كان بعد
ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي
عبدالله
٥١٥
الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية ابنه الأمير أبي حفص
٥١٧
الخبر عن زحف الامير أبي العباس ولي العهد من مكان امارته بالجريد الى
الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي
البقاء خالد
٥١٨

- الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن على إفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الأبناء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب وما تخلل ذلك من الأحداث
- ٥٢٠
- الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل على بونة وأولية ذلك ومصابره
- ٥٢٢
- الخبر عن بيعته العرب لابن أبي دبوس وواقعته مع السلطان أبي الحسن بالقيروان
- ٥٢٣
- الخبر عن حصار القصبه بتونس ثم الإفراج عن القيروان وعنها وما تخلل ذلك
- ٥٢٤
- الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على قسنطينة وبجاية ثم استيلاء أمرائها بتمهيد الملك
- ٥٢٦
- الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب
- ٥٢٨
- الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى أبي اسحق في كفالة أبي محمد بن تافراكين
- ٥٢٩
- الخبر عن حركة صاحب قسنطينة وما كان من حجابة أبي العباس بن مكى وتصاريه ذلك
- ٥٣١
- الخبر عن وفادة صاحب بجاية إلى أبي عنان واستيلائه عليه وعلى بلده ومطلبه قسنطينة
- ٥٣٢
- الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم رجوعها إلى ابن مكى
- ٥٣٥
- الخبر عن بيعته السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتح أمره السعيدة بقسنطينة
- ٥٣٦
- الخبر عن واقعة موسى بن إبراهيم واستيلاء أبي عنان بعد على قسنطينة وما تخلل ذلك من الأحداث
- ٥٣٨
- الخبر عن انتفاض الأمير أبي يحيى زكريا بالمهدية ودخوله في دولة أبي عنان ثم نزوله عنها إلى الطاعة وتصاريه ذلك
- ٥٤١
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحق على بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها
- ٥٤٢
- الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي اسحق صاحب الحضرة
- ٥٤٣

- الخبر عن دعوة الامراء من الغرب واستيلاء السلطان أبي العباس على
قسنطينة ٥٤٥
- الخبر عن وصول الامير أبي يحيى زكريا من تونس وافتتاحه بونه واستيلائه
عليها ٥٤٦
- الخبر عن استيلاء الامير أبي عبدالله على بجاية ثم على تدلس بعدها ٥٤٧
- الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين واستبداد سلطانه من بعده ٥٤٨
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على بجاية وملك صاحبها ابن عمه ٥٤٩
- الخبر عن زحف حمو وبني عبد الواد الى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس
من ايديهم بعدها ٥٥١
- الخبر عن زحف العساكر الى تونس ٥٥٢
- الخبر عن مهلك السلطان أبي اسحق صاحب الحضرة وولاية ابنه خالد من
بعده ٥٥٣
- فتح تونس وبقية عمالات افريقية ٥٥٤
- الخبر عن انتفاض منصور بن حمزة واجلابه بالعم أبي يحيى زكريا على
الحضرة ٥٥٦
- الخبر عن فتح سوسة والمهدية ٥٥٨
- الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان ٥٥٩
- الخبر عن استقلال الامراء من الابناء بولاية الثغور الغربية ٥٦٠
- الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام اعمال قسنطينة في طاعة السلطان ٥٦٢
- الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن الخلف ٥٦٤
- الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان ٥٦٥
- الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما اكتنف ذلك من الاحوال ٥٦٨
- الخبر عن انتفاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة ٥٧١
- تغلب ابن يملول على توزر وارتجاعها منه ٥٧٢
- ولاية الأمير زكريا ابن السلطان على توزر ٥٧٣
- وفاة الأمير أبي عبدالله صاحب بجاية ٥٧٣
- حركة السلطان الى الزاب ٥٧٤

- ٥٧٥ حركة السلطان الى قابس
- ٥٧٦ رجوع المتصر الى ولايته بتوزر وولاية اخيه زكريا على نفطة ونفزاوة
- ٥٧٧ فتنة الامير ابراهيم صاحب قسنطينة مع الزواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة
الأمير ابراهيم بعدها
- ٥٧٨ منازل نصارى الافرنج المهدية
- ٥٧٩ انتفاض قفصة وحصارها
- ٥٨١ ولاية ابن السلطان على صفاقس واستيلاؤه منها على قابس وجزيرة جربة
- ٥٨٢ وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز
- ٥٨٥ الخبر عن بني مزني امراء بسكرة وما إليها من الزاب
- ٥٩٥ الخبر عن رياسة بني يملول بتوزر وبني الخلف بنفطة وبني أبي المنيع بالحامة
- ٦٠٦ الخبر عن بني مكّي رؤساء قابس وأعمالها
- ٦١٣ الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها